

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مارس ١٩٩٩

المجلد الأول

العدد السابع

اتحاد المؤرخين

العرب

بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد السابع - المجلد الأول

مارس ١٩٩٩

هيئة التحرير :

أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس الاتحاد

أ. د. حسنين محمد ربيع

أ. د. سليمان إبراهيم العسكرى

أ. د. عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

أ. د. سهيل محمد زكار

أ. د. مصطفى محمد رمضان

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .
- تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتاً سنوياً فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانيات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة التسلسل الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقاً بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السابع - المجلد الأول - مارس ١٩٩٩

فك هذا العدد

- كلمة الافتتاح
رئيس التحرير
- الرواية الشفوية وأهميتها فى حفظ التاريخ
د. صلاح الدين عاوير
- النقوش والرسوم الصخرية كمصدر للتاريخ
د. حسن الشريف
- الخليج العربى : الموقع والأهمية خلال العصر البرونزى الحديث (١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق.م)
د. علاء الدين عبد المحسن شاهين
- التقاويم السبئية فى ضوء نقش حميرى جديد
أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد
- مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى (رؤية نقدية)
أ. د. محمد السيد محمد عبد الغنى
- الاستعراضات العسكرية - عند الرسول ﷺ وأساليبها
د. عبد العزيز بن عبد الله السلومى

- العباسيون والأمويون (دراسة فى العلاقات بين البيتين ١١ - ١٢٥ هـ)
د. محمد بن ربيع بن هادى مدخلى
- المقدسى مؤرخاً لبلدان العرب من خلال كتابه : (أحسن التقاسيم)
د. عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح
- المنهج التاريخى للحافظ أبى الطاهر السلفى فى تأليف كتابه (معجم السفر)
د. هشام عطية عطية أحمد
- عمران سبتة كما شاهده ووصفه الأنصارى السبتى
د. كمال عنانى إسماعيل
- علم الجراحة فى الأندلس
د. حنان عبد الفتاح مطاوع
- ابن أبى طى : مؤرخاً وأديباً
أ. د. محمد زيود
- موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل فى ضوء وثائق الخارجية المصرية
د. عبد الحميد عبد الجليل شلبى
- عرب الخليج فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية ويوميات جبرون لشركة الهند الشرقية الإنجليزية
د. محمد مرسى عبد الله
- سياسة ألمانيا تجاه الشريف حسين فى الحرب العالمية الأولى
د. وجيه عبد الصادق عتيق

كلمة الافتتاح :

مدرسة التاريخ

إنسان الماضي هو إنسان الحاضر ، خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم ،
وصوره فأحسن صورته . والحسن هنا لا يقتصر على تناسق الأعضاء وجمال
الصورة ... وإنما يمتد إلى الجوهر ليشمل وظائف هذه الأعضاء ، وتكاملها ،
وخطورة مهامها ، وقدرتها على تكيف حياة البشر ، وفق طبيعة الزمان والمكان .
فالقلب هو القلب على تعاقب الأزمنة والعصور ، يحب ويكره . والعقل يفكر
ويتدبر ، ويحذر ويهذى . والحواس تربط الإنسان بالمحيط الخارجى ، ليتفاعل معه ،
يتأثر به ويؤثر فيه ... وهكذا تعاقبت العصور ، وظل الإنسان على ما خلق عليه ،
فى صورته وبنيته ، وقدراته ، وأسلوبه فى مواجهة حوادث الدهور . ربما تعرض
بسبب انتشاره فى بيئات متباينة ، وما صحب ذلك من تعدد السلالات ، لتباين
فى الفروع ، هذه سلالة فى إقليم معين غلبت عليها الشقرة ، وهذه أخرى فى
إقليم ثان غلبت عليها السمرة . هذه سلالة تتميز بطول القامة ، وهذه أخرى
تتصف بالقصر ... ولكن مثل هذه الفوارق تكون فى الظاهر لا فى الباطن ، أو
بمعنى آخر فى القشرة الخارجية وليست فى جوهر البناء . وفيما عدا ذلك يبقى
الإنسان على نفس الصورة التى اختارها الله - عز وجل - له ﴿ فى أى صورة ما
شاء ركبك ﴾ .

ومهما تباينت نظرة الإنسان إلى الحياة على مر العصور ، وذلك تبعاً
لاختلاف الأجواء والظروف التى تحيط به فى كل عصر ، مما يؤثر فى سلوكه ،
والأسلوب الذى يمارس به حياته ، ويعالج به أوضاعه ... فإن الإنسان يظل هو
الإنسان - بفكره ، وطاقاته وإمكاناته ، وقدراته على مواجهة ما يصادفه من

صعاب . ومن هنا تنبع أهمية تجارب الماضي فى مواجهة مشاكل الحاضر . وبعبارة أخرى تنبع أهمية التاريخ كمدرسة عليا يستمد الإنسان من تجاربها الكثير مما يعينه على تخطى ما يواجهه من أزمات . وإذا كانت أحداث التاريخ لا تتطابق ، لأن لكل عصر أجواءه ومستوياته الحضارية ؛ فإنها لا بد وأن تتشابه ، لأن الإنسان الذى صنع الماضى هو نفس الإنسان الذى يصنع الحاضر . هناك تباين فى المظهر ولكن لا خلاف فى الجوهر .

وهكذا يبدو التاريخ فى صورة مدرسة كبرى ، مليئة بالتجارب التى تصقل فكر الإنسان ، وتأخذ بيده ، وترشده فى مسيرته الكبرى لبناء حاضر أفضل والتخطيط لمستقبل أقوم .

لقد صدق السلطان الظاهر بيبرس عندما قال : « سماع التاريخ أعظم من التجارب » . وصدق معاصره ابن خلدون الملقب « علامة الأمة وإمام الأئمة » عندما سجل فى مقدمته الخالدة إن التاريخ « فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم : حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه » .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

سعيد عبد الفتاح عاشور

الراوية الشفوية وأهميتها فى حفظ التاريخ

د. صلاح الدين عاهور (*)

تعريف التاريخ الشفوى :

التاريخ الشفوى هو التاريخ الذى يستمد من معلومات مروية بعناية ومنهجية ، رواها باحث متمرس فى لعرض صورة من صور الماضى البعيد أو القريب .

وهكذا يكون التاريخ الشفوى هو التاريخ الحى الذى تناقله الأشخاص ، وعاش فى ذاكرتهم . فهو صوت المعاصرين الحى الذى يفند المفاهيم القديمة المغلوطة والمبالغات التى ربما تطرقت إلى الصفحات المدونة فى سجلات الواقع التاريخى .

وللتاريخ الشفوى منهج يتصف بالديموقراطية لأنه يعتمد فى روايته للحدث على الخاصة والعامة ، على الحاكم والمحكوم ، ويعكس بعمق قوة عواطف الشخص ، والأبعاد الإنسانية للشعب والمجتمع ، فهو لا يهمل تجارب عامة الناس ، وإنما يهتم بقضاياهم وأحوالهم ، ويشركهم فى تدوين تاريخهم كذلك يعنى هذا المنهج . بدراسة الماضى ، من خلال الكلمة المحكية المحفوظة فى الذاكرة ، والمنقولة مشافهة . ومعنى ذلك أنه يشتمل على :

التراث الشفوى : أى دراسة الماضى البعيد من خلال الروايات الشفهية الشائعة فى مجتمع معين والمنقولة عبر عدة أجيال ، أو عن جيل واحد على الأقل .

(*) أستاذ مشارك فى فرع التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب - الجامعة الإسلامية - غزة .

وتاريخ العصر : أى دراسة الماضى القريب من خلال روايات الأفراد وذكرياتهم عن أحداث حياتهم ، وخبراتهم ومشاهداتهم ، خاصة تلك الأحداث التى شاركوا فى صنعها شخصياً أو كانوا شهود عيان لها (١) .

إن شفاهية الثقافة التى لم تمسها مطلقاً أية معرفة بالكتابة أو الطباعة أو التسجيل الآلى ، « شفاهية أولية » . وهى أولية بالتقابل مع « الشفاهية المتطورة » التى تتميز بها الثقافات ذات التكنولوجيا العالية فى الوقت الحاضر، حيث تحافظ شفاهية جديدة على وجودها واستمرارها فى وظيفتها من خلال المسجل والفيديو والتلفاز والوسائل الإلكترونية الأخرى التى يعتمد وجودها وأداؤها لوظيفتها على الكتابة والطباعة .

أما الثقافة الأولية الشفوية بالمعنى الدقيق فتكاد تنعدم اليوم ؛ ذلك أن ثقافات اليوم تعتمد على الكتابة ، ولديها شئ كثير من الخبرة بتأثيراتها ، ومع ذلك فإن كثيراً من الثقافات الثانوية لا تزال تحتفظ بدرجات متفاوتة بالطابع العام الذى تتصف به الشفاهية الأولية (٢) .

والتاريخ الشفوى يتطلب من الباحث مهارة جيدة فى الإفادة من العلاقات الإنسانية ، كما يتطلب من الراوى اهتماماً ثابتاً ودائماً بالموضوع (٣) .

إن الكثير من المصادر المدونة التى يستشهد بها المؤرخون اليوم كانت فى الأصل مصادر شفوية .

وعلى هذا الأساس فإن الوثائق المدونة ليست أكثر أهمية للتاريخ من الروايات الشفهية .

إن التاريخ الشفهى يُقدم لنا معنى للمكان والمجتمع كما كان متاحاً للناس ، وفى الوقت ذاته يُلقى ضوءاً على السمات الواسعة للتاريخ - خاصة التاريخ الاجتماعى - .

وتتضمن الممارسة الحالية للتاريخ الشفهي افتراضين فيهما الكثير من الجاذبية هما :

الأول : وهو الأكثر وضوحاً - يقول أن الذكريات الشخصية يُنظر إليها على أنها وسيلة فعالة لبعث الماضي - أى شهادة جديرة بالثقة فى الحياة البشرية كما كانت تسير فعلاً بصفة واقعية .

فالتاريخ الشفهي يُقدم ببساطة وسائل جديدة لتحقيق وتوضيح ما كانت عليه الأشياء فعلاً ، ويعتمد على تجارب الناس فى الماضى وإلى أقصى درجة ممكنة .

ثانياً : هناك الكثير من المؤرخين الشفهيين يرفضون أن يكونوا تحت راية المؤرخين المحترفين . وهم ينظرون إلى التاريخ الشفهي كخيار ديمقراطى يتحدى احتكار النخبة الأكاديمية ، ويرون أنه فى ظل التاريخ الشفوى يكون لعامة الناس دور فى التاريخ ، بل أيضاً دور فى إنتاج المعرفة التاريخية مع مضامين سياسية مهمة (٤) .

وهكذا فإن التاريخ الشفوى يُتيح الفرصة للراغبين من كافة الفئات للمشاركة فى تسجيل التاريخ ، بشرط أن يكون ذلك تحت إشراف مختصين فى أهل العلم والدراية ، حيث أن التاريخ الشفوى يتم الوقوف عليه وتسجيله عن طريق المقابلات الشفهية ، ومن ثم فإنه يتطلب منهجاً خاصاً يُدرّكه ويُطبقه المختصون فى هذا المجال .

تاريخ الراوية الشفوية :

يرتبط الكلام بالوعى ، بمعنى إن الكلام غير منفصل عن وعينا . وقد أسر الكلام لبَّ البشر ، ودفعهم إلى التأمل الجاد فيه منذ المراحل المبكرة جداً من الوعى ، قبل أن تظهر الكتابة بزمان طويل . تاريخ الشعوب فى كل أنحاء العالم

غنى بالملاحظات حول هذه الظاهرة الإنسانية المدهشة ، ظاهرة اللغة ، فى صورتها الشفاهية الأصلية ، والتعبير عن الأحاسيس والرغبات بحركات الفم واللسان .

وقد استمر الاعتماد على الكلام الشفاهى دون فتور أو كلل لقرون طويلة حتى بعد أن شاع استخدام الكتابة . وبعبارة أخرى فإن المؤرخين الأوائل اعتمدوا بشكل أساسى على الروايات الشفوية التى تتناقلها الألسن .

من ذلك أن السومريين اعتمدوا على التواتر أى نقل الروايات من جيل إلى آخر مشافهة ، حتى غدت هذه الأحداث مقبولة ومعتمدة مثل ملحمة جلجامش .

أما هوميروس شاعر اليونان العظيم من القرن العاشر قبل الميلاد فقد جمع التراث الشفوى للإغريق ونظّمه فى ملاحم أصبحت تنسب إليه وأشهرها الإلياذة ، والأوديسة .

أما المؤرخ اليونانى هيروdotus « أبو التاريخ » فقد اعتمد على الروايات الشفوية بالإضافة إلى مشاهداته ، وكتب تاريخاً عالمياً .

كذلك نحا المؤرخ اليونانى توسيديدس فى كتابته للتاريخ على نهج أستاذه هيروdotus فكتب تاريخاً للحرب البلبونيزية التى عاصرها معتمداً على مشاهداته وروايات شهود العيان من الجنود وغيرهم .

واشتهر هيروdotus وتوسيديدس بمقارناتهما المصادر المكتوبة بالتاريخ الشفوى .

وعلى نهج هؤلاء سار المؤرخون الرومان .

إما الفردوسى « الفارسى » فقد دوّن الملاحم البطولية لبلاده بشكلها النهائى باللغة الفارسية ، وذلك فى القرن الحادى عشر ، وهى التى عُرفت بالشاهنامه « بطولة الملوك » معتمداً فى ذلك على التقاليد المروية ، والتاريخ الشفوى .

وهكذا كان للتاريخ الشفوي مصداقية واعتبار كمصدر للتاريخ ، وكان دائماً يُقارن بما هو مكتوب ، وترجح كفته حين الاختلاف بينه وبين ما هو مكتوب .

ولكن حدث منذ القرن السادس عشر فصاعداً أن أخذ الإحساس بالعلاقات المعقدة بين الكتابة والكلام يزداد . غير أن سيطرة النصية على عقول الباحثين سيطرة محكمة تجعلنا دائماً فى حاجة إلى الرجوع إلى الرواية الشفوية .

ولما كانت النقلة من الكلام الشفاهى إلى الكلام المكتوب فى جوهرها نقلة من الصوت إلى الفراغ المرئى . فإن تأثيرات الطباعة هنا على استخدام الفراغ المرئى يمكن أن تكون بؤرة الاهتمام المركزية ، وإن لم تكن الوحيدة ، ولا تبرز هذه البؤرة العلاقة بين الطباعة والكتابة فحسب بل تبرز علاقة الطباعة بالشفاهية التى لا تزال باقية فى الكتابة ، وفى ثقافة الطباعة المبكرة .

وبعبارة أخرى فإن الكتابة أعادت تشكيل الكلمة المنطوقة ، شفاهية الأصل فوضعتها فى الفراغ المرئى . أما الطباعة فقد رسخت الكلمة فى هذا الفراغ على نحو أكثر حسماً .

فالتباعة تُشجع على الإحساس بالاكتمال ، وهو الإحساس بأن ما هو قائم فى نص ما قد استوفى الغاية ؛ ووصل إلى حالة الكمال ، وهذا الإحساس يؤثر على الإبداعات الأدبية ، كما يؤثر على العمل التحليلى التاريخى .

الرواية الشفوية عند المسلمين :

لعبت الرواية الشفوية فى التاريخ العربى والإسلامى دوراً مميزاً ، حيث نشأ علم التاريخ على هامش العلوم الشرعية وفى مقدمتها علم الحديث ، واعتمد المؤرخون المسلمون نفس مناهج علماء الحديث ، وهى الإسناد والجرح والتعديل

لمعالجة الروايات الشفوية . ومن هنا نقول أن منهج التاريخ الشفوي هو منهج أصيل عند المسلمين .

كان العرب يتناقلون التاريخ مشافهة من جيل إلى جيل ، فأحاديث الحروب بين القبائل المختلفة التى سُميت بأيام العرب ، والأنساب ، والتفاخر بها ، وقصص الكرم وسيرة الملوك ، وغير ذلك من الأمور ، والتى كانت تتسم بالغموض والخيال وعدم الدقة ، كانت نواة لنشأة علم التاريخ ، حيث أن كثيراً من المؤرخين المسلمين استمدوا منها أخبارهم ودونوها .

وقد بدأ تدوين هذه الأساطير والأخبار والسير فى العصر الأموى (٥) إذ كان معاوية بن أبى سفيان يستمع كل ليلة إلى شئ من أخبار العرب وأيامهم وأخبار العجم وملوكهم ، وكان يأتيه من يقرأ له من الكتب عن هذه الأخبار والسير (٦) .

وكان للدين الإسلامى أثر كبير فى الاهتمام بعلم التاريخ عند العرب وتطوره ، لا سيما وأن القرآن الكريم أورد شيئاً من أخبار العرب قبل الإسلام منها ما يتعلق بقبائل عاد وثمود وملوك اليمن وقصص الأنبياء .

كذلك للرسول ﷺ كتاب يكتبون ما ينزل به الوحي عليه من القرآن على جريد النخل والحجارة والجلد والعظم ... إلخ ، وقد جُمع القرآن فى عهد أبى بكر الصديق باقتراح من عمر بن الخطاب الذى خشى أن يضيع شئ من القرآن بعد استشهاد عدد كبير من حفظة القرآن فى حروب الردة ، فقام بجمعه زيد بن ثابت كاتب الوحي ، وقدمه لأبى بكر الذى خلفه لعمر ثم ظل عند ابنته حفصة زوج الرسول ﷺ .

أما الجمع النهائى للقرآن فقد تم فى عهد عثمان بن عفان .

وأما حديث الرسول ﷺ فيتصل اتصالاً وثيقاً بنشأة التاريخ عند المسلمين بعد القرآن . فقد روى الصحابة حديث الرسول ﷺ وتناقلوه مشافهة ، وأخذوا بعد ذلك التابعون الذين سمعوا عن الصحابة .

ولم يقتصر الحديث فى البداية على الحفظ والرواية الشفوية فقد كتبه البعض مثل عبد الله بن عمر وابن العاص .

قال أبو هريرة : « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا اكتب » (٧) .

على أن المسلمين كانوا يروون معظم الأحاديث شفاهاً ، فالتدوين لم يكن كاملاً ، ولم يكن تدويناً بالمعنى الصحيح ، وقد تحاشاه المسلمون مخافة اختلاطه بالقرآن الكريم ، إلى عصر عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) حيث أمر قاضية على المدينة - أبا بكر محمد بن عمر ابن حزم - أن يكتب ما كان من حديث رسول الله ﷺ وسنته خوفاً من ضياع العلم وذهاب العلماء (٨) .

أما الذين كان لهم شرف صحبة رسول الله ﷺ فقد اشتركوا فى جهاد الكفار وتفرقوا فى البلدان التى فتحها المسلمون وكانوا يعلمون أهلها الدين وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار ، فأهل المدينة المنورة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - وأهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وأهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - وأهل مصر كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - وهكذا... (٩) .

أما الخلفاء العباسيون فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء لتأييد خلافتهم وكان لهذه الرعاية أثرها فى تنشيط حركة جمع الحديث فظهرت صحيفة عبد الله بن لهيعة المصرى (ت ١٧٤) وموطأ الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩) وكان هذا تمهيداً لظهور التدوين المنظم للحديث فى القرن الثالث الهجرى حيث ظهرت مجموعة من أمهات كتب الحديث

أهمها صحيح البخارى (ت ٢٥٦ هـ) ، وصحيح مسلم (ت ٢٦١ هـ) ،
وسنن أبى داود (ت ٢٥٧ هـ) ، وسنن الترمذى (ت ٢٧٩ هـ) ،
والنسائى (ت ٣٠٣ هـ) وسنن ابن ماجه (ت ٢٧٣ هـ) .

ولاشك فى بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة
الصلة بالحديث والسنة النبوية الشريفة ، وكان الاعتماد فيه أولاً على الرواية
الشفوية ، وذلك أن علم التاريخ عند المسلمين كان يهدف فى البداية إلى
دراسة سيرة الرسول ﷺ وأعمال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين -
والجماعة الإسلامية الناشئة ، وأخبار الغزوات والجهاد ، وكان الاعتماد فيه
أيضاً على الرواية الشفوية قبل كل شئ .

وبهذا ندرك أن طبيعة علم التاريخ عند المسلمين لم تختلف عن طبيعة علم
الحديث ، اللهم إلا فى هدف كل منهما ، ونوع الروايات التى يعنى بها ،
فالمحدثون يعنون بالروايات التى تهتم الفقه (عبادات ، معاملات ، أخلاق ... إلخ)
بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه إلى سرد الحوادث . فالحديث دراية
ورواية ، والتاريخ عند المسلمين دراية ورواية أيضاً . والعلمان اشتركا فى المصادر
والمنهج ، ولكن من المعروف أن المحدثين عنوا بالإسناد عناية كبيرة فظهر عندهم ما
يعرف باسم (الجرح والتعديل) أى نقد الرواة .

واستفاد المؤرخون من هذا الأمر فظهرت كتب الطبقات معتمدة
على نفس المنهج ، ومنها طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) ، وطبقات
الذهبى (٨٤٨ هـ) .

أما أقدم الكتب التاريخية التى جمعت بين علمى الحديث والتاريخ فهى
كتب المغازى والسير التى بدأت فى المدينة المنورة ثم انتقلت إلى الأمصار فى
القرن الثانى للهجرة .

وكانت هذه الكتب تبحث فى سيرة الرسول ﷺ وغزواته وتجمع أخبار هجرة
المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأخبار غزوات الرسول ﷺ ، وأهم أحداثها .

ومن أقدم كُتّاب هذا الفرع من التاريخ عروة بن الزبير (ت ٩٢ هـ)
وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥ هـ) ، وشرحبيل بن سعد
(ت ١٢٣ هـ) وعبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٣٥ هـ) ،
وعاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠ هـ) ، ووهب بن منبه (١١٠ هـ) .
أما محمد بن مسلم الزهرى (ت ١٢٤ هـ) الذى كان رائداً لعلم التاريخ
الشفوى ، فقد اشتهر بسعة معرفة وقوة ذاكرته . وكان محباً لهذا العلم
شغوفاً به ، فكان لا يُبقى فى المجلس شاباً ولا كهلاً ولا عجوزاً ولا كهلة
إلا سألهم . وقد درس فى المدينة وتنقل بين الحجاز ودمشق وغيرها ،
دوّن الحديث والأخبار على غير المؤلف فى ذلك الوقت ، وكان يقول :
(ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ولا بذله بذلى) (١٠) .

كتب الزهرى - معتمداً على الرواية الشفوية - عن مواضيع كثيرة .
وظهر ذلك فى مجموعة الأحاديث المسماة (الزهريات) ، وهى تشمل
قوائم المهاجرين إلى الحبشة ، والمشاركين فى بيعة العقبة ، والمقاتلين فى
بدر . وقد تناول حياة الرسول ﷺ ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، وتاريخ
بنى أمية ، وكان يُدخل الشعر فيما يروى .

وقد أعار الزهرى السند أهمية كبرى حيث عمد إلى جمع أسماء رواة الخبر
الواحد ، وتوحيدهم ، ثم رواية الخبر نفسه (١١) .

وبعد الزهرى أصبح المؤرخون يجمعون بين التاريخ المكتوب والتاريخ
الشفوى ، فقد كان ما ألفه من كتب أساساً اعتمده المؤرخون بعده ، ومنهم معمر
ابن راشد اليماني البصرى (ت ١٥٠ هـ) الذى ألف كتاباً فى الحديث والمغازى
ناقلاً أكثر رواياته عن الزهرى .

أما أشهر تلاميذ الزهرى فهو محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) الذى
ألف كتاباً فى السيرة يتكون من ثلاثة أقسام (المبتدأ والمبعث والمغازى)
تناول فى القسم الأول تاريخ الخليقة إلى ما قبل الإسلام ، والقسم الثانى

حياة الرسول ﷺ في مكة والهجرة ، والقسم الثالث سيرة الرسول ﷺ في المدينة ومغازيه .

ولم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن هشام في سيرته المعروفة . وكان ابن هشام قد نقله عن تلميذ ابن إسحاق - البكائي - بعد إجراء بعض التعديلات والحذف (١٢) .

ومن أعظم الذين خلفوا ابن إسحاق في الكتابة عن المغازي محمد بن الواقدي (ت ٢٠٧هـ) . ومن تلاميذ الواقدي محمد بن سعد صاحب كتاب (الطبقات) . وامتاز ابن سعد بذكر النص الكامل للكثير من الوثائق الأصلية مع الاهتمام بالسند ، ومثل هذا المعجم التاريخي في تراجم النبي ﷺ والصحابة والتابعين يؤلف حلقة جديدة في الوصل بين علم الحديث وبين الرواية التاريخية .

إن مؤرخي السيرة والمغازي والفتوحات الإسلامية والطبقات بكتابتهم المعتمدة على الرواية الشفهية مهدوا للمؤرخين الذين كتبوا بعدهم في التاريخ ، ورسموا لهم منهجاً يسرون عليه في التحقيق والكتابة .

و استمر المؤرخون في العصر العباسي في المزج بين الرواية المكتوبة والرواية الشفهية . ومن أشهر المؤرخين في هذا العصر ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) الذي لم يكن مؤرخاً فحسب بل كان عالماً في النحو واللغة والنقد الأدبي والفقه . ومن مؤلفاته التاريخية كتاب (المعارف) و (الإمامة والسياسة) و (عيون الأخبار) .

واليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) الذي كان مؤرخاً وجغرافياً صاحب كتاب (البلدان) وكتاب عرف باسمه (تاريخ اليعقوبي) .

وأبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ) وهو بالإضافة إلى كونه مؤرخاً فقد كان من علماء اللغة والنبات والهندسة والحساب ، وهو صاحب

كتاب (الأخبار الطوال) يتحدث فيه من آدم عليه السلام إلى آخر أيام الخليفة العباسي المعتصم .

أما أشهر المؤرخين المسلمين فهو الطبرى (ت ٣١٠ هـ) الذى كان محدثاً وفقهياً ومفسراً صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك) الذى اعتمد عليه المؤرخون من بعده أمثال مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وأبو الفدا ، والذهبي .

بدأ الطبرى كتابه بابتداء الخلق ، واستمر حتى سنة ٣٠٢ هـ . ويعتبر كتابه أول كتب التاريخ الشاملة عند المسلمين ، رتبته على السنين الهجرية ، واتبع فيه طريقة الإسناد إلى رواية الحوادث بالتسلسل .

واعتمد الطبرى فى تأليفه هذا الكتاب على الروايات الشفوية التى جمعها عن شيوخه وعن المعاصرين والتابعين لهم ، واستفاد من أسفاره المتعددة إلى مصر والشام والعراق وغيرها ، كما اعتمد على الكتب التى كانت موجودة فى عصره .

أما المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) فقد ساه فى طلب العلم فطاف أكثر أجزاء العالم الإسلامى وابتكر طريقة جديدة فى تأليف التاريخ ، وهى ترتيب الحوادث تحت رؤوس موضوعات من الشعوب ، والملوك والأسرات . ولم يتبع ترتيب الحوادث تعاقب السنين الهجرية كما فعل الطبرى ، وتبعه فى هذا ابن خلدون وغيره من المؤرخين .

ألف المسعودى كتاب (مروج الذهب ومعان الجواهر) وهو كتاب تاريخى جغرافى عظيم القيمة ، وكتاب (التنبية والإشراف) وقد أطلق المؤرخون على المسعودى اسم هيردوت العرب ، وجمع المسعودى بين الرواية المكتوبة والتاريخ الشفوى .

ومن أشهر المؤرخين المسلمين مسكويه (ت ٤٢١ هـ) صاحب كتاب (تجارب الأمم) . وقد اعتمد على الطبرى بدرجة كبيرة فى

الحوادث التى لم يدركها ، ثم اعتمد على الروايات الشفوية حيث كانت له علاقة بأكبر الشخصيات فى عصره إذ كان أميناً لمكتبة ركن الدولة الفضل بن العميد، ثم دخل فى خدمة عضد الدولة بن بويه . ولم يكن مسكويه مؤرخاً فحسب بل كان فيلسوفاً وطبيباً وسياسياً محنكاً . فكان قادراً على جمع المعلومات من مصادرها الصادقة ، وكان موضوعياً لدرجة كبيرة ، فتعرض فى كتابه لعجز سيف الدولة الحمدانى ولم يخف هزيمته أحياناً أمام البيزنطيين ، مع أن سيف الدولة كان يعتبر بطل الإسلام والمجاهد الأكبر فى زمانه ، ولكن مسكويه إلتزم بالحقيقة .

إن اعتماد مسكويه على الرواية الشفوية جعل أحكامه صادقة لا سيما وأنه كان مؤرخاً حاذقاً لا يبغي إلا الحقيقة .

ومن المؤرخين القدماء من كتب عن أحداث عصره التى شاهدها بأم عينيه أو فترة قريبة العهد به ، أى سبقتة بفترة قصيرة ، فاعتمد على الرواية الشفهية حيث كان المؤرخ يتصل بأعلام المعاصرين وكبار رجال الجيش والإدارة ويسمع منهم الأحاديث عن الموضوعات المختلفة . وكان بعض أولئك المؤرخين يشغل منصباً هاماً فى الدولة (دواوين - إدارة - ولاية - جيش ... إلخ) فكان اعتمادهم عظيماً على اتصالهم بالرجال والأحداث نفسها .

ولهؤلاء المؤرخين أهمية خاصة فى الكشف عن القيم الأخلاقية فى عصرهم مما يتجلى فى المثل العليا والأهداف عند الأشخاص الذين يصورونهم ، كما أننا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نستنبط من مؤلفاتهم بيانات كثيرة عن الحياة اليومية فى عصرهم .

ولكن رغم اعتماد مؤلفاتهم كمصادر أصلية إلا أنه يجب مراعاة قواعد البحث العلمى من حيث نقد المصادر والروايات ... إلخ .

أهمية التاريخ الشفوي :

إن الكلمة المنطوقة وسط كل الآفاق الرائعة التي تتيحها الكتابة ، لا يزال لها حضور وحياة . ذلك أن كل النصوص المكتوبة لا بد لها بطريقة ما ، - مباشرة أو غير مباشرة - ، من الارتباط بعالم الصوت ، الموطن الطبيعي للغة ، كي تعطى معانيها .

وقراءة النص تعنى تحويله إلى صوت ، جمهورياً كان أو في الخاطر ، مقطعاً في القراءة البطيئة ، أو اختزالاً في القراءة السريعة الشائعة في الثقافات ، ذات التكنولوجيا العالية (١٣) .

فالكتابة لا يمكن أبداً أن تستغنى عن الشفاهية وجمع الروايات الشفوية، وتوثيقها عمل هام جداً فهو يحفظ خبرات وتجارب كانت ستنسى أو تتحول في أحسن الأحوال إلى خرافات ، بفعل تناقلها مشافهة من شخص إلى آخر ، ومن جيل إلى جيل .

إن فهما أعمق للشفاهية الأصلية أو الأولية يمكننا من فهم عالم الكتابة الجديد فهما أفضل .

يقال أن ذكريات الرواي مهما كانت دقيقة ، ومفعمة بالحياة ، فإنها تمر بتصفية من خلال التجارب اللاحقة ، وإنها من الجائز أن تتأثر بما تم استيعابه من المصادر الأخرى « خاصة وسائل الإعلام » .

يضاف إلى ذلك أنها ربما تتأثر بشعور التوق المفرط إلى الماضي . ومن ناحية أخرى يمكن أن تحرف ذكريات الرواي بشعور الأسى ، بخصوص الحرمان في مرحلة الطفولة (١٤) .

ويقال أن الذاكرة تنتقى ملامح معينة للمشهد أو الحدث ، وتفسره في ضوء الخبرات السابقة ، والتوقعات . وعند المقابلة يميل الرواي إلى التركيز على

إحساسه وتكون توقعاته عن الحدث أكثر مما شاهده فعلاً ، وبحكم منطق ما كان يجب أن يحدث .

ولكن هذا ليس مبرراً كافياً لعدم الاعتراف بالتاريخ الشفوي كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية ، فلكل المصادر مشكلاتها .

والواقع أن العاطفة والغايات تؤثر في التاريخ المكتوب ربما أكثر من تأثيرها في الراوية الشفوية ، والباحث اللبق لا يقبل المصادر على علاتها ، وإنما يتخذ منها دائماً موقفاً نقدياً ومتشككاً سواء كانت مكتوبة أو غير ذلك .

والجدير بالذكر أنه عندما تختلف الروايات الشفوية مع المصادر المكتوبة فإن الروايات الشفوية تصحح المصادر المكتوبة ، أما العكس فإنه نادر الحدوث (١٥) .

إن إنتاج تاريخ عام ومشارك من الذكريات المنطوقة لأفراد الطبقة العاملة ، أو للمزارعين ... إلخ يعتبر نشاطاً إيجابياً ومهما بشأن الإندراج في أشكال أخرى جديدة ومتنوعة من سياسات المجتمع ، فهو يبرز مشاكل وآلام وآمال وطموحات هذه الطبقة من الشعب أو تلك (١٦) .

إن من عوامل أهمية التاريخ الشفوي أنه لا يهمل الأبعاد غير المرئية في النشاط الإنساني والبناء المجتمعي ، فالتاريخ ليس فقط الأحداث الكبيرة الضخمة ، الظاهرة للعيان بل تشترك معها الأحداث غير المرئية ، فتشكيل المجرى الرئيسى للتاريخ ، فكتابة الحدث تبقى ناقصة إذا لم تتضمن الانفعالات والمشاعر والتفاصيل المصاحبة للحدث .

ففي العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦م على قطاع غزة قامت إسرائيل بارتكاب مجازر رهيبة في معظم مدن القطاع ، خاصة في مدينة رفح حيث

جمعت قوات الاحتلال خلال ساعة كل رجال من سن ١٦ سنة إلى سن ٦٠ سنة فى المدرسة الأميرية ، وذلك بعد أن أعلنوا عن هذا الأمر فى الساعة السادسة صباحاً ، وكل من تخلف عن الحضور إلى هذه المدرسة أمر الجنود بقتله ، وكل من لم يسمع النداء وبقي فى بيته قتلوه أيضاً على باب منزله .

أما من ذهب إلى المدرسة فإنه تعرض قبل دخوله للضرب المبرح.

هذا الحدث قد يرد فى كتب التاريخ - علماً أنه لم يورد حتى الآن- ولكن تبقى معاناة أسر أولئك الشهداء التى تكمن فى الزاوية الغير مرئية ، والتى منها أن امرأة حينما شاهدت ابنها قتيلاً ضربت بكفيها على رجليها فشلت ، وأصبحت مقعدة لا تستطيع حراك رجليها إلى أن ماتت . وهناك أب شاهد ابنه مقتولاً فحملق فيه برهة من الزمن فقد بعدها بصره ، وأصبح ضريباً إلى أن مات بعد فترة قصيرة .

هذه الأحداث وغيرها كثير لم تسجل ، ويبقى العبء ، بل الواجب على المؤرخين الذين يعتمدون التاريخ الشفوى كمصدر من مصادر التاريخ، إبرازها ، فما زال بعض من عاصر هذا الحدث حياً يرزق .

إن التاريخ الشفوى إذا أحسن استخدامه يشكل مصدراً لا يقل أهمية أو دقة عن المصادر المكتوبة . ومع أن الروايات الشفوية أقل بقاء فى العادة وأكثر عرضة للتحريف من المصادر المادية والمكتوبة ، إلا أن بعض الوثائق الشفوية كالحكايات والأغاني الشعبية والأشعار تحفظ فى الذاكرة ، وتنقل من جيل إلى جيل ، دون تغيير تقريباً ، وتحفظ فى ذاكرة الشعب لفترات طويلة جداً .

ولكن إعداد الوثائق الشفوية ومعالجتها يختلف عنه فى المصادر المكتوبة ، ولا بد للمشتغل بالتاريخ الشفوى من تدريب مناسب فى النواحي النظرية والعملية قبل الإقدام على عمله هذا .

إن التاريخ الشفوى له مكان واسع فى التاريخ ، ويحتمل أن يصبح أكثر انتشاراً فى المستقبل ، وتحتاج روايات الأحياء لجمع من قبل المؤرخين أكثر من أى وقت مضى ، لأنها تتعرض لوصف عدة متغيرات اجتماعية واقتصادية ، وسياسية ، وثقافية ، وسكانية (١٧) .

منهج البحث فى التاريخ الشفوى :

تنوعت اهتمامات المؤرخين فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية التى يعالجونها فى كتابة التاريخ .

وللتاريخ الشفوى منهجه فى البحث وهو يعالج جميع مجالات الحياة لشعب أو أمة ، بمعنى أنه يشمل :

أولاً : التاريخ السياسى :

وهو يبحث فى القيادات السياسية ، والأحزاب ، والحركات السياسية ، والنقابات ، والثورات ... إلخ .

ثانياً : التاريخ الاجتماعى :

وهو يبحث فى الحياة الاجتماعية والأسرية والأعياد والاحتفالات ، والملابس ، والطعام فى فترة زمنية محددة ، فضلاً عن الحياة داخل البيوت وخارجها ، فى الأسواق والحمامات ... وغيرها .

ثالثاً : التاريخ الاقتصادى :

وهو يبحث فى النشاط الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة ؛ والمحلات التجارية ، والعملات ، والضرائب ... إلخ .

رابعاً : التاريخ الثقافى :

يبحث فى النشاط الفكرى والتعليم ، والمدارس ، والمكاتب وألوان المعرفة والعلوم .

خامساً : تاريخ السكان :

ويبحث فى عدد السكان وعناصرهم وأصولهم ، ومناطق الانتشار والاستقرار والهجرة ، وتاريخ المدن .

* * *

ونحن إذا أردنا أن نصل إلى الأهمية الكاملة لشهادة شفوية ما ، يجب أن نقابلها بالمقارنة والمقابلة بكل ما جاء عنها فى المصادر ذات العلاقة بموضوع البحث ، وإلا ستكون أغلب التفاصيل غير ذات فائدة .

ويكشف البحث الشفهى أحياناً مادة وثائقية جديدة فى حياة الأفراد - صور ، عملات ، سندات ملكية لأراضى وعقارات ... إلخ - وهذه تزيد من كميات الشواهد المساعدة . وغنى عن البيان أن التضلع فى السياق المحلى هو الذى يجعل الشفهى هاماً وملفناً للنظر .

إن التاريخ الشفهى ليس فرعاً جديداً من التاريخ ، وإنما منهجية ، ووسيلة لتقديم مصادر جديدة تقف جنباً إلى جنب مع المصادر المدونة والبقايا المادية .

ولكن فى الوقت ذاته تستحق المصادر الشفهية اهتماماً أكثر مما تحصل عليه حالياً من قبل المؤرخين عموماً . فهى فوق كل شئ مادة شفوية ، تشترك مع المصادر المدونة فى الكثير من جوانب القوة والضعف وغزارة التفاصيل مع فارق دقيق لا يكاد يدرك فى المعنى ، إضافة إلى التحريفات المتعلقة بالتحيز المذهبى والاتجاه السياسى .

إن المصادر الشفهية تعتبر بصفة خاصة مادة ملائمة لمهارات المؤرخ النقدية التقليدية . فهي تحتوى على جاذبية أبعد بخصوص تقديم رؤية متميزة فى تشكيل الوعي التاريخى الشعبى ، وهو أمر يجب أن يكون محل اهتمام دائم لكل المؤرخين (١٨) .

خطوات البحث فى التاريخ الشفوى :

إن منهج البحث فى التاريخ الشفوى يجب أن يلتزم بمنهج علمى غير منهج البحث فى الوثائق المكتوبة ، وأهم أركانه (١٩) :

أولاً : الإعداد للمقابلة :

الإعداد الجيد للمقابلة هو مفتاح النجاح لمؤرخ التاريخ الشفوى حيث توجد أمامه فرصة واحدة لاختبار المصادر وتصحيحها ، أو معالجة الفراغات والنواقص فيها ، ومعظم أشكال البحث الأخرى تحتل مثل هذه العمليات باستمرار ، ولذلك فإن على المؤرخ الشفوى أن يحسم القضايا التالية قبل التوجه للمقابلة :

١ - إعداد الباحثين الميدانيين :

العمل الميدانى يتطلب مهارات مهنية ، ومواصفات شخصية واجتماعية محددة لا بد من توافرها . وأهم المواصفات المطلوب توافرها فى الباحث فى التاريخ الشفوى :

(أ) معرفته بمنهج البحث التاريخى .

(ب) المقدرة على استخدام أدوات البحث الميدانى .

(ج) اتصافه بعدة صفات شخصية ، ليس المقصود بها المظهر الخارجى للباحث - وأن كان هذا مهماً ، إنما الجوهر هو الأهم ، أى يجب أن تكون لديه قدرة على كسب ود ، وثقة المتحدثين معه من خلال اتقانه للملكة الإصغاء ،

وإظهار التعاطف ، أو على الأقل التفهم لوجهات نظر الرواة وهمومهم والحساسية لمشاكلهم ، أى الاحتمال والصبر ، والتحفز للبحث عن الحقيقة بلباقة .

(د) معرفة الباحث بالراوى وظروفه .

وهذه المعرفة تيسر للباحث إمكانية التعامل مع الراوى على الصعيدين الشخصى والعلمى .

(هـ) المعرفة العلمية بموضوع البحث .

فيجب على الباحث أن يطلع على المصادر المختلفة - خاصة المكتوبة - المتعلقة بموضوع بحثه ، فالرواية الشفوية لا تعطينا صورة كاملة عن الحدث .

إن معرفة الباحث بخصائص الفترة موضوع الدراسة تمكنه من طرح أسئلة ذكية ومتعمقة ، وتبعده عن السطحية ، وعن العموميات .

٢ - اختيار الموضوع :

يجب أن يختار مؤرخ التاريخ الشفوى موضوعاً معيناً ، أو أحد جوانب حدث معين ، أما مراكز البحث والتوثيق التى تستهدف إلى صناعة المصادر والأدلة وتوفيرها للباحثين ، فإنها تقوم بإجراء المقابلات على أساس فترة زمنية محددة لتوثيقها .

ولا بد من وضع إطار عام للبحث ، وصياغة استبيان أو تحديد رؤوس موضوعات يرغب الباحث فى تغطيتها . وليس من الضروري أن تصاغ أسئلة ملزمة للباحث ليجيب عنها الراوى ، فمن الأفضل ترك تحديد شكل ومحتوى المقابلة للباحث والراوى ، هذا لا يتعارض مع توفر مجموعة أسئلة أو قائمة موضوعات بأيدي الباحث . فهذا يوفر عليه الكثير من المتاعب . ولكن المهم ألا يقيد الباحث نفسه بأسئلة موضوعة مسبقاً فيكون هدفه المرور عليها واحداً بعد الآخر، بل يجب أن ينظر إليها كدليل أو إطار عام للمقابلة .

أما المراكز التي تعمل على توثيق التاريخ الشفوي وتركز على إجراء مقابلات حرة فإنها بحاجة إلى درجة معينة من العمق إلى جانب الاتساع ، حتى تصبح هذه المادة قابلة للاستخدام كمصدر له قيمة تاريخية . والطريقة لهذا هي وضع الإطار التاريخي للمشروع ، وتحديد نوعية الراوة ، وتقدير أهمية تجاربهم .

٣ - انتقاء الرواة :

إن اختيار عينة جيدة من الرواة مهم جداً إذ بدونها يسهل التشكيك في استنتاجات الباحث مهما بدت منطقية .

ويمكن هنا مقابلة جميع روايات الأحياء المعاصرين لحدث ما ، واعتبارهم عينة تمثيلية - هذا في الأحداث التي مات معظم معاصريها ، ولكن هذا صعب في معظم الأحيان .

ويمكن اختيار عينة من الراوة مع مراعاة الأبعاد الاجتماعية والجغرافية والسياسية .

كذلك يمكن للباحث أن يفيد من الأرشيفات والمصادر المكتوبة حول موضوع بحثه في اختيار عينة تمثيلية ، وأيضاً من المختصين ، والباحثين الذين لديهم الخبرة والمعرفة .

وعلى الباحث ألا يقصر جهده واهتمامه على الأشخاص المتحمسين للحديث عن تجاربهم ، بل عليه أن يبحث بنفسه عن آخرين عاصروا الحدث .

أما العوامل التي تحدد عدد المقابلات وطولها فأهمها :

(أ) نوعية الرواة .

(ب) سن الرواة .

(ج) خبرة الرواة .

(د) موضوع البحث .

(هـ) الامكانيات المادية والفنية للباحث .

(و) الظروف السياسية والأمنية .

وعندما يقع الاختيار على الرواة يجب الإسراع فى الاتصال بهم ، بالمراسلة أو التليفون . وفى حالة الاتصال عن طريق المراسلة على الباحث أن يحتفظ بأرشيف جيد للمراسلات والملاحظات .

ويتوقع من الباحث أن يشرح للرواة فى هذه المرحلة أهداف البحث وما يطلبه منهم بشكل واضح .

إن مصداقية الباحث والجهة المشرفة على البحث مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وعلى الباحث أن يقدم نفسه للراوى بطريقة مقبولة .

ولا بد من وجود مشرف على كل مشروع من مشاريع التاريخ الشفوى بمؤهلات وخبرات عالية ، تؤهله لمتابعة عمل الباحثين الميدانيين ، ولوضع خطط العمل والإشراف على تنفيذها ، فالمشكلة الحقيقية فى مشاريع التاريخ الشفوى هى تنظيمها ومتابعتها .

بعد أن تؤخذ موافقة الراوى على إجراء المقابلة يتم الاتفاق معه على موعد مناسب لإجراء المقابلة ، التى يفضل أن تسبقها مقابلة أولية لاختبار معلومات الراوى .

٤ - أدوات التسجيل :

إن باستطاعة مؤرخ التاريخ الشفوى اليوم استخدام آلة تصوير فيديو أو جهاز التسجيل الذى هو أكثر استخداما ، ويعتبر الرفيق الدائم لمؤرخ التاريخ الشفوى .

٥ - المقابلة التمهيدية :

ليس كل من يستجيب لإجراء مقابلة قادراً على إفادة الباحث ، ولذلك ينصح بإجراء مقابلة تمهيدية قبل التسجيل لاختبار معلومات وقدرات الراوى .

والمقابلة التمهيدية هي المكان المناسب لاكتشاف موضوعية الراوى وقوة ذاكرته ، وهى مهمة حيث أنها تعرف الباحث بالرواى ، وتخلق بينهما نوعاً من التآلف والثقة ، وتساعد الراوى فى تعديل أسئلته بحيث تناسب الراوى .

والمقابلة التمهيدية تعرف الراوى أيضاً بأهداف الباحث وتتيح له الفرصة لتنظيم أفكاره كى تناسبها .

وفى هذه المقابلة يوضح الباحث أهداف البحث للراوى ، ويأخذ موافقته على استخدام الرواية بعد أن تسجل .

ويفضل أن يكون هذا اللقاء فى نفس المكان الذى ستجرى فيه المقابلة ، ويذهب الباحث بدون أدوات تسجيل ، ويتجنب الخوض فى التفاصيل ، وفى المواضيع التى يمكن أن تخرج الراوى ، كالمسائل الشخصية أو العائلية ، ويركز اهتمامه لكسب ثقة الراوى وتعاطفه مع أهداف البحث .

يجب على الباحث أن يتذكر دائماً أن هدفه يختلف عن هدف الراوى ، ففى حين يسعى الباحث إلى توثيق الوقائع والأحداث والقضايا ذات المدلول التاريخى بدقة وأمانة ، يميل الرواة للتركيز على الجوانب الشخصية والشعورية ، لأن هدفهم قد يكون التسلية والترفية ، أو لتمجيد صفحاتهم وعائلاتهم أمام التاريخ والناس .

وإذا تبين بعد المقابلة التمهيدية أن لدى الراوى ما يفيد البحث ، فعلى الباحث أن يحدد موعداً لإجراء المقابلة وتسجيلها ، ويطلب الباحث من الراوى أن يوقع له توكيلاً باستخدام المقابلة ، فهذا هو الوقت المناسب له .

العوامل التى تحدد قيمة الرواية :

- أهمية الموضوع أو الحدث أو الفترة موضوع البحث .
- أهمية دور الراوى فى الفترة أو الحدث .
- أهمية المعلومات الواردة فى المقابلة .

فالمادة الشفوية تقسم إلى ثلاثة أنواع :

- (أ) حقائق أصلية .
- (ب) معلومات مساعدة .
- (جـ) أحاسيس ومشاعر .
- نوعية التسجيل .

والجدير بالذكر هنا أن روايات شهود العيان هي أساس التاريخ الشفوي .

٦ - مراعاة الجوانب القانونية والأدبية :

إن ما ينتج عن المقابلة الشفوية من أشرطة مسجلة ونص مكتوب هو إنتاج مشترك للباحث والراوى ، وملكيتهما تعود إلى كليهما ، ويأخذ التوكيل القانونى شكلين يختار الباحث أحدهما ، هما :

(أ) تصريح شفوي في مقدمة الشريط يقول فيه الراوى صراحة ، وبشكل واضح أنه موافق على أن يمنح الباحث جميع حقوق استخدام الرواية ضمن شروط معينة ، إن وجدت هناك شروط .

(ب) توكيل مكتوب موقع من الراوى نفسه ينص على منح حقوق استخدام الرواية للباحث ضمن شروط معينة ، إن كانت هناك شروط .

والتوكيل المكتوب أفضل من التوكيل الشفوي .

ثانياً : إجراء المقابلة :

المقابلة الشفوية هي أساس التاريخ الشفوي ، ويتوقف نجاح المقابلة على درجة التفاعل بين الراوى والباحث ، ومن المفضل أن يبدأ الباحث استجوابه بأسئلة عامة ثم ينتقل بعد ذلك إلى التخصيص ، وأن يكون متنبهاً متيقظ الذهن ، ويبنى سؤاله على كلام الراوى ، حتى يجعل الراوى يسترسل في حديثه في نفس الموضوع الذى جاء من أجله .

وعلى الباحث أن يسجل كل انفعالات الراوى ، ويفضل أن يكون مستعداً لذلك ، فيدونها فى دفتر ملاحظاته الذى يعتبر جزءاً من ملحقات المقابلة ، وعليه ، أن يسأل عن صور أو وثائق تخص موضوع البحث فيلحقها بالإرشيف كوثائق هامة .

ويجب على الباحث أن يحسن الإصغاء إلى الرواى ، وأن يركز اهتمامه عليه ، ويمتنع كلية عن توجيه إجابات الراوى أو التأثير عليه ، بما فى ذلك الامتناع عن طرح أسئلة بأسلوب الإيحاء . ويجب أن يبذل الباحث جهده لإحراز ثقة الراوى وطمأنينته ، فالباحث الناجح هو الذى لا يخلق انطباعاً لدى الراوى بأنه يتوقع استجابات تبدو كأنها أسئلة إتهام له ، أى أن يكون الباحث موضوعياً فى أسئلته .

وعلى الباحث أن يتحلى بالصبر ، ولا يقاطع الراوى بأسئلة جديدة فيقطع أفكاره .

ويجب عليه أن يترك للراوى الحرية فى ترتيب ، وعرض التفاصيل ، والقضايا ، فإنه ربما يريد أن يقود المقابلة نحو المواضيع التى يعرفها ، ويتعد عن المواضيع التى يجهلها ، وهذا فى مصلحة المقابلة . وعليه ألا يصر على أى شئ لا يتفق ورغبة الراوى ، فإذا رفض الراوى الإجابة على سؤال معين أو التحدث فى موضوع معين فعليه أن ينتقل إلى سؤال آخر ، أو يسأل السؤال بطريقة أخرى .

يجب أن تكون الأسئلة مفردة واضحة ، وقصيرة ، ولا يقرأ الأسئلة من قائمة أسئلة معدة سلفاً حسب ترتيب معين لا ينسجم مع مجرى المقابلة ولا أسئلة تحمل إجابات قصيرة فقط .

ويطلب الباحث من الراوى أن يركز روايته على ما رآه فعلاً ، كما أن بإمكانه أن يختار صدق الروايات ودقتها بتكرار الأسئلة بطرق مختلفة ومقابلة الروايات بمصادر أخرى ، ويطلب من الراوى التعليق عليها .

هل يتم الحديث بلهجة فصيحة أم عامية ؟

إن هذا يعتمد قبل أى شئ آخر على الراوى ، ولكن نقول أن المقابلة الشفوية هى عمل أكاديمى ، وليست مجرد نقاش بين اثنين أو لقاء صحفى ، فإنها بعد تسجيلها تصبح وثيقة تاريخية هامة سيعكف على معالجتها ، وحفظها ، وترك لهجة الحديث يحددها الراوى وليس الباحث ، أما إذا ظهرت كلمات غير مفهومة فيقوم الباحث بشرحها .

وعند انتهاء المقابلة يشكر الباحث الراوى ، وإذا كان الباحث يعمل من خلال مركز فعلى المركز أن يوجه له رسالة شكر رسمية .

ثالثاً : نسخ المقابلة كتابياً :

تسجيل المقابلات على أشرطة التسجيل هو حفظ للذاكرة والأحداث من النسيان والتشويه .

وتفريغ المقابلات الشفوية على الورق لا يلغى دور المقابلة المسجلة ، والتي تبقى هى المصدر الأساسى ، وطريقة استخدام الباحثين للمقابلة تحدد درجة ومستوى الدقة التى يطلب من الناسخ التقيد بها .

والنسخة المثالية : هى التى تسجل ما قاله الراوى وتعكس أسلوبه ، وشخصيته بأمانة على أن تكون مقروءة ، ومفهومة أيضاً .

مرحلة النسخ : يدون فيها الناسخ كل ما يسمعه على الشريط بما فى ذلك البدايات غير الموفقة ، والآهات ، والكلمات والجمل غير المكتملة ، وحتى الشتائم، وهو غير مطالب بتصحيح الأخطاء اللغوية حتى وإن بدى الحوار غير مفهوم ، فمراجعة النص وتنقيحه تأتى فى مرحلة لاحقة .

ويبدأ الناسخ بتفريغ المعلومات الأساسية عن المقابلة للتعريف بها كما هو وارد فى الشريط ، وبعد الإطلاع على ملاحظات الباحث الذى أجرى المقابلة ، تسجل المعلومات فى رأس الصفحة الأولى على النحو التالى :

اسم الراوى :

عمر الراوى :

رقم الشريط :

مدة الشريط :

مكان التسجيل :

تاريخ التسجيل :

اسم الباحث :

الجهة المشرفة على البحث :

وتنسخ المقابلة على شكل سؤال « س » وجواب « ج » .

وعلى الناسخ ألا ينسى علامات الترقيم التى بدونها يصعب فهم مقاصد الراوى .

وأن يدون أية ملاحظات عن انفعالات الراوى وتعبيراته الحركية مستعيناً بدفتر ملاحظات الباحث الذى نفذ المقابلة ، كأن يقول ضاحكاً متهكماً ، لوح بيده فى الهواء ... إلخ .

فالناسخ يدون كل ما يسمعه بالضبط ، وعندما ينتهى من الوجه الأول للشريط يكتب « نهاية الوجه الأول » ، وفى نهاية الشريط يشير بكلمة « انتهى » ثم يدون اسمه والوقت الذى استغرقه فى نسخ الشريط .

والجدير بالذكر هنا أيضاً أن الناسخ يجب أن يقوم بترقيم الصفحات وترك حواشى كافية على الجانبين ، واستخدام أوراق وأقلام من نوعية جيدة ، وأن يكتب على وجه واحد من الورقة ، وأن يقوم بمراجعة ما كتب بسماع الشريط ، ومقابلته بما كتب .

رابعاً : مراجعة النسخة المكتوبة وتطويرها :

بعد الانتهاء من نسخ المقابلة يدفع النص للمراجع الذى يسمح له بإدخال تعديلات طفيفة على المقابلة ضمن حدود الحفاظ على أسلوب وشخصية الراوى من خلال النص ، وذلك بهدف توضيح النص ، وجعله مقروءاً ومفهوماً .

الأشياء التى بإمكان المراجع التصرف بها فى النص المكتوب :

١ - البدايات الخاطئة :

وهى كلمات مقطعة مشوشة ربما جاءت غير مقبولة ، أو غير مفهومة فيقوم الباحث بترتيبها ، وإخراجها فى جمل مفهومة بحيث لا تؤثر على النص .

٢ - التعبيرات المكررة بحكم العادة :

مثل كلمة يعنى ، شوف ، كيف ، زى ما تقول ، اسمع ، وللأمانة .

٣ - مقاطعات الراوى للباحث :

مثل هذه المقاطعات تحذف لأنها لا تمت إلى محتوى المقابلة ، وتقلل من سلاسة الحوار .

٤ - الإضافة للنص المكتوب :

لا يجوز إضافة أية كلمة للنص بهدف تفسيره أو شرحه ، وإنما تكون الإضافة بهدف توضيح المعنى فقط ، وبإمكان المعالج توضيح مقاصد الراوى باستخدام علامات الترقيم .

وبإمكانه أيضاً توضيح المعنى بإضافة كلمة أو كلمتين شرط أن توضع بين قوسين مركنين [] تمييزاً لها عن حديث الراوى نفسه .

أما بخصوص اللهجة وتهجئة الكلمات فينصح عمومًا بعدم التمسك بالفروق بين اللهجات المحكية ، فإذا قال الراوى « قتللك » قاصداً « قلت لك » فتكتب العبارة بشكلها الثانى .

خامساً : مراجعة الراوى للنص المكتوب :

الباحث غير ملزم بإطلاع الراوى على النص المكتوب لروايته ، إلا أن هذا الأمر له فوائده والتي منها :

أولاً : يطمئن الراوى ، ويريمحه ، ويعزز التزامه بجهة البحث .

ثانياً : يؤكد للباحث أن النسخة المكتوبة تعكس المعنى الذى قصد إليه الراوى ، وتورد الحقائق بالطريقة التى أرادها .

ثالثاً : توفر للباحث فرصة لملأ الفراغات التى تنشأ عن عدم وضوح التسجيل ، أو عدم وضوح معنى أجزاء من الرواية .

ولتحقيق هذه الأهداف يطلب من الراوى قراءة النص بتمعن ، والقيام بما يلى :

- ١ - تعبئة الفراغات المشار إليها فى النص والناجمة عن عدم وضوح التسجيل .
 - ٢ - تصحيح تهجئة الكلمات وخاصة أسماء الأشخاص والمواقع .
 - ٣ - تصحيح الأخطاء التى يمكن أن يكون الراوى نفسه قد وقع فيها مثل تاريخ أو مكان حدث معين .
 - ٤ - إضافة بعض الكلمات التوضيحية لشرح العبارات والجمل التى قد تكون غير مفهومة للقارئ خاصة إذا أشار إليها المراجع .
 - ٥ - حذف ما لا يريد الراوى أن يظهر فى النص المكتوب لروايته .
- وإذا أراد الراوى أن يدخل بعض التعديلات على النص فهذا من حقه ، ولايجوز إرسال النسخة الأصلية ، أو الوحيدة من المقابلة للراوى إذ يفضل إرسال صورة عن المقابلة .
- وبعد إعادة المقابلة يتوجب على المراجع أن يعيد قراءتها للتأكد من وضوحها وصلاحيتها للنشر .

سادساً : الفهرسة والأرشفة :

تعتمد مشاريع التاريخ الشفوى طرقاً مختلفة لفهرسة المقابلات الشفوية ،
وليس هناك نظام محدد ومعترف به للمشاريع من هذا النوع . فنظام الفهرسة
والأرشفة الأفضل هو الأسهل والأبعد عن التعقيد .

وعند الفهرسة تعامل كل مقابلة كوحدة واحدة قائمة بذاتها ، يعطى لها
رقماً متسلسلاً ، ويحضر لها كرتان أحدهما للراوى والآخر للموضوع ، ويرتب
كل منهما فى أرشيف منفصل حسب التسلسل الأبجدي ، ويحتوى كلا الكرتين
على معلومات تشمل :

١ - رقم المقابلة .

٢ - موضوعها .

٣ - مدتها .

٤ - الأحداث الواردة فيها .

٥ - تاريخها .

٦ - طريقة الحصول عليها « شراء ، وتسجيل ، ومبادلة » .

٧ - معلومات عن الراوى « اسمه ، ومهنته ، وسنه ... » .

ويحتوى كل كرت فى العادة على ما بين ٥٠ - ٧٥ كلمة لكل ٣٠ دقيقة تسجيل .

إن طريقة الاحتفاظ بأشرطة التسجيل تختلف عن طريقة الاحتفاظ بالكتب
المطبوعة ، وكذلك الحال فى الاستخدام ، ولا بد من أخذ خصوصية أشرطة
التسجيل وحساسيتها بعين الاعتبار .

والمقابلات المطبوعة وكذلك أية ملحقات مضافة للأرشيف من مواد
مساعدة « كالصور ، والجرائد ، والمذكرات ... إلخ » تعطى نفس رقم
تصنيف الشريط .

وبعد فإن للتاريخ الشفوى ميزة كبرى عن التاريخ المدون ، وهى أن مؤرخ التاريخ الشفوى يقوم بدور فعال فى صناعة مصادره ، ولكن ضمن منهج دقيق ، وصعب . ونحن فى هذا الوقت بحاجة ماسة لكتابة فترات من تاريخنا معتمدين على التاريخ الشفوى لتوثيق أحداث هامة مثل تهجير الشعب الفلسطينى من بلاده سنة ١٩٤٨م ، أو أحداث ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م ، أو حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣م ... إلخ .

فشهادات المعاصرين للحدث لها أهميتها ويجب أن تحظى باهتمام المؤرخين ، ويجب أن يتم تسجيلها قبل أن تفقد فصوص أجزاء من الحقائق التى تعبّر عن أحداث ومشاعر وآلام ، ومعاناة ، آمال شعبنا العربى .

هوامش البحث

(١) يحيى ، عادل ، ومحمود إبراهيم ، وتوماس ريكس : التجربة الفلسطينية فى التاريخ الشفوى ، رام الله ، سنة ١٩٩٤م ، ص ٣٧ .

(٢) أونج ، والترج : الشفاهية والكتابية ، ترجمة د. حسن البنا عز الدين ، ومراجعة د. محمد عصفور ، مجلة عالم المعرفة ، عدد ١٨٢ ، الكويت ، شعبان ١٤١٤هـ / شباط ١٩٩٤م ، ص ٥٩ .

(٣) يحيى : ص ١٨ .

(٤) توش ، جون : المنهج فى دراسة التاريخ ، ترجمة د. ميلاد المقرحى ، جامعة قار يونس ، بنغازى ، ليبيا ، سنة ١٩٩٤م ، ص ٣٠٥ .

(٥) كاشف ، د. سيدة إسماعيل : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، ط ٢ ، مكتبة الخانكي ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦م ، ص ١٣ .

(٦) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على ت - ٣٤٦هـ : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ج ٩ ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط ٤ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٦٤م ، ج ٣ ، ص ١٧٥ .

(٧) ابن الأثير ، عز الدين أبى الحسن على أبى الكرم محمد بن عبد الواحد السياني ت - ٦٣٠هـ : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، دمشق سنة ١٩٣٨م ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

(٨) كاشف : ص ٢٤ .

(٩) المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على ت - ٨٤٥هـ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت (بدون سنة نشر) ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ .

(١٠) الدورى ، د. عبد العزيز ، وناجى معروف : موجز تاريخ الحضارة العربية ط ١ ، بغداد ، سنة ١٩٥٢م ، ص ٢٦٠ .

(١١) العلى ، د. صالح أحمد : محاضرات فى تاريخ العرب ، ط٢ ، مطبعة المعارف بغداد ،
سنة ١٩٥٩م ، ج ١ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(١٢) حسن ، د. على إبراهيم : استخدام المصادر وطرق البحث « فى التاريخ الإسلامى
العام، وفى التاريخ المصرى الوسيط » ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة
١٩٨٠م ، ص ١٠ .

(١٣) أونج : ص ٥٥ .

(١٤) توش : ص ٣٠٧ .

(١٥) يحيى : ص ٣٩ .

(١٦) توش : ص ٣٠٦ .

(١٧) يحيى : ص ٢٣ .

(١٨) توش : ص ٣٢٥ .

(١٩) انظر يحيى : ص ٤٥ وما بعدها .

النقوش والرسوم الصخرية كمصدر للتاريخ

د. حسن الشريف(*)

تمتد العصور التاريخية آلاف الأعوام قبل ميلاد المسيح ، هي عمر الحضارات القديمة ، ولكنها ليست عمر الإنسان . ولقد كان عليه كى يبلغها أن يقطع شوطاً طويلاً ، ومسيرة شاقة ، مليئة بالانتصارات حيناً ، بالصعوبات حيناً آخر .

وأساس البحث فى العصور التاريخية ، هي الوثيقة المكتوبة ، يكملها الكثير من المخلقات التى خلفها إنسان هذه الحضارة أو تلك . ومنهج البحث فى عصور ما قبل التاريخ يعتمد على المادة الحجرية ، التى قد تكون وفيرة أحياناً ولكنها لا يمكن أن تمدنا بكل ما نريد أن نعرفه عن جوانب الحياة الأخرى كالمعتقدات ، والنظم ، والعلاقات والقوانين المنظمة للجماعات . ولا تكشف لنا عن كيفية الطقوس الجنائزية ، أو الأعراق ، أو الهجرات ومساراتها . لذلك دعت الحاجة إلى الاستعانة بآفرع بعض العلوم الأخرى كالإنتروبولوجيا الطبيعية والجيولوجيا ، وعلم الحياة القديمة (الإحاثة) ، وعلم طبقات الأرض ، بل جرى توظيف بعض مستحدثات العلوم الحديثة كعلم النظائر المشعة .

ولقد انبثق من صحرائنا الممتدة من ساحل المحيط الأطلسى إلى قلب وأطراف شبه الجزيرة العربية كم لا حصر له من النقوش والرسوم الصخرية ، التى تنعتها بعض الدراسات بالفن الجدارى . ولعظم هذه الظاهرة ، ولاتساع رقعة انتشارها ، لم يتم لها بعد تصنيف محكم لما تحتويه من موضوعات ، أو تجسده من أساليب وتقنيات مختلفة ، أو لما تمثله من مجموعات حسب أماكن وجودها .

(*) كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - فرع دمنهور .

وبادئ ذي بدء علينا أن نلاحظ أن هذه النقوش أو الرسوم الصخرية ، لا تكشف لنا إلا عن المشاهد الختامية لتلك العصور السحيقة التى قطعها الإنسان . وهى مع ذلك تكتسب أهمية كبرى ، لكونها حدثت قبل وقيل بداية العصور التاريخية . ولذا فإنها المصدر الذى يمكن أن يفصح لنا عن الكيفية التى وقعت بها الأحداث الكبرى فى تلك العصور السحيقة ، ومن هم صانعوها .

ولا يحول دون ذلك سوى أن فهم النقوش أو الرسوم الصخرية تعترضه صعوبتان ، ربما يطول أمد التغلب عليهما .

أما الصعوبة الأولى فتتمثل فى محاولة إيجاد تقويم زمنى لهذه المخلفات وطبقاتها . فهى من جانب الزمان تمتد قرابة العشرة آلاف عام ، ومن جانب المكان تمتد فى شكل حزام عريض بطول عدة آلاف من الكيلو مترات .

والصعوبة الثانية تتمثل فى غزارة موضوعاتها التى لم يمكن فهم إلا النذر اليسير منها أو افتراض فهمه ، ويبقى الجزء الأعظم منها منغلقاً على مضامينه التى نفذ من أجلها .

على أنه مما ينعش من آمالنا ويقويها ، أنه أمكن العلماء الاقتراب من التغلب على الصعوبة الأولى ، إذ اقترح البعض منهم عمل جداول زمنية لبعض مواضع هذه المخلفات مستعينين بوسائل بحث مساعدة ، كأعمال الحفائر الأثرية التى يقوم بها منذ عدة سنوات ف . مورى فى مواقع تلك النقوش فى منطقة جبال الأكاكوس من نواحي غات فى جنوب غرب ليبيا . وقد حالف مورى الحظ فكان من حسن طالعه أن عثر على قطعة صخرية لهذه النقوش داخل طبقة أثرية تم الكشف عنها . وبذلك تمكن من أن يمسك بدليل لا يقبل التأويل لتاريخ إحدى فترات هذا الفن العظيم . وعلى الجانب الآخر أمكن للعلماء الاستفادة من خاصية جيولوجية موجودة فى تكوين الصخور ، وهو ما أسموه بغبار الزمن Lapatine ، أو الزنجار - حسب ترجمة المعاجم العربية - والزنجار طبقة رقيقة تتكون حين يتم خدش أو نحت الصخر بأداة حادة - أى بفعل فاعل - وتبدأ عملية تفاعل كيميائى

ما بين مادة الصخر والعوامل الجوية المختلفة من حرارة وأمطار . وبتحديد سمك طبقة الزنجار ولونها يقدر ما مر عليه من زمن . وبواسطة هذين العاملين أى سمك الطبقة ولونها ، يمكن تحديد عمر النقش الزمنى تحديداً نسبياً . كذلك حاول العلماء الاستعانة بوسيلة إضافية أخرى لإيجاد ترتيب زمنى لموضوعات هذه النقوش والرسوم، يقوم على أساس تصنيف نوعى للحيوان السائد فى الرسم . ويكاد يكون هذا الترتيب هو المتفق عليه بين أغلبية الباحثين . واحتسبوا أقدم مراحل النقوش - المرحلة التى تضم المجموعة الأثيوبية وحيواناتها العشبية الضخمة ، وتسمى بمرحلة الصيادين أو التيتل . ثم يلى ذلك مرحلة البقریات أو الثور وهى أيضاً مرحلة الرعى ؛ وهى أطول مراحل النقوش ، إذ سادت ما بين الألف السادس ق. م. ونهاية الألف الثانى ق. م. حيث تبدأ مرحلة الحصان . وتأتى بعدها مرحلة الجمل لتطوى صفحة هذا الفن (١) .

الواقع إن مجهودات العلماء لم تقف عند حد الوسائل السابقة ، وإنما تعدتها إلى طرق ووسائل جديدة ، يجدر الإشارة إلى أشهرها ، وهى طريقة اختبارات الكربون المشعة أو ك ١٤ كما يرمز إليها غالباً . ولنا أن نعلم أن عدد الاختبارات التى تمت بواسطة هذه الطريقة حول الصحراء الكبرى لم تكن تتعدى ١٦ تاريخاً حتى عام ١٩٦٣ ، ثم صارت ٢٨٦ تاريخاً فى عام ١٩٧٥ (كامبس ١٩٧٦) .

وإذا ما انتقلنا إل العقبة الثانية ، وتكاد تكون العقبة الكأداء ، ربما نلاحظ أن مجهودات العلماء فى هذا الصدد حثيثة ، فالعمل مضنى وشاق ، ويحتاج إلى استعدادات خاصة وشروط عالية المستوى من الثقافة والمعرفة بمعانيها الواسعة .

وبالبحث لا يدعى لنفسه أنه يمتلك هذه الامكانات ولكن إدراكاً منه لأهمية الموضوع وجسامته ، يود أن ينوه بأهمية هذه الظاهرة الأثرية العظيمة . ذلك أنه فى تفسير مضمين النقوش والرسوم الصخرية ، ما يمكن أن يدعم الوصف

التاريخي للأحداث ، وفي حالات أخرى يكشف لنا عن أحوال ذات أهمية بالغة للتاريخ الحضارى . وهذا ما سيحاول الباحث أن يثبته .

والواقع إن القضية الأولى تتعلق بمنشأ استئناس الحيوان فى الصحراء ، وهو موضوع يرتبط بمولد الزراعة . فمن المعلوم أن الإنسان لم يمارس تربية الحيوان ، إلا عندما توفر له فائض فى إنتاج الطعام ، ولم يتحقق له ذلك إلا عندما بدأ فى الزراعة ؛ (العصر الحجرى الحديث) . ومن المعلوم أن الحضارات القديمة قامت فى أحضان المجتمعات الزراعية على ضفاف الأنهار ، كالحنارة العراقية القديمة والحضارة المصرية . فالبحث فى نشأة الزراعة ، هو بحث فى أصول الحضارات القديمة . لذا اتجهت مجهودات العلماء حول تحديد الموطن الأصلي لاكتشاف الزراعة ، وتركزت آراؤهم حول موضوعين : إما غرب آسيا ، وإما شمال أفريقية (٢) .

ولأسباب عديدة اتجهت الآراء نحو أسبقية غرب آسيا فى اكتشاف الزراعة ، اعتماداً على قراءات ك ١٤ على عينات أخذت من مواقع عراقية ومصرية ، وكانت تواريخ المواقع المصرية متأخرة عن تواريخ المواقع العراقية بفارق كبير (٣) . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة أنه لم يكن قد توفرت معلومات كافية عن نيوليتى الصحراء الكبرى وشمال أفريقية . وعلى ذلك قام اعتقاد بأن الزراعة اكتشفت فى مواقع بغيرى آسيا ، ومنها انتقلت إلى مصر والشمال الأفريقى . ومع الزراعة دخلت التقنيات الأخرى ، ومنها استئناس الحيوان . وقد تأثر البعض من العلماء بهذه الفكرة ، فنسبوا ذلك إلى مهاجرين أتوا من الشرق ونزحوا بقطعانهم إلى الصحراء الأفريقية ، وهؤلاء هم أصحاب مرحلة نقوش البقرات (٤) ، فى زعمهم . وقد حدا الأمر بلفيف من العلماء إل دراسة المشاهد التى صورتها النقوش ، وخرج د. كوبر (١٩٧٨) باعتقاد أن استئناس البقر مارسه أصحابه الرؤوس المستديرة ، وهم السابقون على فترة الرعاة أو مرحلة البقرات ، حيث تشير نقوشهم (أصحاب الرؤوس المستديرة) إلى وجود رعاة بقر كثيرين . ورأى

الرأى نفسه شترير (١٩٧٨) ، الذى يرفض الفرضية القائلة بأن البقر المستأنس أتى إلى الصحراء قادماً من الشرق ، ويراها تفتقر إلى الأدلة المقنعة . وهو يعتقد عكس ذلك ، فالنقوش الصخرية فى الصحراء تقدم كثيراً من المؤشرات التى توضح أن فكرة ترويض الحيوانات البرية ، لم تكن غريبة عن الحضارات الصحراوية القديمة ، وأنها قد ترجع فى قدمها إلى فترة الصيد ، وعليه - حسب رأيه - يجب أن نناقش جدياً كون تربية الأبقار تعود فى نشأتها إلى الصحراء .

ولقد سبق لكلاارك (١٩٧٨) ، أن أعلن أنه يرى أن فرضية ترويض البقر فى الصحراء الكبرى ، فى مرحلة العصر الحجري الحديث ، تبدو أكثر احتمالاً منها فى مناطق أخرى لم يتم اكتشافها بعد بشكل كاف .

والواقع أن الفارق بين أصحاب الراين ، هو أننا فى الصحراء الكبرى نملك على الأقل الدليل الذى سجل لنا هذه التقنية كشف عن اصحابها ، الأمر الذى لم يتوفر لأى مكان آخر . وهناك نموذج آخر لمعضلة من المعضلات التى أثارت الكثير من الجدل ، هى ظاهرة حمل بعض حيوانات النقوش - المجترات على وجه الخصوص - شكلاً مخلقاً على هيئة قرص ، فوق رأس الحيوان .

وانتشرت نماذج هذه الظاهرة ، من جنوب مقاطعة وهران بالجزائر إلى صحراء مصر الشرقية .

ولما كانت بعض أشهر آلهة المصريين القدماء صورت وهى تحمل فوق رؤوسها قرصاً دائرياً ، رمزاً لعبادة الشمس ، كحتحور وإيزيس من الربات ، وآمون ورع من الأرباب ، فقد دار البحث حول أصول هذه الفكرة ، وعمّا إذا كانت تشير إلى انتشار تأثيرات عقائدية بين أقطار الشمال الأفريقى والحضارة المصرية القديمة فى وادى النيل .

ولقد كان فى غياب تقويم زمنى معلوم لزمن النقوش ، ما أغرى بعض الباحثين، أن يرجعوا أصول هذه الظاهرة ، إلى تأثيرات عقائدية من مصر القديمة .

ورأوا فى وجود معبد للإله آمون فى واحة (سيوة) ركيزة لزعمهم ، حتى أنهم لم يستبعدوا ربط كبش (بو علام) فى جنوب وهران بكبش آمون ، وكبش بوعلام يصور كبشا يحمل بين قرنيه قرصاً مستديراً ، تم صقله بعناية فائقة ، ويقف أمامه رجل بهيئة كاهن ، يرتدى القراب القضيبى ، وهو بهيئة الليبيين القدماء(٥).

ويبدو أن هذه النظرة كانت متعجلة ، ولها جاذبيتها . ولكن الواقع الأثرى يتعارض معها لأن المجترات ذات الأقراص ، ظهرت مبكرة جداً عن عصر انتشار عبادة آمون . فقد ظهرت على الأوانى الفخارية الخاصة بحضارة جرزه فى مصر ، وهى من حضارات عصر ما قبل الأسرات ، أى حوالى الألف الرابع ق. م. أما عن كباش جنوب وهران ، وكذلك الأشخاص التى صورت برؤوس حيوانية ، فقد وجدت فى تاسيلي وفزان ، وسط الصحراء الكبرى ، وترتبط فى الغالب بأصحاب الرؤوس المستديرة ، وبعض الآراء ترى أنهم هم الذين أنتجوا فن ما قبل الأسرات فى مصر (Lhote, and Breuil, ١٩٦٠) .

الواقع أن كثافة نقوش منطقة تاسيلي وفزان ، وما تتميز به من جمال الأسلوب ودقة التنفيذ ، ما يجعلنا نميل مع رأى الذى يرى نقوش تلك المناطق مركزاً لإشعاع هذا الفن إلى جميع الأنحاء . كذلك تجدر الإشارة إلى أن النماذج التى عثر عليها فى وادى النيل والصحراء المحيطة به ، كان أغلبها قد اتبع تقنية التطريق ، وهى تقنية مغايرة لما عليه نقوش تاسيلي وفزان ، التى نفذت بتقنية الحفر الغائر ، أو بواسطة الرسم باستخدام الألوان الزاهية . وهذا ما يراه شيرقيشيك (١٩٧٨) ؛ وبمقارنة النقوش الصخرية الموجودة فى وادى النيل والمنطقة الصحراوية المتصلة به ، مع ما هو موجود بأواسط الصحراء الكبرى (تاسيلي وفزان) تثبت مدى تقدم فن الرسم والنحت الصخرى فى هذه المنطقة الأخيرة . هذا بالإضافة إلى ان الرسوم المصرية قليلة وصغيرة الحجم نسبياً .

وعليه فإن فرضية أن المصريين القدماء تلقوا تأثيرات فنية من الصحراء ، هي الفرضية الأقرب إلى القبول .

وقد يكون من أروع الأمور ، أن تتوافق الحقائق التاريخية ، مع معطيات النحت والرسم الصخري . فإذا ما حدث وتم ذلك فإن نتائجه تكون فى الغالب باهرة وذات أثر على البحوث التاريخية . ولييان ذلك ، نتناول أحد موضوعات النقوش الصخرية ، وهو موضوع ظهور الحصان كمرحلة رئيسية من مراحل هذا الفن العظيم .

فمن المسلم به أن الحصان ظهر فى مصر والشمال الأفريقى حوالى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد . وقد استخدمه المصريون فى أول الأمر فى جر العربات الخربية ، حارب ملوك الدولة الحديثة (١٥٧٠ - ٩٥٠ ق.م) أعداءهم بهذا السلاح الرهيب بمقاييس ذلك الزمن ، وربما كان الحصان وراء انتصارات المصريين وسببا من أسباب نجاحهم فى تكوين إمبراطورية كبرى فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد .

ويبدو أن الأمر استغرق قرنين أو أكثر كى ينتقل الحصان إلى الشمال الأفريقى عبر مصر . ولم يتم الأمر تحت ضغوط اقتصادية (شترير ١٩٦٩) ، بل ربما كان مجرد حادثة تاريخية ارتبطت بتوغل جماعات من البشر فى وسط الصحراء ، واصطدمت بحضارات تربية الأبقار ، أو بمجموعات من بقاياها . ومن المعتقد أن الحصان كان وسيلة هذه الجماعات الوافدة للتوسع ، لأنه ارتبط فى الرسوم بمشاهد الحروب والقتال . وأيا كان الأمر ، فنحن إذن أمام ساعة زمنية ، يمكن بواسطتها تحديد المرحلة الزمنية لإحدى مراحل النقوش الصخرية فى الصحراء على قدر معقول من اليقين .

وكان من حسن حظ البحث التاريخى أن أمكن الاستفادة من هذه المعطيات لحل إحدى معضلات التاريخ الليبى القديم ، وأمكن التأريخ لعناصر بشرية هامة فى تاريخ ليبيا ، عرفوا بالجرمنت أو الجرمين نسبة إلى عاصمتهم (جرما) فى

وادی الآجال (الحياة) فى أوبارى من نواحي فزان . والواقع أن اصول هذه الجماعة يكتشفه الغموض ، كانت هناك عناصر قوية أقامت ما يشكل جسراً تجارياً هاماً بين أفريقيا الاستوائية والبحر المتوسط . وفى العصر الرومانى كانت (جرما) شوكة قوية أمام التوسع الرومانى نحو الجنوب . وقد ظهرت هذه العناصر فى النقوش كفرسان يمتطون خيولهم أو كسائقى عربات تجرها الخيول (٦) .

وعن طريق هذه العناصر فى النقوش تكونت لدينا معلومات مفيدة عن ملابسهم وأسلحتهم وعرباتهم . وحيثما يوجد نقش لهم ندرك على الفور المدى الذى وصل إليه نفوذهم ، وكل هذه المعلومات ما كان يمكن أن نحصل عليها ولو أجريت حفائر لذلك (٧) .

من النموذج السابق ندرك مدى الإسهام الفعلى والمفيد ، حينما يتحقق قدر من الوضوح مع قدر من اليقين ، لمجموعة من النقوش أو الرسوم الصخرية فى منطقة ما . ولكن الأمر لا يسير على هذا المنوال دائماً ، فربما كان النموذج السابق حالة خاصة فريدة . وفى حالات كثيرة تصمت النقوش عن الإفصاح عن مكنوناتها ، مما ينعكس على البحث التاريخى بالسلب ، فلا يتوفر له - والحال هكذا - إلا الحدس والتخمين ، وهذا ما سنضرب له المثل .

ذلك أنه شاع فى رقعة واسعة من النقوش والرسوم الصخرية تصوير لشخصيات خيالية صورت بأحجام مبالغ فيه أو مخلوقات عجيبة مخلقة .

وسنكتفى هنا - مراعاة لمقتضى الحال - بثلاثة نماذج من تلك الشخصيات الخيالية ، فعلى سبيل المثال : إثنان من لوحات تاسيلي نشر هنرى لوط (٨) ، والنموذج الثالث من رسوم شبه الجزيرة العربية ، من وادى ضم تبوك (٩) ، شمال شبه الجزيرة العربية .

ففيما يتعلق بموضوع اللوحة الأولى رقم ٣٥ من لوحات تاسيلي يسميها لوط ب (السيدة البيضاء) ، وأبعاد الرسم هى ١٥٠ سم × ١٠٠ سم . وقد

لونت بالمغرة الصفراء مع لون أبيض والتنورة ومتعلقات الرقص ، مع حلقات الساعد وأربطة الساق . ويبدو أنها جميعاً صنعت من ألياف أو سيور دقيق . وكذلك الحال مع قراب اليدين ، والرأس يحمل ما يشبه قبعة من النباتات يخرج منها قرنان ؟ ويتساقط من القبعة ما يعتقد لوط ... حبوب ؟ ويقول لوط أننا بإزاء إحدى الكاهنات ذوات العلاقة بشعائر الزراعة أو هي ربة الزراعة ، قد تكون تجسيدا للربة (إيزيس) المصرية التي كانت هي الأخرى ذات علاقة بطقوس الزراعة والأمومة والخصوبة . وقد وافق Breuil لوط Lhote على هذا التفسير . أما الرسم فهو يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة حسب رأى لوط Lhote.

ولا شك في أن في إبراز افنان لشخصية معينة وسط مجموعة من الأشخاص الآخرين بواسطة إشارات خاصة أو بتضخيم الأحجام ، هو دليل على تمايز اجتماعي أو سياسي أو ديني . وهو ما سوف نشير إلى ثبوته لدى المصريين القدماء، منذ البدايات الأولى لتاريخهم .

والواقع أنه بتفحص الرسم المعنى (السيدة البيضاء) نلاحظ أن ما ذهب إليه لوط Lhote ربما له ما يبرره ، في الربط بين موضوع الرسم والربة (إيزيس) . ففي وجود القرنين على الرأس ما يذكر بقرنى البقرة لدى (إيزيس) ، وهذا التنقيط الذى يشبه تساقط الحبوب من الثديين ربما كان تجسيدا لمعنى الأمومة والخصوبة . كانت (إيزيس) تمثل في بعض مشاهدتها ، وهى تعطى ثديها لابنها (حورس) رمزا للملكية فى مصر . أما بشأن المبالغة فى تضخيم حجم السيدة ، فإننا نجد له تفسيراً لدى المصريين ، الذين دأبوا منذ عهد بداية الأسرات على رسم ملوكهم بأحجام مبالغ فيها بالنسبة لبقية المشهد كما أنهم اتبعوا نفس الأسلوب عند تصوير آلهتهم . (قارن - على سبيل المثال - الضخامة التى صور بها الملك نعرمر فى صلاته المشهورة باسمه) .

وملاحظة هامة أخرى ، ذلك أن الهيئة الطقسية التى عليها (السيدة البيضاء) كما لو كانت تجرى ، تقرب إلى حد كبير مع هيئة الملك الفرعون ، حينما كان

يؤدى طقس عيد (الحب سد) أو العيد الثلاثينى لتجديد الخصوبة المتمثلة فى قوة وفحولة الملك الحاكم ، وهو عموماً طقس يرى أغلب علماء المصريات أن له أصوله الأفريقية . والملك هنا هو القوة التى تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها.

ومما يثير الدهشة أن هناك نقشاً للملك زوسر ٢٦٨٠ ق. م. الأسرة الثالثة - يصور الملك - وهو يجرى حول حائط فى مشهد طقسى . ويكاد يكون الملك عارياً ، إلا من غلالة رقيقة تستر العورة ، الأمر الذى يقربه إلى حد ما من المظهر العام للسيدة البيضاء (١٠) .

أما النموذج الثانى من لوحات تاسيلى ، فقد أطلق عليه لوط Lhote إله كبير بصحبة المصلين ، والمشهد ملون بالأحمر الداكن واللون الأبيض ، وأبعاده ٣٦٠ سم × ٧٦٠ سم . أما الشخصية الرئيسية التى تتوسط الرسم (الإله الكبير) فهى تنفرد بقامة طولها ٣,٢٥ م . وحسب رأى لوط الرسم يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة كذلك ، وإن كانت الحلقة الأخيرة منها . وقد اكتفى لوط بوصف الرسم على أنه مشهد سحرى يتعلق بطقس الخصوبة ، وربما لوجود ما يمكن اعتباره قرنين يبرزان من رأس الإله الكبير ولوجود صرر للجاموس القديم.

وحقيقة الأمر أن موضوع الخصوبة وما يرتبط بها من معانى النماء والتكاثر، كانت القضية الكبرى - على حد تعبير خبير النقوش زيربو (١١) ، وخصوصاً فى أواخر عصور ما قبل التاريخ فى الصحراء ، وذلك إثر إنكماش كل أثر للحياة أمام الزحف الحتمى نحو الجفاف . وربما من نافلة القول أن نذكر أن جميع شعوب العالم القديم ، كانت تجسد فكرة الخصوبة أو آلهة الأم ، وتتخذ من جسم المرأة رمزاً لها .

أما بالنسبة للنموذج الثالث ، فهو من شمال شبه الجزيرة العربية ، وربما كان النموذج الوحيد من تلك المنطقة . وقد وصفه مجيد خان بأنه رسم لعبودات

مجهولة. ويظهر الرسم قرب أصابع اليد الممدودة ، خطوطاً صغيرة مموجة رسمت كفرع مصحوبة برسم على شكل نجمة ، مما يعطى إيحاء بأن الأشعة تخرج من الأصابع والنجمة على حد تفسير خان ، الذى يعتقد بأن الرسام ربما قصد به صنماً وثنياً يرتبط بعلاقة ما بالمطر والبرق . ونحن نعرف أنه كان لدى الشعوب السامية دائماً إله للمطر والصواعق .

وإذا كان هذا هو كل ما يمكن أن تعطيه لنا هذه الأشكال الخيالية من تفسير، وفق ما أسفرت عنه البحوث الحالية ، إلا أنه من الممكن إضافة فائدة أخرى ، هى أننا نكون أقرب فهماً لما وجد لدى المصريين القدماء من عادة تضخيم حجم آلهتهم أو ملوكهم عند تصويرهم .

فإذا ما تناولنا الشق الآخر من موضوع الأشكال الغريبة ، والتي يزخر بها الفن الجدارى واجهتنا حقيقة أشد غرابة وأكثر استغلاً للفهم .

ونكتفى بمثالين فقط من هذه الكائنات الغريبة لما يثيراه من إيحاءات معينة ، قد تكون ذات علاقة بجذور بعيدة مشتركة ، اندثرت من أزمان ساحقة ، ولم يتبق منها غير الأفرع التى قد تبدو لنا فى صورتها التى شكلت عليها غامضة ، ومتقطعة الصلات .

ويأتينا النموذج الأول من وادى ضم من شمال المملكة العربية السعودية ، وقد أسماه خان (الكائن الخرافى) وجاء فى وصفه له : «حيوان غير مميز يبلغ طوله حوالى مترين وعرضه ٨٠ سم ويتكون من بدن ممدد ، ورقبة نحيفة ووجه صغير ، ويوجد على الرأس نتوءان صغيران ، ربما قصد بهما القرنان وهذا الشكل لحيوان غريب وضخم وهو يفتقد إلى الفكرة وواضح فيه رداء التنفيذ» .

ومن المدهش أن خان اقترب فى كلماته تلك من كلمات فوفرى Vufrey عن كائن آخر منقوش على الركائز الصخرية فى موقع (جارة الطالب) بالجزائر

وقد أسماه فوفريى بـ (الحيوان الخرافى) . وهو عبارة عن رسم بطول ستة أمتار ، يتكون جسده من ثمانية حلقات متتابعة منتظمة حول قصبة هوائية على ما يبدو . ويمتد له ذيل طويل مردود للأمام ينتهى بكلاب ، والرأس مزود بقرنى استشعار أو السنة للفق ، وفى الجزء القريب من الذيل معلق نوع من كيس مزدوج للخصيتين ، وقد صقل بعناية ، وقد رآه فوفريى طوطماً للملك العقرب ؟ (١٢) ، وأنه لابد من ارتباطه لديهم بإدراكات ومشاعر دينية أولية ، وهى تبدو ذات علاقة بما للمصريين فى فترة ما قبل الأسرات (١٣) .

والواقع أنه فى غياب تفسير ممكن لمثل هذه الأشكال الخرافية ، لا يسعنا إلا اللجوء إلى تفسيرات أسطورية . فالجهد الذى بذل فى تنفيذها ذات علاقة موثوقة بالعالم الروحى لأصحابها . ولقد كانت الأسطورة دوماً - كما يذكر زيربو - هى فى النهاية طريقة يستعملها الإنسان لإدراك الكون ، وجعله مفهوماً ؛ إذ أن الخطاب الأسطورى يعتمد على منطق ذاتى خاص به ؟ فتمثيل كائن مخيف يعنى فى الغالب التخلص من سيطرته ، ومراقبته بالنظر تعنى السيطرة عليه (١٤) .

وربما تجدر الإشارة إلى إمكانية أن ندرج تحت هذا النوع من التفسيرات الكثير من النقوش التى تنشر فى أنحاء عديدة من مناطق النقوش . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نشرت وزارة الدولة للشؤون الثقافية بالمملكة المغربية ، فهرساً لمواقع النقوش بالجنوب المغربى حوى الكثير من هذه الأشكال التى يصعب فهمها .

يتضح من مجمل ما سبق ، مدى ما تكتنزه موضوعات النقوش والرسوم الصخرية من قيمة علمية ، يمكن فى حالة التعرف عن مكوناتها أن نزيل الغموض عن كثير من القضايا مثار الجدل بين علماء التاريخ والآثار والأنثروبولوجيا كموضوع الأعراق ، والهجرات الكبرى ومسالكها وآثارها ، وغير ذلك مما يفيد البحث العلمى . وترى بعض الآراء أن عظم المساحة التى تشغلها هذه الظاهرة ، وتنوع أساليبها وتقنياتها ، تدل على أنها لم تكن نتاج شعب واحد ولا ثقافة واحدة .

وإزاء ظاهرة بهذا الحجم والتنوع ، قد يكون من الأنسب عند تناول موضوعاتها ، إتباع منهج الدراسة المقارنة ، مع التسليم بأن مثل هذا المنهج يتطلب حصراً لجميع النقوش والرسوم وتصنيفها ، وتحديد أساليبها والتقنيات التى نفذت بها، ويتطلب كذلك جداول لتقويمها زمنياً ، وجداول أخرى إحصائية .

فعلى سبيل المثال ، إن دراسة مقارنة لأنواع الحيوانات التى صورت فى موضوعات النقوش ، فى كل من شمال أفريقيا ومناطق مصر العليا وبلاد النوبة ومناطق شمال المملكة العربية السعودية ، يمكن أن تفيد فى معرفة سبب غياب حيوانات المجموعات الأثيوبية بحيواناتها العشبية الضخمة من نقوش المنطقتين الأخيرتين . مع العلم بأن مناطق مصر العليا والنوبة تميز نتاجها فى مجال الفن الصخرى بشكل ليس له مثيل ، سواء من ناحية المضمون أو الأسلوب . فيذكر شيرفيشيك (١٩٦٩) ، أن هذه المناطق من مصر وبلاد النوبة عرفت أسلوب النقش البارز والمائل قليلاً ، وهو أسلوب ليس له وجود فى أى بقعة أخرى من العالم ، بما وصل إليه من دقة وإتقان . وهذا يجعلنا نعتقد أن هاتين المنطقتين تشكلان منطقة مستقلة فى موضوع النقوش .

أما بالنسبة لمناطق النقوش فى شمال المملكة العربية السعودية ، فربما كان سبب غياب الحيوانات العشبية الضخمة أن هذه المجموعة تعرف أصلاً بالمجموعة الأثيوبية، أى أنها حيوانات أفريقية الأصل . وربما خضعت شبه الجزيرة العربية لظروف بيئية وجغرافية ، جعلتها بمعزل عن هذه الحيوانات ، وحالت دون تواجدها فى مناطقها .

وملاحظة أخرى تتعلق بشبه الجزيرة العربية ، إذ لوحظ أن مرحلة الجمل تعقب مباشرة مرحلة البقریات (الرعى) . وبالتالي نجد أنفسنا أمام فرضية مدهشة، وهى أن شبه الجزيرة العربية لم تستخدم الحصان قبل القرون الميلادية (١٥)، وقد يكون لظروف شبه الجزيرة الجغرافية ، أثر جعل مرحلة الجمل أسبق وأنسب لطبيعة المكان والمناخ ، من مرحلة الحصان .

والواقع أن الطبيعة الحيوانية للحصان تجعله لا يتلاءم مع ظروف مناخ جاف، ولذا تلاءم مع الظروف البيئية في مصر وادي النيل ، كما تلاءم مع الظروف البيئية التي صار عليها وادي الشاتي بليبيا حيث استخدمه الجرامنت - كما سبقت الإشارة - وظلت المياه الجوفية تنبثق من عيون طبيعية في هذه المناطق، مما خفف من حدة عصر الجفاف فيها . ولذا فإنني لا أحجم عن القول بأن سمعة الحصان العربي المشهود لها بها ، ربما كانت أشبه بأسطورة بلا أسس تاريخية .

* * *

إذا كان لابد أن يكون لهذا العرض من خاتمة ، فليس هناك أكثر إلحاحاً من حاجتنا إلى أن نبحث ونستوثق في خضم هذا الزخم من النقوش والرسوم، هل حاول أصحاب هذه الأعمال أو بعضهم - على الأقل - أن يرتقوا بجهودهم للتعبير عما تجيش به نفوسهم أو تجود به قرائحهم إلى مرحلة التعبير عن الأفكار التجريدية ؟ أى الأيدوجرام Ideogramme (١٦) . بمعنى رسم الصورة التي تعنى فكرة ، أو تصوير يطابق بدرجة أكبر مصطلحاً لغوياً ... كرجل أو إله ... إلخ .

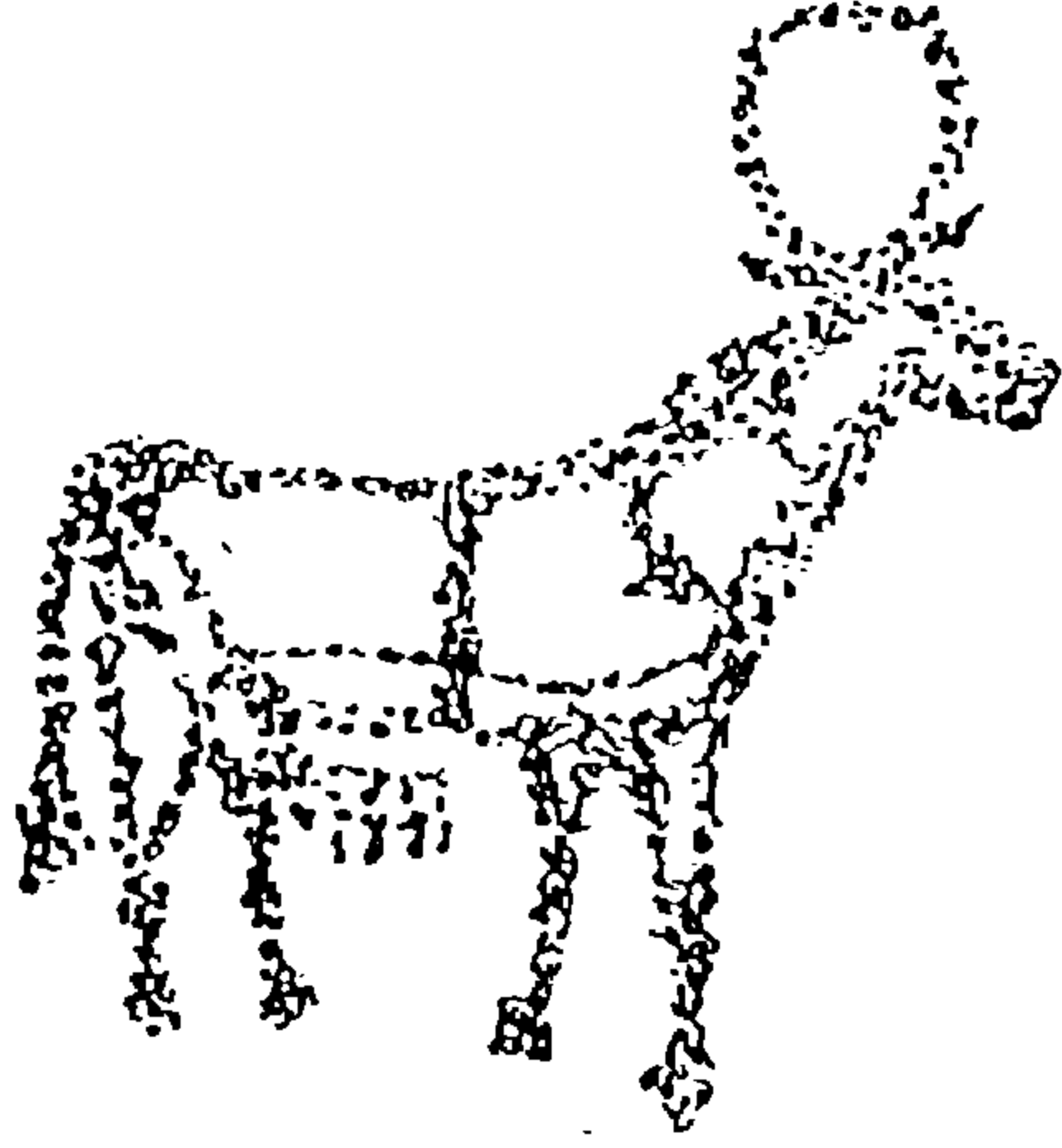
يرى - شترير (١٩٦٩) - أن مثل هذه الأبحاث مازالت غير موجودة وإن كنا ندرك من جانبنا أنه خلال العقدين الأخيرين جرت محاولات في هذا الاتجاه . ومن اهتموا بدراسة هذا الاتجاه في النقوش الصخرية ، خبير النقوش السنغالي زيربو (١٧) ، فقد نظر إلى موضوع النقوش على أنها جسر بين الواقع والفكرة ، وقدم في سبيل بيان ذلك عدة آراء جديدة بالاعتبار . ويرى زيربو أن أكبر عقبة تحول دون تأويل الفن الصخري تأويلاً صحيحاً هو الجهل بالظروف الاجتماعية التي أنتجت هذا الفن . وكان من رأيه أن الفن قد يفقد دلالاته إذا أطلقنا على مشاهدته عبارات مثل : السيدة البيضاء ... القضاة ... إلخ ، وهي تعبيرات من إنشاء باحثين من ذوى الثقافات الأجنبية . ومن ضمن ما ساق من أمثلة في محاولته شرح أحد النقوش على جانبي صخرة ، ومحتوى النقش صورتي

أسد وكركدن . وقد نقش الأسد على الوجه الجانبي للصخرة لتضيئه الشمس بأشعتها الأولى ، فهو يمثل النهار ! فى حين أن وجه الكركدن موجه للغرب لأنه بمثابة روح الليل والظلام ! .

هل أصاب زيربو فى تأويلاته تلك ؟ ربما يكون قد اقترب بخطوات ما من بلوغ الهدف ، لأن أمانة البحث تفرض علينا تعضيده . وباب الأمل المفتوح أمامنا هنا هو الحضارة المصرية القديمة ، لأنها الحضارة الوحيدة التاريخية المكتوبة ، وهى تقوم على أرض أفريقية ، وهى فوق هذا كله نشأت فى حضن منطقة النقوش .

لقد كان لدى المصريين القدماء تركيباً لغوياً من أسدين ، استخدمما لحساب الوقت ، فصور كل منهما يعطى ظهره للآخر ... ربما اتخذوا منهما رمزاً للهضبتين اللتين تحددان الحدود الشرقية والحدود الغربية للوادي .. وكان مثل هذا التركيب الرمزي يعنى مصطلحاً لغوياً المقصود به : الأمس وغدا .

إننا ندرك تمام الإدراك أن الشروط طويل بين ما هو متاح للعلماء من قدرات ووسائل وبين ما تصبو إليه آمالهم . ولولا أنه سبق للبحث العلمى أن شهد حالة تتطابق مع حالتنا هذه ، حيث ظل العلماء أجيالاً وأجيالاً فى موقف العجز أمام رموز اللغات الشرقية القديمة من هيروغليفية وسومرية وغيرهما ، ثم لاحت اللحظة المواتية فأمسكوا بها ، وحققوا أعظم انتصارات العقل البشرى بإحيائهم لغات ماتت من عصور سحيقة ، لاعتقدنا مع من اعتقد أن مكنونات النقوش الصخرية ومضامينها قد اندثرت مع أصحابها .



(١)



(٢)



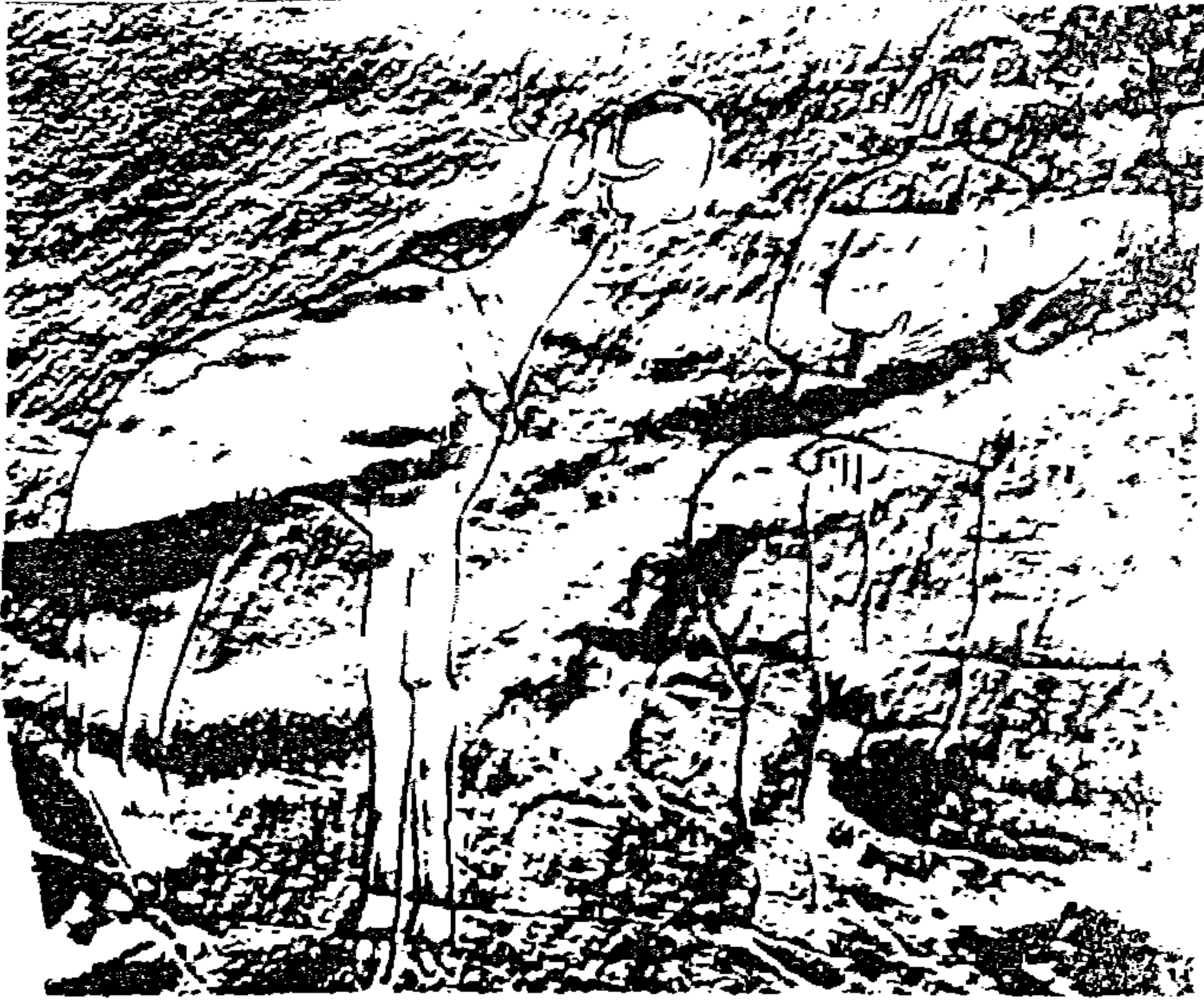
(٣)

نقوش لحيوانات تحمل أقواساً بين قرنيها

١ - وادى الحمامات (مصر) عن H. A. Winkler .

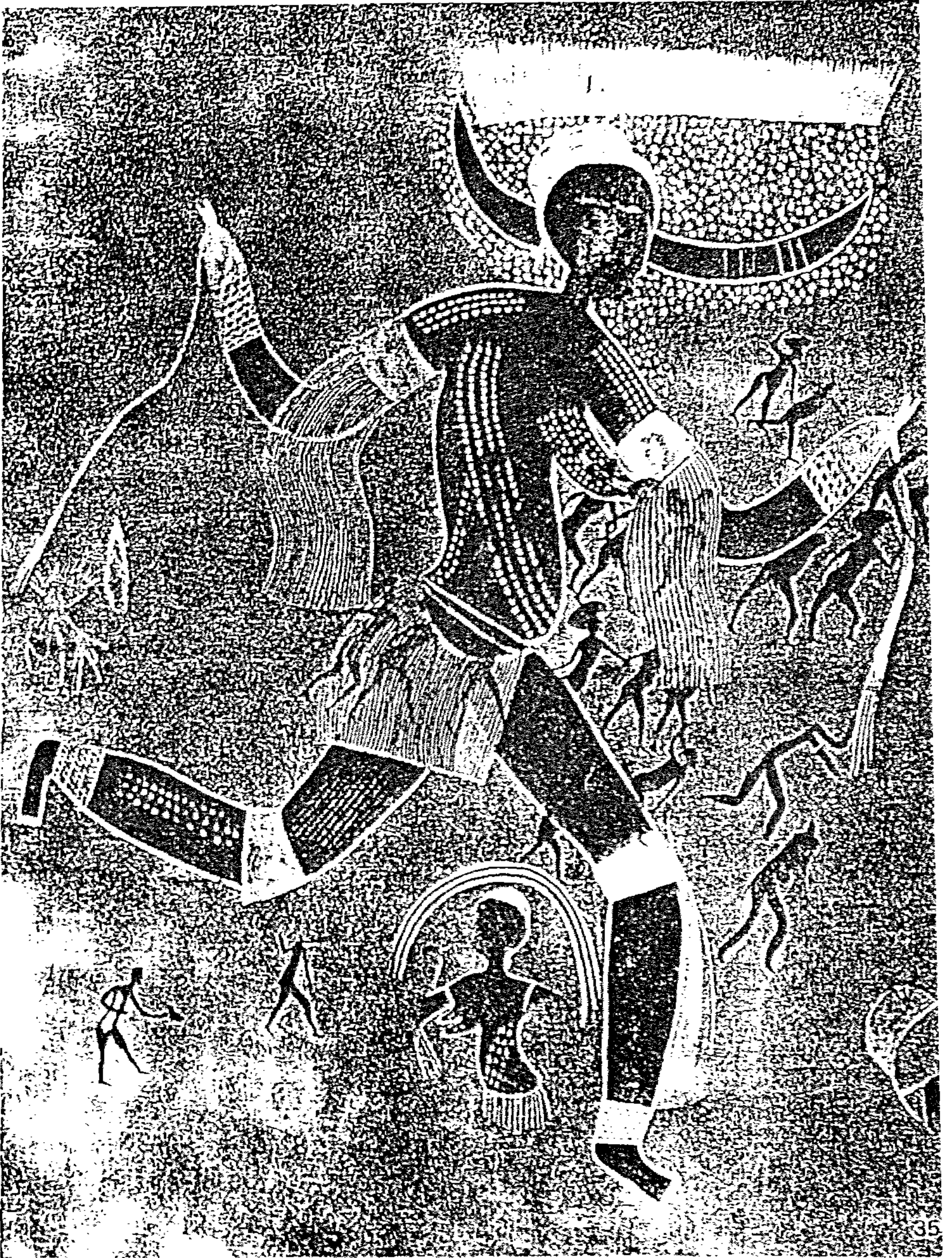
٢ ، ٣ - الصحراء الكبرى حسب M. Reygasse .

لوحة I



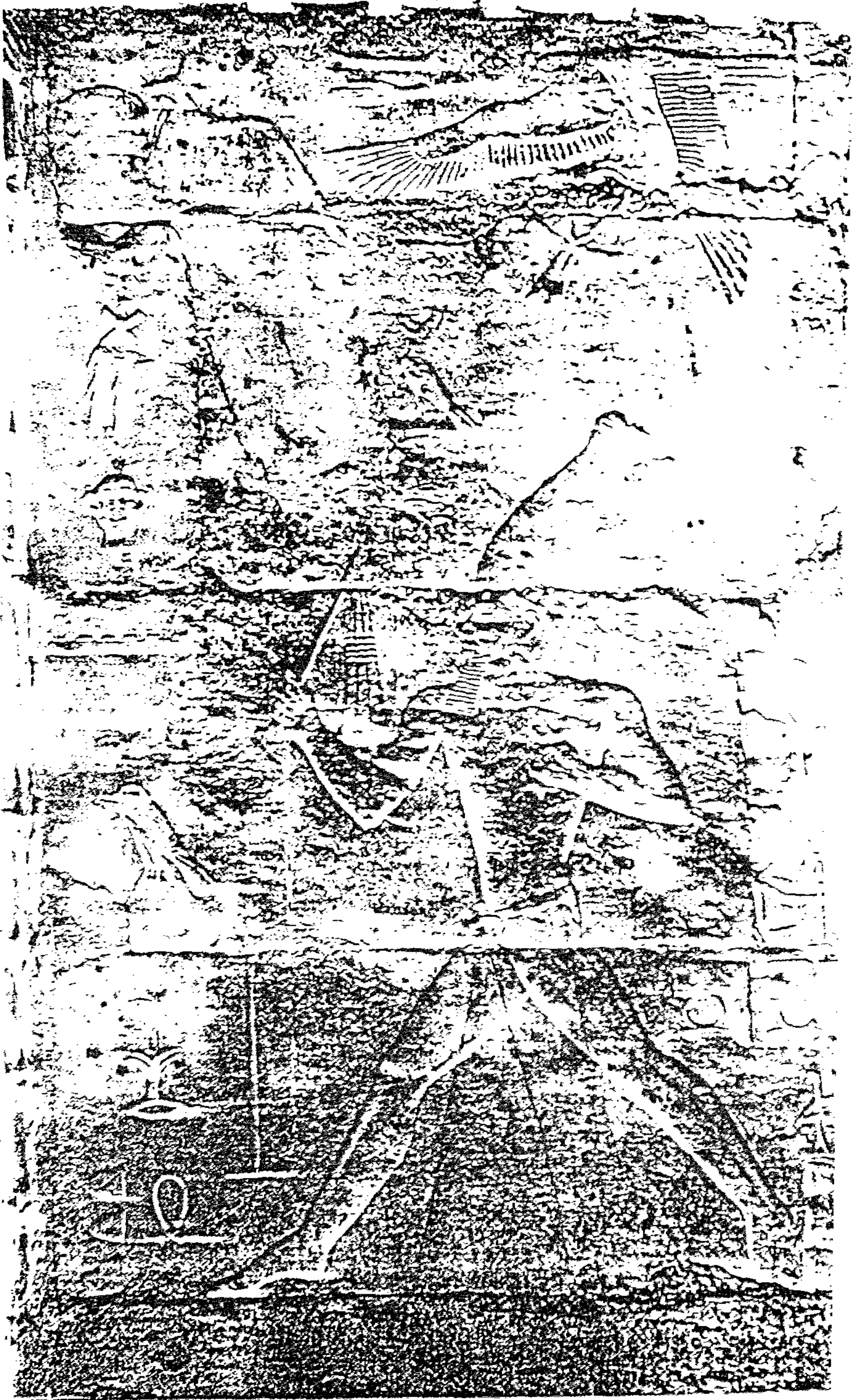
كباش بوعلام (الجزئر)

لوحة II



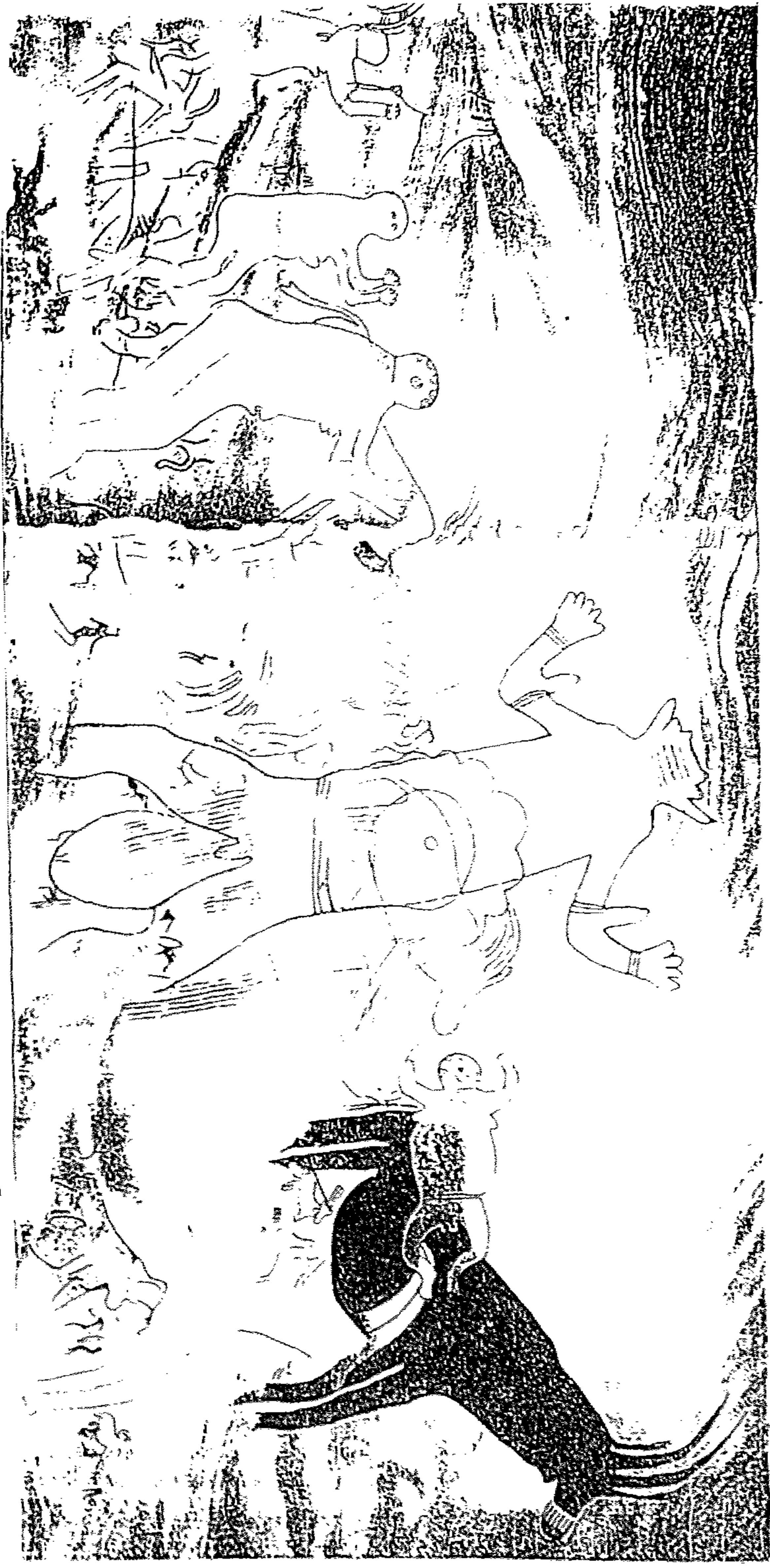
« السيدة البيضاء » تاسيلي نشر لوط

لوحة III



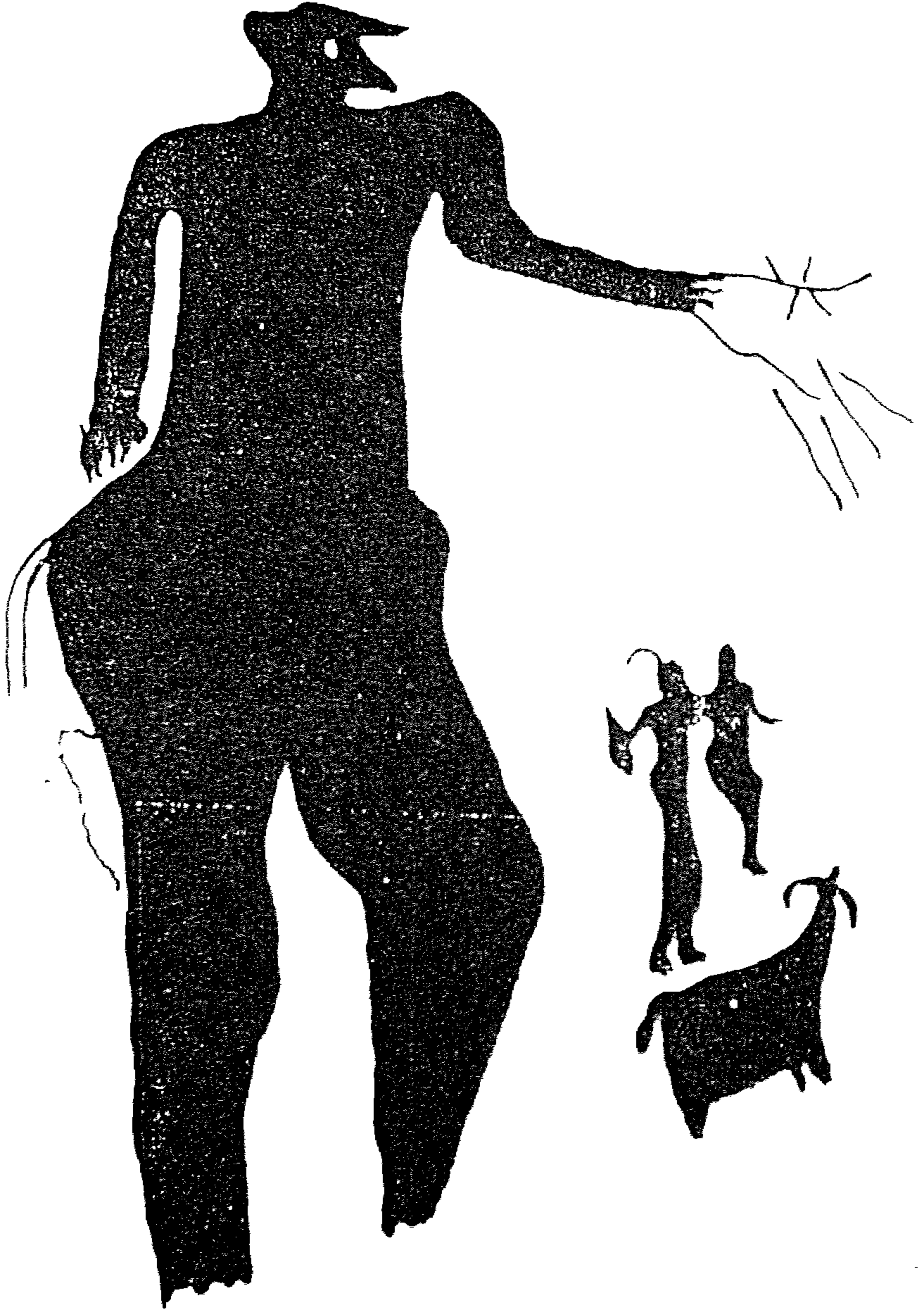
زوسر (الأسرة الثالثة الفرعونية)

وهو يؤدي طقوس عيد الحب سد



الإله الكبير - تاسيلي - نشر لوط

لوحة ٧



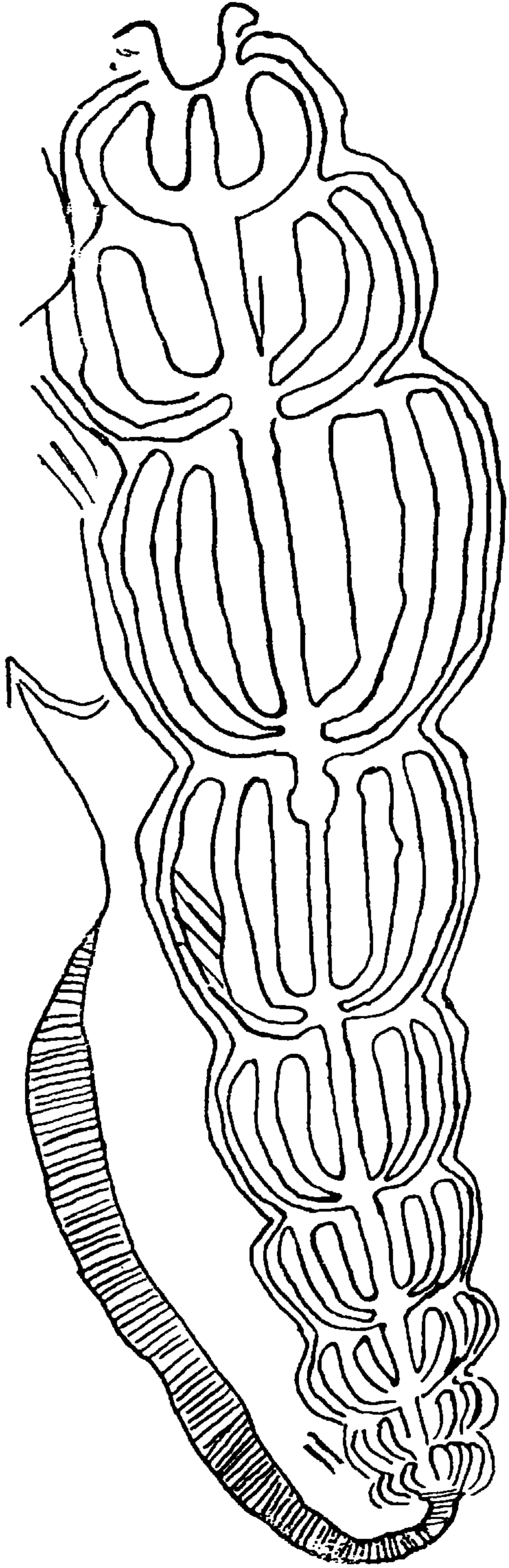
Tracings of a rain deity from jubbah.

أشكال آدمية خيالية في جبه بحائل عن مجيد خان



« الكائن اطرالى » شمال الجزيرة العربية عن مجمل خان

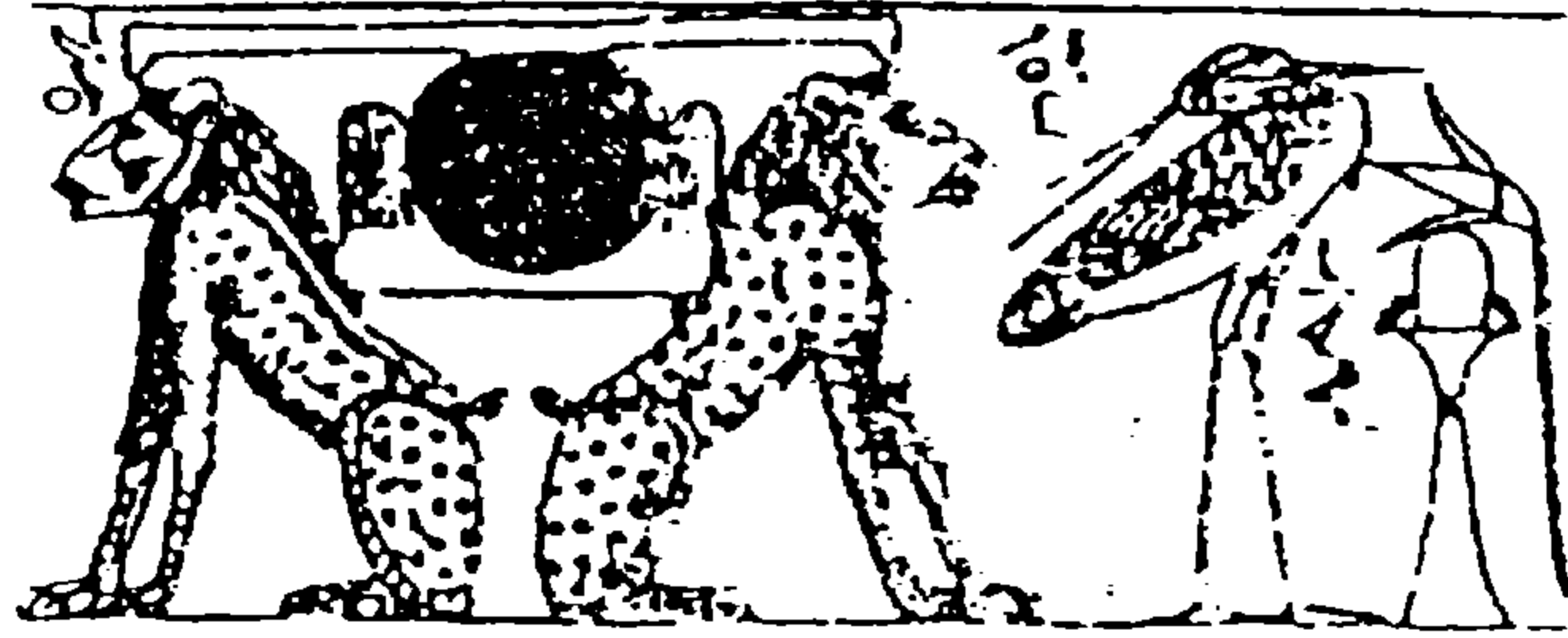
لوحة VII



الكائن المعجيب (جارة الطالب) الجزائر

عن : Vaufray

لوحة VII



إلى السان إلهي الأمس واليوم في صورة أسدين ظهرأ لظهر يدعمان
الأفق بقرص الشمس فوقهما عند رمز السماء . أسد اليسار يسمى
« اليوم » وأسد اليمين يسمى « الأمس » .

لوحة IX

الهوامش

(١) سبق للباحث أن تعرض لذكر هذا التصنيف بشيء من التفصيل فى بحث سابق . انظر للباحث (الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم) مجلة المؤرخ العربى ، العدد السادس ، المجلد ، مارس ١٩٩٨ ، ص ٦٢ - ٦٥ .

(٢) اتجهت بعض الآراء نحو مواطن أصول الأنواع البرية للنباتات والحيوانات . وفى زعمهم أن أقاليم غرب آسيا هى الموطن الأصيل للنباتات التى استزرعها الإنسان فيما بعد ، فهى مهد الزراعة . انظر على سبيل المثال

Butzer. K. W. Environment and Human ecology in Egypt, B. S. R. G. E., xxx11, 1959, p. 44-45, Physical conditions in Eastern Europe, Western Asia and Egypt before tlement, in the Cambridge Ancient History, (Cambridge), 1970, Vol.1, P. 92.

وكذلك ج. هاوكس ول . وولى ، ثلاثة فصول مترجمة من كتاب (ما قبل التاريخ وبداية المدنية) ، ترجمة وتعليق يسرى الجوهري ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) انظر Braidwood, and Howe, Prehistoric Invetigations in Iraqi Kurdistan, 1960, p. 120. Mellaart in C. A. H., 1967 chap VII.

(٤) مما يذكر عن التشيعيين لهذا رأى ساقوا بعض التراكيب اللغوية التى تؤيد وجهة نظرهم ، فأشاروا إل وجود عنصر لغوى : آمون أو آمون Amon - Ammon وهو إله كبش للماء فى كل بلاد البربر وليبيا ، وإن هناك كلمة بربرية تعنى الماء هى : آمان و آمون وتستعمل أيضاً فى لهجات الطوراق ، وعند الجوانش Guanches فى جزر الكنارى .

(٥)، (٦) انظر مقال الباحث (الفن الصخرى فى بلاد القديم) سبقت الإشارة إليه فى هامش (١) ص ٧١ لوحة ٩ .

(٧) عن الجرامنت انظر ، فوزى جاد الله ، مسائل فى مصادر التاريخ الليبى قبل هيرودوت ، ليبيا فى التاريخ ، المؤتمر التاريخى ، مارس ١٩٦٨ ، ص ٤٣ - ٨٢ .

(٨) Lahote, H., Ala decouverte des fresques du Tassili, B. Arthaud, Paris, 1973, plts. II, 35.

(٩) مجيد خان ، الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ فى شمال المملكة العربية السعودية ، نشر
وزارة المعارف السعودية ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م لوحة ٨٠ .

(١٠) للمقارنة انظر Cyril Aldred, Egyptian art, London, 1980, fig. 14

(١١) ج. كى زيربو (الفن الأفريقى فيما قبل التاريخ) منشور فى مجلد (تاريخ أفريقيا العام)
اليونسكو ، مجلد ١ ص ٦٧٧ .

(١٢) الملك العقرب من ملوك مملكة الصعيد ، قبل اتحاد القطرين ، ويعتقد أنه ممن حاولوا ضم
مملكة الدلتا مع الصعيد فى مملكة واحدة ، قبل الملك (مينا - نعرمر) ومن آثار الملك
العقرب نقش على رأس دبوس للقتال .

(١٣) Vaufrey, R. Prehistorie de l'Afrique, t. I. Magherb, Paris, 1955, p.299, pl.44

(١٤) ج. كى زيربو الفن الأفريقى ، اليونسكو ، مرجع سابق ، ص ٦٧٧ .

(١٥) الواقع ورد ذكر من جانب مجيد خان ، عن وجود خيول وحشية وأفيال فى مناطق
بشمال المملكة العربية السعودية ، واستشهد بلوحة رقم ٢٣ وبالأشكال ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ وجاء فى وصف هذه الأشكال ص ٦١ أنها خيول وحشية أو ربما حمير
(!؟) وبتفحص الأشكال المشار إليها ، اتضح لى أنها أقرب إلى كونها حميراً فالأذنان
طويلتان والذيل قصير ، وقد اقترح خان لهذه اللوحة الفترة ما بين الألف السابع والألف
الخامس قبل الميلاد وهو تاريخ مبكر جداً ، عن العصر الذى ظهر فيه الحصان فى الشرق
الأدنى القديم ، ونقول أن نفس الملاحظة تنطبق على ما أورده فى اللوحة رقم ٢٦ ، وفى
شأن لوحة رقم ٣٨ : رقمى ٢٥٩ ، ٢٦٠ ربما صور الفنان الحصان بأسلوب تجريدى
ولم يقترح خان لهذه اللوحة تقويم زمنى معين ، مما يصعب أن نعول على ما جاء بها .
أما بشأن الأفيال فلم يشر خان إلى أى رسم لهذا الحيوان ، ونراه يناقض نفسه فى ١٤٣
حين : قال : « أما الأشكال التى ترمز للفيل فهى تخطيطية بدرجة كبيرة وفى موقعين فقط »
(لم يذكرهما !) ثم نراه يعود فيتشكك هو نفسه فيما أورده عن الفيل فيقول (رغم أن
وجود الأفيال فى الجزيرة العربية بعيد الاحتمال تماماً أثناء فترة العصر الحجري الحديث
المتأخر . لكن يبدو أنه مألوف لدى الرسامين) (!؟) انظر : مجيد خان ، الرسوم الصخرية

فى شمال المملكة العربية السعودية - مرجع سابق ، الصفحات واللوحات المشار إليها
آنفاً .

(١٦) فى بحث سابق للدارس عن بعض لوحات من النقش الصخرى ، عرض لرأيه بخصوص
الكثافة الفائقة عن الحد فى بعض المواضع وبالجهد الخارق فى سبيل تنفيذها . الأمر
الذى يجعلنا نعتقد أن أصحاب هذه النقوش كانوا على وشك ابتداء رموز للكتابة خاصة
بهم ولكن لظروف بيئية وطبيعية دهمتهم وثدت هذه الإرهاصات الوليدة . انظر
للباحث: الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم . ارجع لهامش (١) .

(١٢) انظر هامش (١١) .

المصادر والمراجع

- فرنان دى بونو " وادى النيل قبل التاريخ " ، فى تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الأول ، اليونسكو ١٩٨٥ ص ٦٤١ - ٦٦٣ .
- Bar-Yosef, O., and Phillips, J.L., Prehistoric investigations, in Gebel. Maghara, Northern Sinai, Jerusalem, M. I. A. No 7., 1977.
 - Clark, J.D., Mesolithic Times, in : The Cambridge Ancient History, Vol, I p. I. 1980.
 - Close, A. E., Prehistory of Arid North Africa, Dallas, 1988.
 - Debono, F., and Mortensen, B., El - Omari A Neolithic settlement and Other . Sites, in the vicinity of Wadi Hof, Helwan, D D. I. A. Kairo, 1992.
 - Eiwanger, J., Merimede Beni salame, III, D. D. I. A., Kairo, 1992, abb 13, 14.
 - El-Cherief, H., « Outils Lithiques a Danfik (Nagade), A. S. A. E., t. LXXII, Le Cairo, 1993.
 - Hassan, F. A., The Sebilian of the Nile Valley : Some New Concepts, in L.G. Freeman Viens of the post, Paris, 1981.
 - Huzayyin, S.A, The place of Egypt in Pre - history, M. I. E., t. 43 Le Caire, 1941.
 - Kozlowski, J. K., Recherches Préhistpriques dans la Cirque de Deir el- Bahari (Montagne Thebaine). Etudes et Travaux, IX, T. C. A. M. P. S. (pp. 48 - 55).
 - Mc Burney, C. B. M., The Stone Age of Northern Africa, 2nd., ed., London (1980).
 - Phillipson, D. W., African Archeology, Cambridge, 1986.
 - Rizkana, I, and Secher, J., Maadi II, The Lithic Industries, of the Predynastie Settlement, Kairo, 1988.

- Rocke, J., « Les industries paleolithiques de la grotte de Taforalt (Morac Oriental). Actes du congres Panafricain de Prehistoire, Vi session Dakar, 1967.
- Schild, R., and Wendorf, F., New exeplorations in the Egyptian Sahara, In Problems in prehistory, North Africa and the Levant, Dallas, 1975, pp. 65- 112.
- Taute, W., « Das Ende der Altsteinzeitin Nordafrika, Sahra, 10.000 Jahre Zwischen Weide and Wuste Koln, 1978, pp.48 - 59.
- Vaufrey, R., Préhistoire de L'Afrique, I, Maghreb, Paris, 1955.
- Vignard, E., « Une nouvelle industrielithique Le Sebilien, « B. I. F. A. O. XXII, 1923.
- Vignard, E., « Une Station Aurgnacienne à Nag Hammadi., (Haute Egypte).
Station du champ de Bagasse. « B. I. F. A. O., XVIII, 1921,(pp.1-0).

الخليج العربى : الموقع والأهمية

خلال العصر البرونزى الحديث

(١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق.م .)

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين(*)

لعبت جغرافيا الخليج العربى دوراً هاماً فى توزيع المراكز الحضارية على طول ساحله الغربى بصفة خاصة . وكان لتوافر العديد من المرافق الطبيعية والمراسى المحمية ، ومياه الشرب من عيون وآبار - خاصة فى واحة الاحساء بشرق السعودية ، فيلكا ، جزيرة البحرين وجزيرة أم النار بدولة الإمارات العربية المتحدة - أثر فى الجغرافيا البشرية لسكان المكان عبر فترات طويلة من التاريخ القديم(١) . إضافة إلى ذلك ، فإن توافر المواد الأولية كالنحاس ، والأحجار ، واللؤلؤ ، وبيض النعام ، ساعد على تبادلها فى مقابل ما كان يحتاجه أهل المكان مع سكان المناطق المجاورة من الأخشاب والعاج ، والعقيق الأحمر واللازورد ، وبصفة خاصة بلاد الرافدين (العراق القديم) (٢) ، شمالاً وحتى أقصى الشرق فى منطقة وادى السند ، براً عبر إيران ، أو بطريق المساحلة البحرية إلى سواحل الهند وباكستان ، وخاصة إلى ميناء لوئال(٣) ، اعتماداً على ما ورد فى النصوص السومرية ، حيث وردت كلمة « خارانوم » فى النصوص السومرية بمعنى « رحلة بحرية » ، وكانت تتم عادة فى شهر آيار (مايو) ، وكانت البضائع تجهز فى شهر آذار (مارس) ، وتبحر إلى الساحل الهندى قبل موسم الرياح فى المحيط الهندى(٤) . « انظر خريطة(١) » .

ودلت البحوث الأثرية بالمكان ، وخاصة من البعثة الدانمركية الأثرية من متحف أرهوس بالدانمرك (بدءاً من عام ١٩٥٣) ، وبعض أعمال التنقيبات

(*) كلية الآثار - جامعة القاهرة .

الأثرية من البعثات الإنجليزية ، الفرنسية ، الأمريكية ، الإيطالية ، وكذلك من بعض البعثات العربية المشتركة ، إضافة إلى بعض المصادر النصية ضمن وثائق حضارات بلاد الرافدين دلت هذه البحوث على قدم المراكز الحضارية بساحل الخليج العربي الغربى منه ، أو الشرقى الإيرانى خلال الألفين الثالث والثانى قبل الميلاد^(٥) ، مع وجود بعض الفراغ التاريخى ، وكذلك عدم العثور على ما يؤكد استمرارية الوجود البشرى ، لأسباب متعددة خلال ما يعرف بالعصر البرونزى المبكر والوسيط .

وشهد العصر البرونزى الحديث (١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.) تغيرات عديدة بظهور قوى حضارية جديدة بالمكان (الشرق الأدنى القديم) كان لها تأثيراتها على المكان وأهله ، وكذلك عودة الحياة إلى بعض المراكز الحضارية خاصة فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية ، والشمال الغربى منها (اليمن والسعودية على التوالى) ، وما كان له من تأثيرات على المكان واتصالاته . وكانت الخريطة السياسية للشرق الأدنى القديم من منتصف الألف الثانى ق. م. واضحة المعالم فى تسيد قوى دولية بعينها على مناطق جغرافية محددة : الإمبراطورية المصرية فى أقصى توسع جغرافى لها اشتمل على النوبة (إلى الجنوب من مصر وفى جمهورية السودان الحالى) ، ما بين الجندل الرابع وشمالاً إلى الحدود المصرية فى القطاع الأفريقى ، وفلسطين ، والأردن ، ولبنان ، وجنوب سوريا فى القطاع الآسيوى^(٦) ، الإمبراطورية الميتانية (الحوريون) فى الجزء الشمالى من بلاد الرافدين ، المملكة البابلية الكاشية (الكاسيون) ذوى الثقافة اللغوية الآرية (هندوأوربية) كأحد شعوب الشرق الجبلية (١٥٧٠ - ١١٥٨ ق. م.) ، والإمبراطورية الحيثية (تركيا الحالية)^(٧) . وشهدت المنطقة علاقات متشابكة تفاوتت ما بين العلاقات الدبلوماسية ، والتجارية التى كان يدعمها أحياناً الزواج « الدبلوماسى » من جهة ، أو التزاحم والصراع العسكرى من جهة أخرى^(٨) . وقد شغلت الأحداث الإمبراطورية الميتانية فى تداخلاتها وصراعتها فى جبهتين : ضد الإمبراطورية الحيثية ، والمصرية القديمة فى عهد ملوك أسرة التحامسة من

الدولة الحديثة ، وأن تطورت تلك العلاقات العدائية بين مصر وميتان إلى علاقة تسودها المحبة والصداقة ، دعمها « الزواج الدبلوماسي » من أجل مواجهة النفوذ المتزايد للحثيين في بلاد الأناضول (٩) . ولعل ذلك التداخل في الصراع منع النفوذ الميتاني من التداخل إلى الجنوب من بلاد الرافدين ضد السيادة الكاشية ، وربما بالتالي من التوسع جنوباً في مناطق الخليج العربي (١٠) .

وكان لظهور أخطار « شعوب البحر » دور سلبي على المراكز الحضارية الهامة في الأناضول (تركيا) ، وساحل شرق البحر المتوسط وعلى مصر الفرعونية ذاتها وإلى حين (١١) ، بينما كانت المناطق الشرقية (الأبعد إلى الداخل) نسبياً بعيدة عن خطرهما المباشر ، وإن وقعت ذاتها فريسة للنزاع الداخلي ما بين آشور وبابل ، واستفادة عيلام من ذلك ، وتقدمها غرباً للإجهاز على بابل ، حيث سقطت الأسرة الكاسية حوالي ١١٦٠ ق. م. تحت ضربات الملك العيلامي « شونروك ناخونته الأول » منهياً بذلك فصل من فصول الحضارة العراقية ، ولتبدأ من بعد زعامة أسرة حاكمة من أيسن (أيسن الثانية ، ١١٥٨ - ١٠٢٧ ق. م.) ، والتي كان آخر ملوكها نبوخذ نصر الأول (١١٢٦ - ١١٠٥ ق. م.) الذي يذكر له محاولة إعادة توحيد البلاد (١٢) .

ومما يرتبط أيضاً بفترة العصر البرونزي الحديث هو معرفة أهل منطقة الجزيرة العربية ، وحواف الخليج العربي الغربية ، لاستئناس الجمل واستخدامه كوسيلة انتقال وحيوان حمل عبر فيافي الصحراء . ولعل ما كان معروفاً عن طبيعة هذا الحيوان من قدرة على الصبر ، وتحمل العطش والجوع ، ما ساعد على اختراق تلك الفيافي من صحراء شبه الجزيرة العربية ، وبدء تدشين سلسلة من خطوط الانتقال لنقل تجارة البخور بصفة رئيسية عبرها . ولعل أهمها ما كان موازياً لساحل البحر الأحمر الشرقي ، من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام شمالاً وشمال غرب إلى مصر ، أو باتجاه شمال شرقي إلى منطقة الإحساء على الخليج العربي ، ثم شمالاً إلى جنوب العراق ماراً بالكويت ، أو عبر ساحل ظفار (حضر موت) ثم إلى

الداخل عبر دولة الإمارات العربية المتحدة إلى ساحلها الغربى على الخليج العربى ماراً بمنطقة حفيت وهيلى (١٣) . وتأرجحت عملية استئناس الجمل ما بين ١٤٥٠ ق. م. إلى ٨٥٠ ق. م. وفقاً لما عثرت عليه بعثة جامعة بنسلفانيا الأمريكية من بقايا عظميه بموقع وادى الجوىة فى اليمن عام ١٩٨٣ (١٤) . بينما رجح «أولبرايت» حدوث ذلك حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد (١٥) . (انظر خريطة ٢) .

وقد رجح رأى لبعثة « جون هوبكنز » الأمريكية ٧٣ - ١٩٧٤ أن الكسر الفخارية المتناثرة على تلال جزيرة عكار « القرين » بالكويت تعود فى معظمها إلى العصور الإسلامية حوالى القرن السابع عشر الميلادى ، واشتملت بينها قطع فخارية مستوردة من منطقة البحر المتوسط من القرن الثانى الميلادى ، وأيضاً بعض الكسر الفخارية الكاسية الطراز من أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد (١٦) ، والذى يرجح معه وجود تداخل ما بين تلك الجزيرة والقوى السياسية الهامة على مسرح الشرق الأدنى القديم السياسى آنذاك ، وعلى توزع الدلائل الأثرية على اتصالها بالمكان وبغيره من مراكز حضارات الخليج العربى القديمة . ومن اللافت للنظر وجود فراغ زمنى فى التواجد البشرى على جزيرة فيلكا ما بين فترة ايسين الثانى والعصر الكلدانى . ولم يعثر إلا على دليل خادع ممثلاً فى جرة من العصر الحديدي عثرت عليها البعثة الفرنسية أثناء حفائرها فى طبقات العصر البرونزى من موقع فيلكا ٦ (F6) (١٧) . وتشبه تلك الآنية من الجرار (bell - shapes ar) والمزينة بزخرفة من الحبال حولها مع تلك الأوانى الجنازية من نيبور ، لارسا ، تل اللاخوم والبحرين المؤرخة عادة من الفترة ما بين القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد (١٨) . إضافة إلى ذلك فقد عثر على بعض الأختام الأسطوانية الكاشية الطراز أو ذات طراز كاشى زائف ، وعيلامى ضمن موقعى فيلكا ٣ و ٦ (الأختام أرقام ٣٩٨ - ٤٢٢) (١٩) . وبصفة عامة فإن الوجود الكاسى فى فيلكا ذا طبيعة مختلفة تمثل فى أن الأنماط الفخارية من المرحلة (4A) فى موقع القصر (F6) فى فيلكا (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق. م.) محلى الصناعة ، ولم يعثر ضمن أنماطه على

تلك الأواني الطويلة المميزة من نمط (Flask) (٢٠) . بينما يتضح من أنماط فخار مرحلة (4A) فى فيلكا من موقع (F3) (١٢٥٠ - ١٠٠٠ ق.م.) أنه كان مستورداً من بابل . وعثر على بقايا نمط تلك الأواني المميزة (Flask) هناك (٢١) . كما أن اختتام مرحلة العصر الكاسى وما بعده (معظمها من الأخير) عثر عليها فى كل من فيلكا ٣ (F3) وفيلكا ٦ (F6) . وبالمثل فإن البقايا المعمارية المدنية (المنازل) فى (4B) فى فيلكا تنتمى كذلك إلى الفترة الأخيرة من مرحلة العصر الكاسى ، واستمرت إلى ما بعدها (٢٢) .

إضافة إلى ذلك ، فإن معظم الاكتشافات فى مناطق شرق المملكة العربية السعودية خلال الثلاثين عاماً الأخيرة تؤرخ من الألف الأول قبل الميلاد ، من العصر الحديدي إلى العصر الساسانى ، ثم مرحلة ما قبل العصر الهيلينى (٢٣) ، فيما عدا بعض المواد الأثرية المشابهة للحضارة الكاسية حيث عثر على خاتم أسطوانى من الفينانس فى موقع السبخة ما بين الظهران والعقير يؤرخ من القرن ١٣ أو ١٢ ق.م. ، وعلى كسرات من الفخار من النمط المعروف (ring - based goblets) من العصر الكاسى أو العيلامى فى منطقة إلى الجنوب من الظهران ، وذلك عام ١٩٨٣ (٢٤) . كما رجح Zarins تأريخ المادة الأثرية المكتشفة فى بعض مواقع جبانة الظهران المثلة فى رءوس سهام نحاسية ، وأحياناً حديدية ، أساور نحاسية وخواتم ، خرز ، محار ضخمة ، وبعض الأطباق الصوانية الصغيرة من الجزء الأخير من الألف الثانى ق.م. (٢٥) . كما أن المادة الأثرية من إحدى مقابر الظهران اشتملت على فخار وأدوات حجرية يتطابق على الأقل فيما يتعلق بالأواني الحجرية مع تلك الأواني المعروفة من موقع القلعة بالبحرين فى مرحلتها الثالثة (Qalaat City III B) (١٥٠٠ - ١٤٠٠ ق.م.) وتتشابه مجموعة من الأواني الفخارية من نمط goblet ذات القاعدة المسطحة والدائرية مع مثيلاتها الكاشية العيلامية (٢٦) .

وفيما يتعلق بشبه جزيرة قطر ، فقد لعبت الظروف البيئية ، وعدم توافر المياه وقلة الأعشاب دوراً سلبياً على المكان . ودرج الباحثون على إطلاق صفة «الأرض المجذبة» على المكان . ويبدو أن سكانها اضطروا للهجرة ربما إلى الساحل المقابل : إلى يابسة شبه الجزيرة العربية . ولم يقطع الصمت عن المكان ، وتاريخه منذ العصور الحجرية القديمة والوسطى وربما النيوليثية إلا ما كشف عنه أخيراً من أعمال للبعثة الأثرية الفرنسية في موقع « الخور » من وجود « ٢ مليون محارة Shell » ، مما يرجح معه أن يكون المكان قد استخدم لاستخراج الأصباغ ، والتي تذكرنا بما كان للفينيقيين من ارتباط بالمكان وفقاً لآراء الباحثين القدامى (٢٧) ، إضافة إلى ذلك فإن ارتباط العثور على الأصباغ مع الفخار الكاسي الطابع أكد تأريخ الموقع من أواخر الألف الثاني ق. م. وأوائل الألف الأول ق. م. (٢٨) . وعكس تشابهاً للفخار المكتشف من مرحلة (4B) في جزيرة فيلكا الكويتية المؤرخ من أواخر العصر الكاسي (٢٩) . ومن الملاحظ أن معظم ما عثر عليه بعد ذلك في قطر يرجع إلى عصور متأخرة جداً ، من العصر اليوناني وما تلاه خلال العصر السليوقي بالمكان من القرن الثاني قبل الميلاد (٣٠) .

كما أوضحت الدلائل الأثرية المكتشفة من مواقع دولة الإمارات العربية المتحدة ندرة وجود آثار من العصر البرونزي الحديث فيما عدا موقع القصيص المؤرخ من نهاية الألف الثاني ق. م. (٣١) ، وأن معظم ما دلت عليه أعمال التنقيب الأثرية الأخيرة في حفيت ، بديع بنت مسعود ، هيلي ، الرميلة ، وقطاره تعود إلى العصر الحديدي (٣٢) ، وفي ارتباط فيما يبدو باختراع نظام الأفلاج كوسيلة ري ، ومع خطوط الاتصال التجاري مع مناطق جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بعد عملية استئناس الجمل والقدرة على اختراق الفيافي ، محملاً بإنتاج الجزيرة من البخور ، واللبان المرغوب فيهما من المراكز الحضارية المجاورة وما تلاها (٣٣) .

وقد شهدت مرحلة أواخر العصر البرونزي الوسيط في دورية الثاني إلى الثالث تناقصاً متزايداً في ترديد اسم دلمون (البحرين) في المصادر الميزوبرتامية .

ويرجع آخر ذكر لها من تلك الفترة من العام الخامس من فترة حكم «سامسوايلونا» (حوالى ١٧٤٥ ق. م.) حيث ورد ذكر « نحاس من دلمون » جنباً إلى جنب مع « نحاس من آلاشيا » (٣٤) ، والتي رجح أن تكون «قبرص» (٣٥) . وتعود عدة عوامل إلى إنهيار الاتصال التجارى بين بابل ودلمون ، وإلى انهيار الثراء الاقتصادى فى موقع الخليج العربى فى هذا الوقت لعل من بينها انهيار الحضارة الهارابانية Harappan فى أوائل الألف الثانى ق. م. مما جعل من الصعب الحصول على المواد القيمة النفيسة من الشرق ، ونقلها إلى جنوب ميزوبوتاميا خاصة إلى أور . كما توضح الإشارات إلى نحاس الاسيا (= قبرص) مدى التغير فى الاتجاه الاقتصادى ناحية الغرب كمصدر لتلك الموارد الضرورية ، وبالتالي قللت من أهمية ماجان ودلمون كمولين لذلك (٣٦) . وربما كان لغزو أريان (Aryan) للموخا فى منتصف الألف الثانى ق. م. تأثير سلبى واضح فى توقف بل ووضع حد للعلاقة التجارية مع ملوخا ، وبالتالي سبب إنهياراً سريعاً فى ثراء وغنى ، وأهمية دلمون (٣٧) . ولم تظهر دلمون ثانية فى المصادر الميزوبوتامية حتى القرن الرابع عشر ق. م. خلال العصر البرونزى الحديث (LB) . وترجح الدلائل الأثرية من البحرين وفيلكا أن الفترة المتأخرة من الألف الثانى ق. م. كانت فترة هدوء نسبى فى المناطق الشمالية من الخليج العربى ، بينما فى ميزوبوتاميا استمتعت الأسرة الكاشية بداءاً من عام ١٧٥٠ ق. م. بحكم طویل نسبياً تميز فى معظمه بالسلام ، والاتصالات الدولية البعيدة ، كما كان لها علاقات متعددة مع منطقة دلمون (البحرين) ، والتي كانت مصدراً هاماً للتمور (٣٨) . وقد قدمت حفائر البعثة الأثرية لمتحف أرهوس الدانمركية عام ١٩٥٦ الدلائل على الوجود الكاسى بالبحرين فى منطقة القلعة استناداً على العثور على نمط فخار (Carmel ware) المميز للعصر البابلى القديم والعصر الكاسى (٣٩) . كما عثر على دلائل معمارية فى نفس المكان من العصر الكاسى أيضاً . وكان من نتيجة حرق المكان (أو القصر) أن حفظت الكثير من الشردات وبقايا الفخار التى أعطى التأريخ بالراديو كربون ١٤ (C14) تاريخاً من ١١٠

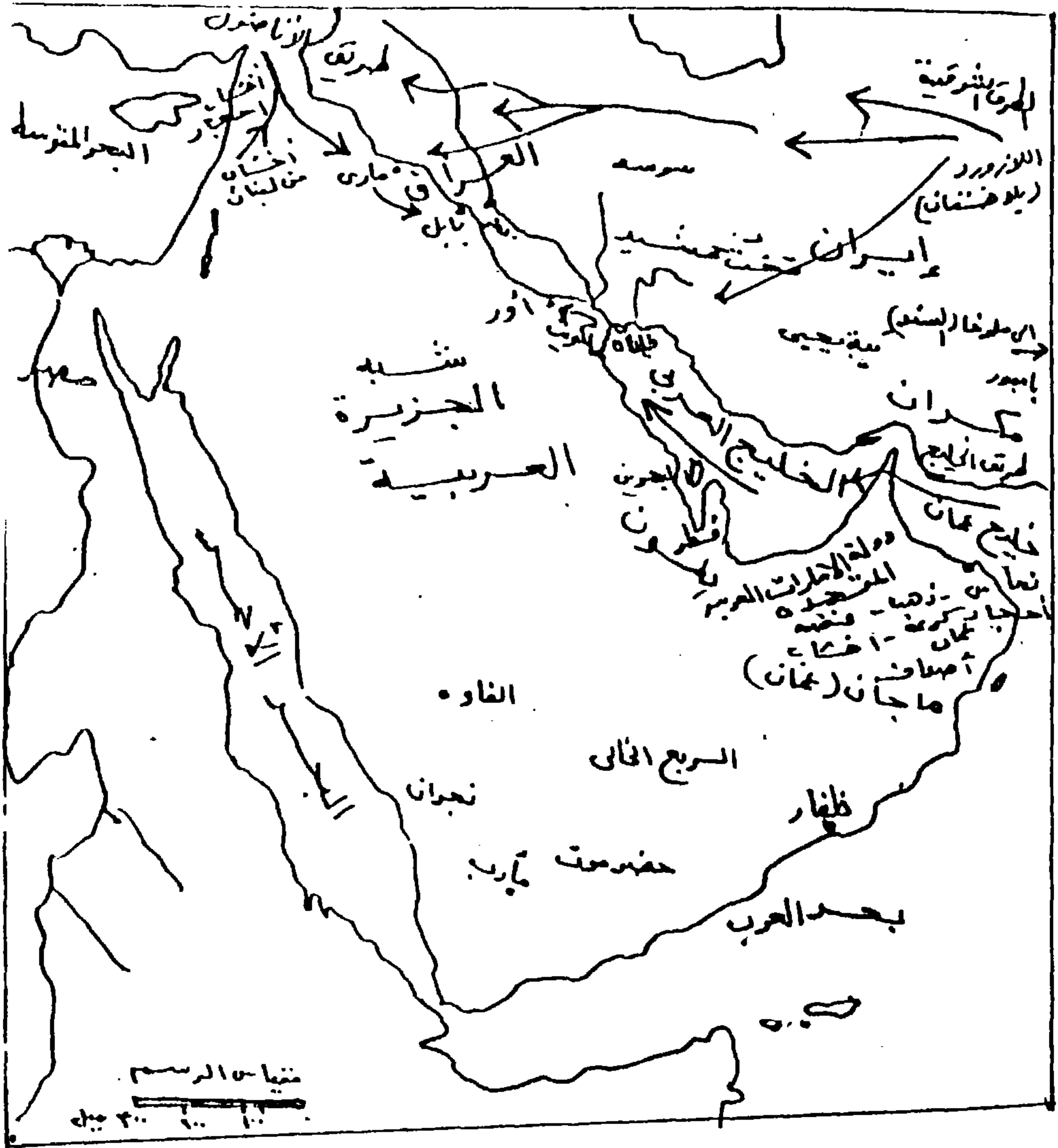
+١٨٠٠ ق. م. (٤٠). كما كشفت أعمال الحفر الأثرى من عام ١٩٧٠ بإشراف الطراونة F. al. Tarawneh فى موقع الحجر عن وجود مجموعة من المقابر (عدد ١٤ قبر) مقطوعة فى الصخر ، تعود مقابر ١، ٢، ٣، ٨، ١١، ١٢ منها إلى العصر الكاسى ، استناداً على تواجد الفخار ، والأختام الأسطوانية ، وخاتم من الفينانس من نفس نمط نوزى من القرن ١٥ - ١٤ ق. م. عثر عليه فى القبر رقم (١) ووجد عليه تصوير لاثنين من الغزال . كما عثر على خاتم زجاجى مؤرخ من القرن ١٤ - ١٣ ق. م. فى القبر رقم (٣) يبدو عليه رسم حيوان خرافى بوجهين لأسد ، واقفاً على مؤخرته على شكل بشرى مقهور، وممسكاً لأعلى باثنين من الثيران ذات السنام Humped bull (٤١). كما عثر على أربع مقابر أخرى على الأقل من نفس العصر الكاسى فى موقع « سار » : مدافن ١٥٠ ، ١٥٠ أ ، ١٥٠ ب ، والمدفن الجماعى رقم ٤٢ بها ، والتي تضمنت بقاياها الأثرية فخار يمكن مقارنته مع فخار موقع المدينة الثالثة بالبحرين (City III) (٤٢). إضافة إلى ذلك ، فقد عثرت البعثة الأثرية الاسترالية فى موقع « بورى » فى موسم ١٩٨١ - ١٩٨٢ على فخار كاسى (٤٣). كما عثر كذلك على مقابر كاسية فى موقع المقشة ، وكذلك على مقابر ، أو ربما بقايا سكنات ، استناداً على الشرذات الفخارية ذات الطابع الكاسى على سطح موقع قرية باربار (٤٤). كما أوضحت النصوص السومرية المكتشفة من البحرين بواسطة البعثة الأثرية الدانمركية احتمالية وجود « مدرسة تدريبية » على أرض البحرين ذاتها من العصر الكاسى (٤٥). وبالمثل عثر عام ١٩٧٩ على قطعة حجرية مستطيلة الشكل أعيد استعمالها فى العهد البارثيانى فى موقع إلى الشمال من رأس القلعة مدون عليها بقايا كتابات سومرية اعتبرها B. Andre - Leicknam نقشاً معمارياً من منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد من فترة حكم المدعو " بورنابورياس الثانى » (١٣٥٩ - ١٣٣٣ ق. م.) (٤٦). كما وردت إشارة إلى دلون ضمن نصوص منطقة نيبور التى حفرت بها بعثة أمريكية ما بين ١٨٨٩ - ١٩٠٠ م ، وعثر بالمكان على حوالى ١٢ ألف لوحة مكتوبة ، وآثار تعود إلى العصر الكاسى ، اشتملت بينها على لوحتين وردت بهما

إشارة إلى دلمون . ولعل أهمية تلك النصوص أنها لخطابات تمت كتابتها ، وتدونها في دلمون ، وأرسلت إلى نيبور ، وإلى أنها ترجح أيضاً وجود « حاكم كاسى على دلمون » (٤٧) . وقد رجح أن يكون هذا الحاكم على دلمون فى الفترة ما بين ١٤٢٠ - ١٤١٠ ق. م. خلال فترة ذروة التوسع الكاسى ، وفى قمة اتصالاتهم الحضارية مع ملوك مصر الفرعونية خلال عصر العمارنة (٤٨) . كما تعكس نصوص إحدى الرسائل التى عثر عليها فى نفر مؤرخة من العام الخامس من فترة حكم بورنابورياش الثانى استمرارية العلاقة مع دلمون من جهة ، وعلى تزويد دلمون لبلاده بتمور من جهة أخرى (٤٩) .

وانتهى هذا الدور من السيطرة المكاسية على دلمون ، ووردت آخر إشارة لذلك الوجود الكاسى بالمكان ضمن أحد نصوص الملك نيكولتى - نينورتا الأول (١٢٤٣ - ١٢٠٧ ق. م.) عثر عليه فى موقع تلول عقير ، يتضمن إحصاء بالغنائم الوفيرة للملك التى حصل عليها بعد هزيمته للحاكم الكاسى Kastiliasu (١٢٣٢ - ١٢٢٥ ق. م.) ، وتلقب من بعد بلقب «ملك دلمون وملونخا» (٥٠) . وقد ترتب على ذلك انقطاع ملموس فى التسلسل التاريخى للحضارة فى البحرين لمدة تزيد عن ٥٠٠ عام بعد مرحلة الوجود الكاسى بالمكان وحتى العصر الآشورى الحديث يقطعه أحياناً بعض المكتشفات الأثرية مثلما عثر عليها ضمن أعمال البعثة الأثرية الفرنسية ما بين ١٩٧٩ - ١٩٨٢ بالمكان خاصة أنماط مميزة من فخار ذى لون قرنفلى غامق ، وبصلابة ملموسة ، وفى أشكال جرار طويلة ذات شفة دائرية أو متقلبة ، وجرار ذات قواعد بشكل الطورييد ، أو فخار أكثر شيوعاً بلون أصفر أو أصفر - برتقالى ، وفى شكل جرار ذات رقاب ، وأوانى بشكل الكؤوس قد تشابه فى بعض أشكالها وملاعها مع فخار حجر بن حميد فى وادى بيحان اليمنى ، وفى منطقة نجران - الأخدود قرب الحدود السعودية اليمنية (٥١) . وبإطلاق فإن سقوط الإمبراطورية الكاشية ، وانتهاء دورها فى السيطرة على ميزوبوتاميا عام ١٢٠٠ ق. م. وما ترتب عليه من فقد سيطرتها عليه جنوب بابل ، ومنطقة الخليج العربى قد ارتبط به وجود تسلاات متزايدة من

القبائل البدوية من المنطقة الصحراوية فى شمال شبه الجزيرة العربية من اراميين وكلدانيين وسوتيين ، وربما بالمثل من جنوب غرب الجزيرة العربية استناداً على تلك الأنماط الفخارية (٥٢) .

وبالنظر إلى ما سبق ، فإنه بالرغم من تلك التغيرات السياسية الضخمة خلال العصر البرونزى الحديث فى مواقع حضارات الشرق الأدنى القديم خارج منطقة الخليج العربى ، وبصفة خاصة فى بلاد الرافدين ووادى النيل وشرق حوض البحر المتوسط فإن مجمل ما كشفت عنه الدلائل الأثرية وإلى الآن لا تقدم لنا الكثير من مواقع لتجمعات بشرية كثيفة على الساحل الغربى من الخليج العربى فيما عدا منطقة البحرين ، وأن معظم ما عثر عليه بتلك المواقع ارتبط بصفة خاصة مع تلك التغيرات السلبية الناجمة عن انهيار المراكز الحضارية إلى الشرق من الخليج العربى فى وادى السند بصفة خاصة والتي كان لها من قبل صلات حضارية وعلاقات تجارية بالمكان وأهله من جهة ، وفى الوجود الكاسى المكثف خاصة مع منطقة البحرين من جهة أخرى .



خريطة (١)

أهم المواقع الحضارية في الخليج العربي

وأهم الموارد الاقتصادية المرتبطة به والمنقولة عبره

الهوامش

(١) البدر (سليمان) ، منطقة الخليج العربى خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ « الصلات الاقتصادية والسياسية لمنطقة الخليج العربى فى أواخر الألف الثالث ق. م. » مجلة كلية الآداب والتربية العدد ٩ (يونيو ١٩٧٦) ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ الصباح (ميمونة) الكويت حضارة وتاريخ (المجلد الأول) ، الكويت : ١٩٨٩ ص ٢٦ .

(٢) تعددت الآراء فى التسمية الواجب إطلاقها على العراق القديم ما بن ميزوبوتاميا . بمعنى بلاد ما بين النهرين : دجلة والفرات مع ما فى ذلك من تجاهل لباقى الأراضى المحيطة بالنهرين ، أو بارابوتاميا . بمعنى بلاد ما هو خارج النهرين ، أو بإطلاق تسميات مرتبطة بدويلات مدنها السياسية : بلاد سومر ، بلاد سومر وأكد ، بلاد بابل ، أو بلاد آشور ، وإن كان من الأفضل إطلاق اسم « العراق القديم » ليعطى كل البعد الجغرافى لحضارات منطقة دجلة والفرات وما حولها . راجع عامر سليمان ، القانون فى العراق القديم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد : ١٩٨٧ ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) البدر ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، الصباح ، المرجع السابق ص ٢٦ ، زيادة (نقولاً) ، تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الرابع ، السنة الأولى (أكتوبر ١٩٧٥) ، ص ٦٩ - ٩٤ .

(٤) البدر ، المرجع السابق ص ٤٩ ؛ سلطان (غانم) ، الملاحة البحرية وأهميتها للكويت قديماً وحديثاً ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، إدارة التأليف والترجمة والنشر ، الكويت : ١٩٨٨ ، ص ٣٥ .

(٥) الهاشمى (رضا حواد) ، « دراسة فى مصادر تاريخ وآثار الخليج العربى فى عصوره القديمة » مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٨ ، السنة السابعة (أكتوبر ١٩٨١) ، ص ١١٥ - ١٢٩ ، البدر (سليمان) ، « محاولة لرسم معالم حضارية :

التنقيب الأثرى عملية تقنية بالأساس تعتمد على معطيات علوم أخرى . الجزء الثانى » ،
المنهل العدد ٤٩٢ ، المجلد ٥٣ (١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م) ، ص ٣٠ - ٣٥ ؛ صالح (عبد
العزیز) ، الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية ،
الكويت : ١٩٨١ ، ص ٦٣ - ٨٠ .

(٦) راجع مقالة : Kemp, B.J. « Imperialism and Empire in New Kingdom :
Egypt » (c.1575 - 1087 B. C. « Imperialism in the Ancient world.
Edited by Gatnsey, P. D. and whittaker. C. R. Cambridge
University Press : 1978, pp. 7-57; pp. 284 - 373.

(٧) فرزات (محمد حرب) ومرعى (عید) ، دول وحضارات فى الشرق العربى القديم
سومر وأكاد ، بابل وآشور ، أمور و آرام . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر
دمشق : ١٩٩٠ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ص ١٧٢ .

(٨) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(٩) فخرى (أحمد) ، مصر الفرعونية ، القاهرة : ١٩٧١ ؛ توفيق (سيد) ، معالم تاريخ
وحضارة مصر الفرعونية ، دار النهضة العربية ، القاهرة : ١٩٨٧ ؛ Hayes. W. C. :
« Egypt : Internal affairs from Tuthosis I to the Death of
Amenophis III » , CAHII, Part I, Cambridge University Press :
1973, p. 343.

(١٠) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ١٧٢ .

(١١) توفيق ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

عن شعوب البحر وأخطارها راجع أيضاً :

Sandars, N. K. The sea People, London : 1978.

(١٢) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(١٣) صالح (عبد العزيز) ، تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، الأنجلو المصرية القاهرة : ١٩٨٨ ، ص ٢٧ ؛ مهران (محمد موسى) ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الإسكندرية : ١٩٩٢ ، ص ١٢٨ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ ؛ غلاب (محمد السيد) التجارة فى عصر ما قبل الإسلام ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ١٨٩ - ١٩٨ ؛ خريطة رقم (٤) ؛ رشيد (صبحى أنور) ، (العلاقات بين وادى الرافدين وتيماء) دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ٣٨٧ - ٨٩ .

(١٤) توبلن (مايكل) ، الجوبة ، مشروع وادى الجوبة الآثارى . الجزء الأول : المسح الآثارى فى الجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٨٤ ، ترجمة زاهى حواس ومراجعة د. حاب الله على حاب الله ، المؤسسة الأمريكية للدراسة الإنسان بواشنطن : ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .

(١٥) صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(١٦) النجار (حواد كاظم) ، « التنقيب فى جزيرة عكاز (القرين) ١٩٧٨ (الموسم الأول)، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٣ ، السنة السادسة (يوليو ١٩٨٠) ، ص ٢٤٣ - ٤٤ .

(١٧) سال (ج.ف) تقرير عن انجازات البعثة الفرنسية للكشف الأثرى لجزيرة فيلكا (١٩٨٣ - ١٩٨٧) وخطة البعثة للكشف الأثرى ١٩٨٨ - ١٩٩٢ ، ترجمة د. عز الدين إسماعيل غربية ، وزارة الإعلام ، إدارة الآثار والمتاحف ، الكويت ؛ - Jean Salles (Francois), Failake, Fouilles Francaises 1983, Travaux de La Maison I'Orient No.9, Lyon : 1984

(18) Potts, D. T. The Arabian Gulf in Antiquity. vol. I : Form Prehistory to the fall of the Achaemenid Empire. Oxford : 1990, p.329.

(١٩) كيروم (ب) ، فيلكا من مستوطنات الألف الثاني قبل الميلاد . المجلد الأول ، الجزء الأول : الأختام والأختام الأسطوانية ترجمة د. خير ياسين ومراجعة د. سليمان البدر ود. عز الدين غربية ، إدارة الآثار والمتاحف ، وزارة الإعلام ، الكويت (بدون تاريخ نشر ص ١٧١ - ٧٨ .

(20) Denton, B. E. The Late Second millennium B. C. in the Arab / Iranian Gulf, ph. D. Disserlation, UmI, Ann Arbor : 1991, p. 277.

(21) Denton, Op. cit., p. 277.

(22) Denton, Op. cit., p. 277.

(23) Potts, Op. cit., p. 330.

(24) Potts, Op. cit., p. 303.

(25) Zarins, J. Mughannum. A. S. and Kamal, M., « Excavations at Dhahran South the tomuli field (208 - 92). 1403 A. H., 1983. A Preliminary Report », Atlal the Journal of Saudi Arabian Archaeology 8 (1984), pp. 25-54; Denton, Op. cit., p. 266.

(26) Denton, Op. cit., p. 278. Potts, Op. cit., p. 303.

(27) Rice, M. Search for the Paradise Land. An introduction to the Archaeology o Bahrain and the Arabian Gulf from the earliest times to the death Alexander the Great. Lonodon and New York : 1984, P. 227.

اعتقد تيودور بنت في أن مقابر البحرين تعود إلى الفينيقيين قبل هجرتهم من الخليج العربي اعتماداً على دراسته للآثار ، وتأثره برأى هيودوت الداعى بأن الفينيقيين كانوا يدعون في عهده بأن أسلافهم جاءوا من الخليج . راجع البدر ، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد ، ص ٢٦ .

(28) Rice, Op. cit., p. 278.

(29) Denton, Op. cit., p. 278.

(30) Rice, Op. Cit., p. 227.

(٣١) البدر ، المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣٢) بوشارلات (ريمى) ويير لومبارد ، « نتائج التنقيبات فى موقع رميلة / العين

١٩٨٠ - ١٩٨٣ » ترجمة وليد التكريتى ، مجلة الآثار فى دولة الإمارات العربية

المتحدة ، العدد ٤ (١٩٨٥) ، ص ٤٢ - ٥٩ ؛ شعت (شوقى) ، « التقنيات

الأيرية فى الخليج العربى وأهميتها التاريخية » الخليج العربى . دراسات تاريخية

وجغرافية منذ أقدم العصور حتى الوقت الراهن ، دمشق : ١٩٩٣ ، ص ٥٦ - ٥٩ .

(٣٣) هيستنجر (أ) ، عمان فى الألف الثالث قبل التاريخ الميلادى مترجم إلى العربية ،

سلسلة تراثنا العدد ٤١ ، سلطنة عمان ، إدارة التراث القومى والثقافة : ١٩٨٣ ، ص

٢٦ ؛ ولكنسون _ جى (الأفلاج ووسائل الري فى عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله ،

١٩٨١ ؛ سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، « البخور عصب تجارة البحر الأحمر فى

العصور القديمة » ، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة . مجموعة بحوث نشرت

فى الدوريات العربية والأوربية ، الأسكندرية : ١٩٩٣ ، ص ٥٧٨ - ٧٩ .

(34) Denton, Op. cit., p. 49.

(35) Wachsmann, S. « Is Cyprus Ancient Alashiya? New evidence From an Egyptian Tablet ». Biblical Archaeologist 49.1 (March 1986), p. 37.

(36) Denton, Op. cit., p. 50.

(37) Vine, P. Pearls in Arabian Gulf. The Heritage of Bahrain, Immel Publishing , p. 26.

(38) Denton, Op. cit., p. 50. Vine. Op. cit., p. 26.

(39) Potts, Op. cit., p. 298.

(40) Potts, Op. cit., p. 299.

- (41) Potts, Op. cit., p. 302.
- (42) Potts, Op. cit., p. 302.
- (43) Potts, Op. cit., p. 302.
- (44) Potts, Op. cit., p. 303.
- (45) Potts, Op. cit., p. 307.
- (46) Potts, Op. cit., p. 307.
- (47) Potts, Op. cit., p. 309.
- (48) Potts, Op. cit., p. 310.

(٤٩) البدر ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

- (50) Potts, Op. cit., p. 314 ; Vine. Op. cit., p.27.
- (51) Potts, Op. cit., p. 314 -15.
- (52) Vine, Op. cit., p. 27. Potts, Op. cit., p. 392.

التقاويم السبئية الحميرية

فى ضوء نقش حميرى جديد

أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

لم يعرف اليمنيون القدماء نظاماً موحداً للتأريخ ، فهم لم يؤرخوا بسنى حكم ملوكهم وحكامهم ، ولم يدونوا قوائم بأسماء هؤلاء الملوك والحكام كما فعل المصريون القدماء . والتاريخ الوحيد بسنى حكم الملك الوارد فى النقوش اليمنية القديمة ، سجل خارج اليمن وبالتحديد فى مصر ، وهو التاريخ المنقوش على تابوت التاجر المعينى « زيد أيل بن زيد » (المحفوظ الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة) الذى عاش فى مصر فى عصر البطلمة ؛ فقد جاءت فيه عبارة « ب و ر خ هـ / ك ي ح ك / خ ر ف / ث ن ي / و ع ش ر ي / ك ت ل م ي ث / م ل ك ن » وترجمتها « فى شهر كيهك (من) السنة الثانية والعشرين من (عصر) بطلميوس الملك (Abdel Monem 1984, p. 93) والعبارة تسرد تاريخ دفن التاجر المذكور . ومن الواضح أن كاتب هذا النقش تأثر بأسلوب التأريخ السائد فى مصر فى العصر البطلمى والذى من الواضح أنه استمرار لأسلوب التأريخ الذى كان متبعاً فى عصر الفراعنة .

أن كل ما أورده اليمنيون القدماء من تأريخ للأحداث فى نقوشهم يقتصر على ذكر أرقام السنوات فقط أو ذكر أرقام السنوات مقترنة بأسماء غامضة أكثرها شيوعاً فى النقوش الأسماء : « مبحض بن أبحض » ونبط (نبط أيل بن ابأمر RES 4133) ثم اسم تعرف عليه العلماء أخيراً وهو « ابعلى بن .. » ويبدو من تركيب هذه الأسماء واحتوائها على كلمة « بن » أنها أسماء أجداد أوائل أو زعماء قدامى للقبائل (١) .

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

وقد ظل العلماء حائرين أمام التواريخ المقترنة بهذه الأسماء أو المذكورة بدونها حتى تمت ترجمة النقش المعروف بين النقوش اليمنية القديمة باسم « نقش حصن الغراب » ترجمة صحيحة (٢) ، فقد ساعد ذلك العلماء على التوصل إلى بداية أحد التقاويم اليمنية بأن هذه البداية كانت سنة ١١٥ قبل الميلاد . وقد أطلقوا على هذا التقويم فى أول الأمر « التقويم السبئى » ثم عدلوا التسمية فى السنين الأخيرة إلى « التقويم الحميرى » (لأسباب سنذكرها فيما بعد) . والحقيقة أنه لا السبئيين ولا الحميريين استخدموا تقويمًا فى ذلك التاريخ ، فإن أقدم نقش مؤرخ بهذا التقويم يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، عندما بدأ اليمنيون يذكرون تاريخ بعض الأحداث مقترنة إما باسم التقويم الذى أطلقوا عليه « مبحض بن أبحض » أو باسم التقويم الذى دعوه « نبط » (أو باسم تقويم « أبعلى » الذى لم يتعرف العلماء على اسمه إلا أخيراً) أو يذكرون رقم السنة دون ذكر أى من هذه الأسماء أى أن إتباع اليمنيين للتأريخ للأحداث بدأ بعد البداية المذكورة للتقويم (عام ١١٥ ق. م.) بحوال أربعة قرون .

والذى ساعد العلماء على تحديد عام ١١٥ ق. م. (وهو الرأى الغالب لأن بعضهم حدد هذا التاريخ بسنة ١٠٩ أو بين ١١٨ و ١١٠ قبل الميلاد) كبداية للتقويم المذكور فى نقش حصن الغراب ، ورود العبارة التالية فى السطور الأخيرة من النقش « أ ح ب ش ن / ... ك ه ر ج و / م ل ك / ح م ي ر م / ... و ر خ ه و / د ح ج ت ن / ذ ل أ ر ب ع ي / و س ث / م ا ت م / خ ر ف ت م . (RES 2633) .

وترجمتها « الأحباش ... عندما قتلوا ملك حمير ... تاريخه (شهر) ذو الحجة (لسنة) ٦٤٠ من التقويم » (٣) .

وكما نرى لم يذكر النقش اسم التقويم الذى تنمى إليه تلك السنة ، ولكن الباحثين عادلوا أحداث هذا التاريخ بما ورد فى المصادر الحبشية والمصادر المسيحية البيزنطية عن حملة الأحباش على اليمن على أثر مذبحة (أو محرقة) شهداء نجران ،

وتوصلوا إلى أن ذلك الغزو حدث سنة ٥٢٥ ميلادية . ومن هنا اعتبروا أن سنة ٥٢٥ م هذه هي السنة المقابلة لسنة ٦٤٠ المذكورة فى نقش حصن الغراب . وبطرح السنين ٦٤٠ - ٥٢٥ - ١١٥ أمكن التوصل إلى أن سنة ١١٥ ق.م. هي بداية التقويم الذى تنتمى إليه سنة ٦٤٠ . ولما كانت لا توجد نقوش يمنية مؤرخة بالسنة التى تعادل سنة ١١٥ ق.م أو حتى السنوات التى بعدها حتى القرن الثالث الميلادى فقد اعتبر الباحثون هذه السنة البداية « النظرية » للتقويم اليمنى ، واعتبروها « نظرية » لأن هذا التقويم لم يستخدم فعلاً إلا بعد هذه البداية بحوالى أربعة قرون .

غير أن الذى حير العلماء ورود أرقام سنوات فى النقوش اليمنية مقترنة بأسماء التقويمين « مبحض بن ابحض » و « نبط » ، فافترض بعضهم بدايات لهذه التقاويم تتطابق أحياناً مع التاريخ الذى يبدأ نظرياً بعام ١١٥ ق.م. ، والذى أطلقوا عليه التقويم الحميرى لأنه ورد فى القرن الثالث الميلادى مقترناً بأسماء الملكين الحميريين « ياسر يهنعم وشعر يهرعش » ، بينما افترض آخرون بدايات مختلفة عن بداية هذا التاريخ ومثال ذلك العالم « البرت جام » الذى افترض أن تقويم « مبحض » هذا بدأ سنة ٩٧ قبل الميلاد (Jamme 1962, p. 362) أى أن هناك فارق زمنى بين التقويم الحميرى يبلغ ١٨ سنة بزيادة التقويم الحميرى ، كما افترض أن تقويم « نبط بدأ حوالى عام ٣٤ ق.م. (Ibid) ولكن من ناحية أخرى فقد تنبه علماء آخرون مثل العالم « بيستون » إلى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم الحميرى (الذى كان يسميه فى البداية « التقويم السبتى ») ولكنه اعترف أن آرائه هذه هي مجرد افتراضات (Beeston 1981, p. 4) كما فسر بيستون علاقة التقاويم الثلاثة ببعضها تفسيراً صحيحاً فقال أن تقويم « نبط » كان يستخدم إلى جانب تقويم « مبحض » فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أهمل تقويم « نبط » وبقي تقويم « مبحض » مستخدماً فى النقوش السبئية المتأخرة (يقصد الحميرية) وافترض بيستون أن الفارق بين تقويمى « مبحض » و « نبط » يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سنة (Beeston 1981, p. 3) . وقد اتفق ، أى العالم

« جونزاج ريكماتز » مع رأى يستون فى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم السبتي (يقصد الحميرى) ولكنه أخطأ عندما افترض أن التاريخ الوارد فى النقش رقم RES 3958 المؤرخ بسنة ١٤٤ هو بالتقويم الحميرى (Ryckmans 1943, p. 236) لأنه سوف يتضح أنه مؤرخ بتقويم آخر لم يرد اسمه فى النقوش قبل قراءة نقش المعسال ، وهو التقويم المسمى « ابعلى » كما سنذكر بعد (٤) . وقد حاول العالم البريت تفسير أصل تقويم نبط فقال أنه ينسب إلى آخر ملك قتباني وهو الملك « نبطم يهنعم » لأن الذين استخدموه هم قبائل بنى ذرانح « الذين كانوا يسكنون منطقة كانت خاضعة لدولة قتبان قبل خضوعها لدولة حمير . وقد حدد البريت بداية تقويم « نبط » بالسنة الخامسة قبل الميلاد (Albright 1958, p. 6) ولكن هذا التاريخ ثبت عدم صحته بعد قراءة نقش المعسال . وكل هذه الآراء سواء الصحيح منها وغير الصحيح كانت مجرد احتمالات تفتقر إلى إثبات بالدليل الأثرى ، حتى تم الكشف فى السنين الأخيرة عن نقوش جديدة فى منطقة جبل المعسال التى تقع على بعد ١٥٠ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من صنعاء وكانت هذه المنطقة تسكنها قبيلتان هما قبيلة « ردمان » وقبيلة « خولان » (وهذه الأخيرة غير قبيلة خولان المعروفة التى كانت تسكن فى شمال غرب اليمن بالقرب من مدينة « صعدة ») تنضويان تحت لواء قبيلة كبرى تدعى « بنو معاهر » ومنطقة هذه القبائل تقع إلى الجنوب من دولة سبأ وإلى الشرق من دولة حمير وإلى الجنوب الغربى من دولة قتبان ، أى أنها فى موقع الاحتكاك بين هذه القوى الثلاث (انظر الخريطة) ويبلغ عدد نقوش جبل المعسال (١٨ نقشاً) ، أهمها جميعاً النقش رقم ٢ طبقاً لترقيم البعثة الفرنسية . وقد سبق أن نسخت بعثة ألمانية بعض هذه النقوش ووصفها العالم الألماني « والتر مللر » بوجه عام (Muller 1973, p. 16) ، ثم نشر العالم البلجيكي « البرت جام » بعض النصوص (Jamme 1976, p.110) وأعطاهم الأرقام (2861, 2864, 2867 Ja.) . ولكن لم يتمكن هؤلاء العلماء من نشر النقوش كاملة بسبب وعورة المنطقة وشدة انحدار الصخر من ناحية ولا ارتفاعها الشاهق وصغر حجم حروفها من ناحية أخرى.

ولذلك لم تظهر أهمية هذه النقوش مما نشره عنها كل من والتر مللر والبرت جام، حتى تمكنت البعثة الفرنسية (MAFRAY) باستخدام وسائل أكثر تقدماً ومن بينها عدسات مقربة قوية من نسخ هذه النقوش كاملة أو شبه كاملة ، وتمكن العالم الفرنسي كريستيان روبان من قراءتها (Robin 1981, pp. 316 - 339) ، وركز دراسته على النقش رقم (٢) . الذي ألقى ضوءاً جديداً على التقاويم اليمنية، كما غير من تواريخ حكم بعض ملوك سبأ وحمير التي كانت شائعة بين علماء الدراسات اليمنية القديمة .

لقد كان جبل المعسال يقع فى نطاق عاصمة قبيلة بنى معاهر التى تدعى فى النقوش « وعلان » وهذه القبيلة قتبانية الأصل أى كانت تخضع فى أول الأمر لدولة قتبان ثم خضعت لدولة حضر موت عندما اسقطت هذه الدولة دولة قتبان . ثم ما لبثت قبيلة بنى معاهر أن خضعت لدولة حمير عندما غزا ملوك حمير دولة حضر موت . وهكذا كانت قبيلة بنى معاهر وعاصمتها وعلان فى مركز الصراع بين هذه الدول الثلاث الذى انتهى بسيادة دولة حمير والتى ما لبثت أن اسقطت دولة سبأ وسيطرت على اليمن كله . وكان ذلك فى عصر الملكين الحميريين ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش . وقد أرخت النقوش التى تروى هذه الأحداث لسنوات ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ولم يكن معلوماً قبل قراءة نقش المعسال رقم (٢) مدلول هذه الأرقام على وجه التحديد وأن كان بعض العلماء قد رجح أن تكون هذه التواريخ محسوبة ابتداء من عام ١١٥ ق. م. كما قلنا، ولكن ذلك كان فى عداد الاحتمالات ويحتاج إلى دليل من النقوش حتى جاء هذا الدليل بشكل حاسم فى نص من النقش المذكور كما يلي :

የሆነ ማንኛውም የጽሑፍ ማረጋገጫ ማስፈራሪያ ማስፈራሪያ (የሆነ) ማስፈራሪያ

القراءة : ب و ر خ ن / ذ م ذ ر أن / ذ ل ت س ع ت / و س ب ع ه ي /

الترجمة : فى شهر ذومندر أن (يولية) من (سنة) تسع وسبعين .

|| | ١٥ || ١٥) ٤ | ٤ || | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ |

القراءة: ومأت / خ ر ا ي ف ت م / ب ن / خ ر ف / أ ب ع ل ي / ب ن /

الترجمة : ومائة (من) التقويم (حرفيا : سنوات) (الخاص) بزمان ابعلى بن ...

١ ٥ ٢ ٣ ٤ | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ |

القراءة: / و ت خ ر ف / ح م ي ر م / ذ ل ث ل ث ت / و س ث ه ي / و ت ل ث

الترجمة : ... (الموافق فى) التقويم الحميرى (سنة) ثلاثة وستين وثلاث

١ ٥ ٢ ٣ ٤ | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ | ١ ٥ ٢ ٣ ٤ |

القراءة : مأت م / ب ن / خ ر ف / م ب ح ض / ب ن / أ ب ح ض

الترجمة : مائة من تقويم (حرفيا ' : سنة) مبحض بن أبحض .

والواضح من هذا النص أنه حل مشكلة التعرف على تقويم « مبحض بن أبحض » وإثبات أنه هو نفسه التقويم الحميرى المستخدم فى نقوش العصور التالية، وبذلك ثبتت آراء كل من بيستون وريكما نزالتي ذكرناها والتي كانت قبل ذلك مجرد افتراضات . ولتفسير اختفاء اسم « مبحض بن أبحض » كأسم للتقويم من هذه النقوش قال العلماء بأنه حدث بعد توحيد دولة حمير لليمن كله تحت لوائها ، فلم يعد هناك داع لذكر اسم التقويم لأنه أصبح مفهوما أنه التقويم الخاص بالدولة الحاكمة.

وكانت لمعادلة السنة ٣٦٣ من التقويم الحميرى بالسنة ١٧٩ من تقويم « ابعلى » كما ورد فى النقش المذكور نتيجتان هامتان الأولى هى التعرف على البداية النظرية لتقويم « ابعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية (٣٦٣ - ١٧٩ = ١٨٤ - ١١٥ ق. م. = ٦٩ م.) . والنتيجة الثانية هى التعرف على التواريخ

الواردة فى النقوش التى أرخت بهذا التقويم دون أن تذكر اسمه لأن كلمة «أبعلى» وردت فى هذا النقش لأول مرة فى النقوش اليمنية القديمة ، فقد تمكن العلماء من التعرف على التواريخ المدونة بهذا التقويم من مقارنة أسماء القبائل والمناطق المقترنة بهذه التواريخ بأسماء القبائل والمناطق الواردة فى نقش المعسال رقم (٢) ومثال ذلك النقش المرقم RES 3958 فى مجموعة النقوش السامية الذى لم يكن مصدره الأصيل معروفاً لدى العلماء هل هو من وادى بيحان ، أم من مارب ، أم من منطقة ريدان . (RES TOME, VI, P. 12) وهو مؤرخ بسنة ١٤٤ دون ذكر اسم التقويم ، فقد ورد فى هذا النقش ما يفيد أن كاتبه « القيل » (أى أمير الحصن) « نص يهحمد » ينتمى لقبائل ردمان وخولان ومعاهر ، وأن عاصمته هى « وعلان » (التى يقع فى نطاقها جبل المعسال) . ومن الواضح أنها نفس القبائل ونفس المنطقة المذكورة فى نقش المعسال رقم (٢) الذى أمكن عن طريقه التعرف على بداية تقويم « أبعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية كما تقدم ، وبذلك أمكن تحديد التاريخ الميلادى المقابل لسنة ١٤٤ المؤرخ بها النقش وهى سنة ٢١٣ ميلادية . وقد استخدمت نفس الطريقة للتعرف على التاريخ الميلادى للنقوش الأخرى المؤرخة بهذا التقويم دون ذكر اسمه وهى السنوات ٧٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٩٨ ، وذلك بإضافة الرقم ٦٩ إليها فهى بذلك تعادل السنوات الميلادية ١٤١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ على التوالى .

وبتطبيق النتيجة التى توصل إليها العلماء من التوحيد بين التقويم الحميرى وبين تقويم « مبحض بن أبحض » أمكن تحديد السنوات الواردة من عصر الملكين « ياسر يهنعم » وابنه « شمر يهرعش » المؤرخة بتقويم مبحض بن أبحض وهى السنوات ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ المذكور معها اسم التقويم بالإضافة إلى السنة ٤٠٩ التى لم يذكر معها اسم التقويم ، بأنها تعادل التواريخ الميلادية ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٤ على التوالى .

وقد أفادت هذه النتيجة أيضاً فى التعرف على البداية النظرية للتقويم المسمى « نبط » المذكور فى النقش رقم RES 4196 فى مجموعة النقوش السامية والمؤرخ بسنة ٣١٦ من هذا التقويم ، فمن دراسة هذا النقش تبين أن كاتبه « القيل فرعن يازل » من قبيلة « بنى ذرانح » يظهر خضوعه للملكين ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش أى أن النقش كتب أثناء اشتراك هذين الملكين فى الحكم ، ولما كانت هذه الفترة طبقاً لما سبق استخلاصه تمتد بين عامى ٣٨٥ و ٤٠٩ حميرية فلا شك أن عام ٣١٦ من تقويم « نبط » يقع فى نطاق هذه الفترة التى إذا أخذنا متوسطها وهو سنة ٣٩٧ حميرية وعادلناها بسنة ٣١٦ من تقويم « نبط » فإن فرق التقويمين يكون حوالى ٨١ سنة ، وهذه النتيجة تتفق تقريباً مع رأى بيستون الذى سبق أن حدد الفرق بين التقويمين (قبل قراءة نقش المعسال رقم ٢) بمدة تتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سنة (Beeston 1981, p. 3) وعلى هذا فإن البداية النظرية لتقويم نبط هى حوالى عام ٣٥ - ٣٤ قبل الميلاد (١١٥ - ٨١ = ٣٤) (٥) .

وكما قلنا فإن العلماء استخدموا عبارة « البداية النظرية » لإطلاقها على سنوات بداية التقاويم الثلاثة وهى ١١٥ ق. م. للتقويم الحميرى أو تقويم «مبحض بن أبجض» و ٣٤ ق. م. لتقويم « نبط » ، ٦٩ ميلادية لتقويم «ابعلى» وسبب ذلك أن هذه التقاويم لم تستخدم فعلاً فى هذه التواريخ ولكنها استخدمت بعد عدة قرون منها ، وعندما استخدمها اليمينيون فى هذا الوقت المتأخر نسبوا إلى أسماء أجداد قدماء (رؤساء قبائل أو حكام أوائل) عاشوا خلال فترات البداية هذه . ويتضح ذلك من وجود كلمة « بن » فى أسماء هذه التقاويم وهى تعنى أما « ابن » أو « من قبيلة » التى يليها اسم الأب أو القبيلة .

نتائج قراءة نقش المعسال بالنسبة لتعاصر ملوك سبأ وحمير :

أن النتائج السابقة التى توصل إليها العلماء من قراءة نقوش جبل المعسال وخاصة النقش رقم (٢) ، وأن كانت قد حلت مشكلة التعرف على ماهية وبداية

التقاويم اليمنية القديمة وتحديد المقابل الميلادى للتواريخ الواردة فى النقوش المؤرخة بها ، إلا أنها خلقت من ناحية أخرى مشكلة كبيرة هى اختلاف تواريخ حكم ملوك سبأ وحمير اختلافاً كبيراً عما كان معروفاً لدى العلماء من قبل ، فإن الذى دون النقش رقم (٢) وهو القيل « لحي عثت أوكن » أمير وعلان روى فيه أخبار انتصار سيده الملك الحميرى « كرب أيل أيفع » الذى أطلق عليه فى النقش لقب « ملك سبأ وذو ريدان » أى بإضافة كلمة « سبأ » إلى لقبه (وهذا له مغزى كبير سنتنا وله فيما بعد) - وقد روى هذا القيل انتصار مليكه الحميرى على الملك السبئى « أيل شرح يحضب » فى موقعة أطلق عليها اسم « ح ق ل ن / ذ ح ر م ت م » أى « حقل ذى حرمة » (Robin 1981, p. 323) والنقش مؤرخ كما ذكرنا بسنة ١٧٩ ابعلى وبسنة ٣٦٣ حميرية اللتان تعادلان سنة ٢٤٨ - ٢٤٩ م . والدليل على صحة هذه المعلومات أن هذه المعركة نفسها ذكرت فى نقوش الملك السبئى « أيل شرح يحضب » باسم « ح ق ل ن / ح ر م ت م » أى « حقل حرمة » وذلك بين النقوش التى ترجع لعصر هذا الملك السبئى والتى وجدت فى معبد مأرب المسمى « محرم بلقيس » والتى نشرها العالم « البرت جام » وخاصة النقش رقم Ja578 (Jamme 1962, pp. 83 - 86) غير أن الطريف فى الأمر أن أعوان الملك السبئى « أيل شرح يحضب » الذين دونوا أخبار هذه المعركة فى النقوش المذكورة أدعوا انتصار مليكهم على الملك الحميرى الذى أطلقوا عليه لقب « ذو ريدان » فقط أى مجرداً من كلمة « سبأ » بينما أطلقوا على مليكهم « ملك سبأ وذو ريدان » وهذا معناه أن كل من الملكين السبئى والحميرى أضاف إلى لقبه الأصلى الذى به اسم بلاده (وهى « سبأ » بالنسبة للملك السبئى و « ريدان » بالنسبة للملك الحميرى) - اضاف اسم بلاد خصمه رمزاً لانتصاره عليه فادعى كل منهما إنه « ملك سبأ وذو ريدان » وفى الوقت نفسه عندما يذكر كل منهما اسم ولقب خصمه يجرده من اسم بلاده هو ، فالملك

السبئي يدعو الملك الحميري « كرب ايل (ايفع) ذوريدان أى بدون ذكر كلمة « سبأ » والملك الحميري يدعو الملك السبئي « ايل شرح يحضب ملك سبأ » أى بدون ذكر عبارة « ذو ريدان » .

وهكذا تنافس الملكان فى انتحال لقب « ملك سبأ وذو ريدان » وفى تجريد كل منهما الآخر من أى ادعاء بالسيطرة على خصمه ، كما تنافسا فى ادعاء كل منهما الانتصار على الآخر فى موقعة حقل ذى حرمة .

ويهمنا من هذه المساجلات والروايات المتناقضة أن الملك السبئي « ايل شرح يحضب » وهو ايل شرح يحضب الثانى فى قوائم ملوك سبأ يميز بأخيه « يازل بين » عن ايل شرح يحضب الأول الذى يرجح أنه عاش فى القرن الأول الميلادى (Kitchen 1994, pp.11-13 & 202) وهذا الملك عاصر الملك الحميري « كرب ايل ايفع » الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) مقترنا بتاريخ محدد (تاريخ معركة حقل ذى حرمة) وهو ٣٦٣ حميرية (زمن مبحض بن ابحض) و١٧٩ ابعلى ، وهما التاريخان المعادلان لسنة ٢٤٨ - ٢٤٩ ميلادية وهذه النتيجة احدثت انقلاباً كبيراً فى تحديد تواريخ حكم ملوك سبأ وملوك حمير فقد ترتب عليها انتقال فترة حكم الملك السبئي « ايل شرح يحضب الثانى » من أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبالتحديد فى الفترة من ٥٠ - ٢٠ ق. م. كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل Jamme 1962, p.391 إلى ما بين عامى ٢٤٠ - ٢٦٠ ميلادية أى بتأخير ثلاثة قرون تقريباً ، ولم يعد الملك ايل شرح يحضب الثانى هذا هو الملك الذى عاصر حملة « ايلليوس جالوس » الرومانية ضد دولة سبأ سنة ٢٤ قبل الميلاد والذى دعاه استرابون مؤرخ الحملة « ايلزاروس » كما كان يعتقد من قبل (Jamme 1962 , p. 391) بل انتقل ذلك إلى عصر الملك السبئي المسمى « ذمار على بين » الأول (حوالى ٣٠ - ١٥ ق. م.) ولما كان اسم هذا الملك لا يحمل نطق « ايلزاروس » مثل كلمة « ايلشرح » فى اسم الملك ايلشرح يحضب ، فقد رجح العلماء أن الذى تصدى

لحملة ايلليوس جالوس هو أخ الملك « ذمار على بين » المسمى « ايلشرح » اعتماداً على النقش رقم (RES 4085) . (Kitchen 1994, p. 204) .

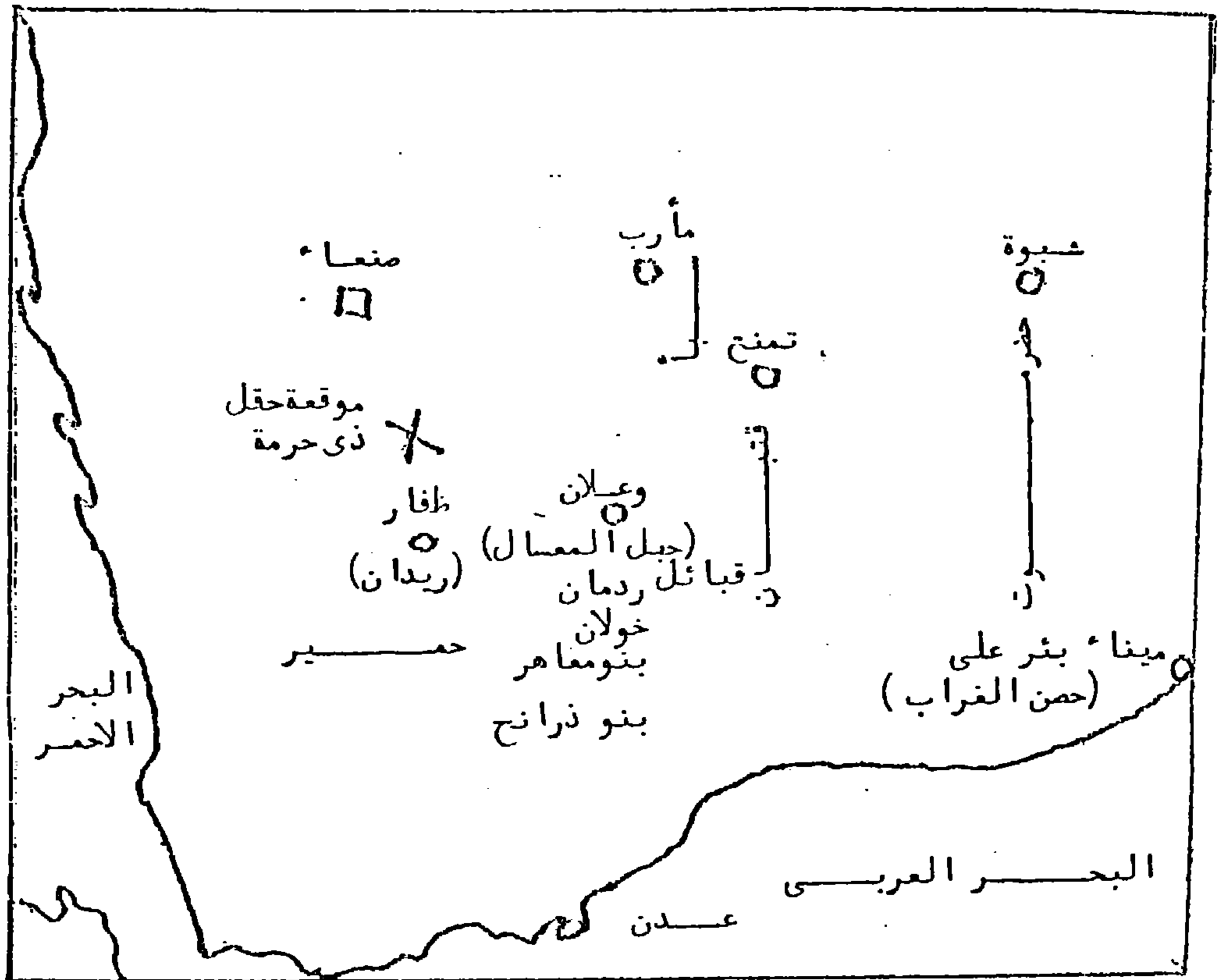
وبطبيعة الحال ترتب على هذا التأخير لمدة ثلاثة قرون تأخير عصور ملوك سبأ الذين سبقوا الملك « أيل شرح يحضب الثانى » والذين خلفوه ، فالملوك الذين سبقوه وتعذلت تواريخ حكمهم هم :

اسم الملك	التاريخ السابق	التاريخ بعد التعديل
- وهب ايل يحوز	١٦٠ - ١٤٥ قبل الميلاد	١٥٠ - ١٦٥ بعد الميلاد
- إنمار يها من	١٤٥ - ١٣٠ قبل الميلاد	١٦٥ - ١٧٠ بعد الميلاد
- كرب أيل وتاريخها من الثانى	١٣٠ - ١١٥ قبل الميلاد	١٧٠ - ١٨٥ بعد الميلاد
- يريم أيمن	١١٥ - ٨٥ قبل الميلاد	١٨٥ - ١٩٠ بعد الميلاد
- علهان نهفان	٨٥ - ٦٥ قبل الميلاد	١٩٠ - ٢٠٥ بعد الميلاد
- شاعر أوتر	٦٥ - ٥٥ قبل الميلاد	٢٠٥ - ٢٣٠ بعد الميلاد

(Kitchen 1994, p. 240) (Jamme 1962, p. 390)

ويلى ذلك اسما ملكين ، هناك خلاف بين العلماء على تحديد مكانهما من هذا التسلسل ، هما « لحي عثت يرخم » و « فرعم ينهب » (٦) ، ويأتى بعدهما الملك أيل شرح يحضب الثانى الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) والذى تعدل تاريخ حكمه من ٥٠ - ٢٠ ق.م. إلى ٢٤٠ - ٢٦٠ م كما ذكرنا وقد خلفه ملك واحد هو « نشأ كرب يها من » الذى تعدل تاريخ حكمه من ٢٠ - ٥ ق.م. إلى ٢٦٠ - ٢٧٥ ميلادية وهو آخر ملوك دولة سبأ ، فقد استولت دولة حمير على سبأ فى آخر عهده أى سنة ٢٧٥ ميلادية (Kitchen 1994, p. 245) وأخيراً فقد ثبت من نقوش المعسال أن حمير لم تكن مجموعة من القبائل المتفرقة

المتناحرة كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل بل كانت دولة قوية استطاعت أن تسقط دولة سبأ وأن تسيطر على بلاد اليمن كلها (بعد أن اسقط الملك الحميري شمر يهرعش دولة حضر موت حوالي عام ٢٩٠ ميلادية) وأن تفرض اسمها على كل مناطق اليمن مما دعا العلماء إلى تسمية العصر الذي بدأ بالربع الأخير من القرن الثالث الميلادي بعصر الإمبراطورية الحميرية (Kitchen 1994, p. 245) .



خريطة الجزء الجنوبي الغربي من الجمهورية اليمنية لبيان الدول القديمة
وعواصمها وأسماء المواقع والقبائل الواردة في هذه البحث

الهوامش

(١) هذه الأسماء هي التي وردت في النقوش اليمنية القديمة مقترنة بأرقام سنوات ولكن هناك عدد كبير من النقوش أتبع فيها التاريخ بأسماء حكام أو زعماء قدامى أو معاصرين لتدوين هذه النقوش ، لا تذكر فيها أرقام سنوات بل يذكر فيها اسم الحاكم أو الزعيم مقترناً بسنة تنصيبه أو ولايته التي يفهم من سياق النقش أنها السنة الأولى من هذه الولاية والمثال النموذجي لذلك هو النص السبئي التالي :

ب و ر خ / ذ أ ب هـ ي / ذ خ ر ف / و د د ا ل / ب ن / أ ب ك ر ب / ب ن / ج ذ م ت
وترجمته : في شهر ذوا بهي (الأباء) من سنة ودد ايل بن أبيكرب من (قبيلة) جذمت.
(Beeston, 1954, p. 29).

وإذا كانت فترة الولاية هي الثانية لنفس الشخص كان السبئيون يضيفون كلمة « ث ن ي » بمعنى الولاية الثانية (Beeston 1954, p.28) .

(٢) نقش حصن الغراب : حفر هذا النقش على الصخر بجوار حصن قديم يطلق عليه « حصن الغراب » يطل على الميناء الحالي المسمى « بئر على » جنوب حضر موت ، وقد دونه القائد « سميفع أشوع » الذي كان يحارب الأحباش تحت قيادة الملك المسمى في النقوش الحميرية « يوسف أسار يثار » (Jamme 1966, p. 39) وهو المعروف في المصادر الإسلامية باسم « يوسف ذو نواس » الذي تنسب إليه هذه المصادر حادثة حرق شهداء نجران ، التي يرى الكتاب المسلمون أنها حادثة الأخدود المشار إليها في سورة البروج .
والواضح من سياق النقش أن القائد « سميفع أشوع » لجأ مع قبيلته إلى هذا الحصن البعيد بعد هزيمة مليكه وقلته على يد الأحباش .

ومن المفارقات الغريبة بشأن هذا النقش أن بعض الباحثين العرب مازالوا حتى اليوم يفسرون نصوصه بأنها تتحدث عن النبي هود وقوم عاد مقلدين في ذلك قسيس أنجليزي يدعى Ch. Forester ترجم هذا النقش على أساس هذا التفسير الخطأ في كتابه المسمى The historical geography of Arabia 1844, vol. 2, p. 445 ، وكان ذلك

قبل أن يتمكن العلماء المتخصصون فى النقوش اليمنية القديمة من قراءة هذه النقوش قراءة صحيحة . ولكن بعد أن تم لهم ذلك ترجموا هذا النقش ترجمة صحيحة وتبين أنه لا توجد علاقة بين نصوص هذا النقش وبين النبی هود وقوم عاد ، وكانت أولى هذه الترجمات الصحيحة تلك التى نشرها العالم « بریتوریوس » سنة ١٨٧٢م ثم تلاها ترجمات ودراسات متعددة آخرها هى المنشورة فى « مجموعة النقوش السامية تحت رقم ٢٦٣٣ (RES 2633) والصادرة عام ١٩٢٨م .

ورغم التكرار المتواصل للترجمة والدراسات الصحيحة لنقش حصن الغراب طوال مائة عام فما زال هؤلاء المؤلفون العرب يكررون ترجمة القس فورستر الخاطئة بأن النقش يروى أخبار النبی هود وقوم عاد . ومنهم مترجمو كتاب التاريخ الجغرافى للقرآن الصادر فى مجموعة الألف كتاب الأولى عام ١٩٥٦ ص ١٨٣ ، ومقال « اللغة والأبجديات » لمحمد سالم شجاب المنشور فى مجلة الأكليل اليمنية عدد سنة ١٩٨٨ ص ٧٥ . فهل أصحاب هذه المؤلفات ما زالوا فى عزلة عن تقدم علم قراءة النقوش اليمنية القديمة لدرجة تريد قراءة خاطئة غير معقولة لأحد هذه النقوش صدرت منذ مائة وخمسين عاماً وصححت لمدة مائة عام ؟

(٣) استخدمنا كلمة «التقويم» كترجمة لكلمة « خ ر ف ت م » الحميرية الواردة فى نهاية هذا النقش ومعناها الأصلی « سنة » وقدمنا كلمة « التقويم » قبل رقم السنة على عكس السياق فى النص الحمیری وذلك لكى يستقيم معنى الترجمة مع لغتنا العربية وسنسير على هذا المنوال فى ترجمة باقى النقوش فى هذا البحث أى فى ترجمة هذه الكلمة وشبهاتها مثل « ت خ ر ف » و « خ ر ف » بكلمة « تقويم » .

(٤) يذكر محمد بافقيه أن تقويم « ابعلى » هذا ظل طويلاً مشار تخروصات منذ أن عثر عليه مستخدماً فى النقش رقم RES 3958 (محمد بافقيه ١٩٨٠ ، ص ١٣) وهذا غير صحيح لأن النقش المذكور فضلاً عن خلوه من اسم التقويم (ابعلى) فأن العلماء لم يتنبهوا إلى أنه مؤرخ بهذا التقويم لأن اسمه وقت ترجمة هذا النقش لم يكن معروفاً لديهم كما ذكرنا سابقاً ، بدليل أن العالم « رودوكاناكس » الذى ترجم هذا النقش فى

بمجموعة النقوش السامية (RES) اعتقد أنه التقويم الحميري الذي يبدأ بسنة ١١٥ ق.م. فعاذل سنة ١٤٤ المؤرخ بها النقش المذكور بسنة ٢٩ ميلادية (١٤٤ - ١١٥ = ٢٩).

(٥) يعتبر روبان وفقهه أن هذا التاريخ وهو ٣٥ - ٣٤ قبل الميلاد يزيد أو ينقص بمقدار ١٥ عاماً وذلك فى مقالهما « Deux nouvelles inscriptions de Radman datant du IIe siècle de l'ère chretienne » Raydan, vol.4 (1981), p. 87.

(٦) ملوك حمير الذين عاصروا ملوك سبأ المذكورين غير واضحة أسماءهم فى النقوش مثل وضوح ملوك سبأ ، ويفترض العلماء أنهم بدأوا بالملك الذى بدأ باسمه التاريخ وهو « مبحض بن أبحض » وذلك فى سنة ١١٥ ق.م. ثم تلاه أربعة حكام مجهولين حتى سنة ٢٠ ق.م. عندما ظهر فى النقوش اسم ملك يدعى « سمه على ذرح » حكم ما بين ٢٠ - ٥ ق.م. ثم ملك يدعى « ذمار على وتار يهنعم » حكم من حوالى ٥ ق.م. إلى حوالى سنة الميلاد ، وبعد ذلك خضعت حمير لحكم سبأ التى حمل ملوكها لقب « ملك سبأ وذو ريدان » إل أن بدأ ملوك حمير يظهرن ثانية فى النقوش السبئية بلقب « ذو ريدان » فقط ، وأولهم الملك « ياسر يهصدق » الذى حكم ما بين ١٤٥ - ١٤٠ ميلادية ، ثم تتوالى ملوك أغلبهم مجهولون حتى الملك « شمر يهحمد » الذى حكم ما بين ٢٣٠ - ٢٤٥ ميلادية يليه الملك كُرب أيل ايفع « (٢٤٥ - ٢٦٥ م) الذى حارب الملك السبئى « ايل شرح يحضب » الثانى فى موقعة حقل ذى حرمة كما جاء فى نقش المعسال رقم (٢) ، يليه الملك « ياسر يهنعم » (٢٦٥ - ٢٨٥ م) الذى اسقط مع أخيه « شمر يهرعش » دولة سبأ وبدأ بهما عصر الإمبراطورية الحميرية كما ذكرنا (Kitchen 1994, p. 244).

المصادر والمراجع

استخدامنا فى كتابة عناوين هذه المراجع النظام الحديث المتبع فى المؤلفات الأوربية والأمريكية والمعروف باسم Harvard Refenences System وذلك لتميزه على النظام التقليدى السائد فى المؤلفات العربية بمرونته وعدم اهدار وقت وجهد القارئ فى قلب الصفحات من آن لآخر للتعرف على المراجع .

المراجع العربية :

- محمد بافقيه ١٩٨٠ : محمد عبد القادر بافقيه « أهمية جبل المعسال » ، حولية ريدان لوفان (بلجيكا) العدد الثالث ١٩٨٠ ص ١٠ - ٢٨ (Raydan Louvain) .

المراجع الأجنبية :

- Abdel Monem 1984 : Abdel Monem A. H. Sayed « Reconsideration of the Minaean inscription of zayd il bin Zayd » PSAS, vol. 14, pp. 93 - 99.
- Albright 1958 : F. A. Albright , Zur Chronologie des Vorislamischen Arabien. Berlin.
- Beeston 1954 : A. F. L. Beeston , Epigraphic South Arabin calender and dating, London.
- Beeston 1981 : A. F. L. Beeston, « Old South Arabian Era dating , PSAS, vol, 11, pp. 1 - 6.
- Jamme 1962 : A. Jamme, Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis, Baltimere.

- Jamme 1966 : A. Jamme, Sabaeen and hasaeen inscriptions from Saodi Arabia, Rome.
- Jamme 1976 : A. Jamme, Garnegie Museum publication no. 2 pp. 110 - 119.
- Kitchen 1994 : K. A. Kitchen, Documentation for Ancient Arabia, Part I, Liverpool.
- Muller 1973 : W. Muller , Ergebnisse der deutschen Jemen - Expedition, AFO, XXIV, p. 160 - 61.
- Robin 1981 : M. Christian Robin, « Les inscription d'Al - Micsal et la chronologie de l'Arabie Meridionale au IIIe siècle de l'ere chrétienne », AIBL pp. 315 - 339.
- Ryckmans 1943 : Gonsague Ryckmans, Chronologie Sabaenne, Paris, Abbreviations .
- AIBL : Academie des inscriptions et Belles - Lettes, Comptes Rendus, Avril - Juin, 1981 Paris.
- AFO : Archiv fur Orient Forchung.
- MAFRAY : Mission Archéologique Française en R. A. du Yemn
- PSAS : Proceedings of the Seminar of Arabian Studies, London.
- RES : Répertoire d'Epigraphie Semitique, Paris.

مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد

حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى « رؤية نقدية »

أ. د. محمد السيد محمد عبد الفهد (*)

إن الحديث عن مناطق إنتاج وتصدير الطيوب والتوابل العربية من لبنان ومُمرّ طيوب وقصيعة وقرقة وغيرها ، حديث شائع فى المصادر الكلاسيكية اليونانية من هيرودوت فى القرن الخامس ق. م. حتى أجاثا رخيديس فى القرن الثانى ق. م.

ومن خلال هذا التابع التاريخى يأتى ذكر عرب شبه الجزيرة - لا سيما عرب جنوب شبه الجزيرة العربية - فى المصادر الكلاسيكية ونحاول نحن أن نتبع ما ذكر عنهم فى كل مرحلة بدءاً بالقرن الخامس حتى القرن الثانى ق. م. وفى القرن الخامس يركز هيرودوت على إنتاج مناطق جنوب الجزيرة لكافة أنواع الطيوب من لبنان ومر وقصيعة وقرقة ولادن ، وإن لمع إلى أن القصيعة والقرقة ربما كانتا تنتجان فى بلاد أخرى (حيث تربي ديونيسوس) ويقصد بها بلاد الهند . كذلك ركز على أن غابات الطيوب كانت تحرسها ثعابين مجنحة تطرد برائحة العبر المحروق . وذكر أن الفينيقيين كانوا يقومون بالوساطة التجارية فى نقل طيوب جنوب الجزيرة العربية إلى بقية الشعوب (١) . وفى القرن الرابع يحدد ثيوفراستوس قبائل عرب الجنوب التى تتحكم فى إنتاج وتجارة نفس أنواع الطيوب التى ذكرها هيرودوت ، مع إبراز سيادة وتفوق السبثيين على وجه الخصوص ، كما أشار إلى عدم وجود حراسة على غابات الطيوب ، مما حدا ببعض البحارة الأجانب الطامعين إلى سرقة كميات منها . كذلك ركز على الدور الهام الذى يقوم به كهنة إله الشمس فى تسيير دفعة تجارة الطيوب والحصول على ثلث هذه الطيوب المباعه وتخصيصه لإله الشمس مما يوحى بنوع من الاحتكار لهذه التجارة

(*) أستاذ التاريخ اليونانى الرومانى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

من قبل المعابد . وأشار إلى حكم عرب الجنوب لبعض الجزر المجاورة المنتجة للطيوب والتوابل (٢) (ربما كان يقصد المناطق الساحلية المجاورة في شرق أفريقيا) . وفي القرن الثالث ق.م. نجد إراتوستينس يقسم قبائل العرب الرئيسية في الجنوب ، وموقع كل منها، وعاصمة كل إقليم (معين وعاصمتها كارنا ، وسبأ وعاصمتها مأرب ، وقتبان وعاصمتها ثمنا أو تمنع ، وحضر موت وعاصمتها شبوة) ، ونظام الحكم الملكي فيها ، وما تتمتع به من رفاهية وثروات . وركز على تخصيص مناطق لإنتاج طيوب بعينها ، فذكر أن قتيبان تنتج اللبان في حين تنتج حضر موت المر ، وقيامهم بمقايضة هذه الطيوب - وطيوب أخرى غيرها - مع التجار (٣) . أما من القرن الثاني ق.م. فنجد أجاتار خيديس - كما أورده ديودوروس الصقلي - لا يذكر من قبائل عرب الجنوب سوى السبئيين دون سواهم (ربما كانوا يتمتعون في عصره بالسيادة على بقية عرب الجنوب كما أُلح ثيوفراستوس في القرن الرابع) ، ويسهب في وصف ما لديهم من غابات الطيوب من كافة الأنواع، بأريجها الفواح على الساحل ، وفي الداخل . ويصف الثعابين الصخمة التي تحرسها مثلما ذكر هيرودوت . كما يسهب في وصف الثراء والبذخ الأسطوري الذي تمتعت به سبأ وتدفق كميات الذهب والفضة عليها من تجارة الطيوب ، واستخدامهم لتلك المعادن النفيسة في رياشهم وأدواتهم المنزلية (٤) .

هذه الكتابات المبكرة للمؤرخين الجغرافيين الكلاسيكيين اتسمت - رغم ما تحويه من معلومات قيمة عن عرب الجنوب - بسمتين قللتا نسبياً من أهمية المعلومات المستقاة عنهم : ألا وهما التعميم في بعض الأحيان ، والخلط وعدم الدقة في أحيان أخرى. فمن ناحية التعميم نجد هؤلاء الكتاب ينسبون إلى مناطق جنوب الجزيرة العربية بصفة عامة إنتاج كافة أنواع البخور والطيوب المذكورة . أما من تفادى منهم هذا الخطأ ومال إلى التحديد فإنه غالباً ما يقع في الخطأ الآخر وهو الخلط وعدم الدقة في المعلومات . وربما ذكر معلومات عكسية تماماً مثل تخصيص إراتوستينس - على لسان سترابون - لقتبان في إنتاج اللبان وحضر موت في إنتاج المر .

هذا التعميم أو الخلط لمناطق إنتاج وتصدير الطيوب العربية فى المصادر الكلاسيكية فى الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثانى ق. م. بحاجة إلى دراسة متأنية للمصادر والوثائق ، للوصول إلى قدر أكبر من التحديد حول هذه الجزئية . وسيحاول الباحث فى هذا البحث القيام بهذه المهمة بخصوص إنتاج وتصدير أحد أهم طيوب مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية ، وهو اللبان . ومن حسن الحظ أن مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد تزودنا بمعارف أكثر تحديداً ودقة حول مناطق إنتاج وتصدير هذه السلعة الهامة من سلع عرب الجنوب ، ومن أبرز تلك المصادر المتاحة من الفترة المعنية كتاب « الطواف حول البحر الاريترى » لمؤلف مجهول ، وهو على الأرجح أحد تجار أو ملاحى الإسكندرية فى مصر فى القرن الأول الميلادى ، ممن كانوا يجوبون البحار الشرقية فى جنوب بلاد العرب وشرق أفريقيا وبلاد الهند . وأراد من كتابه هذا أن يكون دليلاً للتجار والملاحين المصريين فى تلك المناطق . وكذلك من مصادر تلك الفترة حول هذه النقطة مقتطفات هامة من مؤلف « التاريخ الطبيعى » لبلىنى الأكبر من القرن الأول كذلك . أما فى القرن الثانى فإن هناك وصفاً جغرافياً قريباً من الدقة لمناطق جنوب الجزيرة العربية يتمثل فى المواضع المعنية بتلك المنطقة من كتاب « الجغرافيا » لبطلميوس الجغرافى . لكن المشكلة الحقيقية التى يعالجها هذا البحث هى أن هناك بعض التفسيرات الحديثة غير صحيحة حيناً ، وغير دقيقة أحياناً ، أوردها بعض الباحثين ممن أدلوا بدلوهم فى الموضوع ، مما أدى إلى فهم غير دقيق لبعض محتويات هذه المصادر فى هذا الشأن . لذا سيحاول الباحث فى الصفحات التالية أن يورد تلك الفقرات والمقتطفات الجدلية الخلافية من المصادر المذكورة أعلاه ، وتلك التفسيرات الحديثة لها من قبل بعض العلماء والباحثين الذين لا يتفق الباحث مع تفسيراتهم ويعتبرها غير صحيحة أو غير دقيقة . وأخيراً آراء وتفسيرات الباحث نفسه التى يعتبرها أكثر دقة وأقرب إلى الصواب ، وتبريرات ذلك . ثم يدعم الباحث تفسيراته بمجموعة من النقوش بالخط المسند حول إقامة مدينة تدعى « سمارام » لتصدير لبان منطقة ساكلان فى جنوب الجزيرة العربية فى عمان الحالية (من القرن الأول

ق. م.) ليثبت أن « سمارام » فى نقوش الخط المسند هى « موسخا » التى ورد ذكرها عند « الطواف » و « بطليموس الجغرافى » ، وأن ساكلان فى نقوش المسند هى منطقة « ساخاليتيس » فى المصدرين المذكورين المكتوبين باليونانية من فترة لاحقة فى القرنين الأول والثانى للميلاد .

والأن لنبدأ فى ذكر ما ورد فى المصادر المكتوبة باليونانية حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى فى مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية :

ففى مؤلف « الطواف » يرد ما يلى :

- على بعد نحو ألفى ستاديون إلى الشرق من ميناء العربية السعيدة (عدن) « يقع ميناء تجارى آخر على الساحل (الجنوبى للجزيرة العربية) هو كانى (قانا) وهو يتبع مملكة إلياذوس الأرض المنتجة للبان ... وفيما وراء « كانى » تقع العاصمة ساوباثا (شبوة) فى الداخل ، وهى مقر إقامة الملك كذلك . وكل ما ينتج فى المنطقة من لبان يؤتى به إليها حيث كانت بمثابة مستودع ، وذلك عن طريق الإبل والقوارب المحلية الصغيرة المصنوعة من الأكياس الجلدية والسفن(٥) .

- وبعد « كانى » تنحسر أرض الشاطى أكثر فأكثر ، يلى ذلك خليج عميق جداً يمتد لمسافة طويلة يسمى خليج ساخاليتيس وأرض اللبان ، وهى منطقة جبلية وعرة هواؤها ثقيل وضبابية أسفل الأشجار المنتجة للبان . ولكن الأشجار المنتجة للبان هنا ليست ضخمة ولا مرتفعة وهى تفرز اللبان الذى يتجمد على لحائها كما هى الحال بالنسبة لبعض الأشجار لدينا فى مصر التى تفرز الصمغ . ويقوم على جمع اللبان عبيد ملكيون وسجناء أرسلوا لقضاء فترة عقوبة(٦) .

- ويقع على هذا الخليج مرتفع هائل وجهته نحو الشرق ويسمى سياجروس (رأس فرتك) به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان(٧) إلخ .

وبعد سيجروس مباشرة يوجد خليج متد ينبعج بعمق نحو الساحل . وتقع عمان على مسافة ستمائة ستاديون من طرف هذه الخليج ، وبعدها جبال شاهقة صخرية شديدة الانحدار ، حيث يعيش أناس فى كهوف لمسافة خمسمائة ستاديون أخرى . وبعد هذه الأماكن يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخاليتيس يسمى ميناء موسخا (خور رورى / على الساحل العماني) ... وفى مقابل الأقمشة القطنية والحبوب والزيت كان هؤلاء التجار يأخذون من الوكلاء الملكيين لبانا من تشكيلة كلها من منطقة ساخاليتيس » (٨) .

أما بلينى الأكبر فى مؤلفه « التاريخ الطبيعى » فيذكر أنه لم يكن هناك من ينتج اللبان باستثناء العربية (يقصد جنوب الجزيرة العربية) وأن اللبان لم يكن ينمو فى كل مناطقها بل فى الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة تقريباً حيث تقع مملكة تسمى Astramitae تابعة (لنفوذ) السبئين . وعاصمة هذه المملكة هى سابوتا التى تقع على جبل مرتفع ؛ وعلى بعد ثمانية أيام من العاصمة تقع المنطقة المنتجة للبان فى هذه المملكة وتسمى ساريا ، وهو اسم يعنى بالنسبة للإغريق « السر الغامض » (٩) .

(واضح أن المملكة المقصودة التى تقع فيها مناطق إنتاج اللبان هى «حضر موت» وأن عاصمتها سابوتا هى « شبوة » وأن المنطقة المنتجة للبان هناك والتى يسميها ساديا تقع شرقى حضر موت فى الأغلب) .

وفى فقرة أخرى يذكر بلينى أنه ليس هناك من بين العرب بخلاف هؤلاء (يقصد الحضارمة) من وقع بصره على شجرة اللبان . ولا يسرى هذا القول على كل (الحضارمة) بل أن عدداً لا يزيد على ثلاثة آلاف أسرة احتفظوا لأنفسهم بهذا الحق الوراثى (زراعة أشجار اللبان ورعايتها وجمع المحصول) . ولذلك كان يطلق عليهم المباركون . وهؤلاء لا يسمح لهم بتدنيس أنفسهم

يجماع النساء أو (السير) فى الجنازات ، عندما يكونون مشغولين بحز وشق تلك الأشجار للحصول على اللبان ، مما يؤدى إلى ارتفاع أسعار اللبان لارتباطها بمفاهيم دينية (١٠) .

وفى موضع آخر يقول بلىنى أنه بعد جمع اللبان كان ينقل بالجمال إلى سابوتا (شبوة) وتفتح لذلك إحدى بوابات المدينة . وكان الجنوح عن هذا الطريق (من قبل أصحاب الجمال المحملة باللبان) يعد جريمة كبرى فى عرف الملوك . وهناك (فى شبوة) كان الكهنة يأخذون عشوراً (ضرائب صغيرة) لإله يسمونه سايبس - وهى ضرائب تقدر بالمعيار وليس بالوزن ولا يسمح بعرض البخور فى السوق قبل أداء هذه الضريبة (١١) .

* * *

لنحاول الآن أن نستخلص من المعلومات السابقة الواردة فى المصدرين الطواف و بلىنى الأكبر - بعض النتائج المحققة حول مناطق إنتاج اللبان وتخزينه واحتكاره ومناطق توزيعه وتصديره .

يتضح من حديث المصدرين حول إنتاج اللبان أن المنطقة الرئيسية لإنتاج اللبان هى مملكة حضر موت التى كانت عاصمتها شبوة (سيرد الحديث عن امتداد ومناطق نفوذ هذه المملكة نحو الشرق لاحقاً فى هذا الجزء) وأن أقرب منفذ للتصدير البحرى للبان لشبوة هى كانى أو قانا (حصن الغراب حسب تفسير كاسون للطواف) . ويذكر فى « الطواف » أن ملك هذه المملكة (حضر موت) يسمى إليازوس (على الأرجح « العز » ، كما سنرى لاحقاً) . ويتفق المصدران على أن كل لبان المنطقة (المملكة الحضرية) كان يجمع فى منطقة معينة من المملكة بعد جمع المحصول من على أشجاره . وهذه المنطقة ذكرها بلىنى صراحة على أنها العاصمة شبوة (سابوتا) التى كان المحصول ينقل إليها بالجمال، بل زاد من درجة اليقين حول هذه النقطة حين أورد أن ملوك حضر موت كانوا

يعدون أى انحراف عن هذا الطريق (المؤدى لشبوة) من جانب أصحاب الجمال الحملة باللبان جريمة كبرى . أما مؤلف كتاب « الطواف » فيفهم من حديثه أيضاً أن كل محصول اللبان من مملكة إليازوس (حضر موت) كان يذهب إلى ساوباثا (شبوة) العاصمة ، ولكن صياغة العبارة فى « الطواف » جعلت ليونيل كاسون - فى ترجمته للفقرة ٢٧ من الطواف وتعليقه عليها ص ١٦٢ ، ومن قبل فان بيك ، يرون أن منطقة تجميع محصول اللبان هى ميناء كانى (١٢) . (حصن الغراب) ، وهذا خطأ .

فبالإضافة إلى وضوح ومباشرة نص بلىنى بخصوص شبوة - كما أسلفنا - فإن الأرجح والأقرب للمنطق أن مؤلف « الطواف » كان يقصدها كذلك فى نصه ، ولنعد إلى النص لتأكد من مدى دقة هذا الترجيح . فى هذه الفقرة ٢٧ من الطواف يرد الحديث عن ميناء « كانى » الذى يتبع مملكة إليازوس (حضر موت) أرض اللبان ، ويذكر جزيرتين قاحلتين قريبتين من هذا الميناء هما جزيرة الطيور (سيخا) وترويلاس (براقه) الواقعة على بعد مائة وعشرين ستاديون من « كانى » ثم يورد ما يلى :

« وفيما وراءها (يقصد كانى) تقع العاصمة ساوباثا (شبوة) فى الداخل (أى بعيداً عن الساحل) والتى هى كذلك مقر إقامة الملك . وكل ما ينتج فى المنطقة (مملكة إليازوس) (حضر موت) من اللبان يؤتى به إليها (واضح أنه يقصد ساوباثا أى شبوة) إذ كانت بمثابة مستودع ، عن طريق الإبل والقوارب المحلية المصنوعة من الأكياس الجلدية وعن طريق السفن » (١٣) .

إن تفسير كاسون وفان بيك بأن كل محصول اللبان كان ينقل إلى « كانى » غير مقبول للأسباب الآتية :

(أ) أن نص الطواف واضح الدلالة فى إشارته إلى ساوباثا (شبوة) وليس إلى كانى (حصن الغراب) .

(ب) من غير المنطقي أن ينقل « كل ما تنتجه المنطقة (المملكة) من لبان » إلى ميناء واحد هو « كاني » دون بقية الموانئ والمستودعات الساحلية الأخرى في مملكة حضر موت مثل سياجروس (رأس فرتك) وموسخا (خور رورى) . كان يمكن أن يكون تفسير كاسون مقبولاً لو أن المحصول المنقول كان محصول المنطقة القريبة من كاني (أى محصول جزء من المملكة) ، أما حين يتعلق الأمر بمحصول المملكة كلها فالأقرب إلى المنطق أن يذهب إلى عاصمة المملكة في شبوة حيث يقيم الملك ، لا سيما في حالة وجود احتكار ملكي للسلعة وهو ما تشير القرائن إلى أنه كان موجوداً (١٤) .

(ج) قد يثور اعتراض على أن مكان تجميع محصول اللبان هو شبوة ، من جهة أن وسيلة نقل هذا اللبان كانت الجمال والقوارب الصغيرة والسفن ، وهى وسائل نقل إلى ميناء وليس إلى مكان داخلي مثل شبوة .

وللرد على هذا الاعتراض الأخير نقول أنه إذا صح كلام بلينى من أن شبوة تبعد مسافة ثمانية أيام عن (أقرب - فيما أتصور) مناطق إنتاج اللبان (إلى الشرق والجنوب الشرقى كما سيتضح) فمعنى هذا أن مناطق إنتاج اللبان (الممتدة لمسافة كبيرة نحو الشرق على خليج ساخاليتيس الذى سنتحدث عنه لاحقاً ، وعن مدى امتداده والذى ورد ذكره فى فقرات الطواف المقتبسة أعلاه) كانت تبعد مسافات كبيرة عن شبوة كان أقلها حوالى ثمانية أيام . هذا ربما يعنى أن الجمال كانت تنقل اللبان من مناطق إنتاجه القريبة نسبياً بطريق البر إلى شبوة مباشرة . أما مناطق الإنتاج الأبعد نسبياً فربما كان لبانها ينقل بالبحر بالقوارب الصغيرة أو السفن (حسب المسافة) من أقرب نقطة لمناطق الإنتاج على الساحل الحضرى (ساحل مملكة حضر موت) إلى أقرب نقطة ساحلية على هذا الشاطئ إلى العاصمة شبوة فى الداخل . هذه النقطة الساحلية الأقرب إلى شبوة (فى مملكة حضر موت) هى بالتأكيد ميناء كاني (حصن الغراب) الذى كانت تنتقل إليه جمولات اللبان من مناطق الإنتاج . لكن « كاني » لم تكن - فى هذه الحالة - المحطة النهائية التى

يقطعها محصول اللبان على القوارب والسفن ، بل كانت المحطة قبل الأخيرة ، إذ كانت الجمال تنقل اللبان الذى تم تفريغه فى « كانى » من الأخيرة إلى شبة حيث المستودعات الملكية هناك .

هذا التفسير يتفق وما ورد عند بلىنى من أن اللبان كان ينقل بالجمال إلى شبة وأن إحدى بوابات المدينة كانت تفتح لهذا الغرض . وكانت هذه الجمال تنقل اللبان إما من مناطق الإنتاج إلى شبة مباشرة أو من « كانى » - حيث اللبان الذى أتى إليها بالبحر كما أوضحت - إلى شبة . وبعد وصول المحصول كله إلى شبة حيث المستودعات الملكية والموظفون الملكيون المنوط بهم مسألة إدارة الاحتكار الملكى يبدو أنه كان يتم حصر كميات محصول اللبان ومنح حصتها (عشورها) من اللبان التى أشار إليها بلىنى ، وبعد ذلك ربما كان المحصول يوزع بطريقة مركزية ومحسوبة من المستودعات الملكية المركزية فى شبة إلى منافذ وموانئ بيعه وتصديره البرية والبحرية .

وإذا كان بلىنى قد أوجز فيما يتصل بمناطق إنتاج اللبان فذكر أنها تبعد مسافة ثمانية أيام من شبة ، وأن ثلاثة آلاف عائلة قد تخصصت بصورة وراثية فى حصاد أشجار اللبان والعمل فيها وأطلق عليهم المباركون ، فإن « الطواف » قد افاض نسبياً فى الحديث عن مناطق الإنتاج وظروفه وموانئ التخزين والتصدير ، كما رأينا فى الفقرات المقتبسة عنه أعلاه . فقد ذكر هذا المؤلف معلومات عن « خليج ساخاليتيس الذى هو أرض اللبان وعن ميناء ومستودع سياجروس (رأس فرتك) حيث يخزن لبان هذه المنطقة ، وبعدها بحوالى ألف ومائة ستاديون(*) » (فى نهاية « خليج عمان » كما أسماه الطواف أو « خليج القمر » الحالى شرق رأس فرتك) يوجد ميناء موسخا (خور رورى قرب صلالة على ساحل ظفار غرب

(*) ال « ستاديون » وحدة إغريقية قديمة من وحدات قياس الطول تبلغ حوالى ٦٠٧ قدماً انجليزياً أى أقل قليلاً من مائتى متر أو ثمن ميل أو خمس كيلو متراً .

سلطنة عمان) حيث يتم تصدير وتجارة لبان منطقة الساخالييتيس ، بالإضافة إلى ميناء كانى (حصن الغراب) المقابل لشبوة على الساحل الحضرى الغربى والذى سبق الحديث عنه .

ونأتى الآن للحديث عن « خليج ساخالييتيس » هذا كما ورد عند «الطواف» الذى حدد بدايته من جهة الغرب بأنه ذلك الخليج العميق الذى يعقب أرض الشاطئ المنحسرة بعد ميناء « كانى » (ربما بدءاً من المكللا الحالية على الساحل فى وادى حضر موت) ، ثم يحدد مؤلف « الطواف » - بصفته تاجر وملاحاً - أهم المعالم التجارية على ساحل هذا الخليج الطويل الممتد $\epsilon\pi\iota\ \pi\omicron\lambda\upsilon\ \mu\epsilon\tau\epsilon\omicron\iota\ \pi\alpha\rho\epsilon\kappa\tau\epsilon\iota\nu\omega\nu$.

فيذكر سياجروس (رأس فرتك) بصفتها مرتفع هائل على هذا الخليج به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان ، وبعدها يذكر خليجاً عميقاً منبعجاً فى الساحل هو خليج عمان - حسب تسمية الطواف - تبلغ المسافة بين طرفيه ستمائة ستاديون (خليج القمر الحالى) ومن بعده بخمسمائة ستاديون أخرى (ألف ومائة ستاديون من رأس فرتك) « يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخالييتيس ويطلق عليه ميناء موسخا » . وفيما وراء هذا الميناء لمسافة ألف وخمسمائة ستاديون أخرى تقع (فى الداخل) سلسلة جبلية تمتد (نحو الشرق) حتى منطقة تسمى أسينخون يقابلها على الشاطئ سبع جزر يسميها جزر زنويوس (جزر كوريا موريا الحالية) وبعدها تمتد بلد أخرى أجنبية لا تنتمى لنفس المملكة أى مملكة إليازوس (حضر موت) بل تنتمى لبلاد الفرس (١٥) .

معنى الكلام السابق أن أقصى الحدود الشرقية لمملكة حضر موت - حسب وصف الطواف - كان المنطقة الداخلية المقابلة لجزر كوريا موريا فى سلطنة عمان الحالية ، وأن منطقة الساخالييتيس كانت تمتد من شرق كانى (حصن الغراب) نحو الشرق حتى ميناء موسخا - على الأقل - الذى كان لبان هذه المنطقة يشحن منه (١٦) ، رغم تسمى المنطقة الساحلية الواقعة قبل « موسخا » بمسمى محلى هو

« خليج عمان » ، بل ربما كانت منطقة الساخاليتيس تمتد أكثر من موسخا (خور رورى) نحو الشرق حتى نهاية حدود مملكة اليازوس (مملكة حضر موت) على الساحل وفى الداخل قبالة جزر كوريا موريا .

ولكن يرى بعض العلماء أن بطلميوس الجغرافى والفلكى السكندرى من القرن الثانى الميلادى قد حدد منطقة ساخاليتيس - أرض اللبان - بأنها تقع إلى الشرق من سياجروس (رأس فرتك) على العكس من جغرافى سابق له هو مارينوس الذى يرى أن هذه المنطقة تقع إلى الغرب من رأس فرتك (١٧) ، وعلى العكس كذلك من فهم البعض الخاطىء لتحديد الجغرافى للمنطقة من قبل مؤلف « الطواف » على أنها تمتد من شرق « كاني » (حصن الغراب) حتى سياجروس (رأس فرتك) أى إلى الغرب من سياجروس كما وصفها مارينوس (١٨) .

والواقع أن بطلميوس الجغرافى لم يحدد منطقة « الساخاليتيس » بأنها تقع إلى الشرق من سياجروس كما فسرهُ أو فهمه هؤلاء العلماء بطريق الخطأ ، بل أن وصفه الجغرافى لهذه المنطقة يكاد يتطابق مع التحديد الذى أوردناه قبل قليل عند مؤلف « الطواف » . ولكن العلماء الذين قالوا بوجود تناقض واختلاف بين تحديد المصدرين للمنطقة ، لم يقرأوا وصف بطلميوس القراءة الدقيقة والصحيحة فيما اعتقد . صحيح أن بطلميوس صنف مناطق « أرض حضر موت » من الغرب إلى الشرق وجعلها تبدأ بمنطقة تسمى « مدينة أبييسما Ηβισμα πόλις » وتنتهى فى الشرق بـ « رأس سياجروس εύαγρος ακρα » ، ثم بدأ الفقرة التالية بعد نهاية هذه الفقرة مباشرة - أى بعد الحديث عن « رأس سياجروس » - بالحديث عن إقليم « الساخاليتين » فى فقرة مستقلة تحدث فيها عن مواقع هذا الإقليم . ومن هنا ربما حدث الخلط الذى ذهب إليه العلماء المشار إليهم فذكروا أن بطلميوس قد أوضح صراحة أن « الساخاليتيس » تقع بعد « سياجروس » .

لكن بنظرة أعمق قليلاً إلى نص بطلميوس ندرك أن الأمر لم يكن كما ذهب هؤلاء العلماء إلى فهمه :

ففى حديث بطلميوس عن « أرض حضر موت » يجعل أول مناطقها من الغرب وهى « مدينة ابيسما » تقع على خط طول هو ٨٢ وخط عرض 11° ، وآخر هذه المناطق وهى « سياجروس » فى الشرق على خط طول 90° وخط عرض ١٤ . أما مواقع إقليم « الساخاليين » فتبدأ من الغرب بموقع يسمى « قرية ميتاكون » على خط طول ٨٨ وخط عرض 16° ، وتنتهى فى الشرق بموقع يسمى « مرتفع كورودابون » الذى يقع على خط طول ٩٣ وخط عرض $20^{\circ}(19)^{*}$.
٤

من هذا التصنيف أعلاه يتضح أن بطلميوس قد أورد إقليم « ساخاليين » بعد مواقع « أرض حضر موت » وآخرها سياجروس كنوع من الترتيب الوصفى لمادته ، وليس بحسب الموقع الجغرافى المحدد بخطوط الطول والعرض . فمن خلال ملاحظتنا لمواقع « أرض حضر موت » والواقعة بين خطى طول ٨٢ ، ٩٠ وخطى عرض 11° ، ١٤ ، ومواقع « الساخاليين » الواقعة بين خطى طول ٨٨ (أو بالأحرى 87° ، حيث أورد بعد الموقع الأول موقعين آخرين على خطى طول 87° ، 87°) ، ٩٣ وبين خطى عرض 16° ، 20° ، ندرك أن بطلميوس أورد تحت الفقرة المعنونة مواقع « أرض حضر موت » المواقع الساحلية « الجنوبية » من مملكة حضر موت ، ثم تلاها بمواقع « الساخاليين » وهى المواقع الداخلية (الشمالية) من المملكة وخصوصاً منها المناطق الداخلية المقابلة لخليج « الساخاليين » كما ورد عند « الطواف » وهى (أى المناطق الداخلية) ما أسماه بطلميوس هذه المرة باسم الساخاليين .

(*) هذا التحديد بخطوط الطول والعرض هو حسب رؤية بطلميوس الفلكى والجغرافى حسب معايير عصره طبعاً ، وليست خطوط الطول والعرض الحالية .

ولمزيد من تأكيد هذا الترجيح فإننا نجد أن ميناء « كانى » يقع عند بطلميوس على خط طول ٨٤ (على الساحل الحضرى) فى حين يبدأ أول موقع من منطقة « الساخاليين » عند خط طول ٨٧^١ ، (لكن فى المنطقة الداخلية من حضر موت) وآخر مواقعها يقع على خط طول ٩٣^٣ (وهى منطقة طويلة وممتدة) ومعنى ذلك أن كلا من « الطواف » و « بطلميوس » قد جعلتا منطقة « الساخاليين » تمتد من شرق ميناء « كانى » (حصن الغراب) حتى آخر حدود مملكة حضر موت فى الجزء المقابل لجزر زنبوس (كوربا موربا) التى تبدأ بعدها منطقة أجنبية تابعة للفرس . الفارق ببساطة هو أن « الطواف » أطلق مسمى « الساخاليين » على الجزء الساحلى من هذه المنطقة - بصفته تاجراً وملاحاً يتعامل مع الموانئ والمناطق الساحلية - ولذلك اسمى هذا الامتداد الكبير « خليج ساخاليين » ، أما بطلميوس فقد أطلق مسمى أرض « الساخاليين » على « المناطق الداخلية » لنفس هذا الامتداد السابق وهى المناطق المنتجة للبان فى مملكة حضر موت . والأصح - فى تقديرى - هو تحديد بطلميوس الجغرافى ، بمعنى أن المناطق الداخلية المنتجة للبان فى مملكة حضر موت حسب الامتداد الذى ذكره بطلميوس هى التى كانت تسمى فى الأصل « أرض الساخاليين » ثم صارت المنطقة الساحلية المقابلة لها تسمى باسم المنطقة الداخلية ، أى « خليج الساخاليين » إجمالاً حتى وإن اكتسبت مناطق منه مسميات محلية كخليج عمان مثلاً .

هذا التفسير - خصوصاً لوصف بطلميوس الجغرافى - يفسر عبارة وردت فى الكتاب الأول لبطلميوس يقول فيها « إن مارينوس حدد خليج ساخاليين بأنه يقع على الساحل الغربى من رأس سياجروس ، ولكن كل من يبشرون فى هذه البقاع يجمعون معى أنه (يمتد) إلى الشرق من سياجروس وأن الساخاليين منطقة عربية ومنها اكتسب خليج ساخاليين اسمه (٢٠) . (الكتاب الأول - فقرة ١٧) . اعتقد أنه فى ضوء الوصف الجغرافى التفصيلى لبطلميوس لمنطقتى « أرض حضر موت » Αδραμιτων χωρας ثم منطقة « الساخاليين » Σαχαλιτων (فى

الكتاب السادس - الجزء السابع - فقرتى ١٠ ، ١١) فإن بطلميوس يعنى فى فقرته السابقة أن خليج الساخاليتيس لا ينتهى شرقاً عند رأس سياجروس وبالتالى لا يقع غربها فقط ، بل يمتد كذلك إلى الشرق من هذه النقطة بإجماع من أبحروا فى تلك البقاع ، أى أنه لم يقصد القول أنه يقع إلى الشرق - فقط - من رأس سياجروس .

لكن ما تزال هناك مشكلة فى وصف بطلميوس للمنطقة الساحلية من «أرض حضر موت» وهى أنه جعل « سياجروس » (التى حدد معظم العلماء موقعها بـ « رأس فرتك ») نقطة النهاية للساحل الحضرمى ، فى حين رأينا فى «الطواف» أن آخر المواقع الهامة على هذا الساحل هى « موسخا » (خور رورى) . هل معنى هذا أن بطلميوس لم يذكر « موسخا » فى وصفه الجغرافى لحدود منطقة حضر موت الساحلية ؟ بلى أوردتها وتحت اسم « ميناء موسخا » كما أورد قبلها « ثيالليلا » وهى صلالة الحالية فى ظفار قبل « خور رورى » أو موسخا القديمة . معنى هذا أن بطلميوس قد أخطأ فى تحديد موقع « سياجروس » وبدلاً من أن يجعلها قبل صلالة وموسخا جعلها تقع بعدهما . إذن فقد ذكر بطلميوس الجغرافى موانئ مملكة حضر موت على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية وهى كانى وسياجروس وموسخا ولكنه أخطأ - على الأرجح - فى تحديد موقع سياجروس .

ومن الأمور الطريفة التى ألفت مزيداً من الضوء على موقع ساخاليتيس وميناء « موسخا » (خور رورى) أن بعثة أمريكية تابعة للمؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان قامت فى أعوام ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٢ بحفائر فى موقع « خور رورى » وكان من بين اكتشافاتها من هذا الموقع ستة نقوش بالخط المسند تتحدث عن تأسيس مدينة أو ميناء فى منطقة « سكلان » (الاسم العربى للإقليم الذى يكتب «ساخاليتيس» باليونانية كما رأينا عند الطواف وبطلميوس) .

هذه النقوش نشرتها جاكليين بيرين فى العدد الأول من « مجلة دراسات عمان » عام ١٩٧٥ (هامش رقم ٧٢) .

تحدث هذه النقوش عن إقامة أو إنشاء مدينة تسمى « سمارام » (بمعنى « المبتغى السامى » من كلمتى سما يسمو ، ورام يرام (٢١) . أى يتغى وينشد ، وقد وردت فى خريطة فى مقدمة كتاب الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصارى عن حفائر « الفاو » باسم « سامراء » (فى أرض « سكلان » بأوامر من الملك « العز يالوط » ملك حضر موت أصدرها إلى قائد الجيش الحضرمى ويدعى أيباتاع صالحين بن ذمر على ، وأشرف هذا الأخير على كل مراحل التنفيذ . وكتب هذه النقوش موظفون ملكيون أسندت إليهم مهام مثل تنظيم موقع المدينة الجديدة وإمدادها بالمياه (النقش الأول) وبالبناء والتشييد (النقش الثانى) ، كما قام بعض المستوطنين الجدد بكتابة نقوش أخرى مثل الرابع الذى كتبه جماعة من النساجين .

وهذه النقوش تكاد تسير على وتيرة واحدة إذ يذكر كاتب النقش اسمه (أو أسماءهم لو كانوا مجموعة) ، كما يذكرون مواطنهم الأصلية التى قدموا منها إلى هذا المكان الجديد . وقد أتى معظمهم - إن لم يكن كلهم - من العاصمة « شبوة » ورحلوا عنها بأوامر ملكية لتوطين المدينة الجديدة « سمارام » . ويذكر فى نقشين من هذه النقوش (النقشين الثالث والرابع) (٢٢) . أن المستوطنين الجدد كانوا ينتمون إلى أحد بطون قبيلة حاتم فى شبوة هو بطن عميس حيث يذكر فى النقشين حرفيا أنهم من أهل (عميس ثلث حاتم ويضمون ذلك الجزء الذى اختير للتهجير) .

وهناك بعض التعليقات العامة للربط بين محتويات هذه النقوش وما ورد عند « الطواف » و « بطلميوس » . أول هذه الملاحظات هو أن مدينة « سمارام » الجديدة التى أمر الملك الحضرمى « العزيالوط » - من القرن الأول ق. م. حسب تأريخ جاكليين بيرين لهذه النقوش من خلال خطوطها - تقع فى موقع (خور

رورى) أو موسخا التى وردت عند « الطواف » ، وورد اسمها عند بطليموس رغم أنه لم يحدد موقعها بدقة كما رأينا أعلاه . إذن فإن « سمارام » هى نفسها «موسخا» (الأولى التسمية العربية والثانية اليونانية القديمة) ميناء تصدير اللبان لمنطقة « سكلان » (سا خاليتيس) المنتجة للبان . والملاحظة الثانية هو اسم الملك الحضرمى من القرن الأول ق. م. الذى أمر بإقامة المدينة وهو « العز يالوط » ومنه يتضح أن اسم « العز » كان اسماً مألوفاً فى العائلة الملكية الحضرمية حينذاك ، إذ نجد فى مؤلف « الطواف » - من حوالى منتصف القرن الأول الميلادى - أن مملكة حضر موت وعاصمتها شبوة مقر إقامة الملك الحضرمى كانت تعرف بـ «مملكة إليازوس» والتى تعنى بلا شك « مملكة العز » . والملاحظة الثالثة هو ان الموظفين الملكيين الذين أسندت إليهم بعض مهام تعمير وتخطيط المدينة الجديدة يصفون أنفسهم فى هذه النقوش (النقشين الأول والثانى) بأنهم « عبد العز يالوط ملك حضر موت » . هذه الإشارة فى النقوش تفسر ما سبق أن ذكر عند « الطواف » من أن القائمين على جمع لبان مناطق الساخاليتيس (السكلان) كانوا من العبيد الملكيين ومن أرسلوا لقضاء فترة عقوبة فى هذه المناطق (الفقرة ٢٩) . من خلال نقوش « سمارام » يبدو أن كل من كان يكلف بمهام من قبل الملك كان يعد من « عبيد الملك » كما رأينا أعلاه ، بمعنى أنهم ينفذون أوامر الملك تنفيذاً دقيقاً وصارماً أكثر من دلالتها على العبودية بمعناها الحرفى . أما الإشارة عند «الطواف» إلى أن بعضاً من جامعى لبان الساخاليتيس كانوا ممن يقضون فترة عقوبة هناك فربما ارتبطت من طرف خفى ببعض الإشارات الواردة فى بعض نقوش « سمارام » فمن المحتمل أن يكون مؤسسو هذه المدينة الجديدة قد هجروا قسراً من موطنهم الأصلى من بطن عميس فى قبيلة حاتم فى شبوة ، لا سيما أن هناك كلمات وردت فى ختام بعض هذه النقوش - بصورة منفردة منفصلة عن السياق - تعبر عن المعاناة مثل كلمة « أذيت » فى ختام النقش الثالث ، وكلمة « يشقى » فى النقش الثامن .

الهوامش

(1) Herodotus, *Historiae* III, 97,, 107-112.

(2) Theophrastus, *Enquiry into Plants* IX. 4.2.-6, 10.

(3) Strabo, *Geography* XVI.4.2-4.

(4) Diodorus Siculus, *Historical Library* III, 45; 47.2-3, 5-6.

(5) L. Casson, *PME*, 27 :

ἐμπόριόν ἐστιν ἕτερον παραθαλάσσιον Κανή ,
Βασιλείας Ἐλεάζου , Χώρας Λιβανοτοφόρου

πῶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν
ὥσπερ ἐκδοχείῳν εἰσάγεται καμήλοις τε καὶ
σχεδίαις ἐντοπίαις δερματίναϊς ἐξ ἄσκων καὶ πλοίοις .

(6) Ibid. , 29 :

Μετὰ δὲ Κανή ἄλλος ἐκδέχεται βαθύτατος κόλπος ,
ἐπὶ πολὺν παρεκτείνων , ὁ λεγόμενος Σαχαλίτης , καὶ Χώρα
Λιβανοτοφόρος

ἔστιν δὲ τὰ δένδρα τὰ λιβανοφόρα οὐ μεγάλα λίαν
οὐδὲ ὑψηλά

Μεταχειρίζεται δὲ ὁ λίβανος ὑπὸ δούλων βασιλικῶν
καὶ τῶν ὑπὸ τιμωρίαν πεμπομένων .

(7) Ibid. , 30 :

Τούτου δ' ἐστὶν ἀκρωτήριον τοῦ κόλπου μέγιστον ,
ἀποβλέπον εἰς ἀνατολήν , ὁ καλούμενος Σύαγρος , ἐφ' οὗ
φρούριόν ἐστι τῆς χώρας καὶ λιμὴν καὶ ἀποθήκη τοῦ
συναγομένου λιβάνου .

(8) Ibid. , 32 :

... καὶ μετ' αὐτοὺς ὅρμος ἀποδεδειγμένος τοῦ Σαχαλίτου
λιβάνου πρὸς ἐμβολήν , Μόσχα λιμὴν λεγόμενος

παρὰ τῶν βασιλικῶν πρὸς ὀθόνιον καὶ σῆτον καὶ
ἐλαιον λίβανον ἀντιφορτίζουσιν παρ' ὅλον δὲ τὸν
Σαχαλίτην .

(9) Pliny the Elder, NH 12. 30. 51 - 52 :

Tura praeter Arabia nullis, ac ne Arabiae quidem universae. in medio eius fere sunt Astramitae, pagus Sabaeorum, capite regni Sabota in monte excelso, a quo octo mansionibus distat regio eorum turifera Sariba appellata - hoc significare Graeci mysterium dicunt .

(10) Ibid., 12. 30. 54 :

Nec praeterea Arabum alii turis arborem viderunt, ac ne horum quidem omnes, feruntque III non amplius esse familiarum quae ius per successiones id sibi vindicent, sacros vocari ob id, nec ullo congressu feminarum funerumque, cum indicant eas arbores ut metant, pollui, alque ita religione merces augeri.

(11) Ibid., 12. 32. 63 :

Tus collectum Sabotam camelis convehitur, porta ad id una patente; degredi via capital reges facere. ibi decumas deo quem vocant Sabin mensura, non pondere, sacardotes capiunt, nec ante mercari licet :

(12) Gus W. Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 9.

(13) L. Casson, PME, 27 :

Τρουλλάς, ἀπὸ σταδίων ἑκατὸν εἴκοσι τῆς Κανῆς, ὑπέρεται δὲ αὐτῆς μεσόγειος ἡ μητρόπολις Σαυβαθία, ἐν ἣ καὶ ὁ βασιλεὺς κατοικεῖ. πᾶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν ὥσπερ ἐκδοχεῖον εἰσάγεται.

انظر كذلك هامش رقم ٥٩ أعلاه .

(١٤) إن ما ورد في فقرات بليني المقتبسة - وخاصة حول اهتمام ملوك حضر موت بضرورة

نقل محصول اللبان كله إلى شبوة أولاً واعتبار عدم الامتثال لهذه الأوامر الملكية في هذا

الصدد جريمة كبرى - يشير بوضوح إلى احتكار ملكي للسلعة . كما أن ما ورد عند

الطواف عن العبيد الملكيين والمسجونين الذين يقومون بجمع المحصول من غابات اللبان

في إقليم خليج « ساخاليتيس » ، وكذلك تعامل التجار مع « الوكلاء الملكيين »

وحصولهم على اللبان منهم مقابل سلعهم يشير بوضوح إلى هذا الاحتكار الملكي للبان .

(15) L. Casson, PME.33 :

(15) L. Casson, PME.33 :

<Ἀπὸ δὲ Μόσχα> λιμένος ἐπ' ἄλλους σταδίους ὡς
χιλίους, πεντακοσίους ἕως Ἀσίχωνος ἄχρι <ὄρος> τῇ γῇ
παρατείνει καὶ κατὰ τὸ ἀπολήγον αὐτοῦ μέρος ἑπτὰ
νῆσοι πρόκεινται κατὰ τὸ ἐξῆς, αἱ Ζηνοβίου λεγόμεναι,
μεθ' αἷς ἄλλη παράκειται χώρα βάρβαρος οὐκέτι τῆς αὐτῆς
βασιλείας ἀλλ', ἤδη τῆς Περσίδος.

(16) Ibid., note on 29 : 9. 22-23, pp. 165 - 66.

(17) Ibid., Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 10.

(18) Jacqueline Pirenne, « The Incense Port of Moscha (Khor Rori) in
Dhofar », Journal of Oman Studies, vol., 1, 1975, pp. 81 - 96, p.
95.

(19) Claudius Ptolemaeus(ptolemy); Geography, 6. 7. 10 :

Ἀδραμιτῶν Χώρας

Ἱβισμα πόλις πβ̄ ιᾱ δ
ساكنفى بذكر أهم الموانى التى تعيننا على هذا الساحل ومواقعها ولن أذكر كل المواقع
التي أورها بطلميوس :

Κάνη ἐμπόριον καὶ ἄκρον	πδ̄	ιβ̄	δ
Θιάλληλα κώμη	πζ̄	ιδ̄	
Μόσχα λιμὴν	πη̄	δ	ιδ̄
Σύαγρος ἄκρα	θ̄	ιδ̄	

ثم الفقرة التالية مباشرة عند بطلميوس (6. 7. 11) والخاصة بمواقع « الساخالييتين »

Σαχαλιτῶν

Μέτακον κώμη	πη̄	ις̄	δ
Λύσσα πόλις	πζ̄	γ̄	ιδ̄ δ
Ἀγγη κώμη	πζ̄	δ	ις̄ δ

ثم ترد بعد ذلك مواقع عديدة سأذكر آخرها وهو :

Κοροδαβον	θ̄ γ̄	κ̄	δ̄
---------------------	-------	----	----

(20) J. Pirenne, loc, cit.

(21) Ibid., p. 82.

(22) Ibid., pp. 85 - 87.

الاستعراضات العسكرية عند الرسول ﷺ وأساليبها

د. عبد العزيز بن عبد الله السلوّم (*)

مقدمة :

كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بداية الانطلاق لتأسيس دولة إسلامية مستقلة ، ذات نظم شتى مستمدة منهجها ودستورها مما ينزل على رسول الله ﷺ من وحى ، وبما يعمل به أو يقوله أو يأمر به أو يقره عليه الصلاة والسلام ، فهو القدوة وهو المثل ، فقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى البطولات والفداء ، فساس هذه الأمة سياسة حكيمة ، وقادها إلى الرفعة والسمو وإلى العز والتمكين فى شتى المجالات .

ومن هذه المجالات ما تمتع به الرسول الله ﷺ من شخصية عسكرية متميزة أبهرت الجميع ، مما يصعب الاستطراد فيه هنا ، بل يحتاج إلى بحوث وكتب كثيرة لدراسة هذا الجانب من شخصيته عليه الصلاة والسلام .

وحيث أن موضوع البحث هو « الاستعراض العسكرى عند الرسول ﷺ وأساليبه » كأحد جوانب فنه وتعبته واعداده لجيش الدولة الإسلامية الناشئة التى تحتاج - بالطبع - إلى جيل متميز وفريد وجديد بأسلوبه العسكرى ، كما هو جديد بانتمائه لعقيدته السليمة الصادقة ، لذا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام رعى هذا الجيل ودربه وأشرف بشكل مباشر على تدريبيه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستعرض جنده بين الحين والآخر ليتأكد من سلامتهم واقتدارهم ، كما يوجههم بالتوجيه المناسب حسب مقتضى الحال .

ومن هنا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام أبدع فى هذا المجال ، وتفنن ونوع وجدد مما يدل على عمق شخصيته العسكرية .

(*) قسم الحضارة والنظم الإسلامية - جامعة أم القرى .

فنجده وهو فى بدر يستعرض جنده - رغم قلة عددهم - وينظمهم صفوفاً أمام عدوهم اللدود « قريش » - الذين جاءوا حسب زعمهم لمناجزة محمد والتخلص منه والقضاء عليه - فكان يحرص على الدقة فى تنظيمهم ليحقق واحداً من أهداف هذا التنظيم وهو إظهار العدد كبيراً أمام الأعداء .

أما فى أحد فنجده ينظم جيشه تنظيمًا مغايراً لما سبق فى بدر ، كما أنه استعرض جنده بأسلوب مختلف ، حتى أننا نجده يعرض الغلمان الذين تسابقوا وحرصوا على الاشتراك فى الجهاد ، فكان عليه الصلاة والسلام يستعرض هؤلاء الأولاد فمن كان جديراً بالقتال وحمل السلاح أثبته ومن كان صغيراً خاف عليه ورده .

إن نظم الاستعراض فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام جاءت متنوعة بين عرض للجند أمام الرسول ﷺ إلى استعراض للجيش أمام الأعداء .

فى غزوة خيبر عبأ جيشه وسار على تعبثته بنظام الخميس ، حتى فاجأ اليهود بهذه التعبئة فقص مضاجعهم وأوهن عزائمهم وبث الرعب فى نفوسهم .

وفى الحديبية - وكجانب من جوانب عرض قوة المسلمين أمام رسل قريش - تمت بيعة العقبة بين المسلمين وبين الرسول ﷺ بأقوى صورها وأشكالها « على الموت وعدم الفرار » ، كل ذلك على مرأى ومسمع من مندوبى قريش ، كوسيلة ضغط على أهل مكة .

أما فى غزوة الفتح ، فبعد أن أسلم أبو سفيان ، وقبل أن يرجع إلى مكة ليخبر قومه بما حدث ، أمر الرسول ﷺ عمه العباس أن يجلسه عند خطم الجبل ، حتى تمر جنود الله فيراها . وبعد أن تم العرض العسكرى أمام قائد مكة وزعيمها قبل الفتح ، رجع إليها حاملاً أكبر صورة وأبلغ أثر ليشعر قومه بأنه جاءهم أمر لا طاقة لهم به ، ولا قوة فكان ذلك درساً بليغاً حمله من خلال ذلك العرض

العسكري المهيب وبذلك نجح الرسول ﷺ بدخول مكة بأقل خسائر ممكنة من خلال تلك الخطة المحكمة .

ولم يقتصر الاستعراض على ذلك بل تعداه إلى استعراض الخيول ، والاهتمام بها وعمل المسابقات لها نظراً لما تشكله الخيول من أهمية بالغة في الفروسية وفي الميادين الحربية ، لذا نجد الرسول ﷺ هو الذى يتولى عرض الخيول بنفسه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الرسول ﷺ استعمل أسلوب إشعال النيران أمام الأعداء حتى يث الرعب والوهن فى قلوب الأعداء ، ونلمس ذلك واضحاً فى كل من غزوة حمراء الأسد وفتح مكة .

وهكذا كانت أساليب الاستعراض التى عمل بها الرسول ﷺ وأمر بها أو دعى إليها متعددة ومتنوعة ، بحسب طبيعة وظروف المعركة فالرسول ﷺ هو القائد القدوة الذى كان على علم بكيفية اكتشاف طاقات أمته شيوخاً وشباناً وأحداثاً وصبياناً بل ونساءً . كما كان على دراية واسعة بأدوات العدة الجهادية من سلاح وخيل وأساليب قتالية ، مع العمل على الأفادة من هذه الطاقات وتوجيهها نحو الخير فى خدمة الدعوة ، وتحقيق فرضية الجهاد التى تميزت بها هذه الأمة لتكون أمة هداية وخير ، كل ذلك ليتأسى به قادة الإسلام فى حركاتهم الجهادية ، وتفقدهم لأساليب القتال وإعداد العدة للجهاد فى سبيل الله .

وقد سرت فى هذا البحث على جمع المادة العلمية من كتب الأحاديث النبوية وكتب المغازى والسير التى تحدثت عن غزوات الرسول ﷺ وحرصت على نقل الروايات الصحيحة والاشهاد بها قدر المستطاع ، وإذا لم أجد شيئاً فى الصحيحين ، اعتمدت على اقوال أهل الحديث فى الحكم عليه ، كما قمت بتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها حتى يسهل الرجوع إليها برواتها وأسانيدها، سائلاً الله عز وجل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح إنه سميع مجيب .

استعراض (١) الصفوف :

من وسائل الاستعراض العسكرى الذى عمله الرسول ﷺ فى حربه مع الأعداء تنظيم الجيش الإسلامى على هيئة صفوف أمام الأعداء استجابة لدعوة الله سبحانه وتعالى للمقاتلة بنظام الصف كما جاء فى القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَا مَرْصُوصٌ﴾ (٢) . أورد ابن كثير قولاً لابن عباس فى معنى ذلك « أنه مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض وقال قتادة ألم تر إلى صاحب البنيان لا يحب أن يختلف بنيانه ، فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره » (٣) .

وفى بدر بالذات كان نظام الصف الذى عمله الرسول ﷺ مفاجئاً للمشركين مما كان عاملاً فى إحداث خلل فى خططهم وصعوبة فى إعادة ترتيب وضعهم وكان ذلك مهماً فى انتصار المسلمين على أعدائهم . ولعل فى ذلك فوائد كثيرة منها :

- ظهور جميع المقاتلين أمام القائد والتعرف عليهم واحداً واحداً .
- الإيحاء للأعداء بكثرة عدد المسلمين وإظهار قوة المسلمين لبث الرعب فى قلوب أعدائهم (٤) .
- اختبار كفاءة المقاتلين وقدراتهم القتالية .
- سهولة حركة القائد بين الصفوف بشكل فيه مرونة وسرعة .
- أن القتال بالصف يصلح لأى من الظروف القتالية سواء كان هجوماً أو دفاعاً .
- الاستماتة والاستمرارية فى القتال لأطول فترة ممكنة .
- وجود قوة احتياطية متمثلة فى الصفوف الخلفية لمعالجة أى طوارئ غير متوقعة (٥) .

ومن هنا رغب الرسول ﷺ بذلك روى الإمام أحمد بسنده (٦) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يضحك الله إليهم :

الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » .
فعمل المسلمون بذلك .

كما أن الرسول ﷺ طبقه في بدر حيث دلت على ذلك الأحداث الكثيرة وتواترت في كتب المغازي والسير . من ذلك ما رواه الإمام أحمد (٧) . بسنده عن يونس بن محمد حدثه شيبان بن عبد الرحمن عن قتاده . قال : حدثنا انس بن مالك أن أبا طلحة رضى الله عنه قال : « غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم بدر » (٨) .
وأورد ابن كثير رحمه الله من رواية للترمذي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : « صفنا رسول الله ﷺ يوم بدر ليلاً » (٩) .

وقد أورد البيهقي بسنده (١٠) من رواية الفضل بن دكين عن حمزة بن أبي أسيد عن أبيه قال : « قال رسول الله ﷺ يوم بدر حين صفنا لقريش و صفوا لنا ، إذا أكتبوكم فارموهم بالنبل » وهو بسند صحيح حيث أورده البخاري بقوله : « إذا أكتبوكم يعنى أكثروكم فارموهم بالنبل واستبقوا نبلكم » (١١) .

ومن ذلك أيضاً ما رواه الطبراني (١٢) وأحمد (١٣) من رواية عبد الله بن لهيعة حدثه يزيد بن أبي حبيب أن أسلم أبا عمران التميمي حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول : « صففنا يوم بدر فندرت منا نادره - وفي رواية فبدرت منا بادرة - أما الصف فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال معي معي » ، قال ابن كثير رحمه الله في هذا الحديث تفرد به أحمد وإسناده حسن (١٤) ، وقال الهيثمي رواه أحمد والبخاري وأحمد رجال الصحيح (١٥) .

وفي هذا المقام أيضاً ما تواتر عند أهل المغازي والسير في قصة سواد بن غزيرة الأنصاري (١٦) رضي الله عنه عندما كان الرسول ﷺ يسوي الصفوف ويعدها يوم بدر .. فقد أورد ابن اسحاق بسنده عن حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه : « أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفي يده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن غزيرة حليف بني عدى بن النجار وهو مستتل (١٧) من

الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال : استو يا سواد . فقال يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذنني - فكشف الرسول ﷺ عن بطنه فقال : استقد... وذكر تمام الحديث «(١٨) .

وأورد الهيثمي رواية عن عبد الله بن جبير الخزاعي قال : « طعن رسول الله ﷺ رجلاً في بطنه إما بقضيب وإما بسواك . فقال : أوجعتني فأقذنني ، فأعطاه العود الذي كان معه فقال : استقد . فقبل بطنه . ثم قال : بل أعفو لعلك أن تشفع لي بها يوم القيامة » .

قال الهيثمي أورد هذه الرواية الطبراني ورجاله ثقات (١٩) .

إن هذه القصة لتدل دلالة واضحة على مدى الدقة والانضباط في الاستواء بالصفوف من دون أية تقدم أو تأخر ولو حتى بجزء من الجسم كما هو واضح من قصة سواد وبروز بطنه في الصف ، ولهذا وجد الرسول ﷺ بدأ من إشعار سواد بأهمية الاعتدال والاستواء والالتزام بذلك ولو جاء ذلك بأسلوب التأديب كما هو الحال هنا .

ثم أن موقف سواد ﷺ وطلبه القود من الرسول القائد ﷺ وعرض الرسول ﷺ نفسه والكشف عن بطنه لسواد في مثل هذه الظروف الحرجة بل والحالكة لتؤكد عدالة الرسول ﷺ والاستجابة من القائد لهذا الجندي في وقت العرض لما طلبه ، حيث أنه كان يطمح ، أن يكون آخر العهد أن يمس جلده جلد رسول الله ﷺ على ما أوردته المصادر في سياق تلك القصة .

كما أن الرسول ﷺ استعمل نظام الصف أمام الأعداء يوم أحد ، فقد روى أبو طلحة ﷺ بسند صحيح قال : « غشيننا ونحن في مصافنا يوم أحد حدث أنه كان فيمن غشيه النعاس يومئذ . قال فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه ، والطائفة الأخرى . المنافقون ليس لهم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق » (٢٠) .

استعراض الغلمان لاختبار كفاءتهم القتالية :

فى غزوة أحد عندما علم رسول الله ﷺ بتعبئة المشركين لمهاجمة المسلمين بعد هزيمتهم فى غزوة بدر استشار ﷺ أصحابه فى مكان القتال ، فهناك من أشار عليه بدخول المدينة وكان عليه الصلاة والسلام يرى هذا رأى ، وهناك من أشار عليه بالخروج عن المدينة ليجنبها ويلات الحرب وكان هذا هو الرأى الراجع ، فعندئذ عبا الرسول عليه الصلاة والسلام جيشه وخرج إلى أحد ثم انسحب المنافقون بقيادة عبد الله بن أبى المنافق من جيش المسلمين . ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا سبعمائة رجل (٢١) . وقبل المعركة وضع فرقة من الرماة عليهم عبد الله ابن جبير رضي الله عنه ووجههم إلى جبل الرماة لحماية ظهور المسلمين لئلا يلتف عليهم المشركون من الخلف (٢٢) ... كما استعرض الرسول ﷺ جيشه ، وقبل من قبل ورد من رد وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ التى تثبت أنه استعرض أبناء الصحابة الصغار واحداً واحداً ، فمن كان سنه أقل من خمس عشرة سنة رده ، ومن كان أكثر من ذلك أجازته ، ولهذا نجد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله جعل سن الخامسة عشر الحد ما بين من يشبههم فى عطاء المقاتلة من عطاء الذرية (٢٣) .

أورد البخارى بسنده ، حدثه نافع ، حدثه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه « ثم عرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى » (٢٤) . قال نافع : «فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثته هذا الحديث فقال : إن هذا لحد بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة» (٢٥).

وقد رواه البيهقى بلفظ آخر بسنده ، من طريق محمد بن المثنى ومحمد بن بشار ، قالاً حدثنا عبد الوهاب الثقفى ، حدثنا عبيدا الله عن نافع ، عن ابن عمر،

قال : « عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فاستصغرنى وردنى مع الغلمان ، فلما كان يوم الخندق عرضنى وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى .. الحديث » (٢٦) .

وأوردت كتب السير مجموعة من الغلمان الذين استعرضهم رسول الله ﷺ بعد العصر وقبل غروب الشمس (٢٧) منهم ، عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت ، البراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس بن قيطى ، وابن سعيد بن خيثمة ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج (٢٨) . وزاد المقرئى عليهم الأسماء التالية : النعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم ، وعمرو بن حزم ، وسعد بن حبة الأنصارى (٢٩) .

وفى أثناء العرض رد الرسول ﷺ سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة . فقليل للرسول ﷺ : إن رافعاً رام ، فأجازه رسول الله ﷺ ثم قال سمرة لقد اجزت رافعاً ورددتنى ولو صارعنى لصرعته ، قال فصارعته فصرعته فأجازنى فى البعث (٣٠) .

يقول ابن حجر : « أن عرض الجيش هنا هو اختبار لأحوالهم قبل مباشرة القتال ، للنظر فى هيتهم وترتيب منازلهم ... » (٣١) .

أما قصة المصارعة وقت العرض فقد وردت فى كتب المحدثين ، إذ أوردها الحاكم فى المستدرک بسنده من رواية عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه ، عن سمرة ابن جندب رضى الله عنهم ... وذكر الحديث ... وقال هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه (٣٢) ، أى البخارى ومسلم .

كذلك رواه البيهقى والطبرانى أيضا (٣٣) :

ثم إن بعض المصادر أشارت إلى أن الرسول ﷺ كان يقيم مثل هذه العروض فى كل سنة ، وليس خاصاً فى غزوة من الغزوات ، فقد وردت بذلك روايات عدة، منها على سبيل المثال : ما رواه البيهقى بسنده ، أخبره أبو عبد الله

الحافظ ، حدثه أبو الحسن محمد بن الحسن ، أنبأه علي بن عبد العزيز ، حدثه إبراهيم بن عبد الله الهروي ، حدثه هشيم ، حدثه عبد الحميد بن جعفر الأنصاري ، عن أبيه ، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار في كل عام فيلحق من أدرك منهم ... الحديث » (٣٤) .

غير أن الملاحظ هنا في نصوص هذا الحديث أن العرض في كل عام كان خاصاً بغلمان الأنصار دون المهاجرين . لكن سبق معنا في أحاديث صحيحة وردت عند البخاري ومسلم ما يدل على أن العرض كان حتى لأبناء المهاجرين . من ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ، ثم عرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه » (٣٥) . وعبد الله بن عمر من أبناء المهاجرين .

كذلك أورد ابن حجر حديثاً لأبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق » (٣٦) . هكذا مطلقاً ، ولم يحدد الراوي هل هم غلمان الأنصار ، أم غلمان الصحابة بشكل عام ، وهو الأرجح ، لثبوت الأدلة على ذلك بما سبق . ثم أن القصد من هذا العرض أمام الرسول ﷺ إنما هو لمعرفة من تكون له قدرة على القتال من هؤلاء الأبناء ، ممن لم يبلغ تلك المنزلة . فقصة رافع الذي أجازه الرسول ﷺ لأنه كان يجيد الرمي كما مر معنا آنفاً ، على الرغم من وجود غلمان كانوا في سنه ولم يجزهم الرسول ﷺ ابتداءً لكن لأن المسألة هنا كانت مسألة قوة واقتدار على القتال ، فإن سمرة بن جندب رضي الله عنه اعترض على ذلك وبين أنه يصرع رافعاً لو تصارع معه ، عندها وافق عليه الصلاة والسلام على المصارعة . فلما تمكن سمرة من مصارعة رافع ، أجازه الرسول عليه الصلاة والسلام . ولهذا يقول ابن حجر في رواية أبي واقد الليثي : « أن الرسول ﷺ أجاز من أجاز ورد من رد إلى الذراري » (٣٧) .

استعراض الجيش بنظام الخميس :

وفى غزوة خيبر نجد أن الرسول ﷺ عباً جيشه نحو يهود خيبر مستخدماً
عنصرين أساسيين هما :

- عنصر المفاجأة حيث أنه صبحهم بكرة ، فما أن خرجوا إلى مزارعهم فى
الصباح إلا وقد فوجئوا بجيش الرسول ﷺ أمامهم . وذلك أسلوب من أساليب
بث الرعب والوهن فى قلوب الأعداء .

- العنصر الثانى هو استعراض جيش المسلمين للأعداء وفق تنظيم عسكرى دقيق ،
وهو نظام الخميس حيث تحرك الجيش إلى خيبر بهذه التعبئة التى فاجأت اليهود
وجعلتهم يفرعون منها .

وأورد البخارى بسنده من رواية محمد بن سيرين عن أنس بن مالك ؓ
قال : « صبحنا خيبر بكرة فخرج أهلها بالمساحى ، فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا :
محمد والله ، محمد والحمد . فقال النبي ﷺ الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا
بساحة قوم فساء صباح المنذرين ... الحديث (٣٨) .

وقد أورده من طريق آخر بلفظ « أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً وكان
إذا أتى قوماً بليل لم يعز بهم حتى يصبح ، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم
ومكاثلهم ، فلما رأوه قالوا : محمد والله ، محمد والحمد ... وذكر تمام
الحديث « (٣٩) .

إضافة إلى ذلك فإن رسول الله ﷺ حاصر يهود خيبر ، واستمر فى
محاصرتهم ومحاربتهم . وكان بذلك صافاً عساكره وجيوشه فى ليله ونهاره ،
ومحاولاً فتح خيبر وهو على تعبته تلك . وأثناء تلك المحاولات أعلن عليه الصلاة
والسلام أنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ،
يفتح الله على يديه . عندها أخذ الناس يتناولون ويعرضون أنفسهم على رسول
الله كل واحد منهم يرجو أن يكون هو ، إلى أن سأل عن على ؓ ثم دفعها له

فتم فتح خيبر ، وقد روى أحمد (٤٠) بسنده من رواية عبد الله بن بريده أنه سمع أبا بريدة يقول : « حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر ولم يفتح له ، وأخذ من الغد عمر فانصرف ولم يفتح له ، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد ، فقال رسول الله ﷺ : إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يرجع حتى يفتح له ، وبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غداً ، فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة ثم قام قائماً ودعا باللواء والناس على مصافهم فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون صاحب اللواء ، فدعا علي بن أبي طالب وهو أرمد فتفل في عينيه ومسح عنه ودفع إليه اللواء وفتح الله له . قال : وأنا فيمن تطاول لها » (٤١) .

استعراض قوة المسلمين عن طرق تجديد البيعة :

في مستهل ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة خرج الرسول ﷺ ومعه من المسلمين ما يقارب ألفاً وأربعمائة على ما رواه البخاري من رواية جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما (٤٢) ، لقصد العمرة وذلك إظهاراً لتعظيم المسلمين للبيت الحرام ودحضا لأقاويل المشركين من أهل مكة الذين أدعوا على المسلمين عدم احترامهم للكعبة ، حيث بدأت مثل هذه الأقاويل تنتشر عند بعض قبائل الجزيرة العربية .

وتحسباً لوقوع صدام مع قريش فقد استعد الرسول ﷺ ومن معه بالأسلح وسار الرسول عليه الصلاة والسلام متجهاً نحو مكة عبر طرق بعضها غير معتادة ، حتى وصل إلى الحديبية - بالقرب من مكة بين الحل والحرم - على أن قريش حينما علمت بمقدمه اعترضت على دخوله مكة ، فأرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسلاً إلى قريش يخبرهم أنه لا يريد حرب أحد وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه . ومع ذلك رفضت قريش ، وظنت أن ذلك خدشاً بمكانتها عند العرب ، فكان ذلك عاملاً من عوامل إرسال عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة ،

علمهم يستجيبوا لرغبة المسلمين . وحدث أن تأخر عثمان بن عفان فى مكة ، وكان فى الوقت نفسه عروة بن مسعود الثقفى مفاوضاً من قبل قريش ، فكان خلال وجوده مع الرسول ﷺ شديد الملاحظة ، فهاله تقدير واحترام المسلمين للرسول ﷺ ومكانته عندهم ، ومدى فداءهم له فنقل هذه الصورة لقريش فكان مما قال : « ... أى قوم والله . لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والتجاشى ، والله أن رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ، ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً ... الحديث » (٤٣).

ولما أشيع أن عثمان بن عفان ﷺ قد قتل ، دعا الرسول ﷺ أصحابه للبيعة فهبوا إليه جميعاً ليبايعوه وتسابق المسلمون لمبايعته على القتال (٤٤) .

إن هذه الصورة من المبايعه وصلت إلى مسامع قريش ، مما جعلهم يعيدون النظر فى أسلوبهم وتعاملهم مع هذا الحدث العظيم ، الذى أصبح خطراً يقض مضاجعهم ، فانصاعوا إلى الصلح بدلاً من إشعال الحرب التى خافوا أنها لا تكون فى صالحهم ، لما رأوا من عزيمه المسلمين وقوتهم وثباتهم ومبايعتهم للرسول ﷺ على القتال . فكان ذلك عرضاً عسكرياً بالغاً لتحويل توجيه الحدث وقبول مبدأ التفاوض مع المسلمين وتحقيق مطالبهم ولو آجلاً ، مما جعل قريش لا تقوم لها قائمة بعد هذا الصلح ، حيث تكفت يداها ، وأصبحت فى حكم المدافع ، وانتهى دورها كمهاجم للمسلمين .

عرض كتائب المسلمين أمام الأعداء :

وإذا ما انتقلنا إلى غزوة الفتح ، أو فتح مكة نجد أن العرض العسكرى هناك أخذ طابعاً مميزاً عن غيره من العروض العسكرية السابقة ، والتى كانت تعتمد على رؤية الرسول القائد ، ومتابعته لها ، والإشراف عليها ، وإبداء التوجيهات اللازمة،

واختبار كفاءة المقاتلين ، وخاصة الشباب الجدد منهم . أما هنا فإن الوضع مختلف والأسلوب مغاير ذلك أن الرسول ﷺ لما خرج قاصداً مكة حرص على أن لا تعلم قريش بخبره ، حتى أتى إلى مر الظهران (٤٥) . وأحست قريش بخروج الرسول ﷺ والمسلمون إليهم . وكان أبو سفيان زعيم المشركين وأهل مكة آنذاك . فخرج يستروح الأخبار حتى ظفر به العباس عليه السلام ، فاخبره خبر جيش المسلمين . وما زال العباس عليه السلام بأبي سفيان يدعوه للدخول في الإسلام حتى وضعه بين يدي النبي ﷺ ، حتى أسلم ثم أعطاه الرسول ﷺ الأمان ولكل من يدخل بيته أو المسجد الحرام أو من يغلق عليه بابه . ولكن قبل أن ينصرف إلى مكة وإلى قومه - على ما ذكره المحدثون وأهل السير - أمر الرسول عليه الصلاة والسلام عمه العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه عند خطم الجبل (٤٦) . حتى يرى جنود الله بكامل عدتهم وعتادهم ، لينقل هذه الصورة إلى قومه ، وقد أورد البخاري هذه القصة بحديث طويل في صحيحه (٤٧) . يمكن إيراد ما يخص هذه الحادثة وهو قول النبي ﷺ للعباس « ... احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين . فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة (٤٨) على أبي سفيان ، فمرت كتيبة قال يا عباس : من هذه ؟ قال هذه غفار . قال : مالي ولغفار ، ثم مرت جهينة ، وقال مثل ذلك . ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك ، ومرت سليم فقال مثل ذلك ، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها ، قال من هذه ؟ قال هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية ... الحديث » .

وقد ورد هذا الحديث من طرق متعددة (٤٩) وذكر الطبراني وغيره رواية مثل تلك إلا أنه وصف الكتيبة التي فيها الرسول ﷺ بقوله : « ... فلما مرت كتيبة فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق (٥٠) ، قال سبحان الله من هؤلاء يا عباس ؟ قلت هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .. الحديث » (٥١) .

يقول ابن حجر فى فتح البارى مبيناً أمر الرسول ﷺ للعباس فى حبس أبى سفيان عند خطم الجبل ... » وإنما حبسه هناك لكونه مضيقاً ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحد منهم » (٥٢) .

كما أن ترتيب الرسول ﷺ لجيشه وتقسيمه إلى عدة فرق كل فرقة تتجه إلى مكة من طريق غير الطريق الذى تسلكه الفرقة الأخرى ، هو نوع أيضاً من أنواع استعراض القوة أمام أهل مكة ، مما لا قبل لهم به ولا حول ولا قوة ، فيجعلهم يستسلمون وتسهل السيطرة على مكة وشعابها وجبالها . فقد أوردت كتب المغازى والسير والمحدثون ما يفيد بتقسيم الجيش ، حيث دخل رسول الله ﷺ من كداء بأعلى مكة (٥٣) ، وأمر خالد بن الوليد على المجنبه اليمنى أن يدخل من الليط أسفل مكة ، إضافة إلى فرقة أبى عبيدة بن الجراح على فرقة الرجاله ، والزبير بن العوام على المجنبه اليسرى (٥٤) ، ومعه الراية التى أمره الرسول ﷺ أن تركز بالحجون ، على ما رواه البخارى (٥٥) .

عرض الرسول ﷺ نفسه بين فلول الهاربين من المسلمين :

أما فى غزوة حنين فإن المسلمين لما خرجوا لملاقاة هوازن بعد فتح مكة ، وبعد أن انضم إليهم ما يقارب الألفى شخص من مسلمة الفتح ، وبعد أن احتدمت المعركة وانتصر المسلمون فى بادئ الأمر وأخذوا فى جمع الغنائم ، إنهالت عليهم سهام هوازن ، حيث كانوا يجيدون الرمى ، فانكشف المسلمون فولوا هاربين إلا الرسول ﷺ ومن ثبت معه وهم قلة . فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يستعرض وبنفسه وعلى بغلته البيضاء المسلمين وهو متجه نحو هوازن ويدعو الناس للثبات وعدم الفرار ، ويطلب من يذكر المسلمين بمواقفهم وبيعتهم تحت الشجرة ، وهى بيعة الرضوان يوم الحديبية . وكان النبى ﷺ وهو على بغلته يصرخ فى المسلمين ويقول :

أنا النبي لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

وأخذ المسلمون في التوافد نحو ذلك الصوت . ثم صفهم الرسول ﷺ على ما أورده مسلم (٥٦) ، وأعاد المسلمون قواهم فكروا على عدوهم ، حتى كتب الله لهم النصر . وقد أورد البخاري ومسلم (٥٧) حديثاً من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه أن رجلاً قال له : « أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين . قال : لكن الرسول الله ﷺ لم يفر . إن هوازن كانوا قوماً رماة ، وإنا لما لاقيناهم حملنا عليهم فأنهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهم ؛ فأما رسول الله ﷺ فلم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها ، والنبي ﷺ يقول :

أنا النبي لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

استعراض القوة بالنيران أمام الأعداء :

ومن الاستعراضات العسكرية التي كان الرسول ﷺ يثبت بها قوته واقتداره أمام الأعداء ، ما كان يعمل عليه الصلاة والسلام من إشعال النيران أحياناً ليرهب بها الأعداء وليشعرهم بقدمه ، وحرصه عليه الصلاة والسلام من تكثير هذه النيران وتوزيعها حتى يدرك الراءون لها كثرة عدد أصحابها . من ذلك مثلاً ما حدث في غزوة حمراء الأسد (٥٨) ، فبعد أن انتصر أهل مكة على المسلمين في أحد هموا بالرجوع إلى المدينة من أجل استئصال المسلمين دفعة واحدة ، فلما علم الرسول ﷺ بذلك أمر الناس بالاستعداد لطلب العدو ، وأن لا يخرج معهم إلا من حضر في أحد - على الرغم مما أصاب المسلمين من الجراح والتعب - يقول ابن حجر رحمه الله في ذلك « وإنما خرج مرهباً للعدو ، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم » (٥٩) .

وقد أورد ابن سعد في قصة إيقاد النيران أنه « ... كان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار ، حتى ترى من المكان البعيد . وذهب صوت معسكرهم

ونيرانهم فى كل وجه ، فكبت الله تبارك وتعالى بذلك عدوهم «(٦٠) ، ووافق ابن سعد هنا كل من ابن سيد الناس ، وعلى الحلبي (٦١) .

أما المقرئى فقد ذكر أنهم أوقدوا خمسمائة ناراً وأن الرسول ﷺ كان يأمر المسلمين بجمع الحطب نهاراً وإشعالها ليلاً على انفراد (٦٢) ، وقد أقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد على ذلك ثلاث أيام ، وهى الاثنين والثلاثاء والأربعاء . ثم رجع إلى المدينة لما علم برجوع المشركين إلى مكة (٦٣) .

وكان هذا الاستعراض مصدر قوة للمسلمين ليس فقط تجاه المشركين أهل مكة ، وإنما حتى على المنافقين فى المدينة الذين كانوا يخذلون المسلمين ، وكذلك اليهود ، الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر .

وإذا ما انتقلنا إلى فتح مكة ، فإننا نجد جميع المصادر التى تحدثت عن هذه الغزوة أشارت إلى ما كان يعمل به الرسول ﷺ من إيقاد النيران الكثيرة التى تشعر العدو بكثرة عدد المسلمين . وتلك النيران جعلت أبا سفيان - على ما ذكرت المصادر - هو ومن معه من كبراء مكة يخرجون إلى خارج مكة تحسباً للأخبار . وفى ذات ليلة ، وكما أورد البخارى فى صحيحه (٦٤) « ... أن أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الخير عن رسول الله ﷺ ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال أبو سفيان : ما هذه لكأنها نيران عرفة . فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمرو فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ... وذكر تمام الحديث » وقد اتفقت جميع المصادر على هذا الحديث ، وتلك المحاورة بين أبا سفيان ورفاقه (٦٥) .

وعن عدد ما أوقد تلك الليلة من النيران ، فإننا نجد إشارة عند ابن سعد تفيد بأن الرسول ﷺ « .. أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ... » (٦٦) . وهذا العدد يمثل عدد جيش المسلمين الذى ذهب إلى مكة لفتحها .

عرض الرسول ﷺ للخيل :

تمثل الخيول أهمية بالغة في العسكرية الإسلامية . فالرسول عليه الصلاة والسلام أهتم اهتماماً بالغاً بالخيل من حيث تنشئتها وتكثيرها ، وتدريبها والتدرب عليها ، ومعالجتها ، والحرص على إقتنائها . ووضع الحمى الخاصة بها . وكذلك عمل العروض اللازمة لها ، ثم الإسهام لها في الغنيمة ، وقد ورد في الحديث من رواية جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيمة الأجر والغنيمة » (٦٧) .

إن كل موضوع من هذه الموضوعات يحتاج إلى بحث مستقل بذاته ، وحيث أننا بصدد الحديث عن استعراض الخيول وعرضها في عهد الرسول ﷺ وما يتعلق في ذلك فلا بد من الإشارة هنا إلى الأحاديث الواردة في هذا الشأن ، حتى يتبين لنا مدى العناية البالغة من الرسول ﷺ بريضة الخيول وتدريبها لغرض الجهاد في سبيل الله . من ذلك مثلاً ما رواه الحاكم (٦٨) بسنده عن أبي بكر أحمد القاضي ، حدثه محمد بن سعد العوفي ، حدثه يعقوب الزهري ، حدثه محمد ابن طلحة التيمي ، حدثه أبو سهل بن مالك عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يجهز أو كان يعرض جيشاً ببقيع الخيل (٦٩) فأطلع العباس بن عبد المطلب ، فقال رسول الله ﷺ : هذا العباس عم نبيكم أجود قريش كفاً وأحناه عليها » ، وقد أورد هذا الحديث أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه وأبو يعلى في مسنده والطبراني في المعجم الأوسط (٧٠) من طريق محمد بن طلحة .

وأورده الهيثمي بروايات متعددة . قال : « كنا عند النبي ﷺ ببقيع الخيل » ، وفي رواية أنه قال : « خرج النبي ﷺ يجهز جيشاً فنظر إلى العباس فقال ... وذكر تمام الحديث » ، قال الهيثمي عن رواية أحمد وأبو يعلى ثقات ورجاهم رجال الصحيح (٧١) .

ومما يدل أيضاً على استعراض الرسول ﷺ للخيل ما رواه الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده (٧٢) من طريق أبي عثمان عن أبي موسى قال: «أخذ القوم في عقبه أو ثنية، فكلما علا رجل عليها نادى لا إله إلا الله والله أكبر، والنبى ﷺ على بغلة يعرضها في الخيل. فقال يا أيها الناس: إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً... الحديث»، كما روى هذا الحديث أيضاً البخارى وابن حبان في صحيحه وأبو داود في السنن، والنسائى في سننه الكبرى (٧٣).

وهناك حديث آخر ورد وبروايات متعددة يبين لنا مدى معرفة الرسول ﷺ بالخيل، وحرصه عليها، واستعراضه لها بين الحين والآخر، وهو ما رواه أحمد بسنده، حدثه صفوان بن عمرو، قال حدثني شريح بن عبيد عن عبد الرحمن بن عائذ الأزدي، عن عمرو بن عبسة السلمى قال: «كان رسول الله ﷺ يعرض يوماً خيلاً وعنده عيينة بن حصن الفزارى. فقال له النبى ﷺ أنا أفرس بالخيل منك. فقال عيينة وأنا أفرس بالرجال منك... وذكر تمام الحديث بطوله...» (٧٤). وقد أورده الحاكم في مستدركه وقال «هذا حديث غريب المتن صحيح الإسناد» ولم يخرجاه (٧٥) أى البخارى ومسلم.

أما الطبرانى فرواه بلفظ آخر من رواية معاذ بن جبل ؓ قال: «كان النبى ﷺ فى دارنا يعرض الخيل فدخل عليه عيينة... الحديث» (٧٦).

كما أورده الهيثمى من هذا الطريق وقال رواه الطبرانى ورجاله ثقات (٧٧).

أما عن رواية أحمد فقد قال أنه رواه متصلاً ومرسلاً ورجاله ثقات (٧٨).

وكما أن الرسول ﷺ اهتم بالخيل ورياضتها فإنه حرص أيضاً على تخصيص مكان لها فحمى النقيع (٧٩) للخيل - وهو على بعد عشرين فرسخاً من المدينة، وقدره ميل فى ثمانية أميال على ما أورده ابن حجر (٨٠) - فقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، منها ما رواه البخارى بسنده من رواية عبد الله بن

دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما « أن النبي ﷺ حمى النقيع لخيّل المسلمين » (٨١) ، كما رواه البيهقى بسنده عن نافع عن ابن عمر بلفظ « أن النبي ﷺ حمى النقيع لخيّل المسلمين ترعى فيه » (٨٢) .

وقد تواترت فى ذلك الأدلة وروى هذا الحديث أغلب المحدثين (٨٣) .

وبالإضافة إلى عرض الخيول أمام النبي ﷺ فإنه كان أيضاً يعمل المسابقة بينها على حسب أنواعها ، وفئاتها وهو نوع من أنواع عرض الخيول ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر » (٨٤) .

ومن هنا كان عليه الصلاة والسلام يسابق بين الخيول المضمرة وغير المضمرة (٨٥) . فقد روى البخارى بسنده حدثه أبو إسحاق عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التى قد اضمرت فأرسلها من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع ، فقلت لموسى : فكم كان بين ذلك . قال : ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التى لم تضر فأرسلها من ثنية الوداع ، وكان أمدها مسجد بنى زريق . قلت : فكم بين ذلك ؟ ... قال : ميل أو نحوه . وكان ابن عمر ممن سابق فيها » (٨٦) .

وذكر الخزاعى رواية عن الزهرى قال : « سبق سهل بن سعد الساعدى ﷺ على فرس لرسول الله ﷺ يقال له الظرب . فكساه رسول الله ﷺ برداً يمانياً . وسبق أبو أسيد الساعدى على فرس لرسول الله ﷺ يقال له : لزاز فلما طلع الفرس جثا رسول الله ﷺ على ركبتيه وأطلع من الصف وقال : كأنه بحر . وكسا أبا أسيد حلة يمانية » (٨٧) .

وكان التشبيه له بأنه بحر مما يدل على سرعة الفرس وعدم انقطاع جريه ، مثل البحر لا ينقطع ماؤه (٨٨) ، ولهذا نجد هناك أحاديث رواها البخارى وذكر فيها أن الرسول ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة يقال له « مندوب » فقال إنا وجدناه « لبحراً » . وقصة ذلك فيما رواه أنس بن مالك ﷺ قال : « كان » بالمدينة

فزع فاستعار النبي ﷺ فرساً لأبى طلحة يقال له مندوب . فركبه وقال ما رأينا من فزع وإن وجدناه لبحراً» (٨٩) .

ومن خيل الرسول ﷺ التي سبق فيها وسبقت كانت « السكب » و « سبحة » و « الأدهم » وغيرها (٩٠) .

ولم يكن أجراء العروض للسباق خاصاً بالخيل فقط وإنما شمل حتى الإبل ، فلقد سبق الرسول ﷺ بين الإبل ومعهن القصواء وعليها بلال ؓ (٩١) . وذكر ابن جماعة أن للرسول ﷺ ناقة اسمها الجدعاء وكانت لا تسبق (٩٢) . مما يدل على أنه عمل لها ولغيرها سباق بين الإبل فسبقت ، كذلك أورد البخاري بسنده من رواية أنس ؓ قال : « كانت لرسول الله ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق ، فجاء أعرابي على قعود فسبقها . فشق على المسلمين . فلما رأى ما في وجوههم ، قالوا يا رسول الله : سبقت العضباء ؟ قال : إن حقاً على الله أن يرتفع من الدنيا شيء إلا وضعه » (٩٣) .

عرض الصحابة الفارون أنفسهم على رسول الله :

ومن أساليب العرض على رسول الله ﷺ ما كان يعمل به بعض الصحابة رضوان الله عليهم ممن ارتكب خطأ في القتال من فرار ونحوه ، أنهم يأتون ويعرضون أنفسهم على رسول الله ﷺ ليعفو عنهم أو يرى رأيهم فيهم . من ذلك مثلاً ما رواه أبو داود وبسنده (٩٤) من رواية يزيد ابن أبي زياد ، أن عبد الرحمن ابن أبي ليلى حدثه أن عبد الله بن عمر حدثه ، أنه كان في سرية من سرايا رسول الله ﷺ قال : « فحاص الناس حيصة (٩٥) فكنت فيمن حاص . قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ فقلنا ندخل المدينة فنثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كان لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرارون . فأقبل إلينا فقال : بل أنتم العكارون (٩٦) قال فدنونا فقبلنا يده فقال إنا فئة المسلمين » .

وقد أورد هذا الحديث مجموعة من المحدثين بأسانيدهم من طريق يزيد بن أبي زياد ، فقد أوردته الترمذى فى سنته (٩٧) ، كما أوردته ابن حبان فى صحيحه (٩٨) ، وكذا الحاكم فى المستدرک على الصحيحين (٩٩) ، وذكره الإمام أحمد فى مسنده (١٠٠) . والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠١) ، وأبو يعلى فى مسنده (١٠٢) .

عرض الأسرى والمحاربين أمام الرسول ﷺ :

وكان الأسرى يعرضون على الرسول ﷺ بعد المعركة ليرى فيهم رأيهم ، ويحكم عليهم بحكمه ، بحسب مقتضى حالهم ، ومدى إيغالهم فى العداوة للإسلام وأهله ، ومدى حرص الرسول ﷺ وطمعه بإسلام البعض منهم . ولهذا نجد أن الرسول ﷺ - بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين وأسره لعدد من المشركين وأثناء عودتهم قافلين إلى المدينة - أمر بقتل كل من النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط على ما رواه ابن اسحاق ، قال : « ... حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث ، قتله على بن أبى طالب ... ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبى معيط ... » (١٠٣) . وقد وردت روايات عدة عند المحدثين عن ذلك (١٠٤) .

أما المحاربون - وهم اليهود بعد نقضهم العهد مع رسول الله ﷺ - فقد وردت أحاديث فى غزوة بنى قريظة تبين أن الرسول ﷺ لما حاربهم وانتصر عليهم وجمع رجالهم وصبيانهم ونساءهم ، فإنه جعل النساء والذرارى من السبى . أما الرجال فتم قتلهم (١٠٥) . وأما الأولاد فإنهم عرضوا على النبى ﷺ فمن رآه قد أنبت شعره - أى وصل إلى البلوغ - قتل ، ومن لم ينبت لم يقتل . من ذلك ما رواه الترمذى (١٠٦) بسنده قال حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عطية القرظى قال : « عرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قتل ، ومن لم ينبت خلى سبيله ، فكنت ممن لم ينبت فخلى سبيلى .. » قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح (١٠٧) .

وقد رواه ثلة من المحدثين بأسانيدهم ، عن سفيان حدثه عبد الملك بن عمير ،
حدثه عطية القرظي (١٠٨) ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٩) ، من رواية
أسلم بن بجره بلفظ « ... فكان ينظر إلى فرج الغلام فمن أنبت ضرب عنقه وإن
لم ينبت ففى المغنم ... » (١١٠) .

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ كان يشرف بنفسه على استعراض أولئك
الغلمان للتأكد من واقع بلوغهم ، وإنزال الحكم فيهم ، وحتى لا يؤخذ أحد
بالظنة أو الخطأ أو النسيان ، لأن فى هذا حكما من أحكام الله أجراه الله على
لسان سعد ابن معاذ ؓ ، حينما قال له الرسول ﷺ على ما أورده البخارى « ...
قضيت فيهم بحكم الله ... » (١١١) . وذلك بسبب جريمتهم البشعة فى نقض
العهود فى أحلك الأوقات أيام غزوة الأحزاب .

الهوامش

(١) الاستعراض من العرض ، يقال عرضت الجند عرض العين ، إذا أمررتهم عليك ونظرت ما حالهم ، وقد عرض العارض الجند ، واعترضوا هم . ومنه اعتراض الجند على قائلهم ، واعترض الناس : عرضهم واحداً واحداً . وقيل هو من عرض الجند بين يدي السلطان لإظهارهم واختبار أحوالهم . ومنه الاعتراض على الدابة ، إذا كان وقت العرض راكباً . انظر ابن منظور - لسان العرب ٢٨٨٥/٥ .

(٢) الآية ٤ من صورة الصف .

(٣) انظر ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ٣٥٩/٤ .

(٤) وبالمقابل فإن الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين في نظر المسلمين حتى تقوى عزائمهم ومعنوياتهم ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ الآية ٤٣ من سورة الأنفال .

(٥) انظر محمود شيت خطاب - الرسول القائد ٧٨ ، ٧٩ ، أكرم العمرى - المجتمع المدني في عهد النبوة ٤٧ .

(٦) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٨٠/٣ .

(٧) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٩/٤ .

(٨) انظر عن هذا الحديث البخارى - الجامع الصحيح المختصر ١٤٩٣/٤ - وسنن الترمذى ٢٢٩/٥ ، النسائى - السنن الكبرى ٣١٦/٦ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٩٥/٥ .

(٩) انظر ابن كثير ، السيرة النبوية ٤٠٩ / ٢ .

(١٠) انظر البيهقى - السنن الكبرى ١٥٥ / ٩ وانظر أبى داود - السنن ٥٢ / ٣ بلفظ حين اصطفنا يوم بدر ، وانظر أيضاً الطبرانى - المعجم الكبير ١٩ / ٢٦٢ .

(١١) انظر البخارى - الصحيح ١٠/٥ - ١١ .

(١٢) سليمان الطبرانى - المعجم الكبير ١٧٤/٤ .

- (١٣) مسند الإمام أحمد ٤٢٠/٥ .
- (١٤) السيرة النبوية ٤٠٩/٢ ، وانظر أيضاً البداية والنهاية ٢٧١/٣ .
- (١٥) انظر الهيثمي - مجمع الزوائد ٧٥/٦ .
- (١٦) انظر عن ترجمته ابن عبد البر - الاستيعاب ٢٩٣/٤ ، ابن حجر - الإصابة ٢٩٢/٤ - ٢٩٣ .
- (١٧) يقال نل من بن أصحابه نلاً و نلوا واستنل أى تقدم ، واستنل القوم على الماء إذا تقدموا. انظر ابن منظور - لسان العرب ٤٣٣٧/٧ .
- (١٨) انظر عن ذلك - ابن اسحاق - سيرة النبي ﷺ ٤٥٦/٢ - ٤٥٧ ، ابن هشام من رواية ابن اسحاق فى السيرة النبوية ٦٢٦/٢ ، وكذا ابن كثير فى البداية والنهاية ٢٧١/٣ ، والسيرة النبوية ٤٠٩/٢ - ٤١٠ ، وكل هؤلاء أوردوها من طريق واحد هو هذا الإسناد الذى فيه جهالة شيوخ حبان بن واسع بن حبان .
- (١٩) انظر مجمع الزوائد ٢٨٩/٦ .
- (٢٠) قال الترمذى حديث حسن صحيح ، انظر سنن الترمذى ٢٢٩/٥ كما رواه أحمد فى المسند ٢٩/٤ ، والطبرانى فى المعجم الكبير ٩٥/٥ .
- (٢١) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٦٤/٣ ، ٦٥ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٢٦/٣ - ٢٩ .
- (٢٢) انظر المصادر السابقة وانظر أيضاً البخارى - الصحيح ٢٩/٥ .
- (٢٣) انظر ابن سعد - الطبقات ٢٥٨/٥ ، ابن حجر العسقلانى - فتح البارى ٢٧٨/٥ ، ٢٧٩ ، ٣٩٣/٧ ، ٣٩٤ .
- (٢٤) البخارى - الجامع الصحيح ٤٥/٥ ، صحيح مسلم ١٢/١٣ ، أبو داود - السنن ٥٦١/٤ ، ٥٦٢ ، الترمذى - السنن ٦٤١/٣ ، أحمد - المسند ١٧/٢ .
- (٢٥) انظر - البيهقى - السنن الكبرى ٣٥٢/٦ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٥٩/١ ، انظر فتح البارى ٢٧٦/٥ ، ٣٩٣/٧ حيث شرح هذا الحديث شرحاً وافياً .

(٢٦) انظر سنن البيهقي ٥٥/٦ ، كما أورد مسلم جزءاً من هذه الرواية ، انظر الصحيح ١٢/١٣ .

(٢٧) انظر المقرئى - إمتاع الأسماع ١١٩/١ حيث قال : « فلما فرغ العرض وغابت الشمس أذن بلال بالمغرب » .

(٢٨) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٦٦/٣ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٢٩/٣ - ٣٠ المقرئى - إمتاع الأسماع ١١٩/١ .

(٢٩) انظر إمتاع الأسماع ١٩٩/١ ، انظر أيضاً ابن سيد الناس - عيون الأثر ٧/٢ حيث ذكر أن عدد من ردهم الرسول ﷺ من الأولاد بلغ أربعة عشر غلاماً .

(٣٠) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٦٦/٣ ، ابن عبد البر - الاستيعاب ٢٥٨/٤ ، الخزاعي التلمساني - تخريج الدلالات السمعية ٢٤١ .

(٣١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخارى ٣٩٣/٧ .

(٣٢) انظر الحاكم - المستدرک على الصحيحين ٧٩ / ٢ وذكر محقق الكتاب عبد القادر عطا أن الذهبى قال فى التلخيص حديث صحيح .

(٣٣) انظر سنن البيهقي ١٨/١٠ ، الطبرانى - المعجم الكبير ١٧٧ / ٧ .

(٣٤) انظر سنن البيهقي ١٨/١٠ ، الحاكم - المستدرک على الصحيحين ٦٩/٢ ، الطبرانى ، المعجم الكبير ١٧٧/٧ ، وانظر ابن عبد البر - الاستيعاب ٢٥٨ / ٤ بلفظ « كان يستعرض غلمان الأنصار فى كل عام » .

(٣٥) انظر الجامع الصحيح للبخارى ٤٥/٥ ، صحيح مسلم ١٢ / ١٣ .

(٣٦) انظر ابن حجر - فتح الباري ٣٩٤/٧ .

(٣٧) انظر المصدر السابق ٣٩٤/٧ حيث ذكر أن معنى الإجازة هنا هو « امضاؤه والإذن له بالقتال » .

(٣٨) انظر صحيح البخارى ٥٧٣/٥ ، وصحيح مسلم بلفظ : « فأتيناهم حين بزغت الشمس ... الحديث ١٦٥/١٢ .

- (٣٩) انظر المصدر السابق ٧٣/٥ ، ابن حجر - فتح الباري ٤٦٧/٧ .
- (٤٠) انظر مسند أحمد ٣٥٣/٥ .
- (٤١) انظر السنن الكبرى ١٠٩/٥ ، ١٧٩/٥ ، وانظر أيضاً ، أحمد بن حنبل . فضائل الصحابة ٥٩٣/٢ وذكر المحقق أن أسناده هنا صحيح .
- (٤٢) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٤٣/٧ ، ٤٤٤ .
- (٤٣) أورده البخاري مطولاً في قصة الحديبية في باب الشروط في الجهاد ، وانظره مع الشرح في فتح الباري ٣٢٩/٥ وما بعدها .
- (٤٤) وردت روايات عدة عن صيغة البيعة وهل هي على الموت ، أو على عدم الفرار أو على الصبر حيث وردت أحاديث كثيرة في ذلك ظاهرها التعارض ، وقد جمع العلماء بين هذه الآراء فمن ذلك ما ذكره الترمذي من أن هناك من بايعه من أصحابه على الموت ، وبايعه آخرون فقالوا : « لا نفر » انظر سنن الترمذي ١٥٠/٤ ، أما ابن حجر فقال : « لا تنافي بين قولهم ، بايعوه على الموت وعلى عدم الفرار ، لأن المراد بالمبايعة على الموت أن لا يفروا ، وليس المراد أن يقع الموت ولا بد وهو الذي أنكر نافع وعدل إلى قوله : « بل بايعهم على الصبر » أي على الثبات سواء أفضى ذلك إلى الموت أو لا » والله أعلم .
- انظر ابن حجر فتح الباري ١١٨/٦ .
- (٤٥) مر الظهران ، سمي مر لمرارته والظهران وإد قرب مكة بينه وبين البيت ستة عشر ميلاً . ويطن الوادي تخزعت خزاعة أيام سيل العرم ، وبه كان الرسول ﷺ ينزل إذا أتى إلى مكة ، انظر البكري - معجم ما استعجم ١٢١٢/٢ ، ياقوت - معجم البلدان ٦٣/٤ .
- (٤٦) الخطم رعن الجبل وهو الأنف منه حيث يضيق الموضع الذي يخرج فيه . انظر ابن منظور - لسان العرب ١٢٠٣/٢ .
- (٤٧) انظر صحيح البخاري ٩١/٥ ، وانظر ابن كثير - السيرة النبوية ٥٤٩/٣ ، ٥٥٣ .
- (٤٨) الكتيبة هي القطعة العظيمة من الجيش والجمع كئائب . انظر الجزري - النهاية في غريب الحديث ١٤٨/٤ ، ابن منظور - لسان العرب ٣٨١٨/٦ .

(٤٩) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٦٦/١ ، البيهقي - السنن الكبرى ١١٩/٩ البخارى - الجامع الصحيح المختصر ١٥٥٩/٤ .

(٥٠) الحدق هو السواد المستدير وسط العين ومنه التحديق وهو شدة النظر بالحدقة ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٨٠٦/٢ .

(٥١) الطبراني - المعجم الكبير ٩/٨ ، وانظر ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٠/٤ .

(٥٢) انظر فتح البارى ٨/٨ ، وانظر أكرم العمرى - المجتمع المدنى فى عهد النبوة ١٧٦ .

(٥٣) انظر البخارى - الصحيح ٩٣/٥ .

(٥٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٢/١٢٦ ، ١٢٧ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤٠٧/٣ ، ابن سعد - الطبقات ٩٨/٢ ، ابن الديع الشيبانى - حقائق الأنوار ٦٦٩/٢ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٣/٤ ، الخزاعى التلمسانى - تخريج الدلالات السمعية ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٥٥) انظر البخارى - الصحيح ٩١/٥ .

(٥٦) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٢/١١٨ - ١٢٠ .

(٥٧) انظر صحيح البخارى ٢١٨/٣ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ١٢/١٢١ .

(٥٨) حمراء الأسد : موضع على ثمانية أميال من المدينة إليه انتهى رسول الله ﷺ فى اليوم الثانى من يوم أحد بطلب المشركين ، انظر البكرى - معجم ما استعجم ٤٦٨/١ ، ياقوت معجم البلدان ٣٠١/٢ .

(٥٩) انظر فتح البارى ٣٧٤/٧ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٤٩/٤ ، السيرة النبوية ٩٨/٣ .

(٦٠) انظر طبقات ابن سعد ٣٥/٢ الواقدى - المغازى ٣٣٨/١ .

(٦١) انظر عيون الأثر ٣٨/٢ ، على الحلبي - السيرة الحلبية ٣٣٩/٢ .

(٦٢) انظر امتاع الأسماع ١٦٩/١ .

(٦٣) انظر ابن كثير - البداية والنهاية ٤٩/٤ ، أما ابن سعد فقد أشار إلى أن الرسول ﷺ انصرف إلى المدينة ودخلها يوم الجمعة ، وقد غاب عنها خمس ليال ... انظر الطبقات ٣٥/٢ .

(٦٤) انظر الصحيح البخارى ٩١/٥ .

(٦٥) انظر مثلاً سنن البيهقى الكبرى ١١٩/٩ ، ومسند الإمام أحمد ٢٦٦/١ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٩/٨ ، وانظر أيضاً ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٨٦١/٤ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤٠٢/٤ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٥٧٤/٣ ، البداية والنهاية ٢٨٩/٤ .

(٦٦) انظر الطبقات ٩٧/٢ ، ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٨٦١/٤ ، وانظر ابن حجر - فتح البارى ٧/٨ حيث أشار إلى أن النيران قد أخذت الوادى كله .

(٦٧) الحديث رواه مسلم من رواية أبى هريرة ، انظر صحيح مسلم ١٤٩٣/٣ ، النسائى - السنن ٢٢١/٦ ، البيهقى - السنن الكبرى ١١٢/٦ ، أبى يعلى فى المسند ٥١/٥ ، ٥٢ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٣٣٧/٢ .

(٦٨) قال الحاكم عن هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه البخارى ومسلم ، انظر المستدرک ٣٧١/٣ .

(٦٩) البقيع هو الموضع الذى فيه أروم الشجر من ضروب شتى ومنه بقيع المدينة ، أما بقيع الخيل فهو مكان بالمدينة عند دار زيد بن ثابت . انظر ياقوت - معجم البلدان ٤٧٣/١ ، ٤٧٤ .

(٧٠) وانظر مسند أحمد ١٨٥ / ١ ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥٢٨/١٥ ، مسند أبى يعلى ١٣٩/٢ ، الطبرانى - المعجم الأوسط ٥٥٢ / ٢ .

(٧١) انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٢٧١/٩ .

(٧٢) انظر صحيح مسلم ٢٠٧٧/٤ ، ومسند الإمام أحمد ٤٠٧ / ٤ .

(٧٣) انظر الجامع الصحيح المختصر ٢٣٥٤ / ٥ ، ابن حبان - الصحيح ٨٤/٣ ، أبو داود السنن ٨٧/٢ ، النسائى - السنن الكبرى ٢٥٥/٥ ، ١٣٧/٦ .

- (٧٤) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٨٢/٤ ، فضائل الصحابة ٨٧٧ / ٢ .
- (٧٥) انظر المستدرک علی الصحیحین ٩١/٤ ، وقال فی التلخیص صحیح غریب .
- (٧٦) انظر المعجم الكبير للطبرانی ٩٨ / ٢٠ .
- (٧٧) انظر الهیثمی حیث ذکر أن رجال الطبرانی ثقات إلا أن خالد بن معدان لم یسمع من معاذ بن جبل ، فی مجمع الزوائد ٤٧ / ١٠ .
- (٧٨) انظر المصدر السابق ٤٦/١٠ .
- (٧٩) النقیع : هی الأرض السهلة المستویة تثبت الرمث والبقل وأطایب العشب ، وقیل هی متسع الوادی ، فأصل النقیع کل موضع یستنقع فیہ الماء ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٤٥٢٦/٨ ، وانظر فتح الباری ٤٥/٥ .
- (٨٠) انظر فتح الباری ٤٥ / ٥ .
- (٨١) انظر الجامع الصحیح المختصر ٥٣٥ / ٢ .
- (٨٢) انظر سنن البیهقی ١٤٦/٦ .
- (٨٣) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد ٩١ / ٢ ، صحیح ابن حبان بترتیب ابن بلبان ٥٣٨/١٠ ، سنن الدار قطنی ٢٣٨/٤ ، شرح معان الآثار ٢٦٩/٣ .
- (٨٤) انظر النسائی - السنن بشرح الإمام السیوطی ٢٢٦/٦ .
- (٨٥) من الإضمار أو التضمیر وهو تقلیل علف الفرس مدة وتجلیلها لتعرق ویجف عرقها فیخف لحمها وتقوی علی الجری ، وقیل هو تسمینها أولاً ثم ردها إلى القوت . انظر - السیوطی - شرح سنن النسائی ٢٢٦/٦ .
- (٨٦) البخاری - الصحیح ٢١٩ / ٣ ، ٢٢٠ ، بروایات متعددة ، النسائی - السنن بشرح الإمام السیوطی ٢٢٦/٦ .
- (٨٧) انظر تخریج الدلالات السمعیة ٣٩٢ ، ٣٩٣ .
- (٨٨) انظر الثعالبی - فقه اللغة ١٥٢ .

(٨٩) انظر صحيح البخارى ٢١٨/٣ ، كما رواه من طريق آخر بلفظ « ... أن النبى ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة كان يقطف أو كان فيه قطاف فلما رجع قال : وجدنا فرسكم هذا بجراً . فكان بعد ذلك لا يجارى » ، انظر البخارى ٢١٩/٣ .

(٩٠) انظر ابن جماعة الحموى - مستند الأجناد فى آلات الجهاد ٧٠ ، ٧١ ، الخزاعى التلمسانى تخريج الدلالات السمعية ٣٩٣ .

(٩١) انظر المقرئى - إمتاع الأسماع ٢٠٦/١ .

(٩٢) انظر مستند الأجناد لابن جماعة ٧٣ .

(٩٣) انظر صحيح البخارى ٢٢٠/٣ ، وانظر سنن النسائى بشرح السيوطى ٢٢٧/٦ .

(٩٤) انظر أبو داود - السنن ٤٦/٣ .

(٩٥) من الحيص : وهو الحيد عن الشيء ، يقال حاص عنه يحيص حيصاً أى رجع . يقال للأولياء : حاصوا عن العدو . وللأعداء انهزموا . انظر ابن منظور - لسان العرب ١٠٧٠ / ٢ .

(٩٦) من عكر على الشيء يعكر عكراً واعتكر أى كر وانصرف ، يقال رجل عكار فى الحرب أى عطاف كرار . وقال ابن الأعرابى العكار : الذى يولى فى الحرب ثم يكر راجعاً . انظر الجوهرى - الصحاح ٧٥/٢ ، ابن المنظور - لسان العرب ٣٠٥٥/٥ .

(٩٧) انظر الجامع الصحيح - سنن الترمذى ٢١٥/٤ قال عنه هذا الحديث حسن .

(٩٨) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣٦٦/٥ .

(٩٩) المستدرک على الصحيحين ٤٣٩ / ٣ .

(١٠٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٠٨ / ٤ .

(١٠١) المعجم الكبير ٥/١٨ .

(١٠٢) انظر مسند أبى يعلى ٤٤٧/٩ ، ١٠٨ / ١٠ وذكر المحقق له حسين سليم أسد أن إسناده ضعيف لضعف يزيد بن ابى زياد . أما الذهبي فقال عن يزيد بن أبى زياد أنه شيعى عالم فهم صدوق ردئ الحفظ لم يترك روى له مسلم والأربعة . انظر الكاشف ٢٧٨/٣ / أما ابن حجر فقال عنه ضعيف كبر فتغير ، انظر تقريب التهذيب ٣٦٥/٢ .

(١٠٣) ذكر ابن كثير من رواية ابن اسحاق أن عقبة بن أبي معيط لما أقتيد وقدم للقتل قال :
فمن للصبية يا محمد . قال : النار ... ثم قال لما أقبل عليه عاصم بن ثابت لقتله : يا معشر
قريش علام أقتل من بين هؤلاء ؟ قال له : على عداوتك الله ورسوله . انظر ابن كثير -
السيرة النبوية ٤٧٣/٢ ، والبداية والنهاية ٣٠٥/٣ .

(١٠٤) انظر عن هذه الروايات أحمد باوزير - مرويات غزوة بدر ٣٠٤ - ٣١٢ .

(١٠٥) ذكر البخاري أن الرسول ﷺ طلب من سعد بن معاذ أن يحكم فيهم قال سعد فلاني
أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبي النساء والذرية وأن تقسم أموالهم . انظر صحيح
البخاري - ٥١/٥ .

(١٠٦) في الجامع الصحيح - سنن الترمذي ١٤٥/٤ .

(١٠٧) الجامع الصحيح - سنن الترمذي ١٤٥/٤ ، وذكر المحقق أيضاً أن الألباني صححه
وانظر أيضاً الضحاك في كتابه الآحاد والمثاني ٢٠٥/٤ .

(١٠٨) انظر مثلاً صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٠٤/١١ ، الحاكم - المستدرک علی
الصحيحين ٤٣٠/٤ ، ابن ماجه - السنن ٨٤٩/٢ ، سنن الدرامي ٢٩٤/٢ ، مسند أبي
داود الطيالسي ١٨١ ، مسند الإمام أحمد ٣١٠/٤ .

(١٠٩) انظر المعجم الكبير ٤٣٦/١٩ .

(١١٠) أورده الهرملي بسند أسلم بن يجره الأنصاري وقال فيه جماعة لم أعرفهم . انظر مجمع
الزوائد ١٤٤/٦ .

(١١١) انظر صحيح البخاري ٥٠/٥ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم :

- الآحاد والمثاني :

أحمد بن عمرو بن الضحاك (ت ٢٨٧هـ) ، ط / الراية - الرياض عام ١٤١١هـ ، مراجعة باسم فيصل الجوابره .

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب :

يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، تحقيق : طه محمد الزيني ، ط ١ مكتبة الكليات الأزهرية .

- الإصابة في تمييز الصحابة :

شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني المعروف بابن حجر (ت ٨٥٢هـ) ، ط الأولى . دار إحياء الكتب العربية عام ١٣٩٣هـ .

- البداية والنهاية :

لأبي الفداء الحافظ بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ط / الثالثة ، مكتبة المعارف ، بيروت .

- الجامع الصحيح المختصر :

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) . ط / دار ابن كثير «اليمامة» بيروت عام ١٤٠٧هـ . مراجعة د. مصطفى ديب البغا .

- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي :

لمحمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ، ط / دار أحياء التراث ، بيروت ، مراجعة أحمد محمد شاكر .

- الرسول القائد :

محمود شيت خطاب ، الطبعة المصرية - القاهرة .

- السنن لابن ماجه :

أبو عبيد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) ط / المكتبة الإسلامية
بتركيا . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

- السنن للدارمي :

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي (ت ٢٥٥هـ) ، الناشر : دار إحياء
السنة النبوية .

- السنن لأبي داود :

سليمان بن الأشعث المعروف بأبي داود ، ط / دار الفكر ، مراجعة : محمد
محيي الدين عبد الحميد .

- السنن الكبرى للبيهقي :

أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت ٤٥٨هـ) ، ط / مكتبة دار الباز بمكة
عام ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

- السيرة النبوية :

أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ،
ط / دار المعرفة - بيروت عام ١٣٩١هـ .

- السيرة النبوية :

لأبي محمد عبد الملك بن هشام (ت ٥٨١هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا
وآخرون ، ط / الثانية عام ١٣٧٥هـ ، مطبعة البابي الحلبي .

- الصحاح :

إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٢ هـ .

- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة :

للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ ، ط / دار الكتب الحديثة - مصر ، ط / الأولى ١٣٩٢ هـ ، تحقيق : عزت علي عطيه ، موسى محمد موسى .

- الطبقات الكبرى :

لمحمد بن سعد الزهري مولاهم ، ط / دار التحرير للطباعة والنشر - القاهرة .

- المجتمع المدني في عهد النبوة « الجهاد ضد المشركين » :

د. أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

- المستدرک علی الصحیحین :

أبو عبد الله محمد النيسابوري المعروف بالحاكم (ت ٤٠٥ هـ) ، ط / دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١ ، راجعه : مصطفى عبد القادر عطا .

- المعجم الكبير :

سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ط / مكتبة العلوم والحكم - الموصل ١٤٠٤ هـ . مراجعة : حمدي السلفي .

- المغازي :

لمحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) ، ط / عالم الكتب - بيروت ، تحقيق : د. ماردسن جونس .

- المسند :

للإمام أحمد بن حنبل - دار النشر ، مؤسسة قرطبة بمصر - مصورة عن الطبعة الميمنية .

- النهاية في غريب الحديث :

لمجد الدين أبى السعادات بن الأثير الجزرى ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى
ومحمود طنناحى ، ط ١ ، المطبعة عيسى البابى الحلبي عام ١٣٨٣هـ -
١٩٦٣م.

- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع :

تقى الدين أحمد بن على المقرئى ، صححه محمود شاكر ، ط / الشؤون الدينية
بقطر ، الطبعة الثانية .

- إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ، المعروفة بـ « السيرة الحلبية » :

على بن برهان الدين الحلبي ، ط / المطبعة المصرية عام ١٢٩٢هـ .

- تخرىج الدلالات السمعية على ماكان فى عهد الرسول ﷺ من الحرف
والصنائع والعمالات الشرعية :

أبى الحسن على بن محمد الخزاعى التلمسانى (ت ٧٨٩هـ) ، مطبوعات
وزارة الأوقاف المصرية - عام ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م .

- تفسير القرآن العظيم :

لأبى الفدا إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر
- بيروت ١٣٨٨م - ١٩٦٩م .

- تقريب التهذيب :

شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ، ط / دار
المعرفة ، بيروت ١٣٩٥هـ ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف .

- حقائق الأنوار ومطالع الأسرار :

لابن الديع الشيبانى الشافعى ، تحقيق : عبد الله الأنصارى ، ط / قطر عام
١٤٠٣هـ .

- سنن النسائي الكبرى :

أحمد بن شعيب بن علي النسائي ، ط / المكتبة العلمية - بيروت ، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤١١هـ ، مراجعة : عبد الغفار البنداري وسيد كروي حسن .

- صحيح مسلم :

مسلم بن الحجاج النيسابوري ، ط / إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٧٤هـ ، وصحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية .

- صحيح البخاري :

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، ط / المكتبة الإسلامية باستانبول - تركيا .

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير :

لابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) . ط / طبعة دار المعرفة للطباعة - بيروت .

- فتح الباري شرح صحيح البخاري :

لابن حجر . شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، تحقيق : سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - نشر ادارات البحوث العلمية والافتاء .

- فضائل الصحابة :

لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ، ط / الأولى عام ١٤٠٣هـ ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق : د. وصي الله محمد عباس .

- فقه اللغة وسر العربية :

أبي منصور الثعالبي ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٤م .

- لسان العرب :

جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور ، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرون ط / دار المعارف بمصر .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :

للمحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي (ت ٧٠٨ هـ) ط: ٢ عام
١٩٦٧ م، دار الكتاب ، بيروت .

- مرويّات غزوة بدر :

أحمد محمد باوزير ، ط ١ ، مكتبة طيبة بالمدينة المنورة عام ١٤٠٠ هـ -
١٩٨٠ م.

- مستند الأجناد في آلات الجهاد :

لابن جماعة الحموي (ت ٧٣٣ هـ) ، تحقيق : أسامة ناصر النقشبندی ،
منشورات وزارة الثقافة بالعراق ١٩٨٣ م .

- مسند أبي يعلى الموصلي :

أحمد بن على بن المثنى التميمي (ت ٣٠٧ هـ ، ط / دار المأمون للتراث ، ط
الأولى ١٤٠٥ هـ ، تحقيق : حسين أسد .

- معجم البلدان :

شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ، طبعة دار صادر ودار بيروت عام
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع :

عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧ هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا ، ط
عالم الكتب - بيروت .

العباسيون والأمويون

دراسة في العلاقات بين البيتين (١١-١٢٥هـ)

د. محمد بن دبيع بن هاشم مظهر^{*}

يتصل البيتان العباسي والأموي بجد واحد يجمعهما ألا وهو عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة^(١) .

فالعباس هو : العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف^(٢) ، عم رسول الله ﷺ ، وصاحب المواقف الجليلة معه بعد وفاة أبي طالب بن عبد المطلب (في السنة العاشرة من البعثة النبوية) ، حيث شهد مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة وهو مشرك^(٣) ، ثم ساند رسول الله ﷺ معنوياً بعد الهجرة إلى أن هاجر إلى المدينة قبيل فتح مكة سنة ٨هـ^(٤) .

وحظي العباس عند رسول الله ﷺ بمكانته اللائقة به ، وأنزله منه منزلة الوالد^(٥) ، وكان يجله ، ويقدره ، ويعتز به بين صحابته^(٦) ، وبقي على مكانته تلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، إذا أنزله الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق (ت ١٣هـ) ، وعمر (ت ٢٣هـ) ، وعثمان (ت ٣٥هـ) منزلته التي يستحقها حتى وفاته سنة ٣٢هـ^(٧) ، وكان له عدد من الأبناء منهم الفضل (ت ١٨هـ) ، وعبد الله (ت ٦٨هـ) ، وعبيد الله (ت ٥٨هـ) ^(٨) ، وكان أشهرهم حبر الأمة ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

أما أبو سفيان فهو : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة^(٩) .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى.

تولى قيادة جيوش قريش ضد رسول الله ﷺ والمسلمين فى أحد والأحزاب، وبعض الغزوات الصغيرة (١٠)، ثم هداه الله للإسلام فى يوم الفتح، وذلك عندما آمنه العباس بن عبد المطلب، ودخل به على رسول الله ﷺ حيث أعلن إسلامه. وطلب العباس من رسول الله ﷺ أن يميز أبا سفيان بشيء لأنه كما قال رجل يحب الفخر، فقال ﷺ: «من دخل دار أبى سفيان فو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» (١١).

وشهد أبو سفيان مع رسول الله ﷺ غزوة حنين، وفقت إحدى عينيه، وأعطاه ﷺ مائة من الإبل، وأعطى ابنه يزيد (ت ١٨ هـ) ومعاوية (ت ٦٠ هـ) يتألفهم على الإسلام (١٢).

وهو قبل ذلك كله كان صهرا لرسول الله ﷺ قبل إسلامه إذ تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان (١٣).

واستعمل رسول الله ﷺ ابنة معاوية على بعض الأعمال ومنها الكتابة (١٤). وبعد وفاة رسول الله ﷺ شارك أبو سفيان فى حركة الفتح الإسلامى تحت راية ابنه يزيد، ففقت عينه الأخرى فى معركة اليرموك (١٥)، فعاد إلى المدينة مكرماً من الخلفاء الراشدين إلى أن توفى سنة ٣٤ هـ (١٦).

وهكذا كان هذان العلمان من ذوى الشرف والسؤدد فى قومهما، يضاف إلى ذلك أنه كانت تجمع بين العباس وأبى سفيان علاقة خاصة قبل الإسلام، فالأخير كان نديماً للعباس فى الجاهلية (١٧)، هذه الصداقة جعلت العباس ﷺ يعمل على حماية صديقه، إجارته عام الفتح عندما التقى به فى مر الظهران (١٨)، وأردفه على بغلة رسول الله ﷺ زيادة فى الحرص على سلامته حتى دخل به على رسول الله ﷺ وجادل عمر بن الخطاب ﷺ الذى كان يرى أن الله قد أمكن من

أبى سفيان من غير عهد ، فاتهم العباس عمر أنه متحامل على أبى سفيان لأنه من بنى عبد مناف (١٩) ، وهى تهمه نفاها عمر رضي الله عنه وكان صادقاً فى ذلك .

هذا الإصرار من جانب العباس عم رسول الله ﷺ على حماية أبى سفيان ، والحرص على سلامته توضح مدى وفاء العباس لصديقه القديم ، ومن ناحية أخرى حب العباس لقريش عموماً وخشيته عليها إن لم يستأمنوا رسول الله ﷺ قبل وصوله ﷺ إلى مكة (٢٠) .

ولعل الصلة بين هذين البيتين والزعامة فيهما ، وقرابتهما من رسول الله ﷺ هى الدافع لأبى سفيان فى رواية (٢١) ، أو خالد بن سعيد بن العاص (ت ١٣ هـ) فى رواية أخرى (٢٢) ، لمخاطبة عثمان وعلى رضى الله عنهما ، ينكر عليهما موافقتهما على بيعة الصديق ، وحسب رأى القائل أن الخلافة يجب أن تكون فى بنى عبد مناف . والملاحظ هنا أن هذا القائل لم يخص بنى هاشم أو بنى عبد المطلب ، وإنما عم بنى عبد مناف ، ومنهم بالطبع بنو أمية . ونستشف منه أن بنى أمية كانوا يرون لأنفسهم حقاً فى خلافة رسول الله ﷺ ، أو على الأقل إن نالها على بن أبى طالب فقد تحققت بواسطته زعامة بنى عبد مناف على قريش خاصة والمسلمين عامة .

وعلى كل فقد وضعت خلافة الصديق ﷺ لرسول الله ﷺ من قبل المهاجرين والأنصار (٢٣) ، حداً فى مسألة الوراثة سواء من بنى هاشم ، أو غيرهم ، وأن مسألة الخلافة كما بين الصديق ﷺ هى فى قريش عموماً للحديث الذى رواه عن رسول الله ﷺ فى ذلك وأنها غير محصورة ببيت من البيوت بعينه .

ومما يجدر الإشارة إليه أن الخلفاء الراشدين لم يستعينوا بزعمى بنى هاشم وبنى أمية فى أعمال الدولة الإسلامية ، وإنما جاءت الاستعانة بأبنائهما حيث برز كل من هؤلاء الأبناء فى مجال يختلف عن الآخر .

فعبد الله بن عباس رضى الله عنهما احتل مكانة مرموقة فى عهد الخلفاء الراشدين ، وخاصة فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذ كان يقدمه على الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك لعلمه ، وفقهه ، ودقة استنباطه للأمور الشرعية ، وخاصة تفسير كتاب الله العزيز ، الذى كان كثيراً ما يسأله عن معانى بعض آيات كتاب الله عز وجل . وكان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه معجباً به أيما إعجاب وكان يقول عنه : « ذلك فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول » (٢٤) ، ويقول فيه : « كيف تلوموننى على ابن عباس » (٢٥) ، وقد أوتى ابن عباس هذا العلم وهذا الفقه حتى نال هذه المكانة بفضل دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال رسول الله ﷺ : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » (٢٦) .

هذا فى الجانب الدينى ، أما الجانب السياسى فقد برز دوره فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه وهو ما سنتطرق إليه فيما بعد .

أما أبناء أبى سفيان - يزيد ومعاوية - فقد جعل الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبى سفيان على رأس أحد الجيوش الأربعة المتوجهة إلى الشام لفتحها (٢٧) . وبعدما توفى الصديق سنة ١٣ هـ ، وخلفه عمر رضي الله عنه استعمل يزيد على مدينة دمشق بعد فتحها ، واستمر فى منصبه ذاك حتى توفى سنة ١٨ هـ ، فولى أمير المؤمنين عمر مكانه أخاه معاوية ، ثم جمع له ولاية الشام بعد ذلك (٢٨) .

ظل معاوية أميراً على الشام حتى مقتل عثمان رضي الله عنه سنة ٣٥ هـ فى الفتنة المعروفة . وكان من جراء ذلك أن دبّت الفتنة والخلافات بين أبناء الدولة الإسلامية بسبب مقتل عثمان رضي الله عنه ، وذلك لاختلافهم حول القصاص من قتلته ، بعد أن اختير على رضي الله عنه ، (ت ٤٠ هـ) من قبل المهاجرين والأنصار خليفة وأميراً للمؤمنين (٢٩) .

كان ابن عباس نظراً لظروف الفتنة قد نصح علياً بعدم قبول البيعة في مثل تلك الظروف ، لأنه إن قبلها ، فسيلزمه الناس دم عثمان ، ولينتظر فسيجتمع عليه الناس لا محالة (٣٠) ، لكن علياً عليه السلام رأى أن التأخير في القيام بأمر المسلمين ستترتب عليه مفسد كبيرة أخطرها : أن الذين قتلوا عثمان ربما يصرفون الخلافة عن أهل الحل والعقد من أهل المدينة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وهو ما هددوا به فعلاً أهل المدينة (٣١) . وبعد البيعة كان من رأى ابن عباس أن يبقى أمير المؤمنين على عليه السلام معاوية في إمارة الشام حتى تستقيم الأمور ، ثم إن شاء بعد ذلك عزله . وكان رأيه هذا بعد أن طلب منه أمير المؤمنين على أن يتولى بلاد الشام ، لكن ابن عباس رفض ذلك لخطورة قدومه إلى تلك المنطقة في مثل تلك الأوضاع (٣٢) .

وعندما اشتد أوار الفتنة ، واحتكم إلى السيف في الجمل وصفين شارك بنو العباس - عبد الله ، عبيد الله ، قثم - في تلك المعارك مع علي عليه السلام . وكذلك استعان بهم في الإدارة حيث تولى عبد الله بن عباس البصرة ، وعبيد الله اليمن ، وقثم مكة (٣٣) ، وظلوا معه حتى قتل سنة ٤٠ هـ ، وبويع الحسن بن علي رضي الله عنهما بالخلافة التي تنازل عنها اصلاً بين الناس وحقناً لدماء المسلمين ، ولتحقق فيه قول النبي ﷺ « إن أبني هذا سيد ولعل الله شاء أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (٣٤) ، ومن ثم اجتمعت الأمة على معاوية وسمى عام ٤١ هـ الجماعة (٣٥) .

ومن الطبيعي أن ينخرط بنو العباس في هذه البيعة الجديدة ، بل إن عبيد الله بن عباس سارع إلى مكتبة معاوية قبل أن يعقد الصلح مع الحسن ، وشرط لنفسه ولمن معه الأمان وله الأموال . فلبى معاوية له شروطه ، فالتحق به عبيد الله ، فأكرمه معاوية ، وكافأه بألف ألف درهم وقيل ألفي ألف درهم (٣٦) .

وأصبح عبيد الله مطاع الرأي عند معاوية ويتقبل مشورته فيمن يتولى أمور البصرة. وحسب الرواية فإن معاوية كان يريد أن يولى عليها أحد بنى القين ، فعدل عنه إلى عبد الله بن عامر بن كريز (ت ٥٩ هـ) (٣٧) .

أما عبد الله بن عباس فتشير بعض الروايات إلى أنه كان قد غادر البصرة إلى الحجاز بعد أن استولى على بيت مالها ، وذلك عندما طلب منه أمير المؤمنين على عليه السلام أن يرفع إليه الحساب (٣٨) . ويبدو من هذه الرواية الوضع والاختلاق ، فهناك عدة قرائن تشير إلى أن عبد الله بن عباس عليه السلام ظل ملازماً لعلي عليه السلام إلى اليوم الذي قتل فيه . ومن هذه الروايات ماورد في ترجمة علي بن عبد الله بن عباس حيث ذكرت بعض المصادر أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام افتقد عبد الله بن عباس في اليوم الذي قتل فيه وذلك في صلاة الظهر ، فسأل عنه فقيل له شغل بمولود ولد له . فلما قضى صلاته توجه إلى عبد الله بن عباس وهنأه بالمولود ودعا له ، ثم إن أمير المؤمنين سمى هذا المولود باسمه ، وكناه بكنيته ، فأصبح اسمه علي بن عبد الله بن عباس (٣٩) .

وهناك رواية ذكرها الطبري أن ابن عباس لم يرح البصرة حتى قتل على عليه السلام وبويع الحسن وشهد معه الصلح (٤٠) .

وهذه الروايات الأولى بالقبول والتصديق ، من تلك التي تقذف صحابياً جليلاً له من العلم والورع والتقوى ما يمنعه من استحلال مال المسلمين بغير حق (٤١) .

كما أنها تبين لنا أن ابن عباس صمد في وجه معاوية إلى أن تنازل الحسن ، فلما أصبح معاوية خليفة دخل ابن عباس فيما دخل فيه المسلمون ، وباع معاوية وتبعاً لما هو معروف عن معاوية الدهاء والحزم وحسن التصرف في الأمور وقد

وصف نفسه بقوله : « لو كانت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » (٤٢) ، لذا كان من الطبيعي أن يقرب إليه أهل العلم ، والشرف ، ويجعلهم من خواصه ومقربيه ، فكيف برجل من بنى عبد مناف ، أقرب إليه رحماً ، ويتمتع بمكانة كبيرة في عهد من سبقه لعلمه ، وفقهه ومكانته مثل عبد الله بن عباس . بل إننا نجد أن معاوية يقرب إليه بنى هاشم أكثر من تقريبه لبنى أمية ، ويجزل لهم العطايا أكثر من غيرهم؛ مثل الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠ هـ) مما جعل بنى أمية يعاتبونه على تقريبيهم أكثر منهم (٤٣) .

وفى المقابل فإن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قابل ود معاوية بود ، واحتراما باحترام . وعبارات الثناء التي صدرت منه فى حق معاوية تدلنا على ذلك، ومن هذه الأقوال :

١ - « ما رأيت أحداً كان أحق بالملك من معاوية ، لله دره إن كان حلليماً ، وإن كان الناس لينزلون منه بأرجاء واد خصب » (٤٤) .

٢ - فى إحدى قدمات ابن عباس إلى معاوية أمر الأخير ابنه يزيد أن يأتى ابن عباس ويسلم عليه ، فلم وصل إلى ابن عباس رحب به وحدثه . فلما خرج من عنده قال ابن عباس : « إذا ذهب بنو حرب ذهب حلمااء الناس » (٤٥) . وقال هذا القول فى يزيد بحكم معرفته الوثيقة به عندما شاركه فى الحملة المتوجهة إلى القسطنطينية لمحاولة فتحها سنة ٤٩ هـ (٤٦) .

٣ - وقال عن معاوية : « لله در ابن هند ، ولينا عشرين سنة ، فما آذانا على ظهر منبر ولا بساط ، صيانة منه لعرضه ، وأعراضنا . ولقد كان يحسن صلتنا ويقضى حوائجنا » (٤٧) .

وكان معاوية يستفيد من حضور ابن عباس إليه . روى على بن عبد الله بن عباس قال : « كنت مع أبى عند معاوية ذات ليلة فأتاه المؤذنون يؤذنون لصلاة

العشاء الآخرة ، فضل بحديث أبى ، فأمر رجلاً أن يصلى بالناس ، ثم تحدثنا حتى إذا فرغنا من حديثهما ، قام معاوية فصلى وليس خلفه غيرى وغير أبى ، وذلك بعدما أصيب ابن عباس فى بصره ... » (٤٨) .

ولما أنكر على بن عبد الله على معاوية وتره بركعة واحدة ، قال له ابن عباس إنه أعلم منك (٤٩) .

هذه الروايات التى ذكرناها تختلف تماماً عن الروايات الأخرى التى تصور ابن عباس ومعاوية رضى الله عنهما ، كشخصيتين متنافرتين يتربص كل منهما بالآخر سقط الكلام ، ويبدو التباغض منهما كل تجاه الآخر ، ومن هذه الروايات:

١ - « ... لما جاء معاوية نعى الحسن بن على استأذن ابن عباس على معاوية ، وكان ابن عباس قد ذهب بصره ، فكان يقول لقائده ، إذا دخلت بى على معاوية فلا تقدنى ، فإن معاوية يشمت بى ، فلما جلس ابن عباس قال معاوية : لأخبرنه بما هو أشد عليه من أن أشمت به . فلما دخل قال : يا ابا العباس هلك الحسن بن على ، فقال ابن عباس : إنا الله وإنا إليه راجعون ، وعرف ابن عباس أنه شامت به ، فقال : أما والله يا معاوية ، لا يسد حفرتك ولا تخلد بعده ، ولقد أصبنا بأعظم منه فجبرنا الله بعده ، ثم قام . فقال معاوية : لا والله ما كلمت أحداً قط أعد جواباً وأعقل من ابن عباس (٥٠) .

وحقيقة هذا الموقف بين الرجلين جاءت فى رواية أخرى ، هى أن معاوية قال لابن عباس : « يا عجباً من وفاة الحسن شرب من عسله بماء رومه فقضى نحبه ، لا يحزنك الله ولا يسوؤك فى الحسن ، فقال ابن عباس : لا يسوؤنى ما أبقاك الله » ، فأمر له معاوية بمائة ألف وكسوة . وفى رواية ثانية أنه أمر له بألف ألف ما بين عرض وعين ، وقال له : « اقسم هذه فى أهلك » (٥١) .

هاتان الروايتان تدلان على أن كثيراً من الروايات التي وردت في بعض المصادر تحرف الكلام عن مواضعه وتنقل أخباراً كاذبة عنهما سواء في المفاخرة أو المعاتبة أو غيرهما من الأمور (٥٢) .

ونخرج من هذا كله بأن ابن عباس أقر بخلافة معاوية ، حامداً لها ، راضياً عنها ، إلى أن توفي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة ٦٠ هـ ، لتبدأ أحداث جديدة في الدولة الإسلامية سنرى موقف ابن عباس منها عما قليل .

أدت وفاة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى تغير الأوضاع في الدولة الإسلامية . وكانت بيعة يزيد بن معاوية مقدمة لهذه الأوضاع ، ذلك أن الموقف من خلافته أخذ يزداد وضوحاً في أهم إقليمين من أقاليم الدولة الإسلامية هما العراق ممثلاً في أهل الكوفة ، والإقليم الثاني هو الحجاز حيث يسكن كبار الصحابة وصغار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مقدمة هؤلاء الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما اللذين كانت لهما المواقف المعارضة بولاية العهد ليزيد في حياة أبيه . وبعد البيعة وضحت معارضتهم لخلافة يزيد من خلال فرارهم من المدينة إلى مكة (٥٣) . وبالطبع لم يكن ابن عباس من المعارضين ليزيد ، إذ يذكر البلاذري أن ابن عباس حين توفي معاوية كان في مكة ، فلما بلغه خبر وفاة معاوية استرجع ومدح معاوية ، وقال في حقه أنه لن يأتي أحد بعده مثله . ومدح يزيداً بأنه من صالحى أهله . ثم طلب ممن حوله أن يعطوا بيعتهم ليزيد . ومن ثم ذهب إلى والى مكة واعطى بيعته (٥٤) . ويذكر الطبرى رواية عن الواقدي أن ابن عمر وابن عباس لقيا الحسين وابن الزبير وهما في طريقهما إلى مكة وسألاههما فأخبرهما بموت معاوية وبيعة يزيد ، فوعظهما ابن عمر ، وسألهما ألا يفرقا جماعة المسلمين (٥٥) . فلما وصل الحسين إلى مكة قدمت رسل أهل الكوفة بمبايعته ودعوته للقدوم عليهم (٥٦) .

ويبدو أن يزيداً أحس بما يدبره شيعة الكوفة تجاهه ، لذا فإنه أراد أن يمنع الحسين بن علي من الخروج عليه بواسطة كبير بنى هاشم والمنظور إليه من قبل أهل مكة عامة وبنى هاشم خاصة ، ألا وهو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، الذي أمل فيه يزيد أن يمنع الحسين من الخروج عليه . ولذلك كتب إليه يقول : «... نحسب أنه جاءه رجال من المشرق فمنوه الخلافة ، وعندك منهم خبره ، فلو فعل فقد قطع القرابة والرحم ، وأنت كبير أهل بيتك ، والمنظور إليه ، فاكففه عن السعى في الفرقة » (٥٧) . وقد رد عليه ابن عباس في رسالة بقوله : « إني لأرجو أن لا يكون خروجه لأمر تكره ، ولست أدع النصيحة له ... » (٥٨) ، ويلاحظ هنا أن ابن عباس رضي الله عنهما لم يلزم نفسه بشيء أمام يزيد غير الاجتهاد في النصيح للحسين حتى يكف عن الخروج .

ومما لا شك فيه أن ابن عباس من خلال مرافقته لأمر المؤمنين على ﷺ في العراق ، عرف طبائع الشيعة هناك ، وأن الانقياد لهم سوف يؤدي إلى عواقب وخيمة لا تحمد عقباها ، ولذلك ذهب إلى الحسين مبيناً له ما يخشاه عليه من الذهاب إلى العراق ، وذلك من خلال قوله : « ... إني لأظنك ستقتل غداً بين نسائك وبناتك كما قتل عثمان ... » (٥٩) ، فما كان من الحسين إلا أن قال له « إنك شيخ قد كبرت » ويبدو أن ابن عباس غضب من هذه الإجابة غير المتوقعة من الحسين ، ولذلك رد عليه ابن عباس بقوله : « ... لولا أن يزرى بى وبك ، لنشبت يدي في رأسك ، ولو أعلم أنك تقيم إذا لفعلت ... » (٦٠) . وهناك رواية أخرى أن الحسين استشار ابن عباس في خروجه من مكة إلى العراق فلم يؤيده في ذلك ورد عليه ابن عباس بقوله السابق ، مما يدلنا على الخوف الشديد الذي انتابه من جراء خروج الحسين إلى العراق الذي صمم على التوجه إلى شيعته . وفي الطريق تصدت له قوات عبيد الله بن زياد وقتلته في كربلاء سنة ٦١ هـ (٦١) .

وقد ترك مقتل الحسين رضى الله عنهما آثار كبيرة أبرزها اعتصام ابن الزبير فى مكة والدعوة إلى نفسه فيها (٦٢) . ومن ناحية أخرى خرج أهل المدينة على يزيد ، ومن ثم حدثت وقعة الحرة التى قتل فيها الكثير من خيار أهل المدينة سنة ٦٣هـ (٦٣) .

هذه الأحداث وقعت وعبد الله بن عباس - كما يبدو من الروايات - فى مكة ، وبطبيعة الحال سيسعى ابن الزبير إلى أن يبايعه ابن عباس لتكون بيعته عوناً أمام المسلمين من جهة ، ومن جهة أخرى ليثبت أن مناداته بالخلافة لها وجه شرعى ، بدليل مبايعة ابن عباس له . فما موقف ابن عباس من يزيد بن معاوية ؟ وما موقفه من عبد الله بن الزبير فى خضم هذه الأحداث ؟ .

يذكر البسوى فى تاريخه أن ابن الزبير دعا عبد الله بن عباس إلى بيعته بعد مقتل الحسين رضى الله عنهما فامتنع ابن عباس من بيعته ، فما كان من يزيد إلا أن بعث إليه رسالة يشكره فيها على موقفه من ابن الزبير ، ومحافظته على بيعته ، ويعده بالبر وتعجيل الصلة ، ويطلب منه فى رسالته أن يعلم الناس برأيه فى ابن الزبير ، لأنهم لرأيه أسمع ، وله أطوع (٦٤) . وكان يزيد يظن أن ابن عباس رضي الله عنه كما كان عارفاً بحقه ، طاعة لله عز وجل دون أن يدرك الألم الكبير الذى شعر به المسلمون عموماً وبنو هاشم خصوصاً ، ومنهم بالطبع ابن عباس ، من جراء مقتل الحسين بن على ومن كان معه من أهل بيته ، لذلك كان رد ابن عباس إليه معبراً عن شعوره الغاضب من ذلك الحدث حيث كتب إليه « ... وسألت أن أحبب الناس إليك وأبغضهم وأخذهم لابن الزبير فلا سرور ولا كرامة ، كيف قتلت حسينا وفتيان عبد المطلب مصاييح الهدى ونجوم الأعلام ، غادرتهم خيولك بأمرك فى صعيد واحد مرملين بالدماء مسلوبين بالعراء ... » (٦٥) . ونرى من خلال هذه الإجابة أن ابن عباس كان فى شدة الغضب على يزيد ، إن التزم بالطاعة وفاء

للببيعة التي في عنقه . ولم يلبث أن توفي يزيد عقب هذه الأحداث ، وخلفه ابنه معاوية بن يزيد الذي ما لبث أن مات هو الآخر بعد خلافته بشهر ونصف ، وذلك سنة ٦٤هـ (٦٦) . وأعقب وفاته اضطراب البيت الأموي ، مما أفسح المجال لابن الزبير أن ينتشر نفوذه من الحجاز إلى العراق إلى كثير من مناطق بلاد الشام ومصر ، حتى تولى مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ) أمور الدولة الأموية ، لتقلب الأمور مرة أخرى لصالح بني أمية . وهذا بالطبع سيقودنا إلى الإجابة عن السؤال الثاني الذي طرحناه من قبل عن علاقة ابن عباس بابن الزبير خلال الفترة من وفاة يزيد إلى تولى عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) وهي فترة أصبح فيها ابن عباس في حل من البيعة بعد وفاة يزيد .

اشتهر في بعض المصادر امتناع ابن عباس ومحمد بن الحنفية عن مبايعة ابن الزبير ، وساق بعضها علة ذلك الامتناع وهي قولهم « لا نبايعك حتى تجتمع لك البلاد ويتفق عليك الناس » (٦٧) . وهذه المصادر توحى بالرفض المطلق لابن عباس لبيعة ابن الزبير الذي آذى كلا من ابن الحنفية وابن عباس بسبب موقفهم هذا .

والواقع أن ابن عباس كان قد بايع ابن الزبير وعضده ووقف معه في بداية خلافته . لكن الأخير لم يستمر هذا التأيد من ابن عباس ويدني ابن عباس منه ، بل نجده يدني إليه جماعة من بني أسد ، ويقصى ابن عباس على علمه ورأيه ومكاته ، مما جعل ابن عباس يصرف تأييده عنه إلى عبد الملك بن مروان . ونأخذ هذه الحقيقة من صحيح البخاري رواية عن ابن عباس نفسه الذي برر فيه انصرافه عن ابن الزبير فيقول : « ... ألا تعجبون لابن الزبير قام في أمره هذا فقلت : لأحاسب نفسي له ما حاسبته لأبي بكر ولا عمر ، ولهما كانا أولى بكل خير منه وقلت : ابن عمه النبي ﷺ ، وابن الزبير ، وابن أبي بكر ، وابن أخي خديجة ، وابن أخت عائشة ، فإذا هو يتعلّى عني ولا يرد ذلك ، فقلت : « ما كنت أظن

أنى أعرض هذا من نفسى فیدعه ، وما أراه يريد خيراً ، وإن كان لابد لأن يربنى (٦٨) ، بنو عمى أحب إلى من أن يربنى غيرهم » (٦٩) ، وفى رواية أخرى عنه يتضح سبب إحجام ابن عباس عن ابن الزبير وانصرافه إلى بنى أمية بقوله فى حديث طويل « ... فأثر على التوثيات ، والأسامات ، والحميدات » يريد أبطننا من بنى أسد (٧٠) . وبذلك فقد تأزمت الأمور بينهما إلى درجة أن ابن عباس صعد إلى الطائف تاركاً مكة لابن الزبير الذى ضايقه فيها أشد المضايقة ، ومن هناك أوصى ابنه علياً باللاحاق بعبد الملك بن مروان (٧١) ، ولم يلبث أن توفى ﷺ سنة ٦٨ هـ (٧٢) ، لتبدأ علاقة جديدة بين عبد الملك وأبنائه وبين على بن عبد الله ابن عباس سند كرها عما قليل .

* * *

توجه على بن عبد الله بن عباس إلى عبد الملك بن مروان فى الشام حسب وصية أبيه . وتذكر بعض المصادر أن عبد الملك بن مروان سأل عن كنيته فأخبره بأنه يكنى بأبى الحسن ، فطلب منه أن يغير كنيته فغيرها إلى أبى محمد (٧٣) .

ويبدو فى هذه الرواية التى ساقتها تلك المصادر الوضع والاختلاق ، سواء بالنسبة لعلى بن عبد الله أو عبد الملك . ويتضح ذلك فى ضوء الأسباب التالية :

أولاً : أن عبد الملك بن مروان لم يكن رجلاً غريباً لدى على بن عبد الله ابن عباس ، وكذلك لم يكن غريباً عند عبد الملك ، فكلا الرجلين قرشى حجازى يعرف أحدهما الآخر تمام المعرفة من خلال نشأتهما فى المدينة ، وتلقيهما العلم على اصحاب رسول الله ﷺ فيها . وما حادثة ثورة المدينة عنا ببعيد ، فقد أخرج منها بنو أمية ومنهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك (٧٤) ، وقبض على على بن عبد الله بن عباس عقب موقعة الحرة ومطالبته بالبيعة ليزيد (٧٥) ، مما يدلنا على أن كلا الرجلين من خلال تواجدهما فى المدينة فى تلك الفترة كان معروفاً للآخر تمام المعرفة .

ثانياً : مولد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس سنة ٦٠ هـ أو سنة ٥٨ هـ (٧٦) .

وثورة المدينة سنة ٦٣ هـ وكانت سن محمد بن علي بين الثلاث إلى الخمس سنوات يومئذ فهل كان عبد الملك يجهل أن لعلي بن عبد الله ولداً يدعى محمداً ؟ الإجابة فيما يظهر هي أنه لم يكن يجهل ذلك .

لقد تغيرت كنية علي بن عبد الله بن عباس من قبل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وهو الذي طلب من عبد الله بن عباس أن يغير كنية علي إلى أبي محمد ، ليس بغضا في اسم علي بن أبي طالب وكنيته ، وإنما كما قال معاوية رضي الله عنه : « ليس لكم اسمه وكنيته ، وقد كنيته أبا محمد » (٧٧) ، وهذا فيما يبدو إشعار من معاوية لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما بمكانته عنده ، وأن منزلته لا تقل عن منزلته ومكانته عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

ثم إن علي بن عبد الله بن عباس لم يحضر مرغماً إلى عبد الملك وإنما طوعاً واختياراً ورغبة منه . وليس من المعقول أن يفتح عبد الملك بن مروان بعد استخلافه في أول لقائه بعلي بن عبد الله بن عباس بأسلوب فظ « غير اسمك وكنيتك فلا صير لي على اسمك وكنيتك » (٧٨) ، مما يؤكد لدينا زيف مثل هذه الروايات بناء على ما سبق .

ومهما يكن فإن علي بن عبد الله أصبح من خواص عبد الملك حيث أجار عليه عددا من قادة العرب في الكوفة من الذين خافوا غائلة عبد الملك ، فلجأوا إليه وقبل عبد الملك جواره ، وأمنهم حتى ظهروا (٧٩) . وتبعاً لمكانته تلك فإن علي بن عبد الله أصبح بإمكانه أن يدخل على عبد الملك في مجالسه الخاصة ويلقى منه الإكرام ، ويقبل منه النصيح ويقضى عنه دينه (٨٠) . واستمرت تلك العلاقة

الحسنة حتى أقدم على بن عبد الله على الزواج من أم أيها بنت عبد الله بن جعفر، والتي كان عبد الملك قد طلقها . واعتبر عبد الملك أن تصرف على هذا إهانة له ، ومن هنا بدأ يغير معاملته له (٨١) . ومما يجدر ذكره أن مروان بن الحكم تزوج أم خالد ابن يزيد بن معاوية حتى يضع منه ويصغر شأنه (٨٢) . ومن أجل ذلك كان غضب عبد الملك إذا اعتبر تصرف على بن عبد الله مثل تصرف مروان ابن الحكم مع خالد بن يزيد .

كانت هذه الفعلة من قبل على بن عبد الله سببا في إقدام الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ) على إساءة معاملته . وتذكر بعض المصادر أنه ضرب بأمر من الوليد بسبب ذلك . ولم يكتف بذلك فأمر بنفيه إلى الحميمة سنة ٩٥ هـ (٨٣) ، واستقر بها هو وبنيه منذ ذلك التاريخ .

ولم نعد نرى أى لقاء بين على بن عبد الله بن عباس والخلفاء الأمويين : الوليد ، سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩ هـ) ، عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ) يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥ هـ) ، بعد هذه الحادثة ، سوى لقاء واحد تحدث عنه ابن خلكان في الوفيات وكان مع هشام بن عبد الملك من أجل ديون كثرت عليه فطلب من الخليفة الأموي قضاءها ، فوجد منه كل ترحاب وقضى عنه دينه ، كما طلب منه أن يستوصى خيراً بحفيديه ، وهما عبد الله وعبد الله المعروفان فيما بعد بالسفاح (ت ١٣٦ هـ) ، والمنصور (ت ١٥٨ هـ) (٨٤) .

وقد توفي على بن عبد الله بن عباس سنة ١١٧ هـ (٨٥) ، ليحتل مكانته ابنه محمد بن على .

تذكر بعض المصادر أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، هو أول عباسي عمل على إسقاط الدولة الأموية (٨٦) ، ووصول بني العباس إلى الخلافة ،

وهذا يقودنا إلى سؤال : هو هل كان محمد بن علي هو أول صاحب طموح سياسي للخلافة الإسلامية من بنى العباس ؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد لنا من العودة مرة أخرى إلى الجذور بدءاً من العباس بن عبد المطلب . وقد عرفنا مكانته عند رسول الله ﷺ ، تلك المكانة ، وذلك التقدير والاحترام من جانب الرسول ﷺ تجاهه ، لم يعطه الجرأة لسؤال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عن خلافته ﷺ ، ولذلك لجأ إلى ابن أخيه علي بن أبي طالب ليسأل رسول الله ﷺ عنها قائلاً له : « إني لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، أذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر ؟ إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا علمناه فأوصي بنا ، فقال علي : إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها ، لا يعطيناها الناس بعده ، وإني والله لا أسأله رسول الله ﷺ » (٨٧) . ويتضح من هذا الحوار أن العباس ﷺ كان يجهل من سيكون له الأمر بعد رسول الله ﷺ ، ولتقل أنه كان يطمع أن يلي هذا الأمر بنو عبد المطلب ، ولذلك قال : إن كان فينا علمنا . وكانت إجابة علي ﷺ دالة أيضاً على فقهه وعلمه وخبرته بمقاصد رسول الله ﷺ ، وأن مثل هذا السؤال ، لو أعطى فيه رسول الله ﷺ جواباً في منعهم فلن يمكنهم الناس من الخلافة في المستقبل ، ومعنى ذلك حرمانهم من حق مشاع في قریش وهو الخلافة (٨٨) .

ثم إن علياً ﷺ كان يرى رسول الله ﷺ يقدم أبا بكر الصديق في الصلاة عندما كان مريضاً ، ويرى إلحاحه في ذلك (٨٩) ، ففهم ما يقصده ﷺ .

وجاء اختيار خلفاء رسول الله ﷺ بعد ذلك ليدل بشكل قاطع على أن السبق والقدم في الإسلام ، والمكانة من رسول الله ﷺ ، هي المرشح للخلافة ، ولا علاقة للقرابة من رسول الله ﷺ وحدها بهذه المسألة . من أجل ذلك فإن العباس رضي أن يكون كأحد أفراد المسلمين ، له مكانته وتقديره واحترامه من قبل

الخلفاء الراشدين . أما ابنه عبد الله بن عباس فقد أسهم مع أمير المؤمنين علي عليه السلام في جميع ما كلفه به ، واحتل لديه مكانة مرموقة . فلما قتل وتنازل ابنه الحسن ، عاد إلى ميدانه الذي وجد نفسه فيه وهو نشر العلم الذي فتح به الله عليه ، واكتسب مكانته عليه السلام بين المسلمين ، وأحلوه من أنفسهم أيما محل . يروى أن معاوية حج ، وحج معه عبد الله بن عباس فكان معاوية في موكب وابن عباس في موكب فمن يسأل عن الفقه (٩٠) ، مما يعطينا الدليل على ما يحمله المسلمون من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من تقدير وإجلال ، وحب لهذا العالم لعلمه ولقربته من الرسول ﷺ . واستمر في هذا الميدان لم يتطلع لأي نفوذ سياسى . لقد قال له معاوية ذات مرة بعد وفاة الحسن بن علي : « أصبحت سيد قومك ، قال ما بقى أبو عبد الله فلا » (٩١) ، دلالة على تواضعه وعدم سعيه للنفوذ السياسى .

وبعد مقتل الحسين وجدناه التزم بيعته ليزيد حتى وفاته ثم بايع لابن الزبير . أما علي بن عبد الله بن عباس - وإن لم يكن مثل أبيه - فإنه كانت له المكانة الكبيرة فى نفوس أهل الحجاز لعلمه وورعه وتقواه (٩٢) .

وعلى ذلك ارتضى بأن يكون مثل أبيه ، ولم يتطلع إلى الخلافة : ومن جانب آخر فإن الشيعة عموماً لم يتطلعوا إلى البيت العباسى كتطلعهم إلى البيت العلوى ، حتى أحدث أبو هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبى طالب (٩٨ ، ٩٩ هـ) هذا الانقلاب من خلال اتفاه مع محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، ومن ثم أحدث هذا الاتفاق تحولاً كبيراً على يدى الأخير ، فتغيرت نظرة بنى العباس إلى الخلافة وبدأ تطلعهم نحوها .

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف على العلاقة بين هاتين الشخصيتين ومنذ متى بدأت ؟ وكيف انتهى المطاف بأبى هاشم بأن يخص محمد بن علي العباسى

دون غيره من البيت الهاشمي بالدعوة السرية الهادفة إلى إسقاط بنى أمية والحلول محلهم فى الخلافة .

ويعد محمد بن على بن عبد الله بن عباس مؤسس الدعوة العباسية ومنظمها (٩٣) ، ذلك أنه كان قد ارتبط بأبى هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب الذى تذكر بعض المصادر أنه سلم أمور الدعوة السرية المناهضة لبنى أمية إليه عند دنو أجله فى الحميمة (٩٤) . ويرى البعض أن السبب الذى جعل أبا هاشم يوصى لمحمد بن على هو عدم وجود من يخلفه من الذكور من ذريته (٩٥) ، فآثر أن يوصى إلى محمد بن على . وهذا الافتراض غير صحيح ، لأن أبا هاشم كانت له ذرية من الذكور والإناث ، كما جاء فى ترجمته فى الطبقات لابن سعد (٩٥) ، ، كذلك ذكر كل من المزى ، وابن حجر أن له ابناً يدعى عيسى بن عبد الله وهو ممن روى عن والده (٩٦) . يضاف إلى ذلك أنه كان له أخ يدعى الحسن بن عبد الله بن محمد بن الحنفية (٩٧) ، توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز (٨٩ ، ١٠٠ هـ) ، فإذا كانت المسألة هى عدم وجود من يخلفه من ذريته إذا افترضنا وفاة أولاده فى حياته ، فإن الشئ المؤكد أن أخاه الحسن قد توفى بعده بسنة على الأقل ، فلماذا لم يوص إليه أو إلى أحد من آل على بن أبى طالب ؟

ويفترض بعض الباحثين أن للظروف أثرها فى ذلك التنازل ، فعند وفاة أبى هاشم لم يكن بقربه إلا أولاد العباس ، وربما تنازل محمد بن على ، أو أخيره بأن يعطيها لغيره . وكان محمد طموحاً ، فأخذها لنفسه ، وبقدر ما يتعلق الأمر بمحمد ، فإنه عرف الدعاة وأسماءهم ، وسأل عنهم أبا هاشم قبيل وفاته .. « (٩٨) .

واعتقد أن كل هذه التساؤلات والافتراضات تأتى فى ظل غياب المعلومات الدقيقة فى المصادر التى ربما لم يطلعوا عليها ، إذ أن صداقة الرجلين كانت قديمة وطموحاتهما أيضاً كانت قديمة فى إسقاط الدولة الأموية ، إذ يذكر كل من ابن

عساكرو صاحب أخبار الدولة العباسية ، رواية عن عيسى بن علي العباسي ، أن أبا هاشم كان يقف موقفاً عدائياً من علي بن عبد الله بن عباس ، فلما بعث علي ابن عبد الله ابنه محمداً إلى الوليد بن عبد الملك ، وجد عنده أبا هاشم محمد بن علي ، فتقرب محمد إلى أبي هاشم وأخذ عنه العلم ، وأظهر له التقدير والاحترام ، كما بعث له بالهدايا ، مما كون بينهما صداقة قوية ، كف بعدها أبو هاشم عن تناول علي بن عبد الله . وكانت هذه الصداقة أيضاً سبباً في تحول دعاة خراسان إليه فيما بعد (٩٩) .

ويؤكد هذه التلمذة والتلقي أن كتب تراجم رجال الحديث ذكرت أن من الرواة عن أبي هاشم محمد بن علي وابنه إبراهيم الإمام (١٠٠) .

ويبدو من خلال هذه الصداقة أن كل منهما عرف الآخر وعرف طموحاته . ووجد أبو هاشم في محمد طموحاً سياسياً للخلاص من الخلافة الأموية . والبلاذري يذكر رواية عن المدائني تستحق أن نتوقف عندها وتحليلها . تقول هذه الرواية : أن علي بن عبد الله بن عباس قال في اجتماع بينه وبين ابنه وأبي هاشم : « يا أبا هاشم أهل المغرب يؤملونك . وقال لابنه محمد : أن أهل المشرق يؤملونك . ثم نظر إلى حمار بين شجرتين ، فقال : والله لا تليان حتى يلي هذا الحمار ، كبرتما عن تبين صاحب هذا الأمر » (١٠١) .

هذه الرواية أوضحت : أولاً : أن أبا هاشم كان له أنصار يدعون إلى ولايته ويتزعمونه ، وأن كنت لم أتوصل إلى ما قصد علي بن عبد الله بأهل المغرب بالنسبة إلى أبي هاشم ، فإنه من المؤكد أن الذين كانوا يقولون بأمامة أبي هاشم هم طائفة من الفرقة الكيسانية (١٠٢) .

وثانياً : عرف علي بن عبد الله بن عباس أن لابنه أنصاراً من المشرق يدعون لإمامته . ومعنى ذلك أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس كان قد بدأ

فى تكوين أنصار له من أهل المشرق لا علاقة لهم بأبى هاشم . ولعل الرواية التى ساقها البلاذرى والتى يذكر فيها أن رجلاً من أهل المشرق بحثوا عمن يقودهم ، تلقى أيضاً ضوءاً على ذلك . وهذا نص ما قال : « ... كان الخراسانيون الذين قدموا لطلب الإمام يقولون هذا أمر لا يصلح إلا لذى شرف ودين وسخاء ، فتبعه قوم لشرفه ، وآخرون لدينه ، وآخرون لسخائه ، وأتوا رجلاً من ولد على بن أبى طالب ، فدلهم على محمد بن على بن عبد الله وقال أفضلنا فأتوه » (١٠٣) ، ومع أن هذه الرواية لم تحدد تاريخ هذا اللقاء ، ولا الشخص العلوى الذى دلهم عليه ، إلا أنه من الراجح أن ذلك كان قبل وفاة أبى هاشم بمدة طويلة .

وهنا تبدو نقطة مهمة يجب إيضاحها وهى تتعلق بأبى هاشم ذلك أن بعض المصادر ذكرت أن الفرقة الكيسانية كانت تتعلق به وبأبيه من قبله . ومن الواضح أن محمداً بن الحنفية كان يتبرأ منهم لغلوهم فيه (١٠٤) . ولا يبعد أن أبا هاشم مثل أبيه . وكما قال ابن حجر يتحلونه أى يتسبون إليه (١٠٥) . ولم يذكر صراحة موقفه منهم . ومما يقوى عندنا براءة أبى هاشم منهم توثيق الزهرى (ت ١٢٤هـ) لأبى هاشم وقرنه بأخيه الحسن ، وكان عنده الحسن أوثق (١٠٦) . فلو كان أبو هاشم يؤمن بأفكار الفرقة الكيسانية لما وثقه الزهرى وهو من أعلام المدينة النبوية ومحدثيها ، ولولا معرفته الوثيقة به لما وثقه .

ويقودنا هذا مرة أخرى إلى طرح افتراض آخر وهو : أليس من الجائز أن أبا هاشم بحكم التجارب التى مر بها أهل بيته بدءاً من أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى الحسن إلى الحسين مع أهل الكوفة ، ومحمد بن الحنفية مع المختار بن أبى عبيد (ت ٦٧هـ) ، اتضح لديه بجلاء أنه لا فائدة من الاعتماد على الشيعة العلوية فى مثل هذه الأمور الكبيرة التى برهنوا فيها على عدم نصحتهم وحديتهم تجاه أهل البيت ، مما ولد لديه القناعة الأكيدة بأنه من الأفضل أن يسلم زمام

الأمر إلى شخصية تتمتع بالقيادة وبعد النظر وحسن التنظيم ، وهى صفات يبدو
لى أنه عرفها فى محمد بن على . فلما حانت وفاته أوصى دعائه بعد إقناعهم ، بأن
ينضموا إليه ويقفوا إلى جانبه (١٠٧) . يضاف إلى ذلك السمعة الحسنة والمكانة
الكبيرة للبيت العباسى من خلال مكانة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ثم
على بن عبد الله بن عباس ، وأخيراً محمد بن على الذى كانت له منزلة كبيرة
أيضاً إلى درجة أن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) رحمه الله قال فى شأنه
عندما زاره ثم خرج من عنده : « لو كان إلى من الخلافة شىء لقمصتها هذا
الخارج » (١٠٨) .

كل هذه الأسباب والعوامل التى ذكرناها سابقاً تبين بوضوح سبب إقدام
أبى هاشم على أن يسلم مقاليد الدعوة التى كان يديرها إلى محمد بن على العباسى
لتضافر الجهود فى إسقاط الدولة الأموية .

ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل الدعوة العباسية وتنظيماتها وكيف أدارها
محمد بن على العباسى ، فهذا موضوع آخر ، ولكن الذى يعيننا فى المقام الأول
هو علاقته بالخلفاء الأمويين بعد قيامه بالتنظيم للدعوة ، وهل ابتعد عنهم ؟ أم ظل
كسابق عهده فى زيارتهم والتقرب إليهم ؟

تشير بعض المصادر إلى أن محمد بن على العباسى لم يقطع صلته بهم ،
وكما مر معنا فإنه دخل على عمر بن عبد العزيز وزاره أثناء خلافته . ولم أجد
فيما بين يدي من مصادر شيئاً عن اتصاله بيزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) .
وتأتى ذروة العلاقة فى خلافة هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ) الذى نشطت
الدعوة العباسية فى عهده نشاطاً ملحوظاً ، إذ بدأت المصادر تتحدث بشكل ظاهر
عن الدعاة العباسيين ، وذلك فى السنوات ١٠٥هـ ، ١٠٧هـ ، ١٠٩هـ ،
١١٧هـ ، ١١٨هـ (١٠٩) .

وهذا النشاط المحموم لدعاة بنى العباس فى عهد هشام بن عبد الملك يوضح لنا بجلاء استغلال محمد بن على ودعائه لهذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة الأموية. صحيح أن عهد هشام يعد من عهود الخلفاء الأقوياء من بنى أمية ، لكن يبدو أن قرب محمد بن على من بلاد الشام ، ومن البلاط الأموى جعله يطلع على كثير من أسرار هذا البيت ، ويعرف بوادى النزاع المقبلة بعد انقضاء خلافة هشام ، سيما وأن يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥ هـ) كان قد اشترط على هشام أن يجعل الوليد بن يزيد ولى عهده (١١٠) . وربما كان هذا الشرط من العوامل التى جعلت الحسد والتنافس يدب فى أفراد البيت الأموى الحاكم . ولذلك نشط دعاة بنى العباس فى تلك الفترة ، استثماراً لما بعد هشام ، وتهيئة الناس لتلقى فكرة ظهور العباسيين التى روجوا لها بالبشارات والأحاديث النبوية والطعن فى بنى أمية ، إلى غير ذلك من الأساليب التى استخدموها للتحضير لقيام دولتهم (١١١) .

ومن المؤكد أن هشام بن عبد الملك لم يكن غافلاً عن هذه الدعوة ، ولا عن أصحابها ، وذلك من خلال ولاته على خراسان ، وعلى رأسهم أسد بن عبد الله القسرى (ت ١٢٠ هـ) الذى سبق له أن قبض على عدد من الدعاة ونكل بهم (١١٢) . وقد عبر هشام عن غضبه على محمد بن على العباسى أكثر من مرة بسبب هذه الدعوة ، ومن ذلك أن محمد بن على استأذن على هشام بن عبد الملك ، فلما دخل عليه سأله عن سبب مجيئه ، فقال : حاجة يا أمير المؤمنين ، فقال له هشام : « انتظر بها دولتكم التى تتوقعونها وتروون فيها الأحاديث وترشحون لها أحداثكم » (١١٣) .

وأتهم هشام بنى العباس أنهم جعلوا رسول الله ﷺ لهم سوقاً (١١٤) . ويبدو أن هشام بن عبد الملك أدرك مدى خطورة الدعاية التى قام بها العباسيون فى أيامه ، وأنها أثرت فى الناس واستمالت كثيراً منهم . لذلك نراه قد هم بسجن

محمد بن علي وأبنائه ، لأنهم كما قال « يزعمون ان الخلافة تصير إليهم ، وقد استشرف لها الناس » (١١٥) ، وربما أن هشاماً لم يملك دليلاً قوياً ضد رجل بعينه منهم ، لشدة التكم على صاحب الدعوة ، أو أنه خشى من الإقدام على هذه الخطوة إذ ربما يكون لها عواقب وخيمة ، أو ليتخذ عندهم يداً بالإحسان إليهم ليكافئوه عند وصول الأمر إليهم ، كما قال له الأبرش الكلبي (١١٦) .

وعلى كل فقد توفي هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ (١١٧) ، وتوفي قبله محمد بن علي سنة ١٢٤هـ ، أو سنة ١٢٥هـ (١١٨) ، ودخلت الأسرة الأموية في صراع على السلطة ، وخاصة بعد مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ ، وقيام فتنة عمت أرجاء الدولة الإسلامية استثمرها بنو العباس ، وأعلنوا ثورتهم المسلحة على الدولة الأموية سنة ١٢٩هـ ، ومن ثم إسقاطها سنة ١٣٢هـ .

الهوامش

- (١) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ١٥ - الكلبي ، جمهرة النسب ، ص ٢٦ - ٢٧ .
- (٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م ٤ ، ص ٥ .
- (٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٤٤١ .
- (٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م ٤ ، ص ١٧ - ١٨ ، ابن حجر ، الإصابة فى تمييز الصحابة ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .
- (٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ج ٦ ، ٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .
- (٦) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ٦ ، ص ١٠ - ابن حجر ، الإصابة ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .
- (٧) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ٦ ، ص ١٠ - ١١ .
- (٨) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ٢٦ . ٢٧ .
- (٩) ابن حجر ، الإصابة ، ج ٥ ، ١٢٧ .
- (١٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٤ ، ٦٢ ، ٢١٥ .
- (١١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .
- (١٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ٥ ، ص ١١٧ .
- (١٣) أم حبيبة هى : رملة بنت أبى سفيان ، ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً ، تزوجت عبيد الله بن جحش الأسدى أسلماً وهاجراً إلى الحبشة حيث ارتد فيها زوجها إلى النصرانية وتوفى عنها هناك ، فأرسل رسول الله ﷺ يخطبها ، وأصدق النجاشى عن رسول الله ﷺ وزوجه إياها ثم بعث بها إلى المدينة ، توفيت فى المدينة سنة ٤٤ هـ انظر : ابن حجر ، الإصابة ، ج ١٢ ، ص ٢٦٣ .
- (١٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ١٠ ، ص ٣٥ ، ابن حجر ، الإصابة ، ج ٩ ، ص ٢٣٣ .

(١٥) ابن حجر ، الإصابة ، ج٥ ، ص ١٢٩ ، وانظر الزركلى ، الإعلام ، ج٣ ، ص ٢٠١ .

(١٦) خليفة بن خياط ، الطبقات ، ص ٣٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، ج٥ ، ص ١٢٩ .

(١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص ٢٧ ، ٢٩ .

(١٨) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٤٠٣ .

(١٩) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٤٠٣ ، قال العباس : « مهلاً يا عمر فوالله أن لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف ، فقال عمر : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم » . ويدولى والله أعلم أن العباس لم يقصد اتهام عمر بالعصبية والتحامل ، وإنما أراد أن يكسر حدة عمر فى ذلك الموقف ويصرفه عن أبى سفيان فقال له ما قال .

(٢٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٤٠٣ .

(٢١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص ٢٨ ، ونص الرواية : « لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان : ما لنا ولأبى فضيل إنما هى بنو عبد مناف » ، وهناك روايات أخرى حول موقف أبى سفيان من بيعة الصديق ﷺ يبدو عليها الوضع . انظر نفس المصدر ، ص ٢٦ . وانظر البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج٣ ، ص ٢٧١ .

(٢٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص ٢٠٥ ، ابن الأثير الكامل ج٤ ، ص ٤٠٢ .

(٢٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص ٢٣ - ٢٦ .

(٢٤) ورد فى صحيح البخارى ص ٧١٩ حديث رقم ٣٤٩٥ عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : « الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم » ، وفى مسند الإمام أحمد ، ج١ ، ص ١٩٩ من رواية أبى بكر الصديق ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قريش ولادة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم » .

- (٢٥) النهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ٣ ، ٣٤٤ .
- (٢٦) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ٤٧ وسبب هذه المقولة أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ عاتبوا عمر بن الخطاب على دخول ابن عباس معهم عليه على حداثة سنه ، فطلب منهم عمر رضي الله عنه تفسير سورة النصر فكان ابن عباس رضي الله عنهما أحسن تفسيراً وأكثر فهماً لمعانيها ومقاصدها . وانظر أيضاً أحمد بن حنبل ، كتاب فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .
- (٢٧) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٦ .
- (٢٨) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٩٩ ، الطبري ، تاريخ الأمم جـ ٤ ، ص ٢٠٥ ، النهبي سير أعلام النبلاء ، جـ ٣ ، ص ١٣٢ .
- (٢٩) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٢٤ ، ص ٤٠٢ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ ٩ ، ص ٢٣٢ .
- (٣٠) الطبري ، تاريخ الأمم جـ ٥ ، ص ٢٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٥٨ .
- (٣١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، جـ ١ ، ص ١٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٨ .
- (٣٢) الطبري ، تاريخ الأمم جـ ٥ ، ص ٤٥٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٢٤٧ .
- (٣٣) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٥٧٣ - الطبري ، تاريخ الأمم جـ ٥ ، ص ٤٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٢٤٩ .
- (٣٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٢٤٩ .
- (٣٥) صحيح البخاري ، ص ٥٤٢ ، حديث ٢٧٠٤ .
- (٣٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٢٤٩ .
- (٣٧) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ص ٧٨ - ٧٩ ، الطبري ، تاريخ الأمم جـ ٦ ، ص ٧٩ .

- (٣٨) الطبرى ، تاريخ الأمم - ج ٥ ، ص ٨٢ .
- (٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .
- (٤٠) المبرد ، الكامل فى الأدب ، ج ١ ، ص ٣٦٧ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ص ٢٧٤ .
- (٤١) الطبرى ، تاريخ الأمم - ج ٦ ، ص ٥٨ .
- (٤٢) علق محمد بركات البيللى فى بحثه الدعوة العباسية ، ص ٧ - ٨ على رواية استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة بقوله : « سواء كان هذا الاتهام صحيحاً أم باطلاً ، فيبدو أن الأموال التى استحوز عليها عبد الله بن عباس ، قد جعلت بنيه فى سعة من العيش ومكنتهم فيما بعد من الاتفاق على الدعوة العباسية وتحمل أعبائها المالية » ثم استند فى الحاشية على ما بذله محمد بن على بن عبد الله العباسى لبعض أهل خراسان من مال ، ليدلل على صحة استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة ، والواقع هو كذب تلك الرواية أولاً ، وثانياً لم يكن على بن عبد الله بن عباس الوارث الوحيد لأبيه ، فله أخوة كثيرون كما فى ترجمة العباس ولم يكن محمد بن على الوريث الوحيد لوالده فهو الآخر لديه أخوة كثيرون يشاركونه فى الميراث ، ويستبعد أن يكون مال البصرة المزعوم ما زال موجوداً إلى ما بعد المائة للهجرة .
- (٤٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .
- (٤٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .
- (٤٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٥٤ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٣ .
- (٤٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٥٤ .
- (٤٧) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج ٦ ، ص ١٤٨ .
- (٤٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٩١ .
- (٤٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، ج ٢ ، ص ٩٨٤ - ٩٨٥ .
- (٥٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، ج ٢ ، ص ٩٨٥ .

- (٥١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، ج١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٢ .
- (٥٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، ج١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .
- (٥٣) انظر مثلاً : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٤ ، ص ٨٠ - ٨٣ .
- (٥٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ٢٣٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٢٦٠ .
- (٥٥) أنساب الأشراف ، ج٥ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
- (٥٦) الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٢٦٣ .
- (٥٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣١ ، الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٢٦٧ .
- (٥٨) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ٣٠٤ .
- (٥٩) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ٣٠٤ .
- (٦٠) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ٣٠٤ .
- (٦١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ٢٩٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٨ ص ١٧٣ .
- (٦٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٤٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٣٢٥ .
- (٦٣) يذكر خليفة بن خياط فى تاريخه أن ابن الزبير دعا إلى نفسه بعد موت يزيد بن معاوية وذلك سنة ٦٤ هـ .
- (٦٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣٧ - ٢٣٩ ، الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٩٦ -
- الطبرى ، تاريخ الأمم ج٦ ، ص ٤٢١ - ٤٢٥ .
- (٦٥) المعرفة والتاريخ ، مجلد ٢ ، ص ٥٣١ - وانظر ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٤ ص ١٢٧ .
- (٦٦) البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد ١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٤ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
- (٦٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٥٥ .

(٦٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ص ١٧٢ ، وانظر : البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد ١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

(٦٩) يربنى : بفتح الياء وضم الراء والباء المشددة أى يكون على أميراً وذلك كما فسرہ ابن حجر ، أو بمعنى رباه وقام بامرہ وملك تدبيره . ومعنى كلام ابن عباس « لأن أكون فى طاعة بنى أمية أحب إلى من أن أكون فى طاعة بنى أسد » لأن بنى أمية أقرب إلى بنى هاشم من بنى أسد . انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ، ج ٨ ، ص ٣٢٠ .

(٧٠) ابن حجر ، فتح البارى ، ج ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧١) ابن حجر ، فتح البارى ، ج ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١٤٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٧٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ٧١ .

(٧٤) الطبرى ، تاريخ الأمم ج ٧ ، ص ٦٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٧٥) الطبرى ، تاريخ الأمم ج ٦ ، ص ٤١٨ .

(٧٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .

(٧٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١٥ ، ص ٧٤٩ .

(٧٨) المبرد ، الكامل فى الأدب ، ج ١ ، ص ٣٦٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٤ .

(٧٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ ، وفى الطبرى ، تاريخ الأمم ج ٧ ، ص ٦٣٨ أن عبد الملك سأله عن اسمه وكنيته فأخبره فقال عبد الملك لا يجتمع فى عسكرى هذا الاسم والكنية لأحد وسأله هل له من ولد فأخبر بولده محمد فكناه به .

(٨٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٣١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٨١) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٨ . وذكر أن التى تزوجها على هى لبابة بنت عبد الله بن جعفر .

(٨٢) الطبرى ، تاريخ الأمم جـ ٦ ، ص ٥٥٢ .

(٨٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ص ١٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ ، والحميمة - صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٨ .

(٨٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٦ .

(٨٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٨٦) ابن أسد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ١٨٧ .

(٨٧) ابن كثير ، البداية ، جـ ٥ ، ص ٢٢٧ .

(٨٨) عليان ، قيام الدولة العباسية ، ص ١٥ . نقلاً عن محمد حلمى أحمد ، الخلافة والدولة فى العصر العباسى .

(٨٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٩٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٩٨٣ .

(٩١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ ، تحقيق محمد بن صامل ، ويقصد بقوله : « ما بقى أبو عبد الله الحسين بن على رضى الله عنهما .

(٩٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٩٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٢ ، أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، ص ١٩ .

ويرى فاروق عمر ، أن على بن عبد الله بن عباس هو أول شخصية تطمح لنيل الخلافة ، دون أن يسند ذلك إلى مصدر ، والواقع هو أن ابنه محمداً هو الذى بدأ العمل من أجل ذلك . انظر : العباسيون الأوائل ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

(٩٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٤٨ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٢٠ ، ص ١٠٨ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٧٨ .

(٩٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ، ص ١٨٧ ، الدورى ، العصر العباسى ص ٢٢ ، الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ .

(٩٦) ج ٥ ، ص ٣٢٩ ، ومن هؤلاء الأبناء هاشم ، وبه كان يكنى ، ومحمد الأصغر وعلى ، وطالب ، وعون ، وعبيد الله ، ولم يذكر ابن سعد وفاة هؤلاء أو بعضهم فى حياة أبيه .

(٩٧) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، ج ٦ ، ص ٨٧ ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(٩٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢٨ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ص ١٦ .

(٩٩) الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ . وانظر فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، ج ١ ، ص ٣٩ أخبار الدولة العباسية ، ص ١٧٣ ، تاريخ دمشق ، ج ١٤٥ ، ص ٧٤٩ .

(١٠٠) المزى ، تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، ج ١٦ ، ص ٨٧ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(١٠١) أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١٠٥ .

(١٠٢) نسبة إلى رجل يدعى كيسان مولى لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وقيل تلميذ لمحمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، والكيسانية تعتقد فى أبى الحنفية حده ودرجته من إحاطته بالعلوم كلها ، ويجمعهم القول بان الدين طاعة رجل ، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وغير ذلك على رجال وهم فرق متعددة ومنها المختارية أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى . انظر : الشهرستانى ، الملل والنحل ، مجلد ١ ص ١٤٧ - ١٥٤ .

(١٠٣) الأنساب ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .

(١٠٤) الشهرستانى ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

- (١٠٥) تهذيب التهذيب ، ص ٦٦ .
- (١٠٦) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .
- (١٠٧) المزى ، تهذيب الكمال ، ج ١٦ ، ص ١٤٦ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .
- (١٠٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .
- (١٠٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، ج ٢ ، ص ٩٨٧ .
- (١١٠) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ج ٥ ، ص ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، حوادث السنوات المذكورة .
- (١١١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .
- (١١٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٢ .
- (١١٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٣ .
- (١١٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٢ .
- (١١٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٢ - ١١٣ .
- (١١٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٣ .
- (١١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٣ .
- (١١٨) كانت وفاته فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ . ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٦١ .
- (١١٩) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١١٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير : عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ) .

١ - الكامل فى التاريخ ، ج ٣ ، ج ٤ ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

البخارى : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) .

٢ - صحيح البخارى : الطبعة الأولى ، الرياض ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

البسوى : يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ) .

٣ - المعرفة والتاريخ ، مجلدا ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١٠ هـ .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) .

٤ - كتاب جمل من أنساب الأشراف ، ج ٣ ، ٤ ، ٥ ، تحقيق سهيل زكار ، ورياض زركلى ، بيروت ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ابن حجر : الحافظ شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) .

٥ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ج ٨ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٦ - الإصابة فى تمييز الصحابة ، ج ٥ ، ٩ ، ١٢ ، تحقيق طه محمد الزينى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

٧ - تهذيب التهذيب ، ج ٦ ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد الدكن .

- حنبل : الإمام أبو عبد الله أحمد بن بن حنبل (ت ٢٤١هـ) .
- ٨ - مسند الإمام أحمد ، ج ١ ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، بيروت .
- ٩ - كتاب فضائل الصحابة ، ج ١ ، ٢ ، تحقيق وصي الله بن محمد عباس ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ) .
- ١٠ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مجلد ٣ ، ٤ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م .
- خياط : خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ) .
- ١١ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- الدينورى : أبو حنيفة بن داود (ت ٢٨٢هـ) .
- ١٢ - الأخبار الطوال ، مراجعة وتصحيح حسن الزين ، بيروت ١٩٨٨م .
- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) .
- ١٣ - سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون الطبعة ١١ ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- الزبيرى : أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ) .
- ١٤ - كتاب نسب قريش ، عنى بنشره وتصحيحه ليفى بروفنسال الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٢م .
- ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهرى (ت ٤٣٠هـ) .
- ١٥ - الطبقات الكبرى ، الطبقة الخامسة من الصحابة ، ج ١ ، ٢ تحقيق محمد بن صامل السلمى ، الطبعة الأولى ، الطائف ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- الطبقات الكبرى ، مجلد ٤ ، بيروت ، بدون تاريخ .

الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر (ت ٥٤٨ هـ) .

١٦ - الملل والنحل ، ج ١ ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .

١٧ - تاريخ الأمم والملوك ، الأجزاء ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٧٨ م .

ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله (ت ٤٣ هـ) .

١٨ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ج ٥ ، ٦ ، ١٠ ، تحقيق طه محمد الزينى ، الطبعة الأولى مذيعة بكتاب الإصابة ، القاهرة ١٣٣٦ هـ ، ١٩٧٦ م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ) .

١٩ - العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .

ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن (ت ٥٧١ هـ) .

٢٠ - تاريخ دمشق ، طبعة مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، وضع فهارس الموضوعات والتراجم الشيخ محمد بن رزق الطرهونى ، المدينة المنورة ١٤٠٧ هـ .

ابن كثير : الحافظ أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ) .

٢١ - البداية والنهاية ، ج ٥ ، ٧ ، ٨ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م .

الكلبي : هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ) .

٢٢ - جمهرة النسب ، تحقيق ناجي حسن ، بدون ذكر لتاريخ ومكان الطبعة .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد النحوي (ت ٢٨٥هـ) .

٢٣ - الكامل في اللغة والأدب ، ج١ ، بيروت ، بدون تاريخ الطبع .

مجهول : من مؤرخي القرن الثالث الهجري .

٢٤ - أخبار الدولة العباسية ، تحقيق عبد العزيز الدوري ، وعبد الجبار المطلب ،
بيروت ١٩٧١م .

المزى : جمال الدين يوسف المزى (ت ٧٤٢هـ) .

٢٥ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، ج١٦ ، تحقيق بشار عواد معروف ،
الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

ابن منظور : محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) .

٢٦ - مختصر تاريخ دمشق ، ج٤ ، اختصره على نهج ابن منظور وعنى بتحقيقه
إبراهيم صالح .

٢٧ - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ج٢٥ ، تحقيق مأمون الصاغرجي ،
الطبعة الأولى ، دمشق ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

ابن هشام : عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ) .

٢٨ - السيرة النبوية ، ج١ ، ٢ ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الثانية،
القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

ثانياً : المراجع :

البيلي : محمد بركات :

٢٩ - الدعوة العباسية « ثورة بنى العباس على الخلافة الأموية » القاهرة ١٩٨٦م.

الدورى : عبد العزيز :

٣٠ - العصر العباسى الأول ، دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى ،
الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٨ م .

الزركلى : خير الدين :

٣١ - الأعلام ، ج٣ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٩ م .

العبادى : أحمد مختار :

٣٢ - فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ١٩٧١ م .

عليان : محمد عبد الفتاح .

٣٣ - قيام الدولة العباسية ، وتفسير جديد لدوافع الفرس إلى مؤازرتها ، ط٢ ،
القاهرة ١٩٩٤ م .

فوزى : فاروق عمر :

٣٤ - العباسيون الأوائل ٩٧هـ / ٧١٦م - ١٧٠هـ / ٧٨٦م ، ج١ الطبعة
الأولى ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

الكيسى : عبد المجيد صالح :

٣٥ - عصر هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م) بغداد
١٩٧٥ م .

المقدسى مؤرخاً لبلدان العرب

من خلال كتابه : « أحسن التقاسيم »

د. عبد الفتاح فتحه عبد الفتاح(*)

تقديم :

التاريخ والجغرافية عند العرب فرعان متقاربان من فروع شجرة المعارف العامة المعروفة بـ (الأدب) . ولذا فإن عدداً من الرواد كانوا مؤرخين وجغرافيين فى الوقت نفسه (١) ، مثل : « هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م » (٢) ، واليعقوبى المتوفى سنة (٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) (٣) .

وقد شهد القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) - وهو قرن ازدهار الحضارة الإسلامية - اهتماماً واسع النطاق بالمصنفات الجغرافية ، فيما عرف بكتب (المسالك والممالك) . وقد أطلق كراتشكوفسكى على عدد من أعلام المصنفين فى ذلك المجال - من أمثال : البلخى (٤) ، (ت ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) ، والاصطخرى المتوفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى (٥) ، والمقدسى (أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر للميلاد) - لقب أصحاب (المدرسة الكلاسيكية) ، قاصداً بذلك اقتصارهم فى مؤلفاتهم على أقاليم دار الإسلام ، وبلوغهم منزلة جيدة فى فن رسم الخرائط (٦) ، وحول آخر هؤلاء الأعلام (المقدسى) يدور هذا البحث .

أولاً : التعريف بالمقدسى :

نبدأ بالإشارة إلى ندرة المادة العلمية المتاحة فى تراجم ذلك العلم الجغرافى المؤرخ ، وإلى تناقل المراجع المتوالية لها واجترارها ، دونما إضافات حقيقية شافية . ولعل هذا النوع من العلماء ، الذين غلبت عليهم اهتماماتهم الجغرافية لم يحظ

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

باهتمام مصنفى كتب التراجم والطبقات ، الذين وجهوا انتباههم إلى المحدثين ،
والفقهاء ، والمفسرين وغيرهم ، ولم يفتنوا إلى تراجم الجغرافيين . وإزاء ذلك
النقص الشديد فى المادة ، حاولت سد الخلل عن طريق استخراج المزيد عنه من
خلال كتابه : (أحسن التقاسيم) .

أولاً : نسبه وأسرته :

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء المقدسى (٧) ،
الحنفى (٨) ، المعروف بـ (البشارى) (٩) ، ومن خلال سياقه نسبه السابقة ، وما
توفر لدى من معلومات نلاحظ ما يلى :

(أ) أن (المقدسى) شامى فلسطينى ، ينتمى إلى مدينة (بيت المقدس) تحديداً ،
كما هو ظاهر من نسبه ، وعلى نحو ما صرح به فى كتابه (١٠) .

(ب) أنه يتبع المذهب الحنفى فى الفقه ، وسرى بعض التفاصيل عن ذلك عند
تناول (ثقافته) .

(جـ) أن جده لأبيه (١١) المعروف بـ (أبى بكر البناء) كان من أشهر البنائين ،
وأمرهم ، وأبرعهم فى زمانه . ولعل ما قام به من تشييد التحصينات القوية
الخاصة بميناء (عكا) (١٢) ، زمن أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ /
٧٦٨ - ٨٨٣ م) يشهد له بالريادة فى مجال (الهندسة المعمارية) ، التى
تمكن - بمقتضاها - من الاهتداء إلى البناء فى الماء فى ذلك الوقت المبكر .
وقد حظى بإعجاب ابن طولون ، فدفع إليه ألف دينار ، بخلاف الخلع وغيرها
من المركوب ، علاوة على تخليد اسمه بتسجيله على الميناء ، اعترافاً بفضله فى
حماية الميناء ومراكبه من إغارة الأعداء (١٣) .

(د) عرفنا - من خلال قراءة كتاب المقدسى - أن والده كان على درجة ما من
الثراء ممتلكاً عدداً من الغلمان ، الذين روى عنهم المقدسى فى كتابه عند
حديثه عن بناء الحمامات فى (إقليم فارس) (١٤) .

(هـ) كان عمه (أبو على الحسن بن أبى بكر) ، مهتماً بالآثار المعمارية القديمة فى مدينة (بيت المقدس) ، وعنه روى المقدسى ما يتصل بموقع قبر سيدنا يوسف (عليه السلام) بأرض فلسطين . وقد ذكر أن عمه المذكور ، وجده ، كانا يشرفان على عمليات حفر العمال ، حتى انتهوا إلى خشب العجلة - ربما التى يظن أن جثمان يوسف حمل عليها - قد أكلتها الأرض . ولم يزل المقدسى يجد من بقاياها عند عجائز قومه ، يستشفين بها من الرمد (١٥) .

(و) وردت إشارة سريعة إلى أسرة والده المقدسى فى كتاب: (أحسن التقاسيم)، إذ ذكر المؤلف أن جده لأمه (أبا الطيب الشوا) ينسب - فى الأصل - إلى كورة (قوميس) (١٦) ، ب (إقليم الديلم) ، وإلى مدينة (بيار) تحديداً ، تلك التى تعد إحدى مدن قصبه (قومس) المسماة ب (الدامغان) . وقد رحل هذا الجد إلى بلاد الشام مع ثمانية عشر رجلاً (١٧) فى وقت لم يحدد بدقة . ويبدو أنه استقر مع أسرته هناك ، وطاب لهم المقام .

وأخيراً فقد أشار المقدسى - فى كتابه - إلى خاله (عبد الله بن الشوا)، وروى عنه خيراً يتصل بـ (قرية دير شمويل) القرية من (ايليا) ب (إقليم الشام) (١٨) .

وهكذا ، رسمنا الملامح العامة للأسرة التى نشأ فى رحابها المقدسى ، من خلال الشذرات المتناثرات فى كتابه . ويتضح منها مقدار ما تمتعت به هذه الأسرة من مكانة متميزة مادياً وعلمياً (من جهة الأب) ، وأنها تضرب بأصولها فى بلاد المشرق (من جهة الأم) . ولعل هذه الازدواجية كان لها تأثيرها فى تقسيم المقدسى كتابه إلى قسمين : (أقاليم العرب) ، و (أقاليم العجم) ، إلى جانب تأثيرات أخرى نتعرض لها عند دراسة كتابه فيما بعد .

ثانياً : حول مولده ، ووفاته :

لم تحدد سنة ميلاد (المقدسى) تحديداً مباشراً ، لكن أمكن معرفتها - على نحو قاطع - عن طريق التاريخ ، الذى حدده الرجل لظهور كتابه : (أحسن التقاسيم) ، إذ ذكر أنه أخرج إلى حيز الوجود سنة (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) ، وهو فى الأربعين من عمره (١٩) . وبعملية حسابية يسيرة ندرك أنه ولد سنة (٣٣٥هـ / ٩٤٦م) (٢٠) .

أما بالنسبة لتاريخ الوفاة ، فليست ثمة إشارة ، ترشدنا إلى تحديده على النحو الذى حدد به تاريخ مولده . وقد تباينت آراء الباحثين بهذا الصدد ما بين سنوات : (نحو ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) (٢١) ، و (حوالى ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م) (٢٢) ، و (بعد سنة ٣٧٨هـ / بعد ٩٨٨م) (٢٣) ، و (بين ٣٧٥ - ٣٨١هـ / ٩٨٥ - ٩٩١م) (٢٤) .

والحق أنى لم أقف على دليل يؤدى إلى الجزم بأى من التواريخ السابقة ؛ فإن أحداث كتاب المقدسى إذا لم تتجاوز سنة ٣٨٠هـ ، أو وقفت أخباره عند ذكر (الخليفة الطائع ٣٦٣ - ٣٨١هـ / ٩٧٣ - ٩٩١م) دون تجاوزه إلى ما وراءه من الخلفاء ، ليس بدليل أكيد على وفاته فى عهد ذلك الخليفة (٢٥) ، خاصة أن الكتاب كتاب جغرافى فى المقام الأول ، ولا يسرد الأحداث التاريخية بشكل أساسى ، حتى نعلل توقفه عند خليفة محدد بالوفاة . وبالنسبة لمن جعل الوفاة سنة ٣٨٠ ، أو ٣٩٠هـ ، فلم أجد مسوغاً لذلك التحديد . ولعل القول بالوفاة بعد سنة ٣٧٨هـ أقرب الآراء رغم عدم تحديده . وربما اتكأ فى ذلك - فيما يبدو - على ما ورد من صدور إحدى مخطوطتى الكتاب سنة ٣٧٥هـ ، والأخرى سنة ٣٧٨هـ ، فتكون الوفاة بعدها (٢٦) . وعلى كل ، فنخرجاً من هذا الخلاف أقول : لعله توفى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

ثالثاً : سماته الشخصية :

اهتم بإبراز هذه السمات من واقع نصوص (كتاب المقدسى) ؛ تعويضاً للنقص الشديد فى معلوماتنا عنه ، وتسليطاً لمزيد من الأضواء عليه ، بما يفيدنا عند دراسة كتابه كمصدر من مصادر تاريخ العرب .

١ - الجانب الخلقى :

من خلال بعض عبارات المقدسى يتبين لنا ما يتمتع به من حس دينى ، وخلقى رفيع ، ونية صادقة دفعته إلى تأليف كتابه . فمثلاً : يتوجه إلى الله سائلاً إياه التوفيق فى إتمام هذا العمل ، فيقول : « وسألت الله عز اسمه - أن يجنبني الخطأ والزلل ، ويبلغنى الرجاء والأمل » (٢٧) . ويقول فى موضع آخر مبيناً هدفه منه ، فيذكر أنه يريد أن « يقيم علماً يحى به ذكره ، ويحقق به نفعاً للخلق ، يرضى به ربه » (٢٨) .

يرى بعض الباحثين أن المقدسى يتصف بالفخر والزهو ، والاعتداد بالنفس (٢٩)، إضافة إلى أنه ينقد سابقه جميعاً فى أسلوب لاذع ، لا يغفره له أن كتابه أحسن ما ألف المشاركة فى باب (المسالك ، والممالك ، والبلدان ، والرحلات) (٣٠) .

ولعل من أقوى العبارات ، التى دفعت إلى هذا الاتهام ما ذكره المقدسى - وهو يقارن بين كتابه ، وكتب الآخرين - من أن الناظر فى كتابه يجده (نسيج وحده ، يتيماً فى نظمه) (٣١) ، إلى جانب القصيدة التى نظمها فى ختام كتابه ، وافاض فيها فى ذكر ميزاته ، ومظاهر إبداعه (٣٢) .

والحق أن ما اتهم به المقدسى لا يمكن التسليم به على إطلاقه ؛ إذ يمكن تفسيره على أنه فرط ثقة بنفسه وقدراته ، وإنجازته ، حتى مدحه أحد الباحثين بقوله : إنه « لا يغمط حقه فى الفهم والذكاء والأصالة ، والطرافة ، وقوة الملاحظة » (٣٣) . ويدعم هذا التفسير وجود عدة مواضع فى كتابه نفسه يظهر

تواضعه فيها جلياً ، مثل قوله : « ثم إني لا أبرء نفسي من الزلل ، ولا كتابي من الخلل ، ولا اسلمه الزيادة والنقصان ، ولا أفلته من الطعن على كل حال » (٣٤) .

ثم إننا نجد الرجل يذهب إلى مدى أبعد في التنزه عن كل غرض وضيع من وراء تأليف كتابه ، ويسمو به إلى درجة الفرض الحتمي اللازم ، الذي يدفعه إلى أدائه ما امتلك من أسبابه وأدواته ، فيقول : (لو وجدنا رخصة في ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ، ولكن لما بلغنا الله (تعالى) أقاصي الإسلام ، وأرانا أسبابه ، وألهمنا قسمته ؛ وجب أن ننهي ذلك إلى كافة المسلمين . ألا ترى إلى قوله تعالى : « قل : سيروا في الأرض » (٣٥) ، و « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا » (٣٦) .

وفيما نذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر (٣٧) ، وأخيراً ، فإن نقده الموجه إلى السابقين كان قائماً على أساس علمي (٣٨) ، ولم يكن هدفه التقليل ، أو الخط من شأنهم ، ثم إنه لم يمنعه من الاعتراف بمكانة بعضهم (٣٩) . وهكذا يمكن القول : إن المقدسي لم يكن يتسم بالزهو والخيلاء على طول الخط ، وإنما كان فيه خلق التواضع أيضاً ، ولا يعيبه إلا ما يند عنه - أحياناً - من عبارات الثقة الزائدة بالنفس ، مما كان التورع عنها به أولى .

يتصف المقدسي - أيضاً - بالتقوى والورع ، والزهد . ونلمس ذلك مما كشفه لنا في كتابه من حب الورعين والمتعبدين (٤٠) ، وإيراد بعض الروايات عن الزاهدين (٤١) . ويضاف - إلى ذلك - ما نثر من حكم في الزهد في كتابه ، عندما بين أن الأرباح - أبداً - مع الأخطار ، وأن على العبد أن يعلم أن الله يعطي العبد جزاء ركعتين ، يصليهما بإخلاص ، أكثر من الدنيا بخذافيرها . وماذا يصنع العبد بنعمة الموت من ورائها ، وجمع أموال لا بد من تركها (٤٢) ؟!

وأخيراً الناظر في خاتمة كتابه يقف على مدى تقواه وورعه من خلال تضرعه إلى الله (عز وجل) (٤٣) .

٢ - الجانب النفسى :

تمتع المقدسى بخلّة أصيلة فيه هي (قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة) . ولا ريب أن هذه السمة المهمة هي التي ارتكن إليها في تحمله مشاق رحلاته ، التي اعتقد انه جمع فيها خيري الدنيا والآخرة (المال من العمل والتجارة ، والعلم بجغرافية وتواريخ وأحوال البلدان التي زارها) . وقد سجل لنا الرجل في كتابه مدى الجهود الكبيرة ، والصعاب الشديدة التي تجشمها في جولاته بالبلدان ، وزياراته أقاليم الإسلام (عربا ، وعجماء) ، ومنها يتبين لنا أنه كان يلتقى بالعلماء ، ويخالط الملوك ويدخل في خدمتهم ، ويجالس القضاة ، ويدرس على الفقهاء ، ويتردد على الأدباء والقراء والمحدثين ، ويفشى مجالس الزهاد والمتصوفة ، والقصاص والمذكرين ، ويعاشر التجار وعوام الناس ، كل ذلك مع تفتن قوى وفهم جلى ، مع ملاحظة ما حوله من مناخ ومياه ، وتحكم عظيم في النفس حيث الصبر عن المعصية ، ونصح المسلمين ، والصبر على ذل الغربة ، مع مراقبة الله والخشية منه (٤٤) .

واتفق مع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس على أن أمثال تلك الرحلات ، على ما فيها من تحمل المخاطر واستجلاء الجهول ، ليست من قبيل الفخر آنذاك (٤٥) ؛ إذ لم يكن ركوب المخاطر ، والمجازفة بالنفس مما يعلى قدر المرء حتى يتجشم الكذب فيه ، اللهم إلا إذا ثبت بالدليل المقبول عدم تحرى أصحابها الصدق (٤٦) ، وهو ما ننزه عنه عالماً من طراز المقدسى .

٣ - الجانب الثقافى :

لا شك في أن شخصية طلعة نهمة كشخصية المقدسى ، لابد أن تنهل وتروى من معين الثقافة التي تعاصرها . والمطالع كتاب المقدسى يلمس - بوضوح - موسوعية ثقافته . ومن أبرز معالم ثقافته (٤٧) :

(أ) ثقافته العربية الأصيلة :

لقد امتلك المقدسى ناصية البيان بالعربية - لغة عدد غير قليل من الأقاليم التى زارها - التى أحسن الكتابة بها ، وذلك واضح من أسلوبه الجزل الرصين ، وجملة ذات الفواصل الموسيقية المؤثرة ، التى رآها البعض تصنعاً وتكلفاً ، وجد فى بداية ، وخاتمة ، و صلب الكتاب دون داع (٤٨) .

وبالنظر فى اسلوب الرجل ومراجعته ، ألفيته أسلوباً بلاغياً راقياً ، لا تكرار ولا إملال فيه غالباً ؛ مما يدل على تمكنه اللغوى وفصاحته . ومن ذلك قوله فى خطبة كتابه : (الحمد لله الذى خلق فقدر ، وصور فاتقن صنع البرية ، بلا مشير يناصره ، ودبرها بلا معين يعاضده . اتقنها أى اتقان ، وأحكمها بلا أعوان) (٤٩) . وفى سياق حديثه عن جهاده فى رحلاته ، قال : (ودورانى على التخوم حتى حررتها ، وتنقلى إلى الأخبار حتى عرفتھا ، وتفتشى عن المذاهب حتى علمتها) (٥٠) .

ويلاحظ على المقدسى - أيضاً - أنه متقن لمفردات المعجم اللغوى العربى ، ويميل إلى استخدام غريب اللغة نوعاً ما . ومن ذلك قوله : (فكركرهم عنى) (٥١) . وذلك فى أثناء إشارته إلى إنقاذ أحد الكتبة له من بين أتباع أحد المفرطين فى حب معاوية ؓ ؛ لأن المقدسى تجاسر ، وكذب حديثاً موضوعاً ، رواه ذلك الرجل فى فضل معاوية . وكذلك قوله عن هواء بيت المقدس شارحاً موضعاً : سجسج (لا حر ، ولا برد شديد) (٥٢) . وأيضاً قوله عن ذهابه إلى إحدى المناطق ، فوجدها خالية : (فلم أر بها دياراً) (٥٣) .

وأخيراً ، فإن بكتاب المقدسى شواهد ، تدلل على إلمامه بعدد من فنون العربية (رجزاً) (٥٤) . وأمثالاً (٥٥) ، وشعراً (٥٦) . ويضاف - إلى ما سبق - معرفته بمدلولات الألفاظ المستخدمة المتباينة بتباين الأقاليم (٥٧) .

(ب) ثقافته الجغرافية :

لا شك في أن رحلات المقدسى إلى أقاليم الدولة الإسلامية المختلفة ، واهتمامه بمطالعة المصادر الجغرافية قدم له زاداً وفيراً ، ومادة علمية غزيرة ، منها ألف كتاب (أحسن التقاسيم) . وسأكتفى بمثال واحد كشاهد على دقة معرفته بالبلدان (٥٨) حيث عقد فصلاً لبلدان وكور ، تتفق أسماؤها ، وتتباين مواضعها ، ويشكل على الناس أمرها ، والمنسوبون إليها (مثل : البصرة بالعراق وبالمغرب (٥٩) ، وحلوان التي هي كورة بالعراق ، ومدينة بمصر ، وقرية بنيسابور (٦٠) .

(ج) ثقافته في العلوم الإسلامية :

في القراءات : تبين لنا - من خلال بعض نصوص كتابه - أنه لديه إلمام بـ (علم القراءات القرآنية) ، فهو - شخصياً - لديه ميل وإتقان لقراءة (عبد الله بن عامر) (٦١) ، وبها قرأ القرآن في مصر (٦٢) . ومن خلال تناوله ثقافات أهل الأقاليم التي يحدثنا عنها ، أورد معلومات تدل على إحاطته باتجاهات الأقاليم المختلفة في علم القراءات في زمانه (في القرن الرابع الهجري) . فمثلاً : في الحجاز توجد قراءات نافع ، وابن كثير ، وغيرهما . وقراءة أهل الشام - ومنهم : المقدسى - هي قراءة (عبد الله بن عامر) (٦٣) .

في الحديث : أورد المقدسى عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة في كتابه ، وحرص على ذكر أسانيدها كاملة ومناسباتها الجغرافية ، مثل : حديث إعادة بناء الكعبة لدى تعريفه بـ (مكة) (٦٤) ، وبمجموعة أحاديث عن مكان إحرام أهل المدينة ، والشام ، ونجد (وذلك عند تناول الجحفة ، وقرن) (٦٥) ، وغير ذلك من الأحاديث (٦٦) .

فى الفقه : اهتمام المقدسى بـ (علم الفقه ، ورجاله) اهتمام أصيل . فالرجل فقيه حنفى تتلمذ بالعراق على أيدي الفقهاء الأحناف ، وأختار مذهبهم ، وفضله عما سواه من المذاهب (٦٧) . وللفقهاء عنده منزلة سامية ، فيحترمهم ويعرف فضلهم ، ويرفعهم فوق أهل العلم والأدب عامة (٦٨) ، وقد تأثر المقدسى فى دراسته للأقاليم بمصطلحات الفقهاء ، فذكر أنه قد أجرى مسائل كتابه على (التعارف ، والاستحسان) ، كما أجرى الفقهاء كتابى (المكاتب ، والإيمان) ، ورتبه على مذاهب أهل العراق التى فيها تفقه ، وإياها اختار ، واستعمل القياس فى مواضع تحسن وتليق (٦٩) .

لقد احتوى كتاب (أحسن التقاسيم) على باب من (مقدماته) ، خصص لذكر المذاهب عامة (فقهية ، وكلامية ، وحديثية) . وتناول بالحديث المذاهب الفقهية وأصولها وأئمتها ، وما تفرد به كل مذهب منها عما سواه (٧٠) . هذا ، إلى جانب إشارات المتعددة فى كتابه إلى المناظرات والمناقشات الفقهية الدائرة حول بعض المسائل الخلافية فى الأقاليم الجغرافية التى يعرضها (٧١) ، إلى جانب سرد بعض أحكام الدين عندما تلوح المناسبة (٧٢) .

رابعاً : (دراسة القسم الأول من كتاب : «أحسن التقاسيم»)(٥٠):

من المعلوم أن المقدسى قسم كتابه المذكور إلى قسمين :

أحدهما : خاص بأقاليم العرب .

وثانيهما : يتعلق بـ (أقاليم العجم) . ولما كانت دراستنا فى هذا البحث تنصب على جانب (تاريخ العرب) ، فقد اقتصرنا الدراسة على (القسم الأول) فقط ، كمحاولة لتسليط الأضواء على المادة التاريخية - تقليدية ، وغير تقليدية - المبثوثة فى ثنايا هذا المصدر الجغرافى الأصيل .

١ - عرض عام لمحتويات هذا القسم :

١ - بدأ المقدسى كتابه بمقدمة عامة ، أثنى فيها على الخالق المبدع سبحانه ، مبيناً قدرته فى بعض ظواهر الكون ، ثم ذكر أهداف تأليف كتابه ، وموضوعه ، وفوائده ، وأهميته ، وما بذل فى جمعه من جهد (٧٤) .

٢ - وتحت عنوان : (مقدمات وفصول لا بد منها) أورد عدة موضوعات ، منها: الأسس المنهجية لكتابه ، وذكر البحار والأنهار ، والخصائص العامة للأقاليم الجغرافية والمواضع المختلف فيها ، وغير ذلك (٧٥) .

٣ - عرض أقاليم العرب واحداً بعد الآخر : (جزيرة العرب (٧٦) ، والعراق (٧٧) ، وأقور (٧٨) ، والشام (٧٩) ، ومصر (٨٠) ، والمغرب (٨١) ، وبادية العرب (٨٢) . وكان المقدسى يقسم الإقليم إلى ثلاثة أقسام متباينة فى أحجامها حسب توفر المادة العلمية عن كل منها ، فيدرس فى الأول مدن الإقليم ، والمواضع العامرة فيه . ويبحث الثانى فى المناخ وطوائف السكان ، ولغتهم ، والأوزان ، والنقود ، والعادات ، والمياه ، والمعادن ، والأماكن المقدسة ، وأخلاق سكانه ، وتاريخه السياسى والاقتصادى ، ويتناول الثالث الحديث عن المسافات ، وطرق المواصلات فى كل إقليم (٨٣) .

٢ - موارد ه :

فى هذه الجزئية نركز الحديث عن المصادر الواردة فى قسم (أقاليم العرب) من كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، والتى استمد منها مادته . وقبلولوج إلى ذكر أنواع الموارد ، التى استمد منها مادته التاريخية غالباً ، نذكر القواعد النظرية العامة التى حكمت اختياره لهذه الموارد ، ونوعياتها ، وطريقته فى الأخذ منها (٨٤) ، وهى كالاتى :

(أ) البحث والتنقيب والتحرى فى اختيار وتحديد المصادر ، التى ينقل عنها مادته .

(ب) المشاهدة ، والقناعة العقلية ، سؤال أولى الأبواب عن الناس ممن لم يعرفوا بالغفلة والالتباس ، وسؤالهم عن الكور والأعمال فى المناطق التى بعد عنها المقدسى ، ولم يقدر على الوصول إليها (كالأندلس مثلاً) . فإذا اتفق أكثر من مصدر سألته ، أثبت ما اتفقوا عليه ، وما اختلفوا فيه تركه ونبذه ، وما لم يكن له بد من الوصول إليه والوقوف عليه ، قصده .

(ج) ما لم يقره قلبه ، ولم يقبله عقله ، أسنده إلى الذى ذكره ، أو قال : زعموا .
(د) الاجتهاد فى عدم ذكر شىء قد سطره أصحاب المصنفات قبله فى ذلك العلم ، ولا يشرح أمراً قد أوردوه وبينوه إلا عند الضرورة ؛ كى لا يبخسهم حقوقهم ، ولا يتهم بالسرقة من تصانيفهم (٨٥) .

(هـ) يذكر المقدسى فى كتابه ما رآه ، ويحكى ما سمعه . فما صح من الروايات بالمعينة وأخبار التواتر ، أرسل به القول (أى : لم يذكر مصدره) ، وما شك فيه من أخبار ، أو رواه من طرق الآحاد ، أسنده إلى راويه . ويلاحظ أنه لم يذكر فى كتابه مصدراً إلا وهو (صدر مشهور ، أو عالم مذكور ، أو سلطان جليل) ، وباستثناء مواضع ذكر فيها موارد ، لا تندرج تحت هؤلاء المذكورين ؛ لضرورة ، أو لورودهم عرضاً خلال إحدى الروايات . ويميز هذا المصدر الأقل مكانة بتسميته رجلاً ذاكراً محله (مكانته) ، ليفرق بينه وبين جلة المذكورين .

أقسام مواردہ :

* لخص لنا المقدسى هذه الأقسام فى عبارة مجملة ، جاء فيها : أن موارد

كتابه على النحو الآتى :

(أ) ما عاينه .

(ب) ما سمعه من الثقات .

(ج) ما وجدته في الكتب المصنفة في هذا الباب . وفي غيره . فما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمها ، ولا تصانيف فرقة إلا تصفحها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ، ولا مذكر وبلد إلا وشهدهم ، حتى استقام له ما ابتغى في هذا الباب (٨٦) .

والآن نتقل إلى الجانب التطبيقي الفعلي لمصادر المقدسي ؛ وهي على النحو الآتي :

(أ) مصادر ذكر عناوينها ، ولم يذكر أسماء مؤلفيها :

(قرأت في أخبار المدينة) (٨٧) ، و (قرأت في أخبار البصرة) (٨٨) ، وهو (قرأت في كتاب الطلسمات) (٨٩) .

(ب) مصادر لم تحدد عناوينها ، ولا أسماء مؤلفيها :

(وجدت في بعض خزائن الخلفاء) (٩٠) ، و (قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة) (٩١) ، و (قرأت في بعض الكتب) (٩٢) .

(ج) مصادر معلومة الاسم ، والمؤلف :

(وجدت في كتاب ابن خردادبه) (٩٣) ، و (قرأت في كتاب ابن خردادبه) (٩٤) ، و (ذكر قدامة بن جعفر الكاتب) (٩٥) ، وأما الدخل ، فقرأت في كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر (٩٦) ، و (قرأت في كتاب ابن الفقيه) (٩٧) .

ملاحظتان :

الأولى : هناك مصدر ، نقل عنه المقدسي ، ولم يذكر اسمه تحديداً ، واكتفى بذكر نسب المؤلف دون اسمه . ومثال ذلك قوله : (وذكر الشمشاطي) (٩٨) . في (تاريخه) (٩٩) .

الثانية : هناك بعض المرويات المصدرة بلفظة (قال) ، لكن الرواية فيها عن أشخاص ، يستحيل على المقدسى النقل المباشر عنهم ؛ مما يدل على أنها منقولة عن مدونات مجهولة العناوين : (قال عبد الله بن عمرو (١٠٠) ، وقال قطرب (١٠١) ، وقال كعب الأحبار (١٠٢) .

(د) مصادر شفوية :

توجد مرويات عديدة - فى كتاب المقدسى - مصدرة بألفاظ ، يغلب على الظن معها ، أنها نقلت شفاهاً . ولعلها دونت فيما بعد . وقد وردت هذه الروايات بأشكال متعددة منها :

- ما صدر بلفظة (سمعت) ، بعدها المورد المذكور :

(سمعت - يوماً - القاضى أبا الحسين القزوينى (١٠٣) ، وسمعت أبا على الحسن بن أبى بكر البناء (١٠٤) ، وسمعت عمى (١٠٥) ، وسمعت خالى عبد الله بن الشوا (١٠٦) .

- ما صدر بلفظة (سمعت) بعدها المصدر غير مذكور تحديداً :

(سمعت بعض العثمانية (١٠٧) ، وسمعت هذه الحكاية من عدة من مشايخ الأندلس (١٠٨) ، وسمعت بعض مشايخ القيروان (١٠٩) .

- ما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها مصدر غير محدد :

(وسألت بعض المصريين بينخارى عن الخراج (١١٠) .

- وما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها غير محدد ، ثم سؤال

أكثر من مصدر محدد :

(وسألت جماعة منهم (أى : من الروم) ، وسألت عريباً الخادم (وكان من أهل العلم والصدق) ، وذكرت قوله لأبى سعيد الجورى ب (نيسابور) (١١١).

- روايات مصدرة بلفظة (أخبرنا) بعدها سلاسل إسناد كاملة ، تنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ (١١٢) ، وروايات أخرى مصدرة بلفظة (حدثنا) بعدها سلاسل إسناد كاملة فى معظمها ، وتنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ (١١٣) .

- الجمع بين مصدر شفهي غير محدد ، وآخر مكتوب غير محدد أيضاً :

(وسمعت بعض العلماء ، وقرأت فى بعض الكتب) (١١٤) .

- وأخيراً ، روايات مجهولة المورد ، مصدرة ببعض الألفاظ ، مثل :

(يزعمون) (١١٥) ، وسمعتهم يزعمون (١١٦) ، و (قالوا) (١١٧) ، و (قيل) (١١٨) ، و (يقال) (١١٩) ، و (يقولون) (١٢٠) ، و (يحكى) (١٢١) ، و (حكى لى) (١٢٢) ، و (زعم) (١٢٣) ، و (حدثت) (١٢٤) ، و (حدثونا) (١٢٥) .

ملاحظات على موارد المقدسى :

(أ) اتضح من النماذج المختارة السابقة تنوع المصادر ، التى استمد منها المقدسى مادته ما بين مصادر مكتوبة ، وشفهية (محددة ، وغير محددة) ، وأخرى مجهولة . وتنوعت الألفاظ المستعملة للتعبير عن النقل من تلك المصادر ، فاستخدم المقدسى (قرأت) فى التعبير عن مطالعة المصادر المكتوبة ، وكذلك (وجدت ، وذكر) . وفى المصادر الشفهية استخدم ألفاظاً ، مثل : سمعت ، وسألت ، وأخبرنا ، وحدثنا . وفى الموارد المجهولة استخدام عدداً من الألفاظ الدالة على الظن والتشكيك ، مثل : يزعمون ، وقيل ويقال .

(ب) بالنسبة للروايات المنقولة عن كتب جغرافيين سابقين ، فما تيسر لى الإطلاع عليه من المطبوع ، قارنت ما فيه من مادة تاريخية بما أورده المقدسى نقلاً عن

هذه الكتب . وقد تبين لي أن المقدسى كان دقيقاً في نقله من كتاب (ابن خرداذبه) ما يتصل بعدد مدن الأندلس الأربعين (١٢٦) ، وكذلك كان دقيقاً فيما يتصل بمقادير خراج (حمص ، والأردن وفلسطين) (١٢٧) . وثبت دقته كذلك في نقله عن (ابن خرداذبه) - أيضاً - ما يتصل بمقدار (خراج اليمن) ، وإن لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه ابن خرداذبه في ذلك (ووجد في ديوان الخراج ، رفع لبعض عمال اليمن) (١٢٨) . ووقفت - أيضاً - على دقة المقدسى في نقله عن (كتاب الخراج) لقدامة بن جعفر ، فيما يخص مقادير خراج (الحرمين واليمن ، واليمامة والبحرين ، وعمان) (١٢٩) .

وتجدر الإشارة إلى أن المقدسى كان يتصرف - أحياناً - في نقله عن المصادر ، فهو عندما اقتبس من كتاب (ابن خرداذبه) قيمة خراج (ولاية اليمن) ، أغفل ذكر تعليق ابن خرداذبه بأن هذا هو أكثر ما ارتفع من خراج في هذه الدولة . ثم إنه عندما ذكر (التقسيم الإدارى لليمن) ، عبر عن (الولاية) بلفظة (أعمال) ، فقال : مقسومة على ثلاثة أعمال (بدلاً من ثلاثة ولاية) . ونقل مختصراً ما قاله ابن خرداذبه ، فأسقط ذكر حجم ومنزلة ولاية من الولايات الثلاث ، فقد قال ابن خرداذبه عنها ما يلى : الجند ومخاليفها (وهى أعظمها) ، وصنعاء ومخاليفها (وهى أوسطها) ، وحضر موت ومخاليفها (وهى أدناها) (١٣٠) .

وقد يبدو المقدسى بجانب الدقة والصواب ، عندما نقل عن كتاب ابن خرداذبه أن خراج قنسرين أربعمائه ألف دينار (١٣١) ؛ لأنه بالعودة إلى كتاب ابن خرداذبه ، ألفينا هذا الرقم خاصاً بخراج قنسرين والعواصم معاً (١٣٢) . وقد ذكر ياقوت في حديثه عن (العواصم) (١٣٣) ، أن البعض يزعم أن (حلب) ليست منها ، والبعض يزعم أنها منها ، ثم استحسن دليل من قال : إن حلب ليست من أعمال (العواصم) أنهم اتفقوا على أنها من أعمال (قنسرين) وهم يقولون : قنسرين

والعواصم ، والشئ لا يعطف على نفسه (١٣٤) . فتكون (قسرين) شيئاً ، و (العواصم) شيئاً آخر ، ويكون المقدسى غير دقيق فيما ذكر . إلا أنه يمكن الرد على ذلك بما ذكره ياقوت نفسه بعد ذلك فى التعريف بـ (قسرين) (١٣٥) ، لما قال : وبعض يدخل قسرين فى العواصم (١٣٦) . فلعل المقدسى من هؤلاء ، فيكون ما نقله عن خراج قسرين معبراً عن خراجها وخراج العواصم معاً ، فيسلم بذلك من المؤاخذه .

وثمة جزئية أخيرة يمكن أن تؤخذ على (المقدسى) بهذا الصدد ، وتتعلق بمقدار دخل مصر ، حيث نقل عن (قدامة) أن هذا الدخل بلغ من العين ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار . وبالعودة إلى كتاب (قدامة) وجدت أن هذا الرقم يختص بـ (مصر ، والإسكندرية) معاً (١٣٧) . والراجع أن المقصود بـ (مصر) مدينة الفسطاط العاصمة الإسلامية لمصر . أما الإسكندرية ، فهى العاصمة القديمة قبل دخول الإسلام مصر ، وكانت تعامل معاملة خاصة فى ظل النظام الإدارى بعد الفتح الإسلامى ، فهى مدينة بارزة من مدن الوجه البحرى ، ولها وال يحكمها ، ودخل تختص به ، بخلاف دخل العاصمة (الفسطاط) (١٣٨) .

(ج) كان المقدسى دقيقاً فى استخدام الألفاظ ، التى تصدر بها روايات كتابه ، فالرويات التى لا يستطيع التحقق من صحتها يستخدم معها ما يدل على ميل إلى عدم الاقتناع بمضمونها ، مثل : يقولون (١٣٩) ، ويزعمون (١٤٠) .

(د) حرصه على ذكر الأسانيد الكاملة للمرويات الحديثة ، وإن لم يتعرض لها بتحديد مدى صحتها من عدمه . وفى الوقت نفسه أتى فى إحدى الروايات ، التى تغلب عليها الأسطورة والخرافة بالإسناد الكامل (١٤١) . وأحياناً كان يروى عن مصدر له صلة غير واضحة بموضوع الرواية (١٤٢) ، وأحياناً يسأل أهل الاختصاص (١٤٣) . ويكرر السؤال نفسه لدى أكثر من مصدر ، واصفاً أحدها بأنه من أهل العلم والصدق (١٤٤) ، وكل ذلك لمزيد من التدقيق والتثبت .

(هـ) وأخيراً ، فإن هذا القسم الخاص بـ (أقاليم العرب) من كتاب (أحسن التقاسيم) به كثير من المعلومات والروايات ، التي لم يذكر المقدسى لها مصدراً ، وهى من الكثرة بحيث يصعب حصرها . ويغلب على الظن أنها من المواضع التي اتفق عليها ، وصحت للمقدسى بالمعينة والتواتر (عل نحو ما ذكر فى منهجه فى ذكر الموارد سابقاً) . وهذا يعنى أن كثيراً من مرويات المقدسى قائمة على (المشاهدة والمعينة) ، وهى ناتجة - ولا شك - عن الرحلات الطويلة التى قام بها لأقاليم الإسلام (١٤٥) . وجولانه فى البلاد (١٤٦) ، وكثرة أسفاره فى البحار والمحيطات (١٤٧) . وهكذا ، فإن المشاهدة تأتى فى المقام الأول بين موارده (١٤٨) . وما لم يطالعه بنفسه ، اعتمد فى معرفته على المصادر المكتوبة ، سؤال أهل العلم (١٤٩) .

٣ - منهجه :

قبل الحديث عن عناصر المنهج التطبيقي ، الذى سلكه المقدسى فى عرض قسم (أقاليم العرب) من كتابه ، نضع أيدينا - أولاً - على الأسس والقواعد النظرية التى أتبعها المقدسى قبل وعند وضع كتابه ، وهى كما يلي :

أولاً : دوافع التأليف : هناك دافع عام رغب المقدسى فى تأليف كتابه ، يشاركه فيه عامة العلماء (١٥٠) ، ودافع خاص يتعلق بالمقدسى . لقد نظر فى العلوم عامة ، فوجد أن الأمور تسير على هذا النحو : علماء لهم قدم السبق والريادة ، يقومون بالتأليف فى البداية ، ثم يأتى آخرون بعدهم ، فينظرون فى مؤلفات الأولين ، فإذا أن يشرحوها ، أو يختصروها أما هو ، فرأى أن يكتب فى علم قد أغفلوه ، وينفرد بفن لم يذكره إلا وعليهم فيه مأخذ ؛ إذ عاجلوا بإخلال . فرأى هو أن يذكر الأقاليم الإسلامية ذكراً شاملاً متكاملأ ، يصف طبيعة الإقليم الجغرافية ، ويصف مدنه المشهورة ، ويذكر الطرق الموصلة إليه ، مع بيان ما فيه من أنشطة بشرية صناعية وتجارية وغيرها ، مع التعرض للغة أهل

الإقليم ، وأشكالهم ، وأزيائهم ، ومطاعمهم وشرابهم ، وصادراتهم ووارداتهم ، ومكاييلهم وأوزانهم ، ونقودهم ، ومذاهبهم ، وغيرها (١٥١) .

ثانياً : مطالعة الكتب السابقة عليه في هذا العلم ، وقراءتها قراءة نقدية . وانتهى - بعد ذلك - إلى اقتناع بأن هؤلاء الذين تقدموه ، جاءت مصنفاتهم مختلة ، واعتمدوا فيها على السماع (١٥٢) . فالجيهاني (١٥٣) صاحب معرفة بالفلسفة والنجوم والفلك . قام بالاعتماد على سؤال الغرباء عن ممالكهم ، ودخلها ، وكيفية الوصول إليها (فلم يعتمد على الرحلة إلى تلك الأقطار) . ومما أخذه عليه المقدسي أنه اهتم بذكر منازل مجهولة ، ومراحل مهجورة ، ولم يفصل ذكر الكور ، ولم يرتب أجنادها ، ولم يصف مدنها ، ولا استوعب ذكرها . وكذلك انتقده المقدسي بالإطالة في الكتاب ؛ نتيجة شرح ما في الطرق من سهول وجبال ، وأودية ، وتلال ، وأنهار ، ثم أغفل أكثر طرق الأجناد (١٥٤) .

* وطالع المقدسي كتاب (أبي زيد البلخي) ، وعاب عليه تركه كثيراً من أمهات المدن ، وعدم الارتحال إلى البلدان والأعمال .

* وأخذ على ابن الفقيه الهمداني عدم ذكره إلا المدن العظمى ، وعدم ترتيبه الكور والأجناد ، وإدخاله في كتابه علوماً ، لا علاقة له بها (زهد في الدنيا ورغبة فيها وحكايات مبكية وأخرى ملهية مضحكة) .

* وأما كتاباً الجاحظ ، وابن خرداذبه ، فذكر أنهما مختصران جداً ، ولا يحصل منهما كثير فائدة (١٥٥) .

* ولا شك في أن المقدسي حاد في نقده ، لكن لا استطيع القطع بأنه كان ناقداً متعسفاً - أحياناً - على السابقين في هذا المجال (١٥٦) . لأن بعض الكتب التي ذكرها في حكم المفقودة .

ثالثاً : القيام بزيارات ميدانية ، ورحلات شخصية مطولة ؛ لجمع مادة كتابه بنفسه عن طريق المشاهدة والمعاينة ، ومخالطة الناس والعلماء في البلاد المختلفة التي

زارها وحضور مجالس علمائها ، وعقد صلات مع بعض الحكام ، وتصفح خزائن الكتب ومطالعة الدفاتر والخرائط (١٥٧) .

رابعاً : أثناء كتابة المقدسى مصنفة راعى تجنب الكذب والطغيان (مجاوزة الحدود والمبالغة) ، والتحرز بالحجج (الإتيان بالأدلة) من الطعان (الطعن والنقد) ، فلم يودعه المجاز والمحال (الخيالات ، والمستحيلات) ، ولم يسمع إلا قول الثقات من الرجال (١٥٨) .

خامساً : وأخيراً التأنى والمراجعة قبل إخراج الكتاب : ذكر المقدسى أنه حرص على استشارة الأئمة والعلماء قبل إخراجه إلى الناس ، فكل أشار به وقبله ، وبعث على إحضاره ومدحه (١٥٩) .

العناصر الإيجابية فى منهج المقدسى التطبيقى :

أولاً : توضيح مفاهيم مختصراته ، ومصطلحاته ، وجغرافية أقاليمه :

* قبل أن يدخل المقدسى فى صلب كتابه ، أوضح مفاهيم عدد من الألفاظ المختصرة التى يستخدمها ، فقال : لا نظير له تعنى : ليس مثل بته . فإن قال : غاية ، فإنها تعنى : غاية فى الجودة . وإن قال : جيد ، فقد يوجد أجود منه (١٦٠) .

* وقد يجمل المقدسى القول ، ويدع شرحه إلى حينه ، مثل قوله : ﴿ ولا أعز من أهل بيت المقدس ﴾ (١٦١) .

ومن مصطلحات المقدسى التى شرح مقصوده منها ما يلى :

البلد : وتشمل - عنده - مصر ، والقصب ، والرساق ، والكورة ، والناحية .

* عند ذكر قصبة فى كورتها ، يذكرها باسمها (مثل : الفسطاط) ، فإذا أوردتها فى موضع آخر ، جعلها باسمها المعروف عند الناس ، فيقول : (مصر) .

المشرق : دولة آل سامان . فإن قال : الشرق ، فإنه يعنى كرمان ، وفارس ، والسند أيضاً .

المغرب : هو الإقليم المعروف . فإن قال : الغرب ، ضم إليه (مصر ، والشام) (١٦٢) .

* وأخيراً ، فإن المقدسى لم يكتف بكل هذه التوضيحات ، وإنما ابتكر لوناً جديداً من التوضيح ، تمثل فى رسم خرائط ملونة لأقاليم كتابه ، فكان يرسم حدودها وخطوطها ، ويميز طرقها المعروفة بالحمرة ، ويشير إلى رمالها الذهبية باللون الأصفر ، ويجعل بحارها المالحة باللون الأخضر ، وأنهارها المعروفة باللون الأزرق ، وجبالها المشهورة بالغبرة . وقد لجأ الرجل إلى ذلك ؛ لتقريب الوصف إلى الأفهام ؛ كى يقف عليه الخاص والعام (١٦٣) . وللأسف ، فإن هذه الخرائط الملونة لم تصل إلينا فى النسخة التى بين أيدينا ، ويبدو أنها سقطت من مخطوطات الكتاب ، لكن عبارات المقدسى تشير إلى وجودها فى كتابه (١٦٤) .

ثانياً : الدقة فى توزيع مادة كتابه :

نلمح تلك الجزئية المنهجية من خلال قراءة كتاب المقدسى ، حيث لا نجد تداخلاً بين معلومات الأقاليم المختلفة . فالرجل يحسن توزيع مادته العلمية ، ويضعها فى مكانها اللائق بها . فمثلاً : عند تناوله (ذكر المذاهب ، وأهل الذمة) فى فصوله الموجودة بـ (مقدمات كتابه) ، قال : واخترت من المذاهب مذهب أبى حنيفة (رحمة الله) ؛ للخلال التى ذكرها فى (إقليم العراق) (١٦٥) . وعند إشارته إلى أتباع المذاهب الكبرى ، قال : قد بينت ذلك فى شرح الأقاليم من هذا الكتاب (١٦٦) . وعندما تناول القراءات ، قال : ومن الحروف مقراً (أبى عمران عبد الله بن عامر اليحصبى) ؛ للمعانى التى أصفها فى إقليم (أقور) (١٦٧) .

ثالثاً : وضوح شخصيته فى كتابه :

هذه جزئية مهمة فى الوقوف على عقل وفكر المقدسى ، ودرجة تفاعله مع المعلومات التى يكتبها ، من حيث القدرة على التعليل ، والاستدلال ، والتعليق ، والنقاش العقلى المدعوم بالأدلة والبراهين . ولا شك فى أن عناصر ثقافة الرجل

الموسوعية تفاعلت معاً ، حتى أفرزت لنا تلك الشخصية الحاضرة المتوقدة فهماً وذكاء ، حتى قال عنه كراتشكوفسكى : تمتع المقدسى بشخصية واضحة للعيان ، حتى من خلال مقدماته ومداخله المطولة بعض الشيء ، إلا أنها لا تخلو من الأصالة عند المقارنة بسابقه (١٦٨) .

١ - التعليل : وقد اتخذ أشكالاً وأنماطاً ، منها : تعليل فى منهج التناول ، فكثيراً ما يعلل طريقته فى عرض كتابه ، فقد حرص أن يودعه شيئاً من الغوامض والمعانى ؛ ليجل (يعظم قدره) ، ويقل (أى : المتهاونون بشأنه) ، وأورد فيه الحجج توثيقاً (زيادة فى التوثيق) ، والحكايات تحقّقاً (أى : من صدق ما يورد) ، والسجع تظرفاً (درءاً للسامة) ، والأخبار تبركاً . وبسط أكثره ؛ ليقف عليه العوام إذا تأملوه . وأوضح الطرق ؛ لأن الحاجة إليها أشد ، وصور الأقاليم ؛ لأن المعرفة بها أروج ، وفصل الكور ؛ لأن ذلك أصوب (١٦٩) .

وتنوعت تعليقات المقدسى بين التوسط والإيجاز . ومن النوع الأول ما ورد عن تخصيص باب مستقل لـ (بادية الشام) ؛ بأن أحداً من أهل الأقاليم لا طريق له إلى مكة فى البر إلا فيها ، ولا غنى عن معرفتها ، كما أن بها طرقاً ومياها قد تجهل ولا تعرف وبها فوائد لا تحصى (١٧٠) . وكذلك تعليله ببدء عرض (أقاليم العرب) بـ (إقليم جزيرة العرب) ؛ لما يتمتع به من وجود بيت الله الحرام ، والمدينة المنورة ، ومقر الخلفاء الراشدين ، والمهاجرين والأنصار ... إلخ (١٧١) .

ومن التعليقات الوجيزة ما قاله عن سبب تركه التعريف بـ (طرسوس ، وأعمالها) ؛ لأنها بيد الروم (١٧٢) . وأيضاً تركه ذكر بعض مدن الإسلام فى الأندلس غالباً ؛ لجهله إياها (١٧٣) . وإعجابه بالبصرة أكثر من بغداد ؛ لرفقها ، وكثرة الصالحين بها (١٧٤) . وسر تسمية (واسط) ، التى اختطها الحجاج ؛ لأنها بين قصبات العراق والأهواز (١٧٥) .

٢ - الاستدلال : دلل المقدسى على انقاص (سعيد بن العاصى) مقدار الصاع ، الذى قرره عمر بن الخطاب فى إقليم (شبه جزيرة العرب) بحضور الصحابة، وبه كان يكفر الإيمان ، فهبط به سعيد من (ثمانية أرتال) إلى (٥^١) من الأرتال . وقد استدل على مجمل عمل سعيد هذا - معتمداً على ثقافته الأدبية - بقول الراجز :

وجاءنا مجموعاً سعيد ينقص فى الصاع ولا يزيد (١٧٦)

٣ - النقاش العقلى المدعوم بالأدلة والبراهين المطولة نوعاً ما :

هذا الملمح المهم إن هو إلا إنعكاس واضح لثقافة المقدسى الفقهية ، وذكائه وتوقد ذهنه ، وكثرة مطالعته ، ومشاهداته مجالس الفقهاء والعلماء ، وما يدور به من مناظرات ومناقشات . ومن أمثلة ذلك :

(أ) استدلاله على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم بشيوع تلك التسمية، وعدم معرفة الناس تسمية (إقليم بابل) ، وهو متمسك بتلك التسمية ؛ لأنه يرى كتابه على المعروف المشهور . ثم قال : بالضبط كمن حلف على ألا يأكل رعوساً ، فأكل من رعوس البقر والغنم ، فإنه يحنث على رأى أبى حنيفة ، خلافاً لما قاله الفقيهان الحنفيان (أبو يوسف ومحمد) . وقد شرح بعض الأئمة من مشايخ القدس ذلك بأنه لا خلاف ، فقد كانت تؤكل الرعوس وتباع زمن أبى حنيفة ، ثم زالت تلك العادة زمان أبى يوسف ومحمد . وأيضاً استدل على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم ، دون (إقليم بابل) بقول أبى بكر لعمر ، عندما سأله إرسال جيوش إلى العراق ، / فبين له أبو بكر أن فتح شبر من الأرض المقدسة (الشام) أحب إليه من رستاق من رساتيق العراق . قال المقدسى : ولم يقل : (من رساتيق بابل) . ويواصل المقدسى نقاشه ، فيحشد مزيداً من البراهين ، فيقول : وأما ما جاء فى آية : « وما أنزل على الملكين ببابل » (١٧٧) ، فيجوز أن يتناول ذلك الإقليم والمدينة جميعاً ، ووقوعه على المدينة مجمع عليه ، لكن إطلاق اسم (بابل) على (الإقليم) مختلف فيه ، فمن أطلقه على الإقليم ككل ، فعليه وجب الدليل (١٧٨) .

(ب) الأدلة الكثيرة التي ساقها المقدسى ؛ دفاعاً عن إتباعه مذهب أبى حنيفة الفقهى ، والتي منها : اعتماد ذلك المذهب على أقوال وفتاوى الإمام على عليه السلام ، وقدم ذلك المذهب ، واقترابه من عهد الصحابة ، وصوابه عما سواه من المذاهب الفقهية الأخرى . ولا حجة لمن طعن على أبى حنيفة ومذهبه ، فقد سبق أن طعن الطاعنون على الخلفاء الراشدين (١٧٩) .

٤ - التعليق :

اتخذ تعليق المقدسى على بعض الأخبار الواردة فى كتابه عدة صور على النحو الآتى :

(أ) تعليق على فضائل الأمصار : دخل عبد الرحمن بن أخى الأصمعى على الجاحظ ، فقال : افدنى فى البلدان فائدة . فذكر له ميزات عشرة أمصار ، ومن ذلك قوله : (الصنعة بالبصرة ، والمروءة ببغداد ، والتجارة بمصر) .

فعلق المقدسى : وقد صدق لعمري . ثم استدرك قائلاً : إلا أن بنيسابور - أيضاً - صناعاً حذاقاً ، وبالبصرة تجارات ، وبمكة فصاحة ، وبيت المقدس حسنة البناء ... إلخ (١٨٠) .

(ب) تعليق على رواية بها معلومة اقتصادية : لقد تساءل المقدسى دهشاً ، لما قرأ عند ابن خرداذبه أن خراج اليمن ستمائة ألف دينار ، إذ قال : فلا أدري ما أراد بذلك ، ولم أر ذلك فى كتاب (الخراج) ، بل المعروف أن جزيرة العرب عشيرة (١٨١) . وهذا يعنى أنه مر فى تعليقه - أولاً : بمحاولة تفهم النص الاقتصادى الوارد ، ثم شكك فى صحته ؛ لعدم مطالعته إياه فى كتاب (الخراج)، الذى أرجح أنه كتاب (قدامة بن جعفر) ؛ لاحتوائه على قوائم الخراج فى أقاليم الدولة الإسلامية ، ثم بين أن الغالب عدم تصديق النص ؛ لأن أرض الجزيرة يؤخذ من أهلها الزكاة ؛ إذ لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان . فكأن المقدسى يتحفظ على النص ، ويميل إلى رفضه بطريقة غير مباشرة .

(ج) تعليق على نص به معلومة عن إحدى الفرق المنحرفة : قرأ المقدسى فى كتاب صنفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور : أن بالمغرب سبعمائة خانقاه (رباط الصوفية) لهم . فعلق قائلاً : لا ، والله ولا واحدة (١٨٢) .

(د) تعليق فقهى على حادثة تاريخية : ذكر المقدسى أن المنصور العباسى لما حج ، رأى ضيق المسجد الحرام هناك فأراد شراء ما حوله من الدور ، وزيادتها فيه مع تفخيمه ، فعرض على اصحاب الدور أموالاً جمّة ، لكن رفضوا البيع . وقد علم أبو حنيفة بحيرة الخليفة ، ولم يكن اشتهر فقهه بعد ، فلقى المنصور وعرض عليه أن يسأل هؤلاء الناس : هل الكعبة نزلت عليهم أم العكس ؟ فلما ذكروا أنهم حلوا بها ، قال : ردوا فناءها ، فقد كثر زوارها ، واحتاجت إليه . فرضى الناس بالبيع . ثم علق المقدسى قائلاً : وهذه الحكاية تقوى إحدى الروايتين عن أبى حنيفة فى كراهية بيع دور مكة وأخذ أجورها ، إلا على تأويل (١٨٣) .

٥ - آراء نقدية يديها :

(أ) رأيه فى سر رخاء العراق : قال المقدسى : (واعلم أن العراق ليس ببلد رخاء ولكن جل وعمر بهذين النهرين ، وما يحمل فيهما ، وبيحر الصين المجاور له (١٨٤) . فهو يضع يده على عوامل ثراء ورخاء العراق عن طريق ما حباه (الله عز وجل) من عوامل الخصب والرخاء والتجارة (وجود نهري دجلة ، والفرات ، والمحيط الهندي) .

(ب) رفضه اتهام الأمويين بالجنين أمام أعدائهم : حيث ذكر أبياتاً لمن يهجو الأمويين فعلق على واحد منها يقول :

أسد على الجيران أعداؤهم آمنة تخطر فى دارهم .

علق المقدسى قائلاً : وكذب فى هذا البيت ؛ لأن الأعداء - أبداً -

يخافونهم (١٨٥) .

(ج) نقده كثرة إنفاق الوليد بن عبد الملك على بناء جامع دمشق ، إذ قال لعمه يوماً : يا عم ، لم يحسن الوليد ، حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو أنفق ذلك فى عمارة الطرق والمصانع ، وترميم الحصون ، لكان أصوب وأفضل . فرد عمه عليه قائلاً : لقد وفق الوليد فيما فعل ؛ لأنه رأى الشام بها النصارى ، ولهم فيها بيع حسنة مزخرفة انتشر ذكرها ، مثل : كنيسة القيامة ، وبيعة الرها . فأراد أن يشغل المسلمين عن ذلك بالمسجد ، وجعله أحد عجائب الدنيا . وقد فعل والده (عبد الملك بن مروان) ذلك ، لما رأى عظم قبة القمامة ، فخشى أن تعظم فى قلوب المسلمين ، فنصب على الصخرة قبة (١٨٦) .

٦ - القدرة على الاختيار والترجيح :

(أ) من المواضع إلى برزت للمقدسى فيها هذه القدرة ذكره خبراً مرفوعاً إلى النبی ﷺ عند حديثه العام عن المذاهب فى (أقاليم العرب) - فيه أن الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين فرقة ؛ اثنتين وسبعين فى الجنة ، وواحدة فى النار . وذكر أن بقية الأئمة يحتجون بخبر آخر فيه (اثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة ناجية) (١٨٧) . فالمصيب من وافق الحق ، وهم صنف واحد . ثم قال المقدسى : وهذا أشهر إلا أن الأول أصح إسناداً ، والله أعلم . فإن صح الأول ، فالهالكة هم الباطنية ، وإن صح الثانى فالناجية السواد الأعظم (١٨٨) .

(ب) وثمة نموذج آخر : جعل المقدسى الأمصار - فى كتابه - كالمملوك ، والقصبات كالحجاب ، والمدن كالجند ، والقرى كالرجالة . ثم أراد تعريف الـ (مصر) ، فذكر قول الفقهاء : هو كل بلد جامع يقام فيه الحدود (مثل : نابلس) . وبه أمير لإدارته ، يجمع ضرائبه ، وينفق عليه . ثم ذكر تعريف فى اللغة : هو كل ما حجز بين جهتين (مثل : البصرة ، والركة) . ثم أورد تعريفه لدى العوام : كل بلد كبير جليل (مثل : الرى والموصل ، والرملة) . ثم اختار لنفسه تعريفاً ، قال فيه : وأما نحن فجعلنا الـ (مصر) كل بلد حله السلطان الأعظم ، وجمعت

له الدواوين ، وقلدت منه الأعمال ، وأضيفت إليه مدن الإقليم (مثل : دمشق ، والقيروان) (١٨٩) .

العناصر السلبية فى منهج المقدسى التطبيقى :

(أ) التكرار ، وضعف التنسيق والترابط :

رغم إحكام المقدسى تنظيم مادته ، وإحسانه توزيعها على أماكنها المناسبة ، إلا أنه وقع - أحياناً - فى خطأ التكرار ، الذى أفضى إلى الإحساس بضعف التنسيق والترابط والتسلسل فى عرض مادته . ومن أمثلة ذلك : تكراره الحديث عن أهداف تأليف كتابه فى أكثر من موضع (١٩٠) . ، رغم أن ذلك يكتفى بذكره فى المقدمة فحسب ، وكذلك تكراره ذكر منهجه النظرى الذى ارتضاه لنفسه عند جمع مادته من مصادرها ، والذى سيسير عليه فى تأليف كتابه (١٩١) ، وأخيراً تكراره نقد كتب السابقين عليه فى مجال التصنيف الجغرافى (١٩٢) .

(ب) التطويل ، والاستطراد :

على الرغم من توخى المقدسى الإيجاز فى كتابه ، ونصه على ذلك فى بعض المواطن وخوفه الإطالة ؛ كراهية الملal (١٩٣) ، إلا أنه حتى فى بعض المواضع التى توقف فيها عن مواصلة السرد ، فعل ذلك بعد أن أطال إلى حد ما فعلاً (١٩٤) . وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإن المقدسى أطال بعض الشئ فى محتويات (مقدمات كتابه) (١٩٥) . رغم أهميتها إلا أنه كان يمكنه تجميعها وتركيزها ، وعرضها على نحو مختصر منظم . ويلاحظ أنه بينما نجد الإطالة فى بعض المواضع ، فإننا نشكو ندرة وشحاً فى ذكر الشخصيات العلمية المنسوبة إلى بعض الأقاليم الجغرافية . والتعريف الوافى بها (١٩٦) ؛ مما دفع أحد الجغرافيين اللاحقين لسد هذا النقص فيما بعد ، ألا وهو (ياقوت الحموى) فى كتابه (معجم البلدان) .

وبالنسبة للاستطراد فأرى أن سيل المعلومات الفقهيّة لدى المقدسى دفعه للوقوع - أحياناً فى عيب (الاستطراد) . ونلاحظ ذلك عند الحديث عن

(الجحفة) ميقات أهل الشام فقد استطرد في ذكر بقية مواقيت أهل الأمصار الأخرى ، وذكر الروايات الواردة في ذلك . ثم انتهز الفرصة ، فاستطرد متحدثاً عن مناسك الحج (فرائض ، وواجبات ، وستنا) . وبعد أن استطرد ، آب إلى نفسه قائلاً : نرجع - الآن - إلى وصف مدائن هذه الكورة ونواحيها (١٩٧) . (يقصد كورة الحجاز) ؛ لأنه قسم شبه الجزيرة إلى أربع كور : الحجاز ، واليمن ، وعمان ، وهجر (١٩٨) . وكذلك أفاض - قبل ذلك الموضع بعض الشيء - في ذكر مدن كور إقليم (شبه الجزيرة) ، ثم قال : الآن نرجع إلى وصف ما أمكن من بلدان الكور ، وندع ما لا فائدة فيه (١٩٩) .

(ج) مجانية الحياد والموضوعية ، والوقوع في التناقض والغموض :

مما يحسب للمقدسى في كتابه أنه أعطانا صورة شاملة متكاملة في دراسة جيدة متميزة لأقاليم العرب ؛ إلا أنه جانبه التوفيق ، وتجاوز الحياد الواجب ، وظهر منه شيء من التحيز نحو العلماء عامة والفقهاء منهم خاصة . وخير مثال على ذلك قوله : (وكل ما نذكر من عيوب أهل البلدان فأهل العلم والأدب عنه بمعزل ، خاصة الفقهاء ؛ لأنى رأيت الفضل فيهم) (٢٠٠) . وواضح أن الرجل - هنا - يلجأ إلى تعميم الأحكام ، وهذا يبعده عن الموضوعية ؛ إذ إن لكل قاعدة شواذ ، فلا نستطيع تبرئة كل المنتسبين إلى العلم والفقهاء من العيوب والمذمات . وكذلك يؤخذ عليه كثرة استخدام صيغة (أفعل التفضيل) في مجال المدح (٢٠١) ، واستخدامها بعيداً عن التفصيل - في مجال الذم (٢٠٢) ، مما كان الأولى الاحتراز منه . وثمة نماذج أخرى : نأى الرجل فيها عن (الموضوعية) ، وذلك عندما خصص فقرة تقريباً عن عجائب كل إقليم شرح لنا جغرافيته . يلاحظ أنه لم يذكر أسانيد بعض تلك المرويات المتصلة بهذه العجائب ؛ اعتماداً على اشتهارها وذيوع الحديث عنها في الأقاليم التي زارها . وبالنظر إلى مجموع هذه العجائب نجدها كثيرة ، وكنا نود أن يتحقق من مدى صدقها ، وألا يترك واحدة منها غفلاً من التعليق . ومن تلك العجائب ما ورد في (إقليم أقور) عن دير الكلب الموجود

بأرض الموصل ، حيث يحمل إليه من عضه كلب عقور ، فيقيم خمسين يوماً عند رهبانه ، فيبرأ ، بإذن الله تعالى (٢٠٣) . وكذلك عين الماء التى من شرب منها مات بعد ثلاثة أيام (٢٠٤) . وأيضاً منارة الإسكندرية التى يقال : إنها من عمل الأنبياء ، وكان الناظر فيها يصير مراكب العدو ، فيخير أمير البلد بذلك ، ثم احتال الروم ، فذهبوا بها ، أو كسروها (٢٠٥) .

ويعلق د. حسين مؤنس (٢٠٦) على ورود تلك العجائب ، وأخبار المستبعدات وأوصافها فى الكتب ، بأن ذلك راجع إلى ولع أصحابها آنذاك بذكرها ، وسذاجة فى تصوراتهم ؛ إذ يسارعون فى تصديق ما يسمعون ، ويبالغون فى تصوير ما يجاوز المعقول ، رغم أنهم لدينا من أهل الثقة والصدق ، ويؤكدون أنهم رأوا وشاهدوا ما يصفون . وذلك كله نابع من إحساس غير صادق ولا دقيق لديهم ؛ رغبة فى تشويق السامعين ، ولفت انتباه المتلقين عن نيه حسنة ورغبة ساذجة فى المتعة والتسلية . والحق أن ذلك التفسير عام ، ويغلب على ظنى أنه لا ينطبق على المقدسى تمام الانطباق ، فلم يكن الرجل يمثل هذه السذاجة ، ثم إنه ينقل لنا ما شاع وذاع فى البلد الذى يتحدث عنه ، أو ما طالعه فى بعض الكتب ذاكرةً رأيه أحياناً بالموافقة (٢٠٧) ، أو المخالفة (٢٠٨) . وأخيراً فإننى أرى أن هناك حلقة مفقودة فى مثل روايات العجائب السابقة ، فمثلاً : من عضه كلب عقور ، لعل ذهابه إلى هذا الدير كان للاستشفاء على يد بعض الرهبان الأطباء طيلة الفترة المذكورة . وقد يكون الماء الذى يموت منه شارب مسموماً ، أودى بحياة بعض شاربيه بعد فترة قصيرة ، فشاع بين الناس خبره . وقد تكون منارة الإسكندرية اخترعت وفق نظام هندسى معين - والإسكندرية مشهورة بعلمائها منذ القديم - بحيث تؤدي الغرض الدفاعى منها . إذا هناك تفسيرات لم ينقب المصنفون عنها ، مكتفين بما سمعوا ، أو قرأوا ، ولعلهم لو دققوا البحث ، واستقصوا الظاهرة ، لتوصلوا إلى نتائج طيبة .

وأخيراً ، فإن المقدسى كان - أحياناً - يأتى بالشىء ، ثم يذكر نقيضه بعد قليل ، فيوقعنا بين أمرين : إما أننا لم نفهم مراده حق الفهم ، فتهم أنفسنا

بالقصور ونتممه بالغموض ، وإما أنه لم يتقح هذا الجزء جيداً ، فأتى على هذا النحو من التضارب والتناقض (كما هو الحال في حديثه عن أهل حمص (٢٠٩) ، وبلدة بيت المقدس (٢١٠) .

٤ - المادة التاريخية : عرض ، وتحليل :

أحاول - خلال الصفحات التالية - رصد المادة التاريخية التقليدية (الأحداث السياسية خاصة) ، التي أوردها في القسم الأول من كتابه : (أحسن التقاسيم) ، فأقوم بعرضها ، والتعليق على ما يتيسر لي منها . ثم بعدها أذكر بمجمل المادة التاريخية غير التقليدية الموجودة في القسم نفسه (بجوانبها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، إلى جانب ملمح من ملامح العلاقات الدولية) ، باعتبارها مادة جديدة وغزيرة ، يصعب رصد كافة جزئياتها ، أو الحكم عليها ، وإنما ثبت بها مع سابقتها . أن (أحسن التقاسيم) - في شقه الأول - يعد - بحق - مصدراً من مصادر (تاريخ العرب) ؛ إذ يجد فيه الباحثون مادة جديدة في مصدر غير تقليدي (جغرافي في الأساس) ، تعينهم على كتابة تواريخ أقاليم العرب بصورة شاملة متكاملة ما أمكن ، وتسد بعض النقص في مصادر التاريخ المعروفة .

أولاً : المادة التاريخية التقليدية :

(أ) حادثة ضرب الحجاج الكعبة بالمنجنيق : ساق المقدسي ذلك الحدث ، وهو يتحدث عن (إقليم شبه الجزيرة) ، وبالتحديد عند تناوله (مكة) ، وأشار إلى إدخال ابن الزبير - قبلها - عشرة من مشايخ الصحابة ، حتى سمعوا من عائشة ما روته عن الرسول ، من أن (الحجر) جزء من (البيت) ، وأن قريشاً لم تدخله في بنائه ؛ لقصور النفقة عن ذلك ، وأن الرسول ﷺ كان يرغب في إعادة بناء الكعبة ، وإدخال الحجر فيها لولا أنهم حديثو عهد بالجاهلية . ومن هنا فإن ابن الزبير أصر على تنفيذ ما كان يتطلع إليه الرسول ، وقد اجتمع الناس وخشوا عاقبة الإقدام على ذلك ؛ خشية أن يحل

بهم العذاب ، لكن ابن الزبير أعاد بناءها على ما حكى عائشة ، وكان فى ذلك الخير وسكن الناس .

فلما قدم الحجاج ، تحصن ابن الزبير بالكعبة ، فأمر الحجاج بوضع المنجنيق على (جبل أبى قبيس) بمكة ، وقال : أرموا الزيادة التى ابتدعها هذا ، فرموا موضع الخطيم ، وتم إخراج ابن الزبير بعد قتله ، فصلب . وأعاد الحجاج الحائط ، كما كان قديماً ، وأخذ بقية الأحجار ، فسد بها الباب الغربى ، ورصف بقيتها فى البيت ؛ كى لا تضيع (٢١١) .

(ب) فى حديثه عن (المدينة) ذكر (جبل أحد) ، وبين أن به موضعاً ، اختبأ فيه النبى ﷺ ، باعتباره أقرب الجبال إلى المدينة (٢١٢) .

(ج) فى (إقليم شبه الجزيرة) ، وعند تناوله مدينة (صحار) ، قال المقدسى : هى قصبة عمان . ثم قال : بها مسجد صحار على نصف فرسخ . ثم (هناك) بركت ناقة الرسول وقد بنى المسجد أحسن بناء (٢١٣) .

(د) الأحساء : قصبة هجر (البحرين) . بها مستقر القرامطة من آل أبى سعيد . ثم نظر وعدل ، غير أن الجامع معطل . وبالقرب خزانة المهدي ، وخزائن أخرى أيضاً ، فبعض الأموال بتلك ، بوقيته فى خزائهم (٢١٤) .

(هـ) أهم حكام شبه الجزيرة : هى أبداً لصاحب مصر ، لأجل الميرة . واليمن . لآل زياد ، وأصلهم من (همدان) . وعلى صنعاء أمير غير أن ابن زياد يحمل إليه أموالاً ؛ لينخطب له . وربما أخرجت عدن عن أيديهم . وآل قحطان فى (الجبال) ، وهم أقدم ملوك اليمن . والعلوية على (صعدة) ينخطبون لآل زياد . وعمان للديلم ، وهجر للقرامطة ، وعلى (الأحقاف) أمير منهم (٢١٥) .

(و) فى إقليم العراق : قال المقدسى : هى مستقر خلفاء ولد العباس ، وظل الأمر أمرهم حتى ضعفوا ، وغلب عليهم الديلم . والآن لا يرون ، ولا

يلتفت إلى رأيهم . ثم ذكر خلفاء العباسيين ، وبداية ونهاية حكم كل منهم ، ومكان وفاة بعضهم ، وعدداً كبيراً من قضاتهم . ووصل في الخلفاء حتى (الطائع لله) . ثم قال : وأول من استولى من الديلم : أبو الحسن ابن بويه ، ثم ابنه (بمختيار) ، ثم عضد الدولة ، ثم ابنه بلكارزار ، ثم ابنه الأكبر (أبو الفوارس) (٢١٦) .

(ز) وفي (إقليم الشام) : اكتفى بقوله : والولايات لصاحب مصر ، وقد كان سيف الدولة غلب على أعلاه (٢١٧) .

(ح) وفي إقليم (مصر) قال : وأما الولايات ، فللفاطمي (٢١٨) .

(ط) وفي إقليم (المغرب) قال المقدسي : وأما الولايات ، فلم يخطب لغير بني أمية بالأندلس قط .

وأما السوس الأقصى ، فأول من غلب هناك (إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب) ، وذلك أن إدريس أفلت من وقعة من وقعة العباسيين بالطالبيين بـ (فخ) في خلافة الهادي ، وأتى إلى مصر فساعده صاحب بريدها (واضح مولى المنصور) الشيعي ، فحمله على البريد إلى المغرب بـ (طنجة) ، فاستجيب لدعوته هناك . وقام الرشيد في خلافته بضرب عنق (واضح) ، وصلبه . ثم دس إلى إدريس رجلاً ، يدعى الشماخ (مولى المهدي) ، وكتب له كتاباً إلى عامله (إبراهيم بن الأغلب) على إفريقية ، فخرج حتى وصل إلى (زويلة) ، وأعلمهم أنه طيب ، وأنه من أوليائهم . فاطمأن إليه إدريس ، ثم شكاه له علة في أسنانه فأعطاه ما يستن به مسموماً ليلاً ، وأمره باستخدمه عند الفجر . فقتل إدريس ، ولم يلحق بالشماخ ، فولاه الرشيد بريد متصرف (٢١٩) .

*** ملاحظات على ما تيسر من المادة التاريخية التقليدية السابقة :**

١ - المعلومات الواردة مختصرة وسريعة ، فهي لم تقصد لذاتها ، وإنما أتت عرضاً أثناء دراسة الأقاليم الجغرافية الشاملة ، فرأى المقدسى أن يتحدث عن حكام كل إقليم بسرعة ولذلك فهي ليست تاريخاً مفصلاً ، لكنها كتابات طالت شيئاً ما عند خلفاء العباسيين بالعراق ، بينما تضاءلت جداً عند تناول إقليمى (الشام ، ومصر) ، وكأنه اكتفى فيهما بالإشارة إلى القوى التى حكمتها مؤخراً . بينما أتى حديث المقدسى عن حكام (شبه الجزيرة) خالياً من ذكر مواقيت ولاياتهم مقتضياً . وبخصوص المغرب فقد عاد إلى بدايات حكم الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وأشار إلى سيطرة بنى أمية على الأندلس .

٢ - بعض المعلومات التاريخية الواردة تلقى ظلالاً جديدة على بعض الأحداث ، فالحجاج لم يهدم الكعبة ويضربها بالمنجنيق لذات الهدم والتخريب ، وإنما فعل ما فعل لإزالة ما أحدثه عبد الله بن الزبير من تعديل على بنيانها ؛ نكاية فى خصمه اللدود . ولا شك فى أن الحجاج كان يهدف من الضرب - ايضاً - إجبار ابن الزبير على الاستسلام . وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى : أن الحجاج نصب المنجنيق على (ابى قبيس) ؛ ليضرب ابن الزبير ، وأهل المسجد المتحصنين بالكعبة ، فناها شر حتى مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م (٢٢٠) . ويتفق الطبرى مع هذا القول ، وتزيدنا روايته أن الحصار دام سبعة شهور ، وأن الرعد والبرق أصاباً مكة وبعض جند الشام مع الحجاج ، عندما سلط المنجنيق على الكعبة ، لكن الحجاج طمأن جنده بأن ما اصابهم يصيب عدوهم كذلك : فواصلوا الضرب (٢٢١) .

ويذكر لنا ابن كثير أن حجارة المنجنيق سقطت فى الكعبة ، وأن ابن الزبير قتل فى المسجد الحرام ، ودخلت جيوش الحجاج من أبواب المسجد (٢٢٢) .

ويضيف الطبرى قائلاً : إن الحجاج نقض بنيان الكعبة ، الذى كان بناه ابن الزبير ، لما أدخل الحجر فى الكعبة ، وجعل لها بايين ، فأعادها الحجاج إلى بنائها الأول سنة ٧٤هـ / ٦٩٣م (٢٢٣) .

٣ - بعض المعلومات المذكورة مخالف للمعروف المتواتر ، فناقرة رسول الله لم تترك قرب مسجد صحار بعمان وإنما بركت بالمدينة عند دار بنى مالك بن النجار ، وذلك فى مكان مربد لغلامين يتيمن من بنى النجار (٢٢٤) . وكذلك لم يؤثر أن الرسول ﷺ اختبأ فى جبل أحد ، وإنما كان الجبل فى ظهر جيش المسلمين ، ووضع الرسول عليه الرماة ؛ حماية لظهورهم من خيل عدوهم (٢٢٥) . وبخصوص كلام المقدسى عن (القرامطة) ، فمن الواضح الربط بينهم وبين الفاطميين ، لكن غير المفهوم أن يذكر المقدسى أن دولتهم بالبحرين كان بها نظير وعدل ، ولا أدرى كيف يتأتى ذلك وأحكام الشرع معطلة ، وانحرافاتهم على أشدها ، وقد قال المقدسى نفسه : إن الجامع هناك معطل ؟!

٤ - بالنسبة لفرار إدريس إلى مصر ، فقد ذكر المقدسى إن إدريس نزل على واضح (مولى المنصور) ، الذى سهل له مهمة الانتقال إلى المغرب . وبالعودة إلى (تاريخ الطبرى) (٢٢٦) . تبين أن (واضحاً) هذا هو (مولى صالح ابن المنصور) ، وأنه كان رافضياً خبيثاً . وقد قال بنسب (واضح) السابق ابن عذارى أيضاً (٢٢٧) ، خلافاً لما قاله المقدسى . ويلاحظ أن المقدسى ذكر أن واضحاً حمل إدريس على البريد حتى نزل به (زويلة) بالمغرب . والصواب ما ذكره الطبرى (٢٢٨) ، وابن عذارى (٢٢٩) : أنه نزل (ليلة) (٢٣٠) . وقد ذكر المقدسى أن الشماخ كوفىء بتوليته بريد مصر ، وهى معلومة صحيحة ، وردت لدى الطبرى (٢٣١) من قبل ، وابن عذارى من بعد (٢٣٢) .

٥ - إذا ألقينا نظرة فاحصة على المادة التاريخية ، التى أوردها المقدسى عن (الخلافة العباسية) ، والحكام الديلم (البويهيين) ؛ فإننا نخرج بعدة ملاحظات على النحو الآتى :

(أ) ورد نسب الخليفة العباسى السفاح فى كتاب المقدسى هكذا : (عبد الله بن محمد بن على بن العباس) (٢٣٣) . وبالعودة إلى الطبرى ، وجدت أن الصواب كالآتى : (عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس) (٢٣٤) .

(ب) أسقط المقدسى الخليفة (المهتدى) ، فلم يذكره ، رغم أنه ولى الخلافة بين (المعتز والمعتد) (٢٣٥) ، من شهر رجب سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ، حتى عزل وتوفى فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م (٢٣٦) . ومن قبل لم يذكر خلافة (الأمين ١٩٣ - ١٩٨هـ / ٨٠٨ - ٨١٣م ، واكتفى بالإشارة إلى خروج أخيه المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) عليه ، وقتله إياه (٢٣٧).

(ج) وقع خلل فى نسبة بعض الخلفاء لمن قبلهم : فمثلاً : قال المقدسى بعد مقتل المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨هـ / ٨٦١ - ٨٦٢م) : فبويع لابنه أبى العباس أحمد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م) (٢٣٨) . والصواب : فبويع لعمه (أحمد بن المعتصم) ؛ لأن الأثر - بعد مقتل المتوكل ، وابنه المنتصر على أيديهم - خشوا أن يلى أحد أبناء المتوكل ، فلا تبقى لهم باقية ، فولوا ابن أستاذهم (أحمد بن المعتصم) (٢٣٩) .

وأيضاً وقع خلط عندما قال المقدسى بعد وفاة المعتد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢م) :

ثم بويع لابنه أبى العباس (أحمد بن أبى أحمد المعتضد) (٢٤٠) . والصواب : بويع لابن أخيه الموفق : فالموفق يكنى أبا أحمد ، والذى ولى هو ابنه أبو العباس (٢٤١) .

وكذلك وقع خطأ فى قول المقدسى بعد وفاة المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥هـ / ٩٠١ - ٩٠٧م) ، حين قال : ثم بويع ابنه (أبو الفضل جعفر المقتدر بالله ٢٩٥ - ٣٢٠هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢م) (٢٤٢) . والصواب : ثم بويع أخوه (جعفر بن المعتضد بالله) (٢٤٣) ؛ لأن المقتدر والمكتفى أخوان ، فهما ابنا الخليفة (المعتضد) .

(د) بالنسبة لذكر الخلفاء العباسيين : فإننا نلاحظ عدم ذكر قضاة (الأمين، والمهتدي) ، فهماً لم يذكر أصلاً ، ومن ثم لم يشر المقدسي لقضاتهما ، وكذلك لم يشر إلى قضاة الخلفاء : القاهر ٣٢٠ - ٣٢٢ هـ / ٩٣٢ - ٩٣٣ م ، والراضي ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٣ - ٩٤٠ م ، والمتقى ٣٢٩ - ٣٣٣ هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤ م. وأيضاً الخليفة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ / ٩٤٥ - ٩٧٣ م) (٢٤٤) .

وجدير بالذكر أن المقدسي كان يذكر أكثر من قاض في عهد الخليفة الواحد عند تعددهم ، لكنني أرصد الملاحظات الآتية :

١ - أن الاسم الصحيح لجدا قاضي المهدي (محمد بن عبد الله بن علاقة) هو (علاقة) (٢٤٥) .

٢ - أن أبا يوسف (يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ١١٣ - ١٨٣ هـ / ٧٣١ - ٧٩٨ م) قاضي القضاة المشهور لم يكن أحد قاضين ولاهما الخليفة الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م) فقط (٢٤٦) ، وإنما الصحيح : أنه ولي القضاء لثلاثة من خلفاء بني العباس (المهدي ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥ هـ ، والهادي ، والرشيد ١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م) (٢٤٧) .

٣ - أن ابن أبي الشوارب (الحسن بن محمد بن أبي الشوارب) كان قاضياً للمعتز ، كما ذكر المقدسي ، لكن الأخير عاد وجعله قاضياً للمعتد (٢٤٨) . وقد وجدت لدى الطبري أن هذا الرجل حبس أواخر عهد المهتدي ، وولى مكانه (عبد الرحمن بن نائل البصري) قضاء سامرا (٢٤٩) .

ثم وجدت له ذكراً ثانياً سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م أيام (المعتد) عند إعطائه نسخه من كتابه ولاية العهد ؛ ليقوم بتعليقه في الكعبة (٢٥٠) . فلعله أعيد للقضاء ثانية . وعلى كل فقد وافته المنية في العام نفسه (٢٥١) .

(هـ) وأخيراً ، فبالنسبة لحكام الديلم ، الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين

إبان ضعفهم فلي عدة ملاحظات هي :

١ - ذكر المقدسى أن أول من استولى من الديلم (أبو الحسن بن بويه ، ثم ابنه (بختيار) . والصواب : أول من استولى من الديلم (البويهيين) على العراق هو أبو الحسين بن بويه (٢٥٢) ؛ حتى يصح أن يكون الحاكم بعده ابنه (بختيار) المذكور (٢٥٣) .

٢ - ما ذكره المقدسى عن ولاية (عضد الدولة) (٢٥٤) حكم العراق بعد (بختيار) صحيح . أما ابن عضد الدولة (بلكارزار) هذا ، الذى ولى بعد أبيه ، فلم أقف عليه فيما تحت يدى من مصادر .

٣ - وبخصوص أبي الفوارس (الابن الأكبر لعضد الدولة) ، فاعتقد أنه هو الذى أشار إليه ابن الأثير ، وقال : هو شرف الدولة أبو الفوارس شيرزىل بن عضد الدولة . ولى العراق سنتين ، وثمانية أشهر ، وأياماً ، وتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ (٢٥٥) .

ثانياً : مجمل المادة التاريخية غير التقليدية :

بعد أن استعرضنا المادة التاريخية الواردة فى القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، وكانت تتعلق - فى غالبها - بالجانب السياسى ، ننتقل إلى أبرز معالم المادة التاريخية غير التقليدية ، التى يمكن أن تخدم الباحثين فى مجال التاريخ وهى على النحو الآتى :

١ - فى المجال الاقتصادى : اهتم المقدسى برصد العديد من المظاهر الاقتصادية فى (أقاليم بلاد العرب) كما يلى :

(أ) فى مجال الزراعة : اهتم الرجل بالحديث عن الكثير من النواحي المرتبطة بالمجال الزراعى ، مثل : ذكر الأنهار لموجودة فى الأقاليم الجغرافية ، التى قام بالتعريف بها والتى تروى الأراضى الزراعية عن طريقها ، وكذلك طرق الرى المستخدمة كالسدود المقامة على بعض الأنهار (٣٥٦) ، والاستفادة من ظاهرة المد والجزر (٣٥٧) . وأشار - أيضاً - إلى مصادر الرى الأخرى ، مثل : الآبار العذبة ،

والعيون ، والبرك العظيمة ، والقنوات (٣٥٨) . ولم يفت المقدسى الاهتمام بالإشارة إلى المقاييس المقامة على الأنهار (٣٥٩) ، باعتبارها خطوة مهمة متقدمة ، تبرز مدى الاهتمام بكمية المياه الواردة إلى الأنهار الكبيرة ، لتوسيع الرقعة الزراعية التى يمكن استغلالها ، وتحقيق عدالة توزيع المياه بين الناس ، وتجنب حدوث الكوارث بالاحتياط لها (٢٦٠) . وأخيراً ، تناول المقدسى بالذكر المحاصيل الزراعية التى تجود زراعتها فى أقاليم العرب المختلفة من حبوب ، وبقول ، وخضراوات ، وفواكه على مختلف أنواعها ، ذاكراً ما تشتهر به المدن المختلفة ، والظروف المناخية ووسائل الري الملائمة لذلك (٢٦١) .

(ب) فى مجال الثروة الحيوانية : أورد المقدسى بعض المعلومات المتصلة بالنشاط السكانى فى أقاليم العرب ، فذكر الخيول ، والأغنام ، والأنعام ، والأسماك ، وبعض أنواع الطيور (٢٦٢) ، إلى جانب الإشارة إلى بعض التماسيح الموجودة فى بعض المناطق (٢٦٣) .

(ج) فى مجال الصناعة : أطلع المقدسى على عدد من الثروات المعدنية التى تحويها أقاليم العرب ، مثل : الذهب والحديد والفضة ، والرخام ، واللؤلؤ ، والمرجان (٢٦٤) . وقد قامت بتلك الأقاليم عدد من الصناعات اليدوية كالمنسوجات والملابس خاصة الثياب الصوفية الرفيعة ، والأردية الملونة ، والستور ، والأنماط (٢٦٥) . وكذلك وجدت صناعة الأرحية ، التى أقيمت على أفواه الأنهار ، وتدار بوسطة المياه (٢٦٦) . وفى البلدان التى راجت فيها زراعة الزيتون ، أقيمت معاصر الزيوت . ويضاف إلى ذلك صناعة الصابون الجيد ، والمكاتل ، والسلاسل ، والسيور الجلدية ، والأقلام والشمع ، والحلوى (٢٦٨) .

(د) فى العمران : أكثر المقدسى من الاهتمام بمظاهر العمران فى أقاليم العرب ، وسجل لنا العديد من شواهد ذلك فى وصف بارع دقيق . ولا شك أن نبوغ جده وعمه فى الفن المعماري كان له تأثيره فى رؤية المقدسى الثاقبة لفنون المعمار فى الأقاليم التى زارها وكتب عنها . اهتم المقدسى فى كتابه بالإشارة إلى

قيام المدن (مثل : بغداد ، وسامرا) ، والعوامل المساعدة على قيامها (بيئية ، وزراعية ، ودينية ، وإدارية ، ومناخية ، ودفاعية وتجارية ، وغيرها) . وكذلك أهتم بإبراز عوامل ضعف المدن وانهارها كتحول مركز الدولة عنها ، وضعف الخلفاء وسوء الإدارة ، وغير ذلك (٢٦٨) . ولا شك في أن المساجد باعتبارها فنوناً معمارية مهمة جذبت انتباه المقدسى بتميزها وفخامتها ، فقام بوصف العديد منها كالسجد الحرام بمكة وتطورات زيادة مساحته (٢٦٩) ، والمسجد النبوى بالمدينة (٢٧٠) ، وبيت المقدس بفلسطين (٢٧١) ، والجامع الأموى بدمشق (٢٧٢) ، وجامع عمرو بن العاص فى مصر (٢٧٣) .

(هـ) التجارة : تطرق المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم) إلى ذكر مختلف أنواع الصادرات والواردات المتبادلة بين أقاليم العرب من مصنوعات جلدية ، وغزل ونسيج ، ومواد غذائية ، وجلود ، ومنتجات حيوانية وصناعات معدنية ، وزيتية ، وغيرها (٣٧٤) . ولا شك فى أن الترابط والتكامل كان قائماً بين هاتيك الأقاليم من خلال الأسواق الداخلية ، وشبكة المواصلات البرية الرابطة بين مختلف الأجزاء والبلدان (٢٧٥) ، وكان المقدسى حريصاً على بيانها مع نهاية حديثه عن كل من هذه الأقاليم . ولا شك فى أن الدولة الإسلامية كانت تتمتع بالرخاء ، ويدخل خزينتها أموال طائلة من جراء هذا التبادل التجارى ، إلى جانب مصادر الدخل الأخرى من خراج وجزية وضرائب أخرى (٢٧٦) . ونعتقد ومن خلال الصورة التى نقلها المقدسى - أن الرخاء كان منتشرأ فى عدد غير قليل من تلك الأقاليم إذ كانت أسعار السلع رخيصة على نحو ما لمس المقدسى بنفسه ، مثل : أسعار اللحوم ، والتمور ، والتين ، والزبيب ، والأعناب ، والزيتون ، وغيرها (٢٧٧) . وأخيراً ، حوى كتاب المقدسى الكثير عن المكايل والأوزان ، والنقد المستعمل فى الأقاليم العربية التى درسها (٢٧٨) .

٢ - فى الناحية الاجتماعية : سلط المقدسى الأضواء على حياة سكان الأقاليم العربية المختلفة من كافة زواياها بشكل يدعو إلى الإعجاب والانبهار .

فأهتم بالحديث عن عناصر السكان الغالبة على بعض الأقاليم (٢٨٠) وذكر حرفهم وأنشطتهم وأعطانا صورة واضحة لدورهم وأماكن سكنهم ، وعدد سكان الدار الواحدة (٢٨١) . واهتم بدراسة نفسيات شعوب هذه الأقاليم ، وطبائعهم ، وأخلاقياتهم وسلوكياتهم بإيجابياتها وسلبياتها (٢٨٢) . وتعرض أيضاً - للحديث عن عاداتهم وتقاليدهم المتبعة في حياتهم ، وأحوال حماماتهم (٢٨٣) ، والإضاءة في مساجدهم (٢٨٤) . وكذلك اهتم بأزيائهم وملابسهم التي يرتدونها (٢٨٥) ، وبمظاهر احتفالاتهم وأعيادهم (٢٨٦) ، ومستوى معيشتهم (٢٨٧) .

٣ - في الناحية الثقافية : حرص المقدسى على دراسة الأوضاع الفكرية والثقافية بعامة في كافة الأقاليم الجغرافية التي تعرض لها ، فدرس المذاهب الدينية الموجودة ، واتجاهات الفقهاء ، وأحوال الفرق الدينية الموجودة (٢٨٨) ، وعلماء القراءات (٢٨٩) ، ومظاهر الخلافات والصراعات بين أتباع الشيعة والسنة (٢٩٠) ، إلى جانب تركيز الأضواء على أهل الذمة الموجودين في كل إقليم (من يهود ، ونصارى ، ومجوس) (٢٩١) . ويضاف إلى ذلك - اهتمامه بأحوال العلم في الإقليم ومدى توافر حلقاته في المساجد (٢٩٢) . وأخيراً ، فقد كان يركز على بيان الأوضاع اللغوية في الأقاليم (٢٩٣) ، ومدى قوة وازدهار الواقع اللغوي ، وفصاحة ألسن سكانه من عدمها .

٤ - وأخيراً ملمح من ملامح العلاقات الدولية : وتمثل في معلومات جديدة عن تفاصيل عمليات تبادل الأسرى بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية ، ومراسم الفداء بالشام (٢٩٤) ، وتتبع أحوال هؤلاء الأسرى من المسلمين في القسطنطينية (٢٩٥) .

وبعد فقد انتهينا - بعد هذا التطواف الكبير - من دراسة القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، فبينا موضوعاته ، وأقسام موارده ، ومنهجه في تناول إيجابياته وسلبياته . وأخيراً ، عرضنا وحللنا - ما أمكن - المادة التاريخية التقليدية لديه ، وعرضنا جوانب المادة التاريخية غير التقليدية (اقتصادية ،

واجتماعيا، وثقافيا ، وجانبا من العلاقات الدولية) فى هذا القسم ؛ كى نصل -
فى النهاية - إلى قناعة بأننا أمام مصدر جديد من مصادر تاريخ العرب .

وقد يرى البعض أن هذا المصدر مساعد وغير أصيل فى باب (التاريخ) .
ونرد بأن المهم أنه بمنهج المميز ، وبمادته الموثقة فى ثناياه ، به من المادة التاريخية
الجديدة ربما ما لا نجده فى كتب التاريخ العام الأصيلة . وثمة ملاحظة أخرى ،
وهى أن (أحسن التقاسيم) لم ينقل عنه المؤرخون . والحق أننى وقفت على نقول
منه لدى ياقوت صاحب (معجم البلدان) فى عدة مواضع جغرافية بالطبع (٢٩٦) ،
إذ لم يفتن الأقدمون إلى أهميته التاريخية .

والخلاصة :

١ - أننا أمام باحث جاد ، وجغرافى بلغ أعلى درجة فى وصف البلدان بعد طول
الارتحال (٢٩٧) ، وكثرة الإطلاع ، وهو - أيضاً باحث ناقد يتحرى تمحيص
ما ينقل (٢٩٨) .

٢ - أننا أمام باحث موسوعى الثقافة منهجى التفكير ، استطاع أن يصهر عناصر
ثقافته فى بوتقه مؤلفه ، ونجح فى عرض جغرافى شامل متميز ، حيث تركنا
وكاننا نعيش هذه البلدان ، ونعاصر ما فيها (بعد أن عاجلها من كافة
زواياها) .

٣ - أن الدراسة الشاملة التى قدمها المقدسى أعطتنا نموذجاً عملياً ناجحاً ، ومثلاً
يحتذى فى التآزر والتناسق ، والتعاون والتكامل بين فروع المعرفة ؛ إذ نجح فى
أن يوائم بين المعلومات الجغرافية والمادة التاريخية ، فقدم للباحثين المعاصرين
فى مجال التاريخ مادة حضارية غزيرة ، تسد كثيراً من الثغرات الموجودة فى
كتب التاريخ الأصيلة . ومن هنا حق لنا أن نعد (أحسن التقاسيم) مصدراً
جديداً من مصادر تاريخ العرب .

الهوامش

- (١) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، للدكتور حسين مؤنس (ط٢ - ١٩٨٦م ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ص ١ .
- (٢) أورد له ابن النديم عدة مؤلفات ، يمكن - من عناوينها - أن نعلها فى كتب الجغرافية مثل : (كتاب البلدان الصغير) ، و (كتاب البلدان الكبير) ، و (قسمة الأرضين) و (كتاب الأقاليم) . (الفهرست ، ط . دار المعرفة - بيروت) ص ١٤٢ .
- (٣) راجع ترجمته فى (معجم الأدباء) لياقوت (ط٣ - دار الفكر ١٩٨٠م ، ١٥٤/٥) .
- (٤) راجع ترجمته المفصلة الواردة فى (المصدر السابق) ٦٤/٣ - ٦٨ ، وكذلك دراسة كراتشكوفسكى عنه فى كتابه : (تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م) ١٩٧ - ١٩٩ (من الترجمة العربية لصالح الدين عثمان هاشم) .
- (٥) راجع الدراسة التى كتبها كراتشكوفسكى عنه فى (المرجع السابق) ١٩٩/١ - ٢٠١ . وتجدر الإشارة إلى أن مصنف الاصطخرى (المسالك والممالك) قد نشر فى سلسلة (تراثنا) ، التى كانت تصدرها (وزارة الثقافة والإرشاد القومى) بالقاهرة ، بتحقيق : دكتور محمد جابر الحينى سنة ١٩٦١م .
- (٦) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٧/١ .
- (٧) كذا ضبط النسبة ابن خلكان فى (وفيات الأعيان ، طبعة دار صادر ، تحقيق د. إحسان عباس) ج٣ ص ٢٩٢ ، وجعل النسبة إلى (بيت المقدس) . وكذا ذكر السمعانى فى (الأنساب ، ط دار الجنان - بيروت) ج٥ ص ٣٦٣ ، زاد قائلاً بلدة (بيت المقدس) هى البلدة المشهورة ، التى ذكرها الله فى القرآن فى غير موضع ، وبها المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، والمواضع الشريفة ، وإليها قبله المسلمون سبعة عشر شهراً أول مقدم الرسول المدينة .
- وتجدر الإشارة إلى وجود صيغة أخرى لهذه النسبة هى (المقدسى) . وقد أشار بروكلمان إلى استخدام (دى غويه) لهذه الصيغة فى نشرته لكتاب (أحسن التقاسيم) .

ويضيف بروكلمان أن هذه ربما كان المقدسى نفسه يستخدمها ، بدليل ما ورد فى قصيدة له فى نهاية كتابه (ص ٣٧٣ ، ط . دار إحياء التراث العربى) ، حيث وصف كتابه بأنه (حكمة مقدسة) . (تاريخ الأدب العربى ، طبعة الهيئة العامة ، القسم الثانى ص ٦٦١ ، هامش ١) . والحق أن هاتين الكلمتين وردتا متفرقتين فى آخر بيتين من القصيدة المذكورة . لكنى أرى أن هذ التخريج بعيد . والصواب لدى أن كلتا الصيغتين صحيح ، فالمقدسى نسبة إلى (بيت المقدس) ، أى : البيت المطهر الذى يتطهر به من الذنوب . و (المقدسى) : نسبة إلى (البيت المقدس) ، أى : المبارك ؛ لأن القدس تعنى البركة . (راجع مادة : المقدس فى (معجم البلدان) لياقوت ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت) ١٩٣/٥ - ١٩٤ ، و (لسان العرب) لابن منظور (ط . دار المعارف) ، مادة (ق. د. س) ج ٥ ص ٣٥٥٠ ، و (المعجم الوسيط ، ط ٢ - مجمع اللغة العربية) ج ٢ ص ٧٤٦ .

(٨) كشف الظنون ، لحاج خليفة (طبعة دار العلوم الحديثة - بيروت) ١٦/١ .

(٩) ورد لقبه هذا فى (معجم البلدان) لياقوت ١٩٦/٥ ، لكنى لم أقف على أصل تلك النسبة فيما تيسر لى من معاجم اللغة ، ومصادر الأنساب .

(١٠) أحسن التقاسيم ص ٣٣٥ .

(١١) جعله د. فلاح شاكر والد المقدسى ، لا جده . (المقدسى ، طبعة دار الشؤون الثقافية - بغداد ص ٧) . والصواب ما أثبت بالمتن .

(١٢) قال عنها المقدسى : مدينة حصينة على البحر ببلاد الشام ، كبيرة الجامع ، وبه غابة زيتون . وتم تحصينها فى عهد (أحمد بن طولون) بعد زيارته لها . (أحسن التقاسيم ص ١٤٢) .

(١٣) المصدر السابق .

(١٤) السابق : ص ٣٣٥ . وأرى أن سفر المقدسى ، وترحاله الطويل مع ما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة ، إلى جانب ما عرفنا عن مكانة جده ، وامتلاك والده الغلمان ، كل ذلك يجعلنى أميل إلى جعل أسرته فى مصاف الأثرياء ، خلافاً لما رآه محرر مادة (المقدسى) من أن أسرته من الطبقة المتوسطة .

(M. Miquel : AL - Muk addasi, Published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492).

(١٥) أحسن التقاسيم : ص ٥٣ .

(١٦) كذا ضبطها ياقوت بالحروف ، وقال : هى كورة كبيرة واسعة ، تشتمل على مدن وقرى ومزارع ، وهى فى ذيل جبال طبرستان ، وأكبر ما يكون فى ولاية ملكها قصبته مشهورة هى (مامغان) ، ومن مدنها المشهورة (ييار) . (معجم البلدان ٤/٤٧٠) .

(١٧) أحسن التقاسيم ص ٢٧٣ .

(١٨) المصدر السابق ص ١٦١ .

(١٩) السابق ص ٢٣ (أيام دولة أمير المؤمنين أبى بكر عبد الكريم الطائع لله ٣٦٣ - ٣٨١هـ) فى المشرق ، وأبى منصور نزار العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) أمير المؤمنين بالمغرب) .

(٢٠) وقد نص على ذلك كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ج ١ ص ٢٠٩ ، ود. فلاح شاكر فى كتابه : (المقدسى) ص ٧ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A vol. 7, 1985, P. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعارف البريطانية) أشارت إلى ذلك التاريخ بالميلادى فقط (946) . وبناء على ما تقدم ، فإن تحديد الزركلى ، وكحالة تاريخ ميلاد المقدسى بـ (سنة ٣٣٦هـ) تنقصه الدقة (الأعلام ، ط ٩ ، دار العلم للملايين - بيروت ، ١٩٩٠م) ٣١٢/٥ ، ومعجم المؤلفين (ط . مؤسسة الرسالة) ٥٢/٣ .

(٢١) الأعلام ٣١٢/٥ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492.

(٢٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج ١ ص ٢١٠ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985, p. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعارف البريطانية) أشارت إلى ذلك التاريخ بالميلادى فقط (1000) .

(٢٣) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، للدكتور حسين مونس ص ١٠ .

(٢٤) المقدسى ، للدكتور فلاح شاكر ص ٨ .

(٢٥) والشىء نفسه يمكن أن يقال رداً على أن المقدسى توقف فى ذكر حكام الديلم (البويهيين) عند ولاية (أبى الفوارس بن عضد الدولة) المتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ (الكامل لابن الأثير ، ط. دار الكتب العلمية) ج٧ ص ٤٣٦ .

(٢٦) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York) , vol.7, 1993, p. 493.

(٢٧) أحسن التقاسيم ص ١٩ .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٥ .

(٢٩) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج١ ص ٢١٥ .

(٣٠) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ١٠ .

(٣١) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ . والملاحظ أن كلمة (نسيج) الواردة فى النص قد حرفت إلى (تسبح) ، ولم يصوبها المحقق (د. محمد مخزوم) . ومن قبل قراها كراتشكوفسكى (تسبح) ، كما ورد فى الأصل ، لكن المترجم صوبها . (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١١/١ (راجع الهامش) .

(٣٢) أحسن التقاسيم ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٣٣) هو كراتشكوفسكى فى كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٥/١ .

(٣٤) أحسن التقاسيم ص ٢١ .

(٣٥) تمام الآية : (ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . (سورة الأنعام ٦ الآية ١١) .

(٣٦) تنمة الجملة من الآية : (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . (سورة يوسف ١٢ / من الآية ١٠٩) .

(٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ .

(٣٨) لما أخذه على السابقين نقلهم الكثير عن كتب سبقتهم (كما هو الحال في احتواء كتاب الجيهااني على جميع أصل ابن خرداذبه) . (راجع المزيد عن ذلك في المصدر السابق ، والصفحة نفسها) .

(٣٩) مثل قوله عن (ابي زيد البلخي) في أحد المواضع : أما أبو زيد ، فهو إمام في هذا العلم ، خاصة في إقليمه . (السابق ص ٧٣) .

(٤٠) السابق ص ١١٣ .

(٤١) السابق ٢٠٨ .

(٤٢) السابق ص ٩٣ .

(٤٣) السابق ص ٣٧٢ .

(٤٤) السابق ص ١٦ - ١٧ . ويمكن مراجعة المزيد عن كثرة رحلاته ، والبلدان التي حل بها حتى نسب إليها (ص ٤٩ - ٥١ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩١ - ٩٢ ، ٩٥) .

(٤٥) يرى الدكتور مونس أن الرحلة في ذاتها لم تكن من مواضع الفخر في تلك العصور . ثم يستثنى قائلاً : اللهم إلا إذا كانت رحلة حج ، أو رحلة لقاء شيوخ ، وسماع منهم (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) ص ٤١٧ . وفي ص ٣٢٤ : يرى أن هذه الرحلات كانت جزءاً من ذلك النزوع العلمي ، الذي ملأ قلوب أمة العرب في عصور النشاط والازدهار العلمي .

والحق أنني إذا كنت أوافق على الشطر الأخير من كلامه ، فإن لي تحفظاً على شطره الأول ؛ لأن تجشم مشاق الحج آنذاك بما كان يكتنف رحلاته من مخاطر جمة لم يكن - أيضاً - دافعه الفخر . والشئ نفسه يقال عن رحلات طلاب العلم ، وإذا كان بعضهم يذكر كثرة رحلاته وشيوخه ، فلأن ذلك مرتبط بوثاقة الرواية عموماً ، ورواية الحديث النبوي على وجه الخصوص ، اللهم إلا إذا وجد كذابون مدلسون ، فهذا موضوع آخر .

(٤٦) المرجع السابق ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٤٧) سوف أغفل الحديث عن (ثقافته التاريخية) ؛ لأننى سأتناولها فى مبحث خاص بها فى نهاية البحث ، حيث يتم رصد ما يتيسر لى من (المادة التاريخية التقليدية ، وغير التقليدية) فى القسم الأول من الكتاب الذى ندرسه (أحسن التقاسيم) .

(٤٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج١ ص ٢١٤ .

(٤٩) أحسن التقاسيم ص ١٥ .

(٥٠) المصدر السابق ص ١٦ .

(٥١) السابق ص ١١٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً نقول : كر كر فلاناً عن الشيء : دفعه ورده وكر كر الشيء : أعاده مرة بعد أخرى . (اللسان ، مادة : ك . ر . ر) (٣٨٥٢/٥ ، والمعجم الوسيط (مادة : ك . ر . ر . ك) ٨١٥/٢ .

(٥٢) احسن التقاسيم ص ١٤٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً وجدت أن لهواء السجسج هو المعتدل الطيب ، والأرض السجسج لا سهلة ولا صلبة . والجمع : سجاسج (اللسان ، مادة : س . ج . س . ج) (ج ٣ ص ١٩٣٩ ، و(المعجم الوسيط ، مادة) س . ج . س . ج) (٤٣٢/١ .

(٥٣) أحسن التقاسيم ص ٢٠٨ . وديار معناها : أحد . نقول : ما بالدار ديار . قال الله (تعالى) : ﴿ وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ (سورة نوح : ٧١ الآية ٢٦) . راجع المعنى اللغوى فى (اللسان ، مادة : د . و . ر) ج٢ ص ١٤٥٢ ، و(المعجم الوسيط) ٣١٣/١ .

(٥٤) أحسن التقاسيم ص ٩٤ .

(٥٥) راجع المصدر السابق ص ٧٩ .

(٥٦) هناك شعر يحفظه ويرويه (راجع السابق ص ١٤٠) ، إلى جانب شعر نظمته فى كتابه (ص ٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٥٧) وفيها تختلف الأسماء المطلقة على المدلول الواحد (مثل : لحام ، وحزار ، وقصاب - وقطة ، وهرة ، وسنور) (السابق ص ٣٩) .

- (٥٨) راجع السابق ص ٣٥ - ٣٩ تحت عنوان : (ذكر الأسماء واختلافها) .
- (٥٩) السابق ص ٣٥ .
- (٦٠) السابق ص ٣٥ - ٣٦ .
- (٦١) السابق ص ١٢٦ .
- (٦٢) السابق ص ١٧٢ .
- (٦٣) السابق ص ٤٦ .
- (٦٤) الحديث فى (السابق) ص ٧٦ - ٧٧ .
- (٦٥) راجع فى (السابق) ص ٧٩ - ٨٠ .
- (٦٦) راجع هذه الأحاديث فى (السابق) ص ١٢١ - ١٢٢ ، ١٤٩ - ١٥٠ .
- (٦٧) راجع السابق ص ٤٠ ، ١١٣ - ١١٤ .
- (٦٨) السابق ص ٤٣ .
- (٦٩) السابق ص ٤٠ .
- (٧٠) السابق ص ٤٤ - ٤٧ .
- (٧١) السابق ص ٧٨ ، ١٦٠ - ١٦١ .
- (٧٢) كحديثه عن فرائض ، وواجبات ، وسنن الحج عند حديثه عن (مشاهد مناسك الحج) .
- (السابق ص ٨٠) .
- (٧٣) اعتمدت فى دراسة هذا القسم من ذلك المصدر على طبعة (دار إحياء التراث العربى) - بيروت ، ١٩٨٧ ، بتقديم ، وهوامش ، وفهارس : (د. محمد مخزوم) .
- (٧٤) السابق ص ١٥ - ١٧ .
- (٧٥) السابق ص ١٩ - ٧٢ .
- (٧٦) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ٧٣ - ١٠٢ .

- (٧٧) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٠٣ - ١٢٠ .
- (٧٨) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٢١ - ١٣٢ . قال المقدسى فى تعريفه ص ١٢١ : منطقة واسطة بين العراق ، والشام ، ومنازل العرب فى الإسلام . وقال عنها ياقوت : اسم كورة بالجزيرة ، أو هى الجزيرة - بين الموصل والفرات - بأسرها . (معجم البلدان) ٢٨٢/١ . ويبدو أن مترجم كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) اعتمد على (ياقوت) فى تعريفه ؛ إذ قال : (أقور ، أو أثور : منطقة شمال العراق ، أى : الجزيرة) . المرجع السابق ٢١٤/١ بالهامش .
- (٧٩) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٣٣ - ١٦٤ .
- (٨٠) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٦٥ - ١٨٢
- (٨١) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٨٣ - ٢٠٤ (وفيه جمع بين المغرب والأندلس) .
- (٨٢) يمتد الكلام على هذا الإقليم (وهو بادية الشام) من ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .
- (٨٣) بين هذه الأقسام الثلاثة كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٣/١ - ٢١٤ ، وعنه نقل - دون إحالة عليه - د. فلاح شاكر فى كتابه : (المقدسى) ص ١١ .
- (٨٤) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ .
- (٨٥) وهذا يدل على رغبة أصيلة لدى المقدسى فى أن يجعل كتابه على غير منوال سابقه ، ومثالاً للدقة والأمانة العلمية ، خلافاً لنقل الجيهانى كتاب (ابن خرداذبه) ، ونقل ابن الفقيه كتاب (الجاحظ) ، وغيره . (راجع المصدر السابق ص ١٩٩) .
- (٨٦) راجع السابق ص ٤٩ .
- (٨٧) وذلك فى رواية تتصل بأمر معاوية بن أبى سفيان حمل منبر المسجد النبوى إلى جانب المحراب كسائر المنابر ، وما ترتب على ذلك (السابق ص ٨٢) .
- (٨٨) فى رواية تتصل بأثر ريح الشمال والجنوب فى حياة السكان بالبصرة (السابق ص ١١٢) .

- (٨٩) فى روايتين تتعلق إحداهما بتماسيح مدينة القسطنطين ، والأخرى بوضع طلسم ؛ لئلا يغلب ماء البحر على ارض مصر (السابق ص ١٧٩) . والطلسمات جمع طلسم ، وهو - فى علم السحر - خطوط وأعداد ، يزعم أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية ؛ لجلب محبوب ، أو دفع أذى . وهو لفظ يونانى لكل ما هو غامض مبهم كالألفاظ والأحاجى . (المعجم الوسيط ٥٨٢/٢) .
- (٩٠) فى رواية تتعلق بمقدار ما أنفقه المنصور على مدينة السلام ، وأجرة بعض العمال (أحسن التقاسيم ص ١٠٨) .
- (٩١) عن مقادير غلة ارض السواد بالعراق (السابق ص ١١٨) .
- (٩٢) حول مقدار ما انفق على جامع دمشق (السابق ص ١٤٠) .
- (٩٣) حول خراج اليمن ، وتقسيمها الإدارى (السابق ص ٩٨) .
- (٩٤) حول خراج قنسرين ، وحمص ، والأردن ، وفلسطين (السابق ص ١٦٣) .
- (٩٥) حول خراج الحرمين ، واليمن ، واليمنية ، والبحرين ، وعمان (السابق ص ٩٨) .
- (٩٦) حول دخل مصر (السابق ص ١٨٠) .
- (٩٧) حول دخل مصر قديماً أيام فرعون ، ثم الحجاج ، ثم ولد العباس (السابق : الصفحة نفسها) .
- (٩٨) هو أبو الحسن على بن محمد الشمشاطى . من بلاد أرمينية من الثغور . كان معلم أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان وأخيه ، ثم نادى بهما . وكان شاعراً مجيداً ومصنفاً مفيداً ، كثير الحفظ . ذكر محمد بن إسحاق النديم أنه كان حياً فى عصره (سنة ٣٧٧هـ) ، وترك كثيراً من أخلاقه لما علت سنه . (راجع ترجمته فى : الفهرست ص ٢٢٠ ، ومعجم الأدباء ١٤/٢٤٠ - ٢٤٤) . ويلاحظ أن (الشمشاطى) حرفت إلى (السميشاطى) فى (الفهرست ص ٢٢٠) . والراجع ما ورد فى (معجم البلدان) ج ٣ ص ٤١١ ، حيث قال : شمشاط (وضبطها بالحروف) غير (سميشاط) بمهملتين ، وإن كانت كلتاهما على الفرات ، إلا أن التى ينسب إليها هذا المورخ تقع فى طرف أرمينية ، والأخرى من أعمال الشام .

(٩٩) للشمشاطى مؤلفات عديدة ذات طابع أدبى ، منها : (أخبار أبى تمام والمختار من شعره) ، و (أخبار أبى نواس والمختار من شعره) . (الفهرست ص ٢٢٠ ، ٢٢٨) .
وقد اشار ابن النديم فى (المصدر السابق) ص ٣٢٧ ، إلى أن الشمشاطى أحد من اختصر (تاريخ الطبرى) ، وحذف أسانيده . وأرجح أن النص الذى اقتبسه المقدسى من (تاريخ الشمشاطى) هنا ، ويتعلق باستقدام المنصور ذوى الخيرة والكفاءة عند بناء بغداد، اقتبسه من (تاريخ الطبرى) بشىء من التصرف والتجميع والتنسيق ، ويمكن التحقق من ذلك بمقارنة ما ورد فى (أحسن التقاسيم) ص ١٠٨ - منقولاً عن (تاريخ الشمشاطى) - بما جاء فى (تاريخ الطبرى ، ط . دار المعارف بالقاهرة) جـ ٧ ص ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٥٢ .

- (١٠٠) حول مقدار مسيرة الدنيا (أحسن التقاسيم) ص ٦٩ .
(١٠١) حول معنى البصرة لغوياً (المصدر السابق) ص ١٠٦ .
(١٠٢) حول سؤال الخضر ملكاً من الملائكة عن ظاهرة المد والجزر . (السابق ص ٢٦) .
(١٠٣) فى رواية تدور حول نقاش دار بين المقدسى ، وهذا القاضى عن عالم بغدادى (السابق ١٠٩ - ١١٠) .
(١٠٤) حول قبر يوسف بالشام (السابق ص ٥٢ - ٥٣) .
(١٠٥) حول بناء جامع فى الرملة فى عهد هشام بن عبد الملك (السابق ص ١٤٣) .
(١٠٦) حول ذكاء رجل ، وصف دير شمويل بالشام لأحد الملوك وصفاً ، نقره من السيطرة عليه . (السابق ص ١٦١) .
(١٠٧) حول مكانة قرطبة ، وصفتها (السابق ص ١٩٢) .
(١٠٨) ذيل بها للمصدر حديثاً مطولاً عن (المذهب فى الأندلس) (السابق ص ١٩٥ - ١٩٦) .
(١٠٩) فى رواية تتصل بحج الخليفة المنصور ، وتوسيع المسجد الحرام بعد شراء دوره المجاورة له بمكة ، ودور أبى حنيفة فى حل إشكال فقهى وقع آنذاك . (السابق ص ٧٧ - ٧٨) .
(١١٠) فى رواية عن خراج مصر ، وحوار بين المقدسى ، والمصدر الذى روى عنه حول هذا الشأن . (السابق ص ١٨٠ - ١٨١) .

(١١١) فى روايات متتابعة حول الخصاص وكيفيته لدى الروم ، وحديث عن العبيد والصقالبة بالأندلس (السابق ص ٢٠٠) .

(١١٢) راجع هذه الروايات بأسانيدھا فى (السابق) ص ٢٨ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٧٩ (بها روايتان) ، ٩٩ ، ١٠٧ - ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢١ .

(١١٣) راجع (السابق ص ٤٨ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٧٦ .

(١١٤) فى رواية حول مغارة ، ترجع إل عهد قوم موسى ، وتعد من عجائب إيليا (السابق ١٥٩) .

(١١٥) السابق ص ١٢٩ ، ١٤٧ (روايتان) ١٤٩ ، ١٧٩ .

(١١٦) السابق ص ٦٢ .

(١١٧) السابق ص ٨٤ .

(١١٨) السابق ص ١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٧٨ .

(١١٩) السابق ص ٢٨ ، ٤٣ (ويقال عن الأندلس : أنها جنات) ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٣٤ ،

١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ١٨٥ .

(١٢٠) السابق ص ١٢١ .

(١٢١) يحكى عن سفيان بن عيينة رواية عن تشجيع وتأيد عزم العزب الذى يريد الزواج والمريد

الذى يسأل الحج وليس معه زاد ؛ لأنه حق على الله أن يعينهما (السابق ص ٢٠٨) .

(١٢٢) حكى لى عن بعض الزهاد (رواية عن تيسير الله الحج لمن أراد) ص ٢٠٨ .

(١٢٣) السابق ص ٢٦ .

(١٢٤) السابق ص ٩٠ .

(١٢٥) وحدثونا عن ابن عباس (رواية عن وصف الساهرة أرض القيامة) ص ١٤٧ .

(١٢٦) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٦٥ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك ، طبعة صورتها ، ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه) لابن خرداذبه ص ٨٩ .

(١٢٧) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ١٦٣ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ (بترتيب ذكر البلدان الواردة) .

(١٢٨) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٢٩) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (كتاب الخراج) لقدامه ابن جعفر المنشور بقيته بعنوان : (نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة) فى طبعة (صورتها . ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه ، ملحقة بكتاب ابن خرداذبه فى مجلد واحد) ص ٢٥١ .

(١٣٠) راجع (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٣١) أحسن التقاسيم ص ١٦٣ .

(١٣٢) المسالك والممالك ، لابن خرداذبه ص ٧٥ .

(١٣٣) العواصم : جمع عاصم ، وهو المانع . وهى اسم ناحية ، وليس موضع بعينه يسمى (العواصم) . وهى حصون موانع بين حلب وأنطاكية أكثرها فى الجبال ، وربما دخل فى هذا ثغور المصيصة وطرشوس . وقصبتها أنطاكية . (المسالك والممالك للاصطخرى) ص ٤٦ ، و (معجم البلدان لياقوت ج٤ ص ١٨٦) .

(١٣٤) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها . وتجدر الإشارة إلى أن (الاصطخرى) ممن يجمعون بين (قنسرين ، والعواصم) ، ويضيف إليهما (الثغور) ، فيقول : (جند قنسرين والعواصم والثغور) . (المسالك والممالك) ص ٤٣ .

(١٣٥) قنسرين : كورة بالشام منها مدينة حلب ، وهى عامرة أهلة بالسكان ، تقع على طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات . وظلت كذلك حتى غلب الروم على مدينة حلب سنة ٣٥١هـ ، وقتلت من كان بضواحيها ، ففر أهل قنسرين ، وتفرقوا فى البلاد ،

فغير بعضهم الفرات ، وآخرون نقلهم سيف الدولة بن حمدان إلى حلب ، كثر بهم من
بقي من أهلها . (المسالك والممالك للاصطخري ص ٤٦ ، ومعجم البلدان لياقوت
(٤٥٨/٤) .

(١٣٦) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها .

(١٣٧) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٨٠ ، وقارنه بـ (الخراج) لقدامة بن جعفر ص ٢٥١ .

(١٣٨) ولعل مما يقوى هذا المنطق أن المقرئ ذكر بعض ولاية الإسكندرية في العصر
الإسلامي (مثل : محمد بن هبيرة سنة ١٩٩هـ) . (الخطط ، نشر : مكتبة الثقافة
الدينية) ج ١ ص ١٧٢ ، و(معاوية بن عبد الواحد سنة ٢١٦هـ) . (المصدر السابق
١٧٣/١ - ١٧٤) . وتري د. سيدة الكاشف أن المدن الساحلية ، وغيرها من المناطق
البعيدة كان يولى عليها حاكم ، يعينه الأمير أو الخليفة مباشرة (مصر في عصر
الإخشيديين ، طبعة الهيئة المصرية للكتاب) ص ١٦٩ . والظاهر أن هذا الوضع تمتعت به
الإسكندرية حتى تولية أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م) الأعمال
الخارجة عن قصبة مصر (القسطنطينية) ، ومنها الإسكندرية التي كان يتقلدها (إسحاق
ابن دينار) ، ثم أقره عليها سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩ م) (الخطط ٣١٤/١ - ٣١٥) .
وأخيراً ، فإن مقدار الدخل الخاص بمصر والإسكندرية الذي نقله إلينا المقدسي عن (قدامة
ابن جعفر) ، إنما يرجع - في الأساس - إلى ما وجد من وثائق الأوضاع المالية في
الخلافة العباسية بدءاً من سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩ م ، لأن الدواوين السابقة على ذلك أحرقت
في الفتنة التي كانت بين الأمين والمأمون (سنة ١٩٧هـ / ٨١٢ م) . (الخراج) لقدامة
ابن جعفر ص ٢٣ - ٢٣٧ . وهذا يعنى أنها قوائم الخراج الخاصة بعصرى المأمون
والمعتصم (من خلال السياق العام لكلام قدامة) . (الخراج والنظم المالية للدولة
الإسلامية) للدكتور الرئيس (طه - ١٩٨٥ ، دار التراث بالقاهرة) ص ٤٩٤ . وهذه
الفترة - أي ما كانت - سابقة على حكم ابن طولون ، فيكون للإسكندرية فيها وال
خاص بها ، ودخل خاص بها .

(١٣٩) كما في رواية تذكر أن من زار مسجد يونس بإقليم (أقور) سبع مرات ، فلأنهن
يعدلن حجة (أحسن التقاسيم) ص ١٢١ .

(١٤٠) كما فى (المصدر السابق) ص ١٢٩ (بخصوص عين يونس فى إقليم أقور ، يزعمون أن يونس خرج منها ، ويستشفى بمائها من البرص .

(١٤١) كما فى (السابق) ص ١٧٦ (عن عروس النيل فى مصر ، وأسطورة إلقاء فتاة بكر فيه ؛ ضمناً لجريانه) .

(١٤٢) مثل : سؤاله بعض المصريين فى بخارى عن خراج مصر (السابق ص ١٨٠) .

(١٤٣) كسؤاله بعض الروم عن الخصاء وكيفيته (السابق ص ٢٠٠) .

(١٤٤) مثل : عريب الخادم ، وعرض كلام عريب هذا على أحد الثقات لديه . (السابق : الصفحة نفسها) .

(١٤٥) كرحلاته إلى (مدينة زبيد باليمن) . (السابق ص ٨٥) ، ورحلته إلى عدن (ص ٩٤ - ٩٥) ، وبغداد (ص ١٠٥ - ١٠٦) ، وجبل لبنان بالشام (ص ١٦٢) .

(١٤٦) مثل : تجواله بالبصرة ، يعاين حديث الناس بعضهم إلى بعض ، يقررون حالة فى بلادهم يعايشونها (حديث الرجل إلى صاحبه فى البصرة عن دور ربح الشمال فى تلطيف الجو عندهم ، وسوء حالهم فى ظل ربح الجنوب) . (السابق ص ١١٢) . وكذا ما ذكره عن مسحه بادية الشام يمينا وشمالا ، وشرقا وغربا (ص ٢٠٤) .

(١٤٧) مثل : جوبانه المحيط الهندى أكثر من مرة ، ومطالعة المقدسى الخرائط النظرية التى معه للتوضيح ، ومعرفة مواقع البلدان ، ومقارنتها بالخرائط العملية الموجودة مع إمام التجار (أبى على بن حازم) فى البحر ، ومجالسته ، حيث تجوب مراكبه هذا المحيط أبداً . (ص ٢٤ - ٢٥) .

(١٤٨) على رأس أنواع المشاهدة ما يتصل برؤية (المشاهد الأثرية) ، تلك التى رصدها المقدسى بدقة من واقع زيارته الميدانية لأقاليم العرب ، وكأنه يضع أمام المؤرخين صورة للأماكن الأثرية ، التى تفيدهم زيارتها فى دعم كتابتهم التاريخية عن أحداث هذه البلدان . (راجع ذلك فى صفحات ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، مثل : أثر قدم إبراهيم (عليه السلام) ، ومكان مولد الرسول ، ودار خديجة ، وقبور طلحة والزبير وعلى) .

(١٤٩) وذلك فى البلدان التى لم يزورها المقدسى ، مثل : بلاد الأندلس ، التى عرضها - باختصار - مختلطة بإقليم المغرب ، معتمداً على النقل والسؤال . (ص ١٨٣) .

(١٥٠) السابق ص ١٥ .

(١٥١) السابق ص ١٥ - ١٦ .

(١٥٢) السابق ص ٤٩ .

(١٥٣) هناك غموض يعترى هذه الشخصية السياسية الجغرافية فى آن . وقد اختلف حول اسم هذا العالم ، فبينما ياقوت يسميه فى موضع بـ (أحمد بن محمد بن نصر الجيهانى) ، ويكنيه بـ (أبى عبد الله) . (معجم الأدباء) جـ ٤ ص ١٩٠ ، ويسبقه إلى ذلك ابن النديم فى (الفهرست) ص ١٩٧ ، فإن صاحب (معجم الأدباء) يعود ثانية فى حـ ١٧ ص ١٥٦ - ويسميه (محمد بن أحمد بن نصر الجيهانى ، ويكنيه الكنية نفسها) . وقد تبع التسمية الأولى بروكلمان فى (تاريخ الأدب العربى) القسم الثانى ص ٦٥١ . أما كراتشكوفسكى ، ود . حسين مؤنس فقد تبعاً التسمية الأخيرة (تاريخ الأدب الجغرافى ٢١٩/١ ، وتاريخ الجغرافية والجغرافيين ص ١٩٦ ، وإن لقبه بالجيجانى ، أو الجيانى ، وهو ما انفرد به دون غيره) . والراجع - عندى - التسمية الأخيرة ؛ لمجيئها فى مصادر أخرى ، ألفت لنا بعض الأضواء على حياة هذا الرجل ، كما سنرى .

وحول التعريف بهذا الرجل ذكر بروكلمان أنه وزير (نصر بن أحمد بن نصر السامانى ٢٦١ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٤ - ٨٩٢ م) . (تاريخ الأدب العربى ، القسم الثانى ص ٦٥١) . واعتقد أن بروكلمان نقل ذلك عن ابن النديم فى (الفهرست) ص ١٩٨ ، وكذلك عنه نقل ياقوت فى (معجم الأدباء) ١٩٠/٤ . ولى ملاحظتان حول هذه المعلومة : الأولى : أن نسب الأمير المذكور الصحيح هو (نصر أحمد بن أسد بن سامان) أول حكام الدولة السامانية (راجع تاريخ الطبرى ٥١٤/٩ ، والكامل ٥٣/٦) ، وفيات الأعيان ١٦١/٥ ، ونهاية الأرب للنويرى (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) جـ ٢٥ ص ٣٣١) .

والثانية : أن الجيهاني كان وزيراً للأمير نصر الثاني (نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد ابن أسد بن سامان ٣٠١ - ٣٣١ هـ) . وقد لعب الجيهاني دوراً مهماً في عهد ذلك الأمير الصغير ، الذي ولي بعد مقتل والده ، وهو ابن ثمانى سنين ، فتولى أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني تدبير الدولة ، فأمضى الأمور ، وضبط المملكة ، واتفق هو وحشم والد الأمير (نصر بن أحمد) على تدبير المملكة . (معجم الأدباء ١٥٧/١٧ ، والكمال ٤٧٩/٦ ، ونهاية الأرب ٢٥ / ٣٤١ - ٣٤٢) . هذا وقد ورد ذكر الجيهاني في (أحداث سنة ٣٠٢ هـ) ، عندما خلص من الأسر رجلاً يدعى (الحسين بن علي) في بخارى ، أثناء فترة الصراعات المحتدمة ؛ مما أعاد هذا الرجل إلى الطاعة (الكامل ٤٨٥/٦ ، ونهاية الأرب ٢٥ / ٣٤٤) . ولا نجد ذكراً - بعد ذلك - للجيهاني ، لا ندرى تاريخ وفاته ! غير أنى وجدت في (معجم الأدباء ١٩٢/٤) ، وفيما نقله عن كتاب محمد بن سليمان (فريد التاريخ في أخبار خراسان) : أن الجيهاني كان على وزارة نوح بن منصور ، ثم صرفت عنه الوزارة في (شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٧ هـ ، ووليها أبو الحسين عبد الله بن أحمد العنبي) . فلتن صرح هذا الخبر ، فيكون الجيهاني توفي بعد السنة المذكورة ، لكن يحترز من ذلك بأنه لم يرد له ذكر في فترة تحكم هذا الأمير (نوح بن منصور) (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ / ٩٧٦ - ٩٩٧ م) ، والذي ذكر هو الوزير العنبي الذي قتل سنة ٣٧٢ هـ (نهاية الأرب ٢٥ / ٣٥٩) ، بالإضافة إلى امتداد حياة الرجل - بناء على ذلك التاريخ - فترة طويلة ، خاصة أن الراجح أنه ألف كتابه (المسالك والممالك) المذكور في الفهرست ص ١٩٨ م ، ومعجم الأدباء ١٩٠/٤ - بين عامي (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م ، ٢٩٥ / ٩٠٧ م) ، بناء على صلاته بالجغرافيين الآخرين . ونقلهم عنه (مثل : ابن خردادبه المتوفى سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) . (تاريخ الأدب الجغرافي ٢٢١/١) .

(١٥٤) أحسن التقاسيم ص ١٩ - ٢٠ .

(١٥٥) المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١ .

(١٥٦) قال بذلك كراتشكوفسكى في (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) ج ١ ص ٢١٠ .

(١٥٧) راجع المصدر السابق ص ٢٢ ، ٢٤ - ٢٥ ، ٨٥ ، ٩٤ - ٩٥ ، ١٠٥ - ١٠٦ ، ١٦٢ .

(١٥٨) السابق ص ١٧ .

(١٥٩) السابق ص ٢٣ .

(١٦٠) السابق ص ٢١ (وبها أمثلة ضربها للتوضيح) .

(١٦١) السابق ص ٢٢ (وقد علل ذلك بعلة ، نذكرها عند تناول وضوح شخصيته) .

(١٦٢) السابق : الصفحة نفسها .

(١٦٣) السابق ص ٢٣ .

(١٦٤) من ذلك قوله : (وهذا مثاله وشكله ، هذا شكله ومثاله ، وهذا شكل الإقليم ومثاله في الصفحة المنقلبة . (راجع صفحات ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٦٥ ، ١٨٣) ولعل خرائط المقدسى المشار إليها تفوق تلك الخرائط النظرية ، التى أشار إليها د. حسين مؤنس ، والموجودة لدى الخوارزمى وغيره من الرحالة الجغرافيين (كأبن حوقل) ، تليد التى كانت لمجرد التوضيح ، وبيان مواقع البلاد بالنسبة لبعضها دون تدقيق ، ولمجرد بيان الهيئة العامة للأرض وبحارها . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ص ٢٦٧ .

(١٦٥) أبو حنيفة فقيه عراقى ، فناسب ذلك ذكر مذهبه فى (إقليم العراق) ، وقد ذكره بالفعل (راجع أحسن التقاسيم) ص ١١٣ - ١١٤ .

(١٦٦) المصدر السابق ص ٤٦ .

(١٦٧) فهى القراءة المختارة فى ذلك الإقليم (راجع السابق) ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(١٦٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ج ١ ص ٢١١ .

(١٦٩) أحسن التقاسيم ص ٢٢ .

(١٧٠) المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(١٧١) السابق ص ٧٣ .

(١٧٢) السابق ص ١٣٤ .

(١٧٣) السابق ص ٦٥ .

- (١٧٤) السابق ص ١٠٥ .
- (١٧٥) السابق ص ١٠٦ .
- (١٧٦) السابق ص ٩٤ .
- (١٧٧) سورة البقرة : ٢ / من الآية ١٠٢ .
- (١٧٨) أحسن التقاسيم ص ١٠٤ - ١٠٥ .
- (١٧٩) المصدر السابق ص ١١٣ - ١١٤ .
- (١٨٠) السابق ص ٤١ - ٤٢ .
- (١٨١) السابق ص ٩٨ .
- (١٨٢) السابق ص ١٩٧ .
- (١٨٣) السابق ص ٧٧ - ٧٨ .
- (١٨٤) السابق ص ١١١ .
- (١٨٥) السابق ص ١٤٠ .
- (١٨٦) السابق ص ١٣٩ .
- (١٨٧) فى (سنن ابن ماجة ط. دار الريان) حديث ورد فى (كتاب الفتن) ، باب (افتراق الأمم) ج ٢ ص ١٣٢٢ (حديث رقم ٣٩٩٢) ، رواه بسنده إلى راشد بن سعد ، عن عوف بن مالك ، عن الرسول ﷺ ، قال : (افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار . وافتقرت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، فأحدى وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة . والذى نفس محمد بيده ، لتفترقه أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ؛ واحدة فى الجنة ، وثنان وسبعون فى النار . قيل يا رسول الله ، من هم ؟ قال : الجماعة) . وعلق المحقق أن إسناد الحديث فيه مقال .
- (١٨٨) أحسن التقاسيم ص ٤٥ - ٤٦ .
- (١٨٩) المصدر السابق ص ٥٤ .

(١٩٠) السابق ص ١٥ - ١٦ ، ١٩٩ .

(١٩١) السابق ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٤٩ ، ١٩٩ .

(١٩٢) السابق ص ١٩ - ٢١ ، ٤٩ .

(١٩٣) من أمثلة ذلك : وصفه المحيط الهندي (ولا أحب أن أطول هذا الأصل ، وإلا ذكرت مراسى هذا البحر ، والطرق فيه) . السابق ص ٢٦) . وكذلك قوله فى (إقليم المغرب): (ولولا خوف الملل وطول الكتاب ، لوصفت بقية مدائن إفريقية ، وأكثر مدائن الكور فى جميع الإسلام ، وكلنا نميل إلى الإيجاز ، ونذكر ما لا بد منه) . (السابق ص ١٨٩) .

(١٩٤) وذلك فى موضع (الأشياء التى يختلف فيها أهل الأقاليم) ص ٣٩ .

(١٩٥) امتدت من (ص ١٥ - ٧٢) ، وهى ضرورية على اختلاف فصولها ، لكنها كان يمكن اختصار مادة بعضها من الداخل ، فتكون أوجز وأخصر وأعمق (مثل : توسعه فى ذكر البحار والأنهار ص ٢٤ - ٣٤ ، والباب الذى اختصره للفقهاء ، واكتفى فيه بسرد الأمصار ومدنها من ص ٥٤ - ٦٥ ، وفصل ذكر اقاليم العالم ومركز القبلة ص ٦٦ - ٧٢) . والملاحظ أن عدداً من تلك الفصول سيأتى بيان ما فيها داخل الأقاليم الجغرافية عند وصفها .

(١٩٦) من الأمثلة النادرة : إشارته السريعة الخاطفة إلى الفقيه الإمام (أبى جعفر الأزدى - ولعله يقصد الطحاوى عند تعريفه بمدنية (طحا) فى مصر . (ص ١٧١) .

(١٩٧) ص ٧٩ - ٨٠ .

(١٩٨) ص ٧٤ .

(١٩٩) ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢٠٠) ص ٤٣ .

(٢٠١) مثل قوله ص ٤٢ : « ولا أعف من أهل بيت المقدس ... ولا أصح موازين من أهل الكوفة ، وعسكر مكرم ... ولا أحسن من أهل حمص ... ولا أوطأ من أهل مصر » .

(٢٠٢) قال المقدسى فى الصفحة نفسها : (وليس أكثر ولا أرذل من مذكرى نيسابور ، ولا أطمع من أهل مكة ... ولا أفقر من أهل يثرب ... ولا أنجس من أهل عمان ، ولا أجهل من أهل عمان) .

(٢٠٣) ص ١٢٩ .

(٢٠٤) الصفحة السابقة نفسها .

(٢٠٥) ص ١٧٩ .

(٢٠٦) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢٠٧) فمثلاً : يمدى المقدسى موافقته على ما طالعه فى كتاب (الطلسمات) ، حول وجود طلسمين فى مصر ؛ للوقاية من خطر تماسيح النيل ، حيث يقول : ألا ترى أن التماسيح فى كورة (الفسطاط) لا تضر مع عظمها وكثرتها . (أحسن التقاسيم ص ١٧٩) .

(٢٠٨) يظهر ذلك عند حديثه عن (عجائب إيليا بالشام) ، حيث المغارة العظيمة الموجودة بظاهر البلد ، تلك التى قرأ عنها فى بعض الكتب ، حيث أرجع تاريخها إلى قوم موسى . قال المقدسى : وما صح لى ذلك . (المصدر السابق ص ١٥٩) .

(٢٠٩) حيث وصفهم مادحاً بقوله : (ولا أحسن من أهل حمص) ، ثم قال بعدها بقليل (ولا أحق من أهل حمص) . (السابق ص ٤٢) . وكان الأولى أن يوضح جمال إحسانهم ، وموطن حمقهم .

(٢١٠) هذه بلدة المقدسى ؛ ولذلك أظهر كثيراً من محاسنها ، وأفرط فى مدحها ، وفضلها على ما سواها ، شارحاً ومحللاً ومعللاً . فمن ذلك قوله : (لا ترى بها نجساً ولا تطفيفاً ، ولا شرباً ظاهراً ، ولا سكران ، ولا دور فسق سرّاً ولا إعلاتاً ، مع تعبد وإخلاص . ولقد بلغهم أن الأمير يشرب ، فتسوروا عليه داره ، فرقوا أهل مجلسه) (السابق ص ٢٢) . وبلغ به الإعجاب ببلده أنه كان وهو يتحدث عن السوق العام بمدينة (حلوان) بالعراق ، وبساتينها ، والفاكهة بها ، لا ينسى بلده ، فيعقد مقارنة بينهما لصالح بلده ، فيقول : (وبيت المقدس أكبر وأجل ، وأعمر وأظرف ، وأكثر مشايخ وعلماء منها) . (السابق ص ١١٠) . ويواصل فى موضع آخر الحديث عن بلده ، وطيب هوائها ، فلا ترى

أحسن من بنيانها ، ولا أنظف منها ، ولا أكثر من خيراتها (السابق ١٤٣ - ١٤٤) .
ويقال فى القسم الثانى من كتابه ، وهو يذكر مدينة (سرخس) من (إقليم خراسان) :
بيت المقدس مثل سرخس ، غير أن بيت المقدس بلد نظيف حسن ظريف (السابق ص
٢٤٦) . وبعد هذا الإغراق فى المدح لبلده ، إذا به يقول : إلا أن لها عيوباً عدة ،
فيذكر منها ما يلى : (ثم لا ترى أقنر من حماماتها ، ولا أثقل مؤنة . قليلة العلماء ،
كثيرة النصارى ... لا مجلس نظر ولا تدريس ، وقد غلب عليها النصارى واليهود ،
ونحلا المسجد من الجماعات والمجالس) . (السابق ص ١٤٤) .

(٢١١) السابق ص ٧٧ .

(٢١٢) السابق ص ٨٣ .

(٢١٣) السابق ص ٨٧ .

(٢١٤) السابق ص ٨٨ .

(٢١٥) السابق ص ٩٧ - ٩٨) .

(٢١٦) السابق ص ١١٦ - ١١٨ .

(٢١٧) السابق ص ١٦٢ .

(٢١٨) السابق ص ١٨٠ .

(٢١٩) السابق ص ٢٠١ .

(٢٢٠) الأخبار الطوال (طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى) ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢٢١) تاريخ الطبرى ٦ / ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢٢٢) البداية والنهاية (طبعة دار الريان للتراث) ج ٨ ص ٣٣٤ - ٣٤٩ .

(٢٢٣) تاريخه ج ٦ ص ١٩٥ .

(٢٢٤) راجع (السيرة النبوية ، لابن هشام ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ م ، طبع ونشر : مصطفى

الخلبى) ، القسم الأول ص ٤٩٥ .

(٢٢٥) راجع أحداث غزوة أحد تفصيلاً فى (المصدر السابق) ، القسم الثانى ص ٦٠ وبعدها .

(٢٢٦) ج ٨ ص ١٩٨ .

(٢٢٧) البيان المغرب (ط ٣ - دار الثقافة بيروت) ج ١ ص ٨٣ ، فيما ينقله عن (تاريخ الرقيق) .

(٢٢٨) فى تاريخه ج ٨ ص ١٩٩ .

(٢٢٩) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٠) كتبت فى (معجم البلدان) لياقوت ج ٥ ص ٤٤٢ بالقصر هكذا : وليلى ، وقال عنها: مدينة بالمغرب قرب طنجة ، دخلها إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على ناحياً من وقعة (فخ) ، وحصل بها سنة ١٧٢هـ أيام الرشيد إلى أن مات بها مسموماً - فى قصة طويلة - سنة ١٧٤هـ .

ويلاحظ أن هذا هو الاسم الصواب لتلك المدينة . أما (زويلة) الواردة فى كتاب (المقدسى) ، فغير مقصودة هنا ، ولعلها تحريف من النساخ ، لم يفتن إليه المحقق ، ولعل مطالعنا تعريف ياقوت لها يؤكد صحة ما نقول ، فهناك (زويلة السودان) ، وتقع بين بلاد السودان وإفريقية وسط الصحراء (أول بلاد السودان) . (معجم البلدان) ج ٣ ص ١٧٩ . وهناك (زويلة المهدية) ، وهى مدينة بإفريقية ، بناها عبيد الله المهدى ، وأسكنها العامة (المصدر السابق ١٨٠/٣) . وواضح أن كلتا المدينتين غير مقصود فى هذا السياق .

(٢٣١) تاريخه ج ٨ ص ١٩٩ .

(٢٣٢) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٣) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٣٤) تاريخ الطبرى ٤٢١/٧ .

(٢٣٥) ولى المعتز سنة (٢٥٢ - ٢٥٥هـ / ٨٦٦ - ٨٦٨م) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ /

٨٦٩ - ٨٩٢م) .

- (٢٣٦) راجع أخباره في (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٣٩١ - ٤٥٦ .
- (٢٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٧٧ .
- (٢٣٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
- (٢٣٩) تاريخ الخلفاء للسيوطي (ط . دار القلم - بيروت) ص ٤٠٥ .
- (٢٤٠) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .
- (٢٤١) تاريخ الخلفاء ص ٤١٩ .
- (٢٤٢) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .
- (٢٤٣) تاريخ الخلفاء ص ٤٣١ .
- (٢٤٤) أحسن التقاسيم ص ١١٨ .
- (٢٤٥) تاريخ الطبري ١٧٣/٨ .
- (٢٤٦) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .
- (٢٤٧) راجع (وفيات الأعيان) لابن خلكان ٣٧٩/٦ .
- (١٤٨) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١١٧ ، وتاريخ الطبري ٣٧١/٩ .
- (٢٤٩) المصدر السابق ٤٣٧/٩ .
- (٢٥٠) السابق ٥١٤/٩ .
- (٢٥١) السابق ٥١٥/٩ .
- (٢٥٢) معلوم أن أولاد بويه ثلاثة : الأكبر (ابو الحسن عماد الدولة علي بن بويه) ، والأوسط (ركن الدولة الحسن بن بويه) ، وهو والد عضد الدولة المشهور ، والأصغر أبو الحسن أحمد في حكم بلاد فارس (٣٢٠-٣٣٨هـ / ٩٣٢ - ٩٤٦م) . (راجع ترجمته في : الكامل ٢٣٠/٧ ، وفيات الأعيان ٣٩٩/٣ ، والنجوم ٣٤٣/٣) . أما معز الدولة الذي ولي العراق ، فقدم بغداد سنة ٣٣٤هـ ، توفي سنة ٣٥٦هـ ، وعهد لولده (بختيار) من بعده . وكان يحكم إلى جانب العراق - الأهواز - وهو عم عضد الدولة .

له ترجمة فى تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤٠٧ ، ووفيات الأعيان ١٧٤/١ - ١٧٦ ، والنجوم الزاهرة ١٦/٤ (وفيه حرفت كنيته من أبى الحسين إلى أبى الحسن) .

(٢٥٣) هو أبو منصور بن معز الدولة . ملك العراق بعد وفاة أبيه ٣٥٦هـ / ٩٦٧م ، وكانت بينه وبين ابن عمه (عضد الدولة) منازعات ، حتى قتل فى إحدى معاركه أمامه بعد فترة إمارة ، امتدت أحد عشر عاماً وشهوراً ، سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م . (راجع تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤١٠ ، والكامل ٣٧٨/٧ ، والنجوم ١٣٣/٤ - ١٣٤) .

(٢٥٤) هو فنا خسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه الديلمى . ولى سنة ٣٦٧هـ ، وتوفى ٣٧٢هـ بالعراق . (وفيات الأعيان ٥٠/٤ - ٥٥) .

(٢٥٥) الكامل ٤٣٦/٧ .

(٢٥٦) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٥٧) المصدر السابق ١١١ .

(٢٥٨) كتاب (المقدسى) للدكتور فلاح شاكى ص ١٣٤ .

(٢٥٩) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٦٠) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكى ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢٦١) أحسن التقاسيم ص ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٦٩ - ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢٦٢) السابق ١٢٩ ، ١٧٠ .

(٢٦٣) السابق ١٧٧ .

(٢٦٤) السابق ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢٦٥) السابق ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢٦٦) السابق ص ١١١ .

(٢٦٧) السابق ص ١٢٥ ، ١٢٩ .

(٢٦٨) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكى ص ١٠٣ - ١٢٧ .

- (٢٦٩) أحسن التقاسيم ص ٧٥ - ٧٦ .
- (٢٧٠) المصدر السابق ص ٨٢ .
- (٢٧١) السابق ١٤٤ - ١٤٥ .
- (٢٧٢) السابق ص ١٣٩ - ١٤٠ .
- (٢٧٣) السابق ص ١٦٩ .
- (٢٧٤) السابق ص ٨٦ ، ٩٢ ، ١١٤ - ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٥٤ - ١٥٦ ، ١٧٣ ، ١٩٧ .
- (٢٧٥) السابق ١٦٧ ، وكتاب (المقدسى) د. فلاح شاکر ١٤٧ - ١٤٨ .
- (٢٧٦) أحسن التقاسيم ٧١ - ٧٢ ، ١١٨ - ١١٩ ، ١٨٠ - ١٨١ .
- (٢٧٧) المصدر السابق ٨٣ ، ١٢٥ ، ١٦٩ ، ١٨٦ .
- (٢٧٨) السابق ص ٩٣ - ٩٤ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٥٦ ، ١٧٤ ، ١٩٨ . وراجع (المقدسى)
- د. فلاح شاکر ص ١٥٧ - ١٦١ (وما يقابل المكايل والأوزان الآن ص ١٦٢ - ١٦٧) . وراجع ما يتصل بالنقود ص ١٦٧ - ١٦٨ .
- (٢٧٩) أحسن التقاسيم ص ٨٤ ، ١١٢ .
- (٢٨٠) السابق ص ١٥٧ ، ١٩٧ .
- (٢٨١) السابق ص ١٦٨ - ١٦٩ (الدور فى القسطاط اربع طبقات وخمس طبقات ويسكن الدار نحو مائتى نفس ، والناس كالجراد ، هكذا رآهم الحسن بن أحمد القرمطى ، فهاله ما رأى ، فقيل له : هولاء نظارة فقط ، وما لم يخرج أكثرهم) .
- (٢٨٢) السابق ص ٩٧ (جفاء أهل مكة ، وظرف أهل اليمن ، وتطفيف وتخسير وفسق أهل عمان ، ٩٩ (نخافة وقناعة سكان شبه الجزيرة العربية ، واكتفاؤهم بالخفيف من الثياب)، ص ١٦٩ (أهل مصر وخوفهم من القحط ، وتربصهم البلاء ، وإشرافهم على الجلاء ؛ خوف انقطاع النهر) .
- (٢٨٣) السابق ص ١١٥ ، وعن الحمامات راجع ص ٨٤ ، ١٢٥ ، ١٧٧ .

(٢٨٤) السابق ص ١٥٦ .

(٢٨٥) السابق ص ٩٤ ، ١٩٧ .

(٢٨٦) السابق ٩٤ ، ٩٥ (زينات فوق المنازل ، ونصب للقباب ، وتزيين للأسواق) .

(٢٨٧) السابق ١٦٩ .

(٢٨٨) السابق ص ٤٤ - ٤٦ ، ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢٨٩) السابق ص ٤٦ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٩٧ .

(٢٩٠) السابق ص ٩٦ ، ١١٦ ، ١٢٦ .

(٢٩١) السابق ص ١١٢ .

(٢٩٢) السابق ص ١٧٤ .

(٢٩٣) السابق ص ٩٠ - ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٩ ، ١٧٢ ، ٢٠٠ .

(٢٩٤) السابق ص ١٥١ .

(٢٩٥) السابق ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢٩٦) ح ٣/١٩٤ ، ١٩٦ ، ٤٦٤ ، ح ٤/١٧١ ، ٥١٦ ، ١٩٦/٥ ، ٣٢٦ . ويلاحظ أنه

سمى كتاب المقدسى (أخبار بلدان الإسلام) . ونقل عنه فى (معجم الأدباء) ٨٦/٣ ،

وسماه (كتاب البلدان) . وتجدر الإشارة إلى أن د. حسين مؤنس ذكر أن كتاب الروض

المعطار (للحميرى حافل بالنقل عن المقدسى وغيره ، لكن صاحبه لم يكن يصرح

بمصادره . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ٥٣٨ .

(٢٩٧) الحضارة الإسلامية فى ق ٤ هـ ، لآدم متز (من الترجمة العربية - طبعة ١٩٤١) ج ٢

ص ٤ .

(٢٩٨) المرجع السابق ص ٧ .

مصادر ومراجع البحث(*)

* القرآن الكريم :

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر البناء المقدسي (المتوفى أواخر ق ٤هـ) . دار إحياء التراث العربى - بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م . وضع مقدمته ، وهوامشه ، وفهارسه : : د. محمد مخزوم .
- الأخبار الطوال : لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينورى (ت ٢٨٢هـ) . سلسلة (تراثنا) . نشر : وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، د. ت . تحقيق : عبد المنعم عامر . مراجعة : د. جمال الدين الشيال .
- الأعلام : لخير الدين الزركلى ، الطبعة التاسعة ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٠م .
- الأنساب : الإمام أبى سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى (ت ٥٦٢هـ) . الطبعة الأولى ، ملتزم الطبع والنشر والتوزيع دار الجنان - بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م . تقديم ، وتعليق : عبد الله عمر البارودى .
- البداية والنهاية : أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤هـ) الطبعة الأولى ، دار الريان للتراث بالقاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ . دقق أصوله ، وحققه : د. أحمد ملحم ، وآخرون .

(*) القرآن الكريم هو المصدر الأول ، ويوضع على رأس القوائم . ويتم ترتيب المصادر والمراجع معاً ترتيباً هجائياً حسب عناوين الكتاب ، مع إسقاط (ال) من الترتيب ، ويتم إفراد المراجع الأجنبية وحدها فى نهاية المصادر والمراجع العربية .

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب : لابن عذارى المراكشى (توفى حوالى نهاية ق ٧هـ) ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة - بيروت ، ضمن سلسلة (المكتبة الأندلسية) رقم (٢٢) ، ١٩٨٣ م . تحقيق ، ومراجعة : ج . س . كولان ، أ. ليفى بروفنسال .
- تاريخ الأدب الجغرافى العربى : تأليف : كراتشوفسكى . طبعة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ م . ترجمة إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم .
- تاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان . نشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ م . نقل الكتاب إلى العربية : أ . د . عبد الحليم النجار ، وآخرون . الإشراف على الترجمة العربية : أ . د . محمود فهمى حجازى .
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس : ، للدكتور حسين مؤنس . الطبعة الثانية ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٦ م .
- تاريخ الخلفاء : لجلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ) الطبعة الأولى ، دار القلم - بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م . حققه ، وقدم له ، وخرج آياته ، قاسم الشماعى الرفاعى ، ومحمد العثمانى .
- تاريخ الرسل والملوك : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧ م ، تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .
- تكملة تاريخ الطبرى : لمحمد بن عبد الملك الهمدانى (ت ٥٢١هـ) . الطبعة الثانية ، دار المعارف بالقاهرة (نشر ضمن ذبول تاريخ الطبرى فى ج ١١ منه) ، ١٩٨٢ م . تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : لآدم متز ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م . نقله إلى العربية : محمد عبد الهادي أبو ريذة .

- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية : للدكتور محمد ضياء الدين الرئيس ، الطبعة الخامسة ، مكتبة دار التراث بالقاهرة ، ١٩٨٥م .

- سنن ابن ماجه : للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، د. ت . حقق نصوصه ، ورقم كتبه ، وأبوابه ، وأحاديثه ، وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي .

- السيرة النبوية : لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٨هـ) . الطبعة الثانية ، ملتزم الطبع والنشر : مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م . حققها ، وضبطها وشرحها ، ووضع فهرسها : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي .

- الفهرست : لأبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بـ (ابن النديم) (ت حوالي سنة ٣٧٧هـ) . الناشر : دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ، د. ت .

- الكامل في التاريخ : لأبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ابن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م . راجعه وصححه : د. محمد يوسف الدقاق .

- كشف الظنون : لحاج خليفة (ت ١٠٦٧هـ) . طبعة : دار العلوم الحديثة - بيروت ، د. ت .

- لسان العرب : لجمال الدين بن منظور (ت ٧١١هـ) . نشر : دار المعارف بمصر ، د. ت. تحقيق : نخبة من العاملين بدار المعارف .
- المسالك والممالك : لأبى القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بـ (ابن خرداذبه) المتوفى حوالى (٣٠٠هـ) . نشر : دى غويه (صورته . ونشرته : مكتبة الثقافة الدينية) د. ت .
- المسالك والممالك : لإبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى (توفى فى النصف الأول من ق ٤ هـ) سلسلة (تراثنا) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٣٨١هـ / ١٩٦١م . تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى . مراجعة : محمد شفيق غربال .
- مصر فى عصر الإخشيديين : للدكتور سيدة إسماعيل كاشف . نشر فى سلسلة (تاريخ المصريين برقم ٢٩) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م .
- معجم الأدباء : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الثالثة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٠م .
- معجم البلدان : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م . تحقيق فريد عبد العزيز الجندى .
- معجم المؤلفين : تراجم مصنفى الكتب العربية : لعمر رضا كحالة ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- المعجم الوسيط : إعداد ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية ١٩٨٥م .

- المقدسي : للدكتور فلاح شاكر أسود . سلسلة (نوابع الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، دار الشئون الثقافية العامة بالعراق - بغداد ١٩٨٨ م .

- المواقظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : لتقى الدين أحمد بن علي المقرئ (ت ٨٤٥ هـ) ، الطبعة الثانية . الناشر : مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٧ م .

- نبذ من كتاب الخراج وصنعه الكتابة) لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٢٠ هـ) . نشر : دي غويه (صورته ، ونشرته : مكتبة الثقافة الدينية في نفس مجلد كتاب ابن خردادبه) د . ت .

- نهاية الأرب في فنون الأدب : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣ هـ) ، الجزء الخامس والعشرون ، مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م . تحقيق جابر عبد العال الحيني ، مراجعة د . عبد العزيز الأهواني .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) . دار صادر - بيروت ، د . ت . حققه : د . إحسان عباس .

- 1 - M. Miquel : AL - Mukaddasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol.7, 1993.
- 2 - Maqdisi, al, published in the new Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985.

المنهج التاريخي للحافظ أبى الطاهر السلفى

فى تأليف كتابة « معجم السفر »

د. هشام عطية عطية أحمد(*)

زخرت الحضارة الإسلامية على مدى تاريخها الطويل بالعديد من العلماء ورجال الفكر الذين أثروا تراثها الحضارى فى مختلف ميادين العلم والمعرفة ، أفنوا أعمارهم المديدة فى مجال البحث والدراسة المتعمقة . ولم يدخروا وسعاً فى سبيل تحصيل العلم وتقديمه لطالبه .

وجدير بنا ونحن نقتفى آثار أولئك السلف الصالح ، ونترسم خطاهم ، ونفيد من علومهم وما جادت به قرائحهم . أن نكون أوفياء لهم ، فنقدرهم حق قدرهم ، ونحى بالدراسة ذكراهم ونعرف الأجيال بتجاههم ومكائهم ، وما أسهموا به فى خدمة تاريخنا الإسلامى .

ومن بين أولئك الأعلام :

الإمام الحافظ أبو الطاهر السلفى . أحد الشخصيات البارزة التى أسهمت بجهده وافر فى مجال علم التاريخ خلال القرن السادس الهجرى .

وكتاب « معجم السفر » ، الذى نحن بصدد الحديث عنه يعد واحداً من أهم وأبرز الكتب التى قام السلفى بتأليفها فى مجال علم تاريخ الرجال «أو ما اصطلح على تعريفه بين جماعة المؤرخين » بتاريخ السير والأعلام .

وسوف تتركز دراستى - بمشيئة الله تعالى وعونه - فى هذا البحث فى بيان المنهج التاريخى الذى سلكه السلفى فى تأليف كتابة « معجم السفر » ، وقد مهدت لذلك بالحديث عن حياة السلفى وطلبه للعلم بصورة موجزة ، ثم توثيقة

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالمنصورة .

وعدالته من قبل علماء الجرح والتعديل الذين أرخوا لحياته ، ثم توضيح مكانته التاريخية ، مع عرض موجز لجهوده العلمية فى هذا الميدان ، ثم تطرقت للحديث عن عدة مسائل هامة مرتبطة أشد الارتباط بمنهجه ، منها : نسبة الكتاب إليه ، وبيان الكيفية التى وصل بها إلينا فى صورته الحالية . وأخيرا عرضت لمنهجه فى تأليف الكتاب ، وغير ذلك من مسائل جاءت مبسطة فى ثنايا البحث .

السلفى - حياته - طلبه للعلم :

هو : أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم سلفة (١) الأصبهاني . وكان مولده بـ « جروان » (٢) سنة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) وقد أوردت المصادر ما يؤيد صحة هذا التاريخ على لسان السلفى نفسه ، حيث كان دائما يردد « أنا أذكر قتل نظام الملك الوزير (٣) الذى وقف المدرسة النظامية ببغداد فى سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) وكان عمرى عشر سنين » (٤) كذلك كان السلفى يحكى عن نفسه أنه حدث سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) وما فى وجهه شعره وأنه كان ابن سبع عشرة سنة (٥).

واللقب الذى اشتهر به منذ ذلك الحين ، وأصبح علما عليه وحده ، هو «السلفى» بكسر السين وفتح اللام - نسبة إلى لقب جد جده « إبراهيم » الذى كان يطلق عليه اسم سلفة (٦) . وإذا انتقلنا إلى بيئة السلفى نرى أن والده عمداً كان رجلاً صالحاً من العلماء المتصوفين المشهورين بالثقة ، وصفه ابن كثير بقوله « أبو أحمد كان شيخا عفيفا ثقة سمع الكثير » (٧) .

وتربى السلفى فى كنف أبيه منذ صباه ثم ارتحل لطلب العلم وعمره أقل من عشرين عاما . ومن يتبع رحلته فى هذا المجال يندهش لهذه العزيمة التى امتاز بها والتى لا تعرف الكلل ولا تقف عند مطمح ، ذلك أنه جاب الكثير من البلاد طولا

وعرضاً للقاء المشايخ أصحاب الأسانيد العالية ، ببغداد والحجاز والشام ، وسمع الكثير ببلدان المشرق الإسلامى وغيرها ، حتى صار طالباً للعلم من الطراز النادر .
ويكفى ما قاله الذهبى عنه « وبقي فى الرحلة بضع عشرة سنة ، وسمع مالا يوصف كثرة » (٨) .

ولاشك فى أن هذه الرحلة الواسعة أكسبت السلفى علماً غزيراً ومعرفة واسعة ، فأتقن علوماً كثيرة من بينها : علم القراءات والحديث والفقه على المذهب الشافعى ، وتقويم البلدان ، والتاريخ ، والأدب واللغة (٩) .

واستقر به المقام أخيراً بمدينة الإسكندرية ، وذلك فى سنة (٥١١ هـ / ١١١٧ م) فاستوطنها بضعاً وستين سنة ، ينشر فيها العلم ، حتى توفى بها سنة (٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م) وما خرج منها سوى مرة واحدة إلى القاهرة للأخذ عن كبار العلماء فيها (١٠) .

وقد ذاعت شهرة السلفى بالإسكندرية ، واكتسب تقدير أهلها وحبهم ، حتى علا قدره ونبه ذكره ، وأفاد بعلمه خير إفادة ، فكان لا يكل ولا يمل من تحصيل العلم وإفادة طلابه . ولعل خير أمثلة على ذلك ما قاله عنه المؤرخون الثقات . فقد وصفه الذهبى بقوله : « ومن شدة انشغاله بالعلم يروى عنه أنه قال : لى ستون سنة بالإسكندرية ما رأيت منارتها إلا من هذه الطاقة . وأشار إلى غرفة يجلس فيها » (١١) .

ويقول عنه فى موضوع آخر « وكان مكباً على الكتابة والاشتغال بالراوية » (١٢) وذكره الياقعى بقوله : « واستوطن الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكباً على الاشتغال والمطالعة والنسخ » (١٣) .

واتخذ السلفى من « المدرسة العادلية » التى بناها له الأمير « أبو الحسن على ابن السلار » بالإسكندرية سنة (٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) (١٤) مكانا للتدريس وإفادة طلاب العلم . وقد أنشئت هذه المدرسة بهدف نشر المذهب السنى ، يقول ابن خلكان عن منشئها « وشد من مذهب أهل السنة فقدم عليه الحافظ السلفى فأكرمه وبنى له مدرسة بالإسكندرية » (١٥) .

ومن العلوم التى كانت تدرس بهذه المدرسة : القراءات ، والحديث ، والفقه وعلى الأخص الفقه الشافعى (١٦) :

• أخلاق السلفى - عدالته وسعة علمه - مذهبه :

كان للسلفى - رحمه الله - شخصية متميزة جعلت الكثير يشق فيه ويحترمه ويحمله ، فقد كان حليما متواضعا يألف الناس ويألفونه ، ويقبل على الجميع بالتلطف معهم ، والإخلاص لهم ، يقول عنه الذهبى « وكان حليما متحملا لجفوة الغرباء » (١٧) ، ويصفه الصفدى بقوله « لا يكاد تبدو منه جفوة فى حق أحد وإن بدأت بادرها حتى لا ينفصل عنه أحد إلا طيب القلب » (١٨) .

ومن الآداب التى التزم السلفى بها عند جلوسه لتعليم الحديث أو إلقاء درس من الدروس ، أنه كان ، يجلس من أول المجلس إلى آخره لا يصق ، ولا يتنخم ، ولا يشرب ، ولا يتورك فى جلوسه ، ولا يبدو له قدم ، وإن بدت غطاها (١٩) . وإذا نظرنا إلى عدالته وسعة علمه ، وما قيل فى شأنه من قبل المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل ، نجد أن هناك شبه إجماع بينهم على الثقة به وبعلمه ، ومدى تحريه وضبطه لما ينقل .

وها هم أولا أبرز العلماء الذين تحدثوا عنه :

قال عنه ابن الآبار الاندلسي « تفرد [أى السلفى] فى الدنيا بالإمامة فى علم الحديث وعلو الدرجة فى الإسناد، وأخذ عنه أهل الأرض جيلا بعد جيل» (٢٠) . وقال عنه ابن خلكان « أحد الحفاظ المكثرين ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله » (٢١) . ووصفه الذهبى بقوله : « كان السلفى جيد الضبط كثير البحث عما يشكل ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعرفهم بقوانين الراوية والتحديث ، جمع بين علو الإسناد وعلو الانتقاء وبذلك تفرد عن أبناء جنسه » .

كذلك وصفه الصفدى ، وصفا جامعا ، كشف لنا فيه عن عالم قلما يجود الزمان بمثله فقال : « كان (السلفى) إماما مقررنا مجودا محدثا حافظا جبهذا ، فقيها مفننا ، نحويا ماهرا ، لغويا محققا ، ثقة فيما ينقله ، حجة ثبنا » (٢٣) .

وذكره ابن الجزرى فقال عنه « كان السلفى أعلى أهل الأرض إسنادا فى الحديث والقراءات مع الدين والثقة والعلم » (٢٤)

وأخيرا يقول عنه السيوطى « كان إماما حافظا متقنا ، ناقدًا ، ثبنا ، دينا خيرا ، انتهى إليه علو الإسناد ، روى عنه الحفاظ فى حياته وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الراوية » (٢٥) .

هذه أشهر الروايات التى وصف بها السلفى من علماء ثقات ، وعلى الرغم من بعض المبالغات التى نلمسها فى بعض الألفاظ التى قيلت فيها ، إلا أنها جاءت مجمعة على أنه كان ثقة فى رواياته متحريرا ناقدًا صاحب ورع وتدين امتد به العمر حتى أصبح أعلى أهل زمانه إسنادا .

أما عن مذهب السلفى وعقيدته ، فقد اشتهر بأنه كان سنى المذهب حسن الاعتقاد متقنا للفقہ على المذهب الشافعى ، وشيخه فى هذا المجال هو « الكيا الهراسى » البغدادى (٢٦) وكان السلفى دائما ما يعتز بانتسابه إلى مذهب الإمام الشافى — رحمه الله تعالى — وقد سجل ذلك عن طريق بعض الآيات التى يقول فيها :

إمامى الشافعى وحين أفتى
بمذهبه المذهب طال عيشى
وإنى لا أبالى بانفرادى
وبقوة حجتى فى ألف جيش (٢٧)

ولم يكن السلفى متشددا فى مذهبه ، بل كان ذا عقلية متفتحة لا يعميها التعصب ، وآية ذلك أننا نراه ينقل فى كتابه بعض الأشعار عن مدح المذهب المالكى وإمامه ، منها رواه مسنداً إلى " ابن العسال " بقوله :

أيا من غدا جاهلا ناسكا
إن أحببت أن لا ترى هالكا
فأم إمام الهدى مالكا
ولا تك مذهبه تاركا
فمذهبه ناشر من كـ
فمن لمن كان مذهبه فى جهله قد دفن (٢٨)

ونراه أيضا يعلق بعض الأشعار الحسنه عن أناس اشتهروا بالتشيع ، ويصرح بذلك ، فيقول مثلا عن " أبى الوفاء صادق بن عبد الله " قاضى الإسكندرية أنشدنى لنفسه :

العلم فرع طيب أصله
لا شك والعقل له أصل
فارجع إلى العقل وخل الهوى
فما لك العقل له الفضل

ويترجم له فيقول : أبو الوفاء هذا كان من أهل الوفاء حسن العشرة عارفا بالأحكام وكان إسماعيلى المذهب " (٢٩) كذلك بلغ من عدم تعصب السلفى وحسن دينه وحياده ، أن كاتب الزمخشري (٣٠) وهو معتزلى المعتقد يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته (٣١).

مكانته التاريخية :

كان للسلفى ميل كبير لدراسة التاريخ وروايته وتدوينه ، والتصنيف فيه ، خاصة علم الرجال أو ما اصطلح على تسميته « بتاريخ السير والإعلام » ، لما لهذا اللون من التأليف من صلة وثيقة بعلم الحديث الشريف الذى كان السلفى متخصصا فيه ، وكرس حياته لخدمته ودراسته .

وسوف نتناول بشيء من التفصيل هذه الجوانب التاريخية من حياة السلفى حتى يمكننا الوقوف على مدى إسهاماته ومكانته فى هذا المجال .

وأول ما نلاحظه فى تنفيذ هذا المنهاج هو روايته لكب الأقدمين المشهورين بالثقة فى تدوين التاريخ الإسلامى أمثال ، المؤرخين : « ابن هشام » « وابن عبد الحكم » فى كتابيها « السيرة النبوية » ، « وفتوح مصر وأخبارها » .

أما عن السيرة النبوية لابن هشام فإن رواية السلفى لهذا الكتاب قد لاقت شهرة كبيرة فى أكثر من بلد (٣٢) وآية ذلك أننا نجد بعض الطلاب الذين سمعوه منه وقرأوه عليه . يحدثون بروايته (٣٣) وبما نسخوه عن الأصل المكتوب بخط يده فى البلاد التى رحلوا إليها ومنها مكة والشام (٣٤) ويعنى ذلك أن الكتاب محاط بأكبر قدر من الثبوت والتحري ، مادام منقولاً عن طريق السلفى الذى اشتهر بالصدق والعدالة ، وهذه شهادة تحسب له .

أما عن روايته لكتاب فتوح مصر وأخبارها — للمؤرخ « ابن عبد الحكم » الذى يعد أبرز وأهم وثيقة تاريخية عن الفتح الإسلامى لمصر وقيام دولة الإسلام فيها فنجدها (أى رواية السلفى) مصدرة فى الصفحة الأولى من الكتاب (٣٥) بإسناد متصل بدءاً من شيخه « أبى صادق مرشد بن يحيى المدينى » وانتهاء بعلى ابن الحسن المعروف بابن قديد الذى يعتبر آخر من تلقى كتاب فتوح مصر مباشرة كما دون عن صاحبه الأصيل ابن عبد الحكم (٣٦) .

وقد اتضح من خلال هذا الإسناد أن « السلفى » هو الراوى الأخير ،
الذى وصلنا عن طريقه كتاب « فتوح مصر وأخبارها » بنصه الحالى ، فهو آخر
حلقات الاتصال بيننا وبين ابن عبد الحكم مدون الراوية وصاحبها (٣٧) .

ومع ما اشتهر به السلفى من حفظ وتحقيق وعدالة ، فضلا عن تعمقه فى
مجال الجرح والتعديل ، فإننى أرجح رأى القائل : بالاطمئنان والثقة إلى أن كتاب
فتوح مصر بنصه الحالى مطبوع بطابع عميق من الثبوت والصحة والضبط مع خلوه
من أى دس أو لبس (٣٨) .

وأزيد على ذلك بقولى : أننا مدينون لهذا الرجل العظيم (السلفى)
بالفضل ، إذ لو لا أن قيده الله تعالى لهذا العمل ، لكان من الجائز جدا أن تحوم
الشبهات وتتدخل الاساطير فى أقدم وأنفس وثيقة وصلتنا عن الفتح الإسلامى
لمصر .

ومن الكتب التاريخية التى رواها السلفى أيضا : كتاب « فضائل مصر
وبيت المقدس والشام » للمؤرخ عمر بن يوسف الكندى (ت ٣٥٠هـ — /
٩٦١م) (٣٩) كذلك من مجهوداته المشكورة وإسهاماته فى علم التاريخ ، مختصراته
لبعض الكتب المشهورة مثل « مختصر كتاب تاريخ بخارى » لمحمد بن أحمد
البخارى (ت ٤١٢ هـ — / ١٠٢١ م) (٤٠) .

« وكتاب تاريخ طرابلس » لأبى الحسن على بن عبد الله الطرابلسى
(ت ٥٢١ هـ — / ١١٢٧ م) وذكره السلفى فى كتابه « معجم السفر » بقوله :
«أبو الحسن هذا كان من بين الصلاح ... وكان له اهتمام بالتواريخ وصنف
لطرابلس تواريخ وقفت عليه وانتخبت منه ما استغربته وحدثنى به » (٤١) .

وإلى جانب ذلك قام السلفى بانتقاء بعض المصنفات من كتب التاريخ ،
وتحقيقها والتعليق عليها والتدريس منها . من أشهرها : كتاب « الإرشاد إلى
معرفة علماء الحديث والبلاد » لأبى يعلى الخليل بن عبد الله القزوينى (ت ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م) (٤٢) .

• أما عن أهم الكتب التاريخية التى قام السلفى بتأليفها فهى على
النحو التالى :

« معجم أصبهان » أو « المشيخة الإصبهانية » وهذا المعجم عبارة عن
تراجم جمعها السلفى عن شيوخه بمدينة أصبهان وهم يزيدون على ستمائة شيخ .
يقول الذهبى : « وله معجم لمشيخة أصبهان فى مجلد أزيد من ستمائة شيخ » (٤٣)
ووصفه السبكى بقوله : « وعمل معجما حافلا لشيوخه الإصبهانيين » (٤٤) وهذا
الكتاب مفيد لدارسى تاريخ الحركة الأدبية والفكرية لمدينة أصبهان خلال القرن
الخامس الهجرى .

« معجم بغداد » أو « المشيخة البغدادية » قام السلفى بتأليفه لشيوخه
الذين أخذ عنهم ببغداد ، وأورد ذكره ضمن كتابه « معجم السفر » (٤٥)
ومعجم بغداد لاغنى عنه للمشتغلين بتاريخ الحركة الفكرية ببغداد فى أواخر القرن
الخامس الهجرى .

• أما آخر هذه المعاجم وأهمها وأشهرها ذكراً فهو « كتاب معجم
السفر » الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وقد ذكره السخاوى ضمن كتابه
« الإعلان بالتوبيخ » (٤٦) وسوف اقتصر على ذلك فى الإشارة إليه ، كى أخصه
بمزيد من التفصيل بعد قليل .

ولم تقف مجهودات السلفى فى التأليف التاريخى عند هذا الحد ، بل ترك لنا عددا آخر من المؤلفات عبارة عن تراجم مفردة - لبعض العلماء الذين تأثر بهم - واصطلح على تعريفها « بالسير الذاتية » من أشهرها :

• كتاب : « ترجمة حياة محمد بن أحمد الأيوردى » المعروف بأبى المظفر (٤٨) .

• ترجمة : « حياة أبى نعيم الأصبهاني » قال عنه الذهبى قد جمع ... السلفى أخبار أبى نعيم وذكر من حدثه عنهم وهم نحو ثمانين رجلا (٤٩) .

وبعد فهذه هى أبرز إسهامات السلفى فى ميدان علم التاريخ ، ما بين رواية لكتب المؤرخين الأقدمين المشهورين بالثقة ، ومختصرات لبعض الكتب وانتقاء المستغرب منها وتحقيقه ، ثم مؤلفاته القيمة فى مجال علم الرجال أو السير والإعلام الذى كان فارسه المجلى خلال القرن السادس الهجرى .

والآن يأتى دور الحديث عن أهم وأبرز الكتب التى ألفها ، وهو كتاب «معجم السفر» .

نسبة الكتاب إلى السلفى :

لا يدور أدنى شك حول نسبة كتاب « معجم السفر » إلى السلفى ، فقد أجمع أكثر من مؤرخ موثوق به على نسبته إليه . من بينهم :

« ابن خلكان » الذى أشار إليه فى كتابه « وفيات الأعيان » فى أكثر من موضع نقل فيه عن السلفى (٥٠) .

وها هو ذا أحد الأمثلة :

يقول ابن خلكان فى ترجمته لأبى الحسن على بن محمد المعروف بابن القابسى « وذكر الحافظ السلفى فى « معجم السفر » أن شخصا قال فى مجلس القابسى وهو بالقيروان » (٥١) .

وبمقارنة ذلك المثال على ما ورد بالنسخة المطبوعة لكتاب «معجم السفر»، والتي اعتمدت عليها هذه الدراسة وجدت أنهما متطابقتان تماما مما يوضح أن الكتاب للسلفى (٥٢) .

وهناك أيضا ما ذكره « الذهبى » فى كتابه « تذكرة الحفاظ » بقوله : « وله (أى للسلفى) معجم لباقى البلاد سماه « معجم السفر » (٥٣) بالإضافة إلى ما أورده فى كتابه سير اعلام النبلاء بقوله « وقد جمعوا له من جزاة وتعليقه " معجم السفر " فى مجلد كبير » (٥٤) .

وأخيرا يؤكد السخاوى على نسبة الكتاب للسلفى ، ليس هذا فحسب بل نراه يصنف كتابه ضمن أهم المؤلفات التاريخية فى التراجم تحت باب « الرواة المعتمدون أو المصنفون » ، يقول السخاوى « ومعجم السفر . للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد » (٥٥) . وفى باب « المعاجم والمشيخة » يؤكد السخاوى مرة أخرى على ذلك بقوله : « ... ومنهم السلفى له ... معجم السفر » (٥٦) . وعلاوة على هذه المصادر ، فإن الكتاب الذى بين أيدينا نشر عن نسخ خطية معترف بها فى أكثر من خزانة لكتب التراث فى أنحاء العالم ، منها نسخة محفوظة فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم ١٧٦ حديث ، وهى التى اعتمدها المحقق فى طبع الكتاب (٥٧) .

• هل « معجم السفر » هو ذاته معجم الشعراء ؟

ذكر « كارل بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » أن للسلفى معجما بعنوان « معجم الشعراء » وقد نقل ذلك عن ياقوت الحموى من كتابه الشهير « إرشاد الأريب أو معجم الأدباء » (٥٨) .

وهذا المعجم المذكور لم أجد له شبيها بهذا الاسم ضمن المصادر التى اطلعت عليها سوى فى كتاب « معجم الأدباء » فالمشهور والمتواتر فى المصادر التاريخية الأخرى أن للسلفى ثلاثة معاجم فقط هى : معجم أصبهان ، ومعجم بغداد ، ومعجم السفر (٥٩) .

فكيف انفرد إذا ياقوت الحموى بذكر هذا المعجم دون سواه من المصادر التاريخية الأخرى ؟

وللإجابة نقول : لقد اتضح من خلال المقارنة بين ما صرح به ياقوت فى معجم الأدباء بالنقل من معجم الشعراء وبين ما دونه السلفى بكتاب « معجم السفر » أن ما نقله ياقوت هو ذاته ما وجد مدونا « بمعجم السفر » دون أدنى تبديل أو تغيير (٦٠) وعلى سبيل المثال :

ذكر ياقوت فى ترجمة « الحسن بن أحمد بن على الفارسى » ما نصه : « قرأت فى معجم الشعراء للسلفى : أنشدنى أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوثر المحاربى الغرناطى بديار مصر قال : أنشدنى أبو الحسن على بن أحمد بن خلف النحوى لنفسه بالأندلس فى كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى :

أضع الكرى لتحفظ الإيضاح وصل الغدو لفهمه برواح

إلى آخر الأبيات (٦١) .

ونص ما ذكر موجود بتمامه فى كتاب « معجم السفر » المطبوع الذى

بين أيدينا ص ٣٩ - ٤٠ .

وغير ذلك فهناك أكثر من مثال يتمشى مع هذا النمط (٦٢) .

وإزاء ذلك فإننى أرجح احتمالاً واحداً وهو : أن كتاب معجم الشعراء الذى انفرد بذكره ياقوت هو نفسه كتاب « معجم السفر »

ومما يجعلنى أرجح هذا الاحتمال عدة أمور :

أولها : أن ياقوت هو الوحيد من بين جميع المصادر التى اطلعت عليها هو الذى نسب هذا الكتاب للسلفى .

ثانيها : أن ما نقله هو ذاته ما وجد فى « معجم السفر » .

ثالثها : أن الاسم الأخير للكتاب وهو « معجم السفر » هو الذى ظل مشهوراً وتناقله الخلف عن السلف حتى يومنا هذا .

وبناء على ما تقدم فإن ياقوت قد جانبه الصواب فى تحديد الاسم الأصلى للكتاب بيد أنه من باب الإنصاف أن نذكر أن كتاب « معجم السفر » قد ضمنه صاحبه السلفى الكثير من الأشعار ، حتى أنه يخيل للقارئ أن كل من التقى بهم السلفى وجمعهم فى معجمه هذا من الشعراء (٦٣) .

ويبدو أن كارل بروكلمان ، اعتمد على ما نقله ياقوت دون تمحيص أو تحليل . وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالتسجيل فى هذا الصدد وهى : أن أحد المستشرقين ذكر - فى مقال له نقل فيه بعض الأخبار الخاصة بمسلمى صقلية عن كتاب « معجم السفر » - أن كارل بروكلمان لم يصنف فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » معجم السفر « من بين مؤلفات السلفى التى ذكرها (٦٤) .

ويعلق على ذلك فى موضع آخر فيقول « ربما جهل بروكلمان وجوده » (٦٥) .

والحقيقة أن هذا المستشرق يشترك مع بروكلمان فى عدم الإحاطة بهذا الكتاب « معجم الشعراء » ، و بالتالى فإنه لم يدرك أن معجم الشعراء ما هو إلا « معجم السفر » .

• كيف وصل إلينا كتاب « معجم السفر » ؟ :

ورد فى صدر الصحيفة الأولى من مخطوطة « معجم السفر » المحفوظة فى مكتبة عارف حكمت والمعتمدة لدى المحقق النص الآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله على آلائه وصلواته على محمد خاتم أنبيائه ، وعلى آله وأصحابه وأصفياه وسلم كثيرا وبعد ، فإن جزازات من معجم السفر وقعت بخط الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد الاصبهاني رضى عنه فيبضتها ورتبتها كما يجب ، والله أسأل النفع بذلك إنه رحيم كريم » (٦٦) .

ويتضح من هذا النص عدة أمور على جانب كبير من الأهمية : أفصلها على النحو التالى :

أولا : أن كلمة « جزازات » الواردة جمع جزازة من كل شئ ما قطع منه فهى مأخوذة من جَزَّ بمعنى قطع (٦٧) . وغاية ما نستطيع أن نفهمه من ذلك أن كلمة « جزازات » عبارة عن قطع من الورق أشبه بمسودات أو صحائف صغيرة تكتب لأول مرة ثم تنقح وتحرر وتبيض (٦٨) ومعنى هذا أن السلفى - رحمه الله - اتبع هذه الطريقة فى تدوين كتابه ، فكان يسجل ما يسمعه أو يعرفه من تعليقات - على عدة مراحل بما يشبه الكشف المتدرج - فى بطاقات أو صحائف ، على أن يعاود تنظيمها وضبطها فى مواضعها ، وهذه الطريقة تتطلب أن يترك المؤلف فراغات واضحة بمسوداته لما قد يضيفه من معلومات طارئة أو متجددة (٦٩) وهذا ما وجدناه متبعاً فى كتاب « معجم السفر » فالكثير من التراجم التى أوردها السلفى جاءت ناقصة وبها فراغات واضحة . وعلى سبيل المثال لا الحصر:

يقول السلفى : « أنشدنا أبو محمد بن توهيب الوراق لنفسه » (٧٠) ثم نرى بعد ذلك فراغا ولا نجد شعرا لابن توهيب . وعلى هذا يمكننا قياس الكثير من التراجم والأخبار التى وردت فى المعجم (٧١) .

وهناك أيضا سبب آخر جعل الكتاب به ثغرات كبيرة لم تكتمل - بناء على الطريقة التى اتبعها السلفى - وهو : أن مجموعات كبيرة من التعليقات التى دونها عن شيوخه كان قد تركها وديعة فى بعض البلاد التى زارها أثناء رحلته ، على أمل أن يهين الله له إحضارها بطريقة أو بأخرى . غير أن هذا الأمل لم يتحقق ، ولم يمهله القدر فى إحضارها ووضعها فى كتابه ، ولذلك جاءت معظم ترجماته فى « معجم السفر » ناقصة .

ويمكننا أن نتبين هذا من خلال الإشارات الكثيرة التى أوردها فى ثنايا كتابه والتى تفيد أيضا أن هذه المجموعات كانت ذات قيمة كبيرة لديه .

وها هى ذى بعض النماذج :

يقول السلفى فى ترجمته للفقير شريف بن فياض « وقرأت عليه أحاديث.... وهى مودعة فى جملة ما أودعته بثغر آمد » (٧٢) .

وفى ترجمته « لشفاء بن عبد الجبار » يقول : « وما كتبه عنه فى جملة ما خلفته بثغر سلماس مودعا » (٧٣) .

وفى ترجمة عبد الله بن الحسين يقول : « وما كتبه عنه فى جملة الأجزاء المودعة بسلماس أوصلها الله تعالى إلى بكرمه » (٧٤) .

وذكر فى ترجمته « لـ عبد الله بن أبى نصر الشيرازى » « وعلقت عنه من حكايات الشيوخ وهى كلها فى جملة الأجزاء المودعة بسلماس جمعها الله على قبل الممات بفضله وكرمه » (٧٥) .

وفى ترجمة « على بن السند » يقول : « ولم أظفر الآن بما كتبه عنه فهو بثغر آمد مع فوائد ديار بكر مودع سهل الله وصول الكل إلى » (٧٦) .

ولا أطيل بذكر هذه الأمثلة العديدة (٧٧) وحسبى أن يكون فيما أوردته بيانا على أن الكثير من أجزاء هذا الكتاب لم تدون ، والتي تركت معها ثغرة كبيرة جعلت الكتاب يبدو ناقصا من نواحي كثيرة (٧٨) .

وهذه النقطة تحيلنا إلى تساؤل على جانب كبير من الأهمية ، وهو : متى انتهى السلفى من تدوين كتابه ؟

والإجابة على هذا التساؤل تبدو عسيرة بعض الشيء ، لأن آخر تاريخ صرح به السلفى فى معجمه كان سنة ٥٦٣ هـ (٧٩) مما يعنى أنه وقف فى تدوين كتابه عند هذا التاريخ .

بيد أن ذلك الحكم يؤخذ بتحفظ ، لأن السلفى توفى سنة ٥٧٦ هـ . ومن المستبعد أن يظل ثلاثة عشرة سنة لا يدون فيها شيئا عن شيوخه سواء الذين كانوا بالإسكندرية أو الوافدين عليها ، خاصة بعد ما عرفنا من المصادر أنه ظل متمتعا بالصحة والحواس السليمة ودقة الملاحظة حتى آخر ليلة من وفاته . ويؤكد ذلك الذهبى بقوله : « وحدث ليلة موته ، وهو يرد اللحن الخفى على القارئ ، وصلى الصبح ومات فجأة » (٨٠) .

وهذا يجعلنى أعتقد أن السلفى لم يتوقف فى كتابه عند سنة ٥٦٣ هـ . ولعل ما يقوى هذا الاعتقاد ويرجح أنه أورد تراجم فى كتابه « معجم السفر » لبعض الرجال الذين عاصروهم وقابلهم عاشوا بعد هذا التاريخ بمدة . وقد وجدنا تاريخ وفاتهم مدون فى المصادر الأخرى ، منهم على سبيل المثال :

« اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى الأندلسى ، (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) (٨١) و « عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى اليابس » (ت ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) (٨٢) و « أبو الطاهر إسماعيل بن عوف » ، (ت ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) (٨٣) .

والذى يمكن أن نستخلصه أخيراً بعد هذا العرض هو : أن السلفى جمع أجزاء كثيرة من مادة كتابه ، ولكنه لم يتمها على الوجه الأمثل الذى أراده هو

وأردناه نحن ، بل ظل نمو جمعه للمادة العلمية يطرد مع الأيام لم يصل فيها إلى نهاية محددة تنتهى بتاريخ معين . ولم يمهله القدر ليدون ما جمعه فى كتاب خاص بذاته مرتب ومبوب عن طريقه هو ، بل ظلت مادة كتابه على هيئة مسودات أو صحائف أو ما أطلق عليه « جزازات » إلى أن هيا الله تعالى من يقوم من بعده يجمعها وترتيبها ثم نسخها فى شكل كتاب .

ومن هنا نصل إلى « ثانى الأمور » المتعلقة بما ورد فى صدر الصحيفة الأولى من المخطوط الذى طبع عنه الكتاب الذى بين أيدينا . وهذا الأمر متعلق باسم الناسخ الذى قام بتبيض وترتيب هذه الجزازات .

وبما أن النص لا يشير إلى اسم الناسخ ، فقد وجدنا ما يدلنا عليه ، وهو السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتويخ » . يقول السخاوى « ومعجم السفر ، للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد بخط محمد بن المنذرى ، قال عن أبيه الزكى : أنه وقع له بخط السلفى فى جزازات ، كل ترجمة فى جزاة ، فيبضها ورتبها كما تجىء لا كما يجب ، وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغى » (٨٤).

وحلقة الاتصال الأولى كما تبدو من هذا النص شملت الزكى المنذرى بصفته الجامع الأصل لمسودات السلفى ، والقائم بترتيبها . أما الحلقة الثانية فهى ابنه محمد الذى أوكل إليه المنذرى مهمة نسخ الكتاب . ، ويفسر ذلك قوله « فيبضها ورتبها كما تجىء لا كما يجب » بالكسرة المشددة فى حرف الياء فى (يبضها) والتاء فى (رتبها) ومع أن هاتين الكلمتين لم يضبطا بالشكل فى النص الوارد إلا أن ذلك يتمشى مع سياق الجملة ، فضلا عن أنه يتفق مع ما ورد فى صدر الصحيفة الأولى من المخطوط فى قوله « فيبضتها ورتبتها كما تجىء لا كما يجب » بلفظ المتكلم على لسان محمد بن المنذرى ناسخ المخطوط كما بين السخاوى .

ولعل ما يفسر قول المنذرى الوارد فى النص « كما تجىء لا كما يجب » أنه أضاف إلى جانب ترتيبه لمسودات تراجم السلفى بعض القول والإشارات ، فأراد بذلك أن يضع قاعدة لابنه « محمد » يسير عليها عند نسخ الكتاب فلا يشذ عنها.

وربما يكون هذا ما قصده السخاوى من قوله عن المنذرى « وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغي » .

بيد أن الشيء الذى يحسب للمنذرى فى نقوله وإشاراته التى أوردها فى معجم السفر ، أنه أضاف نصوصا بأكملها ، من المرجح أنها ضاعت من أصول السلفى ، وعثر هو عليها مدونه بخطوط أصحابها . ليس هذا فحسب بل كان ينبه القارئ بين ما كتبه السلفى بخطه ، وبين ما كتبه غيره له . وفى كل هذه المواضع كان المنذرى يصرح باسمه ، فإذا ما كان الكلام للسلفى بعد ذلك أبانه بقوله « قال الحافظ » أو « رأيت بخط السلفى » كى يفطن القارئ بين هذا وذاك فلا يحدث التباسا ، والأمثلة على ذلك قليلة فى « معجم السفر » (٨٥) مما يعنى أن مداخلات المنذرى كانت بغرض حفظ تراث السلفى وإثباته .

كذلك يحسب « للمنذرى » ترتيبه وتنسيقه للكثير من الورقات التى قام السلفى بتعليقها ولم يضعها فى مظانها . وكان « المنذرى » ينص على ذلك صراحة مكثفا ببعض العبارات مثل « وفى ورقة أخرى » (٨٦) و « بخطه يعنى السلفى يقول » (٨٧) و « قال السلفى فى رقعة أخرى » (٨٨) وهكذا .

وإزاء ذلك فنحن أمام حقيقتين : الأولى : أن المنذرى هو الجامع الأصلى لمسودات « معجم السفر » وصاحب الترتيبات والإضافات التى فيه ، والثانية : أن ابنه محمداً هو الناسخ الذى يمثل الحلقة الرئيسية فى سلسلة توصيل الكتاب إلينا .

فمن هو إذا المنذرى ، وما مدى توثيقه وعدالته ، وكيف استطاع الحصول على مسودات كتاب « معجم السفر » ؟ ومن هو ابنه محمد ، وما مدى عدالته ؟ ولارىب فى أن الإجابة على هذه الأسئلة سوف تعيننا كثيرا على الاطمئنان والتثبت من أصول الكتاب ، وبأنه دون فعلا عن صاحبه السلفى .

أما عن المنذرى : فهو : عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله الشهير « بزكى الدين المنذرى » أصله من الشام ، وولد بمصر سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ،

ونشأ وتوفى بها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، أى أنه مصرى المولد والدار والوفاة. وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بمصر وانقطع بهما مدة عشرين سنة، وكان من المتبحرين فى علم الحديث على اختلاف فنونه ، وله اليد الطولى فى علم اللغة والفقه والتاريخ (٨٩) .

وعن توثيقه وعدالته ، فقد قال فيه ابن خلكان « الحافظ زكى الدين محدث مصر فى زمانه » (٩٠) .

ووصفه ابن كثير بقوله « الإمام العلامة ... سمع الكثير ورحل وطلب ، وعنى بهذا الشأن حتى فاق أهل زمانه ... وكان ثقة حجة متحريراً زاهداً » (٩١). وذكره ابن تغرى بردى فقال : « الإمام الحافظ الحجة ، سمع الكثير ، ورحل وكتب وصنف وخرج وأملى وحدث بالكثير ... وهو أحد الحفاظ المشهورين » (٩٢).

وأخيراً يصفه السيوطى بقوله « الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام ... كان عديم النظر فى علم الحديث إماماً حجة ، بارعاً فى الفقه والعربية والقراءات ورعاً متبحراً » (٩٣) .

إذن كان المنذرى آية عصره فى الحفاظ والتثبت وحجية القول ، وفى ذلك ما يرفع من قيمة ما دونه من كتاب «معجم السفر» ويطبعه بطابع عميق من الصحة . أما عن كيفية حصوله على مسودات كتاب « معجم السفر » فقد ثبت تاريخياً استحالة أن يكون أخذها من السلفى مباشرة ، لأنه لم يتقابل معه أصلاً . والسبب بسيط وهو : أن السلفى توفى سنة ٥٧٦ هـ ، والمنذرى ولد سنة ٥٨١ هـ أى أن السلفى توفى ولم يكن المنذرى قد ولد بعد .

ولم يبق أمامنا إزاء ذلك إلا احتمالين :

أما الأول : فهو ما ذكرته المصادر من أن السلفى كانت لديه مكتبة ضخمة حوت كل تراثه ومدوناته وغيرهما من نفائس الكتب ، لدرجة أن وصفها الذهبى

بقوله « قل ما اجتمع لعالم مثلها فى الدنيا » (٩٤) ولكن الشىء المؤسف أن هذه المكتبة تلف أكثرها بعد وفاته ، ويصور لنا ذلك المنذرى (٩٥) بقوله : وكان عنده (أى السلفى) خزائن كتب لا يتفرغ للنظر فيها فعفنت وتلصقت لنداوة البلد (الإسكندرية) فكانوا يخلصونها بالفأس فتلف أكثرها «(٩٦) .

وما نستطيع تفسيره من هذا النص هو : أن مكتبة السلفى ظلت مغلقة حينما من الدهر بعد وفاته ربما حتى زمن المنذرى ، وبأمر من سلطان الدولة أو حاكم الإسكندرية مثلاً تم فتحها للتصرف فى محتوياتها . وكان المنذرى حاضراً هذا المشهد ، وبطريقة أو بأخرى وقعت فى يده هذه المسودات فجمعها ودونها . وهذا الاحتمال بعيد فيما اعتقد .

وأما الاحتمال الثانى الذى ارجحه فهو أن يكون تراث السلفى هذا انتقل بعد وفاته إلى ابنته الوحيدة « خديجة » التى نشأت فى كنفه وتعلمت منه الحديث وروته عنه بالإسكندرية ، وتوفيت سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م (٩٧) . ولكى تحفظ « خديجة » هذا التراث لأبيها رأت أن تجيز لطلاب العلم النبهاء فيدونوه ويحفظوه ثم تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل حتى يصبح أثراً خالداً . ويؤيد هذا التصور أن المنذرى كان أحد الطلاب الذين اجازتهم خديجة ، وقد أكد بنفسه على ذلك بقوله « ولنا منها إجازة ، كما مدحها بـ « الشيخة الأصيلة » (٩٨) .

لهذا فإنه من المرجح أن تكون خديجة هى التى أعطت المنذرى مسودات «معجم السفر» وأجازت له تدوينها وحفظها وهى تعى تماماً أنها ستكون يد أمينة لأن المنذرى - كما بينا - هو من هو فى علمه وفهمه وتحريره وزهده .

أما عن إجابة الشق الثانى من الأسئلة الخاصة « بمحمد بن المنذرى » ناسخ كتاب « معجم السفر » فما نعلمه من أمر حياته أنه ولد سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م (٩٩) وقام أبوه المنذرى باصطحابه إلى العلماء الأفاضل للسمع عليهم ، ثم أكب على طلب العلم بنفسه فرحل وسمع بدمشق وحلب ، حتى وافته المنية وهو شاب فى سنة (٦٤٣ و قيل ٦٤٤ هـ) (١٢٤٥ - ١٢٤٦) (١٠٠) .

وعلى الرغم من تلك الفترة القصيرة التي عاشها « محمد بن المنذرى » إلا أنه أظهر فيها نبوغا وفطنة وفضلا . وقد دلنا على ذلك تلك الأسطر القليلة التي وصفه فيها بعض المؤرخين :

فقد قال فيه الذهبي : « الحافظ الزكى ... أحد الشباب الفضلاء كتب الكثير ولو عاش لساد » (١٠١) .

ووصفه الصفدى بقوله : « الحافظ المتقن ... كان ذكياً فطناً حافظاً » (١٠٢) .

نستخلص من هذا : أن شخصية محمد بن المنذرى كانت على شاکلة أبيه من الأخلاق الحسنه والذكاء والإتقان والحفظ . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نقاء سريرته والثقة به وبعلمه مما يجعلنا نطمئن إلى الاعتقاد بأن ما نسخه من كتاب « معجم السفر » على أعلى قدر من الثبوت والضبط .

وثمة تساؤل أخير ينبغي أن نعالجه فى هذا الموضوع . وهو : هل كتاب «معجم السفر» الذى بين أيدينا تم نشره مباشرة عن النسخة التى كتبها محمد بن المنذرى بخطه ، أم أن هناك حلقة أخيرة فى سلسلة توصيل الكتاب ؟

وللإجابة أقول : بعد الإطلاع على خاتمة كتاب « معجم السفر » وجدنا عبارتين تفيدان أن هناك ناسخ أخير كتب تلك النسخة التى خطها محمد بن المنذرى ، وعنها طبع الكتاب الذى بين أيدينا .

العبارة الأولى « آخر ما وجد من معجم السفر » بخط الإمام الحافظ أبى طاهر الأصبهاني فى جزازات . « ويبدو أنها عبارة المنذرى » التى خطها بقلمه ابنه محمد» (١٠٣) .

أما العبارة الثانية : فهى كلمة الفراغ من الناسخ الأخير للمخطوط ونصها « فرغ من نسخه العبد الفقير إلى ربه الجواد » عبد الحفيظ بن المرحوم محمد صالح حماد « يوم الأربعاء لخمس وعشرين من شوال سنة ١٢٣٩هـ » (١٠٤) .

وبناء على ذلك فإن « عبد الحفيظ » هذا يكون آخر حلقات الاتصال فى سلسلة نسبة سياق الكتاب إلى مؤلفة الأصيل السلفى .

بالإطلاع على المصادر التى تحت يدى لم أعثر لهذا الناسخ على ترجمة ، وكل ما استطعنا معرفته « فى ضوء النص السابق » أنه كان موجودا عام ١٢٣٩هـ ، وهى سنة انتهائه من كتابة « معجم السفر » ، فهو إذا من رجال القرن الثالث عشر الهجرى .

وحتى يمكننى التأكد من نزاهة وأمانة هذا الناسخ ، للتحقق من صحة أصول الكتاب ، لم يكن أمامى إلا التعرف على أسلوب السلفى ذاته فى « معجم السفر » وهل هو يتفق مع ذات الأسلوب الذى اشتهر به فى أعمال أخرى له أم لا ؟ ثم مقارنة ذلك على أساليب وصيغ كتاب العصر الذى عاش فيه السلفى ، وفى هذه الحالة إما أن يجعلنا الناسخ مرتبطين بأصول وجذور الكتاب كما دون عن صاحبه الأصيل ، وأما أن يخرجنا عن هذا الإطار .

والمطلع على أسلوب السلفى فى معجمه هذا يلحظ بوضوح أنه يغلب عليه طبع المحدثين ، فهو لا يلقى بالاً للأناقة اللفظية أو الجمال الفنى بقدر ما يعطى من الحرص على سلامة السند ، وصحة الرواية ودقة التاريخ وضبط الأسماء .

فأسلوبه سهل يبين يعتمد الألفاظ الدقيقة المؤدية للمعنى المراد بلا تعقيد ولا إبهام ، بالإضافة إلى أن أسلوبه يتسم بالزهد والتواضع ونزاهة النفس والإيجاز الذى يتحقق به التيسير على القارئ فيصل إليه ببساطه وعدم تكلف لدرجة أننا نجد فى بعض عباراته بعض الأساليب التى تصل إلى مستوى لغة العامة .

وإليك بعض النماذج :

فمن أساليبه التى ليس فيها تعقيد ولا إبهام وتؤدى إلى المعنى المراد قوله : «المهذب هذا كان مهذباً كاسمه فى العربية وحسن الصحبة» (١٠٥) و«مفرج هذا كان كفيها وفقهها عفيها» (١٠٦) ومن أساليبه التى تتسم بالزهد والتواضع :

نقتطف هذه العبارات : فيقول مثلاً في ختام تراجمه التي يوردها عن شيوخه وأصحابه « رحمه الله - والله أعلم - عفا الله عنا وعنه - رحمه الله وإيانا - والله تعالى يوفقنا ويحلنا دار كرامته - رحمه الله وتجاوز عن سيئاته » وهكذا (١٠٧) .

ومن أساليبه التي تصل إلى مستوى لغة العامة قوله : « ابن خير هذا كان معجوناً من الخير » (١٠٨) أو « وعمل الشعر قد كان أسهل عليه من شرب الماء » (١٠٩) .

وتتجلى صفة البراعة والتواضع في أسلوبه ، في أنه لم يثبت في كتابه أية قصيدة أو مقطوعة قيدت في مدحه ، مع أنها كانت كثيرة ، وإنما كان يكتفى - أثناء ترجمته لحياة الشاعر الذي يمتدحه - بقوله « له فسي غير قصيدة » و « له فسي قصائد جمّة » « وقد مدحني بغير قصيدة » (١١٠) إلى غير ذلك من أمثلة.

وبالكشف عن درجة هذا الأسلوب ومستواه في أعمال السلفي الأخرى أدركنا الكثير من نواحي الاتفاق بين الأسلوبين . وها هو ذا مثال : من طلب الإجازة التي كتبها بخطه إلى « الزمخشري » كي يجيز له مسموعاته وما ألفه في فنون العلم نلمس فيها تواضع السلفي في مخاطبة العلماء ، وأسلوبه السهل اليسير ، وكثير من الصفات التي تجتمع مع أسلوبه في معجمه - ونقتطف من تلك الإجازة العبارات التالية : يقول السلفي « إن رأى الشيخ الأجل العالم أدام الله توفيقه أن يجيز جميع مسموعاته وإجازاته ومروياته لأحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصبهاني ويذكر مولده ونسبه إلى أعلى أب ... وإن تم إنعامه أبيات قصار ومقطوعات مستفادة من الحكم والأمثال والشرط في كل هذا أن يكون بالإسناد المتصل إلى قائله ويعلم وفقه الله - أنه وقع إلينا كتاب من « يعقوب ابن شرين الجندی ... والحاجة داعية إلى تعرف اسمه ونسبه وضبطه » (١١١) .

كذلك اتضح لنا بعد قياس أسلوب السلفي في « معجم السفر » على كتابه « معجم بغداد » الكثير من نواحي الاتفاق بين الأسلوبين ، ففي الأول نراه

معنيًا برواية ما سمعه عن شيوخه من أحاديث متصلة الإسناد إلى قائلها ، إلا أنه يستطرد بين الحين والحين إلى ذكر حادثه طريفة أو نادرة أو أبيات من الشعر مسندة أيضا إلى قائلها وهذا ما وجدناه متبعا في أسلوبه « بمعجم بغداد » (١١٢) .

واعتقد أن في هذه الأمثلة التي أوردتها كفاء لما أردت بيانه عن هذه النقطة.

نأتى بعد ذلك إلى مقارنة هذا الأسلوب مع أساليب وصيغ كتاب القرنين الخامس والسادس للهجرة حيث كان السلفى موجوداً .

والمحصلة التي استطعنا أن نخرج بها في النهاية أن أسلوب السلفى في «معجم السفر» والصيغ التي استخدمها في كتابته متفقه أيما اتفاق مع الأساليب التي كان يستخدمها كتاب هذا العصر ويصوغون في قالبها كتبهم المتخصصة التي تدور حول رجال الحديث وعلومهم وتوضيح أخبارهم وإيراد الحكايات والأشعار عنهم مع ذكر أنسابهم وتواريخ ميلادهم ووفاتهم الخ .

ومن أمثال هؤلاء الكتاب « الإمام المحدث عبد الكريم السمعاني » (ت ٥٦٢ هـ) و كتابه الشهير « الأنساب » وابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) و كتابه « غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة » والحافظ أبو بكر الحازمي (ت ٥٨٤ هـ) و كتابه « عجالة المبتدئ وفضالة المنتهى في النسب » وغير هؤلاء كثيرون ممن يزخر بهم تراثنا الإسلامى حتى وقتنا الحاضر .

وأساليب هؤلاء الكتاب في الغالب الأعم ، أساليب محدثين يتبين منها الحرص على الأسانيد ، والكشف عن أحوال الرواة ، والاعتناء بمعرفة شيوخهم وتلاميذهم ، والتمييز بين الخبيث والطيب وبين المجروح والمعدل منهم . وكل ذلك بأسلوب سهل من غير تكلف ولا تعقيد (١١٣) .

وأخيراً، وبعد هذا العرض لأسلوب السلفى وبيان درجته ومستواه وقياسه على أسلوبه في أعماله الأخرى ، وعلى أساليب الكتابة التي كانت سائدة في عصره نقرر حقيقتين :

أولاهما : أن الأسلوب الذى صيغ به كتاب « معجم السفر » الذى بين أيدينا هو لمؤلفه السلفى وذلك عن طريق الأدلة التى بينها .

ثانيهما : أن الناسخ الأخير للكتاب وهو « عبد الحفيظ بن محمد صالح حماد - الذى لم نعر له على ترجمة فى المصادر التى تحت أيدينا - كان أميناً فى ما نقله . إلينا عن السلفى من أصول كتابه « معجم السفر » وهذا يجعلنا نطمئن إلى أنه لم يخرجنا عن أصل صورته الأولى . ولعل الشئ الذى يؤكد نزاهته أيضاً هو : أنه لم يتدخل فى أصول الكتاب ألا فى حدود ضيقة كإبراز كلمة مثلاً غير واضحة فى الأصل الذى كان ينسخ عنه ، أو تصحيح كلمة تحتل معنيين مختلفين وهكذا . وكان ينص على ذلك صراحة فى هامش النسخة التى طبع عنها هذا الكتاب ، وقد أورد لنا المحقق بعض الأمثلة التى تشير إلى هذا (١١٤) .

وإذا كان الفضل ينسب بادئ الأمر فى جمع شتات هذا السفر التاريخى القيم - إلى عبد العظيم المنذرى ، ويليهِ ابنه محمد الناسخ الأصيل للكتاب . فإننى أرى أن هذا الرجل « عبد الحفيظ بن محمد صالح » لا يقل فضلاً عنهما لأنه حافظ على ما دوناه رغم الفارق الزمنى الهائل بينهما وبينه ، وبذلك وصل الكتاب إلينا فى صورته الحالية التى بين أيدينا مما جعلنا مرتبطين بأصوله وجذوره .

*** أهم محتويات الكتاب :**

كتاب « معجم السفر » يضم بين دفتيه تراجم حياة شيوخ السلفى ورفاقه وأصحاب الفكر والثقافة الذين التقى بهم وسمع منهم خلال رحلته الطويلة التى طاف فيها الكثير من بلدان المشرق الإسلامى ، والذين عاش بينهم من أهالى الإسكندرية وعلمائها منذ أن استقر فيها حتى وفاته ، ويشتمل الكتاب أيضاً على تراجم لأعداد من شيوخ القاهرة الذين التقى بهم السلفى وسمع عليهم .

كذلك يتضمن الكتاب تراجم لأعداد غفيرة من العلماء المغاربة والأندلسيين وغيرهما ، من الذين وفدوا على الإسكندرية والتقوا فيها بالسلفى ، سواء فى بيته

أم مدرسته ، فضلاً عن أن الكتاب يتضمن الكثير من الأخبار والحكايات والحكم التي فيها الكثير من العبر والفضائل ، وغير ذلك من معلومات هامة عن الحركة الفكرية والعلمية خلال القرن السادس الهجري ، في الإسكندرية بصفة خاصة ، وبلدان المشرق الإسلامي بصفة عامة .

الخصائص المتعلقة بمنهج السلفي في تأليف كتابه " معجم السفر " .

وقد رأيت أن أبدأ بالحديث عن الغرض من تأليف الكتاب ثم بيان مصادر السلفي التي اعتمد عليها في تأليف كتابه . وأخيراً نعالج مسألة المنهج الذي سلكه في عرضه التاريخي .

*** الغرض من تأليف الكتاب :**

كان من عادة العلماء في كل فن أن يقدموا لمصنفاتهم بمقدمات يشرحون فيها مقاصدهم وأغراضهم التي دعتهم إلى التأليف ، حتى ينيروا السبل أمام القارئ ليكنوا على بينة وإدراك عما بداخل هذه المؤلفات . ومن هنا تصبح المقدمة جزءاً مكملًا لكل كتاب .

وكتاب « معجم السفر » الذي بين أيدينا جاء خالياً من أي تقديم (١١٥) نستطيع من خلاله التعرف على دواعي ومقاصد مؤلفه . ولعلنا نلتمس للسلفي العذر في ذلك لأنه لم يكمل كتابه على النحو الذي أراده _ كما بينا آنفاً _ فكيف إذا يضع له مقدمة ! ؟

لهذا كان البحث في ثنايا الكتاب وقراءة موضوعاته وقضاياه المختلفة هو الطريق الأمثل لبيان ذلك .

وبعد بحث وتدقيق ، هدانا الله أخيراً إلى أن الغرض الأساسي والهدف الواضح الذي سعى السلفي من أجله لتأليف كتابه هو : « خدمة السنة النبوية » : في جميع مجالاتها المتمثلة في إيضاح الصحيح والضعيف من الأحاديث ، وأحوال الرواة جرحاً وتعديلاً ، مع أفراد تراجم خاصة لرجال عصره تحوى معلومات وافية

ودقيقة توضح حقيقة الأشخاص ، بما لهم وما عليهم من غير ظلم أو مجاملة في ثناء لا يستحقوه .

والمتبع لكتاب « معجم السفر » يلحظ هذه الغاية بدقة ووضوح ، فقد حوى الكتاب على ما يقرب من مائتين وخمسة وثلاثين حديثا نبويا رواها السلفي عن شيوخه (١١٦)، مفردا تراجم عن كل واحد منهم ، بالإضافة إلى أن هناك شواهد أخرى في الكتاب ترجح ما ذهبنا إليه في هذا الصدد وتقويه ، من أبرزها: تلك الأشعار والحكايات الصالحة التي يوردها على لسان أصحابها والتي تدل على حماسه وتأثره وحبه لسنة النبي ﷺ والرغبة الصادقة لديه في خدمة دينه العظيم - الدين الإسلامي . وإليك بعض النماذج من الشعر والحكايات الهادفة التي تدخل في إطار غايته الأساسية من تأليف كتابه :

فمن الشعر : تلك القصيدة التي أوردتها في مدح النبي ﷺ « على لسان أبي الفضل جعفر بن الطيب الصقلي » جاء فيها :

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ الْكِرَا	مِ وَمَنْ أَتَى بِالْمُعْجِزَاتِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرُ مَا	أُوتِيَتْ مِنْ حَسَنِ الصِّفَاتِ
لَقَهَرْتَ كُلَّ مُعَانِدٍ	وَعَلَوْتَ فَوْقَ النِّيَرَاتِ
لَكَ هَيْئَةٌ وَجَلَالَةٌ	سَارَتْ إِلَى كُلِّ الْجِهَاتِ
ومودة تلقاك من	كل العيون الناظرات
صَلَّى إِلَهُ عَلَيْكَ مَا	قَطَرَتْ دُمُوعُ الْجَارِيَاتِ (١٧٧)

ومن صريح ما أورده السلفي في تمجيد السنة النبوية المطهرة ، تلك الحكاية التي سمعها من « أبي العز نصرود بن فتوح » حيث يقول « أي السلفي » سمعت نصرود يقول : « مرضت مرضه أشفيت منها على الموت وبعث فيها كتباً أدبية وغير أدبية ، ومن جملتها صحيح البخاري وصحيح مسلم ، فذكرت ذلك بعد أفاقتي

من مرضى لأبى القاسم بن القطاع (١٨٨) فغضب على غضباً شديداً وقال : كنت تقنع ببيع كتب الأدب فعنها عوض وتترك عندك الصحيحين . هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره ، هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره ولم يزل يردد ذلك حتى استحييت من نفسى ومن الحاضرين وندمت غاية الندم» (١٩٩).

وإلى جانب ذلك فقد ضمن السلفى كتابه الكثير من الأخبار عن المتصوفين الحقيقيين ، وذكر الحكايات ذات العظة والعبرة عنهم ، التى تدعو إلى مكارم الأخلاق والصفات الحميدة التى يجب أن يتحلى بها كل مسلم (١٢٠) والسلفى بذلك يفتح أكثر من نافذة لكى توصله إلى هدفه المنشود وهو خدمة السنة النبوية ، وليكن التصوف الحقيقى وأخبار رجاله أحد هذه التوافذ التى توصله إلى غرضه السامى والنبيل .

وإضافة إلى ما ذكر : فإن ثمة شئ جدير بالتسجيل فى هذا الصدد ، وهو . أن تلك الغاية التى ارتضيها من وراء تأليف هذا المعجم نراها تتمشى بوضوح مع مذهب السلفى الذى كان يدين به وهو : المذهب السنى .

مصادر السلفى فى « معجم السفر » :

اتخذ السلفى لنفسه منهجاً خاصاً فى ذكر مصادره ربما اختلف عن الطريقة التى سلكها المؤلفون السابقون له أو الخالفون من بعده .

فالمصادر التى استقى منها مادته الخيرية ، تعتمد على المصادر المباشرة التى تقوم على المقابلة والمشافهة والأخذ المباشر عن السنة الرواة . وقد التزم السلفى بذلك التزاماً شديداً فلم يجمع مادة كتابه من مؤلفات الذين سبقوه أو عاصروه ،

ولم يسجل ترجمة دون أن يكون قد قابل صاحبها وتحدث معه وكتب إليه ، ليس من بينهم ترجمة لعالم من الذين ماتوا قبله .

والصيفغ التي وردت فى الكتاب واستخدمها السلفى فى التلقى تكاد تجمع على ذلك ، وهى : إما : (سمعت فلانا) أو (اخبرنى) أو (أنشدنى) ، أو (حدثنى) أو (رأيت فلانا وقال لى) وهكذا تطالعنا هذه الصيفغ فى كل صفحات الكتاب .

وهذه المصادر التى تلقى عنها مادته العلمية : كثيرة بشكل ملحوظ حيث يبلغ عددها على وجه التقريب - ٧٩٤ - مصدرا الغالبية العظمى منها لشيوخ وعلماء عاشوا بالإسكندرية ، فهم إما من أهلها أو من بلاد أخرى نزلوا بها واتخذوها مقر إقامة دائمة ، وما عدا ذلك لعلماء من بغداد والحجاز أو غيرهما من البلاد ، أخذ عنهم السلفى وسمع منهم ببلادهم أو أثناء عبورهم بالإسكندرية . ولو أردنا التحدث عن جميع هذه المصادر لا تسع بنا المدى ، وابتعدنا بعض الشئ عن مقصدنا ، لذلك سوف نكتفى بالحديث الموجز عن أشهرهم ذكراً وأكثرهم مساهمة فى إعداد المادة العلمية ، وعليهم كان اعتماد السلفى فى تدوين معلوماته ثم نعقب بالحديث عن بعض الرواة المشهورين الذين اكتفى السلفى بإيراد القليل من الأخبار عنهم ، ثم نعرض للقلة غير المشهورة من الرواة الذين أخذ عنهم ، وأخيراً نعرض لبعض المصادر المباشرة التى تجاهل السلفى ذكرها .

* أما عن الفريق الأول فمن أبرز أفرادہ :

- « أبو الكرم حميس بن على الحوزى » (ت ٥١٠هـ / ١١١٦ م) :

وينسب إلى قرية حَوْز بمدينة واسط (١٢١) وهو من الرجال الذين عثرنا لهم على ذكر وصدى طيبين فى المصادر ، فمن أشهر ما قيل عنه : أنه كان من حفاظ الحديث المحققين بمعرفة رجاله ، ومن أهل الأدب البارع ، وفى شيوخه كثرة ، وكان معلماً لم يزل يعرف فضله ومؤدباً كل متأدب . أنار بواسط لأهلها كل ليل من الجهل (١٢٢) .

وعلاوة على ذلك فقد خصه السلفى بترجمة فى كتابه « معجم السفر » .
تحميل هذه المعانى وتبين درجة اعتماده عليه فقال : « علقت عنه فوائد ، وسألته
عن رجال من الرواة فأجاب بما أثبتته فى جزء ضخيم هو عندى (١٢٣) وقد أملى
على نسبه ... ومولده سنة (٤٤٧هـ) والله تعالى يرحمه وإيانا إذا صرنا إلى ما
صار إليه ، فقد كان إتقانه ممن يعول عليه » (١٢٤) .

و « حميس بن على » هذا من أكثر شيوخ السلفى الذين اعتمد عليهم فى
السؤال عن أحوال الرواة، فعليه كان معول السلفى الأساسى فى تدوين معلوماته
- فقد أخذ عنه بطريق مباشر فى حوالى اثنى عشر موضعاً . مصرحاً باسمه فى
جميعها (١٢٥) .

- و « أبو صادق مرشد بن يحيى المدينى المصرى » (ت ٥١٧هـ /
١١٢٣م) كان من المحدثين المنفردين بعلو الإسناد بمصر ، مشهوراً بالثقة والصلاح
والخير، يقول عنه السيوطى « كان أسند من بقى بمصر » (١٢٦) .

وأبو صادق هذا سافر إليه السلفى خصيصاً من الإسكندرية للأخذ عنه وعن
طبقة خلال رحلته الوحيدة التى قام بها إلى القاهرة (١٢٧) ومن خلال تتبعنا
لـ «معجم السفر» وجدنا أن أبا صادق كان له أثر كبير فيه ، إذ أفاد منه السلفى
فى كثير من التراجم التى جمعها عن شيوخ مصر الذين التقى بهم فى مجالس أبى
صادق . وقد ذكرها السلفى فى كتابه حوالى أربعة عشر مرة (١٢٨) .

- و « أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى » (١٢٩) (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) .
كان إماماً عالماً زاهداً ، فقيهاً على المذهب المالكى ، عنده تواضع وتقشف
راضياً من الدنيا باليسر (١٣٠) ولد سنة (٤٥١هـ / ١٠٥٩م) بالأندلس ورحل
إلى المشرق سنة (٤٧٦هـ / ١٠٨٣م) واستقر به المقام بالإسكندرية فقطنها
حتى وفاته دفن بها (١٣١) ونكفى لتوضيح مكانة ما قاله عنه ابن تغرى بردى «
وفضله مشهور لا يحتاج إلى بيان » (١٣٢) ومن خلال ما ورد فى « معجم السفر »

نستطيع أن نتعرف على أن السلفى قابل الطرطوشى بالإسكندرية ، وكان يحضر مجالس علمه ، التى استفاد منها فى بعض نقوله التى صرح بها فى معجمه (١٣٣)

* أما عن الفريق الثانى فى ترتيب مصادر السلفى :

فهؤلاء كثيرون ، وقد استطعنا من خلال تتبعهم فى كتب التراث الأخرى أن نتعرف على أصالتهم والثقة بهم ، ومن أبرز هؤلاء على سبيل المثال :

- « أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق المقرئ » المعروف بابن الفحام (ت ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م) ، قال عنه السلفى « من كبار القراء وكان حافظاً صدوقاً متقناً عالماً كبير السن » (١٣٤) .

وما قاله عنه المؤرخون لا يختلف عن هذه المعانى بل يؤكد عليها ويبين مدى الصدق بها فقد قال فيه ابن تغرى بردى : « كان من كبار شيوخ القراء سكن الإسكندرية وقصده الناس من النواحي لعلو إسناده وإتقانه » . (١٣٥)

وقال عنه السيوطى « إنتهت إليه رئاسة الإقراء بالإسكندرية علواً ومعرفة وروى عنه السلفى » (١٣٦) .

- كذلك صرح السلفى بالرواية عن « أبى عبد الله محمد بن أحمد الرازى الإسكندراني » المحدث المعروف بابن الخطاب (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م) ، وذكره فى بعض مواضع من كتابه تفيد بالسماع منه ومقابله ، والاستخبار عن أحوال بعض الرواة (١٣٧) .

وأبو عبد الله هذا من الرجال المشهورين والرواة المعروفين الذين وقفنا لهم على ذكر حسن فى المصادر ، فهو مسند الديار المصرية فى وقته . وشيخ الإسكندرية وأحد عدولها المبرزين فى علم الحديث ، وقد ذكره السيوطى فى جملة المحدثين المنفردين بعلو الإسناد (١٣٨) .

وما أورده السلفى عن هذين العالمين يمكننا قياسه على معظم مصادره المباشرة أو رجاله الذين روى عنهم فى هذا الباب حيث أنهم معروفين من قبيل ابن الفحام ، وابن الخطاب السابق ذكرهما (١٣٩) .

* وأما عن الفريق الثالث فى ترتيب مصادر السلفى :

فهؤلاء يختلفون عن سابقهم من حيث الشهرة والمعرفة ، ربما لأنهم كانوا من عامة الناس أو أرباب المهن الأخرى . ومع ذلك قابلهم السلفى وسمع منهم لما رأى أن هناك فائدة مرجوة من ذكرهم وتدوين أخبارهم فعلى سبيل المثال : نراه أى « السلفى » يكتب عن أحد الأشخاص ويدعى : « وجيه الدين بن شبل بن ذى القرنين » فيقول : عنه « وعلقت عنه ما علقت لغرابة اسمه لالعلو سنده ولا علمه » (١٤٠) .

ويقول عن « وهيب بن مترى بن مهيوف » الذى انشد السلفى شعر بمدينة تدمر - « وإنما كتبت عنه لغرابة اسمه وللموضع كذلك » (١٤١) .

كذلك يورد لنا السلفى شعرا عن شخص اسمه « على بن عبد المعطى » كانت له صَبْوة ثم تاب على يديه ، ويقول عنه « كان يحفظ من الشعر كثيرا وصحب الشعراء وكان من أذكى البرية وكانت له صبوة ثم تاب على يدي ويجلب إلى واحدا بعد واحد فيتوبون عن الشرب وغيره » (١٤٢) .

* أما عن الفريق الرابع والأخير من مصادر السلفى المباشرة التى تجاهل ذكرها :

فقد وجدنا أنه فى بعض الأحيان يترك تعيين الشيخ أو المصدر المباشر الذى أبلغه عن أحوال بعض الرواة فيقول مثلا عن « أبى محمد عبد الرحمن الدونى » «

وبلغنا أنه توفي سنة » (١٤٣) ويقول عن « أبى المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل » « بلغنا أن أبا المحاسن أملى بآمل وقتل بعد فراغه من الإملاء (ت ٥٠٢ هـ) (١٤٤) ونلمس شبيه ذلك بعض العبارات مثل « وقد بلغنى بعد خروجي من مصر » و « ثم قال لي من أثق به » و « توفي سنة على ما حكاها لي من أثق به من أهل المغرب » (١٤٥) .

والظاهر من هذه الأخبار القليلة ، أن السلفي قد استقاها من مصادر مباشرة ، مجهولة لنا معروفة عنده . وذلك الشيء يؤخذ بتحفظ لأنه بعد مقارنة إحدى هذه الروايات - بالمصادر التاريخية الأخرى - وأخص منها ما تعلق بوفاة أبى المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل « الذي ذكر السلفي موته سنة ٥٠٢ هـ - قد ثبت أن هذه الرواية لها شاهد ، فقد أوردها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٩٩ نقلا عن السلفي بل وأكد صحتها عن طريق ما اعتمد عليه من مصادر أخرى .

ولعل ذلك يدعونا إلى نفى الشبهة عن السلفي في التدليس في رواياته ، ويرشدنا إلى الباعث الذي دفعه إلى عدم ذكر أسماء الذين روى عنهم تلك النصوص القليلة ، فرمما كان الباعث هو ميله إلى عدم الإكثار من ذكر رواياته ، وربما كان هؤلاء الرواة أو بعضهم ثقة لا يقلون عن صرح بأسمائهم ، وهذا في رأيي هو الأقرب إلى الصواب .

وأخيراً ، وبعد دراسة هذه المصادر : فإن الانطباع الذي خرجت به هو : أن السلفي قد تعمد ، وبدون موارد ، أن يكون لكتابه مصادر واضحة محددة يستمد منها نصوصه ويؤسس عليها بناء معجمه ، باعتباره كتاباً عماده وأساسه الرواية المباشرة بطريق المشافهة والمقابلة . وغنى عن البيان أن سلوك هذا السبيل في التصنيف التاريخي يضيف على الكتاب الاحترام اللائق ويزيد من قيمته العلمية ،

ومن ثم يصبح الكتاب محل تقدير لدى كل من يطلع عليه ، ويصير بعد ذلك مصدراً يعتمد عليه الباحثون ، ليس هذا فحسب بل إن ما يزيد من قيمته أن تأتي رواياته وأخباره عن مؤرخ ثقة حافظ ، أجمع المؤرخون على عدالته وصدقته كما بينا سالفاً .

* منهج السلفى فى العرض التاريخى :

وصل إلينا كتاب « معجم السفر » مرتباً حسب حروف الهجاء ، بمراعاة الحرف الأول فقط من كل إسم ، دونما النظر إلى ترتيب باقى الحروف . ففى باب الهمزة مثلاً لم يراع فى الترتيب الحرف الثانى من بعد الهمزة أو ما هو أقرب إليها . وهكذا يمكننا قياس ذلك على باقى التراجم التى تبدأ بحرف الباء إلى آخره . ولهذا لم يكن ترتيب الكتاب كما ينبغى .

والحقيقة أن السلفى - رحمه الله - برئ من هذا الترتيب الذى حل بكتابه لأنه - كما أوضحت سابقاً - كتبه على شكل « جزازات » فى بادئ الأمر ولم يتمه على الوجه الأمثل . لهذا فإن المسئول أمامنا عن ترتيب الكتاب على هذا النحو هو : الزكى عبد العظيم المنذرى كما ذكر السخاوى .

والمستبع لمنهج السلفى فى عرضه التاريخى ، فإن أول ما يلحظه بوضوح هو : التزامه الشديد بالإسناد المتصل لكل من ينقل عنهم بدءاً من راوى الخبر مباشرة ووصولاً إلى الشاهد الحقيقى للواقعة ، سواء أكانت حديثاً نبوياً أو حكاية ، أو شعراً .

وأغلب أسانيده تأتى بصيغة التحديث والإخبار والسماع مثل « حدثنا - أخبرنا - سمعت » خاصة فى الأحاديث النبوية ، وإذا كان المروى شعراً يقول « أنشدنى - أنشدنا » .

وهذا اللون من التأليف له صلة وثيقة بعلم الحديث الذى يتخذ الإسناد شرطاً أساسياً لصحة الخبر . ولا عجب فى ذلك فقد كان السلفى ذاته محدثاً قبل أن يكون مؤرخاً ، ومن هنا تأتى أهمية كتابته للتاريخ كعلم يتخذ الإسناد شرطاً أساسياً لصحة الخبر أيضاً . لذا فإن السلفى كان يكتب التاريخ عن دراية ووعى بنظرة الفاحص المدقق .

وعلى الرغم من أن أغلب روايات السلفى جاءت مسندة إلى الشاهد الحقيقى للحدث ، فقد شذ عن ذلك فى حالات قليلة ، تاركاً العهدة على الراوى .

فعلى سبيل المثال : يقول : « أنشدنى عبد الله بن قاسم قال : أنشدنى أبو عبد الله التونسى بمكة ، ولم يسم قائله » (١٤٦) .

وفى موضع آخر يقول « أنشدنى قيس بن غالب وقد أنشدنى قبل قيس غيره ببغداد ولم يذكر أحد منهما قائله » (١٤٧) .

والشئ الجدير بالملاحظة هنا هو : أن السلفى لم يكن يترك الأمر على علته هكذا ، بل كان فى بعض هذه الحالات يسعى جاهدا وراء المعلومة حتى يعرف قائلها الأصيل عن طريق رواية آخرين ، ومثال ذلك قوله : « أخبرنى أبو القاسم عمر بن الحسين - أخبرنى أبى الحسين ، أخبرنى أبى عمر أنه قال عمن تقدمه :

بُنِىَّ إِنْ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيْنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيْسَ

ثم يرد السلفى معقبا على هذا الشعر بقوله « هذا الكلام لخالد بن صفوان ويورد إسناداً آخر يتصل بخالد بن صفوان هذا » (١٤٨) . وينهج السلفى فى تأليف معجمه منهجاً لا يكاد يشذ عنه فهو يبدأ بما رواه له صاحب الترجمة من حديث أو شعر أو حادثة أو نادرة من النوادر ثم يعقب ذلك بترجمة له قد تطول أو تقصر (١٤٩) .

وعناصر الترجمة عنده تتكون - فى أغلب الأحوال - من سياق اسم المترجم له ونسبه ولقبه وبلده وشيوخه ، والزمن والمكان الذى تمت فيه المقابلة بين السلفى وبينه والسؤال عن سنه أو ميلاده ، وتحديد سنة الوفاة إن أمكن ذلك ، ثم ينقد المترجم له فيوثقه إن كان أهلاً للثقة ، أو يجرحه إن كان يستحق التجريح ، وأخيراً ينبه إلى ضبط اسمه إن كان من الأسماء التى تتشابه مع غيرها (١٥٠) .

ولعل فى تفصيل هذه الأمور وغيرها ما يعيننا على بيان وتفسير هذا المنهج والصفات العامة التى انفرد بها السلفى وميزت كتابه عن غيره من المؤلفات فى هذا المجال وهى على النحو التالى :

* أولاً : كان السلفى يدقق فى أمور معينة ، منها ما هو خاص بالمكان الذى التقى فيه بالراوى والسماع منه كأن يقول مثلاً « سمعت القاضى أبا بكر عتيق بالإسكندرية » أو « أخبرنى أبو عبد الله محمد بدمشق » (١٥١) .

ومنها ما هو خاص بالرواية فكان يحدد حتى لا يختلط الأمر أن هذا الشعر مثلاً (للقاضى فلان) أو (للشاعر الفلانى) وذلك بقوله « لنفسه » ، وإذا كانت الرواية لغيره أوضحها بإسناد يتصل إلى الشاهد الحقيقى ، وهذه السمات نجدها واضحة تمام الوضوح فى جميع صفحات كتابه .

أيضاً من الأمور التى دقق فيها السلفى ، التحديد التاريخى لمن ينقل عنهم ، فكان يحرص على تسجيل تواريخ ميلادهم معتمداً على ذلك بصيغة السؤال بنفسه كأن يقول « وسألته عن مولده » أو ما يذكره له صاحب الترجمة بصيغة « ذكر لى مولده » أو « قال لى » أو « سمعته يقول » (١٥٢) .

وفى بعض الأحيان نراه يسأل المترجم له عن مولده فيمتنع كما حدث مع «عبد الملك بن على» يقول عنه السلفى « وسألته عن مولده فامتنع من ذكره » (١٥٣)

وفى مناسبات قليلة يذكر مكان ميلاد المترجم له ولا يحدد السنة (١٥٤) كذلك حرص السلفى على تسجيل تاريخ الوفيات فى معظم تراجمه (١٥٥) .

* ثانيا : من الأمور الرئيسية التى سار عليها السلفى فى منهجه ، الاهتمام الكبير بالجانب الجغرافى وأعنى بذلك ضبطه لأسماء الأماكن وتحديد مواقعها بدقة، والمطلع على الكتاب يندهش إلى حد الإعجاب لكثرة البلاد التى أوردتها ، إلى درجة يمكن معها وصف كتابه - فوق ما تميز به - بأنه معجماً للبلدان (١٥٦) .

وقد استطاع السلفى أن يكتسب هذه الخبرة عن طريق رحلاته العلمية الكثيرة التى طاف فيها المئات من المدن والقرى ، فرأى أماكنها بعينه . وسمع نطق أسمائها بأذنه ، وبسؤال من يترجم لهم عن الأماكن التى ينتسبون إليها ، عرف أسماء بلدانهم وحدد أسماء مدنهم وقراهم .

كذلك يستفاد مما ذكره فى معجمه أنه كان يصاحب العلماء الذين لهم معرفة وخبرة ودراية بالأماكن ، ومن المرجح أنه قد استفاد منهم فى تحديد الكثير من البلاد التى أوردتها ومن هؤلاء على سبيل المثال : أبو الحسن على النهاوندى المعروف بالأشترى « يقول عنه السلفى » سمعته بهمدان وهو من المعروفين المشهورين ومن لم يكن له نظير فى وقته فى معرفة المنازل التى بين الكوفة ومكة... ولا يعرف أحد طريق البادية مثله ، وبه يضرب المثل فى جملة مسافرى الحجاز ومقدميهم ، وقد سافر إلى الشام ... ودخل خراسان ووصل إلى غزنة» (١٥٧) .

أما عن المنهج الذى سلكه السلفى فى ذكر أسماء البلاد وتحديد مواقعها ، فقد كان يذكر اسم المدينة أو البلد بعد أن يذكر اسم من يترجم له أو فى نهاية ترجمته ، ولعل فى ذكر هذه الأمثلة المختارة التى نعرضها من نص « معجم السفر » ما يغنى عن جميعه ، فمن ذلك قول السلفى :

« ضياء هذا رجل صالح ... وسمعته يقول حطين قرية من قرى طبرية وبها قبر يوشع بن نون » .

« ظافر هذا من أهل رشيد مدينة من مضافات الإسكندرية » .

« ابن الصُّغْدِي هذا من بيت العلم ... ونسبته مستفادة من الصُّغْدِي ومع الصُّغْدِي وصَعْدَة مدينة باليمن » .

« حدثني عبد الله بن محمد ... الفَلَيْشِي ... وفَلَيْش قرية من قرى لُرُقَة بشرق الأندلس » .

« عبد الحميد هذا سألته عن مولده ، فقال ولدت ... بمدينة بَلْغَى بشرق الأندلس » (١٥٨) .

* ثالثا : من الأمور المتميزة أيضا التي استطعنا أن نتبينها من منهج السلفي ، وتكاد تطالعنا في كل صفحة من صفحات معجمه ، النقد لكل من دون عنهم . وبيان مكانتهم العلمية ، فيوثق من كان ثقة ، ويضعف من كان ضعيفا مبينا السبب وعلته ، ومكانة روايته ومدى صحتها . كل ذلك من غير مجاملة لأحد . وكلماته التي يستخدمها في النقد عبارة عن جمل قصيرة مركزة ذات مدلول واضح يبدو فيها بارز الشخصية ، واضح الرأي قوى الاستدلال . ومن الأمثلة على ذلك قوله :

« أبو البركات هذا من أهل العفاف قليل الرواية والسماع » .

« عبد الكريم هذا ... كان مائلا إلى الخير ، وشعره في غاية الجودة » .

« عبد الرازق هذا ... أخرج إلى كتابا بخط جده من تأليفه ... وليس فيه سماع وقال أخبرني به أبي عن أبيه عن جده ، والعهد في ذلك عليه ، وكان ظاهر الصلاح محموداً عند أهل بلده »

« أبو البركات هذا ... تغير بأخوه ودخل فيما لا يرضى عفا الله عنه » .

« أبو الحسن هذا كان من أهل الأدب والفقه وكانت دعاويه أكثر من علمه » .

« أبو الحسين هذا كان من فقهاء المالكية وكان غيره أوثق منه » (١٥٩) .

* رابعا : ضبط أسماء الأشخاص بالشكل ، وذكر الأسماء التى قد تتشابه معها فى النسبة .

ومن الشواهد على ذلك قوله :

« ابن هَراش » : ربما قيل فى ابن الهراش بالتعريف فيذكر حيثثذ مع إلكيا الهراس» .

« ابن حرَّان » : وإن قيل فى ابن حران هذا الحرانى فيستفاد أيضا فى بابه .

« ابن ثُنَيَّْة » : وثنية فى نسبه مستفاد يذكر مع بُنيّه وبتنه ، ونَبِيّه وغيرهم .

« ابن تاكُرات » : وربما قيل تاجُرات بالجيم بدلا من الكاف فيستفاد حيثثذ ويذكر مع « جواب » و « خوات » وغيرهما (١٦٠) إلى غير ذلك من الأمثلة.

* خامسا : كذلك من أهم وأبرز الأمور التى تبينها فى منهج السلفى ، التجديد فى عرض المادة التاريخية وليس التجديد هنا سوى اعتماده المقابلة والسماع شرطا أساسيا لكل من ترجم لهم ، فالكتاب رغم ضخامته وكثرة عدد أشخاص لم نجد فيه ترجمة واحدة منقولة من كتاب أوهى لشخص لم يقابله ، وهذا يخالف منهج الكثير من كتاب التراجم الذين كان جل اعتمادهم فى تدوين الأخبار على المصادر غير المباشرة أو الأخذ من كتب السابقين أو المعاصرين لهم .

* أثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين :

المادة العلمية التى قدمها إلينا السلفى فى كتابه والتى عرضناها فى الصفحات السابقة ، وبيننا منهجه المتميز فيها تعدد من أنفس المصادر التاريخية التى قدمت إلينا صورة صادقة ودقيقة عن رجال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

ويكفى الحافظ السلفى فخراً فى هذا المجال أن تراجمه للرجال والأخبار التى دونها عنهم وسجلها فى كتابه بتحر واضح وشمول ودقة ، ظلت موردا ومعينا لا

ينضب ، ومرجعاً أصيلاً يعتز به الخالفون من بعده ، ويستعينون بما كتبه فى مؤلفاتهم سواء ، التاريخية أو الجغرافية أو الأدبية ، بل أكثر من هذا أن معظمهم اتخذ ما كتبه السلفى حجة دونها ما سواها وحكماً فصلاً عند تعارض الأقوال أو اختلاف الروايات التى كتبوها فى مصنفاتهم .

ويتضح هذا وذاك فى بعض النماذج التى اخترناها من نقول بعض المؤرخين اللاحقين عن السلفى ، لنرى كيف انتفع هؤلاء بجهده المتمثل فى «معجم السفر» .
* ونبدأ هذه النماذج بذكر ما اقتبسه «ياقوت الحموى» (ت ٦٢٦هـ) وذلك فى كتابيه الشهيرين «معجم البلدان» و «معجم الأدباء» .

وقد اعتمد ياقوت على السلفى فى هذين الكتابين اعتماداً كبيراً دون غيره من المؤرخين ، فنراه فى كتابه الأول «معجم البلدان» ينقل عنه أكثر من مائة مرة متفرقة فى أجزائه الخمسة (١٦١) ورغم أنه كان يصرح باسم السلفى فى كل موضع من هذه المواضع ، إلا أنه يؤخذ عليه عدم ذكره له ولكتابه «معجم السفر» ضمن المصادر التى اعتمد عليها فى جمع مادته والتى ذكرها فى مقدمة كتابه «معجم البلدان» (١٦٢) .

واليك نموذجاً من اقتباسات ياقوت :

يقول ياقوت عن تعريف بليده «زَرْنَد» بالجزء رقم (٣) ص ١٣٨ من كتابه معجم البلدان : قال السلفى : «أنشدنى القاضى أبو العميد بن أحمد بن على الجرجانى بمأمونية زرنند فى مدرسته ، وهى بين الرى وساعة» .

وقرين هذا النموذج فى كتاب «معجم السفر» ص - ١٨٨ .

أما عن كتاب «معجم الأدباء» فقد نقل فيه ياقوت أيضاً الكثير من النصوص عن السلفى مصرحاً بالأخذ عنه ، ولكن جانبه الصواب فى تحديد اسم الكتاب الذى نقل منه فبدلاً من أن يذكر «معجم السفر» صرح باسم آخر هو «معجم الشعراء» «وقد فصلنا القول فى هذه المسألة مما سبق من هذا البحث» (١٦٣) .

وهذا نموذج لما اخترناه من كتاب « معجم الأدباء » :

يقول ياقوت في ترجمة « عثمان بن علي السرقوسي النحوي » بالجزء رقم (٣) ص ٤٨٨ - ٤٨٩ من كتابه .

قال السلفي « كان من العلم بمكان نحواً ولغة وقد قرأ القرآن على ابن الفحام وابن بليمة وغيرهما وله تواليف في القراءات والنحو والعروض ، وصارت له في جامع مصر حلقه للأقراء وانتفع به ولا زمني مدة مقامي بمصر وسمع على كثيراً وعلى من كنت أقرأ كأبي صادق والفراء الموصلي وآخرين .»

وقرين هذا في كتاب « معجم السفر » ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

* أما المؤرخ التالي من الذين انتفعوا بجهود السلفي في « معجم السفر » فهو : « جمال الدين علي بن يوسف القفطي » (ت ٦٤٦ هـ) في كتابه « إنباه الرواة على أنباه النحاة » الذي نقل فيه عن السلفي قدراً كبيراً من نصوصه بلغت على وجه التقريب ثلاثة وعشرين صفحة (١٦٣) وقد اخترنا منها النص التالي :

يقول القفطي في كتابه جـ ٤ ص ٤٣ أنبانا أبو طاهر السلفي في أجازته العامة « أنشدنا أبو الحسن يونس بن يحيى بن سلامة الحصكفي التاجر بديار مصر قال : أنشدني أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بميفارقين لنفسه :

والله لو كانت الدنيا بأجمعها تبقى علينا يأتي رزقها غداً

ما كان من حق حر أن يذل لها فكيف وهي متاع يضمحل غداً

وقرين هذا في كتاب « معجم السفر » ص ٤٥٩ - ٦٤٠ .

والحقيقة التي يجب أن تذكر في هذا المقام هي : أن القفطي من خلال نقوله هذه ينقل ترجمات كاملة من معجم السفر (١٦٥) ، مما يوضح الأثر البارز للسلفي

فى كتابه وثمة شىء آخر وهو : أنه نقل عن السلفى فى بعض المواضع دون أن يصرح بذلك (١٦٦) .

* كذلك من المؤرخين اللاحقين الذين أفادوا من « معجم السفر » المؤرخ الشهير « ابن خلكان » (ت ٦٨١ هـ) فى كتابه « وفيات الإعيان وأنباء أبناء الزمان » .

وبعد الإطلاع على هذا الكتاب المذكور وجدت أن ابن خلكان صرح فيه بالنقل عن السلفى فى الكثير من المواضع . ليس هذا فحسب ، بل اتخذ ما كتبه السلفى حجة وحكماً فصلاً دون ما عداه من الكتب التاريخية الأخرى وذلك فى بعض المواضع .

ولكن ما يؤخذ على ابن خلكان أنه أضاف إلى بعض نقوله التى أخذها عبارات من عنده لم يصرح بها السلفى ، مما يوضح عدم دقته فى النقل .

وفيما يلى سوف أقدم نموذجاً عن كل موضع من المواضع السالفة التى نقل فيها:

١ - نموذج لما صرح فيه بالنقل عن السلفى : وذلك فى الجزء رقم (١) ص ١٦١ من كتابه وفيات الأعيان « ترجمة القاضى الرشيد بن الزبير » .

قال عنه السلفى « ولى النظر بثمر الإسكندرية فى الدواوين السلطانية بغير اختياره فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، ثم قتل ظلماً وعدواناً فى المحرم سنة ثلاث وستين وخمسمائة رحمه الله وقرين هذا النموذج فى «معجم السفر» ص ٥٨ .

٢ - نموذج لما نقله عن السلفى واتخذه حجة دون ما عداه من الكتب الأخرى : قال ابن خلكان فى جـ ٧ ص ١٤٦ عندما اختلفت الأقوال فى تاريخ دخول جيش أسد الدين شيركوه مصر لأول مرة « قال شيخنا القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد فى كتابه الذى وسمه بـ « سيرة صلاح

الدين » أنهم دخلوا مصر فى ثانى جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة والقبول الأول (فخرجوا من دمشق فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة فدخلوا مصر واستولوا على الأمر فى رجب من نفس السنة) أصبح ، لأن الحافظ أبا طاهر السلفى ذكر فى « معجم السفر » أن الضرغام بن سوار قتل فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وأنه كان فى أول وصولهم - والحافظ السلفى أخبر بذلك لأنه كان مقيماً فى البلاد أول وصولهم وهو أضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه وهو من أقعد الناس به وقرين ما ذكره عن السلفى بنجده فى « معجم السفر » ص ١٢٨ .

٣ - نموذج لما نقله ابن خلكان وأضاف إليه عبارات لم يصرح بها السلفى :

قال ابن خلكان فى جـ ٣ ص ١٩٩ ، بصدد حديثه عن أبى المحاسن الرويانى : « قال الحافظ أبو طاهر السلفى : بلغنا أن أبا المحاسن الرويانى أُملى بمدينة آمل ، وقتل بعد فراغه من الإملاء (بسبب التعصب فى الدين) فى المحرم سنة اثنتين وخمسمائة » .

وقرين هذه الترجمة بنجدها فى « معجم السفر » ص ١٨٣ بيد أن العبارة التى بين القوسين لم يذكرها السلفى ولم يصرح بها .

كانت هذه أبرز النقول التى دونت من كتاب « معجم السفر » ، ولعلنا بهذا نكون قد وقفنا على أثر السلفى الواضح فى مصنفات هؤلاء المؤرخين الذين جاءوا من بعده . ولو اتسع بنا المقام أكثر من ذلك لأفردت غير هؤلاء الكثيرين ممن انتفعوا بهذا العمل الرائد لذا فليس أمامى سوى أن أجملهم على النحو الآتى : مبينا أمام كل منهم اسم الكتاب الذى استرشد فيه بالمادة العلمية لكتاب « معجم السفر » .

- « المنبرى » فى كتابه « التكملة لوفيات النقلة » .

- « الذهبى » فى كتابيه « العبر » و « تذكرة الحفاظ » .
 - « ابن حجر العسقلانى » فى كتابيه « لسان الميزان » و « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » .
 - « السخاوى » فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » .
 - « السيوطى » فى كتابه « بغية الوعاة » .
 - « ابن العماد الحنبلى » فى كتابه « شذرات الذهب » .
- وهكذا لبث كتاب « معجم السفر » على مر العصور مورداً لا ينضب لمؤرخى الإسلام بعامة ، فعرفوا له قيمته وانتفعوا به على أكمل وجه ، ووثقوا به مصنفاتهم .

الهوامش

(١) سلفة : ضبطها ابن خلكان وبين معناها بقوله : ونسبته (أى سلفة) إلى جده إبراهيم سلفة - بكسر السين المهملة وفتح اللام والفاء وفي آخره الهاء - وهو لفظ أعجمي الأصل فيه (سلبه) بالباء فأبدلت بالفاء ، ومعناه بالعربي ثلاث شفاه لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج١ ص ١٠٧ دار صادر بيروت د. ت . وانظر في هذا المعنى ابن كثير البداية والنهاية مجلد ٦ ج١٢ ص ٣٢٨ تحقيق دكتور أحمد أبو ملحم وآخرون ، دار الريان للتراث القاهرة ط ١٩٨٨ م . ويقول د. السيد يعقوب بكر مترجم كتاب تاريخ الأدب العربي لكارل برو كلمان عن هذا اللفظ (سلية) بأنه مركب من « سه أى ثلاثة + لب أى شفة » في الفارسية ج٦ ص ٢٤٨ هامش (١) دار المعارف القاهرة ط ١٩٨٣ م .

(٢) جرواءن : محلة بأصبهان ويقال لها بالأعجمية « كرواءان » ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٢ ص ١٣٠ دار صادر بيروت د. ت .

(٣) نظام الملك : هو أبو علي الحسن بن علي الطوسي ولد سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م بقرية من نواحي طوس عمل في بداية حياته في دواوين الدولة الغزنوية بخراسان ، فلما أفل نجمهم انتقل إلى خدمة السلاجقة ، واتخذه الب أرسلان سلطان السلاجقة وزيراً له ثم عينه ابن ملكشاه في المنصب نفسه إلى أن قتل سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٩ ص ٦٤ دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ط ١٩٤٠ م .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١ ص ٧ تحقيق بشار عواد معروف ، ومحيى هلال سرحان ، مؤسسة الرسالة بيروت ط ١٩٨٤ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٦ ص ٣٣ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو وعمود محمد الطناحي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٨ م .

(٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٢٩٨ دار الكتب العلمية بيروت د. ت ، السبكي : طبقات الشافعية ج٦ ص ٣٣ .

- (٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٧ .
- (٧) البداية والنهاية ج١٢ ص ١٧٦ .
- (٨) تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٢٩٩ .
- (٩) انظر الفقرة الخاصة بأقوال المؤرخين في عدالته وسعة علمه ، ص ٣ .
- (١٠) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٢٩٩ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٨ ص ٣٥٢ ،
اعتناء محمد يوسف نجم ، ألمانيا ط٢ ١٩٨٢ : الزركلي : الأعلام ج١ ص ٢١٥ ، دار
العلم للملأين بيروت ط٥ ١٩٨٠ م .
- (١١) سير أعلام النبلاء ج٢١ ص ٢٢ ، الصفدي : الوافي ج٨ ص ٣٥٢ .
- (١٢) سير إعلام النبلاء ج٢١ ص ٢١ .
- (١٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ج٣ ص ٤٠٤ ، مؤسسة الأعلمى
بيروت ط٢ ١٩٧٠ م .
- (١٤) المقرئزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ج٣ ص ١٩٨ ، تحقيق د. محمد
حلمي محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣ .
- (١٥) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥ .
- (١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٣١٧ .
- (١٧) سير اعلام النبلاء ج٢١ ص ٢٤ .
- (١٨) الوافي بالوفيات ج٨ ص ٣٥٤ ، وانظر أيضاً السبكي : طبقات الشافعية ج٦ ص ٣٧ .
- (١٩) الصفدي : المرجع السابق والجزء والصفحة .
- (٢٠) المعجم في شيوخ أبي علي الصدفي ص ٥١ ، مجريط ١٨٨٥ م .
- (٢١) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥ .
- (٢٢) تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٣٠١ .
- (٢٣) الوافي بالوفيات ج٨ ص ٣٥٢ .
- (٢٤) غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص ١٠٢ ، نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلمية
بيروت ١٩٨٢ .

- (٢٥) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ج١ ص ٣٥٤ ، د. ت .
- (٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ج١ ص ٢١
- ١٢ ، وإلكيا الهراس هو : على بن محمد بن على ، تفقه ببلده ببغداد ، ورحل فى طلب العلم وعمره ثمانى عشرة سنة ، وكان بارعاً فى الفقه الشافعى وأصوله ، وأماماً قوى البحث دقيق النظر . ومن أشهر مؤلفاته « شفاء المسترشدين » وتوفى سنة (٥٠٤هـ / ١١١٠م) ابن عساكر : تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعري ص ٢٨٨ ، دمشق ١٩٢٨م ، ابن هداية : طبقات الشافعية ص ١٩١ ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ط ٣ ١٩٨٢ .
- (٢٧) البلوى : ألف يا للألبا ج٢ ص ٢٩٤ القاهرة ١٨٧٠م .
- (٢٨) السلفى : معجم السفر ص ٢٢٣ ، تحقيق عبد الله عمر البارودى ، دار الفكر بيروت ١٩٩٣م ، وهذه النسخة من معجم السفر هى التى اعتمدنا عليها فى دراستنا .
- (٢٩) السلفى : معجم السفر ص ١٢٣ .
- (٣٠) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، كان أماماً كبيراً فى التفسير والحديث والنحو واللغة والبيان تشد إليه الرحال فى فنونه ، وكان معتزلى الاعتقاد متظاهراً به ، حتى نقل عنه أنه إذا قصد أحداً واستأذن عليه فى الدخول : يقول لمن يأخذ له الأذن : قل له أبو القاسم المعتزلى بالباب . وتوفى سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص ١٦٨ - ١٧٣ .
- (٣١) المصدر السابق ج٥ ص ١٧٠ .
- (٣٢) معجم السفر ص ٢٨٣ .
- (٣٣) المصدر نفسه ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .
- (٣٤) المصدر نفسه ص ٢٨٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ج٢ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .
- (٣٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٣ ، تحقيق محمد صبيح ، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٤م .
- (٣٦) المصدر نفسه والصفحة .

- (٣٧) محمد عبد الله عنان : مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى ص ١٤ ،
مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩١ م .
- (٣٨) المرجع نفسه ص ١٥ .
- (٣٩) حسن عبد الحميد : الحافظ أبو طاهر السلفى ص ٢١١ ، بيروت ط ١ ١٩٧٧ م .
- (٤٠) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٢٥٢ ، تحقيق وتعليق فرانز وروزنثال ،
ترجمة د. صالح أحمد العلى ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣ م .
- (٤١) معجم السفر ص ٢٧٢ ، السخاوى : الإعلان ص ٢٦٧ .
- (٤٢) السلفى : الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز ص ٣٩ ، تعليق محمد خير البقاعى ، دار الغرب
الإسلامى بيروت ط ١ ١٩٩٣ م .
- (٤٣) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٢٩٩ .
- (٤٤) طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ٤٤ .
- (٤٥) ص ١١٣ ، ومعجم بغداد توجد منه نسخة خطية بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة
تحت رقم ٧٩ ، أدب .
- (٤٦) ص ٢٢٤ .
- (٤٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥١٢ .
- (٤٨) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ص ٣٧٨ .
- (٤٩) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١٠٩٣ ، السخاوى : الإعلان ص ٣٧٠ .
- (٥٠) انظر المبحث الخاص بآثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين فى هذه الدراسة .
- (٥١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٢٠ .
- (٥٢) معجم السفر ص ٢٣٠ ، قارن ما ورد فى هذه الصفحة بما ذكره ابن خلكان فى الجزء
والصفحة السابقة .
- (٥٣) ج ٤ ص ١٢٩٩ .
- (٥٤) ج ٢١ ص ١٦ .
- (٥٥) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .

- (٥٦) المصدر السابق ص ٢٣٧ .
- (٥٧) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص ٣ .
- (٥٨) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج٦ ص ٢٤٩ .
- (٥٩) سبق الحديث عن هذه المعاجم في هذا البحث .
- (٦٠) انظر ص ٢٩ من هذا البحث .
- (٦١) معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج٢ ص ٤٢١ ، دار الكتب العلمية بيروت ط ١ ، ١٩٩١ م .
- (٦٢) انظر المصدر السابق ج٣ ص ٢٢٧ ، وقارن بمعجم السفر ص ٨٦ - ٨٧ ، وللمزيد انظر المبحث الخاص بآثار السلفي في من جاء بعده من المؤرخين ، آخر هذه الدراسة .
- (٦٣) انظر على سبيل المثال : ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، وهكذا إلى آخر الكتاب مع تفاوت بسيط بين الصفحات .
- (٦٤) أميرنو ريزتيانو : أخبار عن بعض مسلمي صقلية الذين ترجم لهم السلفي في معجم السفر مجلد ٣ ص ٤٩ هامش (١) مجلة كلية الآداب عين شمس ، عدد يناير ١٩٥٥ م .
- (٦٥) المرجع السابق ص ٥٠ .
- (٦٦) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص ٨ ، بيد أن هذا النص سقط من طبعة الكتاب ولم يرد منه سوى الجزء الأخير الذي يتدى بعبارة « محمد الأصبهاني » إلى آخره ، المصدر نفسه ص ١٣ .
- (٦٧) الفيروز آبادي : القاموس المحيط ص ٦٤٩ مادة جزء ، بيروت ط ٢ ١٩٨٧ م .
- (٦٨) المعجم الوجيز ص ٣٢٧ ، القاهرة ١٩٩٠ م .
- (٦٩) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج٣ ص ٦٢ ، دار العلم للملايين بيروت ط ١ ، ١٩٩١ م .
- (٧٠) معجم السفر ص ٢١٩ .
- (٧١) انظر على سبيل المثال - معجم السفر صفحات ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨ ، ٤٣٩ ، ٤٥٦ .

- (٧٢) معجم السفر ص ١١٣ - ١١٤ .
- (٧٣) المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٥ .
- (٧٤) المصدر السابق ص ١٤٣ .
- (٧٥) المصدر السابق ص ١٤٦ .
- (٧٦) المصدر السابق ص ٢٥٣ .
- (٧٧) للمزيد انظر معجم السفر : صفحات ١٥٤ - ٢٤٧ - ٢٧٤ - ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٤٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠١ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ .
- (٧٨) يحدونا الأمل فى العثور على هذه الأجزاء الهامة من معجم السفر فى القريب العاجل أن شاء الله تعالى حتى يتمكن الباحثون من الاستفادة من هذه الوثيقة الهامة على النحو الأمثل.
- (٧٩) ورد هذا التاريخ فى ثلاثة تراجم فقط بمعجم السفر ، انظر ص ٥٨ ، ٤٠٠ ، ٤٤٠ .
- (٨٠) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣٠٣ .
- (٨١) معجم السفر ص ٤٦٤ ، ابن الجزرى : غاية النهاية ج ١ ص ٤٣ .
- (٨٢) معجم السفر ص ١٦٨ ، الذهبى : العبر ج ٣ ص ٦٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٠ القاهرة د. ت.
- (٨٣) معجم السفر ص ٤٦٤ ، الذهبى : سير إعلام النبلاء ج ٢١ ص ١٢٢ - ١٢٣ ، العبر ج ٣ ص ٨١ .
- (٨٤) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .
- (٨٥) انظر ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٦ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ .
- (٨٦) انظر معجم السفر ص ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٨٦ .
- (٨٧) المصدر السابق ص ١٧١ .
- (٨٨) المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٨٩) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٦٧ السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٣٥٥ .

(٩٠) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٦ .

(٩١) البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٩٢) النجوم الزاهرة ج٧ ص ٦٧ .

(٩٣) حسن المحاضرة ج١ ص ٣٥٥ .

(٩٤) سير أعلام النبلاء ج٢١ ص ١٧ .

(٩٥) وهو : المنذرى جامع مسودات « معجم السفر » الذى نحن بصدد الحديث عنه .

(٩٦) نقلاً عن الذهبى : تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٣٠٣ ، سير إعلام النبلاء ج٢١ ص ٢٨ .

(٩٧) المنذرى : التكملة لوفيات النقلة ج٣ ص ١٨٧ ، تحقيق د. بشار عواد معروف ،

بيروت ط ٢ ١٩٨١ م منصور بن سليم : ذيل مشتبہ الأسماء والنسب ورقة ٢٥ ، مخطوط

بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .

(٩٨) التكملة لوفيات النقلة ج٣ ص ١٨٧ .

(٩٩) الذهبى : سير إعلام النبلاء ج٢٣ ص ٢١٨ ، الصفدى الوافى بالوفيات ج٣ ص ٢٦٤

- ٢٦٥ .

(١٠٠) الذهبى : المصدر السابق ج٢٣ ص ٢١٩ ، الصفدى : المصدر السابق ج٣ ص

٢٦٥ .

(١٠١) سير إعلام النبلاء ج٢٣ ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٠٢) الوافى بالوفيات ج٣ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٠٣) معجم السفر ص ٤٦٧ .

(١٠٤) المصدر نفسه ص ٤٦٨ .

(١٠٥) ، (١٠٦) المصدر نفسه ص ٣٧٩ .

(١٠٧) المصدر نفسه ص ٤٧ ، ٨٨ ، ٣٨٥ ، ٤٢٠ ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

(١٠٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

(١٠٩) المصدر نفسه ص ١٦٣ .

(١١٠) انظر المصدر نفسه الأمثلة بترتيب الصفحات ٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٣٢٧ .

(١١١) استجازة السلفي الأولى من الزمخشري مجلد ٢٢ ص ١٧٧ - ١٧٨ ي ، تحقيق د.

بهيجه الحسني ، مجلد الجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٧٣ م.

(١١٢) انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٣٩ وقارنها بمعجم بغداد : ورقة ٤٦ -

٤٧ .

(١١٣) انظر على سبيل المثال : السمعاني : كتاب الأنساب ج ١ ص ١٨ - ١٩ تحقيق عبد

الله عمر البارودي بيروت ط ١ ، ١٩٨٨ م .

(١١٤) انظر معجم السفر : ص ٧٩ هامش (٣) ، ٩٢ هامش (٢) ، ٩٤ هامش (١) (٢) ،

١١٣ هامش (١) ، ١٥٨ هامش (٢) ، ٢٦٠ هامش (٤) ، ٣٥٤ هامش (٢) .

(١١٥) كذلك لم يقدم له المحقق ، اللهم إلا بعض شذرات تتعلق بتعريف كلمة

«معجم» اصطلاحاً مع نبذة مختصرة عن حياة المؤلف «السلفي» ، معجم السفر ص ٤

- ٧ .

(١١٦) انظر فهرس الأحاديث بمعجم السفر ص ٤٧٤ - ٤٩٣ .

(١١٧) معجم السفر ص ١٧٦ .

(١١٨) وهو : علي بن جعفر بن علي الصقلي المعروف بابن القطاع ، أحد العلماء المبرزين في

علم اللغة والنحو ، وله في علم المعاني والشعر حظ كبير ، وكان موجوداً بصقلية حوالي

سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، القفطي : إنباه الرواة على إنباه النحاه ص ٣٠٠ - ٣٠١ ،

تحقيق محمد بو الفضل إبراهيم ، نشر دار الفكر العربي بالقاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية

بيروت ط ١ ١٩٨٦ م ، وابن القطاع هذا أورد عنه السلفي الكثير من الأخبار عن تلاميذه

- انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٠٣ ، ٤١١ ، ٥٨٢ .

(١١٩) معجم السفر ص ٤٠٣ .

(١٢٠) انظر على سبيل المثال المصدر نفسه ص ١٥٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٧١ ، ٣٥٩ .

(١٢١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٣١٨ .

(١٢٢) القفطى : انباه الرواه جـ ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٣١٨ .

(١٢٣) لعل السلفى يقصد بذلك كتابه « معجم السفر » .

(١٢٤) ص ٨٠ .

(١٢٥) الأمثلة على ذلك ص ١٩ ، ٢٠ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٥ .

(١٢٦) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٧٤ .

(١٢٧) صرح السلفى فى معجمه أكثر من مرة بأخبار هذه الرحلة التى استغرقت ثلاث سنوات من عمره ، مكث خلالها بالقاهرة من سنة ٥١٥ إلى ٥١٧ هـ انظر ص ١٩٩ ، ٢٣٤ ، ٣١٧ .

(١٢٨) انظر على سبيل المثال ص ٧٩ ، ١٧١ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٨٩ ، ٢٣٦ ، ٤١٦ .

(١٢٩) الطرطوشى : نسبة إلى طرطوشة وهى مدينة بالأندلس تقع بالشرق من قرطبة ، ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٠ .

(١٣٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان - ٤ ص ٢٦٢ .

(١٣١) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٤ .

(١٣٢) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٢ .

(١٣٣) انظر ص ٣٢٥ ، ٣٣٢ .

(١٣٤) معجم السفر ص ١٧٥ .

(١٣٥) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢٥ .

(١٣٦) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٩٥ .

(١٣٧) انظر على سبيل المثال ص ١٤٠ ، ١٦٩ ، ٣٤٠ .

(١٣٨) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٧٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ٢٤٧ .

- (١٣٩) انظر على سبيل المثال : ترجمة « أبو المحاسن الروياني » بمعجم السفر ص ١٨٣ - ١٨٤ وقرينها بكتاب وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٩٨ - ١٩٩ .
- (١٤٠) معجم السفر ص ٤٣٤ .
- (١٤١) المصدر نفسه ص ٤٣٣ .
- (١٤٢) المصدر نفسه ص ٢٧٥ .
- (١٤٣) المصدر نفسه ص ١٧٩ .
- (١٤٤) المصدر نفسه ص ١٨٣ .
- (١٤٥) المصدر نفسه والعبارات الثلاث على التوالي بترتيب الصفحات الآتية : ١٩٦ ، ٢٦٠ ، ١٤٩ .
- (١٤٦) المصدر نفسه ص ١٦٥ .
- (١٤٧) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .
- (١٤٨) المصدر نفسه ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- (١٤٩) أمثلة ذلك في معجم السفر ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩١ ، ٤٢٩ .
- (١٥٠) انظر على سبيل المثال ترجمة « على بن المشرف الأنماطي » بمعجم السفر ص ٢٩٩ .
- (١٥١) المصدر نفسه ص ٣٠٥ ، ٣٤٨ .
- (١٥٢) هذه العبارات نطالعها بكثرة في معظم صفحات الكتاب ، والأمثلة على ذلك ص ١٢٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٥٣ .
- (١٥٣) المصدر نفسه ص ٢١٤ .
- (١٥٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ - ١٥٦ .
- (١٥٥) انظر على سبيل المثال ص ٢٤٧ ، ٢٩٨ .
- (١٥٦) من ضمن خطة الباحث - أن شاء الله تعالى - عمل معجم للبلدان التي وردت بمعجم السفر وذلك في القريب العاجل .
- (١٥٧) معجم السفر ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(١٥٨) انظر هذه الأمثلة على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص ١٢٦ ،
١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٠٥ .

(١٥٩) انظر هذه الأمثلة على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص ١٨٤ ،
١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٥١ ، ٤٤٦ .

(١٦٠) انظر هذه الأمثلة ، بترتيب صفحاتها كالتالى : ص ١٦١ ، ١٦٣ ، ٣٠٧ .

(١٦١) لا يتسع المقام لذكر كل هذه المواضع : واحيل من يريد الإطلاع عليها إلى الأجزاء
الخمس من كتاب معجم البلدان وقرائنها فى كتاب معجم السفر .

(١٦٢) انظر ص ١٠ - ١٢ .

(١٦٣) انظر ص ٨ - ٩ .

(١٦٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر جـ ١ ص ١٠٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ وجـ ٢
ص ١١٥ ، ١٦٤ ، ١٩٢ ، ٢٢٨ ، ٢٩٠ ، وجـ ٣ ص ٥٢ ، ١٩١ ، ٢١٧ ، جـ ٤
ص ٤٣ .

(١٦٥) انظر على سبيل المثال جـ ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩ ، جـ ٣ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٦٦) مثال ذلك فى انباه الرواة جـ ٢ ص ١١٥ ، وقرينه فى معجم السفر ص ١٦٢ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأبار : محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) .

- المعجم فى شيوخ أبى على الصدفى مجرىط ١٨٨٥ م .

البلوى : يوسف بن أحمد (ت ٦٠٥ هـ / ١٢٠٩ م) .

- ألف با للأبنا جـ ٢ القاهرة ١٨٧٠ م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء المؤسسة العربية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، د . ت .

ابن الجزرى : شمس الدين محمد (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) .

- غاية النهاية فى طبقات القراء جزآن نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢ م .

ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) .

- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جزء ٩ دائرة المعارف العثمانية بحيدر إباد الدكن - الهند - ط ١ ، ١٩٤٠ م .

ابن خلكان : أبو العباس أحمد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان سبعة أجزاء تحقيق د . إحسان عباس دار صادر بيروت د . ت .

الذهبي : محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) .

- سير أعلام النبلاء جزء ٢١ ، ٢٣ تحقيق بشار عواد معروف ، محيى هلال سرحان مؤسسة الرسالة بيروت ط ١ ١٩٨٤ م .

- تذكرة الحفاظ جزء ٤ دار الكتب العلمية بيروت د . ت .

- السبكي : أبو النصر عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٢م) .
- طبقات الشافعية الكبرى جزء ٦ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحي مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٦٨م .
- السخاوي : محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) .
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ تحقيق وتعليق فرانز روز نثال ترجمة د. صالح أحمد العلي دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣م .
- السلفي : أبو الطاهر أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) .
- معجم السفر تحقيق عبد الله عمر البارودي دار الفكر بيروت ١٩٩٣م .
- معجم بغداد مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٤٧٩ أدب .
- الوجيز في ذكر المجاز والمجيز تعليق محمد خير البقاعي دار الغرب الإسلامي بيروت ط ١ ١٩٩٣م .
- استجازة السلفي الأولى من الزمخشري تحقيق د. بهيجة الحسنی مجلة المجمع العلمي العراقي بغداد مجلد ٢٣ ، ١٩٧٣م .
- ابن سليم : وجيه الدين منصور (ت ٦٧٣هـ / ١١٦٦م) .
- ذيل مشتهر الأسماء والنسب مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .
- السمعاني : عبد الكريم (ت ٥٦٢هـ / ١٠٥٠م) .
- كتاب الانتساب جزء (١) تحقيق عبد الله عمر البارودي بيروت ط ١ ١٩٨٨م .
- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة جزء (١) د. ت.

- الصفدى : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .
- الوافى بالوفيات جزء ٨ اعتناء محمد يوسف نجم ألمانيا ط ٢ ، ١٩٨٢م .
- ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ / ٨٦٧م) .
- فتوح مصر وأخبارها تحقيق محمد صبيح دار التعاون للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٤ .
- ابن عساكر : أبو القاسم علي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) .
- تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري دمشق ١٩٢٨م .
- الفيروز آبادي : مجد الدين محمد (٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) .
- القاموس المحيط بيروت ط ٢ ١٩٨٧م .
- القفطى : جمال الدين أبو المحاسن (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) .
- أنباه الرواة على أنباه النحاة أجزاء ١ : ٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط ١ ، ١٩٨٦م .
- ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .
- البداية والنهاية ١٤ جزء تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرون دار الريان للتراث ، القاهرة ط ١ ، ١٩٨٨م .
- المقريزى : تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) .
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء جزء ٣ تحقيق محمد حلمى محمد أحمد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣م .
- المنبرى : زكى الدين عبد العظيم (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) .
- التكملة لوفيات النقلة أجزاء ١ : ٤ تحقيق بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة بيروت ط ٢ ، ١٩٨١م .

- ابن هداية : أبو بكر الحسيني (ت ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م) .
- طبقات الشافعية تحقيق عادل نويهض بيروت ط ٣ ، ١٩٨٣ م .
- اليافعي : أبو محمد عبد الله (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ج ٣ مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٢ ، ١٩٧٠ م .
- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) .
- معجم البلدان خمسة أجزاء دار صادر بيروت د. ت .
- معجم الأدباء أو ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب « خمسة أجزاء دار الكتب العلمية بيروت ط ١ ١٩٩١ م .
- ثانياً : المراجع العربية الحديثة والمعربة :
- بروكلمان : كارل :
- تايبخ الأدب العربي جزء ٦ ترجمة د. السيد يعقوب بكر دار المعارف . القاهرة ط ٢ ١٩٨٣ م .
- ريز تيانو : اميرنو .
- أخبار عن بعض مسلمي صقلية الذين ترجم لهم السلفي في معجم السفر مجلة كلية الآداب عين شمس مجلد ٣ عدد يناير ١٩٥٥ م .
- الزركلي : خير الدين .
- الاعلام جزء (١) دار العلم للملايين بيروت ط ٥ ١٩٨٠ م .

صالح : حسن عبد الحميد (دكتور) .

- الحافظ أبو طاهر بيروت ط ١ ، ١٩٧٧ م .

عنان : محمد عبد الله .

- مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى القاهرة ١٩٩١ م .

مصطفى : شاكر .

- التاريخ العربى والمؤرخون دار العلم للملايين بيروت ط ١ ، ١٩٩٠ م .

عمران سبته كما شاهده ووصفه الأنصاري السبتي

د . كمال عنانك إسماعيل (*)

نظرة عامة حول تاريخ سبته منذ خضوعها للمسلمين حتى سقوطها في
أيدي البرتغاليين :

سبته بفتح السين وسكون الباء مدينة ساحلية قديمة (١) ، من مدن المغرب الأقصى . وتحتل سبته موقعاً استراتيجياً يتحكم في مضيق جبل طارق وتحيط بها الجبال من ناحية الغرب . وهذا الوضع الجغرافي جعل اتصالها بالأندلس أقوى بكثير من اتصالها بالمغرب الذي تقوم على أرضه . ولهذا قدر لسبته منذ بداية الحكم العربي في بلاد المغرب أن تلعب دوراً رئيسياً في شئون الأندلس إذ كانت على صلة وثيقة ومستمرة به بحيث أصبحت مدينة عربية ذات طابع أندلسي في مظهرها وثقافتها وفي وضعها السياسي (٢) .

والواقع إن قرب مدينة سبته من الشاطئ الأندلسي جعل تاريخها على مر العصور مرتبطاً بتاريخ الأندلس ، فمن سبته كان جواز الفاتحين المسلمين الأوائل من بر العدو المغربية إلى الأندلس . وقد نجح الأمويين بالأندلس في السيطرة على مدينة سبته التي كان يحكمها يوليان (٣) . واتخذوها قاعدة استراتيجية لهم لمقاومة الخطر الفاطمي في القرن ٤ هـ / ١٠ م زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر (٤) . كما استولى عليها الحموديون حكام مالقة زمن ملوك الطوائف في القرن ٥ هـ / ١١ م (٥) . ولقد تعرضت سبته في عصر الطوائف لنفس ما تعرضت له سائر بلاد المغرب والأندلس من تمزق وفوضى سياسية فانتهاز سقوط البراغواطي (٦) . فرصة تدهور أوضاع الحموديين ، وأعلن استقلاله بسبته ، مكوناً دولة من دول الطوائف العديدة التي ظهرت في بلاد المغرب والأندلس في تلك الفترة (٧) .

(*) مدرس بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

وقد دخل سقوط البراغواطى فى صراع مع المرابطين انتهى بدخول سبته فى طاعة المرابطين على يد المعز بن يوسف بن تاشفين (٨) . ولم تبق سبته طويلاً فى يد المرابطين حيث خضعت للموحدين على أثر مصرع تاشفين بن على بن يوسف أمير المرابطين فأعلن أهل سبته طاعتهم لعبد المؤمن بن على عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥ م (٩).

وكان أن ظلت سبته خاضعة للموحدين حتى وفاه الرشيد الموحدى عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م حيث أعلن واليها اعترافه بالخليفة الموحدى الجديد السعيد بن المأمون ، وأعلن بيعته للأمير الحفصى أبى زكريا يحيى عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٣م ، وبذلك صارت سبته تابعة للحفصيين (١٠) إلى أن استقلت بها أسرة أندلسية تعرف ببني العزفى فى القرن ٧هـ / ١٣م (١١) . وفى عام ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م استولى سلطان غرناطة محمد بن نصر على سبته ، ونقل بني العزفى إلى غرناطة حيث بقوا هناك إلى أن عاود المرينيون استخلاص سبته من يد النصريين سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م على أثر ثورة داخلية بالمدينة . وفى سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م عاد يحيى بن أبى طالب العزفى والياً على سبته من قبل السلطان المرينى أبى سعيد (١٢) . وأخيراً سقطت سبته فى أيدي البرتغاليين عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م نتيجة الصراع على السلطة بين أبناء البيت المرينى ، وكذلك المنازعات بين بني مرين وبني عبد الواحد أصحاب تلمسان (١٣) وفى عام ١٥٨٠م آلت سبته إلى أسبانيا عندما ضم ملك أسبانيا فيلب الثانى البرتغال إلى مملكته . ومازالت سبته فى أيدي الأسبان إلى الآن (١٤) .

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن مدينة سبته اشتهرت على مر العهود الإسلامية كدار للعلم والعلماء ، ويكفى أنها أنجبت من العلماء القاضى عياض بن موسى السبتي ، والشريف الإدريسي . وقد أورد صاحب كتاب بلغة الأمنية أسماء سبعة وأربعين رجلاً وامراً واحدة من علماء سبته من القرن ٨هـ / ١٤م . فى مختلف الفنون والعلوم (١٥) . نذكر منهم أبو عبد الله محمد بن هانى اللخمى الذى كان

يتولى التدريس والقراءة بمسجد القفال (١٦) وأبو القاسم بن عمران الحضرمي ناظر خزانة الجامع الأعظم (١٧) . وأبو محمد قاسم بن أبي حجة الأنصاري أستاذ المدرسة الجديدة (١٨) . والطبيبة الشهيرة عائشة ابنة الشيخ الكاتب أبي عبد الله ابن الجيار المحتسب بسبته (١٩) .

وفي ضوء الثبوت المفصل لمعالم مدينة سبته الذي زودنا به الأنصاري يتضح أن مدينة سبته ظلت حتى أوائل القرن ٩هـ / ١٥م تنعم بالرخاء والازدهار والعمران إلى أن سقطت المدينة في أيدي البرتغاليين عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م فتعرضت لأعمال السلب والنهب ونزح عنها معظم سكانها وتلاشت الآن معظم معالمها التي سنحاول كشف النقاب عنها من خلال ما دونه الأنصاري عن أثار تلك المدينة ومعالمها .

نبذه عن الكتاب ومؤلفه :

الواقع أننا لا نعرف شيئاً عن مؤلف كتاب اختصار الأخبار سوى أنه كان من أبناء سبته حيث عرف نفسه في مقدمة الكتاب بأنه محمد بن القاسم بن محمد ابن محمد بن أحمد عن بن عبد الملك الأنصاري السبتي الدار والنشأة والمولد (٢٠) . وسوى ما ذكر من أن أبا العباس بن أبي الخير الأنصاري جده من قبل الأم . وأن أبا العباس الدقاق من أصهار سلفه (٢١) .

وفي رأى الأستاذ عبد الوهاب بن المنصور أن أصل هذا السلف من قرية بحوز سبته تسمى بزبج ، لأنه يسميها قريتنا عندما يذكرها ، حيث كانت لهم بها أملاك ثم انتقلوا منها إلى سبته حيث تملكوا بعض العقارات (٢٢) .

وقد أشار الأنصاري في كتابه اختصار الأخبار إلى ثلاثة كتب الأول بعنوان « بغيه السامع » وقد ذكر صراحة أنه من تأليفه (٢٣) . والكتاب الثاني يسمى الأعلام . ورغم أنه لم يشر صراحة إلى أنه من تأليفه إلا أنه يحيل عليه كثيراً في كتابه اختصار الأخبار ، كقوله « حسبما استوعبنا وصفه في الأعلام » . وبسطنا القول في الأعلام وبالغنا في وصفه في الأعلام (٢٤) . مما يدل على أن كتاب الأعلام أيضاً من تأليفه .

أما الكتاب الثالث فعنوانه الكواكب الوقادة (٢٥) ، وربما كان من تأليفه أيضاً .

الكتاب :

أما عن كتاب اختصار الأخبار موضوع الدراسة فإن النظرة المتأنية فى محتويات هذا الكتاب تجعلنا نضعه بين كتب الخطط ، التى تعالج عمران المدن وتعين فى رسم خرائطها الطبوغرافية .

وتبرز أهمية الكتاب وقيمه فى أن مؤلفه كان من أبناء سبته ، وأنه استقى معلوماته من خلال المعاينة والمشاهدة الشخصية ، بحيث لا يدين لأحد بشئ من معلوماته الغزيرة وأوصافه الدقيقة لمختلف مظاهر عمران سبته . ففى هذا الكتاب ما ليس فى غيره مما صدر من مصنفات عن مدينة سبته ، لا سيما ما يتعلق بعمران المدينة فى عصرها الإسلامى . ومن هنا تتأكد قيمته وأهميته من حيث إنه زودنا بصورة واضحة لعمرانها الإسلامى قبل أن يحتلها البرتغاليون ويتحول مظهرها الإسلامى إلى تراث أسباني برتغالى .

• وتجدر الإشارة إلى أننى لست أول من عنى بكتاب اختصار الأخبار ، فقد نشره لأول مرة الأستاذ ليفى بروفنسال عام ١٩٣١م بمجلة هيسبريس ثم أعيد طبعه بتطوان سنة ١٩٤٠م (٢٦) اعتماداً على نسخة كانت فى حوزة آل بنونه بتطوان ، كما نشر هذا النص أيضاً الأستاذ محمد بن تاويت سنة ١٩٥٨ فى العدد الثامن والثلاثين من مجلة تطوان . وفى سنة ١٩٦٢م قام الأستاذ خواكين بالين بترجمة هذا النص إلى اللغة الأسبانية ، ونشر الترجمة بمجلة الأندلس تحت عنوان وصف سبته فى القرن ١٥م (٢٧) .

وأخيراً نشره الأستاذ عبد الوهاب بن منصور فى الرباط سنة ١٩٨٣م . ورغم أهمية كل هذه النشرات التى صدرت لهذا النص ، إلا أن جهود الناشرين اقتصرت على مقابلة نصوص الكتاب ، وإبراز ما بينها من اختلافات بسيطة مع إبداء بعض الملاحظات والتعليقات حول الشخصيات التى استفدت منها فى دراستى ، لاسيما ، ما نشره كل من الأستاذين خواكين بالين وعبد الوهاب بن منصور .

وهكذا تحدد عملى الذى يهدف على خلاف كل النشرات سالفه الذكر- إلى إبراز قيمة كتاب اختصار الأخبار فى رسم صورة واضحة لعمران سبته الإسلامية فى ضوء مقابلة ما ذكرته المصادر التاريخية والجغرافية فى الفترة الطويلة التى سبقت تأليف هذا الكتاب ، وما استجد من أبحاث فى الفترة التى تلت تأليفه والتى تقدر بنحو ستة قرون إلا قليلاً .

التخطيط العام لمدينة سبته الإسلامية وأهم المظاهر العمرانية فى ضوء وصف الأنصارى :

الواقع إن دراسة العمران فى مدينة سبته ومحاولة رسم صورة واضحة لها فى العصر الإسلامى من حيث تخطيطها ومظاهر عمرانها الاجتماعى والاقتصادى يتسم بالصعوبة . ذلك أن تلك المدينة فقدت طابعها كمدينة إسلامية منذ أن احتلها البرتغاليون فى عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م حيث تبدل مظهر المدينة ، ولم يبق الآن من الفن المعمارى الإسلامى ما يمكن أن تقع عليه عين الملاحظ العابر ، إذ أن معظم تراثها المشاهد الآن هو تراث أسباني برتغالى حل محل التراث المعمارى الإسلامى . ولذا فإننا نجد حاجة ملحة إلى إلقاء الضوء حول عظمة التراث المعمارى المندرس بمدينة سبته فى العصر الإسلامى .

أولاً : النطاق المسور للمدينة :

(أ) الأسوار :

تعد الأسوار من أهم المنشآت العسكرية التى تميزت بها المدن الإسلامية . وتؤدى الأسوار إلى جانب وظيفتها الحربية فى حماية المدينة من أى عدوان خارجى ، وظيفة اجتماعية ، وهى تحديد النطاق العمرانى الأهل بالسكان (٢٨) .

ولما كانت مدينة سبته -بفضل موقعها الاستراتيجى- تعتمد فى الدفاع عن نفسها على البحر المتوسط الذى يدور بها شمالاً وجنوباً وشرقاً (٢٩) مشكلاً خندقاً طبيعياً مانعاً يكفل حمايتها ، ويتيح لعمرانها المرتفع التحكم فى الدفاع عنها ، بحيث

أصبحت على حد تعبير ياقوت الحموى « ضاربة فى البحر داخله كدخول كف على زند » (٣٠) .

وهكذا نرى أن المنطقة الوحيدة التى تحتاج إلى حماية هى الجهة الغربية (٣١) .
ولذلك استلزم الأمر إحاطتها بسور يحميها من هذه الجهة بحيث يصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصانتها .

وللأسف أن الأنصارى لم يزدنا بأية معلومات عن هذا السور . غير أن البكرى أكد على أن المدينة كانت مسورة بسور محكم البناء بناه عبد الرحمن الناصر (٣٢) ، وذلك عندما اقتحم مدينة سبته وأقام الدعوة الأموية بها عام ٣١٩هـ / ٩٣١م . وقد أشار ابن عذارى إلى ذلك بقوله (وقد عمل الناصر على تحصين تلك المدينة فشكها بالرجال وأتقنها بالبنيان وبنى سورها بالكذان (٣٣) .
وألزم فيها من رضىه من قواده وأجناده (٣٤) .

وقد تهدم هذا السور وأعيد بناؤه فى عهد البرتغاليون ، وبذلك اختفت معالمه الإسلامية باستثناء بعض أجزاء شوهتها أعمال التجديد والترميمات التى ألحقت بها منذ أن سقطت سبته فى أيدي البرتغاليين (٣٥) . ولم يعد باقياً الآن من السور سوى برج مربع (٣٦) نسبة الأستاذ ترأس إلى عصر الدولة الأموية ، وبالتحديد لعصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ، على أساس أن البرج مبنى بقطع ضخمة وغير منتظمة من الحجارة على نظام أديه وشناوى ومثل هذا النظام وكذلك مادة البناء كانت من أكثر مواد البناء شيوعاً فى بلاد الأندلس فى عصر الخلافة على حين ندر استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغرب (٣٧) .

هذا عن السور الغربى لمدينة سبته ، أما عن النظام الدفاعى لبقية أجزاء المدينة الشمالية والشرقية والجنوبية فلا تظفر فى وصف الأنصارى أيضاً بأية إشارة تتعلق بما كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى تلك الجهات .

وفى ظل هذا الصمت من قبل الأنصارى ، تتسأل هل ظلت تلك الجهات تعتمد فى تحصينها على البحر المتوسط كخط الدفاع الأول عن المدينة . أم أنها كانت مسورة هى الأخرى بأسوار لحمايتها؟

ومع أن ما وصلنا فى المصادر العربية عن أسوار سبته وحصينها يعتبر شحيحاً للغاية ، بحيث لا تعين بشكل كاف على دراستنا التحليلية لهذه الأسوار ، ولا تتضمن أية تفاصيل عن موقعها ، إلا أننا نستطيع من هذه المادة الهزيلة التى زودنا بها مؤرخو العرب وجغرافيتهم أن نجيب على التساؤل السابق . فنقول بأن الجهة الشرقية من المدينة كانت محاطة بسور بناه المنصور محمد بن أبى عامر عندما شرع فى بناء قصبة أو مدينة جديدة فى الجهة الشرقية من مدينة سبته فوق جبل الميناء^(٣٨) والتى عزم على نقل سكانها إليها . ولكنه توفى قبل أن يتم مشروعه . وفى ذلك تشير المصادر العربية فتقول (وفى آخر المدينة بشرقها جبل كبير يسمى جبل الميناء . وقد كان محمد بن أبى عامر أمر أن يبنى لهذا الجبل مدينة ويتصل إليها أهل سبته ، فبنى سورها ، ومات ، ولم يتم ما أراد . والسور باق إلى وقتنا هذا كأنه بنى بالأمس وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه . ومن غريب ما فى ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها ومبنية بالزيت عوضاً من الماء . وكان غرضه إتمام عمله على هذا ، لولا الإنفاق الكثير فإن البناء بالزيت أصعب وأبقى مع مرور الدهور والأزمان فلم يساعده الأجل رحمه الله)^(٣٩) .

وإلى الشمال الشرقى من هذا السور الذى بناه المنصور بن أبى عامر ، أقام أبو القاسم العزفى سوراً آخر ، حيث أشار ابن أبى زرع فى سياق حديثه عن أحداث عام ٦٤٩هـ / ١٢٥١م إلى أن أبا بكر أبى قاسم العزفى بنى فى السنة المذكورة سور سبته بجانب المنارة . وقيل بل كان ذلك فى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وهو الأصح^(٤٠) .

وفى ضوء الإشارة السابقة نستدل على أن الجهة الشمالية الشرقية من مدينة سبته حيث كانت تقع المنارة أو الناظور - كما هو موضح فى

الخرائط التى تبين مواقع المدينة ومعالمها الإسلامية(٤١) - ظلت بدون سور إلى أن دعت الضرورة أبا القاسم العزفى أن يطوق هذه الجهة بسور لحمايتها من الأخطار الخارجية .

وتوضح المخططات التى وضعت لأسوار سبته قبل تدميرها ، أن السور الشرقى كان يمتد شمالاً ثم يتجه شرقاً فى شكل زاوية قائمة إلى المنطقة المعروفة بجبل المينا ، حتى يصل إلى باب المينا ، ثم يواصل سيره صعوداً إلى أن يصل أقصى ارتفاع له عند الربوة التى يوجد بها مسجد المقبرة(٤٢) .

أما عن الجهة الجنوبية فعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تبين الوضع الذى كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى هذه الجهة ، إلا أن أحد الباحثين أكد بأن الجهة الجنوبية من المدينة والتى كان يحيط بها بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى ، كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع تاريخه إلى العصر الإسلامى(٤٣). وقد استند فى ذلك على المخططات التى وضعت لمدينة سبته فى القرن ١٥ م ، والتى نرى فيها بوضوح جزءاً من سور إسلامى قد فتح فيه باب يعرف بباب مضرب الشبكة أو باب الزلاقه ، يتقدمه برج يعرف ببرج الماء(٤٤) . كما نلاحظ أيضاً من خلال أحد هذه المخططات أن مدينة سبته كانت محاطة تقريباً بأسوار تبدأ من الجهة الشمالية الشرقية وتمتد مارة بباين فى السور الشرقى المشار إليهما برقمى ٢،٣ لتصل إلى أقصى الجهة الجنوبية الغربية من المدينة(٤٥) . ونخرج من ذلك بنتيجة هامة وهى أن الجهة الجنوبية من المدينة كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع إلى العصر الإسلامى ، أقيم لحماية تلك الجهة التى كان يتركز فيها أهم أحياء سبته ومراكزها العمرانية ، مثل الجامع والمدرسة الجديدة والقيسارية .

وأما عن الجهة الشمالية من المدينة ، فكانت فيما يبدو هى الجهة الوحيدة غير المسورة ، حيث اعتمدت فى حمايتها بشكل رئيسى على بحر الرملة فى الطرف الشمالى من المدينة . ويؤكد ذلك ، المخططات التى وضعت للمدينة ، والتى لا نرى فيها أية آثار لأسوار تطوق المدينة من هذه الجهة(٤٦) . كما أكد الأستاذ

كارلوس جوثالبت على هذه الحقيقة بقوله أن المسلمين لم يقيموا أسوار حول هذا القطاع الممتد بطول بحر الرملة في شمال المدينة ، ويدلل على ذلك بأن جيوش البرتغاليين عندما فكرت في غزو المدينة دارت حولها ثم استقر رأى قائد الأسطول البرتغالى على أن يكون غزوها من الجهة الشمالية المطلّة على بحر الرملة ، حيث إنها الجهة الوحيدة التى يسهل الوصول منها إلى داخل المدينة لأنها غير مسورة (٤٧) .

وفى تصورى أن إحجام أهل سبته عن تسوير الجهة الشمالية من المدينة يرجع إلى أن التوسع العمرانى فى العصر الإسلامى لمدينة سبته - وفقاً لما نراه فى الخرائط التى توضح مواقع المدينة ومعالمها - كان مركزاً بصفة أساسية فى ثلاثة قطاعات رئيسية ، هى القطاع الشرقى حيث كانت المدينة التى شرع فى بنائها المنصور بن أبى عامر . والقطاعان الجنوبى والغربى حيث كان يضمنان بداخلهما كافة المراكز العمرانية للمدينة الدينية والمدنية والاقتصادية ، والتى سوف نشير إليها بعد ذلك فى دراستنا لمراكز المدينة العمرانية .

وبهذا نكون قد أوضحنا فى ضوء المصادر العربية والمخططات التى وضعت للمدينة ، الشكل الذى كان عليه النطاق المسور لمدينة سبته فى العصر الإسلامى . والواقع أن تتبع ذلك النطاق فى الوقت الحالى أمر بالغ الصعوبة ، لأن معظم أسوار المدينة قد تهدم واختفى فى جملة ما اختفى من آثارها الإسلامية التى كانت تزدهر بها فى العصر الإسلامى . وما تبقى من تلك الأسوار تعرض للسقوط وتحول إلى أسوار درست عبر السنين . وهذا ما تبينه المخططات التى أعدت لسبته منذ القرن ١٥م وحتى بداية القرن ١٩م (٤٨) .

(ب) أبواب المدينة :

أحصى الأنصارى عدد أبواب سبته فى العصر الإسلامى بـ ٥٠ (خمسين) باباً (٤٩) . ونظراً لاندثار معظم هذه الأبواب فمن الصعب تحديد مواقعها ، وتتبع

أسمائها التي أطلقت عليها عبر حقب التاريخ الإسلامى لمدينة سبته . كما أن الأنصارى نفسه لم يذكر من أسماء تلك الأبواب سوى تسعة أبواب ، وهى حسب ترتيب ذكره لها .

أولاً : الأبواب ذات الطابع الحربى :

١ - الباب الأحمر :

أورد الأنصارى ذكر هذا الباب بمناسبة حديثه عن أحد مقابر سبته بقوله (ومن أشهرها بمقبرة مضرب الشبكة البرانى خارج الباب الأحمر قبور الشرفاء الحسينيين وهم عدد كثير جمعتهم روضة واحدة (٥٠) . وكانوا رضى الله عنهم ونفعنا بمحبتهم أهل علم وصلاح ودين) (٥١) .

ويبدو أن هذا الباب كان يفتح فى سور المدينة الجنوبى ، المعروف بسور البحر لإطلاله على بحر أبى السؤل فى الشاطئ الجنوبى . ويؤكد ذلك ما ذكره الأنصارى فى موضع آخر عن مقبرة أخرى من مقابر المدينة بقوله : (ومقبرة الربض البرانى داخل سور البحر من الموضع المعروف بمضرب الشبكة قبر الشيخ الفقيه أبى عبد الله عمر بن مسعود والعكس المعروف بابن الكنفر) (٥٢) .

وبإمعان النظر فى هذا النص والنص السابق ، يمكن الاستدلال على أن الباب الأحمر كان يقع داخل النطاق المسور الجنوبى لمدينة سبته ، بحيث يفضى من الجهة الجنوبية إلى خارج المدينة ، ومن الجهة الشمالية إلى داخلها ، فيصبح موضع مضرب الشبكة بقبورها خارج السور من الداخل وفقاً لما ورد فى نص الأنصارى .

٢ - باب فاس :

كان يقع هذا الباب فى القطاع الغربى من سور المدينة (٥٣) الذى يطوق منطقة أفراك Afrag (٥٤) على مقربة من أحد زوايا المدينة التى شيدها السلطان أبو عنان بن أبى الحسن (٥٥) . وقد أشار الأنصارى إلى اسم هذا الباب وموقعه ومشيده فى أكثر من موضع . فمرة يذكره بمناسبة حديثه عن زوايا مدينة سبته

بقوله (ومن الزوايا الزاوية الخيرية التي أبتاعها السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبي الحسن بخارج باب فاس أحد أبواب أفراك) (٥٦) .

ومرة أخرى يشير إليه بمناسبة حديثه عن أبواب المدينة ، فيؤكد أنه كان أحد أكبر أبواب قصبة أفراك ، وفي هذا الصدد يقول (وأبواب أفراك ثلاثة أكبرها باب فاس الذي وضعه السلطان أبو الحسن المريني ، بانيه على شكل باب السبع من فاس الحديد كرسى مملكته وعلى مثاله) (٥٧) ومرة ثالثة يشير الأنصارى إلى هذا الباب فيقول (وبخارج باب فاس من أبواب أفراك المذكور سبقتان سبقة (٥٨) من ألف باع ومائتين وسبقة من ألف باع) (٥٩) .

وإذا فحصنا بقايا هذا الباب التي لا تزال قائمة بين أسوار حديثة بنيت في العهد البرتغالي (٦٠) نلاحظ أنه كان يحظى بمظهر الحصانة والفتحامة التي تتجلى في ضخامة واجهته التي يتوسطها فتحة متسعة يكتنفها من الخارج على الجانبين بروزان أو كتفان يبدوان من ضخامتها أشبه ببرجين مبنيين بقطع حجرية منتظمة الشكل . أما بنية جدران الباب ، فتشير بقاياها إلى أنه كان مشيداً بالدبش والآجر المصقول والمنتظم في صفوفه .

ويقارن الأستاذ بافون مالدونادو بين هذا الباب وبين غيره من الأبواب الموحدية ، فيؤكد أنه كان مطابقاً في تصميمه لبعض الأبواب الموحدية ذوات المداخل المستقيمة المقسمة إلى ثلاثة ممرات متتابعة في خط محوري (٦١) . ويذكر بأن هناك تطوراً واضحاً طرأ على نظام العمارة الحربية المغربية ، بتأثير من الأندلس . فنظام هذا الباب يعد امتداداً للتقاليد الموحدية وتطوراً لما وصلت إليه العمارة الحربية في عصر بني نصر من حيث تطبيق فكرة نظام التقسيم الثلاثي المدرج في تتابع (٦٢) الذي طبق على نحو رائع في العديد من أبواب غرناطة لاسيما باب السلاح (٦٣) والعدل (٦٤) .

وبوجه عام يعد باب فاس رغم تهدم أجزاء كثيرة منه الوحيد بين أبواب المدينة الذي لا يزال في حالة أقرب ما تكون إلى حالته الأصلية فلولا آثار هذا

الباب ما كنا قد عرفنا شيئاً عن أبواب سبته الإسلامية التي تهدمت فى جملتها ، وأقيم مكانها أبواب حديثة .

٣ - الباب الجديد أو الأعظم :

كان يقع هذا الباب فى الجهة الشمالية الغربية من سور المدينة على مقربة أيضاً من قصبتها (٦٥) . وكان يمثل حلقة الوصل بين مدينة سبته وربضها الخارجى ، حيث يقع على مشارف الطريق المؤدى إلى ذلك الربض (٦٦) .

ويصف الأنصارى هذا الباب بقوله (وعدد الأبواب خمسون باباً ، منها الباب الأعظم الشهير الضخم ، والهيكل الذى لا يلقى له نظير ، المعروف بالباب الجديد . هذا الباب من مفردات سبته ، ومن آثار الملوك بها اكتنفته قلهره (٦٧) ، عظيمة البناء هائلة المنظر ، سامية فى الجو ، قد استقلت على عشرة قباب وأربعة عشر قوساً . وبابه الأوسط بين قلهرتين ثنتين بارزتين من القلهرة العظمى . والباب فى اتساعه والارتفاع قد أربى على الغاية وجاوز الحد والنهاية . وقوسه وفياصله قد أحكم بناؤها بالكذان بأعجب صفة وأبدع واتقان (٦٨) .

ويبدو من وصف الأنصارى لهذا الباب وأسلوب بناءه أنه كان أكبر أبواب سبته الحربية ، وأكثرها فخامة و ضخامة ، وبذلك صحت تسميته بالباب الأعظم . كما يفهم أيضاً من وصف الأنصارى لهذا الباب بأنه كان يتألف من فتحتين إحداهما تؤدى إلى خارج المدينة ، وكان يكتنفها برجين بارزين عن البرج الذى يحمى الفتحة التى تؤدى إلى داخل المدينة .

وإذا كان وصف الأنصارى السابق لهذا الباب هو الشاهد الوحيد لما كان عليه فى العصر الإسلامى ، إذ اختفى فى الوقت الحاضر بين أطلال المدينة بحيث لا نستطيع التعرف على شكله المعمارى ونظامه التخطيطى ، فإن الأستاذ كارلوس جوثابلس استطاع أن يرسم صورة تقريبية افتراضية لهذا الباب (٦٩) من خلال بعض بقاياها التى تم الكشف عنها ، فضلاً عن الرواية البرتغالية التى دونها المؤرخ البرتغالى

جوميث ايانيش دى ازورارا ، Gomez Ennes de Azurara ، والتي تحكى قصة غزو البرتغاليين لمدينة سبته على يد الملك البرتغالى خوان الأول . وقد اعتمد الأستاذ كارلوس على الأحداث التاريخية التى ساقها ازورارا والتي تؤكد أن جيوش البرتغاليين قد دخلت مدينة سبته عبر باب مكون من ثلاثة مداخل (٧٠) تتصل فيما بينها عن طريق ممر منكسر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام متتابعة ، يقطعها ساحتان أو رحبتان (٧١) يشغلها غرف مقبية ، يفصلها فى مراحل أو مسافات منتظمة جدران بها فتحات معقودة تؤلف فيما بينها ممرات جانبية بها شرفات صغيرة، تمكن المدافعين عن الباب من قذف العدو بالسهام والمواد الملتهبة (٧٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ ترأس نسب هذا الباب إلى بداية القرن ١٢هـ / ١٢م (٧٣) ، وقيمه بأنه كان من نوع الاستحكامات الضخمة التى تمتاز بقيمتها العظيمة فى الدفاع عن المدن ، لاشتمالها على العديد من النقاط الدفاعية، مثل الممر متعدد الانكسار ، والأبراج الضخمة التى تحيط بفتحة الباب . ومثل هذا النوع من الأبواب فى رأى ترأس يماثل الأبواب المرابطية وأبواب عصر بنى مرين ، وإن كان ارتفاعه الهائل يجعله قريب الشبه بأبواب عصر بنى نصر فى القرن ٨هـ / ١٤م (٧٤) .

ثانياً : الأبواب ذات الطابع المدنى :

يقتصر استخدام هذا النوع من الأبواب على أوقات السلم ، فليس لها أية قيمة حربية وتنحصر وظيفتها فى تسهيل مهمة الاتصال بين العمران الداخلى للمدينة من حيث إفساح الطريق أمام المارة أو القوافل التجارية ، أو لتصريف مياه الأمطار . ويستدل من أسماء أبواب سبته ذات الطابع المدنى التى زودنا بها الأنصارى أن بعضها كان يسمى عادة باسم المنطقة المؤدية إليها مثل باب الفرج (٧٥) وباب المينا (٧٦) وباب الزلاقة (٧٧) أو بأسماء أصحاب الحرفة التى يزورها سكان تلك المنطقة مثل باب المشاطين (٧٨) وباب الحلويين (٧٩) وباب الحلفاويين (٨٠) وباب القصايين (٨١) .

ومن أهم ما أمدنا به الأنصارى أيضاً من معلومات عن أبواب مدينة سبته ذات الطابع المدني ، ذكره لخمسة أبواب كانت تنفتح فى سور الربض البرانى الذى هدمه السلطان أبو سعيد (٨٢) .

وفى ضوء الإشارة السابقة نستطيع أن نقرر حقيقة ما ذكره العلامة ليفى بروفنسال بأنه قد تنمو خارج هذه الأبواب (أى أبواب المدينة بنوعيتها الحربى والمدنى) . أرباض تزدهر عبر مرور السنين ، وتنتهى بالاندماج فى المدينة ، فيبنى سور جديد أوسع يضم هذه الأرباض فتصبح بدورها حومات ، وفى هذه الحالة لا يحدث تعديل فى أسماء الأماكن وقد يهدم الباب بعد انعدام سبب وجوده ، وقد يهدم السور الذى فتحت فيه الأبواب أيضاً ، ولكن الأسماء تظل باقية (٨٣) .

ثانياً : أرباض سبته فى نص الأنصارى

المقصود بالربض البؤرة العمرانية أو الضاحية التى تقع خارج أسوار المدينة ، والتى تنشأ غالباً نتيجة اتساع العمران داخل نطاق المدينة ، وفيضه إلى خارجها بعد تسويرها . وفى بعض الأحيان تطلق لفظة ربض خطأً على الأحياء الداخلية الواقعة داخل النطاق المسور للمدينة ، حتى ولو كانت قرية جدا من مركز المدينة العمرانى ، وليست كما تعنى هذه الكلمات فى معناها المتعارف عليه وهو أن الربض يكون خارج النطاق المسور للمدينة وليس بداخله .

وقد فسر الأستاذ توريس بلباس هذا اللبس فى استعمال كلمة ربض هذه فى غير موضعها بأن هذه الكلمة - وهى كلمة حى أو حارة - تطلق بصفة عامة على المواضع المبهمة غير المحددة بحدود معينة ولذلك نشأ الخلط بين كل منهما (٨٤) .

وعن أرباض مدينة سبته يقول الأنصارى (وعدد الأرباض فى الحقيقة ستة: الثلاثة العامرة المتصلة بالبلد ، والربض البرانى حيث الحارة (٨٥) والكسابون (٨٦) الذى هد سوره السلطان أبو سعيد المرنى من حافة (٨٧) الغد إلى مضرب الشبكة (٨٨) .

ويكشف نص الأنصارى عن حقيقة ما ذكرناه آنفاً من أن لفظة ربض كانت أعم وأشمل من كلمة حى ، وأن هناك خلطاً بين الاصطلاحين بحيث أصبحت كلمة ربض تطلق على الأحياء الداخلية . ومن أمثلة ذلك الخلط ما ذكره الأنصارى عن الربض البرانى تميزاً له عن الأرباض الداخلية المتصلة بالبلد .

ويفهم من نص الأنصارى أيضاً أن الربض البرانى كان محاطاً بسور لحمايته من الأخطار الخارجية ، ويبدو أن هذا السور قد فقد أهميته بمرور الزمن بعد اتساع النطاق العمرانى للمدينة واندماج الربض داخل المدينة ، وهو الأمر الذى دعى السلطان أبا الحسن إلى هدم السور المذكور حسبما نص على ذلك الأنصارى.

وللأسف ليس فى إمكاننا أن نعرف على وجه التحديد مواقع الأرباض الستة التى أشار إليها الأنصارى وأسماءها ، وإن كان قد ذكر فى أكثر من موضوع فى ثنايا وصفه لمعالم مدينة سبته اسم ربضين هما : الربض الأسفل والربط الأوسط ، فضلاً عن الربض البرانى سالف الذكر . ويستدل من اسم الربضين الأولين (الأسفل والأوسط) على وجود ربض ثالث علوى لم يذكره الأنصارى ، لعله ربض زكلو الذى ورد ذكره فى المدونات البرتغالية فى سياق عرضها لسقوط سبته فى أيدي البرتغاليين (٨٩) وبذلك يكتمل عدد الأرباض الثلاثة المتصلة بالبلد التى حسب نص الأنصارى كانت عامرة بالمنشآت ، لاسيما الأسواق ، حيث كان يوجد بها وحدها ٣٢ (اثنان وثلاثون سوقاً) . من مجموع ١٧٤ (مائة وأربعة وسبعين سوقاً) وهو عدد أسواق المدينة كلها (٩٠) .

وإذا كان الأنصارى لم يشر إلى مواقع الأرباض الستة التى ذكرها ، ولم يزودنا بأية تفاصيل عنها ، فإن أحد المصادر البرتغالية عوضتنا عما أغفل الأنصارى بشأن مواقع تلك الأرباض ، حيث أمكن الأستاذ كارلوس جوثابلس أن يرسم صورة تقريبية لمواقع الأرباض الثلاثة التى أشار إليها الأنصارى من خلال رواية المؤرخ البرتغالى ازورارا Azurara فمن خلال الوصف التفصيلى الدقيق لأحداث

المعارك التى دارت بين البرتغاليين وأهل سبته داخل تلك الأرباض ، استنتج بأن تلك الأرباض كانت تقع فى القطاع الأوسط من المدينة ، والمحصور بين سورين يمتدان شرقاً وغرباً ، ويصل بينهما سور أوسط يفصل بينهما ، ويحدد النطاق العمرانى للأرباض الثلاثة(٩١) . وكان يفتح فى السور الشرقى بابان الأول مشار إليه فى المخطط الذى وضعه جوثابلس برقم (٢) ، ويعرف بالباب العلوى والثانى مشار إليه برقم (٣) ويعرف بالباب السفلى ، ومن هذين البابين حسب رواية ازورارا دخلت جيوش البرتغاليين إلى أرباض المدينة الثلاثة(٩٢) .

وقد أشاد الأنصارى باتساع عمران أرباض سبته ، وكثرة مبانيها الجنائزية التى كانت لها مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، لما تضمه من قبور العلماء والفقهاء . فيذكر بأنه كان فى الربض السفلى قبر الشيخ الفقيه الحافظ أبى الربيع سليمان بن سبع العجيسى(٩٣) مؤلف شفاء الصدور(٩٤) .

وفى الربض الأوسط كانت توجد مقبرة الشريعة ومن أشهر مقابرها قبر الشيخ الصالح العابد أبى عبد الله القرمونى من أهل سبته ، وقبر الفقيه القاضى أبى الحسن ، وقبر الإمام الصوفى أبى محمد عبد الجليل الأوسى الأندلس(٩٥) .

كذلك يشير الأنصارى إلى وجود العديد من المباني الدينية ، والأسواق التجارية ، والصناعية ، بتلك الأرباض ، مثل خزانة جامع الربض الأسفل(٩٦) ، وسوق العطارين(٩٧) فضلاً عن مصليات الأرباض التى كانت تقع فى أرض عظيمة الاتساع(٩٨) .

ثم يوضح الأنصارى بعد ذلك أن تلك الأرباض كان يفصلها عن بعضها البعض حفائر(٩٩) مثل الحفير الكبير المحيط بالربض البرانى ، والحفير بينه وبين الأرباض الثلاثة من الشطابين(١٠٠) إلى مضرب الشبكة ، والحفير الهائل المعروف بالسهاج(١٠١) الفاصل بين الأرباض والمدينة(١٠٢) .

ثالثاً : الأزقة :

من الثابت أن معظم الشوارع الرئيسية بمدن المغرب الإسلامى تمتاز بضيقها وتعرجها وتتفرع من تلك الشوارع شبكه من الأزقة والدروب والزنقات بعضها نافذ ومعظمها غير نافذ (١٠٣) .

وقد أخبرنا الأنصارى بأن عدد أزقة مدينة سبتة كان ٢٥٠ (مائتا زقاق وخمسون) (١٠٤) . كما حفظ لنا العديد من أسماء تلك الأزقة المندثرة . مثل زقاق ابن عيسى (١٠٥) وبنى العزفى ، وغيرهم من أعلام الفقهاء وأكابر التجار ، وزقاق أبى عبد الله القاضى الزاهد من أشياخ القاضى عياض . وزقاق ابن يربوع (١٠٦) . وزقاق العزفى أبى العباس وزقاق أبى على ابن الشراك وأبى القاسم ابن الشاط (١٠٧) وزقاق خطاب (١٠٨) .

وفى ضوء ما ذكره الأنصارى من أسماء أزقة سبتة يتضح أن معظمها كان يحمل اسم أعلام الأسرات التى كانت تعيش فيها واسم شخصية هامة . كما أن بعضها يحمل اسم المنطقة التى تقع بجوارها أو يوجد فيها أو يؤدى إليها الزقاق مثل زقاق الخندق الكبير الذى يعرف فى القديم بخندق المين (١٠٩) ويعرف الآن بخندق الدجاج (١١٠) .

ويضيف الأنصارى أن كل زقاق من العدد المذكور تنغلق عليه دروب ، وعلى تلك الدروب بيات تجرى عليهم الجرايات إلى غير ذلك (١١١) .

وفى الفقرة السابقة إشارة إلى الأمور المتعلقة بالتحكم فى تلك الأزقة وتوفير الأمان لسكانها عن طريق حراس لها يسمون بالدرابين (١١٢) .

ويفهم مما ذكره الأنصارى عن أزقة سبتة أن بعضها كان من الاتساع بحيث كان يضم العديد من المنشآت مثل القصور والحمامات (١١٣) والأفران (١١٤) .

أما عن شوارع سبتة الإسلامية فلم يرد فى نص الأنصارى أى ذكر لها غير أن الدراسات الطبوغرافية الحديثة المعتمدة على المصادر الأسبانية والبرتغالية المتعلقة

باسترداد المدينة أكدت على أن بعض شوارع سبته كانت موجودة على هيأتها في العصر الإسلامي ، واحتفظت بأسمائها العربية بعد الاسترداد البرتغالي للمدينة وتوزيع عقاراتها على النصارى البرتغاليين . ومن أهم تلك الشوارع ، الشارع الكبير الذى كان يخترق الجهة الشرقية من المدينة والمعروف الآن باسم شارع Sanjurjo (١١٥) ، ومن هذا الشارع كان يتفرع زقاق أبى عيسى المعروف الآن باسم الطريق الأعظم Gran via (١١٦) والذى كان يقسم المدينة إلى قسمين أو شطرين حسب نص الأنصارى (١١٧) .

وفضلاً عن هذا الشارع كانت تشتمل المدينة على شارعين متعامدين يؤلفان محوري المدينة ، أحدهما كان يطلق عليه شارع العطارين والمعروف حالياً باسم شارع خاودينس Calle jaudenes (١١٨) والآخر كان يسمى بشارع الموثقين أى كتاب الوثائق Calle de los Notarior (١١٩) والمعروف حالياً باسم شارع سان اودنيا Calle de O'donnell (١٢٠) .

وفيد الباحث كارلوس جوثابلس بأن هذين الشارعين كانا يخترقان القطاع الشمالى الشرقى من المدينة ، ويمتدان إلى مسجدها الجامع ومدرستها المعروفة بالمدرسة الجديدة (١٢١) . وكانت المنطقة التى يشقها الشارعان المذكوران من أهم أحياء المدينة إذ تضم العديد من المنشآت الدينية والمدنية الملتفة حول مسجد المدينة الجامع والذى تتفرع من ساحته الحارات والدروب المؤدية إلى معظم أحياء المدينة (١٢٢) .

رابعاً : المراكز العمرانية بمدينة سبته :

١ - المراكز الدينية :

كانت مدينة سبته فى العصر الإسلامى تضم عدداً من المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وأربطة وزوايا ، بحيث شكلت تلك المنشآت نصيباً كبيراً من التكوينات المعمارية لمدينة سبته الإسلامية ، تدل عليه الإحصاءات التى أوردها الأنصارى لتلك المنشآت . وفيما يلى دراسة لأهم هذه المنشآت الدينية حسب ترتيب ذكر الأنصارى لها .

- المساجد :

يصور لنا الأنصارى أهمية المساجد وكثرتها بمدينة سبته بقوله (وعدد المساجد ألف مسجد . وأعظم هذه المساجد وأشرفها على التحقيق المسجد الجامع العتيق . بلاطاته اثنان وعشرون بلاطاً وبقيلتها شمسيات من الزجاج الملون بصناعات شتى معقودة بالرصاص ، والقنوات الفاصلة بين البلاطات ومجاري القسائم والميازيب من الرصاص كذلك . ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة (١٢٣). وتميز عن سائر جوامع بلاد المغرب كلها بالبلاط الأوسط الضخم والبناء المرتفع السمك ، وبالمقصورة الهائلة الغريبة الشكل (١٢٤) . وبه صحنان ، أحد الصحنين أكبر من الآخر وبكل واحد منهما جبان اثنان ، وصومعته قديمة من عمل الأوائل (١٢٥) .

ومن أهم ما يمكن تسجيله من ملاحظات على النص السابق ما

يلى :

١ - أنه على الرغم من مغالاة الأنصارى فى تقدير أعداد مساجد سبته فإن ذلك يبين مدى كثرتها . ويمكن تحديد العدد الضخم الذى ذكره الأنصارى لمساجد سبته بأنه يشمل المصليات الملحقة بالمنازل العامة .

٢ - لم يشر الأنصارى إلى موقع الجامع بالنسبة لعمران سبته أو الأصل الذى أقيم عليه ، ولا إلى تاريخ تشييده . وعلى الرغم من ذلك نستطيع بفضل الإشارات التاريخية المقتضبة التى أمكن استخلاصها من المصادر العربية والمدونات المسيحية الأسبانية والبرتغالية ، أن نجيب عما أغفل ذكره الأنصارى . فالنسبة لموقع الجامع فأغلب الظن أنه كان يقع فى وسط المدينة (١٢٦) فى نفس الموضع الذى تشغله الكاتدرائية الحالية على مقربة من البحر . ويؤكد هذا الافتراض إشارة أحد المدونات البرتغالية الخاصة بالاسترداد البرتغالى للمدينة فى سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م . وفى ذلك يقول المؤرخ البرتغالى جوميث ايانيس دى ازورارا (وفى اليوم الثالث والعشرين من

شهر أغسطس قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبته إلى كنيسة كاثوليكية وأقيم فيها حفل كبير وصلاة شكر فى يوم الأحد التالى ١٤١٥/٨/٢٥م وجرى فى ذلك الحفل ترسيم أبناء الملك الثلاثة حسب رغبتهم فرساناً .

ويضيف أزورارا أن المسجد المذكور كان مفروشاً بالحصير وفقاً لما هو متبع فى عادة المسلمين من فرش أرضية مساجدهم بنبات الحلفا . وأنه عندما تم استرداد المدينة والاستيلاء على المسجد لم ينزع هذا الحصير وإنما أضيف إليه حصير جديد فوق الحصير القديم (١٢٧) .

أما عن أصل البقعة التى أقيم عليها جامع سبته فكان موضعه الأول كنيسة بيزنطية ، هدمها فيما يبدو الفاتحون المسلمون ، وأقاموا على أرضها مسجدهم الجامع . ونستند فى ذلك على نص رواه البكرى فى ذكر مدينة سبته نصه (ومدينة سبته مدينة قديمة سكنها الأول . وبها آثارهم بقايا كنائس وحمامات وماؤها مجلوب من نهر آويات مع ضفة البحر القبلى فى فناء إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع) (١٢٨) .

وأما عن تاريخ جامع سبته فيكتفه الغموض . ولعل قلة ما أورده مؤرخو العرب عن هذا الجامع كان سبباً فى أننا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ أو أسماء العرفاء الذين أشرفوا على بنائه . ومع ذلك فمن الممكن أن نضع تاريخاً تقريباً لهذا الجامع بفضل نص أورده الأستاذ خواكين بالين جاء فيه أن الخشنى صاحب كتاب تاريخ قضاة قرطبة الذى عاش السنوات الأولى من حياته فى القيروان ، كان قد خرج منها إلى الأندلس ، وفى طريقه إلى الأندلس مر على سبته فى عام ٣١٢هـ/٩٢٤م وفيها تعلم أصول الفقه وشارك فى تصحيح اتجاه قبلة مسجد سبته التى كانت منحرفة عن الاتجاه الصحيح (١٢٩) . ومعنى ذلك أنه شرع فى تشييد هذا الجامع فى التاريخ المشار إليه أو قبله بقليل .

ويبدو أن جامع سبته ظل موضع اهتمام الأمراء والخلفاء الذين تناولوه بالزيادة والتعديل على مر العهود ، حيث أن سنة ٤٨٤هـ/١٠٨٧م تسجل تاريخ قيام الأمير يوسف بن تاشفين بالزيادة فى جامع سبته . وفى ذلك يقول صاحب كتاب الحلل الموشية (ولما كان سنة ٤٨٤هـ تحرك يوسف بن تاشفين إلى سبته لجواز عساكره اللمتونية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصار بلادهم . وفى أثناء مقامه بها أمر ببناء المسجد الجامع بسبته والزيادة فيه . فزاد فيه حتى أشرف على البحر وبنى البلاط الأعظم منه) (١٣٠) .

وقد أورد ابن عذارى نص آخر أشار فيه إلى الزيادة المذكورة بقوله (وكان يوسف بن تاشفين أمر القاضى محمد بن عيسى بينان جامع سبته وزاد فيه حتى أشرف على البحر وكان بنيانه عام واحد وتسعين) (١٣١) .

ومن الملاحظ أن ابن عذارى لم يكمل تاريخ البناء حيث أشار إلى التاريخ المذكور (٩١) ضمن حوادث عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م . والراجح أن تاريخ هذه الزيادة حسب نص ابن عذارى كانت سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م على أساس أن يوسف بن تاشفين توفى فى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م (١٣٢) .

وأيا ما كان اختلاف النصين المذكورين فى تحديد تاريخ الزيادة المذكورة فإن الذى لا شك فيه أنها تمت فى عهد يوسف بن تاشفين ، وأنها نفذت من الجهة الجنوبية أى من جهة جدار القبلة حيث كان يطل الجامع من هذه الجهة على بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى كما أن الأمير يوسف بن تاشفين هو الذى أقام البلاط الأوسط الضخم المرتفع السمك حسب وصف الأنصارى (١٣٣) أو الأعظم كما يسميه صاحب الحلل الموشية (١٣٤) .

وفهم من وصف الأنصارى للبلاط الأوسط بمسجد سبته أنه كان أكبر بلاطات الجامع وأكثرها ارتفاعاً ، وأن هذه ميزة ميزت جامع سبته عن جوامع بلاد المغرب كلها . والحقيقة غير ذلك ، لأن ظاهرة ارتفاع البلاط الأوسط واتساعه عن بقية البلاطات تمثلت فى العديد من المساجد المغربية والأندلسية قبل

جامع سبته ، مثل جامع القيروان والزيتونة وقرطبة . كما طبقت أيضاً فى قصور عصر الخلافة التى تتبع فى تخطيطها نظام البلاطات . وعلى هذا فإن تلك الظاهرة تعد من الظواهر الهامة التى تميزت بها أغلب عمائر المغرب والأندلس الدينية والمدنية بحيث أصبحت الطابع المميز لتخطيط تلك المنشآت (١٣٥) . وتجدر الإشارة إلى أن جامع سبته قد تعرض لزيادة أخرى على يد القاضى عياض (١٣٦) وذلك فى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م (١٣٧) .

وتصمت المصادر العربية خلال القرون الثلاثة التالية وحتى سقوط مدينة سبته فى أيدي البرتغاليين عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م عن ذكر شىء عن هذا الجامع بحيث يعد وصف الأنصارى سالف الذكر هو الشاهد الوحيد لما كان عليه جامع سبته بعد احتلالها بنحو سبع سنوات (٨٢٦هـ / ١٤٢٢م) . وهو تاريخ تأليف الأنصارى لكتابه موضوع الدراسة والذي أكد فيه بأن بلاطات الجامع قد بلغت اثنتين وعشرين بلاطة (١٣٨) .

ولا يجب أن نترك ما ذكره الأنصارى دون مناقشة ، لأن الرقم الذى أورده بشأن عدد بلاطات الجامع مبالغ فيه . وأغلب الظن أن هذا الرقم يمثل عدد الأساكيب الممتدة بعرض الجامع وليس عدد البلاطات أو الأروقة الطولية ، لأنه لو صح هذا الرقم (٢٢ بلاطة) لأصبح الجامع ، عميقاً جداً (١٣٩) . كما أن البكرى الذى وصف الجامع فى عصر المرابطين ، وهو العصر التى تمت فيه زيادة كل من الأمير يوسف بن تاشفين والقاضى عياض أشار بأن الجامع كان يتألف من خمس بلاطات فقط (١٤٠) . ومهما بلغ عدد البلاطات التى أضيفت للجامع فيما بعد فمن المستبعد أن يصل عددها إلى اثنين وعشرين بلاطة . لاسيما وأن هناك مساجد أخرى فى بلاد المغرب والأندلس تعرضت لزيادات عديدة على مدار عهود متباعدة . ومع ذلك لم يصل عدد بلاطاتها إلى هذا العدد الذى ذكره الأنصارى . ومثال ذلك جامع القيروان أكبر المساجد الجامعة الباقية وأعظمها مظهراً ، كان يتألف بعد أن بلغ منتهاه من سبع عشرة بلاطة تمتد على عشرة أساكيب (١٤١) وكذلك

جامع الزيتونة الذى بلغ عدد بلاطاته (١٥) خمس عشرة بلاطة (١٤٢) وأيضاً جامع قرطبة الذى على الرغم من عظم مساحته لم تزد عدد بلاطاته عن ١٩ تسع عشرة بلاطة (١٤٣) .

مساجد أخرى جامعة وغير جامعة بمدينة سبته :

وإلى جانب جامع سبته الكبير كان يوجد بالمدينة جامعان آخران هما مسجد زكلو أكبر مساجد سبته بعد المسجد الأعظم حيث كان يتألف من سبع بلاطات ، وقد بناه أبو القاسم العزفى صاحب سبته (١٤٤) وجامع التبانين الذى كانت تقام فيه صلاة الجمعة ، وكان يقع فى ربض المدينة السفلى (١٤٥) .

ونضيف إلى تلك المساجد الجامعة عدد آخر من المساجد غير الجامعة التى كانت تزخر بها مدينة سبته فى العصر الإسلامى ، والتى اندثرت شأن مساجدها الجامعة ولم يعد لها أى أثر ولم يرد بشأنها أية إشارات لافى المصادر أو فى المدونات المسيحية ، وإن كان الأنصارى قد زودنا بأسماء بعضها مثل مسجد الحلفاوين (١٤٦) ومسجد المحلة (١٤٧) ومسجد القفال (١٤٨) .

- المصليات :

أشار الأنصارى إلى توافر المصليات خارج أسوار مدينة سبته ، حيث بلغ عددها ستة مصليات (١٤٩) وقد دلت أوصاف الأنصارى لتلك المصليات على حسن تصرف المعمار ، وإقامة نماذج منها مختلفة عن بعضها البعض ، بسبب اختلاف مساحتها وموقعها ووظيفتها . فالمصلى الكبير أو مصلى المدينة أتاح موقعه المتميز خارج أسوار المدينة فى مساحة واسعة فرصة استخدامه كمصلى للعديد جرياً على سنة الرسول فى إقامة الصلاة فى أماكن واسعة خارج المدينة (١٥٠) . كما أعطى هذا الموقع المتميز لهذا المصلى المتمثل حسب وصف الأنصارى فى أنه يقع فى موضع منقطع وسط البحر (١٥١) ميزة أمنية بحيث أوجبت الضرورة فى أوقات الحصار والفتن استخدامه للصلاة ، لما يتوفر فيه من

شروط أمنية قد لا تتوفر في غيره من المساجد والجوامع التي كانت تتركز في قلب المدينة (١٥٢). ويتجلى أيضاً أثر الموقع والوظيفة في اختيار مصليات سبته في المصلى الملكى الذى كان خاصاً بسكان القصر الملكى (أفراك) من الأمراء والسلاطين وما يتبع هؤلاء من جنود وحراس (١٥٣) وفي تخصيص بقيه مصليات سبته حسب ما نص عليه الأنصارى لأهل الأرباض والقصبه (١٥٤) .

- المدارس :

بعد ما كانت جوامع سبته ومساجدها تؤدي مهمتها في خدمة الدين والعلم صارت المدارس تبنى للمشاركة في القيام بهذه المهمة . والغالب أنها كانت تقوم بمهمة التعليم والإسكان للطلبة الوافدين على سبته للتعلم على أساتذتها (١٥٥) فقد كانت مدينة سبته منذ القرن ٥هـ / ١١م مركزاً مرموقاً للدراسات العربية الفقهية والطبية بفضل العناصر الأندلسية الوافدة إليها ، وهى العناصر التى تزايد عددها منذ أوائل القرن ٧هـ / ١٣م .

وتزخر كتب التراجم بأسماء قضاة ومحدثين وقراء ومفسرين ونحويين من أبناء سبته من أصول أندلسية (١٥٦) .

ويمكن أن نستنتج من النصوص التاريخية أهمية مدينة سبته كمركز إشعاع ثقافى حيث أكد ذلك وصف البكرى لها فى قوله (إنها لم تنزل دار علم) (١٥٧) كما يؤكد ابن الخطيب فى قوله (بأنها بصره علوم اللسان وخزانة كتب العلوم) (١٥٨) . وكذلك يبين المقرئ المناظرات الأدبية التى كانت تجرى بين علماء سبته كالمناظرة التى جرت حول استعمال (ماذا) بين النحوى الشهير أبى الحسن ابن أبى الربيع وبين الأديب مالك ابن المرحل (١٥٩) .

ويكفى دليلاً على مكانة سبته العلمية أن الباعث على كتابة رسالة الشقندى فى فضائل أهل الأندلس كان الجدل الذى وقع فى مجلس صاحب سبته أبى يحيى ابن زكريا حول علماء الأندلس والمغرب (١٦٠) .

ويذكر الأنصارى مدرستين شهيرتين بسبته هما مدرسة الشيخ المحدث على الشارى الغافقى السبتي (١٦١) والمدرسة الجديدة التى ابتناها السلطان المرىنى أبو الحسن (١٦٢) .

ولم يصرح الأنصارى بأية تفاصيل عن المدرسة الأولى التى بناها أبو الحسن الشارى ، على حين أفاض بعض الشىء فى وصف المدرسة الجديدة التى بناها أبو الحسن المرىنى بقوله (والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام والواحة المتعددة الغالية الثمن التى ابتناها السلطان أبو الحسن المرىنى مغلد الآثار الدالة على شماعة الملك وعلو المقدار) (١٦٣) .

وفى موضع آخر يشيد الأنصارى بمىضأة تلك المدرسة بقوله (وأبدعها صناعة وأحكمها بناء مىضأة المدرسة الجديدة تحتوى على بيوت ثمانية ومطهرة كبير (١٦٤) وفى كل منها نقير من الرخام (١٦٥) يصب فيها ميزاب من النحاس ، وفرش الجميع ألواح منجورة من الصخر ، وبوسطها صهريج مفروش بالزليج (١٦٦) الملون . وقبتها مؤلفة (١٦٧) ومن بعض صنائعها نور البابونج (١٦٨) يخاله الناظر إليه خلقة من أحكام الصناعة يجلب الماء إلى ذلك كله بالدواليب (١٦٩) .

ووفقاً لما أوردته الوثائق البرتغالية الخاصة بسقوط مدينة سبته فى أيدي البرتغاليين فإن هذه المدرسة تحولت بعد الاسترداد مباشرة إلى دير ، وأنه قد أطلق عليها بعد تنصيرها اسم مصلى سنتياجو ermita de santiago (١٧٠) .

وفى عام ١٥٦٠م أقيم فى المدرسة مصلى آخر يبعد عن الأول الذى كان قد أقيم فى وسط المدرسة (١٧١) وقد ظلت المدرسة رغم تحويلها إلى عدة أديرة ومصليات مسيحية محتفظة بصورتها التى كانت عليها فى العصر الإسلامى ، حيث ورد ذكرها فى الأدب البرتغالى عام ١٦٤٨م (بأنها بناء عظيم من عمل المسلمين يضم ١٠ (عشرة) أعمدة من الرخام الأبيض ، قواعدها من الرخام الأسود وجدرانها منقوشة بزخارف رائعة . ولا يزال يتوج مدخلها - حتى بعد

تحويلها إلى دير - لوحتان من الرخام تتضمنان نقوشاً كتابية بالخط العربى نصها «الحمد لله. تم بحمد الله هذا البناء رجاء ثواب الله بأمر من أبى عنان سنة ٧٤٧هـ» (١٧٢).

وإذا نظرنا إلى نهاية هذا النص الذى نقله الكاتب الأسباني مسكرنيلاس Mascarenilas عن أحد المدونات البرتغالية ، يتضح أن ما ورد يشوبه الخلط والخطأ، حيث ذكرت الرواية أن السلطان أبا عنان هو الذى شيد المدرسة الجديدة على أساس أن ذلك مسجلاً بنقش كتابى كان لا يزال يتوج مدخلها حتى منتصف القرن ١٧م . وهذا يتعارض مع ما ذكره الأنصارى الذى أكد بأن المدرسة من بناء السلطان أبى الحسن . ويؤكد صحة ما ذكره الأنصارى أن التاريخ المسجل فى النص الكتابى لا يقع فى فترة حكم السلطان أبى عنان الذى كان قد ثار على أبيه أبى الحسن بتلمسان عام ٧٤٩هـ واستولى على المغرب الأقصى (١٧٣) ، فى حين يقع التاريخ المذكور ٧٤٧هـ فى النص الكتابى فى فترة حكم أبى الحسن . وعلى هذا فمن المؤكد أن هذه المدرسة قد شيدت فى عهد السلطان أبى الحسن واستكملت فى عهد ابنه أبى عنان الذى ربما حاول طمس أعمال أبيه . لاسيما وأنه قد ثار عليه فأزال اسم أبيه ووضع مكانه اسمه دون أن يغير التاريخ الأصلى.

وفى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ، تم تجديد المدرسة بما فيها من أديرة ومصليات . ومع ذلك لم تمس التغيرات المتوالية جوهر البناء . ويقرر ذلك وصف Carrea de Franca أحد كتاب القرن الثامن عشر الميلادى لها بقوله (بأنها كانت عبارة عن قاعة مقسمة إلى ثلاثة أروقة تقوم على عمد وتيجان وقواعد من الرخام والحجارة السوداء) . كما وصف محرابها بأنه (ظل قائماً على حاله لم يحدث فيه شئ سوى أنهم جعلوا عليه صليبا) (١٧٤) .

مما سبق ذكره يتبين مدى إسهام أعمال الإضافات والترميم والهدم فى تشويه المدرسة الإسلامية وطمس معالمها التى تحتاج من أجل الكشف عنها إلى دراسات مبنية على حفائر علمية . وهذا أمر يصعب تحقيقه بعد أن أقيم مكانها

الآن مبنى حديث عبارة عن ثكنات للجند . ومن هنا فإن تصورنا لنظام المدرسة التخطيطي يبدو صعباً . ومع ذلك فقد قام الأستاذ كارلوس جوثالبس Carlos Gozalbes بوضع رسم افتراضى لتلك المدرسة (١٧٥) اعتمد فيه على أوصاف بعض الكتاب والرحالة من القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى . فضلاً عن بعض الرسوم التوضيحية التى سجلتها الخرائط القديمة للمدرسة بعد تحويلها إلى دير أو مصلى كنسى .

وقد اعتمد الأستاذ كارلوس فى نظريته الافتراضية لتخطيط أو منظور المدرسة على تجريدها من كل الملحقات غير الإسلامية ، بحيث يبقى منها عناصر المدرسة الأصلية التى رجح أنها كانت تتألف من قاعة مكونة من ثلاثة أروقة عمودية على جدار المحراب الذى كان يقع فى الجهة الجنوبية من القاعة ، ويغطى الأروقة الثلاثة أسقف هرمية مسنمة تمتد من الغرب إلى الشرق . وتطل القاعة على بهو يتوسطه صهريج ، ويكتنف هذا البهو من جهاته الشرقية والغربية والجنوبية سقائف معقودة تشغلها حجرات لإقامة الطلبة . وخلف السقيفة الجنوبية توجد قاعة كبيرة للوضوء والاعتسال مغطاه بقبة نصف أسطوانية.

أما المئذنة فكانت تتوج الجهة الشمالية من المدرسة . وكان ارتفاعها حوالى ٢٥ م وكانت تتكون من طابقين الأول مربع الشكل يفتح فيه على مستويين نوافذ توأمية فى المستوى الأول من أسفل ومفردة فى المستوى الثانى من أعلى .

أما الطابق الثانى من أعلى فكان أصغر من الطابق الأول وهو على شكل مئمن يعلوه سقف أو خربوش مسنم .

ويضيف الأستاذ كارلوس بأن أبواب المدرسة كانت تفتح فى جهتيها الشرقية والغربية (١٧٦) .

الأربطة والزوايا :

من المنشآت الدينية بمدينة سبته الأربطة (١٧٧) والزوايا (١٧٨) فمع شيوع وانتشار التصوف بتلك المدينة التي تكون فيها تفكير صوفى لم تنطفئ شعلته من سبته إلا بانتهاء السيادة الإسلامية عليها (١٧٩) .

أقيمت العديد من الربط والزوايا كمساكن للفقراء والزهاد والغرباء . وكان يتولى إنشاء تلك الربط والزوايا الحكام والأثرياء من أهل سبته . ويشيد الأنصارى بكثرة ما شيد بمدينة سبته من تلك الربط والزوايا بقوله (وعدد الروابط والزوايا سبع وأربعون زاوية ورابطة محاذية للبحر من جانب الجنوب والشمال داخل المدينة والأرباض وخارجاً عنها. أضخمها بناء وأعظمها هيكلًا الرابطة المعروفة برابطة الصيد ، مربعة الشكل قائمة فى الهواء على اثنى عشر عموداً منها ثمانية من الرخام سبعة ساطعة البياض وواحد حالك السواد . والأربعة الباقية مبنية بالأحجار تحت معاهد أركان القبة ، ولكل عمود منها خمسة أركان واستدارت بها ثمانية عشر سرجباً (١٨٠) فى أربع بلاطات وبابها مبنى بالكذان (١٨١) المنجور وتتصل بها دار للقيم بخدمتها (١٨٢) .

وفى النص السابق عدة أمور هامة منها تحديد مواقع ربط سبته على سواحلها الشمالية والجنوبية . وفى ذلك تأكيد لصفة تلك الربط ودورها فى حماية السواحل والثغور كنقاط حصينة على شواطئ البحر أو داخل البلاد ، تقوم بالدفاع عن المدينة فى المواقع الهامة منها أو تقوم بوظيفة نقط مراقبة يرسل منها التحذيرات والإنذارات بالخطر ، حيث كانت تزود هذه الربط بأبراج أو منارات عالية على مسافات تسمح بأن يرى الواحد منها الآخر ويمكن إرسال إشارات الإنذار من رباط إلى آخر بواسطة النار أو الدخان.

وهكذا نلاحظ أن ربط سبته لم يكن مقصود إقامتها فقط على السواحل وإنما داخل المدينة ، وفى الأرباض ، وذلك على غرار الربط الداخلية التي أقيمت على حدود مصر الجنوبية . ويتضمن النص السابق أيضاً صورة تقريبية لعمارة

الرباط ساعدت فى الكشف عن تخطيطه المربع ، ودلت فى وضوح على فخامة بنائه وسعة مساحته وتباين ألوان أعمدته وتنوع ألوان بناته ما بين الرخام والأجر المستخدم فى صنع الأعمدة وحجر الكذان المستخدم فى تشييد بابه.

ومع أن الأنصارى أكد استخدام القبة كوسيلة من وسائل تغطية رباط الصيد سالف الذكر ، إلا أنه لم يحدد الشكل الذى اتخذته هذه القبة . وفى تصورى أنها كانت من نوع القباب ذات الضلوع المتقاطعة التى شاع استخدامها على نطاق واسع فى معظم عمائر المغرب والأندلس منذ ابتكارها فى زيادة الحكم المستنصر بجامع فرجة وجامع قرطبة وعلى نطاق واسع فى معظم عمائر المغرب والأندلس . ويدعونى إلى إبداء هذا رأى ما نستقيه من وصف الأنصارى الذى أشار فيه إلى عقود ونوافذ القبة ، فربما قصد بالمعاقد والأركان هو أشكال الضلوع التى تتكون من خمسة عقود تقوم على أربعة أعمدة تحمل هذه العقود التى يستند عليها غطاء القبة، وذلك على غرار قبة المحراب بجامع قرطبة التى تقوم على اثنى عشر عموداً محاطاً بر كائز فى قاعدة القبة تحمل رؤوس الضلوع التى تتكون من أنصاف دوائر متقاطعة . كما أن كلمة شرجباً تشير إلى أن ضلوع القبة كانت تترك فراغاً تفتح فيه بقاعدة القبة ثمان عشرة طاقة مشبكة تشبه النوافذ أو القناطر المدفوعة على عمد مندمجة فى ركائز قاعدة القبة .

ويذكر الأنصارى رباطاً آخر بسبته دون أن يوضح اسمه ، كان مجاوراً لرباط الصيد سالف الذكر ، ووصفه بأنه كان يضم فى وسطه قبر جارية لأحد أمراء الموحدين (١٨٣) . كما يذكر المقرئ أن أبا الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي - وكان من قضاة سبته - قد بنى بجبل المينا رباطاً يعرف برباط العباد (١٨٤) .

- الزوايا :

أما عن زوايا سبته التى تقابل فى المشرق الخانقاوات ، فقد حفظ الأنصارى اسم واحدة منها فقط وهى الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان أبو عنان بن أبى

الحسن خارج باب فاس لنزول الغرباء . ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم . ثم ينتقل الأنصارى إلى وصف عمارة تلك الزاوية فيشير إلى عظمة بنائها وكثرة زخارفها وتعدد مساكنها وروعة صومعتها (١٨٥) .

- ثانياً المراكز الاجتماعية :

المقصود بالمركز الاجتماعى القطاع العمرانى الذى تتركز فيه منشآت المدينة ذات السمة الاجتماعية مثل دور الإمارة ودور العامة والخاصة والحمامات والقناطر أو السواقى .

- دار إمارة سبته :

الواقع أن دراسة دار إمارة سبته وقصورها الملكية تعد من الأمور الصعبة للغاية ، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة نخص بالذكر منها اختفاء تلك المنشآت ، كما أن الأنصارى وكذلك بقية المصادر العربية لا تتضمن أى وصف لها ، وتكاد تقتصر معلوماتنا عن دار إمارة سبته على ما ذكره البكرى فى سياق حديثه عن المدينة بقوله (ودار الإمارة فى جوفى المدينة وطولها من السور الغربى الذى يدخل منه المدينة قاطعاً إلى آخر الجزيرة خمسة أميال . والمدينة فى الجانب الغربى منها) (١٨٦) .

وأهم ما نستنتجه من هذا الوصف تحديده بشكل واضح لموقع دار الإمارة فى الجهة الشمالية من المدينة . كما يستشف منه مدى اتساع تلك الدار بحيث بلغ طولها من جهة سور المدينة الغربى خمسة أميال .

- قصر قصبة سبته (أفراك) :

من الجدير بالذكر أن أى بلد فى المغرب الإسلامى حين يصل إلى درجة معينة من النمو ويتحول إلى مدينة وتصبح هذه المدينة قصبة إقليم (١٨٧) ، وبالتالي تصبح مقراً للعامل أو الأمير صاحب الكلمة فى المصالح الإدارية التى لابد منها لتيسير النظم المدبرة لشئون الحياة الاجتماعية فى المدينة . وكان ممثلو السلطة

المركزية يقيمون عادة إلى جوار العامل أو الأمير القائم بولاية المدينة فى موقع يسهل منه الدفاع عن المدينة فى حالة تعرضها لأى عدوان خارجى ، ويتمثل ذلك فى قصبة المدينة أو حصنها المنيع . وفى داخل هذه القصبة كان يوجد القصر الملكى حيث مقر الإدارة والحكم (١٨٨) .

وكان لسبته قصبة أو كما يسميها الأنصارى وبعض المؤرخين المغاربة أفراك (١٨٩) .

ويبدو أن هذه القصبة أقيمت فى نفس موضع دار الإمارة القديم التى أشار إليها البكرى ، وذلك بعد أن تطور عمران سبته فى عهد بنى مرين وأصبحت قصبة إقليم . ويستدل على ذلك من إشارة ابن خلدون إلى أن السلطان أبا سعيد المرينى هو الذى أمر ببناء البلد المسمى أفراك على سبته سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م (١٩٠) .

وباستثناء تلك الإشارة لا تتضمن المصادر العربية أى وصف لها كما أن منطقة القصبة المعروفة بأفراك اختفت الآن ، وذلك بعد حوالى عشرة سنوات من سقوط مدينة سبته فى أيدي البرتغاليين (١٥٤٠-١٥٥٠م) (١٩١) .

ولعل اندثار هذه القصبة ٩٤٧هـ - ٩٥٧هـ كان من أهم الأسباب التى أدت إلى عدم اهتمام المؤرخين العرب بها ، لاسيما الأنصارى الذى لم يزودنا للأسف بأية تفاصيل عن موقعها أو نظامها التخطيطى . وإن كان الأستاذ كارلوس جوثابلس قد وفق بفضل دراسته لطبوغرافية مدينة سبته التى اعتمد فيها على بعض الخرائط والصور فى تحديد الشكل الذى كانت عليه قصبة سبته بما فى ذلك القصر الملكى الذى كان يتخذه حاكم سبته مقراً لولايته . فذكر أن قصبة سبته المعروفة بأفراك ، والتى أطلق عليها أسماء أخرى مثل المنصورة (١٩٢) . كانت تقع فى القطاع الشمالى الغربى للمدينة (١٩٣) وأنها كانت تتخذ شكلاً مستطيلاً ضلعه الغربى ، يؤلف جزءاً من أسوار حفير السهاج (١٩٤) . وكان يدعم هذا الضلع أو السور الغربى من القصبة أربعة أبراج أو سطها أكبرها ، حيث أقيم هذا

البرج فوق برج آخر قديم أصغر منه ، وسقف هذا البرج مسنم . وكان يتوسطه باب مقبى يفضى إلى خارج المدينة . ومن خلال هذا الباب كان يمكن الدخول إلى القصبة والخروج منها دون الحاجة إلى اجتياز المدينة (١٩٥) .

أما السور الشرقى للقصبة الموازى للسور الغربى فكان يدعمه ثلاثة أبراج (١٩٦) أوسطها أصغرهما ، وهو البرج المعروف ببرج سابق Torre Sabek الذى ذكره البكرى . وأكد على أنه كان يفتح به باب يدخل منه إلى دار الإمارة (١٩٧) .

وفى ضوء إشارة البكرى السابقة والدراسات الحديثة التى أجريت حول منطقة القصبة يتأكد صحة ما أشرت إليه سابقاً من أن القصبة وقصرها أقيمت فى نفس موضع دار الإمام القديم .

ويضيف الأستاذ كارلوس جوثابلس أن الضلعين الشمالى والجنوبى كان يطوقهما سورين يمتدان طولاً من الشمال إلى الجنوب . وأن هذين السورين كانا يضمّان بداخلهما ساحة القصر ، ويفصلان فى ذات الوقت منطقة القصبة عن أرباض المدينة الخارجية .

وهكذا يتضح من خلال الدراسة التى قام بها كارلوس جوثابلس أن منطقة القصبة كانت تنقسم إلى قسمين : قسم شمالى شرقى يضم بداخله مبنى القصبة أو الحصن . وقسم جنوبى غربى كان يضم القصر وساحته (١٩٨) . كما كان يضم وفقاً لما ذكره الأنصارى مسجداً كان يصلى فيه السلطان أبو الحسن بجيشه وحمام ودار للإشراف على دار السكة (١٩٩) .

- الدور :

لم يصلنا أى أثر للدور سبته الإسلامية التى تعد واحدة من أهم المنشآت المعمارية فى المركز العمرانى الاجتماعى . كما أن أخبار تلك الدور فى المصادر العربية يكتنفها الغموض بحيث لا نستطيع التعرف على المظاهر العامة لبنائها أو نظامها التخطيطى . وكل ما وصلنا من أخبار عن دور سبته الإسلامية يكاد يقتصر على ما زودنا به الأنصارى من إشارات متثرة عن بعض دور المدينة دون أن يذكر أى وصف لها .

وأهم ما نستنتجه من هذه الإشارات عن هذه الدور هو أن المدينة كانت تكتظ بالدور الموزعة حول مسجدها الجامع ، وفى الطرق الرئيسية والدروب والأزقة والزنقات والحارات ، بحيث يبلغ عددها ما يزيد عن ٤٠ ألف دار (٢٠٠) .
وتتميز معظم هذه الدور باشتغالها على حمام ومصلى لتأدية الصلوات الخمس (٢٠١) .

كما تتميز جميعاً بأنها لا تخلو من المياه الجارية التى تعتبر من ضرورات الحياة المنزلية . وكانت جميع دور سبته الخاصة والعامة تتصل بشبكة من الأنابيب والقنوات لجلب المياه من الأودية والأنهار والآبار ، بحيث كانت مساكن سبته بمياهها العذبة الدائمة على حد تعبير الأنصارى (لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء حيثما كانت بأقطار المدينة) (٢٠٢) .

وبالإضافة إلى دور الخاصة والعامة كانت تقوم فى بعض الدروب والحارات التجارية مصريات وعليات (٢٠٣) وهى عبارة عن دور صغيرة للغاية تتكون من طابق واحد أو من غرفة واحدة تعلو فى الغالب حانوتاً أو مصنعاً أو فندقاً . وكان أهل المغرب والأندلس يكرونها للتجار الغرباء أو للعزاب من القومة والخدم . وفى بعض الأحيان كان أرباب الحرف يتخذونها لمزاولة صناعتهم فقط ، إذ كانوا يبتون فى مساكن أخرى (٢٠٤) . وذلك بعكس ما كان معروفاً عند الصناع فى المشرق الإسلامى حيث كانت المصانع والورش تقام فى الطابق الأرضى فى حين كانوا يبتون مع أسرهم بالغرف العليا التى تعرف فى المشرق بالعليات وفى بلاد المغرب بالمصريات (٢٠٥) .

وقد طبعت دور سبته بطابعها الاقتصادى ، فكانت تشتمل بعض دور الصناع على غرفة أو محل أو ورشة تزاوّل فيها أى صنعة من الصناعات التى كان يزاولها صاحب الدار . ويستدل على وجود مثل هذا النوع من الدور من خلال

إشارة الأنصارى إلى ورش التجارة المخصصة لعمل القسى بقوله (وعدد المنجرات المعدة لعمل القسى أربعون منها عشرون بمنازل المسلمين والصناع كبنى القنطرى وبنى العاقل وبنى ابن غالب وغيرهم) (٢٠٦).

- الحمامات :

أشار الأنصارى إلى كثرة حمامات سبته بقوله (وعدد الحمامات العامة المبررة للناس اثنان وعشرون حماماً) (٢٠٧). كما أمدنا بأسماء بعضها ، وبصورة واضحة عن بعض المظاهر العامة لبنائها ، فيذكر أن من بينها (حمام القائد وهو أبو على ناصح الذى كان بناؤه على يده. وهذا الحمام بلغ الغاية فى الكبر يسع المئتين) (٢٠٨) من الناس مرتفع السمك طيب الهواء قائم على أعمدة الرخام مفروش بالواحة الساطعة البياض . والمسلخ (٢٠٩) متسع الساحة له بابان اثنان ، وسقفه قبه مؤلفة (٢١٠) متقنة على أربع حنيات . وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض . وفى وسط الصهريج سارية مجوفة فوقها طيفور (٢١١) من الرخام يصعد الماء فى حوض السارية إلى أن يفور فى الطيفور ، وفيضه يملأ الصهريج . ومن الحمامات ذات الرخام سواه بسبته حمام ابن عيسى ، وحمام اليانشتى وحمام عبود بناحية الميناء ، وهو نظير حمام القائد فى الفخامة والهيكل ، وبمساحها طيافير من الرخام على سوار مجوفة أيضاً فى وسط الصهريج على نحو ما وصفناه . وبالقصبة عشرة حمامات سوى العدد المذكور أبدعها حمام القصر . وبكل دار من ديار سبته حمام ومسجد إلا القليل (٢١٢).

وفى ضوء النص السابق والمطول للأنصارى عن حمامات سبته الإسلامية يتضح ما يلى :

أولاً : أن الحمامات كانت تشكل عنصراً من أهم عناصر عمارة المنافع العامة أو منشآت المركز الاجتماعى ، حيث اكتظت بها شوارع وأحياء المدينة فى

شكل حمامات عامة ، كما حفلت بها بعض المنشآت كقصة المدينة وقصرها ، وكذلك شيد معظمها داخل المنازل.

ثانياً : ساعد النص فى الكشف عن مدى فخامة بناء حمامات سبته وسعة مساحتها ومدى العناية بتكسية أرضيتها بألواح الرخام . كذلك أمدنا النص بصورة واضحة عن نظامها التخطيطى حيث أنها كانت من النوع الذى يتألف من أربع قاعات رئيسية مقباه (٢١٣) . وقد ركز الأنصارى بشكل أساسى على قاعة المسلخ فبين حدودها المتسعة وسقفها المقبى بقبة تقوم على أربع حنايا ركنية . ويستدل من وصفه لها بأنها كانت تعتمد فى تخطيطها على وجود فراغ مركزى أو صحن يتوسطه صهريج للمياه.

ويتجلى الاهتمام بتجميل هذه القاعة فى أنها كانت مزودة بحوض كبير يتوسطه فسقية ، وذلك على غرار الفساقى التى كانت تتوسط مساح حمامات المغرب والأندلس والتى بلغت أوج ازدهارها فى حمامات قصور الحمراء (٢١٤) .

- المنشآت المائية :

تعتبر عذوبة الماء من السمات التى تميز مدينة عن أخرى . ويمكننا أن نستنتج من النصوص المختلفة وروايات الجغرافيين أن مدينة سبته لم تكن تفتقر إلى الماء العذب منذ أقدم العصور . ويؤكد ذلك وصف ابن حوقل لها فى قوله (إن ماء سبته من داخلها يستخرج من آبارها كما أن فى خارجها أيضاً آباراً كثيرة عذبة الماء) (٢١٥) .

وقد تنوعت أساليب تغذية مدينة سبته بالمياه . فالبكرى يقول (إن حمامات سبته يجلب إليها الماء على الظهر من البحر) . ويضيف فى موضوع آخر بأن الماء يجلب فى قناة من نهراويات على بعد ثلاثة أميال من المدينة على ضفة البحر القبلى إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع (٢١٦) .

كذلك يشير الإدريسي إلى وجود (عين ماء لا تجف البتة بأعلى الجبل فى وسط المدينة) (٢١٧) . وتشير الروايات التاريخية إلى مدى عناية حكام سبته بحلب الماء العذب إلى المدينة . ومن هذه الروايات ما ذكره صاحب كتاب الاستبصار من أن ثالث خلفاء الموحدين أبا يعقوب المنصورى أمر سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م بحلب الماء من قرية بليونش التى تبعد عنها بنحو (٦) ستة أميال وذلك فى قناة تحت الأرض غير أن الأعمال لم تتم حتى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م (٢١٨) .

وقد اكتسب أهل سبته خبرة عظيمة فى استغلال مائها العذب استغلالاً حسناً حيث أنشئت بها أنواع أخرى من المنشآت المائية ، وهى السقايات التى تساعد على خزن الماء العذب لسقاية الناس والحيوانات ومد كافة مرافق المدينة بمصادر دائمة للمياه . وقد أشار الأنصارى إلى تلك السقايات بشيء من التفاصيل بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة ووضعاً السقاية التى بطرف العطارين وأول سماط العدول . وبازاء باب الشوائين من أبواب الجامع ذات الأنابيب) (٢١٩) النحاسية والألواح الرخامية والزخرفة والتنميق . ومن السقايات المعدة لسقى الدواب من الخيل وغيرها سقاية جب الميناء العظيم الهيكل المشهور ، الذى ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفى المذكور ، وخلده أثراً غريباً بعده رحمه الله . صهريجان مشتركان يمد إحداهما الآخر وقد أحكم الأسفل والأعلى منهما فرشاً بالألواح الصخر المنجور أتم إحكامه وأكماله . ومن ذلك سقاية القبة بالربض البرانى صهريج مستطيل متصل بيئر معينة قريبة التناول طيبة الماء عليها قبة على أربعة أعمدة وإلى جانبها آبار متعددة للسبيل (٢٢٠) وربما تبلغ الثمانين (٢٢١) .

وفى ضوء الوصف السابق يتضح أن السقايات التى ذكرها الأنصارى كانت عبارة عن صهاريج ضخمة شيدت بنظام دقيق يشهد بالبراعة وحسن التنفيذ بحيث كان يجرى توزيع الماء بتلك الصهاريج المعبر عنها بالسقايات بحيل هندسية

دقيقة . ويتجلى ذلك فى إشارة الأنصارى إلى أسلوب من الأساليب التى يمكن بها تكثير مياه السقاية عن طريق جعل السقاية الواحدة تتكون من صهر يحين متجاورين يمد أحدهما الآخر بالمياه . وهذه الطريقة استخدمت بكثرة فى حفر معظم آبار مدن الغرب الإسلامية لاسيما مدينة مجريط أو مدريد العربية . كما انتشرت فى القسطنطينية فكرة حفر الآبار المتجاورة المتصلة ببعضها مع اختلاف مستوياتها بهدف تكثير الماء المستمد من جوف الأرض (٢٢٢).

ثالثاً - المراكز الاقتصادية بمدينة سبتة :

إن أهل سبتة بحكم موقع بلدهم على بحر الزقاق بين المغرب والأندلس توفرت لديهم إمكانيات اقتصادية هائلة ساعدت على ازدهارها التجارى والصناعى . وفى مجال التجارة عبر الجغرافيون والمؤرخون العرب عن هذا الازدهار فيما كتبوه عن سبتة . فابن سعيد المغربى يشبه سبتة بمدينة الإسكندرية فى كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يتاعون المراكب بما فيها من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة (٢٢٣) . كما يذكر ابن الخطيب فى سياق وصفه للمدينة (أنها كانت محط قوافل العصير (زيت الزيتون) والحرير والكتان) (٢٢٤) ويتبين من رحلة ابن جبیر أن سبتة كانت نقطة البداية والنهاية للرحلات البحرية إلى المشرق (٢٢٥) .

ويبدو أن التجارة بين سبتة وجنوة كانت نشطة ، وأن ثراء سبتة من التجارة أطمع فيها الجنوین . ويستدل على ذلك مما ذكره ابن عذارى من أن الجنوین حاولوا الاستيلاء على سبتة بالخديعة عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٤م ولكنهم فشلوا وانتهبت أموالهم التى فى فنادقهم ، ثم وقع الصلح وبموجبه عوض أهل سبتة الجنوین عما فقدوه (٢٢٦) . ويستدل أيضاً مما رواه المقرئ على أن تجار جنوة كانوا يجلبون إلى سبتة طرائف السلع . ويوضح ذلك قصة القائد أبى السرور صاحب ديوان سبتة الذى أنعم على الأديب النحوى أبى عمران موسى الطريانى بتحف مما كان فى الديوان مما يجلبه الإفرنج إلى سبتة (٢٢٧) .

هذا ويشير ابن بطوطه إلى أن التجار السبتيين كانت لهم علاقات تجارية مربحة مع الصين وبلاد السودان الغربى . ففى أثناء وجوده بمدينة قنجنفو بالصين قابل تاجراً من سبته وهو قوام الدين السبتي كان قد وصل إلى الصين وفيها عظم شأنه واكتسب الأموال الطائلة وبعد ذلك يبضع سنوات قابل ابن بطوطه أخا لهذا التاجر السبتي من السودان الغربى (٢٢٨) .

ونتيجة لهذا الازدهار التجارى الذى نعمت به مدينة سبته غزت أسواق مرسيليا الدراهم السبتية ، فكان تجار مرسيليا عن طريق وكلائهم من اليهود فى سبته يبيعون عملات عربية فى موندليه (٢٢٩) .

أما بالنسبة للصناعة التى تعتبر من أهم مصادر الثروة الاقتصادية لسبته فقد عرف أهل سبته كيف يفيدون من ثروة مياهها من المرجان الجيد الذى أمد المدينة بفائض من الإنتاج ، فكانت تصدره إلى الأندلس والمشرق والهند ، وذلك بعد تجهيزه تجارياً على هيئة قطع صغيرة تصنع منه الأواني الطريفة (٢٣٠) .

وقد امتدح الأدريسى مرجان سبته وأشار إلى شهرتها فى إنتاجه وصناعته وتصديره بقوله (ويصاد بمدينة سبته شجر المرجان الذى لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . ومدينة سبته سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزاً وثقبة وتنظيمه . ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد) (٢٣١) .

وهكذا أدى الازدهار التجارى والصناعى الذى نعمت به مدينة سبته إلى العناية بتشيد العديد من المنشآت التجارية والصناعية بحيث شغلت تلك المنشآت أكبر مراكز المدينة العمرانية التى وصلتنا أخبار عنها . ويكفى لتأكيد هذه الحقيقة أن نطالع ما سجله الأنصارى من أوصاف لتلك المنشآت على النحو التالى :

١ - الأسواق :

المقصود بالأسواق الأماكن التى تتجمع فيها الحوانيت والمتاجر ويكثر فيها الباعة والتجار وأصحاب الحرف . ولم تكن أسواق مدن الغرب الإسلامى تقام فى موضع معين من المدينة ولكنها تتوزع فى عدة مواضع داخل المدينة وخارجها .

وتتنوع الأسواق بأنواع السلع التى تباع فيها من ذلك سوق العطارين وسوق النحاسين وسوق البزازين (٢٣٢).

وقد أشار الأنصارى إلى أسواق سبته الإسلامية وتعدد مواضعها وتنوعها حسب أنواع السلع التى كانت تباع فيها بقوله : (وعدد الأسواق (١٧٤) مائة وأربعة وسبعون سوقاً تخص منها المدينة بمائة واثنين وأربعين سوقاً. والأرباض الثلاثة باثنين وثلاثين. ومن أشرفها قدراً وأجملها مرأى سوق العطارين الأعظم (٢٣٣). وسماط العدول الموثقين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما يجوفى الجامع الأعظم . والقيسارية خلف ذلك . ومن أسواق المأكول والمطعم والفواكه والأدم ، وغير ذلك السوق الكبير . وسوق مقبرة زكلو من الجانب الشرقى من المدينة . ومن الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصفرية (٢٣٤) القوية الصبع العجيبة الصنعة الخاصة بسبته دون غيرها سوق السقاطين (٢٣٥) . ما أدراق ما سوق السقاطين رفاهية متجر وكثرة أنواع وحسن ترتيب (٢٣٦) .

- القيسارية :

تعد القيساريات من أهم المؤسسات التجارية فى المركز العمرانى الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام . وكلمة قيسارية هى تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية Kaisareie وتعنى السوق القيصرى . وكان يباع فى القيساريات أفخر أنواع السلع التى يندر وجودها فى الأسواق الأخرى (٢٣٧) .

وقد أشار الأنصارى إلى أن قيسارية سبته كانت تقع بجوار مسجدتها الجامع وبالتحديد خلف هذا الجامع (٢٣٨) . ويرجع أحد الباحثين أن تلك القيسارية كانت تقع فى الجهة الجنوبية الشرقية من مدرسة سبته المعروفة بالمدرسة الجديدة . وأنها ظلت تحتفظ بعد حركة استرداد المدينة بنفس الموضع الذى كانت تقوم به فى العصر الإسلامى إلى أن تهدمت فى العصر الحديث وأقيم مكانها فندق يعرف بـ Hotel Muralla . ويضيف أنه من الصعب أن تحدد بدقة حدود قيسارية سبته ، ولكن يبدو أنها كانت تمتد فى شارع واحد معلق من جهته الجنوبية بواسطة برج يعرف اليوم ببرج كمبانيا Torre de la compana (٢٣٩) .

وفى رأى الأستاذ خواكين بالين أن قيسارية سبته كانت تقع بالقرب من سوق سبته الحالى وبالتحديد فى الموضع الذى يقوم عليه الآن مبنى بنك أسبانيا حيث كان يشغل هذا الموضع وفقاً لوثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م شارع كبير كان يعرف بشارع القصر الأسقفى . ومن هذا الشارع كانت تتفرع عدة أزقة منها زقاق مسدود كان يعرف بزقاق القيسارية (٢٤٠).

• الحوانيت والتربيعات التجارية :

كانت أحياء سبته التجارية تزخر بالعديد من الحوانيت التى كانت تسمى باسم السلعة التى تباع فيها أو بأسماء أصحابها . وقد أحصى الأنصارى حوانيت سبته ب ٢٤ ألف حانوت (أربعة وعشرون ألفاً).

وعلى الرغم مما فى هذا الرقم من مبالغة ظاهرة إلا أنه يدل على أن الحوانيت التجارية كانت من المنشآت البارزة بين التكوينات المعمارية التجارية لمدينة سبته.

- التربيعات :

يقصد بالتربيعات حى أو سوق تجارى مربع أو دائرى أو مستقيم تتجمع فيه الحوانيت التجارية ويتخذ تكوين هذه المربعات أو التربيعات هيئة كتلة معمارية تضم مجموعة من الحوانيت ظهورها إلى الداخل وتطل جميعها على الشوارع التى تحيط بها من الجوانب الأربعة مقابلة أيضاً صفوفاً من الحوانيت على الجوانب الأخرى لهذه الشوارع (٢٤١).

وقد كانت هذه التربيعات من المنشآت التجارية الهامة بمدينة سبته الإسلامية ويؤكد ذلك وصف الأنصارى لها بقوله (وعدد التربيعات المعلومة للحرارين والقزازين خاصة إذ هناك تربيعات غيرها داخلات فى حكم الأسواق إحدى وثلاثون تربيعة مفترقات بالممرات والأسواق خلال الأطرزة) (٢٤٢) من أول المدينة

إلى آخرها أعظمها التريعة التى بأسفل زقاق خطاب سامية فى الهواء كأنها معقل أو قلعة على ثلاث طباق وفى صحنها مسجد (٢٤٣) .

ويبدو أن مثل هذه التريعات كانت تمثل امتداداً لحوانيت قيسارية سبته فى الأزقة الجانبية المتفرعة من الشارع الأعظم الذى كانت تشغله قيسارية المدينة الرئيسية ، والتى يمكن أن تطلق عليها قيساريات الأزقة . ويرجح ذلك وصف ليو الأفريقى لمصطلح قيساريات الأزقة التى انتشرت فى مدن الغرب الإسلامى على أنه شبكة الأزقة التى تتفرع على جوانبها الحوانيت (٢٤٤) . كما يدعم هذا الاستنتاج ما ورد فى وثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م تشيران إلى وجود زنقات بمدينة سبته كانت تسمى بزنقات القيسارية (٢٤٥) .

• الفنادق :

تعتبر الفنادق من أهم المؤسسات التجارية فى المركز الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام وهى تقابل فى بلاد المغرب والأندلس الختان فى المشرق الإسلامى (٢٤٦) .

وتمتاز الفنادق بأنها تجمع بين الصفة الاقتصادية التجارية والاجتماعية فلم تكن وظيفتها مقصورة على إيواء المسافرين من التجار الغرباء فحسب بل كانت سوقاً لبيع السلع بالجملة (٢٤٧) .

ويشير الأنصارى إلى توفر عدد كبير من الفنادق فى مدينة سبته فيذكر أنه كان بها ٣٦٠ فندقاً (٢٤٨) .

ورغم ما فى هذا الرقم من مبالغة إلا أنه يتأكد لنا مما سبق أن أشرنا إليه أن مدينة سبته كانت محطاً للتجار من مختلف الأنحاء ، الأمر الذى دعا إلى توفير هذا العدد الهائل من الفنادق لإقامتهم بل وتخصيص أكبر هذه الفنادق وهو الفندق الكبير فقط لحفظ المنتجات الزراعية (٢٤٩) .

ويستدل مما ذكره الأنصارى عن فنادق سبته بأنها كانت تمتاز فى جملةها بالضخامة وتعدد طوابقها وبيوتها المخصصة لإقامة التجار (٢٥٠). فضلاً عن العناية بتجميلها بالنقوش الجصية وأعمال النجارة ، إذ تعرض الأنصارى لذكر أحد التفاصيل التى تتعلق بأعمال الزخرفة فى فندق الوهرانى ، والتى أشار إليها بقوله (وأبدعها صفة فندق الوهرانى جمع هذا الفندق صنائع الجص والنجارة وعلى بابه عقاب غريب الشكل مفقود النظر) (٢٥١).

• المنشآت الصناعية :

من الملامح الرئيسية لمدينة سبته أنها ذات طابع صناعى تجارى ، ولذلك كثرت بها المنشآت الصناعية التى شكلت جانباً هاماً فى تكوينها المعمارى . ومن أمثلة تلك المنشآت التى ذكرها الأنصارى.

• المقاصر (٢٥٢) :

كانت الصباغة من الصناعات الشهيرة بمدينة سبته الإسلامية حيث أحصى الأنصارى الأماكن المعدة لتلك الصناعة بـ ٢٥ مقصراً وحدد لنا موقعها بقوله (وكلها تحت الأسوار والأبراج والأبواب . ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنشر نهاراً إلى أن تتم قصارتها وتتخلص فلا يخاف عليها طول تلك المدة من لص ولا يتكلف بحملها بالغداة والعشى مؤنه كما فى سائر البلاد) (٢٥٣).

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية ، إذ يوضح لنا مدى شهرة سبته فى صناعة المنسوجات على أساس أن صباغتها من العمليات الأساسية فى تلك الصناعة . كما يدلنا على أن تلك المقاصر أو المصانع كانت تقع فى أطراف المدينة بالقرب من أسوارها وأبوابها وأبراجها . وواضح أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن حرفة الصباغة تستلزم وجود ورشها أو مقاصرها خارج أبواب المدينة حتى لا تؤذى السكان ، فضلاً عما توفره أبراج الأسوار من حماية للمنسوجات المعدة للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم

للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم وقوعها داخل أبراج المدينة ، وبذلك توفرت فى تلك المصانع كافة الشروط المناسبة لتفى بالغرض من إنشائها . حيث كان الأمان شرطاً أساسياً فى إقامة تلك المقاصر (٢٥٤) كما أوجبت الضرورة الوظيفية إقامة المقاصر الغزلية بمدينة سبته البالغ عددها ١٩ (تسعة عشر مقصراً) عند مجرى مائى حيث تم توزيع تلك المقاصر على ستة أماكن تتوفر فيها المياه ، منها قالة البسابس وقالة الصندل وقالة العين (٢٥٥) . ويعكس ذلك بوضوح تعريف مصطلح القالة بأنه كان يطلق بالمغرب فى القديم على بعض الأسوار التى يجرى فوقها الماء داخل قواديس (٢٥٦) .

• المنجرات :

المقصود بالمنجرات المكان الذى ينجر فيه الخشب والعود . وكان يطلق خاصة على دور صناعة السفن بالمراسى ودور صناعة السلاح بها وبغيرها . وقد يطلق تجاوزاً على المكان الذى يجلس به جباة الأموال وولاية الأحكام (٢٥٧) . ومعظم تلك المنجرات كان معداً لصناعة القسى (٢٥٨) التى اشتهرت سبته بصنعتها معتمدة فى ذلك على ما لديها من مواد خام ، وأيدى صناعية ماهرة وقد أشار الأنصارى إلى تلك المنجرات المعدة لصناعة القسى وأحصاها بـ ٤٠ منجرة بقى منها فى زمانه ١٥ (خمسة عشر منجرة) . كما أشار إلى أشهر الشخصيات المتخصصة فى هذه الصناعة منذ القدم مثل الشيخ أبو عبد الله محمد الحسنى . والشيخ أبو عبد الله محمد عبد الله المعروف بالعقدة ، وكان متقدماً فى هذه الصناعة فى زمانه ، فضلاً عن الشيخ أبى الحسن العبادى الذى اشتهر بكثرة أدواته ومتعلقاته التى كانت تعينه على اتقان هذه الصنعة (٢٥٩) .

• المضارب والمصايد :

المقصود بالمضارب المكان الذى تضرب فيه شباك صيد الأسماك من البحر فى عامية المغرب والأندلس . وهذه الكلمة العربية -مضربة أو المضربة- بقيت فى اللغة الأسبانية بهذا الشكل Almadraba (٢٦٠) .

أما عن المصايد فيقول (وعدد ما وقفنا عليه من المصايد سوى ما لم نقف عليه مئتان واثنان وتسعة وتسعون مصيداً) (٢٦٢) .

وإذا كان النص قد أورد فيه الأنصاري أرقاماً مغالى فيها بالنسبة لعدد تلك المضارب والمصايد ، إلا أنها تدل في وضوح على أن تلك المنشآت الصناعية الخاصة بصناعة أدوات الصيد كانت من الصناعات الزاهرة بمدينة سبته . وقد ساعد على هذا الازدهار تعدد مواقع مصايد الأسماك على امتداد سواحل سبته على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، حيث اشتهرت تلك السواحل بثرائها في الأحياء البحرية لاسيما المرجان (٢٦٣) . فضلاً عن تعدد أنواع أسماكها إلى أن بلغت نحو مائة نوع (٢٦٤) .

المطامير :

ومن المنشآت الاقتصادية بمدينة سبته المطامير أي الأهراء تحت الأرض والتي كانت تستخدم كمستودعات لطمر القمح وخزن الغلال . من أجل تصديره أو استهلاكه محلياً.

وقد أحصى الأنصاري مطامير سبته بأربعين ألفاً - ٤٠ ألف - وأشاد بقدرتها في المحافظة على ما كان يحفظ بها من القمح بقوله (يمكنك الزرع في هذه المطامير الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغير ، لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية) (٢٦٥) .

ويبدو أن العناية بإنشاء تلك المطامير ترجع إلى أن أحواز سبته كانت فقيرة ووعرة ، مما جعل المدينة تعاني دائماً من قلة الحبوب (٢٦٦) . وإن كانت قد توافرت بها الخضروات والفواكه حيث كان بسبته من البساتين والأجنة ما يقوم بأهلها وفقاً لما ذكره ابن حوقل (٢٦٧) .

• ديار الإشراف المالي (٢٦٨) :

كان لسياسة حكام سبته في مراقبة نشاطها التجاري والصناعي أثرها الواضح في تطور هذه المدينة وازدياد عمرانها ، حيث اهتم هؤلاء الحكام بإنشاء دور للإشراف المالي

لعبت دوراً هاماً فى تنظيم الشؤون الاقتصادية والتجارية ، وأثرت تأثيراً واضحاً فى المحافظة على المنشآت التجارية والصناعية.

ويحدثنا الأنصارى عن دور الإشراف المالى بمدينة سبته فيقول إنها أربعة وهى دار الإشراف على عمال الديوان (٢٦٩) . ودار الإشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة ودار الإشراف على شد الأمتعة وحلها (الجمارك) وهى المعروفة بالقاعة (٢٧٠) حيث تجارة العطر (٢٧١) .

• المقابر :

الواقع أن ما ورد فى المصادر العربية عن مقابر سبته يعد شحيحاً . ولكن بفضل ما زودنا به الأنصارى عن تلك المقابر نستطيع أن نحدد على نحو مؤكد وجود نوعين من المقابر الإسلامية بمدينة سبته . أحدهما . مقابر الأولياء الصالحين والعلماء والفقهاء ، والآخر مقابر العامة.

(أ) مقابر الأولياء الصالحين أو المزارات المباركة ::

اتخذت المنطقة الممتدة بسفح جبل الميناء شرقى مدينة سبته (٢٧٢) نواة لإقامة قبور الأشخاص المشهود لهم بالورع والتقوى من الأولياء الصالحين من أهل سبته . وكان لتلك القبور مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، فكانوا يقصدونها للزيارة والتبرك . وقد أحصى الأنصارى بعض تلك المقابر بـ ٨٢ (اثنين وثمانين قبراً) . فضلاً عن بعض المزارات التى تضم قبور عديدة ليست بداخله فى هذا العدد (٢٧٣).

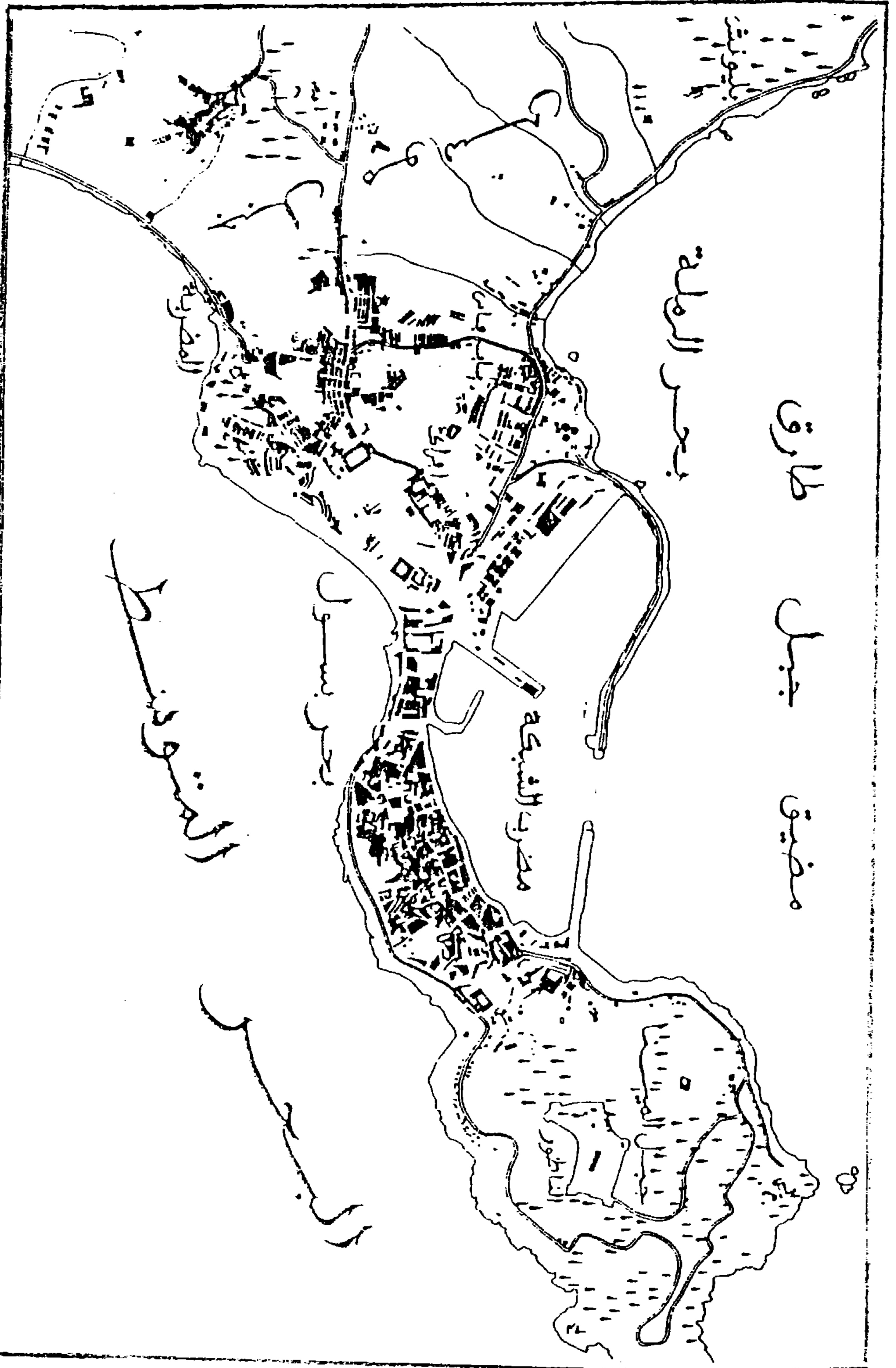
وتجلى أهمية نص الأنصارى الخاص بوصف تلك المقابر فى أنه زودنا بأسماء من دفن بهذه المقابر من أهل العلم والفقهاء الصالحين ، بحيث يعد ما سجله عنها من أسماء من دفن بها سجلاً وافياً ودليلاً كاملاً لمعظم كبار أعلام سبته فى مختلف الفنون والعلوم . وأهم المزارات أو مقابر الصالحين التى وصفها الأنصارى مقبرة التوته من الميناء بشرقى المدينة وفيها قبر الولي أبى ذرعه وهو مزار مشهور . وأبى ذرعه هذا

هو الذى أدخل القرآن الكريم إلى المغرب (٢٧٤) والدعاء عند قبره مستجاب على حد قول الأنصارى (٢٧٥). ومن مزارات سبته الشهيرة أيضاً المقبرة الكبرى التى بسفح جبل الميناء ، وفيها كان يوجد قبر الشيخ الأستاذ العلامة المصنف أمام النحويين أبى الحسن بن أبى الربيع القرشى الأموى العثمانى الأشبيلى نزيل سبته (٢٧٦) ومقبرة المنارة (٢٧٧) ومقبرة الحافة (٢٧٨) ومقبرة مسجد المحلة (٢٧٩) ومقبرة الشريعة بالربض الأوسط (٢٨٠) .

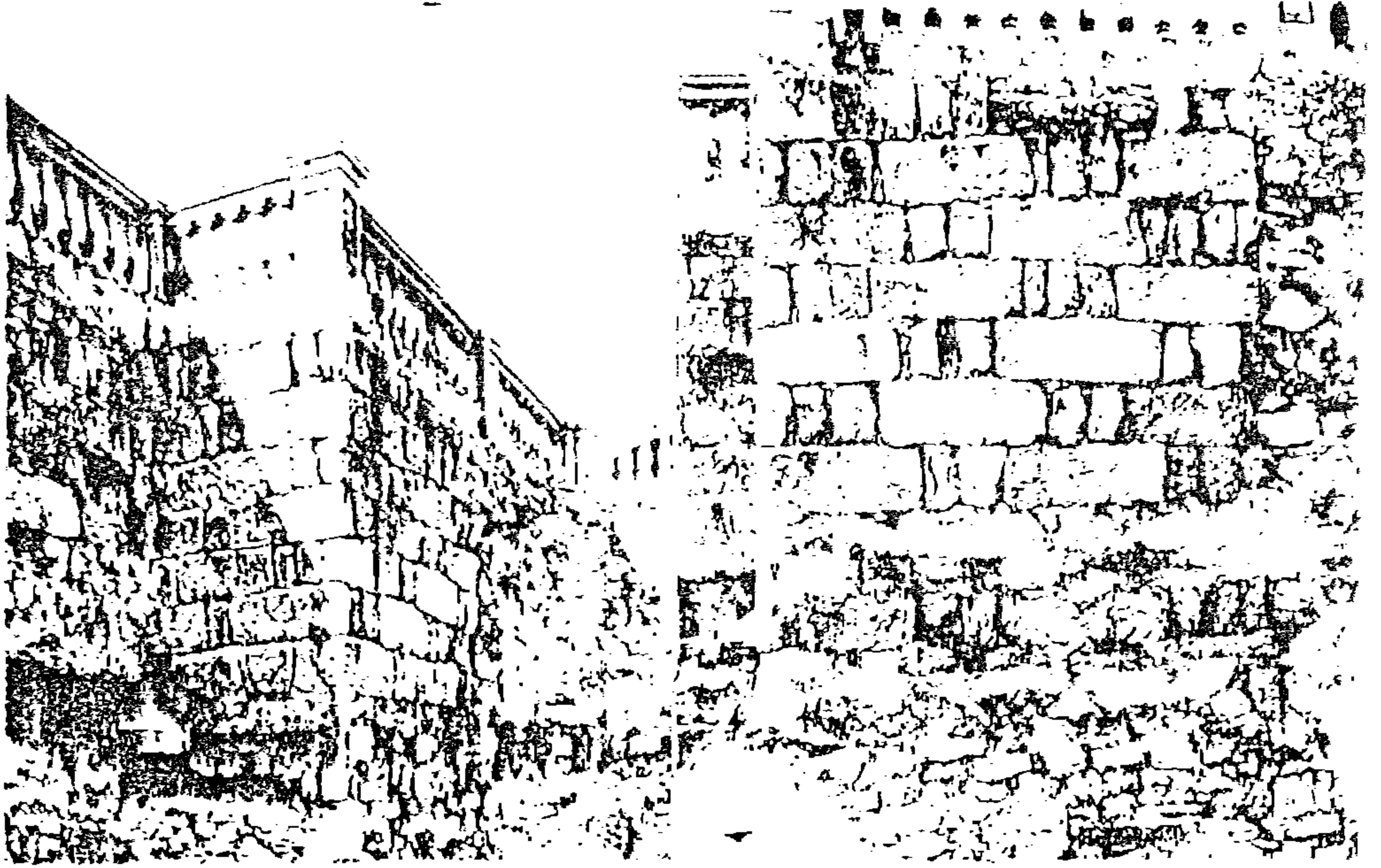
(ب) مقابر العامة :

أما مقابر العامة فقد أحصاها الأنصارى بـ ١٣ ثلاث عشرة ، موزعة بداخل المدينة وخارجها ، منها مقبرة المنارة . ومقبرة البلد القديم ومقبرة الحارة ومقبرة مضرب الشبكة ومقبرة أحجار السودان الأولى والثانية (٢٨١).

ولم يزودنا الأنصارى فى وصفه لتلك المقابر بأسماء من دفن بها . ومرجع ذلك أنها كانت على عكس مقابر الفقهاء والأولياء الصالحين ، كان يدفن بها عامة الناس من غير المشاهير .

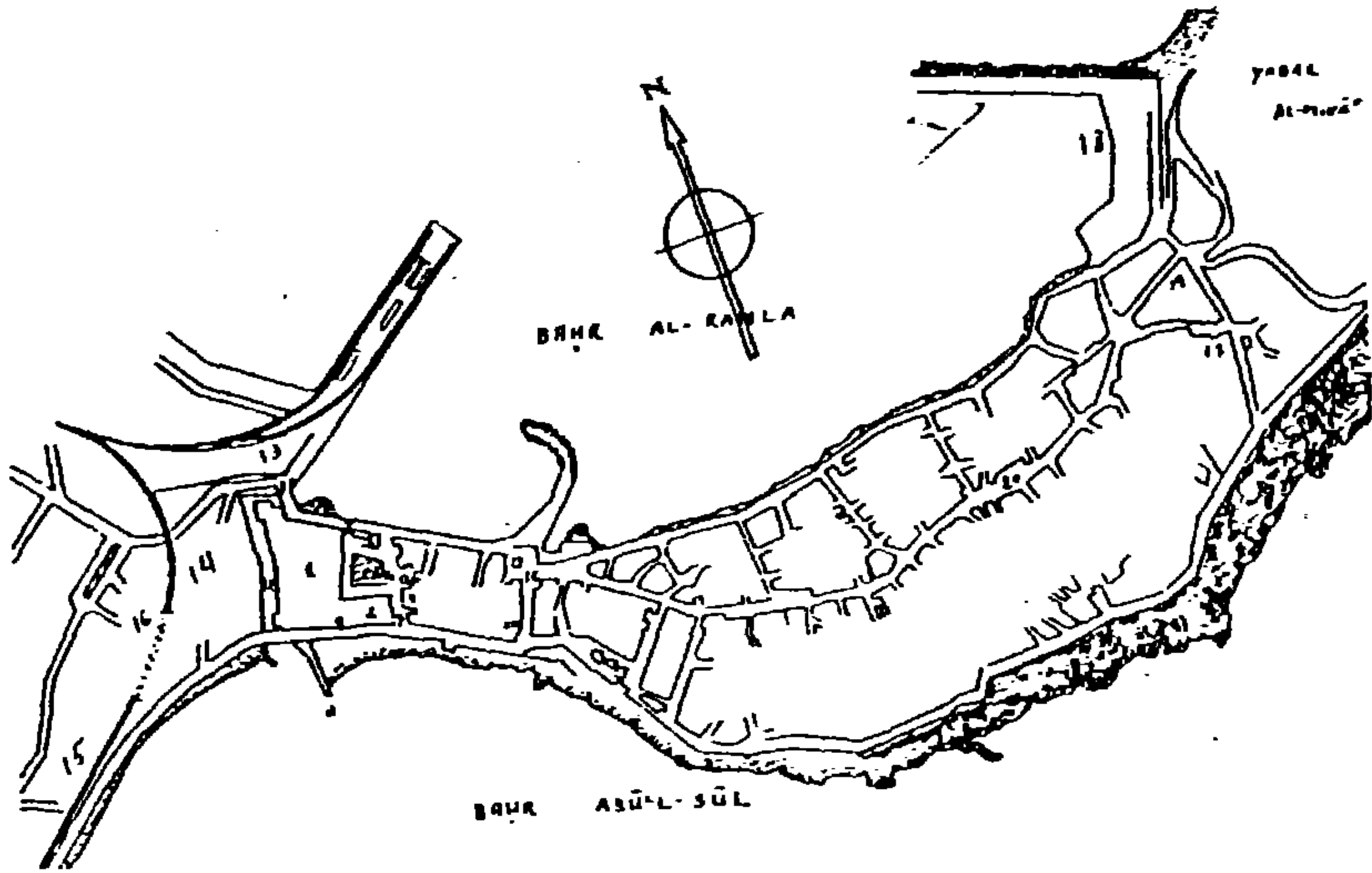


ش (١) (أ) خريطة سبته وضواحيه (عن عبد الوهاب بن منصور)

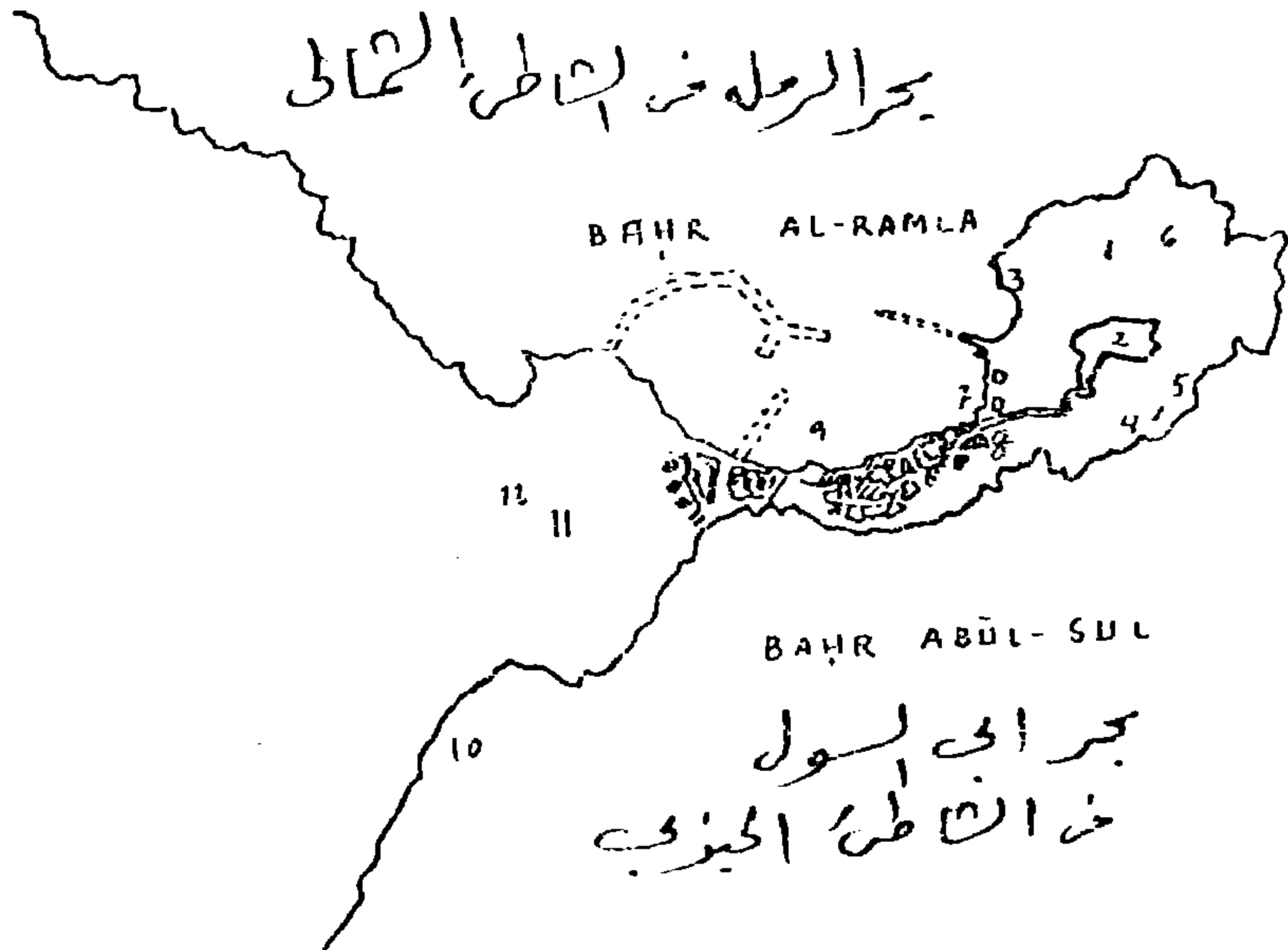


شكل (٢)

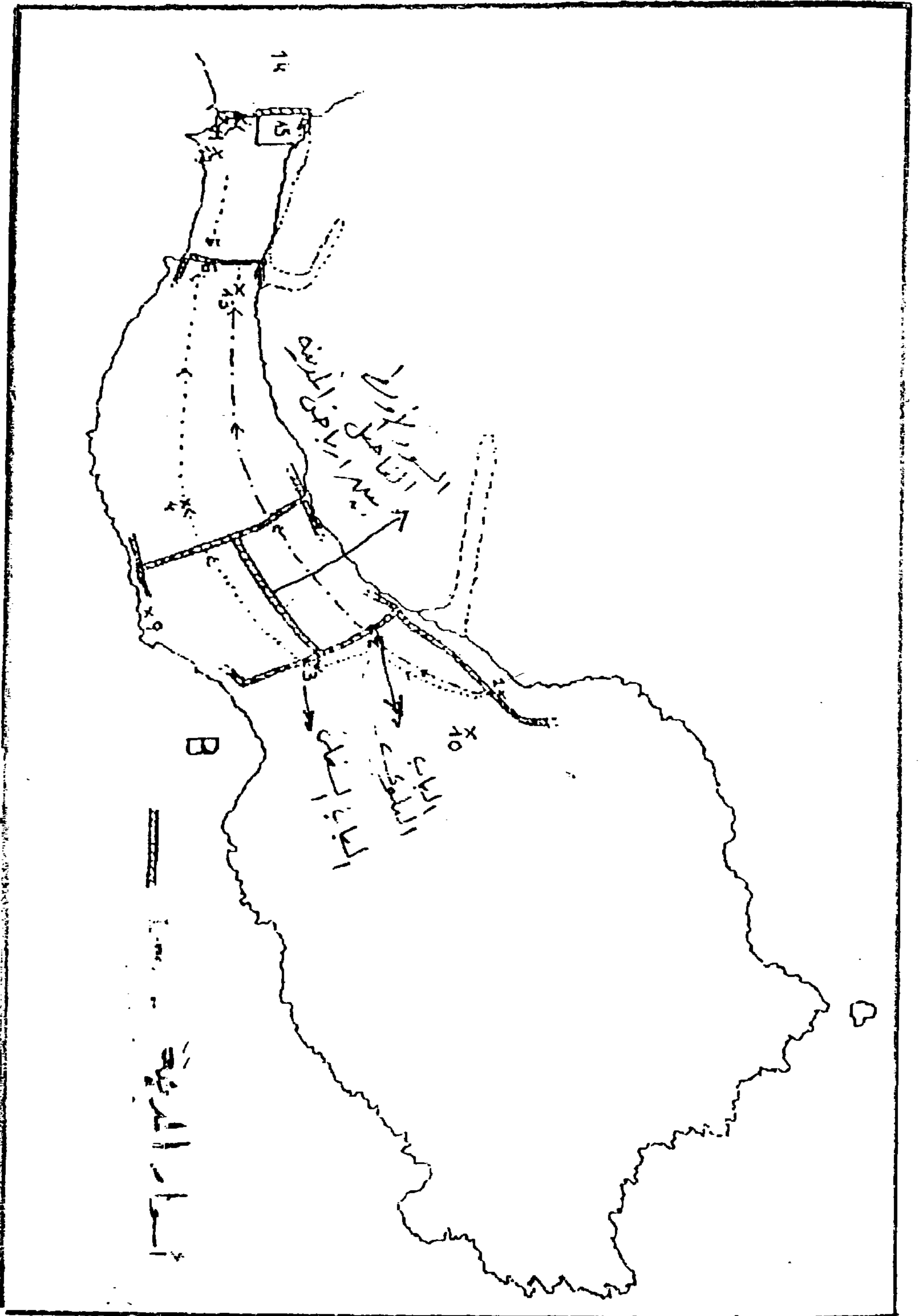
أحد أبراج السور الشمالى لمدينة سبته (عن تراس)



(شكل ١٣) (عن خواكين بالين) خريطة توضيحية لمواقع مدينة سبته ومعالمها الإسلامية
 (١) القصر ، (٢) الجامع ، (٣) المدرسة الجديدة ، (٤) سوق العطارين ، (٥) المسجد ،
 (٦) سماط العلول ، (٧) القيسارية ، (٨) الباب لأعظم ، (٩) باب الزلاقة ، (١٠) بابالقصابين ،
 (١١) برج للماء ، (١٢) حفير الهاج ، (١٣) القصابون ، (١٤) الربيض البراني ، (١٥) حافة القلتر (الكدار)
 (١٦) حفير ، (١٧) مسجد المقررة ، (١٨) الميناء ، (١٩) باب الميناء ، (٢٠) زقاق ابن عيسى.



شكل (٣ب) (عن خواكين بالين) خريطة أخرى لمواقع مدينة سبته و معالمها الإسلامية
 (١) الناضور ، (٢) القصبة ، (٣) دار الصناعة ، (٤) رباط أبي العباس ،
 (٥) المصلى ، (٦) المقبرة ، (٧) حفير أو حفرة المختار ، (٨) عرقوب ،
 (٩) مضرب الشبكة ، (١٠) مضرب أويات ، (١١) أفراك ، (١٢) باب فاس.



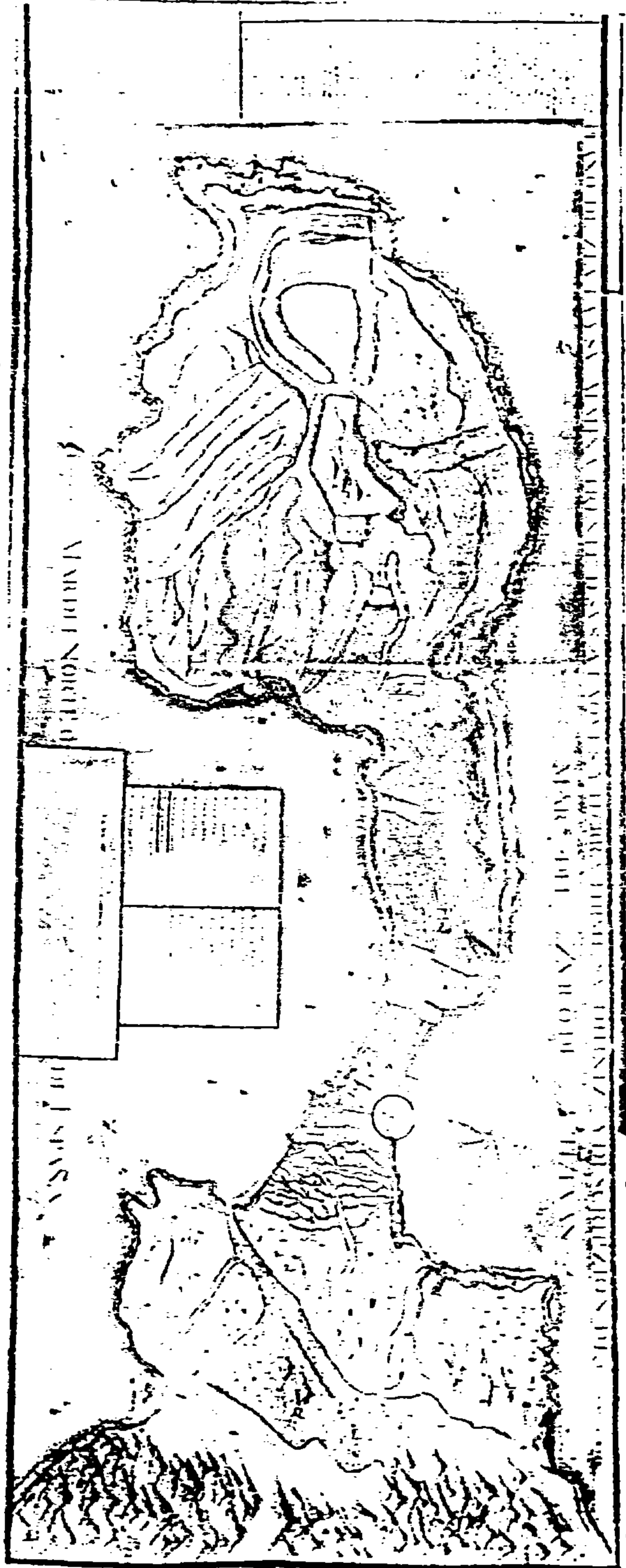
شكل (٤) رسم كروكي لأسوار سبته من خلال الرسوم التخطيطية القديمة للمدينة (عن كارلوس جوثاليس)



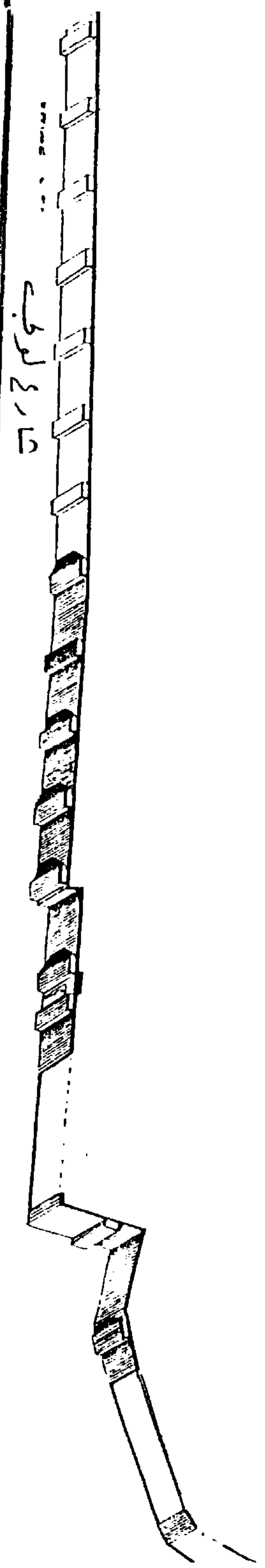
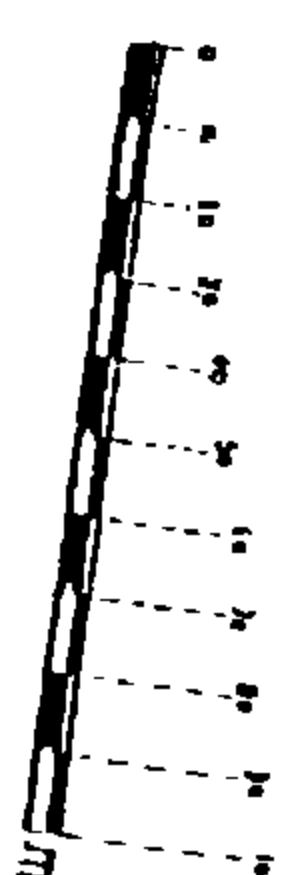
شكل (٥)

الجانب الغربى لمدينة سبته كما وردت صورته فى مصدر يرنثالى مؤرخ بالقرن ١١هـ/١٧م

(عن أمين توفيق الطيبي)



شكل (٦) خريطة كورنوبه للمدينة سبتة في بداية القرن ١٨ م محفوظة في مصلحة المساحة العسكرية (عن بافون)

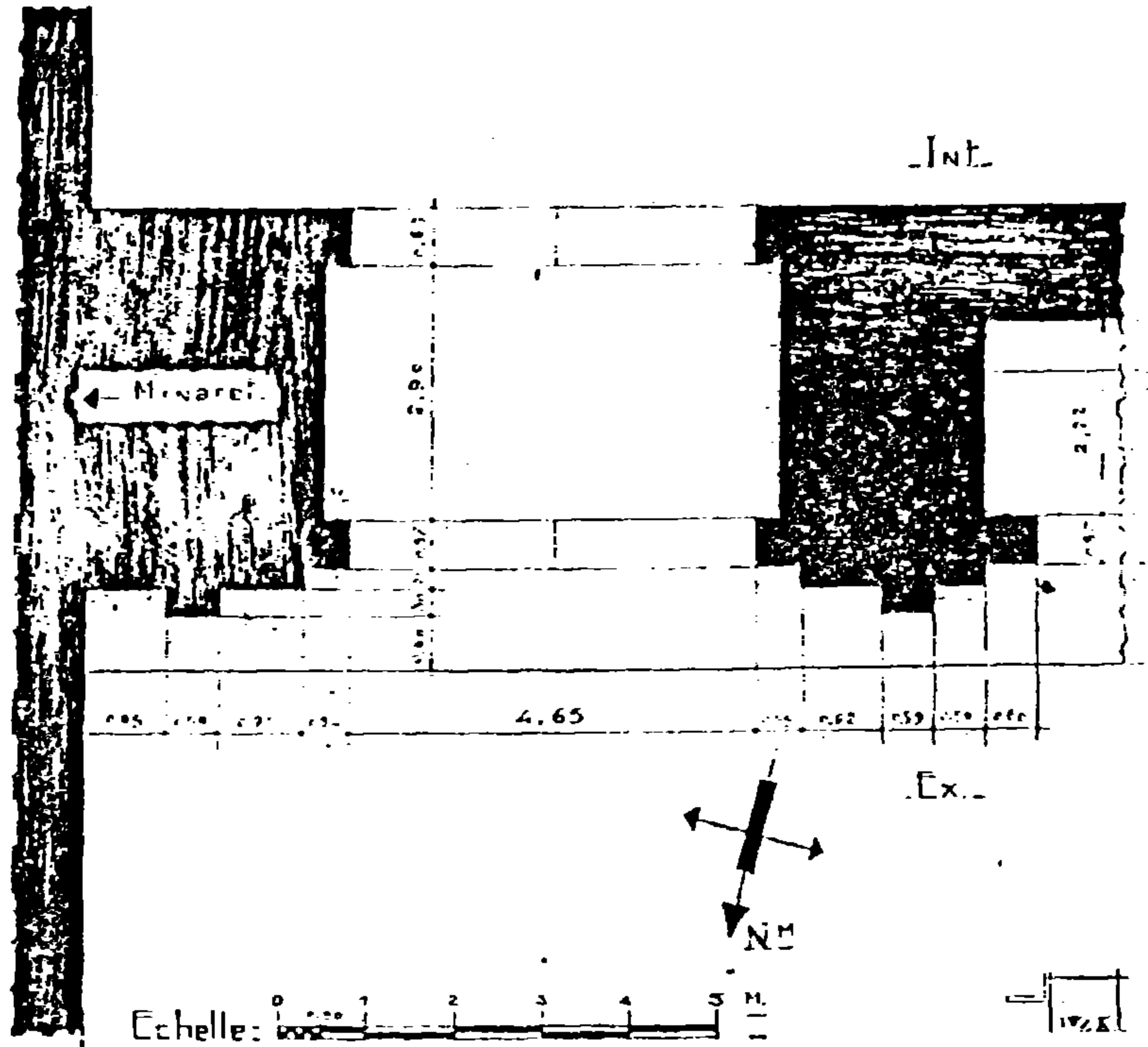


شارع لوطي

شكل (١٧) رسم افراضى لمنطقة أفراك فى ضوء مخطط فى سبته فى القرن ١٨ م (عن بالون)

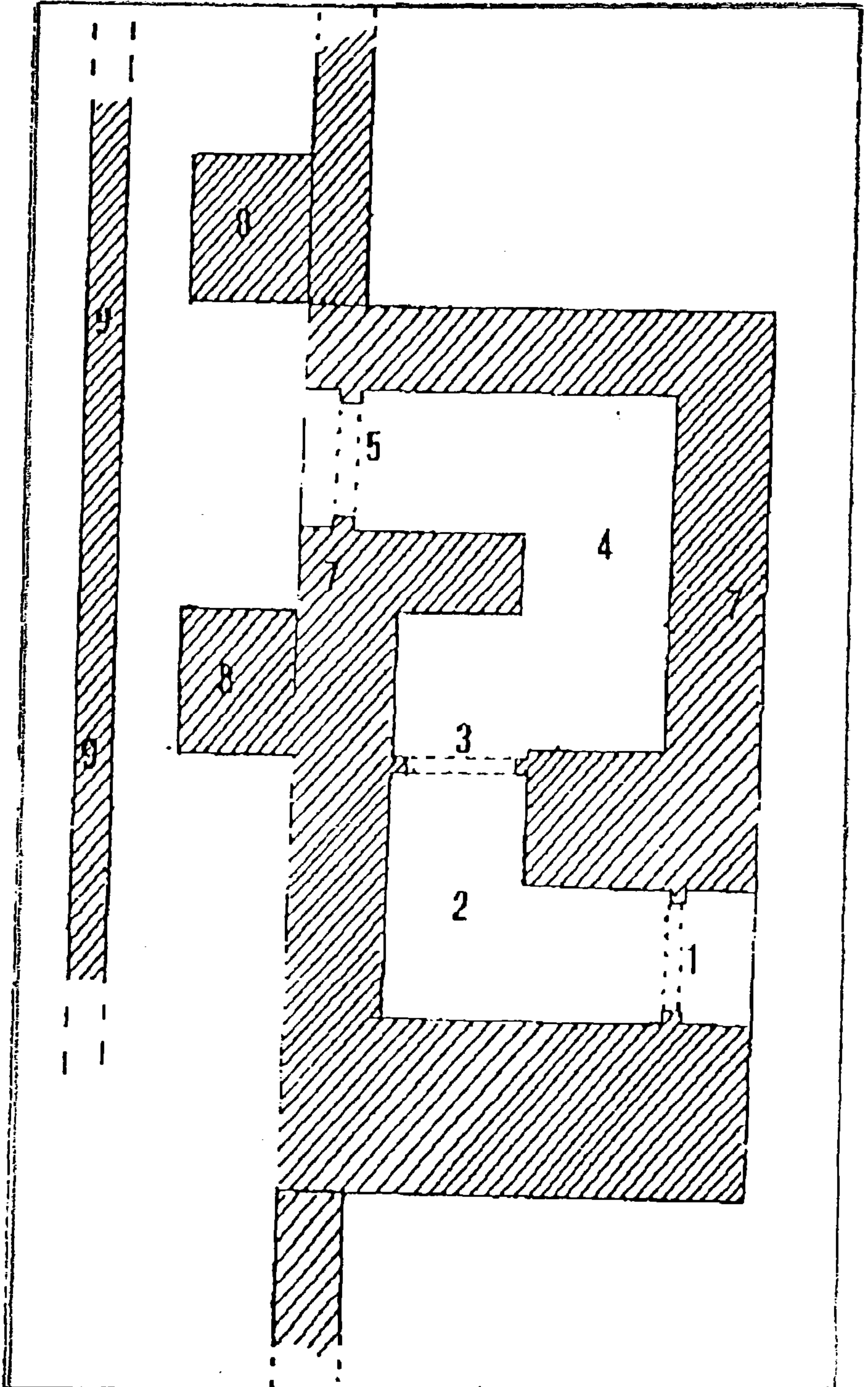
شكل (٧ب) خريطة كوربيه لمنطقة أوراك (عن بافون)



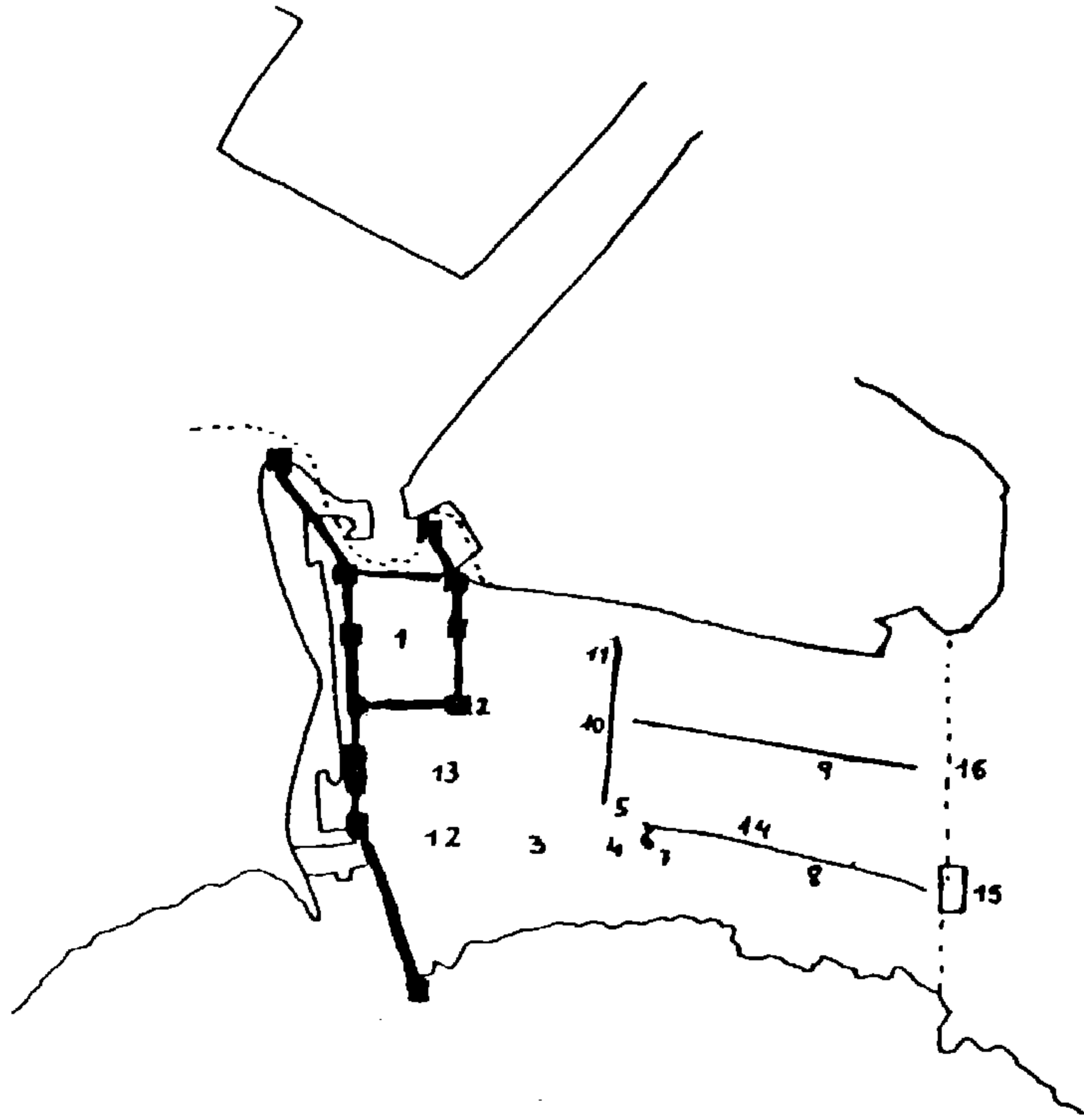


شکل (٨)

رسم تخطيطی لباب مسجد حسان بالرباط (عن بافون)



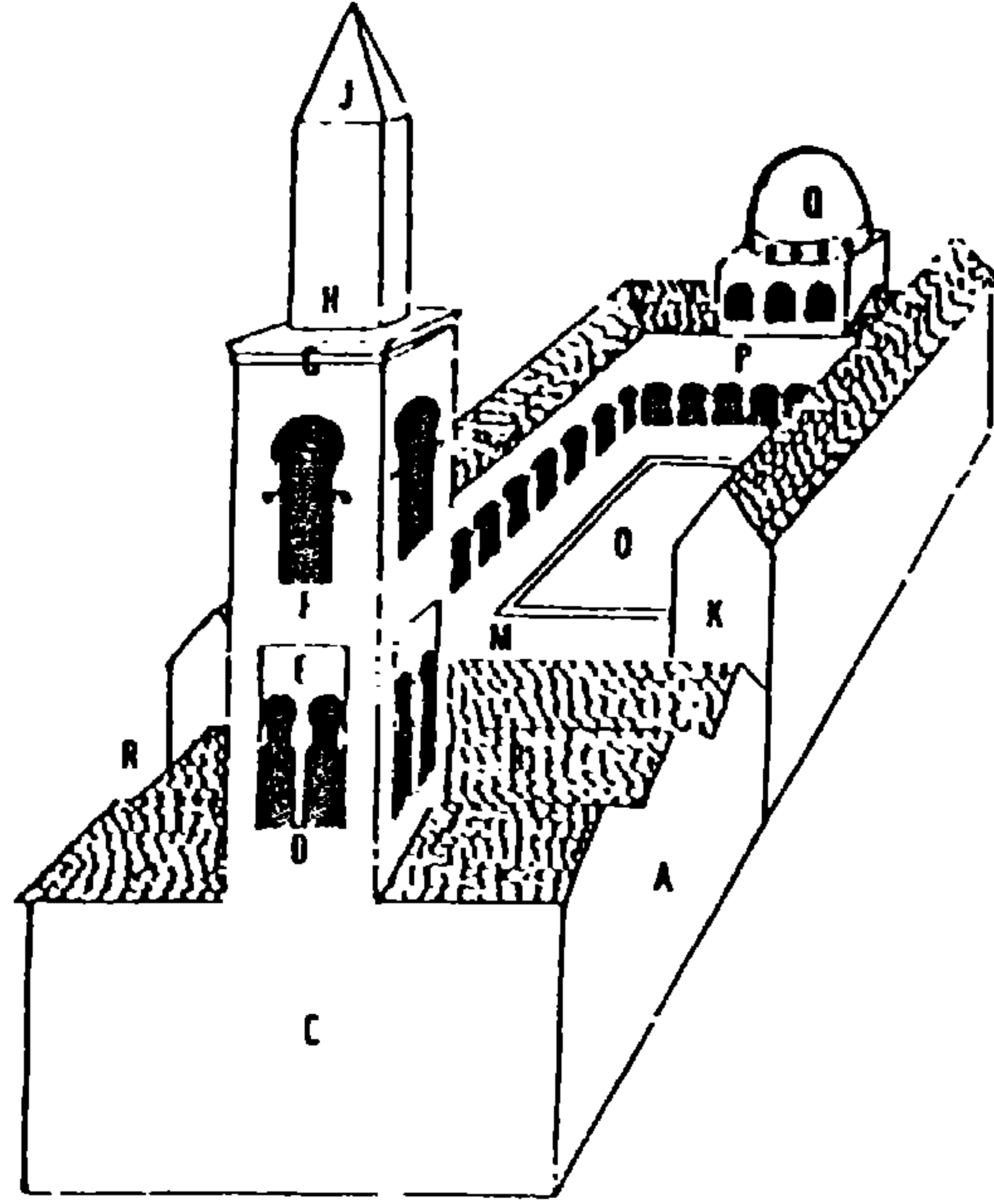
شكل (٩) رسم افتراضى لباب سبته المعروف بـ (الباب الجديد) (عن كارلوس جوثابلس)



شكل (١٠)

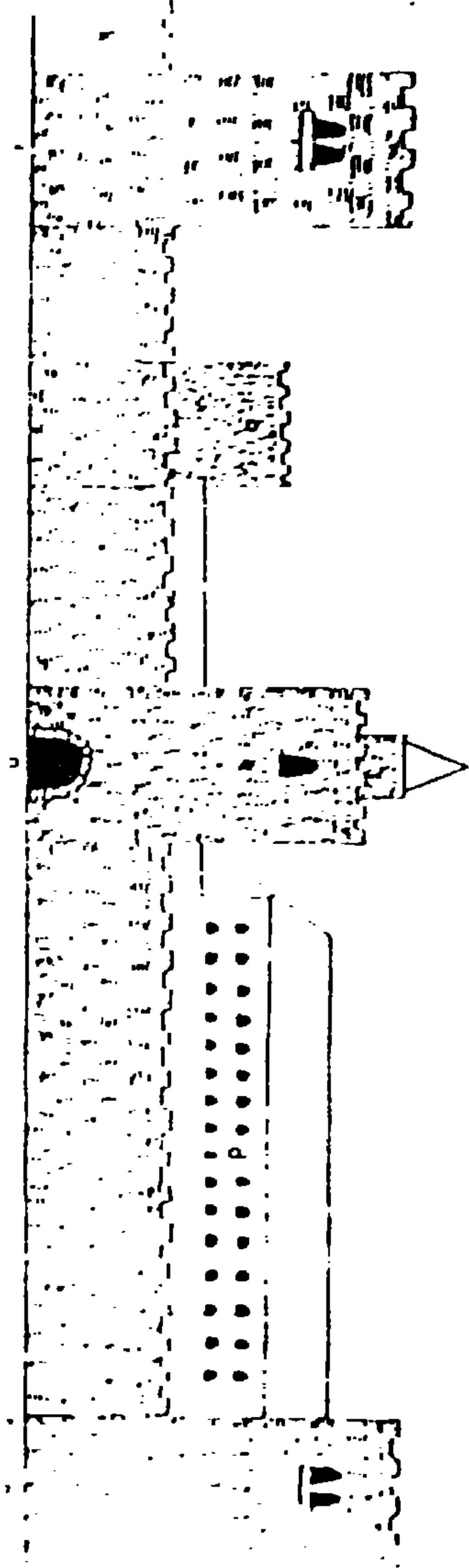
رسم تخطيطي لمركز سبته العمرانية (عن كارلوس جوثابلس)

- | | |
|---|-----------------------------|
| ١ - القصبة أو القلعة . | ٢ - برج الحراسة . |
| ٣ - المسجد الجامع . | ٤ - حمام القائد . |
| ٥ - المدرسة الجديدة . | ٦ - نافورة . |
| ٧ - حباب . | |
| ٨ - سوق العطارين الموجود الآن بشارع خاودينس) . | |
| ٩ - شارع ابن عيسى (المعروف الآن بالشارع الأعظم) . | |
| ١٠ - شارع الموثقين (المعروف ان بشارع سان اودنيا) | |
| ١١ - مسجد الموثقين . | ١٢ - القيسارية . |
| ١٣ - سوق السقاطين . | ١٤ - دابة الأشراف الإداري . |
| ١٥ - منطقة الجمرك . | ١٦ - باب الربيض الأوسط . |



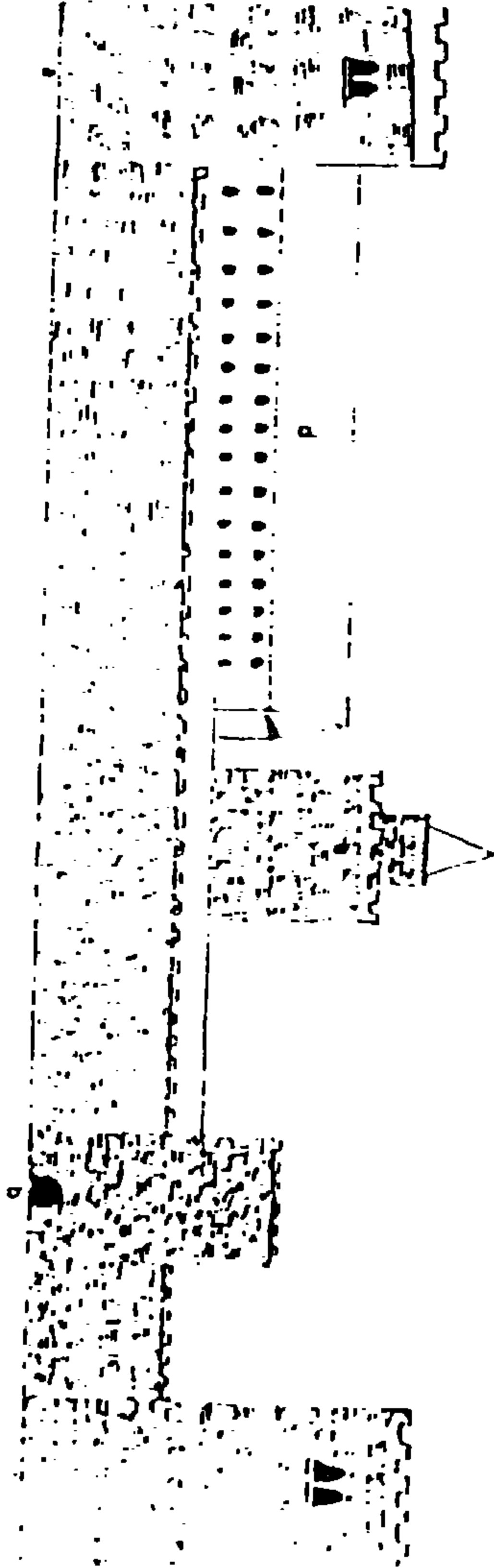
شكل (١١)

رسم افتراضي للمدرسة الجديدة بمدينة سبتة (عن كارلوس جوثابلس)



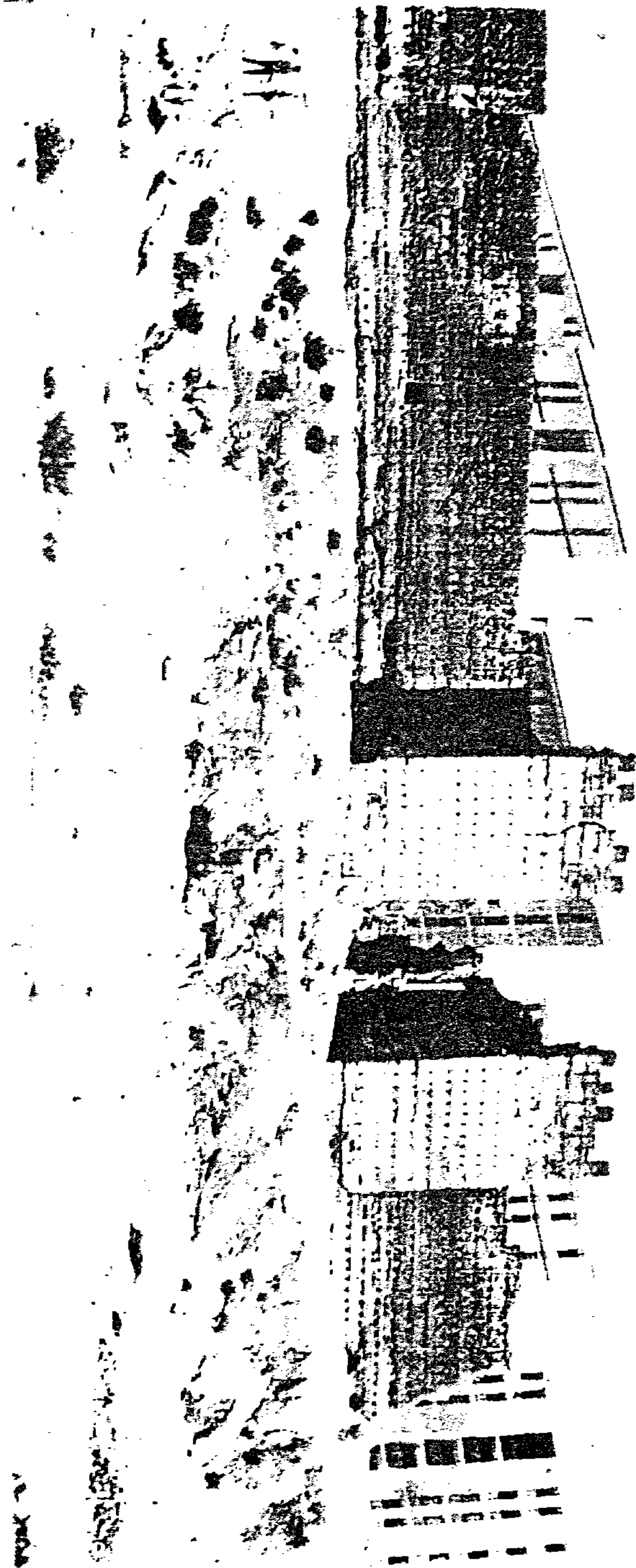
شكل (١٢)

رسم افتراضى للمسور الغربى لقصبة سبتة (عن كارلوس جوثابلس)



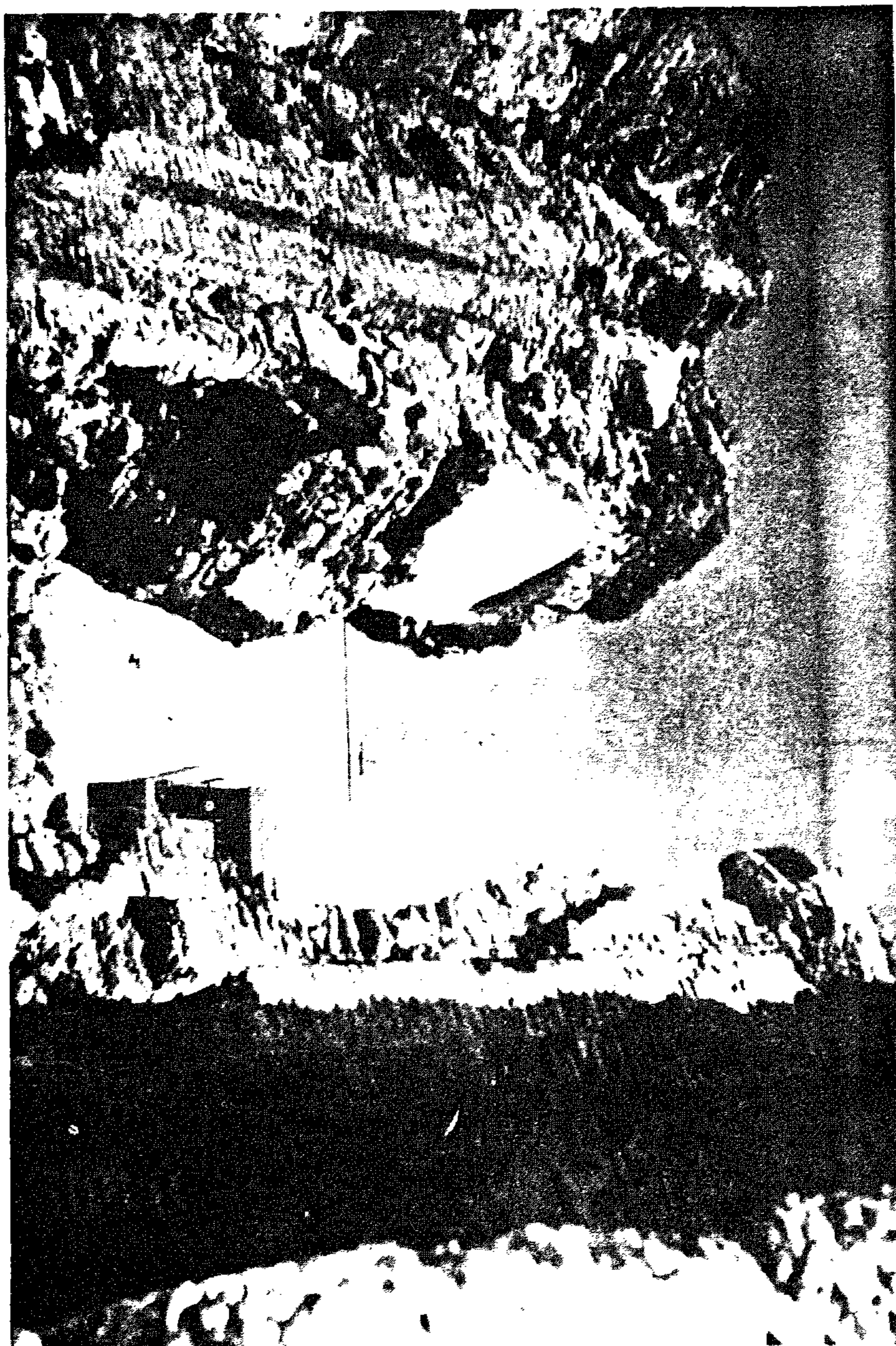
شكل (١٣)

رسم افراصى للسور الشرقى لقصبة سبته (عن كارلوس جوثابلس)



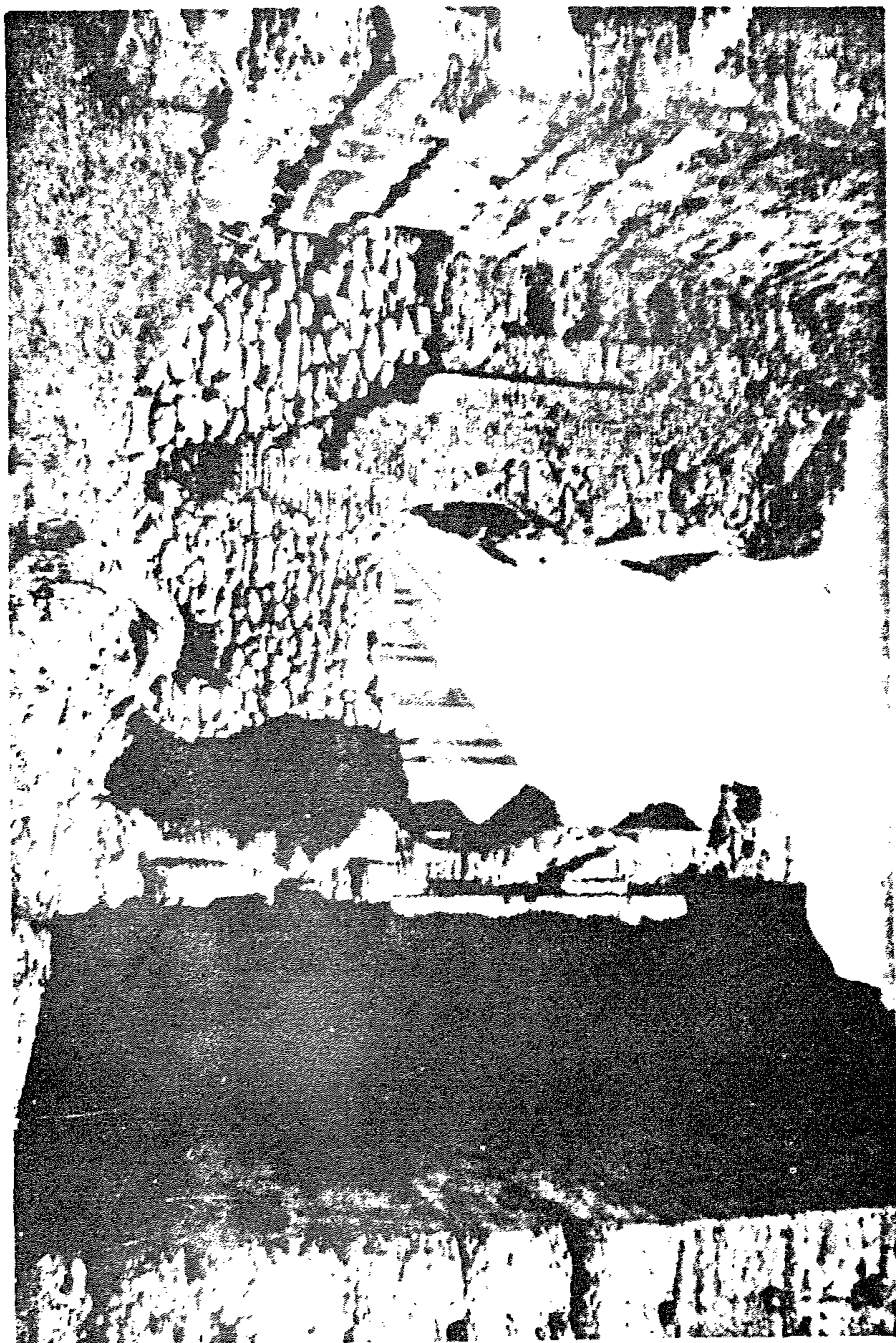
لوحة (١)

باب فاس جلدینة سیتة (عن بالفون)



لوحة (١٢)

بقايا باب فارس: جدينة سبتة (عن هافون)



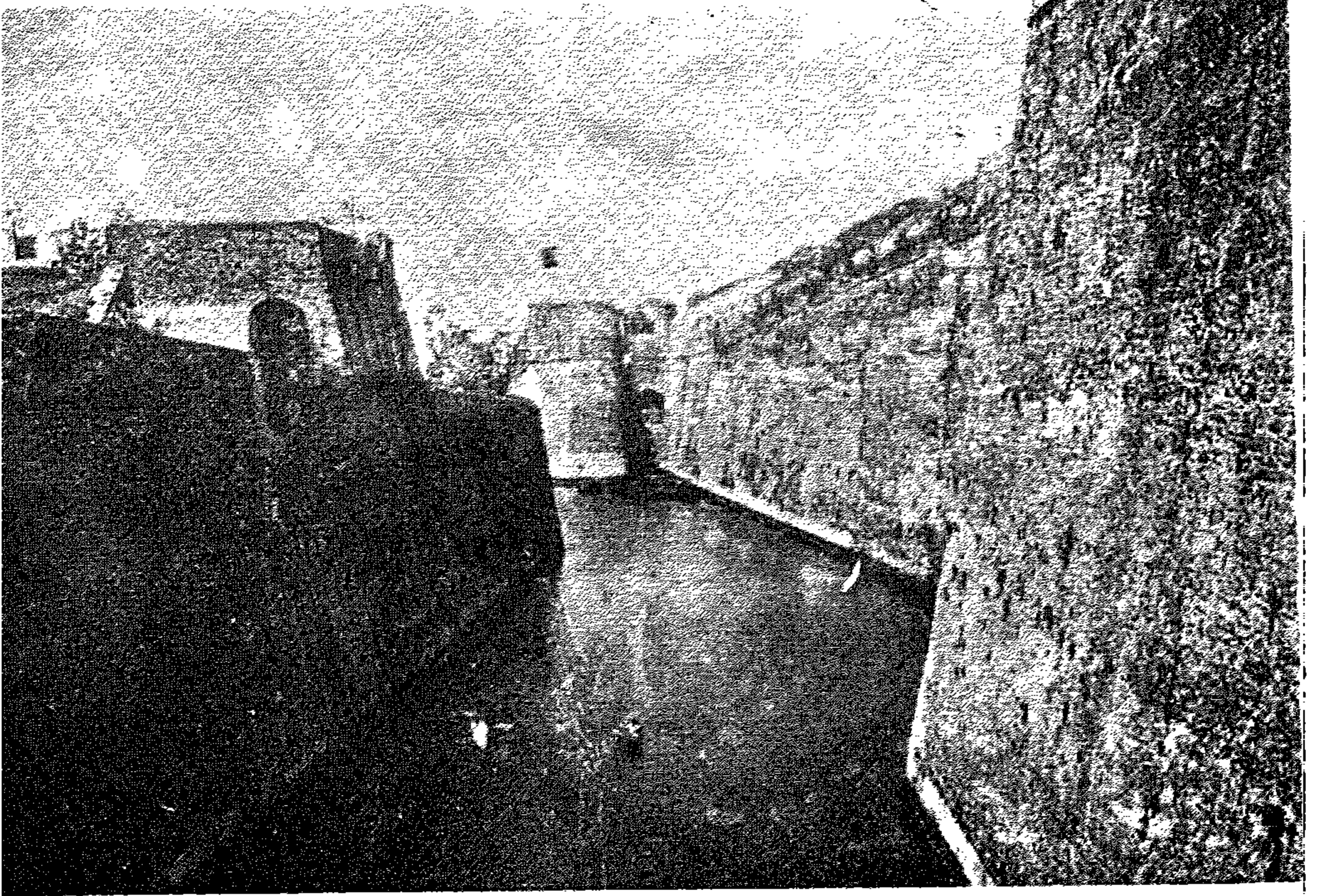
لوحه (٢ ب)

بقايا باب فاس بمدينة سبتة (عن بافون)



لوحة (٣)

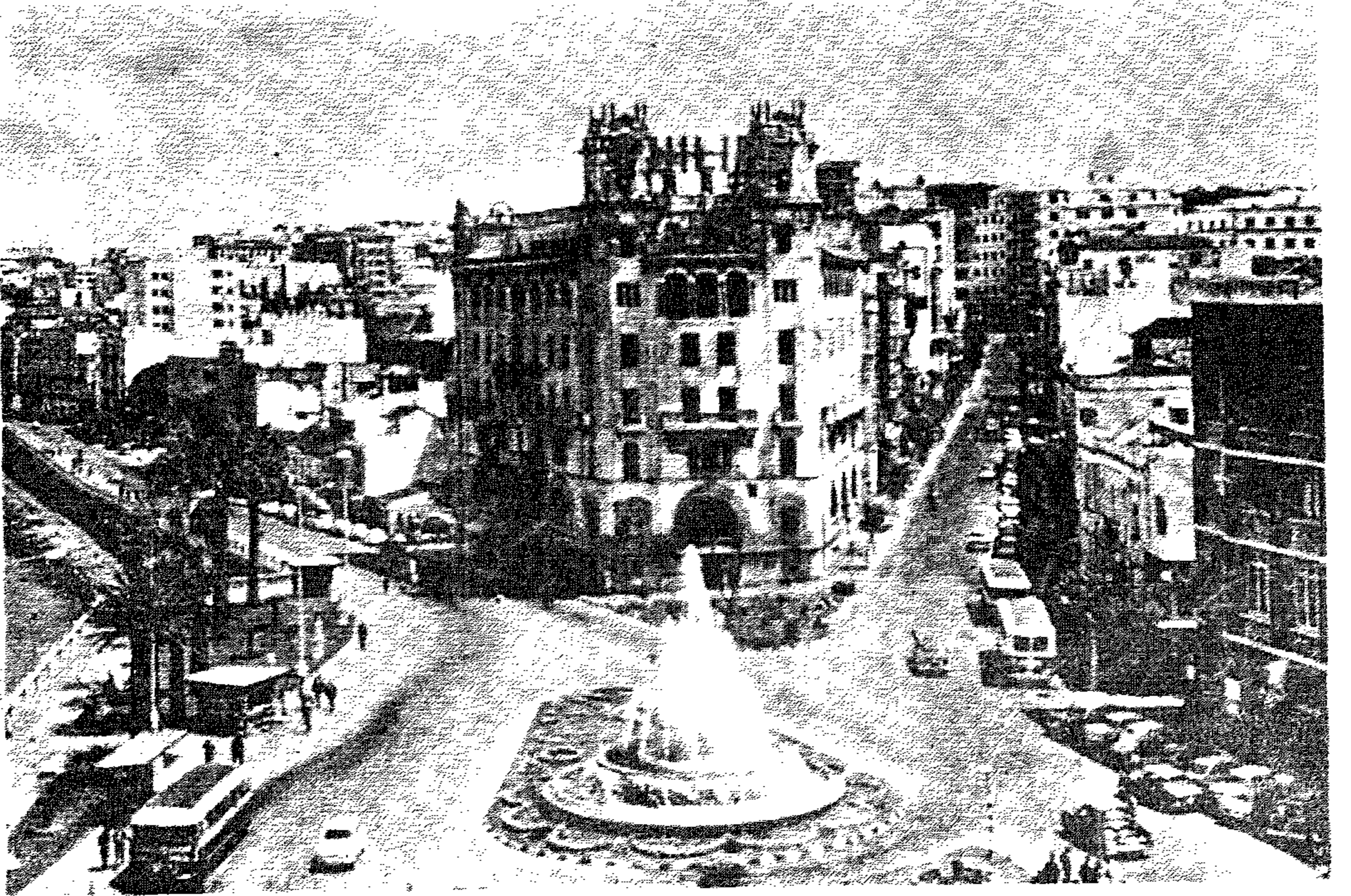
باب السلاح بغرناطة (عن بافون)



لوحة (٥)

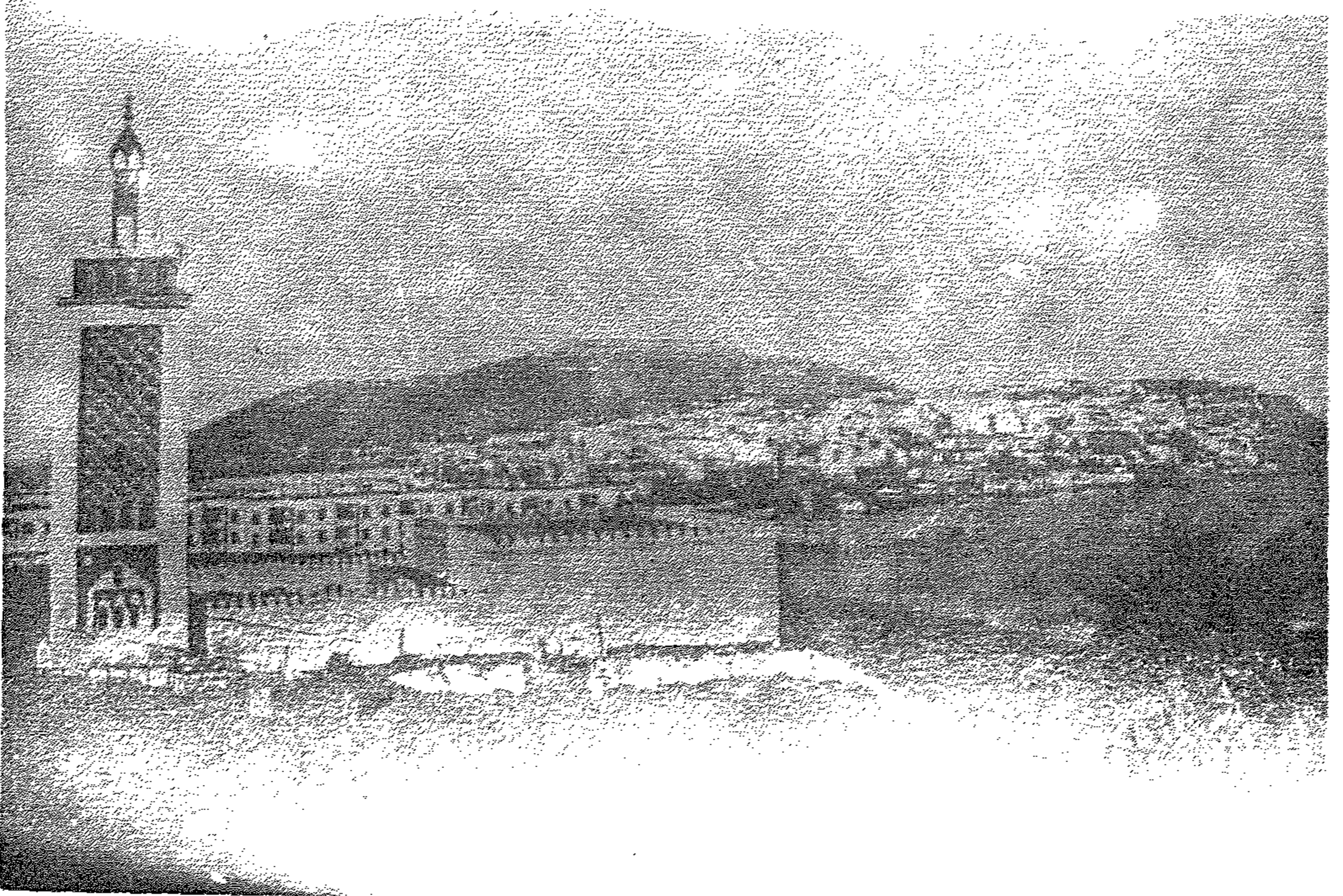
بقايا حصون أسبانية وبرتغالية مواجهة للمغرب يفصلها بحرايى السول

(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٤)

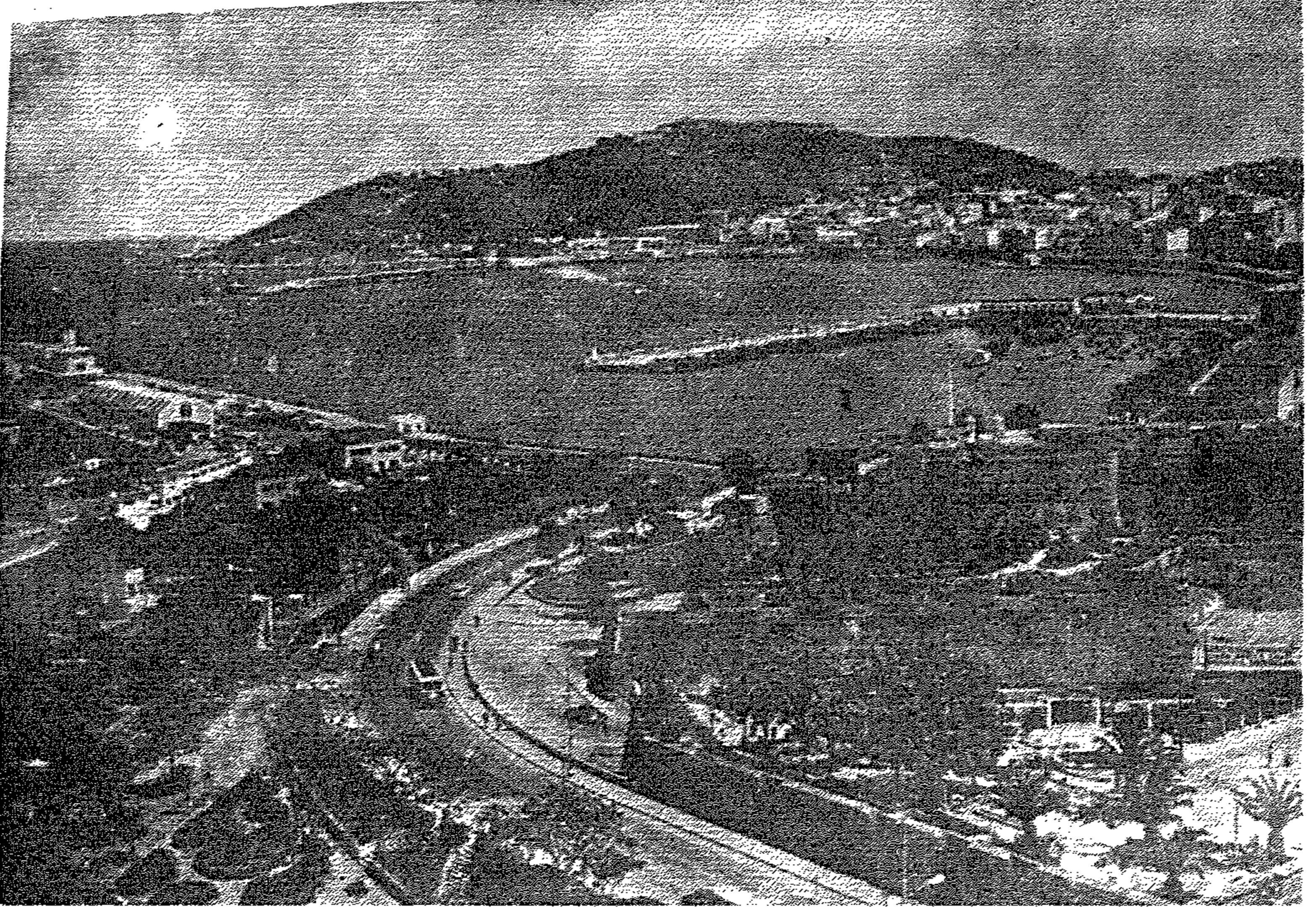
أحد شوارع سبته المعروف بالشارع الكبير والى اليمن
كان يوجد زقاق ابن عيسى (عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٦)

مسجد حديث يمثل الأثر الإسلامى الوحيد بمدينة سبته

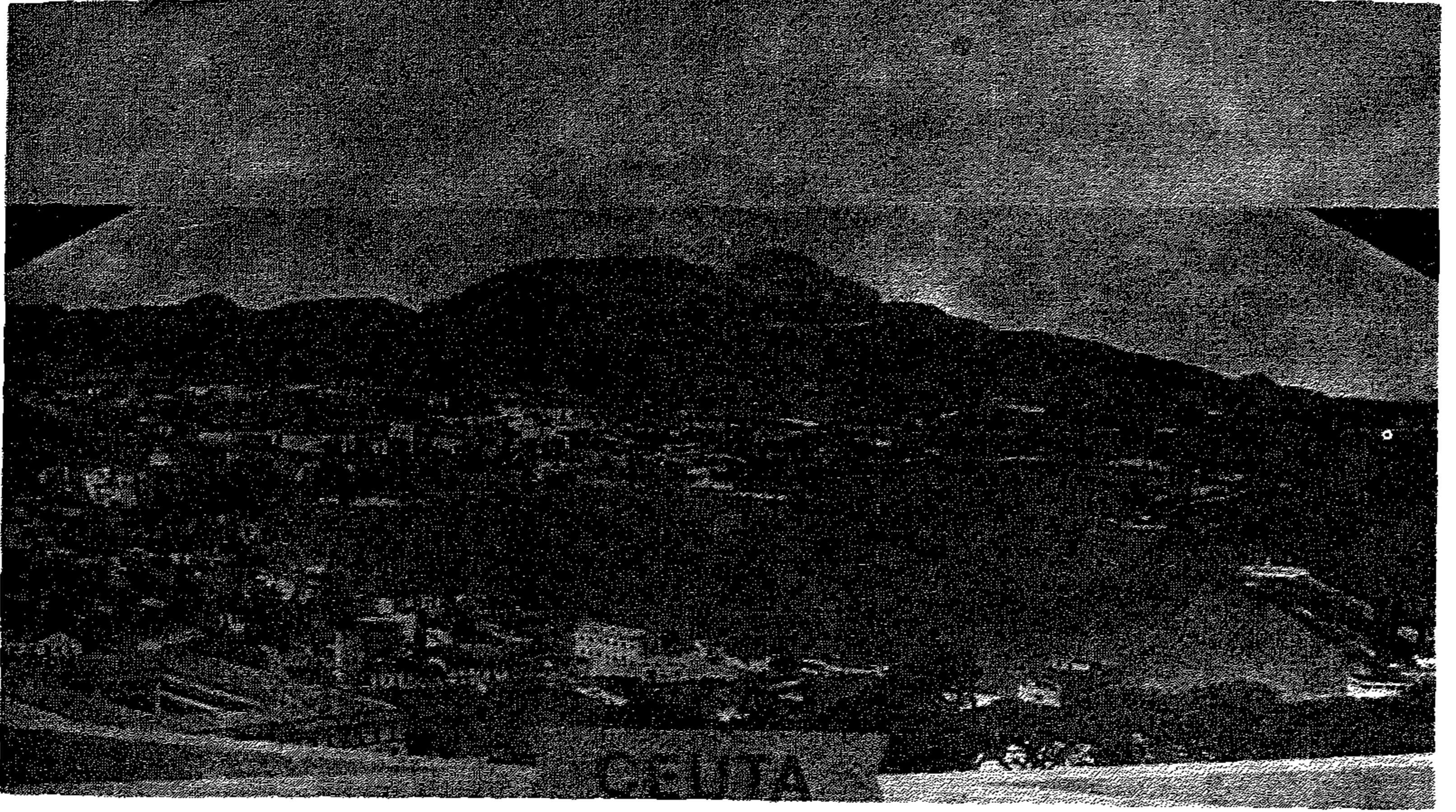
(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٧)

منظر عام سبتہ

(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٨)

منظر آخر لمدينة سبتة وفي الخلفية يظهر جبل طارق

(عن عبد الوهاب بن منصور)

الهوامش

- (١) راجع البكرى (عبيد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك . مكتبة المثنى بغداد (مصور من طبعة دى سلان . الجزائر ١٨٥٧ م .) ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى أن مدينة سبته مدينة قديمة سكنها الأول وبها آثارهم وبقايا كنائس وحمامات .
- وكذلك راجع : مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار . نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد . مطبعة الإسكندرية ١٩٥٨ . ص ١٣٧ ، الحميرى (أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق . د. إحسان عباس . بيروت . ١٩٨٤ . ص ٣٠٣ .
- وقد اختلف المؤرخون حول تفسير اسم مدينة سبته فالبكرى والإدريسى يذكران بأنها سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها إلا من ناحية الغرب ، والبحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولم يبق بينهما إلا أقل من رمية سهم (راجع البكرى : المصدر السابق . ص ١٠٣) ، كذلك راجع الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تحقيق مجموعة من العلماء . نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ . ج ٢ . ص ٥٢٨ .
- أما المقرئ فيذكر نقلاً عن ابن سعيد بأن سبته سميت بهذا الاسم نسبة إلى سبت بن تافث ابن نوح) : المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق د. إحسان عباس . بيروت ١٩٨٨ . ج ١ . ص ١٢٥ . ويفيد ليو الأفريقى بأن الرومان كانوا يطلقون عليها اسم سيفيسطاس ، سماها البرتغاليون سوتبة : ليو الأفريقى (الحسن ابن محمد الوزان الفاسى) : وصف أفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية د. محمد حجي ، د. محمد الأخضر . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر دار الغرب الإسلامى . الطبعة الثانية ١٩٨٣ . ج ١ . ص ٣١٦ . وفى رأى أحد الباحثين أن اسم سبته مشتق من الكلمة اللاتينية (سبتوم أو سيقوم) Septum . معنى سبعة لأن سبته كما يذكر الأدريسى ، عبارة عن سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض . (راجع الإدريسى . المصدر السابق . ج ٢ . ص ٥٢٨ ، كذلك راجع . رضوان البارودى . التاريخ السياسى لمدينة سبته منذ القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى . فصل من المجلة التاريخية المصرية . المجلد السادس . والثلاثون ١٩٨٩ . ص ٣٥ - ٣٦ حاشية (١) .

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس (مجموعة رسائله) . نشر وتحقيق د. أحمد مختار العبادى . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٨٣ . ص ١٠١ . هامش (١).

(٣) عندما سيطرت جيوش الدولة البيزنطية على مدينة سبته قام جستنيان بتحسينها عام ٥٣٥م. ومنذ ذلك التاريخ وولاية الدولة البيزنطية يقومون على حكمها إلى أن كان آخرهم يليان الكونت فى أواسط القرن السابع الميلادى ، والمشهور أنه كان مغربياً من قبيلة غمارة التى استمرت صاحبة هذه الجهات حتى فى العصر الإسلامى (راجع محمد ابن تاويت . تاريخ سبته . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر . الطبعة الأولى . ١٩٨٢ . (ص ١٤ - ١٥) . وقد لعب يوليان دوراً هاماً فى تحريض العرب على فتح الأندلس حيث اتصل بطارق بن زياد حاكم طنجة وطلب منه فتح الأندلس . (راجع السيد عبد العزيز سالم . تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٩٧ . ص ٦٦ - ٦٧ كذلك راجع . أحمد مختار العبادى . فى تاريخ المغرب والأندلس . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية بدون تاريخ . ص ٥٤ - ٥٥) .

(٤) بعد فتح المسلمين للأندلس عن طريق سبته ساعدتهم الظروف فى ضم هذه المدينة إلى دائرة نفوذهم . وقد خضعت سبته لحكم قبيلة غمارة وزعيمها ماجكس أوما جكن . كما كانت من المدن التى ولاها الإمام محمد بن إدريس الثانى عام ٢١٣هـ / ٨٢٨م . ولمزيد من التفاصيل عن أحداث تلك الفترة راجع : سعد زغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب العربى : نشر منشأة المعارف . إسكندرية ١٩٩٠ . ج ٢ . ص ١١٠ - ١١١ ، كذلك ج ٣ ص ٢١١ ، ٢٣٤ ، رضوان البارودى المرجع السابق . ص ٣٩ - ٤٠ .

(٥) كان سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر قد عين على بن حمود على سبته عام ٤٠٣هـ / ١٠١٣م . مكافأة له على انضمامه معه فى صراعه ضد الخليفة الأموى هشام المؤيد : ابن الخطيب : أعمال الأعلام فىمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام . القسم الثانى . الخاص بأسبانيا الإسلامية . تحقيق أ. ليفى بروفنسال . بيروت . ١٩٥٦ . ص ١١٩ ولمزيد من التفاصيل راجع (سعد زغلول عبد الحميد . المرجع السابق . ج ٣ . ص ٥٠٦ ، ٥٠٨ .

(٦) عن سقوط البراغواطى وكيف قدر له أن يظهر فى هذه الفترة من تاريخ سبته . راجع البكرى . المصدر السابق . ص ١٣٤-١٤١ ، ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد). البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق . ج.س. كولان أ. ليفى بروفنسال بيروت ١٩٨٣ . ج ١ . ص ٢٢٣-١٣٨ ، سعد زغلول. المرجع السابق . ج ٣ . ص ٥٠٨-٥٠٩ ، رضوان البارودى. المرجع السابق. ص ٥٧-٦٠ .

(٧) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته خلال فترة حكم سقوط البراغواطى . راجع . ابن بسام. المصدر السابق. م ٢. ق ٢. ص ٦٥٨-٦٦٠ ، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) العبر وديوان المبتدأ والخبر. طبعة بولاق. ١٨٢٤ . ج ١ . ص ١٥٧ رضوان البارودى : المرجع السابق ص ٦٠-٦٥ .

(٨) راجع : ابن أبى زرع : الأنيس المطرب : ص ٩٣ . حيث الإشارة إلى أنه بمجرد دخول سبته فى طاعة المرابطين خرج إليها يوسف بن تاشفين «فهدنها وأصلح أحوالها وسفنها ولحقت به العساكر والجنود وقدمت عليه الوفود».

(٩) ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . تحقيق كل من محمد ابراهيم الكتانى ، محمد ابن تاويت ، محمد زنيير ، عبد القادر زمامة . بيروت. ١٩٨٥ ص ٢٤-٢٦ ، ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته على عهد الموحدين راجع ابن خلدون. العبر . ج ٦ ص ٢٣٥ . محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٦٥-٧٦ .

(١٠) عن تاريخ سبته فى عهد الحفصيين راجع : أمين توفيق الطيبي. بنو العزفى أصحاب سبته بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية. طرابلس. بدون تاريخ . ص ٦٨-٧٦ ، محمد بن تاويت. تاريخ سبته . ص ١٠٨-١٠٩ .

(١١) يبدأ تاريخ ابن العزفى بفتنه سبتى هو أبو العباس أحمد العزفى الذى يوصف والده أبو عبد الله محمد بأنه كان فقيهاً وعالمًا ومحدثاً وقاضياً ، وقد أعلن سلطانه على سبته واستقل بها عن الحفصيين ٦٤٧هـ / ١٢٤٩ م وظل يحكمها حوالى ثلاثين سنة إلى أن توفى عام ٦٧٧هـ / ١٢٦٨ م، ولمزيد من التفاصيل عن الظروف التى ساعدت أبا العباس أحمد فى السيطرة على مدينة سبته ومدى حب وتقدير أهلها له راجع . ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . ص ٣٩٧ - ٣٩٩ ، كذلك راجع محمد بن تاويت. المرجع السابق ص ١١٠-١١٣ .

- (١٢) أمين توفيق الطيبى . النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته ، بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته - ص ٤٦ - ٤٧ ، كذلك راجع محمد بن تاويت . المرجع السابق ص ١٣٤ وما بعدها .
- (١٣) نفس المرجع ص ٤٧ - ٤٨ ، كذلك راجع :
جوليان شارل أندرى : تاريخ أفريقيا الشمالية . ترجمة : محمد مزالى والبشير بن سلامة : تونس ١٩٧٨ ص ٢٤٩ .
- (١٤) أمين توفيق الطيبى : احتلال البرتغاليين مدينة سبته المغربية (مقدماته ودوافعه ونتائجه) . (بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته) ص ١٣٧ .
- (١٥) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته من الدول المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب . تحقيق : عبد الوهاب المنصوري . الرباط ١٩٨٤ .
- (١٦) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية . ص ٢٣ حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م . وكان موضع أقرانه بمسجد القفال وكان يدير ظهره إلى جوار القبلة من بعد صلاه الصبح ويمشى دوله أثر دوله فى الفنون العلمية إلى أن تزول الشمس .
- (١٧) نفس المصدر . ص ٣١ - ٣٢ . حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م . وكان يحمل صحيح البخارى عن الحجار وهو سند عادل متصل السماع لانظير له فى المغرب .
- (١٨) نفس المصدر . ص ٤٤ - ٤٥ . حيث الإشارة إلى وفاته عام ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م وإلى أنه كان فقيهاً محدثاً حسانياً مشاركاً فى أصول الدين والنحو والتاريخ وكان متودداً للطلبة حسن التعليم والإلقاء .
- (١٩) نفس المصدر : ص ٥٥ - ٥٦ . حيث الإشارة إلى أنها قرأت الطب على صهرها الشيخ أبى عبد الله الشريشى ونبغت فيه . وكانت عارفة بالطب والعقاقير كما كان لها رباع تفتلها عهدت بتوقيفها فى وجوه البروسيل الخيرات .
- (٢٠) الأنصارى : اختصار الأخبار . نشر بروفنسال . ص ١
- (٢١) المصدر السابق . ص ٣ .
- (٢٢) محمد بن القاسم الأنصارى السبتي : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سنى الآثار تحقيق عبد الوهاب بن منصور . الطبعة الثانية . الرباط . ١٩٨٣ ص ٧ .

(٢٣) المصدر السابق نشر بروفنسال . ص ٩ . حيث الإشارة إلى أنه استوعب وصف جامع سبته وذكر ما ينبغي أن يذكر من تاريخ وخبر في بغية السامع من تأليفنا .

(٢٤) نفس المصدر . ص ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ .

(٢٥) نفس المصدر . ص ٢ .

(٢٦) يظن الأستاذ عبد الوهاب بن منصور . أن الكتاب طبع بعد طبعة تطوان طبعيتين أخيرين إحداهما بطنجة والأخرى بالرباط ولكنه لم يشر إلى سنة الطبع ولا إلى اسم الناشر راجع الأنصاري . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص ٨ .

(27) Joaquin Valve Bermejo : Descripcion de cetua Musulmana.
En el siglo XV;, Alandalus vol, XXVII. Madrid 1912.

(٢٨) كمال عناني إسماعيل : العمارة الإسلامية في طليطلة في العصر الإسلامي . رسالة ماجستير (غير منشورة) إسكندرية ١٩٨٩ . ص ٦٣ .

(٢٩) شكل رقم (١) .

(٣٠) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي) معجم البلدان . دار صادر بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٥ . ص ١٨٣ .

(٣١) حبت الطبيعة مدينة سبته موقعاً استراتيجياً جعلها من أمنع مدن الغرب الإسلامي . فهي تقع على برزخ يصل اليابسة في الغرب بشبه جزيرة الميناء في المشرق . وتطل على البحر المتوسط من الشرق ويكتنفها خليجان أحدهما في الشمال والثاني في الجنوب بحيث لا يمكن الوصول إليها براً إلا من الغرب . (راجع مؤلف مجهول الاستبصار . ص ١٣٧ حيث الإشارة إلى أن البحر قد أحاط بها (أي بسبته) شرقاً وجنوباً وقبلة وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب لو شاء أهلها أن يقطعوه لقطعوه .

(٣٢) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب . ص ١٠٣ .

(٣٣) الكذان : أو كدان نوع من الحجارة البيضاء يستعمل في تشييد الجدران وتبليط الأرضيات . وقد شاع استخدام هذا النوع من الحجارة في بلاد المغرب والأندلس منذ عصر الدولة الأموية (عبد الرحمن غالب . موسوعة العمارة الإسلامية بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢٣ .

(٣٤) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ . ص ٢٠٤ .

(35) Carlos Gozalbes cravioto: ceuta Hispano portugesas (instituto de estudios ceuties):, cetua, 1993. p.p 93-94.

(٣٦) شكل رقم ٢ .

(37) Henri Terrasse: un vestige des fortifications omeiyades: Alandalus. v, XXVII. Fasc I. 1992. p, 245.

(٣٨) شكل رقم (١) أ ، ب .

(٣٩) الإدريسي : نزهة المشتاق جـ ٢ ص ٥٢٨ ، مؤلف مجهول : الاستبصار ص ١٣٧ ، الحميري : الروض المعطار . ص ٣٠٣ .

(٤٠) ابن أبي زرع : (أبو الحسن بن عبد الفاسي) : الزخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. منشورات دار المنصور للطباعة . الرباط . ١٩٧٢ ص ٨٠ .

(٤١) شكل رقم (١) أ ، ب ، شكل رقم (٣) أ ، ب .

(٤٢) شكل رقم (٤) ، شكل رقم (٣) أ ، ب .

(43) Carlos Gozalbes : op .cit, p.p . 195-198 .

(٤٤) شكل رقم (٣) أ .

(٤٥) شكل ٤ .

(٤٦) شكل رقم (٣) أ ، ب ، شكل رقم (٤) .

(47) Carlos Gozalbes: op cit, p.p 193-194 .

(٤٨) شكل رقم (٥ ، ٦) ، شكل رقم (١) أ ، ب شكل رقم (٣) أ ، ب .

(٤٩) الأنصارى اختصار الأخبار . نشر بروفنسال . ص ٢٠ .

(٥٠) تقع هذه الروضة عند رابطة الفصيل ، وكانت تضم ثلاثين مقبرة دفن فيها كل أفراد أسرة الأشراف الحسينيين الذين أتوا إلى سبته من صقلية ، وهناك صاهروا بنى العزفى أمراء سبته وبعد أسيرة بنى العزفى نفوا إلى أسبانيا وظلوا تحت الحكم المسيحي إلى أن افتداهم السلطان أبو سعيد فعادوا إلى سبته واستقروا بها .

Joaquin vallva : opcit, p, 411. Not46.

(٥١) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٧ .

(٥٢) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٦ ، وكذلك راجع نشره محمد بن تاويت حيث الإشارة

إلى أنه الشيخ الفقيه المشاور الخطيب الزاهد الشهير المعروف بالبركة الذى تراب ضريحه شفاء لذوى العاهات أبى عبد الله محمد بن مسعود المكي المعروف بابن الكنغر .

(٥٣) شكل رقم (٣) ب .

(٥٤) كلمة أفراك أو أفراق تعنى الحصن أو القصبه التى كان يوجد بها قصر الحاكم . وفيه كانت تدار شئون المدينة والإقليم حيث كان يقيم السلطان وحراسه وحاشيته (راجع الأنصارى . نشرة بروفنسال ص ٢٢) حيث الإشارة إلى أن منطقة أفراك كانت مخصصة لسكن الأمراء والأجناد وغيرهم . وفى موضع آخر يشير الأنصارى إلى أن أفراك المدينة كانت تمثل القصر الملوكى الذى أعده بنى مرين هناك لنزولهم . (الأنصارى . ص ٢٠) . كذلك راجع ابن الحاج النميرى (فيض العباب وإفاضة قدح الآداب فى الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب . (تحقيق محمد بن شقرون . الرباط ١٩٨٤ . ص ٦٤-٦٧ .

(٥٥) هو السلطان فارس المكنى بابى عنان والملقب بالمتوكل على الله ولد عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨ م بفاس وثار على أبيه أى الحسن بتلمسان علم ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م واستولى على المغرب الأقصى وكان محباً للعلوم ومغرمًا بالبناء وقد توفى فى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧ م بعد أن حكم سبع سنين وتسعة أشهر (ولمزيد من التفاصيل عنه راجع: مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . نشر غلوس . رباط الفتح ١٩٣٦ . ص ١٥٠) كذلك راجع أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : روضة النسرين فى دولة بنى مرين . مطبوعات القصر الملكى . الرباط ١٩٦٢ ص ٢٧-٢٨ ، لسان الدين بن الخطيب : نفاضة الجراب من غلالة الاغتراب (تحقيق أحمد مختار العبادى ومراجعة عبد العزيز الأهوانى . دار الكتب العربية بالقاهرة . بدون تاريخ) . ص ٧٤ حاشية (٥) .

(٥٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .

(٥٧) نفسه : ص ٢١ .

(٥٨) المقصود بالسبقة المسافة المحددة لرمى السهم (ج.س لثيام موقع سبته الاستراتيجى ووسائل الدفاع عنها فى أواخر الفترة الإسلامية . بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته : ص ٣٤١ حاشية ٧٥ .

(٥٩) الأنصارى : المصدر السابق ص ٢٣ .

(٦٠) لوحة ١ ، ٢ .

(٦١) شكل رقم (٨) .

(٦٢) يطلق على هذا الأسلوب فى المصطلح الأسبانى اسم *escalo de Los tres plano* *que integran el alzado* التقسيم الثلاثى المتتابع والمقصود تقسيم الامتداد الأفقى

والرأسي لواجهات الأبواب إلى ثلاثة فواصل متساوية ثم تجزئة القسم المركزي المصمت بنفس الطريقة ، بحيث يتمكن المعمار من تحديد اتساع وارتفاع فتحة المدخل من خلال تقسيم الاتساع الكلى للواجهة ، بحيث يكون ارتفاع فتحة الباب فى الغالب تساوى ربع الاتساع الكلى للواجهة . وقد طبق هذا النظام على نحو رائع فى أبواب قصر قمارش بالحمرء Antonio Fernadez puertas : La fachada del palacio de comares Granada McMLXXX, p. 34 وكذلك راجع كمال عنانى إسماعيل عمارة القصور الإسلامية فى الأندلس وتطورها . رسالة دكتورة غير منشورة إسكندرية ١٩٩٥ . ص ٣٧٧-٣٧٨ .

(٦٣) لوحه رقم (٣) .

(64) Pavon Maldonado : opcit, p, 75.

(٦٥) شكل رقم (٣) أ .

(66) Carlos Gozalbes Cravioto : ceuta Hispano Protuguesa, p, 199.

(٦٧) قلهرات جمعها قلهرات Calahorra بمعنى قلعة أو برج القلعة - راجع . Doz R . supplement aux dictionnaires arabes, Tom, II leiden. Paris 1972. p. 401. وتعنى الكلمة فى اللغة الأسبانية القلعة الحرة أو البرج البرانى.

(٦٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٢٠-٢١ .

(٦٩) شكل رقم (٩) .

(٧٠) شكل رقم (٤) حيث الإشارة إلى المدخل الأول برقم (١) والمدخل الثانى برقم (٢) والمدخل الثالث برقم (٥) .

(٧١) شكل رقم (٩) حيث الإشارة فى الرسم الافتراضى للباب إلى هاتين الساحتين برقمى ٤ ، ٥ .

(72) Carlos Gozalbes: ceuto Hispano portuguesa p. 199.

(٧٣) أشار الأستاذ خواكين بالبين نقلاً عن الأستاذ أويشى ميراند فى - كتابه التاريخ السياسى للموحدين بأن هذا الباب قد أمر بتشيدده أبو العلاء إدريس ابن السلطان الموحدى يوسف ابن عبد المؤمن عندما كان حاكماً على مدينة سبتة وذلك فى الفترة من ٥٩٩هـ - إلى ٦١٨هـ . (راجع :

Joaquin vallve : Decripcion de ceuta en el siglo XV, p. 430. Not . 96.

(74) Henri Terrasse les Monuments de ceuta d'apres la Description D'Al-Ansari : Al-Alandalus : VXXVII, 1962 p, 444.

(٧٥) الأنصارى : اختصار الأخبار نشره بروفنسال ص ١ .

(٧٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٩) ويقع هذا الباب فى القطاع الشمالى من المدينة ويبدو من موقعه أنه كان يستعمل لتحصيل رسم خاص نظير المرور من خلاله Carlos Gozalbes : op .cit, 196 وربما يدعم هذا الظن أن سبته اشتهرت فى ميدان التجارة برأ وبجراً بحيث احتلت مكان الصدارة بين موانئ شمال أفريقيا وأصبحت محط رحلات المراكب من جنوة إلى أسبانيا وفرنسا. (امين توفيق الطيبي : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته المغربية، بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته ص ٤٩) .

(٧٧) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢٨ حيث الإشارة إلى أن هذا الباب كان أحد أبواب بحر أبى السول وكان يقع أمام مiazza جامع سبته . ومطالعة الخريطة الموضحة لمعالم مدينة سبته ، يتضح أن هذا الباب كان يقع فى القطاع الجنوبى من المدينة (شكل رقم (٣) أ ، (رقم ٩) . ويبدو أن الهدف من إقامة هذا الباب هو تصريف مياه الأمطار المتدفقة فى هذه المنطقة لتتحد نحو بحر أبى السول حتى لا تكتسح مياه الأمطار المنشآت التى كانت قائمة فى تلك المنطقة لاسيما جامع المدينة . وكان يتقدم هذا الباب برج يعرف ببرج الماء، شيده السلطان المرينى أبو الحسن ، بهدف التحكم فى حركة المراكب التى كان تحط فى ساحل سبته الجنوبى (راجع ابن مرزوق (محمد التلمسانى) المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن : الجزائر ١٩٨١ . ص ٣٩٩ .

(٧٨) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢١ .

(٧٩) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٨٠) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٨١) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٠) وتجدد الإشارة إلى أن موقع هذا الباب خارج المدينة يتفق مع ما جرت عليه العادة فى معظم مدن الغرب الإسلامى حيث كان القصابون أو اللحامون (الجزارون أو باعة اللحوم) يشترون الدواب حية من تجار المدينة ثم يسوقونها إلى مذابح تقع خارجها ، ثم تحمل إلى حوانيت القصابين بالسوق (السقطى) (أبو عبد الله محمد بن أبى محمد) كتاب آداب الحسبة نشر كولان وليفى بروفنسال . باريس ١٩٣١ . ص ٩٠) وكانت حوانيت القصابين فى سبته تقع بالقرب من الباب المذكور ،

فكان ذلك سبباً في أن يطلق اسمهم على الحى الذى كان يرتبط بذلك الباب عبر طريق يصل بينهم (شكل رقم (٣ أ - رقم ١٢) .

(٨٢) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢١ .

(٨٣) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة في آداب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة عبد الحميد العبادى . المطبعة الأميرية ١٩٥١ . ص ٨٩ .

(84) Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanas Pulibicado Por instituto Hispano arabe de cultura Madrid. Sin Fecha V.I. p, 179.

Torres Balbas : aspectos de la ciudades Hispano Musulmanas : Revista del instituto Egipcio de Estudios islamicos en Madrid Vol, II, Madrid. 1954. p 92.

كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية في طليطلة في العصر الإسلامى ص ٧٨-٧٩ .

(٨٥) الحارة في اللغة محلة متصلة المنازل تدل على معنى الحومة (أى الحى) فى عرف أهل

المغرب . أما فى العامية المغربية فتدل على حفير تلقى فيه جيف الدواب ، يكون بعيداً

عن المدن حتى لا تؤذى السكان (الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة عبد الوهاب بن

منصور ص ٤٣ هامش ٨٧ .

(٨٦) اختلفت الآراء حول تفسير كلمة (الكسابون) فمنهم من يرى بأن صحتها الكناسون

(الأنصارى: اختصار الأخبار نشرة محمد بن تاويت . ص ٥٨ هامش ٥٧) بينما يرى

الأستاذ خواكين بالين أن المقصود بالكسايين هم رعاة البقر ، والقصابون أى باعة

اللحوم (الجزارون) . ودليله على ذلك أنه ورد فى المدونات المسيحية ما يشير إلى أنه

كان يوجد فى هذا الموضع حظيرة مسورة للمواشى ، يشغل مكانها الآن رصيف يعرف

برصيف أسبانيا ، حيث ترسو عبارات أو مراكب الجزيرة الخضراء . Joaquin

Vallve: opcit, p. 429 No T . 93. (راجع شكل رقم (٣ أ رقم (١٢) حيث

الإشارة إلى مكان القصابين .

(٨٧) شكل رقم (٣) أ رقم (١٥) حيث الإشارة إلى موضع حافة الغدر .

(٨٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٢٠ ، كذلك راجع شكل رقم (٣) وشكل رقم (١) أ ،

ب .

(89) Carlos Gozalbes : ceuta Hispano Portuguesa, p. 195.

(٩٠) الأنصارى . ص ١٤ .

(٩١) شكل رقم (٤) .

(٩٢) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 195 - 196.

(٩٣) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٦ .

(٩٤) هذا الكتاب فى فضل النبى ﷺ وفضل صحابته . ويقال إنه أقدم مؤلف مغربى معروف

إلى الآن . ويوجد منه الجزء الثانى محفوظاً بالخزانة الحسنية تحت رقم ٥٧٣٣ وكان فى

ملك عبد العزيز بن أبى بكر بن عبد الكبير الفرديسى . (راجع الأنصارى اختصار

الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٢٢ . حاشية (٣١) .

(٩٥) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٦ .

وعن ترجمات شخصيات العلماء وأصحاب تلك المقابر راجع ص ٢٣ من نشرة عبد

الوهاب بن منصور .

(٩٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .

(٩٧) نفس المصدر ص ١٤ (شكل رقم (١٠) رقم (٨)) .

(٩٨) نفس المصدر ص ٢٢ وكذلك راجع شكل رقم (١٠) حيث ورد فى المخطط الخاص

بمراكز عمران مدينة سبته أن منطقة الأرباض الثلاثة الداخلية كانت تضم أيضاً مسجداً

يعرف بمسجد الموثقين Mezquita de lo Notarios (رقم ١٠) نسبة إلى موضع

يعرف بسماط العدول الموثقين القريب من سوق العطارين (الأنصارى : ص ١٤) .

كما ورد فى المخطط ما يشير إلى وجود المدرسة الجديدة (رقم ٥) وحمام القائد (رقم

٤) وباب الربض الأسود (رقم ١٦) فى تلك المنطقة .

(٩٩) جمع حفير وهو الخندق ، وينطق به عوام المغرب مبربراً (١ حفير) راجع نشره عبد

الوهاب بن منصور ص ٤٦ . هامش (٩٨) .

(١٠٠) جمع شطاب وصانع الشطابة أى المكتسة (راجع نشره عبد الوهاب بن منصور

ص ٤٦ . هامش ٩٨ .

(١٠١) يبدو أن تلك السلسلة من الحفائر قد أقيمت بصورة رئيسية لدرء أى هجوم قد يقع من

ناحية الغرب فأول عائق كان يترتب تذليله على القوات المهاجمة من هذه الناحية هو

الربض البرنى ، وهناك كان يترتب عليها أن لا تواجه التحصينات فحسب بل أيضاً

حفيراً يحيط بها وكان من ورائه حفير ثان يفصل الربض البرانى عن بقية سبته . (ج.د.

ليثام . موقع سبته الاستراتيجى . ترجمة أمين توفيق الطيبي « بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته ص ٢٧ .

(١٠٢) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢١ .

(١٠٣) لمزيد من التفاصيل عن سمات شوارع مدن المغرب الإسلامى ونظامها التخطيطى راجع Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 93 - Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanes. V,I p.p 327 - 328 p. 335 p, 340.

(١٠٤) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ١٢ .

(١٠٥) هو محمد بن عيسى بن حسين التميمى السبتي ويكنى ابا عبد الله ، وكان من أهل العلم والفضل وتولى القضاء بسبته وبفاس أيضاً . وقد توفى فى سنة ثلاث أو أربع وخمسمائة وقيل فى سنة « خمسة » وخمسمائة « وكان مولده سنة » ثمان وعشرين وأربعمائة (راجع ابن بشكوال . (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة «نشر الدار المصرية» للتأليف والترجمة . « القاهرة » ١٩٦٦ . ج ٢ . ص ٦٠٥ ترجمة رقم ١٣٢٧) . (راجع شكل رقم (٣) أ رقم (٢٠) ، شكل رقم (١٠) رقم (٩) .

(١٠٦) هو إبراهيم بن أبى العيش بن يربوع السبتي ويكنى أبا إسحاق ، وكان من فقهاء سبته فى القرن الخامس الهجرى . وقد توفى فى سنة ٤٣٠ هـ (ثلاثين وأربعمائة) وهو ابن ثمان وسبعين سنة وقيل أنه توفى سنة ٤٣٣ هـ (سنه ثلاث وثلاثين وأربعمائة) . راجع ابن بشكوال ج ١ نفس المصدر . ص ١٠١ ترجمة رقم (٢٣٠) .

(١٠٧) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ١٣ . أما أبو القاسم بن الشاط فقد ولد بمدينة سبته عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م وتوفى بنفس المدينة عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م . (راجع ترجمته فى

(Joaquin Vallve. Opcit, p. 420. Not. 74

(١٠٨) نفس المصدر ص ١٥ .

(١٠٩) وردت فى نشره محمد بن تاويت بأنه خندق أيمن ص ٨٤ .

(١١٠) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ١٢ ويوجد مكان هذا الخندق الآن أحد أودية المدينة.

راجع . Joaquin vallve: Opcit. 420. Not 70

(١١١) الأنصارى : ص ١٣ .

(١١٢) شاع فى بلاد المغرب والأندلس الاستعانة بهؤلاء الداربيين فى حماية الأزقة من اللصوص حيث أكد على ذلك المغزى بقوله (لأن بلاد الأندلس لهادروب بإغلاق تغلق

بعد العتمة . ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد . وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم واغياتهم (راجع المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق : إحسان عباس . دار صادر بيروت ١٩٨٨ . ج ١ ص ٢١٩ ، ومن طريف ما يذكر أن عادة إغلاق الأبواب مازالت متبعة حتى الآن في أسبانيا منذ الساعة العاشرة ليلاً بواسطة درابزين يعرفون باسم سيرنيوس Serenos وعلى كل من يريد الخروج أو الدخول أثناء الليل أن ينادى هذا الحارس الليلي بواسطة التصفيق (راجع أحمد مختار العبادي : الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية . مقال ضمن كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية العربية . الطبعة الثانية دار ذات السلاسل ١٩٨٦ . ص ٣١٥ .

(١١٣) الأنصاري : ص ١٣ حيث الإشارة إلى زقاق ابن عيسى أشهر أزقة مدينة سبته والمعروف عندهم بزقاق الأكابروية يضرب المثل بينهم متسع المساحة يحتوى على أزقة ودروب وقصور ملوكية ومصانع هائلة وفيه أربعة وعشرون حماماً ، حمامان مبرزان وباقي العدد بدور السادة من الشرفاء.

(١١٤) الأنصاري : ص ١٥ - ١٧ .

(115) Carlos Gozalbes cravioto: La Madinao Nuclo urbano central en la ceuta Hispano Musulmana , cuadernos del archivo Municipal de ceuta año, II No, 4. 1989. p,. 47.

(١١٦) شكل رقم (١٠) رقم ٩ ، لوحة (٤) .

(١١٧) الأنصاري : ص ١٣ .

(١١٨) شكل رقم (١٠) رقم ٨ .

(١١٩) شكل رقم (١٠) رقم (١٠) .

(120) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 47 - 48.

(121) I Bid. P, 47 .

(١٢٢) الأنصاري : ص ١٤ حيث الإشارة إلى سوق العطارين الأعظم وسماط العدول الموثقتين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما يجوفى الجامع الأعظم والقيسارية خلف ذلك . وفي موضع آخر أشار الأنصاري إلى أهمية تلك المنطقة بمناسبة حديثه عن سقايات المدينة بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة الساقية التي بطرف العطارين وأول سماط العدول بازاء باب الشوائين من أبواب الجامع) . الأنصاري ص ١٧ .

(١٢٣) لم يرد في نشرة ليفي بروفنسال تاريخ صناعة هذا المنبر في المتن وإنما أشار في الحاشية إلى ذلك هكذا (في الطره كان صنع هذا المنبر في شعبان المكرم سنة ٤٠٨ هـ - الأنصاري نشرة بروفنسال - ص ٩) على حين ورد تاريخ صناعة هذا المنبر في المتن في نشرة كل من محمد بن تاويت وعبد الوهاب بن منصور على النحو التالي (ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة صنع في شعبان المكرم سنة ثمان وأربعمائة) راجع نشرة محمد بن تاويت ص ٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٢٨ .

(١٢٤) تضمنت نشرة كل من ابن تاويت وعبد الوهاب بن منصور الإشارة إلى تاريخ صناعة المقصورة المذكورة على النحو التالي (والمقصورة الهائلة الغريبة الشكل (كان صنعها في رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (٤٢٨ هـ) . راجع نشرة ابن تاويت ص ٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٢٨ .

(١٢٥) الأنصاري : نشرة بروفنسال ص ٩ .

(١٢٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ٢) ، شكل رقم (١٠) رقم (٣) .

(127) Carlos Gozalbes: la Medina o Nucleo urbano central en la ceuta hispanomusulmana. p. 63

وكذلك راجع أمين توفيق الطيب. احتلال البرتغاليين مدينة سبتة المغربية ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م مقدماته ودوافعه ونتائجه (مقال ضمن كتاب دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية ص ١٣٣ .

(١٢٨) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ١٠٣ - ١٠٤ ، وكذلك راجع (مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار) ص ١٣٧ ، الحميري : الروض المعطار ص ٣٠٢ .

(129) Joaquin vallve: Decripcion de ceuta Musulmana. p. 414. Not. 56.

(١٣٠) مؤلف مجهول : الحلل الموشيه ص ٥٨ - ٥٩ .

(١٣١) ابن عذارى البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٤ تحقيق إحسان عباس بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣ ص ٥٨ .

(١٣٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص ٦٧ .

(١٣٣) الأنصاري : نشرة بروفنسال ص ٩ .

(١٣٤) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص ٥٩ .

(١٣٥) عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ج١ ص ٣٢٠ .

Christin Ewert: Die Moschee am Bab al Mardum in toledo. Emi
kopic. der Moschee vceu cordoba. Hidberg 1994. p. 352.

كمال عناني إسماعيل : العمارة الإسلامية في طليطلة في العصر الإسلامي ص ٢٢٤ .

(١٣٦) هو عياض بن موسى بن عياض البحصي من أهل سبته ويكنى أبا الفضل ، وقد كان

من كبار أعلام سبته إذا كان من أهل العلم والذكاء واليقظة ، وقد تولى قضاء سبته مدة

طويلة حمدت سيرته فيها ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة . وقدم إلى قرطبة في ربيع الآخر

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة . وقد ولد في منتصف شعبان سنة ست وسبعين

وأربعمائة وتوفي أواسط سنة أربع وأربعين وخمسمائة (لمزيد من التفاصيل راجع ابن

بشكوال كتاب الصلة القسم الثاني ص ٤٥٣ - ٤٥٤ - ترجمة رقم ٩٧٤) .

(١٣٧) عياض (أبو الفضل عياض بن موسى) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام

مذهب مالك . تحقيق أحمد بكير محمود منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥

ص ١٩ .

(١٣٨) الأنصاري : نشرة بروفنسال - ص ٩ .

(139) Terrassi: les Monuments de ceuta, p. 445

(١٤٠) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ١٠٣ .

(١٤١) أحمد فكري : مساجد الإسلام (مسجد القيروان) نشر دار المعارف . القاهرة ١٩٣٩

ص ١٩ .

(١٤٢) أحمد فكري : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ج١ نشر دار المعارف ١٩٦٩

ص ٣٥٨ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي . نشر مؤسسة

شباب الجامعة . إسكندرية . ١٩٨٢ ص ٣٥٢ .

(١٤٣) سالم : قرطبة . ج١ . ص ٣٤٨ .

(١٤٤) الأنصاري : نشرة بروفنسال ص ١٠ - ١١ أما عن أبي القاسم العزفي فهو محمد بن

أحمد بن محمد اللخمي العزفي ولد بسبته في منتصف شوال . عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م .

وتولى إمارتها في ٢٧ رمضان عام ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م في دولة الخليفة الموحد المرتضى .

وتوفي في ١٣ ذي الحجة عام ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م . وهو الذي أكمل كتاب الدر المنظم

في مولد النبي المعظم الذي بدأ والده القاضي أحمد العزفي تأليفه (راجع . المقرئ ،

أزهار الرياض . ج ٢ . ص ٣٧٤ - ٣٧٧ ، كذلك راجع . اختصار الأخبار . نشره عبد

الروهاب بن منصور ص ٣٠ هامش (٥٠) .

(١٤٥) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص ٦ .

(١٤٦) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص ٣ .

(١٤٧) نفس المصدر . ص ٥ .

(١٤٨) نفس المصدر . ص ١٠ .

(١٤٩) نفس المصدر . ص ٢١ .

(١٥٠) نفس المصدر ص ٢١-٢٢ حيث وصف الأنصارى المصلى الكبير بقوله (وأشرفها

وأسنها المصلى الكبرى مصلى المدينة . ومن ما اتصف به هذا المصلى كونها (كونه)

خارجة عن المدينة داخلية فى حكمها فوجه خروجها أنها خلف السور فى براح متصل

بأرض عظيمة الاتساع مشتملة على جنات ودمن ومجاشر وجبال وخنادق وشعار وسوى

ذلك دور الجميع سته أميال فصارت المصلى فى حكم الصحراء على السه فى ذلك) .

(١٥١) نفس المصدر . ص ٢٢ .

(١٥٢) نفس المصدر ص ٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى اتصال استخدام المصلى الكبير فى

أوقات الفتن بقوله (ووجه دخولها هو أن البراح الموصوف بما اتصل به منقطع فى وسط

البحر فلا يلحق أحد فى هذه المصلى خوف من عدو عاد ولا تعطل من إقامة الصلاة فى

أيام الفتن والقتال ، وفى حالة الحصر والتزل بخلاف غيرها) . ويبدو أن الأحداث

السياسية والحربية التى تعرضت لها سبته فى عصورها المتتابعة أثرها المباشر فى تشييد هذا

النوع من المصليات .

(١٥٣) نفس المصدر . ص ٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى المصلى الملكى بمدينة سبته بقوله

(وفىها بأعلى حافة الغدر المصلى الملوكية المتسعة المستوية الأرض المشرفة على البحر

هنالك المختصة بسكان أفراك من الأمراء والأجناد وغيرهم وبها كان يصلى السلطان أبو

الحسن المرىنى بجيشه) .

(١٥٤) نفس المصدر . ص ٢٢ .

(١٥٥) محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٨٨ .

(١٥٦) أمين توفيق الطيب : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته المغربية . ص ٥٥ .

- (١٥٧) البكرى : المغرب فى وصف أفريقيا والمغرب . ص ١٠٣ .
- (١٥٨) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب . ص ١٠٢ .
- (١٥٩) المقرئ : نفح الطيب . ج ٤ . ص ١٤٥ .
- (١٦٠) نفس المصدر . ج ٣ . ص ١٨٦ .
- (١٦١) هو على بن محمد بن على بن محمد بن يحيى الغافقى من أهل سبتة وبها ولد ويعرف بالشارى نسبة إلى شاره فلين معقل بجوفى مرسية ومنها أصل سلفه وكان انتقال والده محمد منها إلى سبتة سنة ٥٦٢هـ حيث سمع من العلماء والأدباء بسبتة وفاس وغيرهما من بلاد المغرب (راجع اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٢٧ حاشية (٤٤) - وقد أشار ابن الخطيب إلى شخصية الشيخ على الشارى بما يفيد بأنه كان جماعه للكتب وذلك بقوله (انتقى منها جملة وافرته فى مدرسته التى احدثها وعين لها من خيار املاكه وجيد رباعه وقفاً صالحاً سالفاً فى ذلك ما بين أهل المشرق راجع ابن الخطيب الإحاطة فى أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - القاهرة ١٩٧٧ - ج ٤ ص ١٨٨) ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع محمد بن تاويت . تاريخ سبتة Joaquin vallve: Descripcion ceuta Musulmana p, 409. ، ٨٨ ، Not. 34
- (١٦٢) الأنصارى : ص ٩ أما السلطان المرينى أبو الحسن فهو أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (تولى فى الفترة من (٧٣١هـ / ١٣٣٠ م - إلى ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م) وقد كان مجاهداً فى سبيل الله واستطاع أن يوحد المغرب تحت سلطانه ثم اتجه بجيوشه نحو الأندلس لغزو الأراضى المسيحية ، غير أن الجيوش الأسبانية انتصرت عليه فى موقعه بالقرب من مدينة طريف وذلك فى عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠ م . وبعد هذه الهزيمة ثار المغرب الأوسط عليه كما ثار عليه ابنه فارس أو عنان . ولم يتحمل السلطان أبو الحسن هذه الكوارث المتلاحقة فمات حزناً شهيداً عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م) . ولهذا السلطان آثار معمارية كثيرة فى المغربين الأوسط والأقصى وبالأندلس . ومن آثاره الهامة بسبتة فضلاً عن المدرسة الجديدة برج الماء ببحر السول من ساحل سبتة الجنوبي (ولمزيد من التفاصيل عن هذا السلطان راجع ابن مرزوق : المسند . ص ٣٣٩) وقارن تاريخ وفاته فى كتاب روضة النسرین فى دولة بنى مرين لأبى الوليد إسماعيل بن الأحمر ص ٢٥ حيث الإشارة إلى أنه توفى بعد التاريخ الذى حدده ابن مرزوق وذلك فى عام ٧٥٢هـ / ١٣٥١ م ،

كذلك راجع المقرئ : المصدر السابق . جـ ٤ . ص ٤٠٠-٤٠٤ ، ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ص ١٢٣ - ١٢٤ حاشية (٤) .

(١٦٣) الأنصارى - ص ٩ .

(١٦٤) ربما قصد بها ميضأه المدرسة التى من المحتمل أنها كانت تشتمل إلى جانب تلك المطهرة على مراحيض عبر عنها الأنصارى بالبيوت الثمانية . فالميضأه فى عرف أهل المغرب اسم جامع لمكان التغوط والوضوء ويسمى أيضاً مطهرة أى مكان الطهارة وإذا كان خاصاً بالتغوط سمي بيت الماء . وكلمات المرحاض والكنيف والمستراح كلمات عربية طرأت حديثاً على ألسنة الناس (راجع اختصار الأخبار نشره : عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٠ حاشية (٤٥) .

(١٦٥) المقصود بهذا النقيير الأحواض أو الصهاريج الخاصة بحفظ المياه . وقد تعنى فى رأى الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتلة من الحجر أو الرخام منقورة الوسط تكون بالميضأت والمظاهر ينصب فيها ماء الاستنجاء من عيون أو أنابيب (الأنصارى : اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور . ص ٤١ حاشية (٧٧) .

(١٦٦) يطلق على هذه الكلمة فى اللغة الأسبانية Azulejas أى الزليج . بمعنى القراميد أو البلاطات الخزفية وتعرف فى العراق باسم القاشانى وفى مصر باسم الزليزلى (محمد عبد العزيز مرزوق . الفنون الزخرفية فى المغرب والأندلس بدون تاريخ ص ٧٦ - ٧٨ حاشية (١) . كما تسمى عند الأوربيين بالمزيكو ويقال فى بعض المدن المغربية الزلايج وصانعه زلايجى جمع زلايجيه واشتقوا منه زليج المضعف . ويقال زليج فلان دار . بمعنى رصفها بالزليج (راجع اختصار الأخبار نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٤١ حاشية (٤٨) .

(١٦٧) قد يكون صحتها مؤنقة حيث وردت على هذا النحو فى نشره عبد الوهاب بن منصور . راجع ص ٤١ .

(١٦٨) البابونج نبات عشبي من فصيلة المركبات يستعمل فى الصباغة أو التداوى (المعجم الوسيط ج ١ . الطبعة الثالثة بجمع اللغة العربية . ص ٣٧ . وقد فسر أحد مؤرخى الفن نور البابونج على أنه التوريقات النباتية التى كانت تكسو قبه الميضأة والتى كانت منقوشة نقشاً غائراً بحيث تجسمت فبدت لمن يتأملها كأنها رسوم حيه مجسدة) .

Corlos Gozalbes - Ia Medina o Nuclo urbano central en La ceuta p. 55.

(١٦٩) الأنصارى . ص ١٨ .

(170) Mascarenilas: jeronimo de Historia de la ciudad de ceuta. Lisboa. 1918. p. 17.

(171) Carlos Gozalbes . op. cit, p. 56

(172) Mascarenilas: Op .cit, p.p 24 -25 .

(١٧٣) راجع هامش (٨) من البحث ص ٢٩ .

(174) Carlos Gozalbes: opcit. p. 58.

(١٧٥) شكل رقم ((١١)) .

(176) Carlos Gozalbes: opcit. p.p 59 - 60

(١٧٧) الأربطة مفردتها رباط وتجمع على أربطة ورباطات وربط . وهى لفظة تعنى فى الأصل إعداد الخيل وربطها وملازمة ثغور العدو تأهباً للجهاد فى أية لحظة . وعلى هذا فإن الرباط بناء عسكري ديني شيد ليكون مقراً للمجاهدين فى سبيل الله . ولكن مع فتور الهمم أصبح مأوى للمنصرفين إلى ذكر الله وللمتعيشين على نفقة السلطان ولأبناء السبيل (عبد الرحيم غالب موسوعة العمارة الإسلامية ص ١٩٥-١٩٦) ولهذا فقد كانت تشمل مساكن لهؤلاء الزهاد ومسجد لأداء الصلوات . وكانت إلى جانب أنها مؤسسات صوفية كانت أيضاً معاهد علمية لتدريس العلوم الدينية . وكان لكل رباط شيخ يرأسه وله خادم يتولى العناية بالرباط . وعلاوة على دور الربط فى حماية الثغور والسواحل كانت تستخدم أيضاً كمراكز للإنذار وإرسال الأخبار الملحة فى حالة تعرض البلاد للخطر . ويؤكد ذلك قول المقرئى (ولما ولى إبراهيم بن محمد بعد الأغلب أفريقية فى سنة احدى وستين ومائتين حسنت سيرته فكانت القوافل والتجار تسير فى الطريق وهى آمنة . وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبته إلى الإسكندرية فيصل الخبر منها إلى الإسكندرية فى ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر) (راجع المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . نشر مكتبة الثقافة الدينية . الطبعة الثانية. ١٩٨٧ م ج١ ص ١٧٤ . وعن الاشارات التى كانت تستخدم فى إرسال الأخبار يذكر المقدسى (وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم وينهبون إليهم من الرسائل ويحمل إليهم أصناف الأطعمة فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهراً دخنوا . ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقه قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد انفز بالقصبة وضرب الطبل على المنارة) ، راجع المقدسى (شمس الدين بن عبد الله محمد المقدس) أحسن

التقاسيم فى معرفة الأقاليم : طبعة ليدن ١٩٠٦ م ، دار صادر بيروت ص ١٧٧ . ولمزيد من التفاصيل عن الرباط : نشأته وتطوره راجع (فريد شافعى العمارة العربية فى مصر الإسلامية (عصر الولاة) المجلد الأول نشر الهيئة المصرية ١٩٧٠ ص ٥٢٩ - ٥٣١ ، كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر . الطبعة الثانية . نشر الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٣ . ص ٩ ، حسين مجيب المصرى : أثر الفرس فى حضارة الإسلام ، مقال ضمن دراسات فى الحضارة الإسلامية . ج ١ . القاهرة ١٩٨٥ ص ١٩٦ .

(١٧٨) تقابل الزاوية فى المغرب الإسلامى الخانقاه فى المشرق أى أن كليهما يودى وظيفة واحدة كميان للمتصوفة الذين يريدون أن يقضوا بقية حياتهم للعبادة . ويؤكد تطابق وظيفة الزاوية فى المغرب مع وظيفة الخانقاه فى المشرق ما ذكره ابن بطوطة عن كثرة الزوايا فى مصر بقوله (وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق وأحدثها خانقة والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا) (راجع ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . تحقيق محمد عبد المنعم العريان . ومراجعة : مصطفى القصاص . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٩٢ . ج ١ ص ٥٦ ، محمد محمد الكحلاوى : آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين . الدار المصرية اللبنانية . الطبعة الأولى ١٩٩٤ . ص ٩٧ .

(١٧٩) اشتد تيار التصوف بمدينة سبته منذ عهد المرابطين وازداد عدد المتصوفة سواء منهم السبتيون أصلاً ومنشأً والأندلسيون الوافدون عليها مقيمين أو عابرين . ومن بين أشهر هؤلاء المتصوفة أبو العباس أحمد العزفى الذى كان فقيهاً وعاملاً محدثاً وقاضياً (راجع المقرئ . أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . القاهرة ١٩٤٠-١٩٤٥ ج ٢ ص ٣٧٥ . وقد تولى التدريس طيلة حياته فى المسجد الجامع بسبته . ويشتهر أبو العباس أحمد العزفى بأنه كان أول من أدخل الاحتفال بعيد المولد النبوى الشريف إلى الأندلس (راجع المقرئ نفس المصدر ج ١ ص ٣٩ ، ٢٤٣) ولمزيد من التفاصيل عن انتشار تيار التصوف وكثرة المتصوفة بمدينة سبته راجع محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٦٠-٦٢ .

(١٨٠) وردت هذه الكلمة فى نشرة عبد الوهاب بن منصور (شرحاً) وهى عبارة عن نافذة تفتح فى جدار بيت أو غرفة للتهوية والترزين . وقد ثبت بها قضبان من حديد فى أشكال جميلة لمنع الدخول منها والخروج تسمى حيض شباك . وإذا كانت مجرد كوة صغيرة فهى الطاقة ، ويكتب الأدباء الشرحب وينطقون به بشين مثلثة وعند العوام بسين

- (راجع الأنصارى ، نشرة محمد بن تاويت ص ٣١ هامش (٥٣) وكذلك راجع ابن الرامى : الإعلان بأحكام البنيان دراسة أثرية معمارية ، تحقيق محمد عبد الستار عثمان نشر دار المعرفة الجامعية . إسكندرية ١٩٨٩ . ص ١٨٦ .
- (١٨١) الكذان : نوع من الحجارة فيها رخاوة وربما كانت نخرة مثل الأحجار الرملية الموجودة بشطوط الأنهار ومجارى المياه وتسمى الكذان بالبربرية (تافزة) وقد يطلق على الصلصال المتحجر المتعقد من صعود البخار داخل الأباريق والبراريد عند غليان الماء وهو ما يسمى عند البربر أيضاً (بتافكرة) (راجع الأنصارى : نشرة محمد بن تاويت ص ٣١ حاشية رقم (٥٤) . وقد عم استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغرب والأندلس لاسيما فى بناء الجدران وتبليط الأرضيات (عبد الرحيم غالب : المرجع السابق . ص ٢٣) .
- (١٨٢) فريد شافعى . العمارة العربية ص ٥١٣ .
- (١٨٣) الأنصارى نشرة بروفنسال ص ١١ حيث الإشارة إلى هذا الرباط بقوله (وإلى جانبها) أى رابطة الصيد) رابطة أخرى على شكلها ومثلها وفى وسطها القبر المعروف بقبر حيدة (صيدة) جارية لأحد أمراء الموحدين . وعلى القبر قطعة رخام أبيض فى طول اثنى عشر شبراً وارتفاع خمسة أشبار أو ما يقرب منها ويجوانبها خمسة أدراج منجورة ظريفة الصنعة .
- (١٨٤) المقرئ : ترتيب المدارك . ج ١ . ص ١٩ .
- (١٨٥) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١-١٢ حيث الإشارة إلى هذه الزاوية بقوله (ومن الزوايا الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبى الحسن بخارج باب فاس وأعدّها هنالك للغرباء ولمن اضطر إلى البيت بها من التجار أو غيرهم . ملوكية البناء كثيرة الزخرفة والتنميق متسعة المساحة متعددة المساكن وصومعتها من أبدع الصوامع بسبته وأتمها إحكاماً) .
- (١٨٦) البكرى : وصف أفريقية . ص ١٠٣ .
- (١٨٧) يطلق على القصبة الأسبانية Alcazaba أو المدينة Almudiana تصغير للفظ مدينة والاسم الثانى وإن كان أقل شيوعاً من الأول فهو كثير فى مختلف مدن أسبانيا الإسلامية (محمود على مكى : مدريد العربية . وزارة الثقافة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف

والنشر . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بدون تاريخ ص ٧٤-٧٥ ويلاحظ أن كلمة قصبة لها معنى آخر حيث كانت تطلق على الشارع الأعظم فى بعض المدن كالقاهرة ، وأحياناً أطلقت على قطاع مستوى من هذا الشارع الأعظم بها وكان له صفة تجارية بارزة كأن يقال قصبة رضوان وكانت تطلق أيضاً على المدن الكبيرة وفى الأقاليم كأن يقال صنعاء قصبة بلاد اليمن (راجع . محمد عبد الستار عثمان . المدينة الإسلامية . عالم المعرفة . (الكويت) . عدد ١٢٨ . أغسطس ١٩٨٨ . ص ١٦٧ .

(١٨٨) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ومراجعة عبد الحميد العبادى . مطبوعات كلية الآداب . جامعة فاروق الأول إسكندرية . ص ٧٩ ، ٩٦-٩٧ .

(١٨٩) راجع ص ٣٥٦ هامش ٥٤ من البحث .

(١٩٠) ابن خلدون . تاريخ ابن خلدون . بيروت ١٩٧٩ ج ٧ . ص ٢٤٧ .

(191) Carlos Gozalbes: opcit. p. 50.

(192) Pavon Maldonado: arte Hispano Musulman en ceuta y tetuan p.72 .

(١٩٣) شكل رقم (٣) ب (رقم ١١) .

(١٩٤) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٢) .

(١٩٥) شكل رقم (١٢) .

(١٩٦) شكل رقم (١٣) .

(١٩٧) البكرى : وصف أفريقيا . ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى هذا البرج وبابه بقوله (ولها

باب ثانى مما يلى الجوف فى برج يعرف ببرج سابق يدخل منه إلى دار الإمارة) .

(198) Carlos Gozalbes : opcit. p.p 49-50

(١٩٩) الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٤ ، ١٨ .

(٢٠٠) نفس المصدر . ص ١٩ حيث الإشارة إلى عدد المطامير (أى مكان طمر القمح خاصة

وخزن الغلال) المعدة لخزن الزرع والتي تبلغ أربعون ألفاً مفرقة بالديار .

(٢٠١) نفس المصدر ص ١٤ حيث الإشارة إلى أنه كان بكل دار من ديار سبته حمام ومسجد

إلا القليل .

(٢٠٢) المصدر السابق ص ١٩-٢٠ .

(203) Torres Balbas: algunos aspectos da la casa Hispano musulmano. Alandalus. V,XV. 1950 p. 185 .

(204) Torres Balbas : ciudades Hispanomusulmanas V,I p. 31 .

(205) Torres Balbas: opcit. p. 179.

وكذلك راجع كمال عناني إسماعيل ، العمارة الإسلامية بمدينة طليطلة ص ١٦٤ .

(٢٠٦) الأنصارى : اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٥ .

(٢٠٧) الأنصارى نفس المصدر . ص ١٣٥ .

(٢٠٨) ربما صحتها المئات .

(٢٠٩) المسلخ لغويا يعنى المكان المخصص للراحة وتناول المشروبات وكانت تعقد فيه

حفلات السمر (عبد الله البستاني . معجم البستان . ج ١ بيروت ١٩٢٧ ص ١١٢١ -

١١٢٢ وقد تعنى خلع الثياب والتأهب للانتقال إلى الغرفة الثانية ثم ارتداء هذه الثياب

قبل الخروج من الحمام . ولذلك فهى تقابل فى الحمامات الرومانية Apdoyierum

وفى هذه الحالة كانت تزود بخزائن أو طاقات غير نافذة توضع فيها الملابس ولوازم

المستحمين (عبد الرحيم غالب . موسوعة العمارة الإسلامية ص ١٤٠) . وقارن

الأنصارى اختصار الأخبار . نشر محمد عبد الوهاب منصور ص ٣٤ جاشية (٦٣) حيث

الإشارة إلى أن المسلخ تعنى المكان الذى يجرد فيه المستحمون من ثيابهم قبل دخول

الحمام . ويسمى اليوم فى العامة المغربية الجلسة .

(٢١٠) وردت فى نشرة عبد الوهاب بن منصور هذه الكلمة على أنها (مرتبة بدلاً من مؤلفه)

ص ٣٤ .

(٢١١) المراد هنا بالطيفور الجفنة أو الحوض أو البيله/ الرخامية المستديرة المرتفعة التى يفور

منها الماء وينزل إلى الصهريج (راجع الأنصارى : اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب

ابن منصور ص ٣٥ جاشية (٦٤) ، أما الطيفور أو التيفور فيعنى فى المصطلح الفنى الطبق

أو الصحن الكبير العميق الذى يقدم فيه الطعام لاسيما اللحم . وقد انتقل هذا اللفظ

العربى إلى اللغة الأسبانية بهذه الكلمة Ataifor . وكان هذا اللفظ يدل فى غرناطة

الإسلامية على نوع من الموائد الصغيرة (سيكودى لو ثينا : وثائق عربية غرناطية :

صحيفة المعهد المصرى فى مدريد ١٩٥٦ . ص ١٧٧ جاشية (١) .

(٢١٢) الأنصارى : المصدر السابق . ص ١٣-١٤ .

(٢١٣) تنقسم حمامات المغرب والأندلس إلى نوعين ، الأول يتألف من أربع قاعات هى بيت المسلخ والبيت البارد والوسطانى والساخن ، أما النوع الثانى فلا يشتمل على قاعة المسلخ التى كان يستعاض عنها بممر طويل مقبى يفضى إلى الغرف الثلاثة الأخرى

(Pavon Maldonado: Tratado de Arquitectura Hispano Musulmana. Madrid 1990. p. 311.)

(٢١٤) كمال عنانى إسماعيل : الحمامات الإسلامية فى الأندلس (دراسة أثرية) بحث تحت الطبع .

(٢١٥) ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) : كتاب صورة الأرض . طبعة ليدن ١٩٣٨ . ص ٧٨-٧٩ .

(٢١٦) البكرى : وصف أفريقيا . ص ٣-١-٤-١ .

(٢١٧) الادريسي : نزهة المشتاق . ج ٢ . ص ٥٢٨ .

(٢١٨) مؤلف مجهول : الاستبصار . ص ١٣٧-١٣٨ .

(٢١٩) قارن نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٤٠ حيث الإشارة إلى هذه الكلمة على أنها العنابيب بدلاً من الأنابيب والعنوب فى نطق عوام المغرب لفه فى أنبوب يقصد بها القناة التى يخرج بها الماء مطلقاً من القادوس إلى الساقية . وإذا كان الماء يخرج منها مقيداً بإدارة لولب سميت بزبوراً أى ما يعادل الحنفية أو الصنبور عند أهل المشرق (راجع نفس المصدر . ص ٤٠ هامش (٧٣) .

(٢٢٠) أى للعموم مجازاً بدون مقابل . وأهل المغرب يطلقون كلمة السبيل على كل مرفق من المرافق العامة أو لكل شئ معد للعموم . حيث يقال جنان السبيل للحديقة العمومية ، وكذلك ماء السبيل ، واشتقوا من الكلمة فعل سبل المضعف ومعناه إعطاء الشئ وهبته من غير مقابل حيث يقال سبل فلان قربة الماء وسبل نفسه فى سبيل الله (راجع اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٠ هامش (٧٤) .

(٢١٢) الأنصارى : اختصار الأخبار نشره بروفنسال . ص ١٧ - ١٨ .

(٢٢٢) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية . ص ٢٨١ .

(٢٢٣) ابن سعيد المغربى . كتاب الجغرافيا . بيروت . ١٩٧٠ ص ١٣٩ نقلاً عن أمين توفيق

الطبيى النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبتة ص ٤٨ حاشية (١٨) .

(٢٢٤) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . ص ١٠٢ .

(٢٢٥) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) : رحله ابن جبير . دار صادر بيروت ص ٨
حيث الإشارة (فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثانى يسر الله علينا فى عيون البحر
إلى القصر مصمودة تيسيراً عجيباً . ونهضنا منه إلى سبته غدوة يوم الأربعاء الثامن
والعشرين منه والفينا بها مركباً للروم الجنويين مقلعاً إلى الأسكندرية بحول الله عز وجل
فسهل الله علينا فى الركوب منه) كذلك ص ٤٨ حيث الإشارة (ويمكن أن يجد مركباً
من الروم يقلع إلى سبته أو سواها من بلاد المسلمين) .

(٢٢٦) ابن عذارى : البيان المغرب من أخبار الأندلس والمغرب . قسم الموحدين . تحقيق محمد
ابراهيم الكنانى ، محمد بن تاويت ، محمد زنبير ، عبد القادر رزمame . نشر دار الثقافة
للنشر والتوزيع . الدار البيضاء . الطبعة الأولى ١٩٨٥ . ص ٣٥٠ .

(٢٢٧) المقرئ . ج ٣ ص ١٣١ ، كذلك راجع : أمين توفيق الطيب . المرجع السابق ص ٥٠ .
(٢٢٨) ابن بطوطة : المصدر السابق رحل . ص ٦٤٩ - ٦٥٠ .

(٢٢٩) أندرية جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالى . والبشير بن سلام .
تونس ١٩٧٨ . ص ١٦١ ، أمين توفيق الطيب . المرجع السابق . ص ٤٩ .
(٢٣٠) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل من المرجان
بسبته قويريات لطاف .

(٢٣١) الأدريسى : نزهة المشتاق . ج ٢ . ص ٥٢٩ .

(232) Torres Balbas : ciudades hispano musulmana V.I.P. 301 .

كمال عنانى إسماعيل . العمارة الإسلامية فى طليطلة . ص ١٨٠ .

(٢٣٣) كان يقع هذه السوق فى الشارع المعروف الآن باسم شارع خوادينس

Call de: jaudenes - carlos Gozalbes; La Madima o Nuclo
urbano central en la ceuta Hispano Musulmana p. 40

شكل رقم (١٠) (رقم ٨) .

(٢٣٤) كانت صناعة التحف المعدنية لاسيما النحاسية من أهم الصناعات التى ازدهرت بمدينة
سبته وذاعت شهرتها بحيث صار انتاجها من التحف النحاسية يصدر إلى إيطاليا وقد عبر
الحسن الوزان عن هذا الازدهار فيما دونه عن سبته بقوله (وفيها عمال مهرة فى
المصنوعات النحاسية كالشمعدانات والجنان والمحاجر وغيرها . فكانت هذه الأشياء تباع
كما لو كانت من الفضة . وقد رأيت بعضها فى ايطاليا وكثير من الناس يظنون أنها من

صنع دمشق راجع : الحسن بن محمد الوزان الناسى المعروف بليو الأفريقى : وصف أفريقيا. ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر . دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٨٣ الطبعة الثانية ج١ ص ٣١٧ .

(٢٣٥) شكل رقم (١٠) (رقم ١٣) والمقصود به هو السوق المخصص لبيع الملابس المستعملة وكان يقع فى وسط المدينة بالقرب من مسجد الجوامع . ومثل هذا النوع من الأسواق المخصصة لبيع الملابس القديمة عم انتشاره فى معظم مدن الأندلس لاسيما غرناطة وأشبيلية ومالقه والغريب أن الأنصارى يؤكد أنه كان مخصص لبيع الأواني النحاسية Carlos Gozalbes : opcit. p. 43.

(٢٣٦) الأنصارى اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٤ - ١٥ .

(٢٣٧) السيد عبد العزيز سالم : العمارة المدنية بالأندلس . دائرة معارف الشعب . العدد ٦٤ ، ١٩٥٩ ص ١٤٤ - ١٤٥ ، كذلك راجع أحمد الطوخى . القيساريات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس . فصله من مجله كلية الآداب . جامعة الإسكندرية العدد ١٨ سنة ١٩٨١ ص ٩٢ - ٩٥ ، Alcaicerias. Alandalus, v, ٩٥ - ٩٢ Torres Balbas ; XVI p. 434 كمال عنانى إسماعيل . العمارة الإسلامية فى طليطلة . ص ١٩٤ .

(٢٣٨) الأنصارى : اختصار الأخبار : نشرة بروفنسال ص ١٤ ، شكل رقم (٣) أ رقم (٧) ، شكل رقم (١٠) رقم (١٢) .

(239) Carlos Gozalbes: La Medina o Nucleo urbano central en la ceuta. p.p 41 - 42 .

(٢٤٠) الأنصارى . المصدر السابق . ص ١٥ .

(٢٤١) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية . ص ٢٦٢ كذلك راجع عبد الرحيم غالب . موسوعة العمارة الإسلامية ص ١٠١ . ((ويقال فى بعض المدن أيضاً التريعة سوق صغير مربع الشكل رقم يشتمل على عديد من حوانيت الحرارين والخياطين وأمثالهم . وهو ليس كاطرزه الصناعة ولا كأسواق التجارة ولا كالأزقة العمومية بل هو بينها جميعاً . ولا تزال بفاس تربيعة معروفة بهذا الاسم إلى اليوم أشهرها تربيعة العطارين راجع الأنصارى . اختصار الأخبار : نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٣٧ حاشية (٦٧) .

(٢٤٢) جمع طراز وهو مكان صنع الثياب الرقيقة كثياب السلطان . ودلالته فى المغرب أوسع فهو يشمل أماكن صنع الثياب وتوشيتها كما يشمل أماكن خرز الأحذية وتنميق المصنوعات الجلدية . وينطق به عوام المغرب دراز بقلب الطاء ذالاً ويجمعونه على درازات ويطلقونه أحياناً مجازاً وتهكماً على الحبس (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص ٣٧ حاشية (٦٨) .

(٢٤٣) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٥ .

(٢٤٤) ليو الأفريقى : وصف أفريقيا . ج ١ . ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(245) Joaquin vallve : opcit, p.p 423. Not . 82

(٢٤٦) ابن بطوطه . المصدر السابق ص ٧٢ حيث الإشارة إلى أن الفنادق فى المغرب تعرف فى المشرق باسم الخانات .

(247) Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 92 .

عبد العزيز سالم : العمارة المدنية . ص ١٤٣ ، كمال عنانى . العمارة الإسلامية فى طليطلة ص ١٩٥ ولمزيد من التفاصيل عن الفنادق نشأتها وتطورها ونظامها المعماري ، راجع : أمال العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى . رسالة دكتوراه كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٧٤ ص ١٣٩ وما بعدها . ابن الرامى الإعلان بأحكام البنين . تحقيق محمد عبد الستار . ص ١٩٨ ، د. عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية . ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢٤٨) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٦ .

(٢٤٩) نفس المصدر . ص ١٦ حيث الإشارة إلى الفندق الذى بناه أبو القاسم العزفى بأنه معداً لاختزان الزرع .

(٢٥٠) نفس المصدر . ص ١٦-١٧ حيث أشار الأنصارى إلى نموذج من هذه الفنادق وهو فندق غانم بقوله (ويليه فى الكبر من الفنادق المعدة لسكن الناس من التجار وغيرهم الفندق المعروف بفندق غانم يشتمل على ثلاثة طباق وثمانين بيتاً وتسع مصريات وهو قديم أظنه من بناء المرابطين) .

(٢١٥) نفس المصدر . ص ١٧ .

(٢٥٢) جمع مقصر ويقصد بها ورش صباغة الملابس وتطلق على المكان الذى تدق فيه الثياب وتحور وتبيض والكلمة فارسية الأصل . وقد كان لحرفة القسارة أهمية فى المغرب القديم ولكنها اندثرت الآن . ولم يبق ما يذكر بها إلا بعض الألفاظ المشتقة منها كالقصار . اسم أسرة شهيرة . والقصرية هو الأنية التى تقصر فيها الثياب (الأنصارى . اختصار

الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٤٩ حاشية (١٠٢) ، وكذلك راجع
Joaquin vallve : op . cit p .435 أمين توفيق الطيبي : النشاط الاقتصادي
والعلمي بمدينة سبته . ص ٥٢ .

- (٢٥٣) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ٢٤ .
- (٢٥٤) يعكس ذلك بوضوح وصف الأنصارى لمقاصر سبته بقوله : (ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنتشر نهاراً فلا يخاف عليها طول المدة من لص) راجع الأنصارى . اختصار الأخبار ص ٢٤ .
- (٢٥٥) الأنصارى . نشر بروفنسال ص ٢٤ .
- (٢٥٦) الأنصارى . نفس المصدر . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٩ حاشية (١٠٣) .
- (٢٥٧) الأنصارى . نفس المصدر ص ٣٧ حاشية (٦٩) .
- (٢٥٨) اشتهرت مدينة سبته بأسلحة الرمي حتى صارت بعض الأسر تتوارث صناعتها . ومما ذكره الأنصارى عن مهنة الرمي يتضح بانها كانت مهنة شريفة ومحترمة حيث عبر عن ذلك بقوله (إذ الرمي طبع لأهل سبته طبعوا عليه فلا تلقى منهم شريفاً ولا مشروفاً ولا كبيراً ولا صغيراً إلا وله بصر بالرمي وتقدم فيه ومعظم رميهم بالقوس العقارة وهو من جملة الأشياء التي تميزوا بها) . (الأنصارى . نشرة بروفنسال ص ٢٢ - ٢٣) .
- وفي الفقرة الأخيرة من النص إشارة واضحة إلى أن قوس العقارة كان أكثر الأقواس استعمالاً بسبته ، وقد كان هذا النوع من الأقواس معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى باسم arbalista ad duo pedos وقد عرف بهذا الاسم لأن الرامي لكى يجذب القوس كان يثبت بوضع قدميه على طرفيه . واستعمال كلتا القدمين بهذه الطريقة كان يمكن الرامي من رمي سلاح أثقل وزناً وبالتالي أقوى مما كان سيرمي له لو أنه استعمل قدماً واحدة فقط كما هو الحال في قوس الركاب راجع ج.د. ليثام: موقع سبته الاستراتيجية ووسائل دفاعها في أواخر الفترة الإسلامية (بحث ضمن كتاب دراسات في تاريخ مدينة سبته الإسلامية . ترجمة . أمين توفيق الطيبي . طرابلس . بدون تاريخ ص ٣٥ .

- (٢٥٩) الأنصارى . اختصار الأخبار نشر بروفنسال ص ١٥ - ١٦ .
- (٢٦٠) الأنصارى . اختصار الأخبار نشر عبد الوهاب بن منصور ص ٥١ حاشية (١٠٥) .
- (٢٦١) نشر بروفنسال ص ٢٦ .
- (٢٦٢) نفس المصدر ص ٢٦ .

- (٢٦٣) ابن حوقل : صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل منه بسبته قويريات لطاف .
- (٢٦٤) الإدريسي . ج ٢ . ص ٥٤١ حيث الإشارة إلى أنه كان يصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى الثن الكبير وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح في استنها أجنحة بازرة تنشب في الحوت ولا تخرج . وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ، ولهم في ذلك دربه وحكمه سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك .
- (٢٦٥) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٩ .
- (٢٦٦) ليون الأفريقي . وصف أفريقيا ج ١ ، ص ٣١٧ .
- (٢٦٧) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٨ .
- (٢٦٨) المقصود بديار الإشراف . كلمة إدارية مغربية قديمة معناها الإشراف على جباية الأموال لخزينة الدولة . متوليها يسمى المشرف وقد حل محلها في القرون الأخيرة كلمة أمين (راجع . اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٤١ حاشية (٧٩) .
- (٢٦٩) المقصود بالديوان هنا هو مكان تسجيل المكوس و الأعشار وأدائها . ثم تخصصت كلمة (الديوان) بالمراكز المقامة بالحدود بين قطر وقطر لمراقبة السلع المجلوبة والموسوقة أى المستورده والمصدرة . واستخلاص الضرائب المفروضة عليها . فهي تعادل كلمة كمرك أو جمرك عند المشاركة (راجع اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤١ حاشية (٨٠) .
- (٢٧٠) لكلمة القاعة خصوصية في عرف المغاربة فهي تدل فقط على السوق التى توضع فيها أنواع الأدام لبيعها بالجملة كالزيت والسمن والعسل ويظهر انها كانت تشمل فى عرف السبتيين سوق بيع العطور (اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٢ حاشية (٨٢) .
- (٢٧١) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ١٨ - ١٩ .
- (٢٧٢) شكل رقم ٣ (ب) رقم ٦ .
- (٢٧٣) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ٢ .
- (٢٧٤) من المعروف أن عقبة بن نافع كان قد ترك بين البربر جماعة من الفقهاء يعلمونهم القرآن وأحكام الدين منهم صاحبه شاكر المنسوب إليه الرباط المشهور والمشهور كما أن

موسى ابن نصير أنتدب أيضاً عدداً من الفقهاء لتعليم البربر القرآن وأنزل من حفاظة جماعة بين بربر طنجة وقبائل غمارة المصمودية التي تقع سبته فسي تراها أما أبو ذرعه المشار إليه فلم يذكره من المؤرخين سوى الأنصارى (راجع اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ١٣ حاشية (٧) .

(٢٧٥) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال ص ٢ - ٣ .

(٢٧٦) نفس المصدر ص ٣ وصاحب هذا القبر ولد بأشيلية في رمضان عام ٥٩٩ هـ وأخذ عن شيوخها وقرأ بأشيلية إلى أن استولى النصارى عليها فخرج منها واستقر بسبته يقرء ويعلم إلى أن توفي بها في عام ٦٨٨ هـ . ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ١٤ هامش (٨) .

(٢٧٧) من أشهر مقابر هذه المقبرة قبر الفقيه القاضى ابن الدراج الأنصارى وهو محمد بن محمد بن عمر ابن الدراج الأنصارى . فقيه من أهل سبته وأصله من تلمسان (راجع اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص ١٩ حاشية (٢٥) وقبر الفقيه القاضى عبد الله ابن محمد ابن عبيد الله الحجرى السبتي . ولد بقناجر في شهر ذى الحجة سنة ٥٠٥ هـ وعلم بمالقه القرآن والحديث واللغة ثم سكن سبته ثم فاس مدة ، وعاد إلى سبته فاستقر بها وولى قضاء سبته يوماً واحداً . وكان مما جمع الله له بين العلم والعمل واتساع الرواية وعلو الذكر إلى أن توفي لسبعة ليله الأحد ٢١ محرم عام ٥٩١ هـ (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص ١٣ حاشية (٦) .

(٢٧٨) بها قبور الشهداء وهى مزار مشهور بموضع متسع جامع لعدد كبير (الأنصار ص ٥) .
(٢٧٩) من أشهر قبور تلك المقبرة قبر الفقيه محمد بن عبد الله الأموى السبتي (الأنصارى . ص ٥) وقد تولى صاحب هذا القبر قضاء سبته مرتين فى عهد أسرة برغواطه والآخر فى أيام المرابطين ، وقد ولد عام ٤٣٣ هـ وتوفى فى عام ٥١٧ هـ (راجع اختصار الأخبار نشرة محمد عبد الوهاب بن منصور . ص ٢١ حاشية (٣٠) .

(٢٨٠) كان بها قبر الشيخ أبى عبد الله القرمونى . من أهل سبته (راجع الأنصارى اختصار الأخبار . ص ٦) .

(٢٨١) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال ص ٢٥ .

علم الجراحة فى الأندلس

د. حنان عبد الفتاح مطاوع(*)

تمهيد :

(أ) الطب ومفهومه الحضارى :

الطب علم من العلوم القديمة التى عرفها الناس عن طريق التجربة والخبرة ، وهو ضرورى لكافة المجتمعات لما له من اتصال بحياة الإنسان وصحته فى جسمه ونفسه ، وهو يعود عليه بالراحة والسعادة فى حالة الصحة ، ويخلصه من الألم فى حالة المرض. وقد عرّف ابن خلدون صناعة الطب فقال : « هذه الصناعة ضرورية فى المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم »(١).

(ب) أهمية الطب فى الحضارة الإسلامية(٢) :

اهتم الإسلام منذ مولده بالطب اهتماماً بالغاً ، وفى ممارسة مهنة الطب اتجه المسلمون نحو تراث اليونانيين يشجعون على نقلة إلى العربية ليفيدوا منه ، فأشادوا بابقرط(٣) . وجالينوس(٤) . وغيرهما من أطباء اليونان ، وأخذوا عنهم المبادئ والأساليب التى تستهدف السمو بمهنة الطب(٥) .

(ج) الجراحة فرع من فروع الطب :

كانت الجراحة عند العرب تسمى صناعة اليد(٦) . وهى ترجمة حرفية لكلمة Chirurgie اليونانية ، ولم تكن علماً مستقلاً بل كانت فى بداية الأمر

(*) مدرس بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية .

ترتبط بصناعة الحجامين الذين يقومون بالكى والفصد والبتر (٧) . ولعل ترفع العرب عن الجراحة فى أيامهم الأولى وتقليلهم من شأنها يرجع إلى أنهم اعتبروها صناعة يدوية ، أما الطب فكان نتاج العقل ، والعقل فى اعتقادهم كان اسمى من اليد (٨) .

واستمر العرب فى ترفعهم عن مهنة الجراحة فى فجر العصر الإسلامى (٩) . لا سيما وان الإسلام منع التمثيل بالجسم الإنسانى (١٠) . ومن ثم فإن الطب الإسلامى لم يعن كثيراً فى أول الأمر بالجراحة على أساس فكرة المحافظة على جسم الإنسان كما خلقه الله (١١) . وقد تغلب العلماء فى العصور الإسلامية الأولى على هذه العقبة بتشريح أجسام القردة بوصفها أقرب الحيوانات فى تركيبها إلى الإنسان (١٢) ، وقد استقى العرب معلوماتهم فى التشريح عن سبقوهم من اليونان (١٣) والفرس (١٤) . ومن مشاهدة الهياكل العظمية بالمقابر . ولكن لابد أنهم مارسوا التشريح ولو بصورة سرية ومحدودة (١٥) . وعلى أية حال فإنه مع تقدم الطب العربى الإسلامى تقدمت معه الجراحة ، وأقبل العرب على ترجمة أمهات الكتب اليونانية (١٦) . التى ألفها أبقرط وجالينوس وغيرهما . وفى هذه المؤلفات معلومات جراحية غاية فى الأهمية ، تمكن الأطباء المسلمون من دراساتها وتفهم ما فيها من معلومات جراحية ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ازدهار علم الجراحة فى الدولة الإسلامية على يد جراحين مسلمين اعتمدوا فى البداية على ما أخذوه فى هذا المجال من العلماء اليونان ، ثم كان لهم فى النهاية نظرياتهم الخاصة التى توصلوا إليها بالبحث والتجارب الشخصية . وعلى يد هؤلاء الأطباء أصبح للعرب المسلمين طب جراحى أصيل تناولوه بالشرح والنقد ومارسوه عملياً (١٧) . حيث استخدموا (الكى) فى علاج كثير من الأمراض ، وفضل بعضهم (الكى) بالنار على (الكى) بالمواد الكاوية ، واشترطوا أن تكون المكواة من الحديد وليست من الذهب ، وأوصوا بان يكون (الكى) فى الربيع (١٨) . كما قاموا

باستخراج الحصى أو تفتيتها فى المسالك البولية ، وباشروا جراحات الأنف والأذن والحنجرة والفم والأسنان. وفى خياطة الجروح استخدموا الخيوط المصنوعة من أمعاء بعض الحيوانات وبخاصة القطط (١٩) .

وكان العرب أول من استعمل المخدر فى الجراحة حيث نجح الأطباء المسلمون الأوائل فى اكتشاف نباتات لها قوة التخدير . كما أن استخدام الإسفنجة المخدرة فن عربى أصيل . وقد دخل هذا الاكتشاف العلمى إلى أوروبا بطرق كثيرة ومختلفة ، وظل معمولاً به حتى القرن ١٨ م حيث اكتشف التخدير بواسطة الاستنشاق عام ١٨٤٢ م . وكان الطبيب العربى المسلم أبو القاسم الزهراوى يستخدم خليطاً من نباتات الشيلم والسيكران، وكانت هذه الخلطة تخدر المريض لفترة طويلة تكفى لأجراء العمليات الجراحية التى يقوم بأجرائها بنفسه (٢٠) .

أولاً: نبذة عن الطب فى الأندلس :

كان الطب الأندلسى بدائياً فى مطلع الحكم العربى الإسلامى . ذلك لأن معظم الباحثين والدارسين المسلمين كان اهتمامهم فى تلك المرحلة بالعلوم الدينية واللغوية (٢١) .

وهكذا لم يكن فى بلاد الأندلس منذ الفتح الإسلامى وحتى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢ م) علم طبى يعول عليه إلا ما كان يقوم به بعض الأفراد من النصارى الذين اكتفوا بالإطلاع على كتاب واحد مترجم من كتب النصارى يقال له (الأبريشم) ومعناه المجموع أو الجامع ، يأخذون منه معلومات سهلة وسطحية ، تساعدكم فى ممارسة مهنة الطب بالقدر الذى يكفى لكسب قوتهم دون الوصول إلى تفهم ما فيه من معلومات بشكل صحيح . وقد عبر ابن جليل عن سطحية معلومات هؤلاء الأطباء بقوله « ولم تكن لهم

بصاره (أى رؤية) بصناعة الطب والفلسفة والهندسة فى أيام عبد الرحمن بن الحكم» (٢٢) .

غير انه سرعان ما تقدمت الحركة الطبية فى الأندلس فى زمن الأمير محمد ابن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨هـ/٨٥٢م - ٢٧٣هـ/٨٨٦م) على أثر قدوم بعض الأطباء المشاركة إلى الأندلس ، ومعهم أفضل ما توصلوا إليه من أدوات طبية ، وآخر ما صدر عن علماء المشرق من نظريات علمية. وعلى رأس هؤلاء الطبيب المشرقى الشهير « الحرانى » الذى استقر فى قرطبه ، وحمل معه إلى بلاد الأندلس معجوناً كان يبيع السقيه منه بخمسين ديناراً لأوجاع الجوف (٢٣) .

وفى نفس الفترة الزمنية أقدم « ابن اياس » القرطبى - ولأول مرة فى تاريخ الأندلس - على التصدى لدراسة العلوم الطبيعية فكان أول من اشتهر بالطب فى الأندلس من المسلمين فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٤) .

وفى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر أصبح لأهل الأندلس علم طبى راسخ الأركان بعد أن أخذ الأطباء الأندلسيون يسعون لاكتساب الخبرات الطبية عن طريق زيارة بلدان المشرق الإسلامى (٢٥) ، وجلب أفضل المصنفات الطبية الشرقية (٢٦) ، وتشجيع ترجمة الكتب الطبية اليونانية والتى كان من أهمها كتاب ديسقوريدس فى الأعشاب . ونتيجة لكل ذلك ازدهرت الدراسات الطبية فى أسبانيا الإسلامية زمن الخليفة الناصر ، وظهرت مجموعة من الأطباء كان لهم فضل كبير على الطب ، جمعوا بين المهارة وحسن التصرف والقدرة على العلاج حتى أن الخليفة الناصر اختار منهم أطباء البلاط . ويأتى على رأس هؤلاء حسداى بن شيروط الذى كان أحرص الأطباء على التقرب من عبد الرحمن الناصر ، وكذلك عالم النبات المعروف « بالشجار » الذى كان من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير ديسقوريدس ، فعرف منه ما هو صحيح وما هو مخالف للواقع (٢٧) .

وفى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) واصلت الدراسات الطبية تقدمها حيث انه شمل الباحثين فى الطب برعايته عن طريق إنشاء ديوان الأطباء ، يقيد فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ، ويزاؤها ، فإذا ارتكب خطأ يستوجب العقاب يسقط اسمه من الديوان، كما هو الحال بالنسبة للطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون (٢٨) . كذلك جعل الحكم فى قصره خزانة للطب رتب لها اثنى عشر صيباً من الصقالبة لتجهيز الأدوية والمعجونات ، وكان يتولى الإشراف عليها أحمد الحرانى (٢٩) .

وإذا انتقلنا إلى عصر الطوائف (٤٢٢هـ / ١٠٣١م) نجد أن طليطلة كانت أشهر مراكز الدراسات الطبية حيث شمل ملوك بنى ذنون أصحاب طليطلة كل من برع من الأندلسيين فى العلوم الطبية من طليطليين أو ممن كانوا يقيمون فى طليطلة. وكان من أبرزهم ابن وافد الذى اهتم بدراسة علم الأدوية المفردة ووضع فيها مصنفاً جامعاً كان نتاج إطلاعه العميق على كتب اليونان القديمة وتجاربه الشخصية خلال عشرين عاماً من البحث والدراسة (٣٠) .

ويكفى دليل على تقدم حركة الطب فى مدينة طليطلة زمن الطوائف ما ذكره لكلارك مؤرخ الطب العربى من انه كان يوجد بطليطلة تسعون كتاباً مترجماً من العربية إلى اللاتينية فى الطب ، منها أربعة لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقى لحكماء العرب والمسلمين (٣١) .

وقد تابعت الدراسات الطبية فى الأندلس تطورها بعد عصر الطوائف ولا سيما فى عصر الموحدين « أواخر القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد ، وأوائل القرن التالى » حيث بلغ الطب فى هذا العهد قمة تطوره (٣٢) . وقد يطول بنا القول إذا أردنا تتبع هذا التطور الأمر الذى قد يبعدنا عن موضوع البحث الذى يركز بشكل أساسى على علم الجراحة فى الأندلس ، ولكن يمكننا الإشارة فى هذا المجال إلى الرواد من مؤرخى العلوم الذين بذلوا جهداً بالغاً فى دراسة تاريخ الطب

الأندلسي ، ووصفوا كيف نشأ ونما وازدهر هذا العلم حتى بلغ أوجه في عهد بني نصر - في النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد - ، ويكفي أن نشير هنا إلى كتابين شهيرين هما « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلعج الأندلسي وكتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) الذي افرد فيه الباب الثالث عشر لطبقات الأطباء الذين ظهوروا في بلاد المغرب وأقاموا بها.

ففي ثنايا هذين الكتابين نستطيع أن نستخلص العديد من الحقائق ونوجزها فيما يلي :

١- أن الأطباء الأندلسيين كانوا من النوع الموسوعي بمعنى أنهم مارسوا إلى جانب الطب علوم الشريعة والفلسفة والفلك والكيمياء والصيدلة وغيرها (٣٣) .

٢- بلغ من تكريم الأطباء الأندلسيين أنهم وصلوا إلى أعلى مراتب وظائف الدولة إلى جانب الطب فكان منهم من ولى الوزارة ، وبلغ بعضهم من الجاه والسلطان مبلغاً جعلهم يتبارون مع الخلفاء في الإنفاق عن سعه والعيش في أبهة ورخاء (٣٤).

٣- يمكننا من خلال الدراسة التحليلية لتاريخ الطب الأندلسي أن نستخلص حقيقة هامة وهي أن مهنة الطب كان يتوارثها أحياناً كثيرة الأبناء عن الآباء (٣٥) .

ونكتفي بهذا القدر من الإشارة إلى أبرز سمات الطب الأندلسي حتى يتسع المجال لإلقاء نظرة عامة على علم الجراحة في الأندلس في ضوء ما جاء في مخطوط الزهراوى وما عثر عليه في متاحف أسبانيا من آلات جراحية .

ثانياً: الطب الجراحي في الأندلس :

إذا كانت الجراحة لم تتقدم عند العرب كما سبقت الإشارة لارتباطها بفن التشريح ، ولا اعتبار الجراحة من المهن اليدوية التى لا تليق بمقام الأطباء . فان

المسلمين فى شرق وغرب العالم الإسلامى مارسوا مهنة الجراحة فى إطار دعوة الإسلام إلى الأخذ بالعلم بوجه عام ، حيث أطلق الإسلام العلم من عقاله وحث المؤمنين على طلبه أينما كان، وفصل بين الطب القائم على العلم المتوارث عن معارف الأقدمين أو التجربة ، وبين السحر ، وأقر العلاج بالنباتات والوصفات الطبية والحجامة والكى وغيرها(٣٦) .

ونتيجة لذلك عنى المسلمون بمؤلفاتهم الطبية التى أفرد بعضهم فيها فصلاً عن علم الجراحة ، ولعل من أشهرهم فى بلاد الأندلس :

١- أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى : (٣٢٥هـ-٤٠٤هـ / ٩٣٦م-١٠١٣م)

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى(٣٧) ، وكنيته بالزهراوى تدل على انه عاش وتعلم ومارس مهنة الطب ، وتوفى بمدينة الزهراء . وقد كان طبيباً خاصاً للحكم المستنصر ، وكان يعرف عند اللاتين باسم أبولكاسيس Abulcasis تحريفاً من أبى القاسم وAlsaharavius تحريفاً من الزهراوى(٣٨) .

ويعد الزهراوى أشهر من كتب فى علم الجراحة عند العرب ، وأكبر من نبغ فيها ، وللزهراوى مصنفات طبية عديدة من أبرزها وأكثرها شهرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، وهو موسوعة طبية كاملة تضم جميع فروع الطب المعروفة فى زمانه(٣٩) . إلا إن ما رفع قدرة وخلد ذكره هو ذلك الجزء من كتابه « المقالة الثلاثون » التى خصصها للجراحة(٤٠) وهى أكبر وأغنى مصدر علمى فى الجراحة ، كما تعتبر مرجعاً حتى الآن لطلبة الطب ومعيناً للأطباء فى مواجهة مشاكلهم الجراحية(٤١) . وتنقسم هذه المقالة التى عثرنا لحسن الحظ على نسخة خطية منها(٤٢) إلى ثلاثة أبواب :

* الباب الأول : يتعلق بالكى وينقسم إلى ٥٦ فصلاً .

* الباب الثانى : يتناول الشق والبط والفصد ومختلف العمليات الجراحية وينقسم إلى ١٠٠ فصل .

* الباب الثالث : تحدث فيه عن جبر الكسور والفك الحادثين فى العظام .

وتبرز قيمة هذه المقالة وأهميتها فى أن الزهراوى زودها برسوم توضيحية للعديد من الآلات الجراحية مثل آلات الكى ، والمباضع ، والمقصات ، والمجسات ، وأدوات التوليد ، وخافض اللسان ، والصنانير ، والملاقط ، والموسعات منها ما هو مصنوع من النحاس أو الزجاج أو الرصاص .

ولأهمية هذه المقالة سوف نعرض مقتطفات ملخصه من أقوال الزهراوى التى توضح ما وصلت إليه معرفته فى علم الجراحة . وفى الباب الأول الذى خصصه للكى ناقش فيه أساليب الكى فى الأمراض المختلفة من الرأس إلى القدم موضحاً ذلك بالرسوم التفصيلية للمكاوى التى كان يستعملها ، والتى من بينها المكواة السكينية والهلالية والمسمارية وذات السفودين وذات السفافيد الثلاثة .

وفى ثانيا عرض الزهراوى للمكاوى الجراحية أوضح أنواع الأمراض التى يصلح فيها العلاج بالكى ومنها :

١- برودة المعدة^(٤٣) وعلاجها ويتم بكيها كية واحدة فوق المعدة بمكواة دائرية أو يكوى ثلاث كيات بمكواة مسمارية^(٤٤) .

٢- فى أمراض الكبد^(٤٥) ويكوى المريض ثلاث كيات فوق الكبد ويكون ذلك بمكواة سكينية^(٤٦) .

٣- فى أمراض الطحال(٤٧) يكوى ثلاث أو أربعة كيات على طول الطحال
ويستخدم فى ذلك مكواة خاصة ذات سفودين أو ثلاث سفايد(٤٨) .

٤- فى علاج النقرس وأوجاع المفاصل(٤٩) ويتم الكى بعد الاستفراغ حول
مفصل الرجلين وتكون المكواة زيتونية متوسطة(٥٠) .

٥- فى علاج الأورام السرطانية نصح الزهراوى بكى السرطان(٥١) إذا كان مبتدأ
واستعمل فى ذلك مكواة دائرية جاعلاً الورم السرطاني فى داخل حلقة
المكواة بحيث يكون الكى حول الورم . وهو فى ذلك يختلف عن الأسلوب
الذى اتبعه بعض الأقدمين فى علاج الورم السرطاني بكيه كيه بليغة فى وسط
الورم ، ويوضح سبب عدوله عن استخدام هذا الأسلوب بأن كى الورم فى
الوسط يؤدى إلى تقرحه .

٦- فى علاج النزف الحادث عن قطع الشريان يقول الزهراوى « واعلم أن
الشريان إذا نرف منه الدم فانه لا يستطيع وقفه ولا سيما إذا كان الشريان
عظيماً إلا بأحد أربعة أوجه :

(أ) أما بالكى .

(ب) وأما ببيتره إذا لم يكن قد أبر فانه إذا انفصل طرفاه انقطع الدم .

(ج) وأما أن يربط بالخيط ربطاً وثيقاً .

(د) وأما أن توضع عليه بعض الأدوية التى من شأنها قطع الدم والشد
بالرفائد شداً محكماً . وان عرض لأحد ذلك ولم يحضره طبيب ولا دواء
فليبادر ويضع الإصبع السبابة على فم الجرح نفسه وبشده جيداً حتى
ينحصر الدم(٥٢) .

وفى الباب الثانى من مقالة الزهراوى المخصص لعلاج الشق والبطن والفصد والخراريج وغيرها . يبدأ بتوجيه بعض النصائح التى تقوم عليها تقاليد ممارسة هذا النوع من الجراحة والتى ينبغى للجراح مراعاتها (٥٣) . وأهم ما تناوله بالشرح والتحليل فى فصول هذا الباب ما يلى :

١- وصف الأورام الصغيرة ويسمىها العقد وتظهر فى الشفتين ، وقد بين أسلوب علاجها عن طريق قلب الشفة ويشق على كل عقدة ثم يملئ الموضع بزاج مسحوق حتى ينقطع الدم ويتمضمض المريض بالخل (٥٤) .

٢- تعرض للقشور العالقة بأسطح الأسنان بألوانها المختلفة الصفراء والسوداء والخضراء (٥٥) . ووضح مدى خطورة تلك القشور على الأسنان وما قد تسببه من تقيح . وأكد على ضرورة جردها جيداً ، وربما يحتاج المريض إلى أكثر من جلسة لتنظيفها تماماً ، وبين أن الضرر يحتاج فى جرده إلى مجارد كبيرة ومتنوعة وأتى بأربعة عشره مجرد تصلح لهذا الغرض (٥٦) .

٣- فيما يتعلق ببط الأورام وشقها يقول (إن أنواعها كثيرة وهى تختلف فى بطها من وجهين أحدهما نوع الورم والثانى مكان الورم لأن الورم الحادث فى المقعد والورم الحادث فى المفصل لكل منهما حكم فى العمل) (٥٧) . ثم يشير إلى أنه من الأورام ما لا ينبغى أن يبط إلا بعد نضج التقيح فيها وكماله . ومنها ما ينبغى أن يبط وهى نيه لم تنضج على التمام ، ويعطى مثلاً لذلك الخراج الحادث بقرب المقعد لئلا يعفن فينفذ إلى داخل المقعد فيصير ناصوراً (٥٨) .

٤- وفى علاج أورام الخنجرة يقول أن الأطباء الأوائل كانوا يعمدون إلى شق الخنجرة وأمروا بترك الجرح مفتوحاً حتى تنقضى سوره المرض ، وتكون سوره ثلاثة أيام ونحوها وحيثذاً أمروا بخياطة الجرح حتى يبرأ (٥٩) .

٥- فى الفصل السادس والأربعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من صور الآلات المستخدمة فى الشق والبط (٦٠) . وفى هذا الباب تتجسد مكانه الزهراوى كأعظم من أرخ للطب الجراحى التطبيقى (٦١).

٦- يعتبر الزهراوى من أفضل من وصف علاج السرطان ، فى الفصل الثالث والخمسين ينصح الأطباء باستئصال الورم السرطانى متى كان فى موضع يمكن استئصاله ، وضرب المثل لذلك بسرطان الثدي أو الفخذ ، كما حذر من استئصال الورم السرطانى متى كان عظيماً ويشير إلى تجربته الشخصية فى ذلك بقوله (فإننى ما استطعت أن أبرئ أحداً منه ، ولا رأيت قبلى من وصل إلى ذلك الحد والعمل فيه إذا كان متمكناً) وبعد ذلك يشرح إذا دعت الضرورة القصوى لاستئصال الورم العظيم بقوله :

« ثم تلقى فى السرطان الصنانير التى تصلح له ثم تقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء حتى لا يتبقى شيئاً من أصوله . فإن اعترضك فى العمل نزف دم عظيم من قطع شريان أو وريد فاكوى العروق حتى ينقطع الدم » (٦٢) .

٧- وفى ختان الصبيان يشير الزهراوى إلى طريقة جديدة من ابتكاره يسميها (التطهير بالمقص والرباط بالخيط) وقد عدّد مزايا هذه الطريقة وتناولها بالشرح (٦٣) .

٨- يعتبر الزهراوى من أفضل من كتب فى كيفية استخراج الحصاة حيث فرق بين حصاه الكلية والمثانة ونصح بالشق فقط على حصاه المثانة أو قناة مجرى البول (٦٤) . وقد سمى جراحه حصاه المثانة بالشق على (العجان) المسمى فى الطب الحديث Perineal Urethra Tomy (٦٥) وقد حذر من أن يكون القطع كبيراً حتى لا يحدث سلس البول ، وأشار إلى انه فى حالة إذا ما كانت

الحصوه كبيرة فإنه يجب تكسيها بالكلايب وإخراجها قطعاً ، ويعد هذا أول وصف فى الجراحة لعملية تفتيت الحصوه المعروفة الآن فى الطب الحديث باسم Litholapay (٦٦) .

٩- فى الفصل السابع والستين أمدنا الزهراوى بمعلومات هامة عن علاج الفتق الذى فى الأريية (٦٧) وهو ما يسمى الآن باسم الفتق « الأربى المباشر » Direct Inguinal Hernia (٦٨) . وفى هذا النوع من الفتق لا يستأصل الزهراوى كيس الفتق بل يكتفى بدفعه إلى الداخل بواسطة المروود ثم يخييط القطعة الضعيفة التى برز منها كيس الفتق من خلال جدار البطن ، وهذه أول محاولة فى تاريخ الجراحة لعمل الرق الجراحى للفتق الأربى Hernial Repair (٦٩) .

١٠- فى الفصل السابع والسبعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من الصور التى تستخدم فى إخراج الجنين (٧٠) وبين نوعيه المواد المستخدمة فى صنعها . حيث نصح بأن تكون من الأبنوس أو من خشب البقس (٧١)

١١- فى الفصل الثمانين يصف الزهراوى كيفية علاج النواصير التى تحدث فى الأسفل ، وقد أجاد فى بيان الفرق بين الناصور النافذ وغير النافذ إلى المستقيم (٧٢) . ويقر المتخصصون بأن وصف الزهراوى لعملية الشق على الناصور غير النافذ يتفق مع ما يمارسونها فى هذه العملية حتى الآن (٧٣) . وقد أمدنا الزهراوى فى هذا الفصل بصور لبعض الآلات المستخدمة فى قطع الناصور مثل المسبار المثقوب الطرف كإبره الأسكاف أو الموضع الشوكى (٧٤) .

١٢- فى الفصل الثالث والثمانين أمدنا الزهراوى بصور لبعض الآلات التى تستعمل فى الحقن ، ونصح بأن تكون مصنوعة من فضة أو صينى أو نحاس مفروغ أو مضروب ، وفرق بين حقن الكبار وحقن الصغار (٧٥) .

بقوله « وقد تصنع من هذه الآلات صغاراً وكباراً على حسب المستعملين لها فيكون التي تستعمل في علاج الصبيان الصغار صغار والذين مقعدهم ضيقه أو متوجعة يكون محاقنهم لطاف جداً » (٧٦) .

١٣- فى الفصل الرابع والثمانين يتحدث الزهراوى عن الجروح الناتجة عن الإصابات بالسيف أو السكين أو بطعنه رمح أو سهم أو نتيجة لصكه حجر ، وقد وضع الزهراوى لهذا الفصل عنواناً مختصراً هو علاج الجراحات (٧٧) . وتناول فيه بالتفصيل كيفية علاج جروح الرأس والصدر وما بين الكتفين . وفى علاج الرأس مثلاً فرّق بين الجروح البسيطة بالرأس التى تعالج بوضع قطنه مغموسة فى دهن الورد على مكان الجرح . أما إذا كان الجرح كبيراً من قطع سيف أو نحوه ولم يجتمع شفتاه بالرفائد بأجمعها بالخياطة (٧٨) .

١٤- يتناول الزهراوى فى الفصل السادس والثمانين علاج الزكام والناصور (٧٩)، وأهم ما فى هذا الفصل صور الآلات التى كان يستعملها فى إزالة العظام المريضة مثل المناشير بأحجامها المختلفة ما بين كبيرة وصغيرة ، وكذلك المجارد بأشكالها المتباينة من مجارد مستقيمة ومجوفة ومعطوفة الطرف (٨٠) .

١٥- فى الفصلين التسعون والواحد والتسعون زودنا الزهراوى بصور واضحة عن كيفية قطع الدوالى وعلاجها . حيث عرف فى الفصل التسعين الدوالى على أنها « عروق ملتوية غلاظ ، مملوءة فضولاً سوداوية تحدث فى أكثر أعضاء الجسم ، وأكثر حدوثها فى الساقين ولا سيما سوق الشيوخ والاكارين والحمالين » (٨١) . ثم يصف بعد ذلك عملية سل العروق التى تبدأ بحلق شعر المريض إذا كان فيه شعر ، ثم توضع فى حمام ساخن حتى يسخن العضو ويشق الجلد قبالة العرق بالطول ويشد الجلد بالصنابير ويسلخ العرق من كل جهة حتى يظهر للحس ، ثم يدخل تحته مروداً حتى إذا أرتفع وخرج من

الجلد علق بصناره عمياء ملساء (٨٢) . ويختم هذا الوصف المطول لعملية سل العروق بقوله « فإذا سللته كله تضع على مواضع الجراحات صوفاً مغموساً في شراب ودهن ورد أو زيت » (٨٣) .

أما الباب الثالث والأخير من مقالة الزهراوى فقد أفرد له لجير الكسور والفك الحادثين فى العظام ويبدأ هذا الباب بمقدمه يشير فيها إلى أن فن جبر الكسور كان من الفنون المعروفة فى بلده ، وأنه أعتمد فى ممارسته لهذا الفن على إطلاعه الواسع فى كتب الأوائل وحرص على فهمها ، ويشير إلى أن ما ذكره فى هذا الباب هو نتاج خبرته وتجربته الخاصة .

وينقسم هذا الباب إلى خمس وثلاثين فصلاً . تناول فى جملتها وصفاً تفصلياً لكل أنواع الكسور وأعراضها وطرق علاجها وأساليب لف الكسور حسب حجم الكسر صغيراً أو كبيراً ، وطريقة وضع العضو المكسور داخل اللفائف وصور لتلك اللفائف (٨٤) .

ونظراً لأن فصول هذا الباب كلها تتناول موضوع واحد وهو الكسور التى تصيب مختلف أعضاء الجسم مثل كسور الضلوع والظهر والذراع والفك والساقين وعظام القدم (الرجل) والأصابع (٨٥) . لذا فإننا نكتفى هنا بالقول بأنه من خلال إطلاعنا على تلك الفصول نستطيع أن نقرر فى ثقة واطمئنان بأنها لا تختلف عن فصول الباين السابقين من حيث وضوح التفكير وسلامة ودقة التعبير مما يعطينا فكره عن مدى إحاطة الزهراوى بهذا الفرع من فروع الطب ، ومدى ما وصلت إليه الكتابة العلمية فى بلاد الأندلس التى كانت بمثابة الأسس القوية التى قامت عليها أصول الطب الحديث فى كثير من الأفكار والأصول التى قدمها الزهراوى للطب الجراحى ما زالت متبعة ومعترف بها حتى الآن ، ويكفى دليلاً

على ذلك أن كثيراً من الآلات الجراحية التي استخدمها الزهراوى وزودنا بمجموعة رائعة منها لحسن الحظ ما زال منها ما يستعمل حتى الآن رغم اختلاف الوسائل منذ تلك القرون الطويلة .

وآخر ما نسجله من ملاحظات على مقالة الزهراوى أن كل ما كتبه فيها أتسم بالأمانة العلمية المطلقة فنراه ينسب في كثير من المواضع كل معلومة إلى صاحبها .

٢ - جراحون آخرون من الأندلس :

بخلاف الزهراوى نبغ في علم الجراحة في الأندلس عدد من الجراحين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر .

(أ) ابن ملوكه النصرانى :

كان في أيام الأمير عبد الله وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر ، وقد أورد كل من ابن جلجل ، وابن أبى أصيبعة ما يفيد بأنه كان يصنع بيده (أى جراحاً) وكان يفصد العروق ، ويبدو أنه كان يعالج الناس في داره حيث كان على باب داره ثلاثون كرسيًا لجلوس الناس (٨٦) .

(ب) خالد بن يزيد :

كان معاصراً لقسطاس بن جريح المصرى الذى كان فى دولة الإخشيد (٣٢١هـ - ٣٣٤هـ) (٩٣٣م - ٩٤٥م) . وقد أورد ابن جلجل فى ترجمته ما يفيد بأنه كان جراحاً (صانعاً بيده) . إلى جانب أنه أمتاز بخبرته فى الأدوية الشجارية (٨٧) .

(ج) يحيى بن إسحاق :

كان معاصراً للخليفة عبد الرحمن الناصر ، وعنه يقول ابن جلجل (كان طبيباً نبيلاً عالماً حاذقاً بيده وكان فى صدر دولة الناصر وأستوزره وولى الولايات والعمالات وكان قائد بطليموس زماناً وكان له من أمير المؤمنين الناصر كبير محل ينزل منزله الثقة) (٨٨) .

(د) أبو موسى بن هارون الأشبوني :

كان معاصراً لكل من الخليفة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، وكان من شيوخ الأطباء وخيارهم وكان خادماً بيده (أى جراحاً) (٨٩) .

ثالثاً : فن صناعة أدوات الجراحة الأندلسية :

لا شك أن صناعة أدوات الجراحة في الأندلس كانت من الصناعات القديمة المعروفة بها قبل العصر الإسلامي . بدليل وجود نماذج لها من العصرين الروماني والقوطي في متحف مدريد الوطني . وقد واصلت صناعة أدوات الجراحة نشاطها في الأندلس في العصر الإسلامي حيث وصلنا منها أحد عشر آلة أو نموذج مصنوعة من البرونز والنحاس الأصفر . وتكشف لنا تلك النماذج مدى التنوع في أساليب تشكيلها الأمر الذي يوضح تباين استخداماتها حيث تراوحت أشكالها ما بين آلات في شكل ملاعق أو شكل صنابير أو مباحض أو إبر أو مثاقب ويمكن تقسيم آلات الجراحة الأندلسية التي وصلت إلينا بحسب مكان العثور عليها إلى مجموعتين .

١ - مجموعة متحف قرطبة الأثرى :

يمثل هذه المجموعة تسع آلات تمتاز بتنوع أشكالها بحيث يمكن تقسيمها إلى خمسة أنماط أو طرز فنية في صناعتها وهي :

(أ) الطراز الأول : (آلات في شكل ملاعق) لوحة (٢) أ ، ب ، ج ، لوحة ٣ - أ :

يمتاز هذا الطراز من حيث الشكل ببدنه المكون من قضيب أسطوانى المقطع مدبب من أسفل على هيئة سن القلم . وينتهى من أعلى بحلقه دائرية ذات فراغ مقعر يشبه تجاويف الملاعق . وينصف بدن القضيب أو ساق الآلة مقبض يختلف في شكله من آلة إلى أخرى فأحياناً نجده في شكل مستطيل مقطوع الزوايا محزوز

فى أقسام مضلعة مدقوقة وأحياناً أخرى نجده عبارة عن خطوط دائرية محزوزة موزعة فى تراكب رأسى . كما يختلف طول المقبض باختلاف طول الساق أو بدن الآلة فكلما زاد طول القضيب زاد طول المقبض وتتفق جميع آلات هذا الطراز فى خلوها من آيه حليات زخرفيه حيث بدا سطحها الخارجى أملس مصقول باستثناء الجزء العلوى الواقع أسفل الرأس الملعقية حيث زوده الصانع بخطوط محزوزه أفقية موزعه فى تراكب مما أضفى شيئاً من الجمال النسبى على الآلة .

وهكذا تتوافق تشكيلات آلات هذا الطراز فى الصياغة والتنسيق مع وظيفتها العلمية فى كحت الأورام والخراجيج وفى جراحه بعض أمراض النساء والتوليد (٩٠) .

(ب) الطراز الثانى : (آلات فى شكل قضبان صناعيه) (لوحة ٣ ب):

يمثل هذا الطراز آلة واحدة فقط . ويمتاز البدن فى هذا الطراز باستطالته ويتشكل من لوح عريض أصم ينتهى من أسفل بسن مدبب ومن أعلى تبدو فيه آثار كسر يتجه ناحية اليسار الأمر الذى يجعلنا نرجح بأن هذه الآلة كانت مزوده برأس منكسرة يميناً أو يساراً فى شكل خطاف أو صناعه . ويتخلل البدن مقبض مستطيل المقطع محزوز البدن يشبه مقابض آلات الطراز الأول وأن اختلف عنها فى إنه أكثر استطالة . ويخلو البدن من آيه زخارف .

أما عن استخدام هذه الآلة فمن المرجح بأنها كانت تستخدم فى جراحه الفم والأسنان لا سيما قطع اللحم الزائد فى اللثة . وفى سحب الأوعية والأعصاب والأوتار التى تصل العضل بالعظم أو فى ثقب القصبه الهوائية لتثبيت الغضروف الحلقى (٩١) .

(ج) الطراز الثالث : قضبان مثقايه (لوحة ٣ - ج) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة ورغم الاتفاق فى تشكيل هذه الآلة مع الآلة السابقة إلا أن بدنها وكذلك مقبضها أقل طولاً . كما أن طرفيها مديبان تديبياً خفيفاً . وأغلب الظن أن هذه الآلة كانت تستخدم كمثقب أو مبرد لإزالة العظام المريضة (٩٢) .

(د) الطراز الرابع : آلات على شكل مبضع أو مشرط (لوحة ٤ أ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة تختلف شكلاً ونظاماً عن الآلات السابقة حيث يتشكل بدن الآلة من صفيحه عريضة ذات مقطع مستطيل أحد طرفيه منحنى فى شكل ربع دائرى . أما الطرف المقابل فعبارة عن مقبض غنى بتشكيله فى صورة جديدة قوامها بدن أسطوانى ملفوف تجاوز فى اتساعه ساق الآلة بحيث يعكس المبالغة فى تغليظ مقابض آلات هذا الطراز مع العناية بتقسيم بدن المقبض إلى ثلاث حشوات مستطيلة بواسطة خطوط أفقية محفورة على مستويين مما ساعد على بروز تلك الحشوات بشكل واضح . وأغلب الظن أن هذا النوع من آلات الجراحة كان يستخدم كمبضع أو مشرط لشق الأورام أو شق الجلد فوق الشرايين (٩٣) .

(هـ) الطراز الخامس : آلات على شكل عتله (لوحة ٤ ب) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مستطيلة المقطع تنتهى من أعلى برأس مستديرة مثقوبة الوسط حافتها الخارجية تفتقر إلى التشذيب ويستوقف النظر فى هذا الطراز من الآلات ما يلى :

١ - أن ساق الآلة يخلو من المقابض المركزية المستطيلة المقطع التى اقترن ظهورها بتمثل هذه الهيئة فى معظم الآلات السابقة حيث استعاض عنها الصانع هنا بحلقه دائرية مثقوبة الوسط فى أحد طرفى ساق الآلة .

٢ - شدة المبالغة فى استطالة ساق الآلة بحيث يصل طوله إلى ذارعين وعرضه أربع أصابع ويستدل من هيئة هذه الآلة على أنها كانت عبارة عن عتله تستخدم فى استبدال وفرد العظام المكسورة (٩٤) .

(و) الطراز السادس : آلات مسمارية الشكل (لوحة ٤ ج) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مصنوعة من سلك صلب يصعب طيه أو ثنيه مما يتيح المتانة والثبات عند استخدامه ينتهى من أسفل بسن مستدق شديد التدبيب ومن أعلى بمقبض عبارة عن رأس مستديرة مصممة مخروطية المقطع . ويستدل من شكل هذه الآلة على أنها كانت عبارة عن آلة لثقب العظم (٩٥) .

٢ - مجموعة متحف مدريد الوطنى (لوحة ٥ - ٦) :

عثر على هذه المجموعة من الآلات الجراحية فى أماكن متفرقة من أسبانيا . وللأسف أن معظمها قد وصل إلينا فى حالة سيئة من الحفظ باستثناء آلتين يعدان من بين أهم نماذج هذه المجموعة . وهما عبارة عن آلات مسمارية الشكل تستخدم كمجسات أو مسابر للكشف عن النواصير كما تصلح لتفتيش الأورام والجراحات .
وجدير بالذكر أنه رغم وجود تشابه واضح فى الشكل بين هاتين الآلتين إلا أن هناك اختلاف فى التفاصيل يتمثل فى أن مقبض الآلة الأولى لا يتوسط ساقها ويمتاز بتكوينه المقعر حيث يتألف من عشر حشوات مستطيلة ملساء يفصل بينها خطوط محفورة حفرًا عميقًا .

أما الآلة الثانية فالمقبض يتوسط الساق تقريبًا كما أنه أقل استطالة من السابق إذ يتألف من ثلاث حشوات فقط الأولى والثالثة فى شكل معين أما الثانية المركزية فتأخذ شكل مثنى الأضلاع . ويدور بالحشوات الثلاثة من أعلى وأسفل خطين أفقيين .

رابعاً : أساليب صناعة وتشكيل آلات الجراحة الأندلسية فى ضوء ما وصلنا منها :

لم تختلف أساليب صناعة وتشكيل أدوات الجراحة عبر العصور المختلفة وإن اختلفت قدرتها على الأداء نتيجة لبعض التطورات التى تتفق مع سنها التطور التى سارت عليها الحضارات المختلفة .

وفى ضوء ما وصلنا من آلات الجراحة الأندلسية يتضح أنها قد صنعت إما من البرونز أو النحاس ونظراً للارتباط الوثيق بين نوع المادة وأسلوب صناعته فيمكن حصر أساليب صناعة أدوات الجراحة الأندلسية فى أسلوبين رئيسيين هما :

(أ) أسلوب الصب بطريقة الشمع أو الرمل المفقود الذى يعد أنسب الطرق فى تهيئة معدن البرونز (٩٦) .

(ب) أسلوب الدق أو الطرق ويعد هذا الأسلوب من أنسب الطرق التى تصلح لمادة النحاس (٩٧) .

أما عن أساليب تشكيل أدوات الجراحة الأندلسية فى ضوء ما وصلنا منها يتضح أنه على الرغم من تنوع استخدامات تلك الأدوات إلا أنها فى مجملها تفتقر إلى التنوع فى أشكالها حيث اعتمدت فى تشكيلها على عنصرين رئيسيين هما الساق المطروقة أو المصبوبة والمقبض المحفور فى بدن الساق . ويتسم العنصر الأول وهو الساق فى العادة بشكله المستطيل أو شبه الدائرى أو السفودى المسمارى الشكل .

أما المقبض فقد تراوحت أشكاله ما بين حشوات مربعة أو مستطيلة أفقية موزعة فى تراكب رأسى (٩٨) أو حشوه واحدة مستطيلة تميزت باعتمادها على أسلوب واحد فى تشكيلها يقوم على تقسيمها إلى خطوط جزائية على شكل حرف V (٩٩) .

خامسًا : أساليب وعناصر زخرفة آلات الجراحة الأندلسية :

من أهم ما نسجله من ملاحظات على آلات الجراحة الأندلسية أنها تفتقر إلى الناحية الزخرفية بحيث يمثل ذلك اتجاه فني سارت فيه زخارف أدوات الجراحة الأندلسية .

والواقع أن لهذا الاتجاه ما يبرره لأن هذه الأدوات تستخدم بكثرة في العمليات الجراحية وعلى هذا فليس من المنطقي استخدام أية زخارف في تزيين مثل هذه الأدوات لأنها سوف تتعرض للطمس والتلوث .

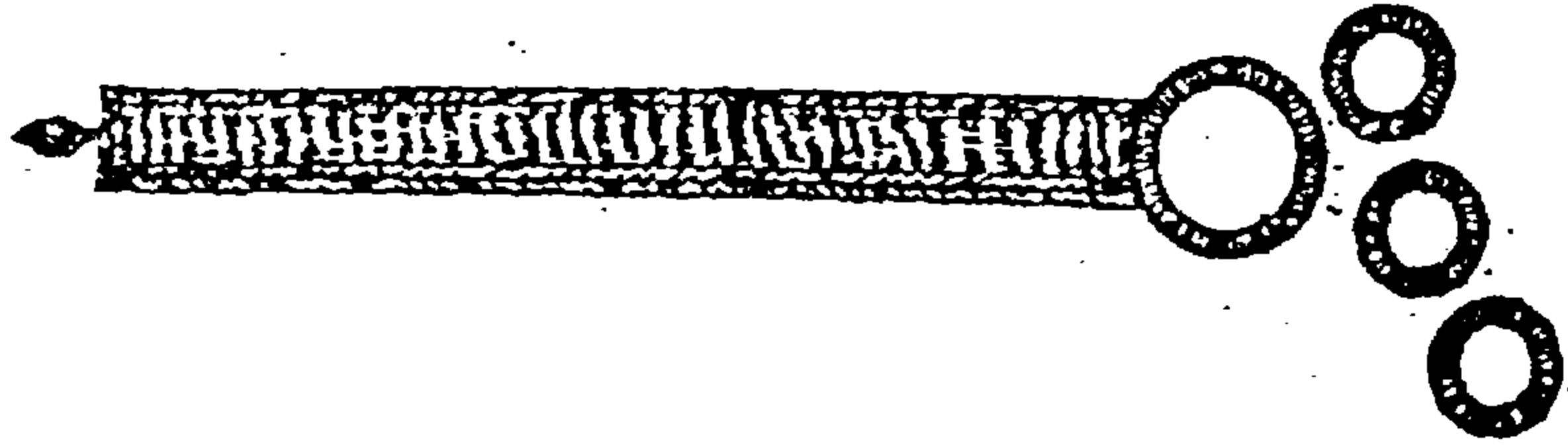
وهكذا يمكن القول بأن الصانع استبعد زينه أدوات الجراحة قسرًا لا طواعية بمعنى أن أشكال الزخرفة في تلك الأدوات تتحكم فيها مقتضيات الوظيفة لا الصنعة الفنية بحيث اقتصر في زخارفها على خطوط محزوزة ذات طابع هندسي تتألف في مجموعها من أشرطة زخرفية يمكن تقسيمها إلى الأنواع التالية :

(أ) النوع الأول : أشرطة تتكون من خطوط صغيرة مائلة ومتراكبة في تدرج تقع أسفل رؤوس الآلات الملحقية (١٠٠) .

(ب) النوع الثاني : أشرطة مكونة من خطوط متداخلة ومتراصة بحيث يتولد من ترابطها شبكة من المعينات (١٠١) .

(ج) النوع الثالث : ظهرت فيه الخطوط أكثر وضوحًا وأكبر حجمًا وتنوعت حركاتها فأصبحت جزاجية متموجة تربطها من أسفل السنة أبدانها مشدودة وملساء على التناوب (١٠٢) على نحو يذكر بأشكال الصليبان المعقوفة (١٠٣) .

وقد تم تنفيذ كل هذه الزخارف بأنواعها المختلفة بأسلوب الحز على سطح المعدن بواسطة أداه نهايتها مدببة تعرف بالأزميل أو المثقب .



(أ)

(شكل - ١)

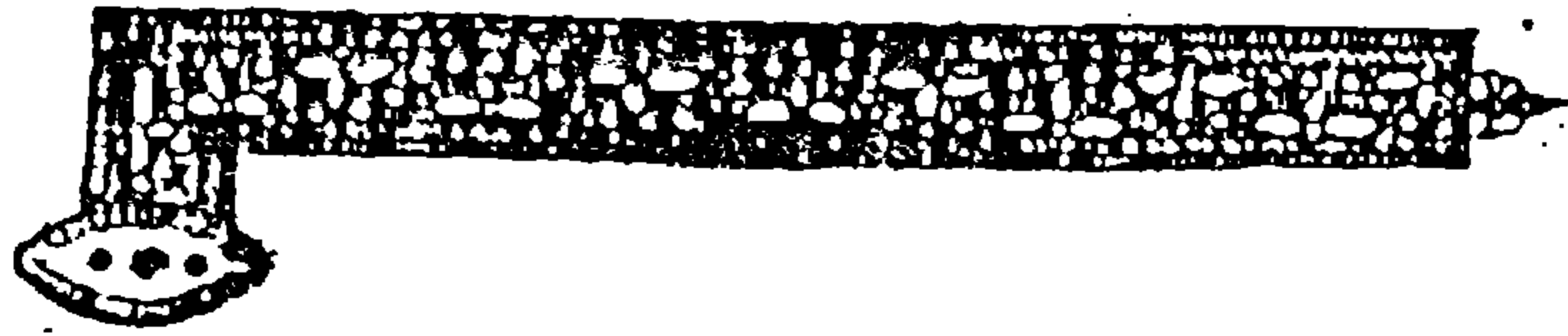
مكواة دائرية تستخدم فى كى الرطوبة التى قد تصيب المعدة

(عن الزهراوى)



(شكل - أ - ب)

مكواة مسمارية (عن الزهراوى)



(شكل - ٢)



(شكل - ٣)

أشكال من المكاوى الخاصة بالكبد

(عن الزهراوى)



(شكل - ٤)



(شكل - ٥)

مكواة ذات سفودين وأخرى ذات ثلاث سفايد خاصة بكى المطحال

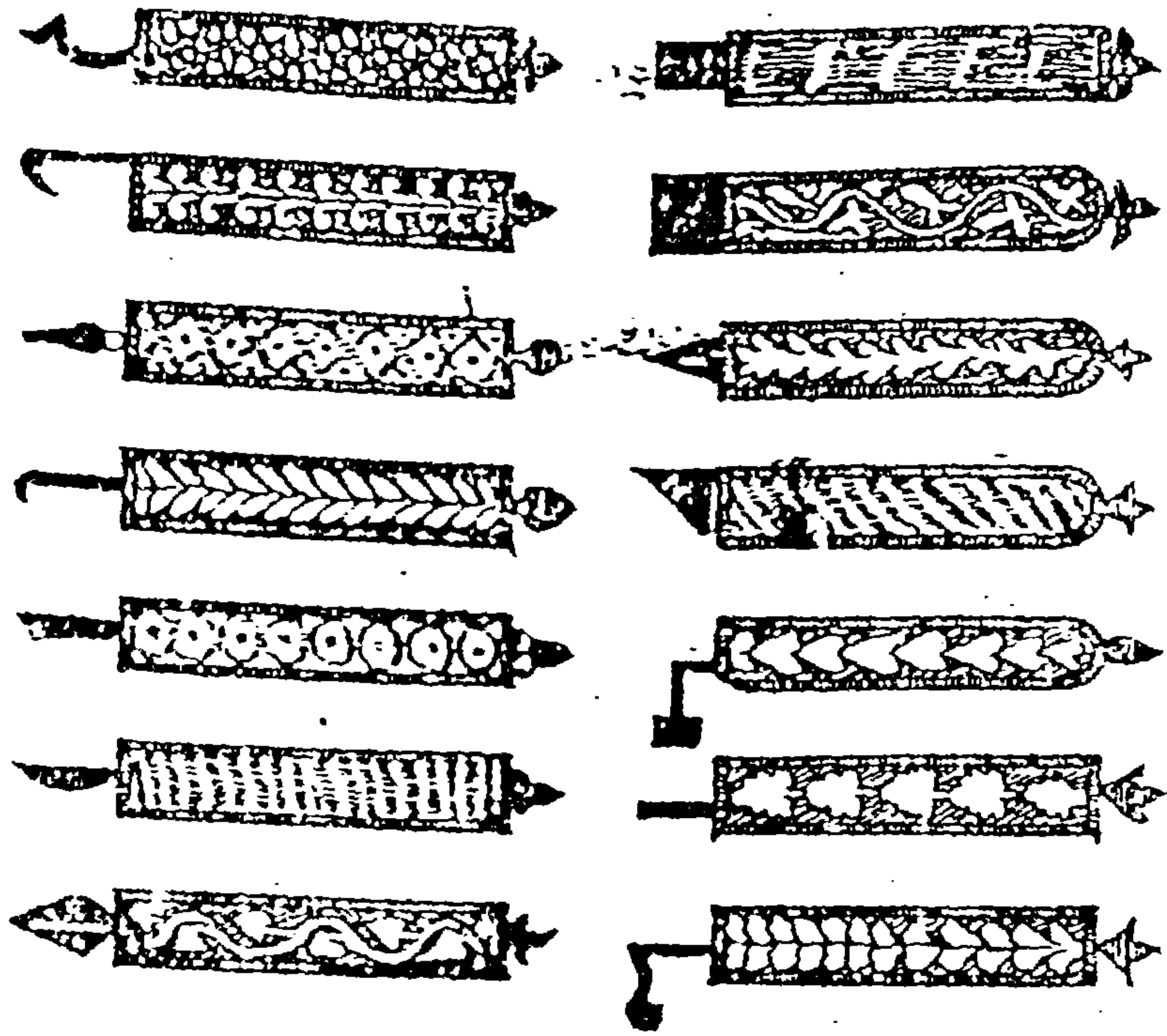
(عن الزهراوى)



(شكل - ٦)

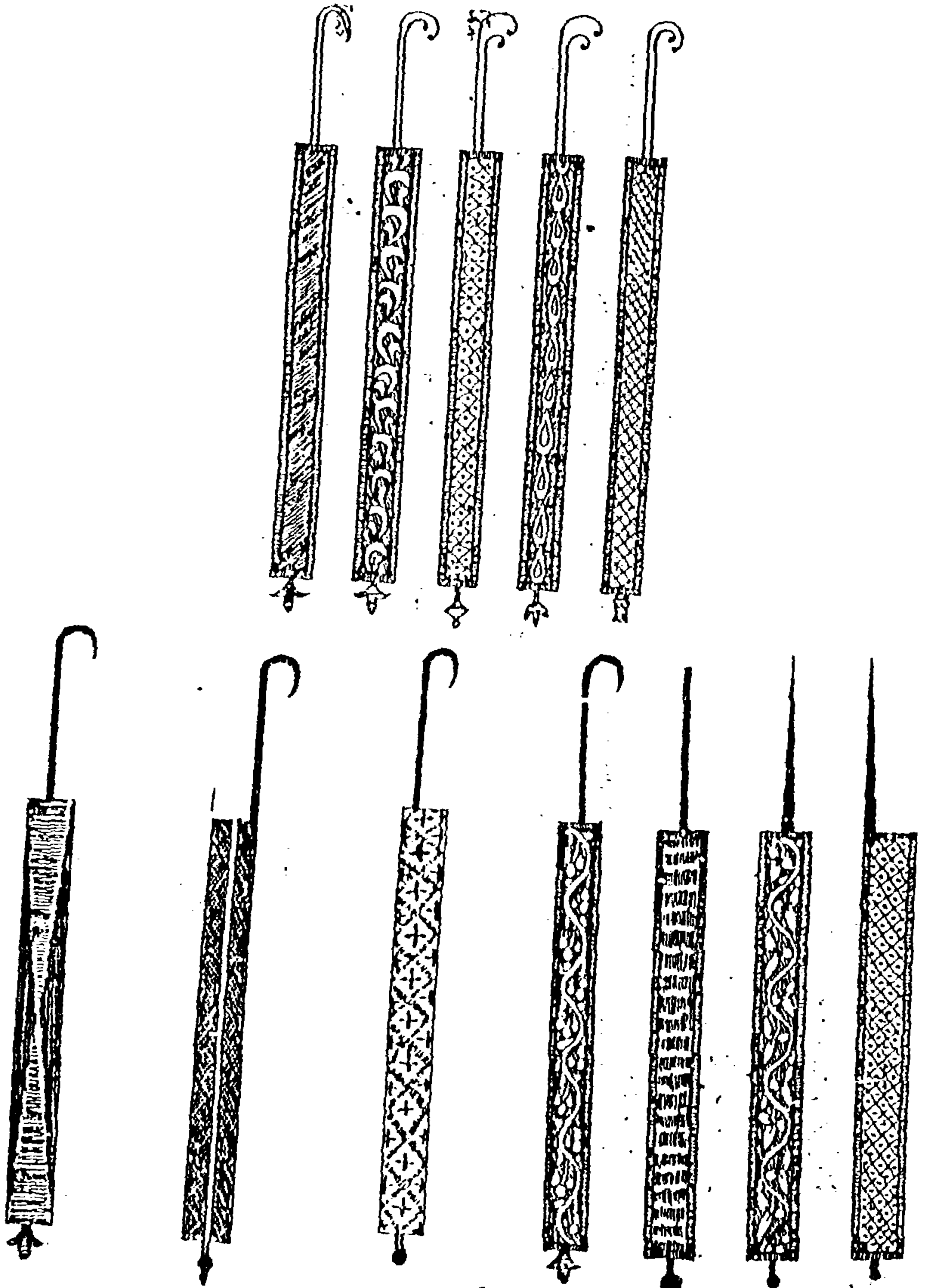
مكواة زيتونية لكى النقرس وأوجاع المفاصل

(عن الزهراوى)



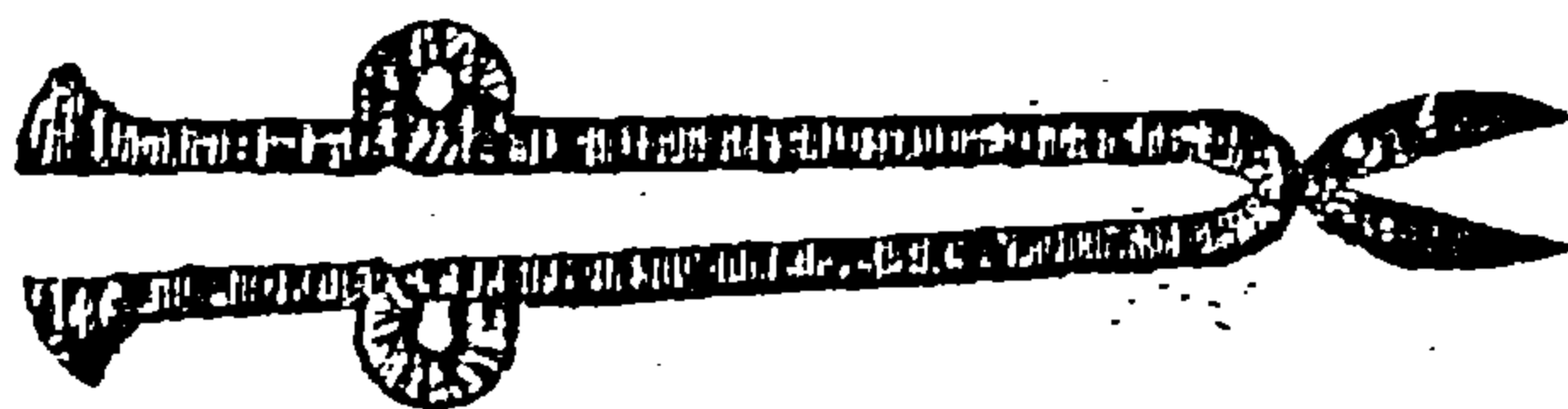
(شکل - ٧)

مجادد للأسنان والضروس (عن الزهراوى)

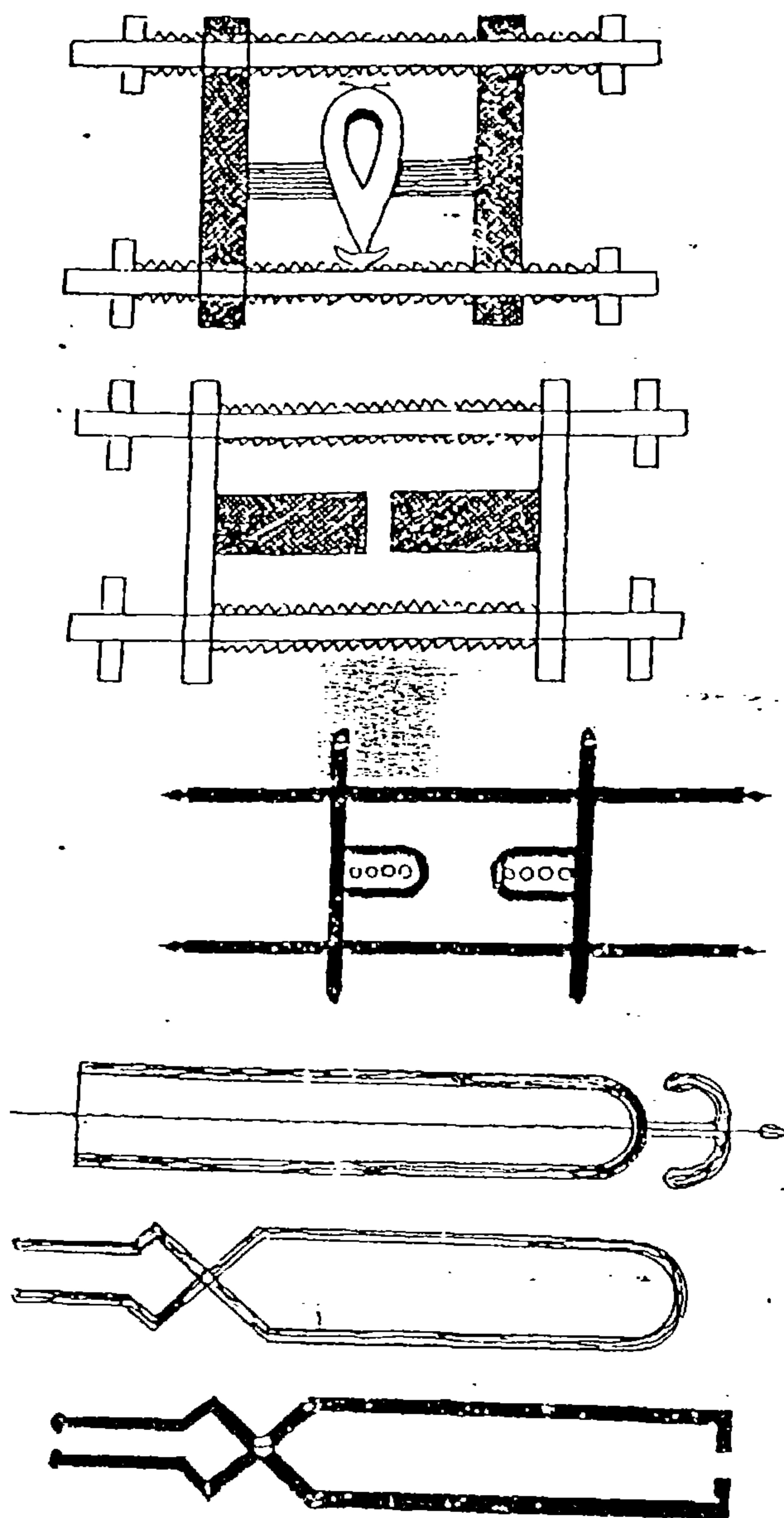


(شكل - ٨)

مجموعة من آلات الجراحة الصنارية الشكل التي تستخدم في الشق، والبط

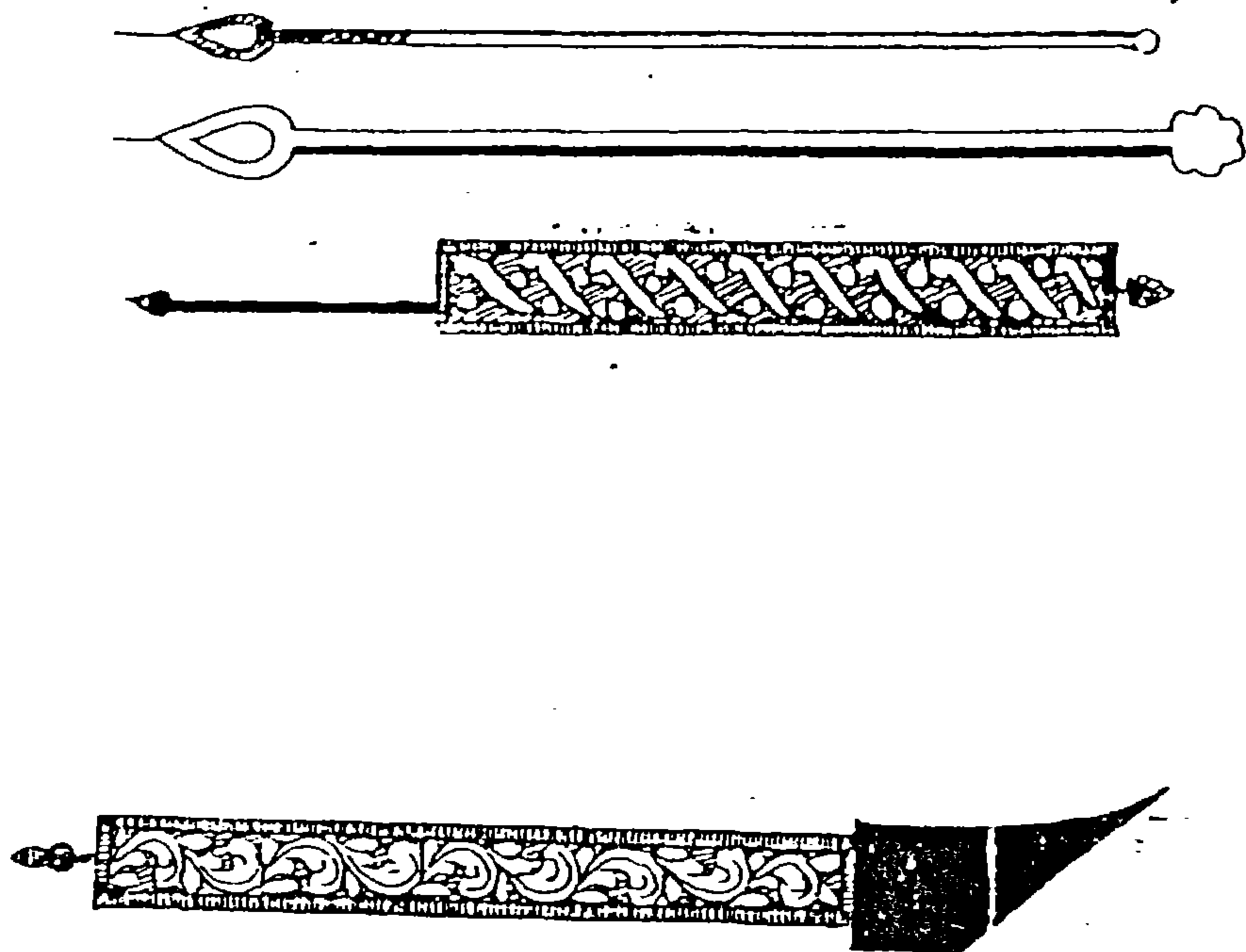


(شکل - ٩) مقص خاص بختان الذكور (عن الزهراوی)



(شکل - ١٠)

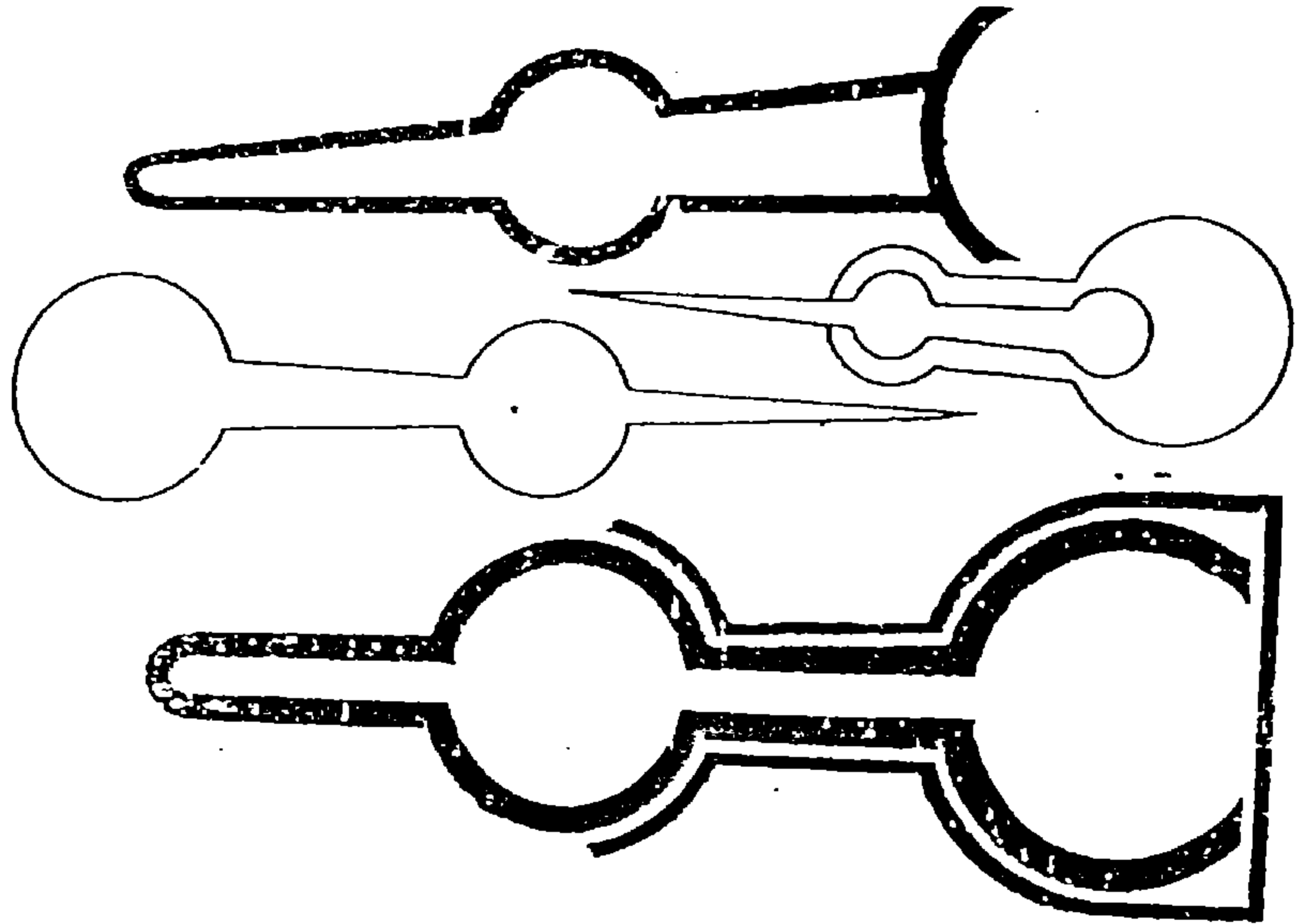
(شکل - ١٠) صور لآلات التوليد وإخراج الجنين (عن الزهراوى)



(شكل ١١)

صور للإبر والمباضع التي تستخدم في علاج النواصير

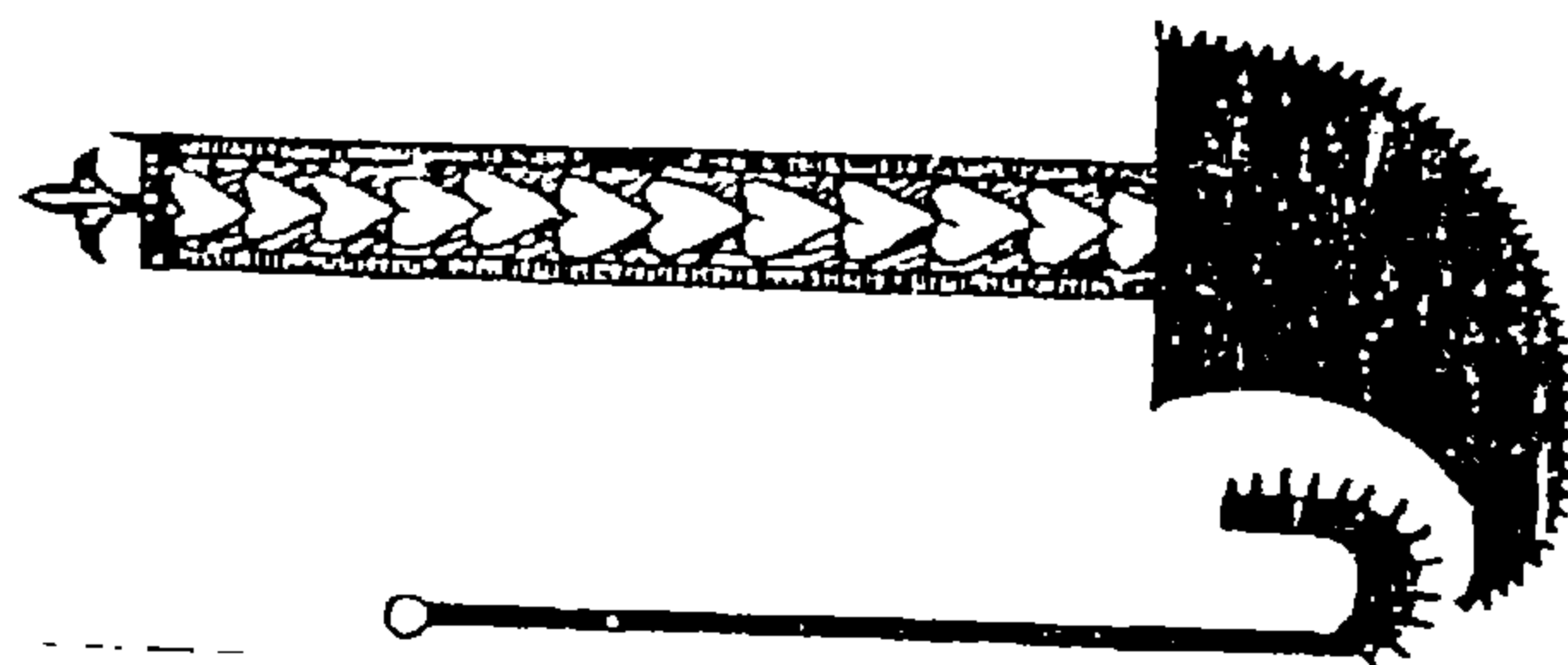
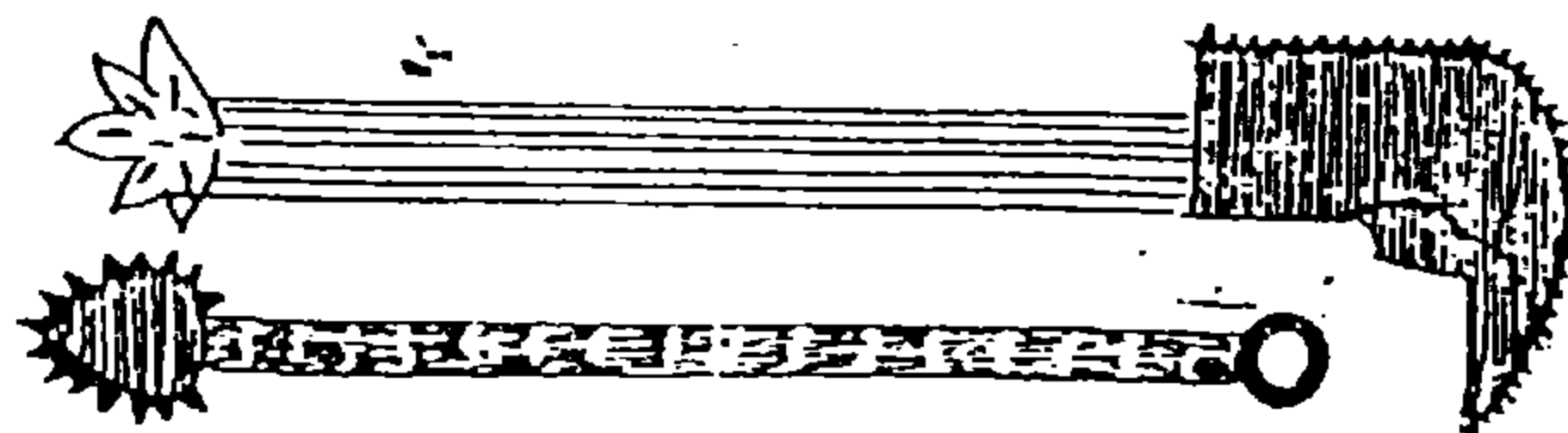
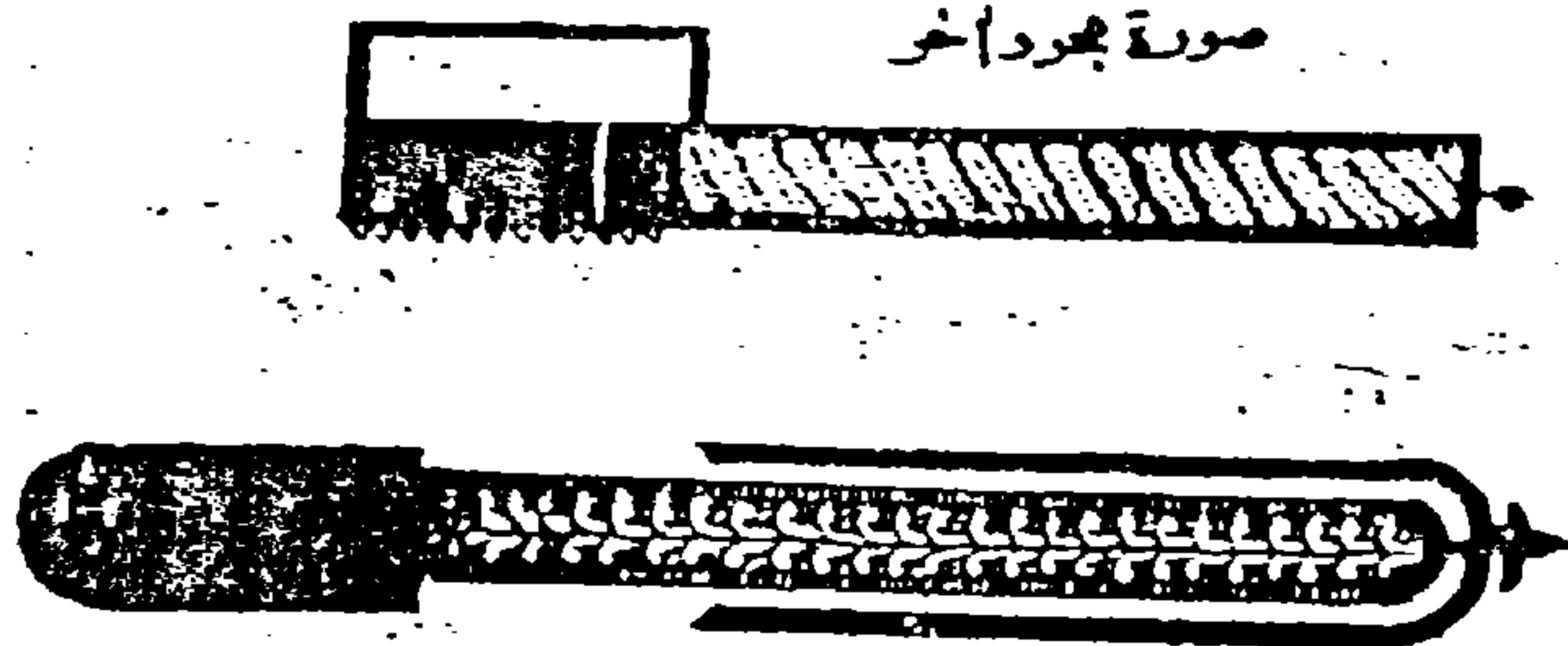
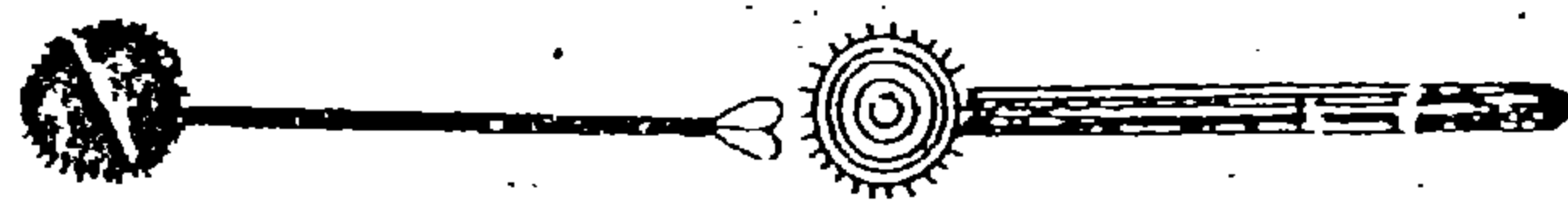
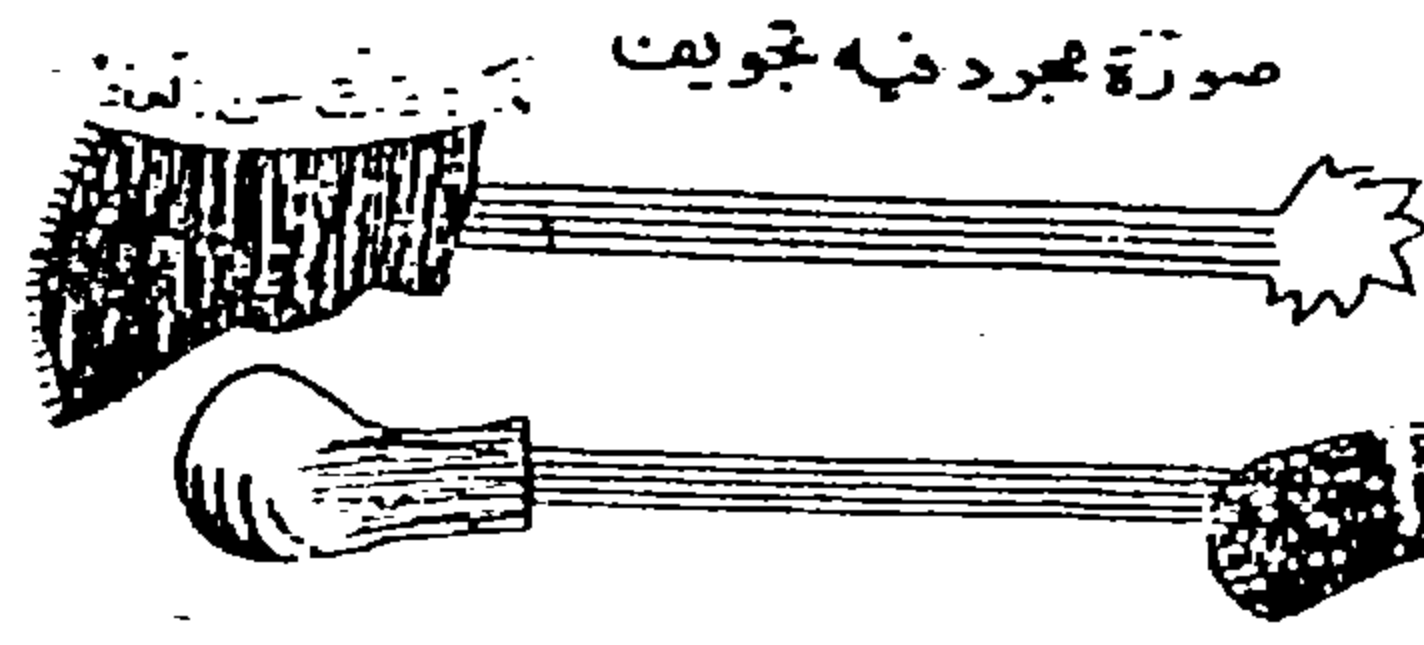
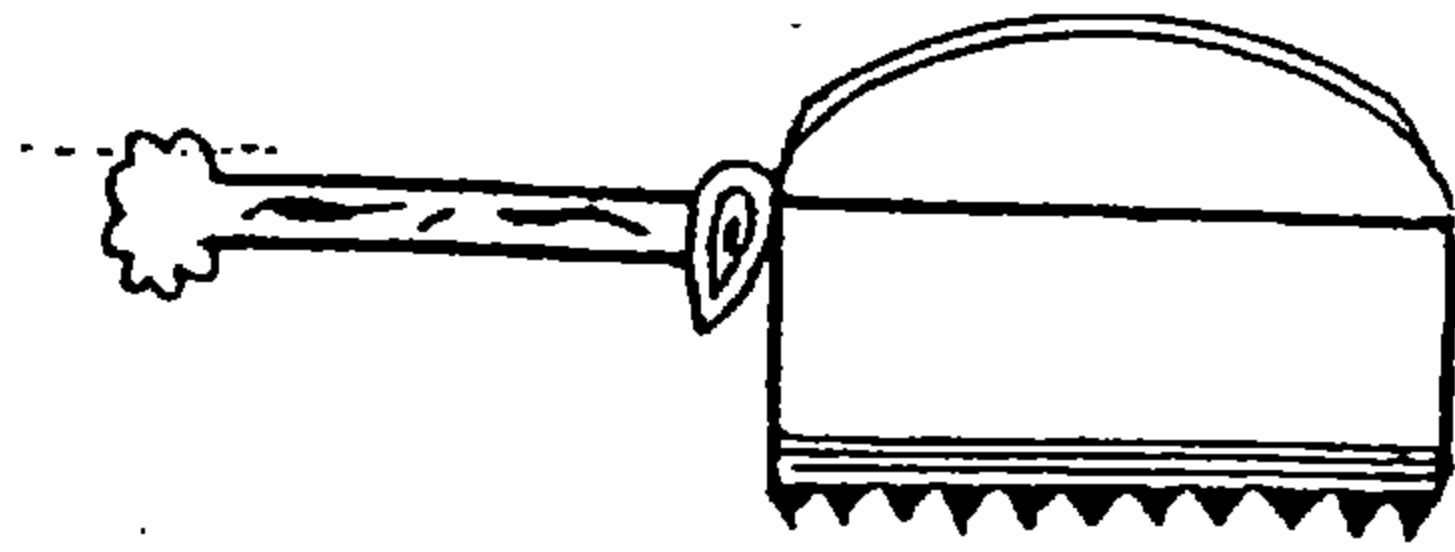
(عن الزهراوى)



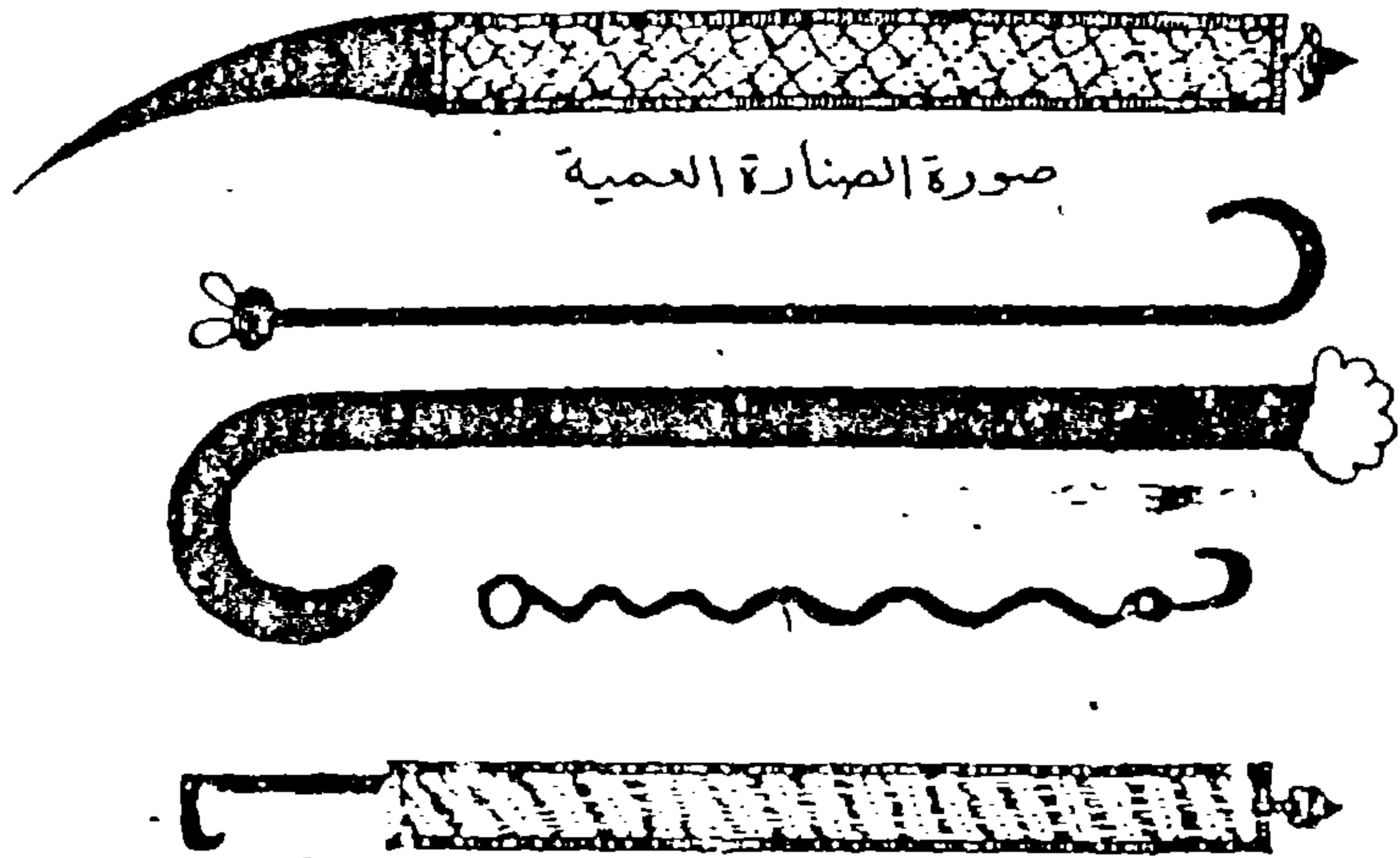
(شكل - ١٢)

صور مختلفة التي يستعملها الكبار والصغار

(عن الزهراوى)

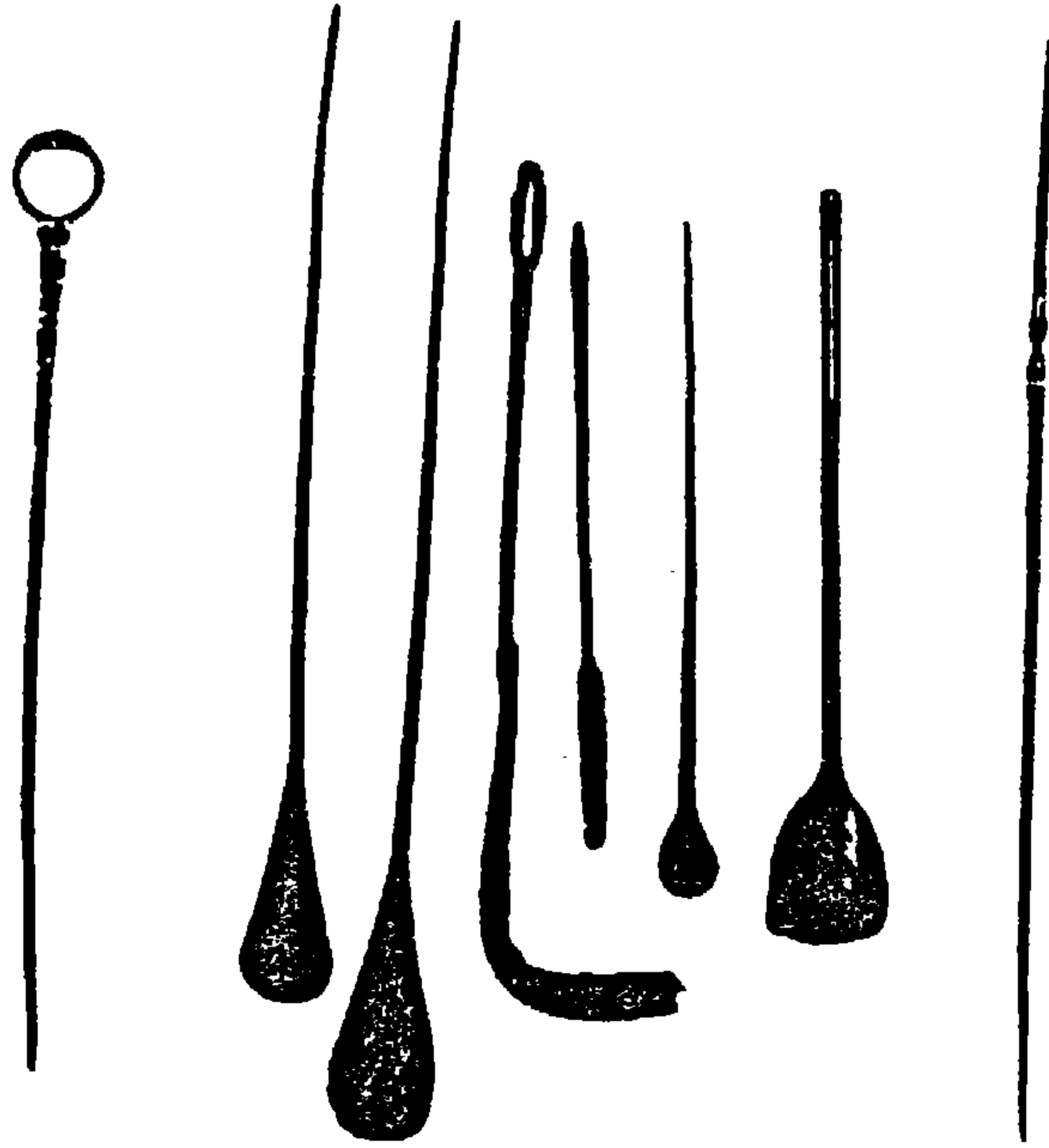


(شکل - ۱۳) صور مناشیر و مجارد لقطع وتسوية العظام (عن الزهراوى)



(شكل - ١٤)

(عن الزهراوى)



(شكل - ١٥)

مجموعة من الملاعق المكثية من العصرين اليوناني والروماني
محفوظة بتحف كلية الآثار بالقاهرة (عن د. عنايات محمد)

Carneilius, S. Medizin der Pharaonen أدوات جراحة بعبد كوم أمبو (لوحة - ١)

القسم الأول بعض : ١ - فسطرة مائة . ٢ - قمية . ٣ - مشرط .

٦ - ملعقة مكحتية ٧ ، ٩ - مناقب نارية

٨ - منشار لنشر العظام ١٢ ، ١٣ - قرون حيوانية .

القسم الثاني : ١ ، ٣ - ثلاث صنابير ٤ ، ٦ - ثلاث ملاعق مكحتية

٧ - حافظة كنانة ٨ ، ٩ - ماسكات فوط (حفت)

١٠ - شعلة ١١ - أناء

١٢ - منجرة ١٣ ، ١٤ - أناء وسكين .

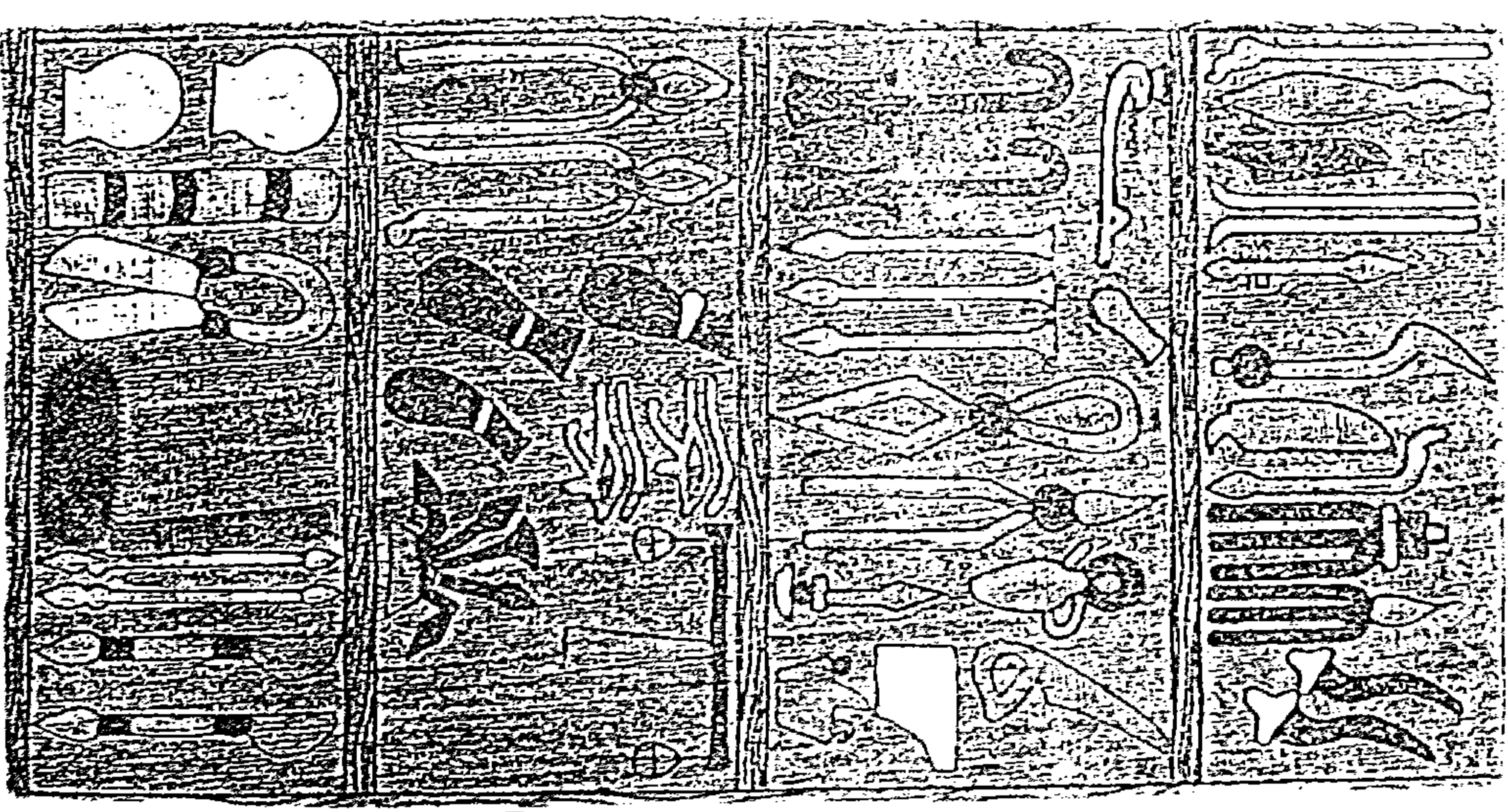
القسم الثالث : ١ ، ٢ - كلايتان ٣ ، ٤ - حافظتان

٥ ، ٦ - قيماتان ٧ - ميزان ٨ - علامة

القسم الرابع : ١ ، ٢ - أنامين ٣ - لفافة ٦ ، ٧ - ملاعق

٤ - حفت ٥ - أسفنجية ٨ ، ٩ - قنطريتان

(شرح د. عنايات محمد)



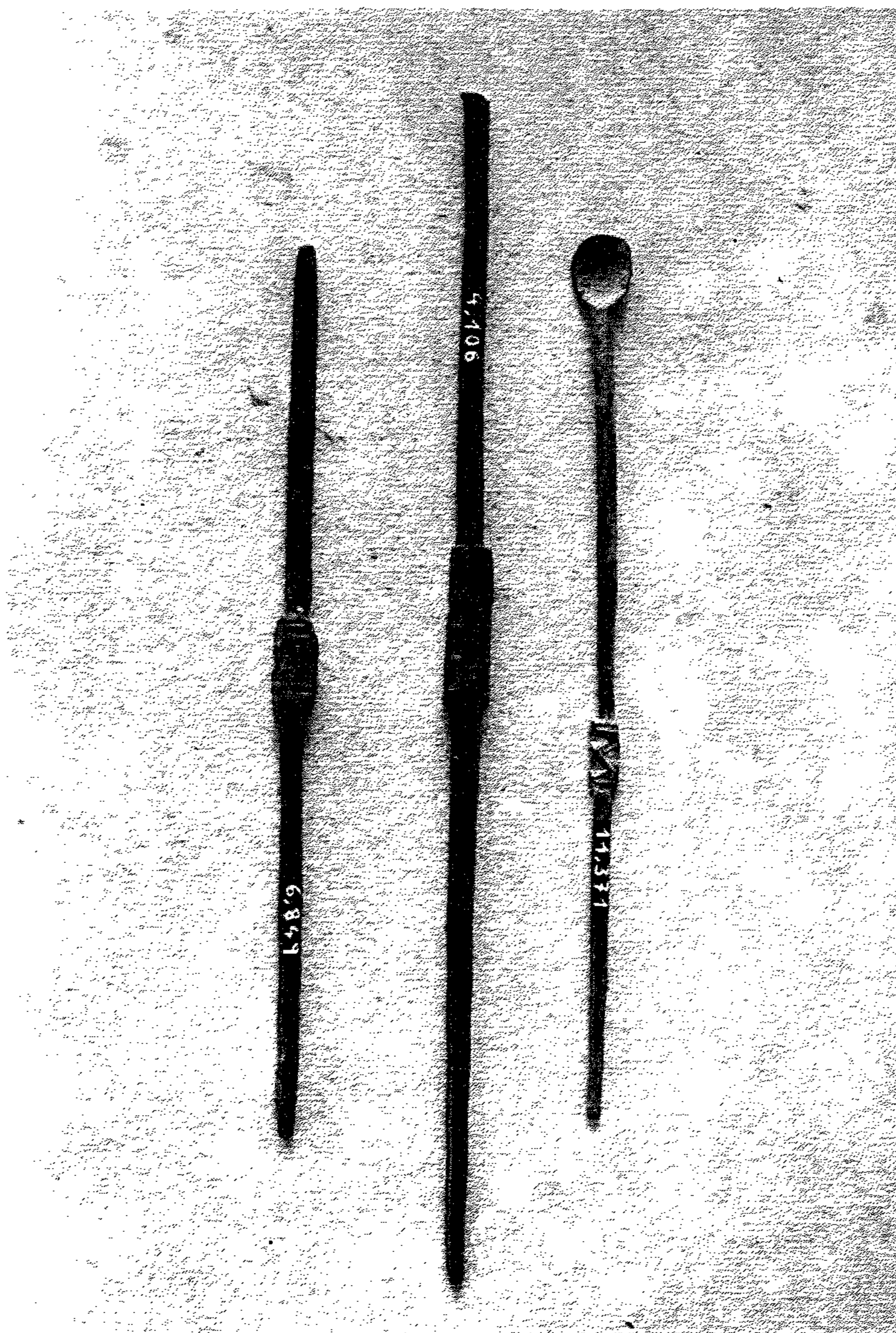


أ ب ج

(لوحة - ٢)

ثلاث آلات جراحية محفوظة في متحف قرطبة الأثرى

(نشر الباحثة)

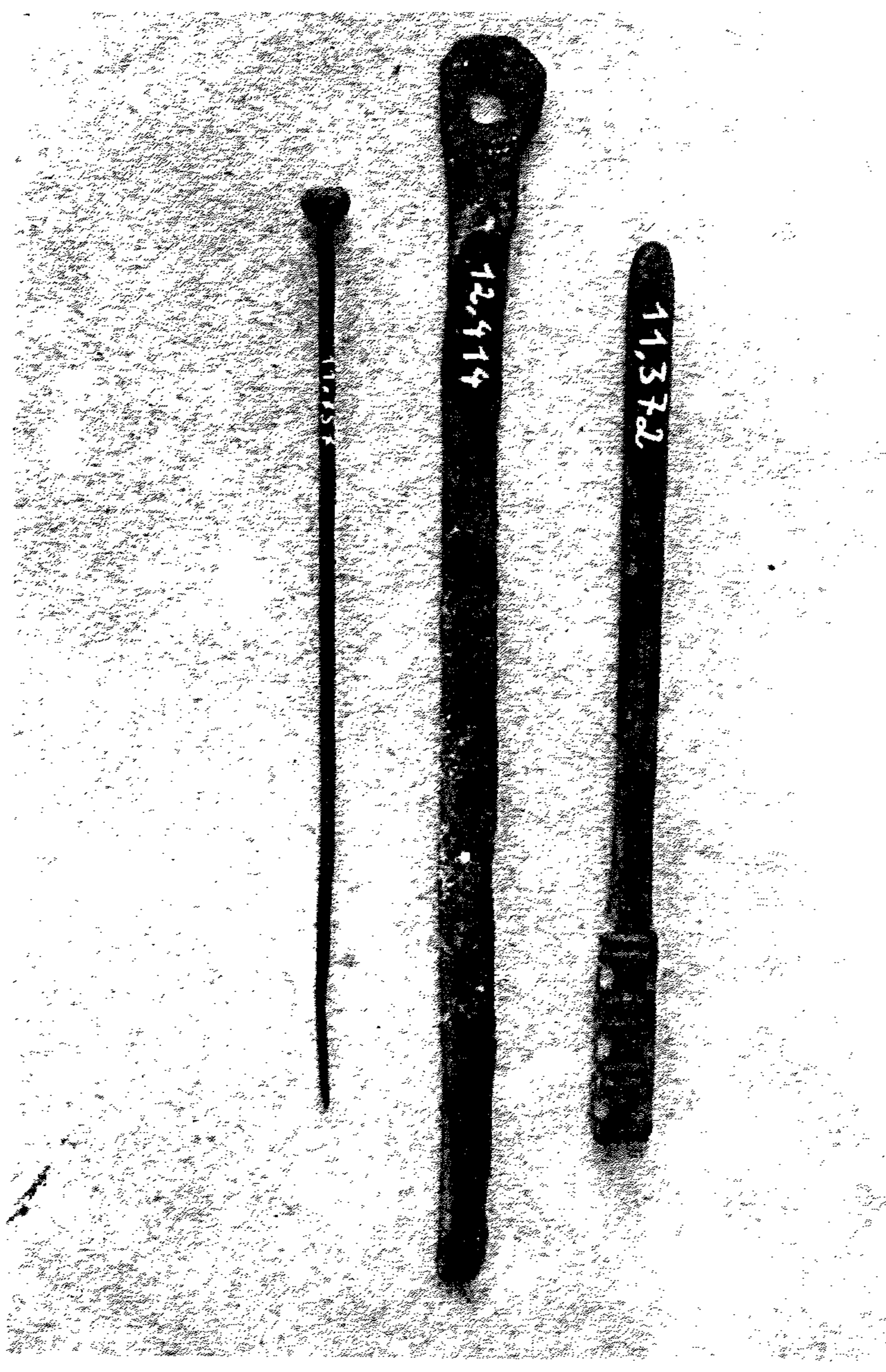


ج . ب . ا

(لوحة - ٣)

ثلاث آلات جراحية محفوظة في متحف قرطبة الأثرى

(نشر الباحثة)



ج ب ا

(لوحة - ٤)

ثلاث آلات جراحية محفوظة في متحف قرطبة الأثرى

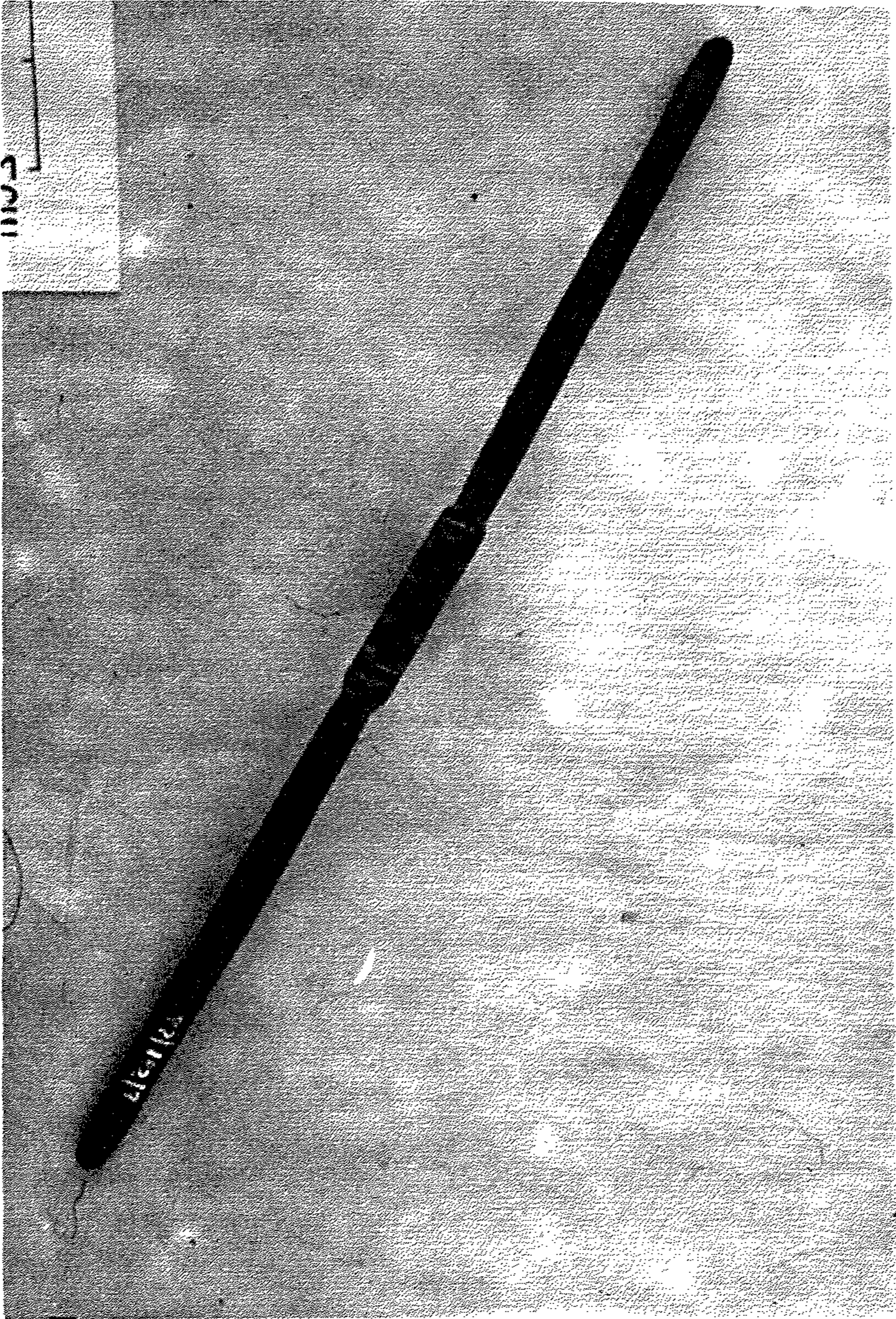
(نشر الباحثة)



(لوحة - ٥)

آلة جراحية محفوظة في متحف مدريد الوطني

(نشر الباحثة)



(لوحة - ٦)

آلة جراحية في متحف مدريد الوطنى

. (نشر الباحثة)

الهوامش

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة - الطبعة الرابعة - دار الهلال - بيروت .
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - ص ٤١٥ .

راجع : المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربية - الطبعة الثالثة - ١٩٨٥ - الجزء الثاني - ص ٥٦٩ . ومن يقوم بحرفة الطب أو الطبابة يعرف باسم الطبيب جمع أطبه وأطباء - راجع - نفس المعجم - ص ٥٦٩ .

(٢) كان العرب يبحثون عن العلاج لأمراضهم التي تصيبهم بما يتوافر لهم في بيئتهم من أعشاب ونباتات أو بطرق أخرى كالكي بالنار أو الحجامة ، وحينما جاء الرسول شجع على التداوى والبحث عن العلاج .

راجع: ابن القيم (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزي) زاد المعارف في هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تاريخ - ج ٣ - ص ٦٣ ، وكذلك راجع عبد العزيز بن إبراهيم العمرى - الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول - مركز التراث الشعبي - الدوحة - ١٩٨٥ - ص ٢٤٢ .

(٣) أبقرات من مشاهير الطبقة الحكيمة الرومية اليونانية ومسكنه (قو) وهي مدينة حمص من أرض الشامات ، وهو الذي تكلم في الطب وألف فيه الأسفار والكتب ، وهو صاحب كتاب الفصول ، وكتاب تقدم المعرفة وكتاب أفيزيميا ، وكتاب الأمراض الحادة ، وكتاب الجبر والخلع ، وكتاب طبيعة الإنسان ، وكتاب الاخلاط ، وغيرها كتب كثيرة، ولعله قد توفي في عام ٣٥٧ ق.م. راجع

ابن جلجل (أبي داود سليمان بن حسان الأندلسي) - طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد سيد - نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة - ١٩٥٥ - ص ١٦ ترجمة رقم ٦ .

(٤) من أهل مدينة برغمش ببلاد آسيا شرقى القسطنطينية ، وهو سادس القياصره الذين ملكوا روما ، وبرع في الطب وجميع العلوم الرياضية ، وحدد من علم أبقرات وشرح من

كتبه ما كان قد درس وغمض على أهل زمانه ، وهو مفتاح الطب وله فيه ستة عشر (١٦) ديواناً منها كتاب فى الأدوية المفردة وآخر فى الأدوية المركبة وثالث فى العلل والأعراض ، وألف فى علم التشريح سبع عشرة مقالة - (المزيد من التفاصيل راجع ابن حلجل - نفس المصدر - ص ٤١-٤٤) .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام. معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م - ص ١٢٨ .

(٦) ورد فى تراجم طبقات الأطباء ما يفيد بأن من كان يمارس مهنة الجراحة فى الطب يسمى صانعاً بيده أو حاذقاً بيده أو خادماً بيده راجع - ابن حلجل. طبقات الأطباء والحكماء - ص ٩٦ ترجمة رقم ٣٨ ، ص ٩٧ ، ترجمة رقم ٣٩ ، ص ٩٧ - ٩٨ ، ترجمة رقم ٤٠ ، ص ١٠٠ ، ترجمة رقم ٤٣ .

وكذلك راجع: ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم الخزرجى) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. تحقيق د. نزار رضا. بيروت ١٩٦٥ . ص ٤٨٦ ، ص ٤٨٨ ، ص ٤٩٢ . أما الطبيب فهو الذى يقوم بمهنة الطب. راجع ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد العسقلانى) . فتح البارى بشرح صحيح البخارى. ٢٨ جزءاً فى ١٤ مجلداً. مكتبة الأزهرية القاهرية - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - ج ٢١ - ص ٢٤٨ .

(٧) الحجامة: الحجم هو المص ، يقال للحاجم (أحجام) لامتصاصه فم الحجم ، والمحجم والمحنة بالكسر. ما يحجم به ، وهى الآلة التى يجمع فيها دم المحجوم عند المص ، والمحجم أيضاً مشروط الحجام وحرفته الحجامة . راجع الزبيدى (محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسينى الواسطى) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ - ج ٨ - ص ٢٣٧ .

والحجامة كانت شائعة عند العرب وهى من ضروب العلاج والتداوى وتكون بإخراج الدم من الجسم بكميات معينة ، وفى مواضع معينة ، وأوقات محددة ، وليس أدل على أهميه الحجامة وتداولها فى بداية العصر الإسلامى من أن البخارى وضع فى صحيحه

أبواباً تتعلق بالحجامة وهى « باب الحجامة من الداء » و « باب الحجامة على الرأس »
و « باب الحجامة من الشقيقة والصداع » .

راجع : ابن حجر - فتح البارى - ج ٢١ - من ص ٢٦٧ إلى ص ٢٧٠ ، وكذلك عبد
العزیز العمرى - الحرف والصناعات - ص ٢٥٢ .

(٨) لم يكن التقليل من شأن الجراحة بالنسبة للطب مقصوراً على العرب فقط ، بل وجد هذا
الوضع أيضاً عند اليونان وقد جاء فى قسم أبقراط لممارسة مهنة الطب نص على العبارة
التالية « وآلا استعمل الموضع ولو على يقين فى علاج المرضى بالحصيات وإنما أعالجهم
بمقتضى ما يراه ذو الخبرة . يمثل هذا العلاج » .

راجع : الجراحة عند العرب - مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب -
ج ١ - أشترك فى تأليفه مجموعه من العلماء - من مطبوعات الجمهورية العربية الليبية -
بدون تاريخ - ص ٩٧ .

ومن الأمثلة الواضحة أيضاً على عدم العناية بمهنة الجراح فى الطب حتى عهد قريب فى
أوروبا أن مدرسة مونيبلية الطب الشهيرة فى فرنسا ألغت خلال القرن السابع عشر
دراساتها الجراحية وأصدرت أمراً يحرم على تلاميذها دراسة الجراحة ومزاوتها .

راجع - نفس المرجع - ص ٢٤٦ .

(٩) لعل من دواعى الابتعاد عن الجراحة فى بداية العصر الإسلامى بالإضافة إلى كونها من
الصناعات اليدوية أنها مهنة طبية شاقة يحتاج صاحبها لكثير من الدقة والمهارة لضمان
أحسن النتائج ويفسر الزهراوى ذلك بقوله « يا بنى ينبغي لكم أن تعلموا أن العمل باليد
ينقسم إلى قسمين عمل تصحبه السلامة وعمل يكون معه العطب فى أكثر الحالات » راجع .
(أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى - المقالة الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز
عن التصريف - ص ٣) .

ولعل هذا السبب يرتبط بما كان شائعاً قديماً عند اليونان حيث ذكر الزهراوى نقلاً عن
أبقراط بأن « الأطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل ولا سيما فى صناعة اليد »

راجع - نفس المصدر - ص ٢ .

(١٠) عبد المنعم ماحد-تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى-القاهرة-١٩٧٣-ص٢٤٤.

(١١) على عكس القاعدة الشرعية التى تحرم تشريح جسم الإنسان نجد ابن رشد يجعل التشريح وسيلة من وسائل الإيمان بالله حيث عبر عن ذلك بقوله : « من اشتغل بعلم التشريح أزداد إيماناً بالله » راجع . ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٣٢ .

كما أن الزهراوى جعل من التشريح أساس علم الجراحة حيث أكد على ذلك بقوله : « وينبغى لصاحبها (أى مهنة الجراحة) أن يرتاض قبل ذلك فى علم التشريح الذى وضعه جالينوس حتى يقف على منافع الأعضاء وهياتها ومتدرجاتها واتصالها وانفصالها ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها » .

راجع الزهراوى - التصريف لمن عجز عن التأليف - المقالة الثلاثون - ص ٢ .

(١٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام . ص ١٣٠ ، وهذه الطريقة فى التعرف على الجسم البشرى عرفها المصريون القدماء حيث كانت الحيوانات المذبوحة تمثل مصدراً لمعرفة أجزاء الجسم البشرى والدليل ذلك على أنهم عبروا عن بعض أجزاء من الجسم البشرى بما يقابله فى الحيوان مثل الأسنان التى كان يعبر عنها بناب الفيل ، والأذن التى يعبر عنها بأذن ثور - راجع .

Ghalioungui, P.; Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlos of Royal mumies, London, 1980, P. 58 .

ويرجع اتجاه الطب الفرعونى إلى الذبائح من الحيوانات الثدية إلى تحريمهم لفكرة التشريح الآدمى وذلك لأن عقيدة البعث والخلود عندهم تستلزم ضرورة وجود الجسد وقت الوفاة فى حالة سليمة ولعل هذا ما عاق تقدم الطب الفرعونى الذى أحيط بسياج من الدين فقيد انطلاقته - راجع

Peck H . W ., Mummies of Ancient Egypt, Mummies disease and ancient cultures, New York, 1980, P. 12 .

(١٣) يرجع الفضل فى تطبيق علم التشريح على الآدميين لأول مرة فى تاريخ البشرية إلى مدينة الإسكندرية ومدرستها المعروفة (بدار الحكمة) والتى تبوت مركز الصدارة فى العلوم الطبيعية فى العصرين اليونانى والرومانى أى على مدى خمسة قرون (منذ

بداية القرن ٣ ق. م. وحتى نهاية القرن ٢ م) وكانت دروس التشريح تتم عملياً فى قاعات أعدّها الملوك البطالمة خصيصاً لهذا الغرض وفيها مارس الأطباء وعلى رأسهم « هيروفيلوس » فنون التشريح على جثث الموتى والأحياء من المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام - راجع :

Aluguste couat Alexandria poetry under the first threee (324-222 B.C.) London, P. 77.

(14)Hurry Y. B; Imhotep the vizier and physicion of king zoser and of terwards the Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926, P.77.

(١٥) يدل على ذلك شرحهم الدقيق والصحيح فى التشريح ومخالفتهم لكثير من آراء السابقين من أطباء اليونان ، فقد ناقش ابن النفيس فى كتاب (شرح تشريح القانون) تشريح العظام والقلب والرئة ، ووصف الدورة الدموية الصغرى (الدورة الدموية) وكثير من مكونات الجسم مما يدل على ممارسته للتشريح ، وموفق الدين البغدادى فى كتاب (الإفادة والاعتبار) أول من أشار إلى مواطن الخطأ فى وصف جالينوس وقد ذكر أن الفك مكون من قطعتين ولكن الرازى أثبت أنه قطعة واحدة .

راجع : هنرى أمين عوض - الجراحة فى العصر الحديث الإسلامى . مجلة دراسات أثرية إسلامية نشر هيئة الآثار المصرية - المجلد الثالث - القاهرة - ١٩٨٨ - ص ٢٧٢ .

(١٦) من أشهر ناقلى كتب الطب اليونانى من العرب يوحنا بن ماسويه - راجع ابن حنبل - طبقات الأطباء - ص ٦٥ ترجمة رقم ٢٥ ، وحنين ابن اسحاق - نفس المصدر - ص ٦٨ ترجمة رقم ٢٤ ، قسطا بن لوقا البعلبكي - نفس المصدر ، ص ٧٦ ، ترجمة رقم ٢٧ .

(١٧) هنرى عوض - المرجع السابق ص ٢٧٥، ٢٧٦ حيث الإشارة إلى مشاهير الأطباء الذين مارسوا الجراحة فى العصور الإسلامية المختلفة.

(١٨) أبو القاسم الزهراوى - التأليف لمن عجز عن التصريف - ص ٦٥، ويجدر بالذكر أن القدماء المصريين عرفوا الكى وحذا حذوهم اليونان والرومان وأن كان يستخدم الكى عند القدماء المصريين قد اقتصر فقط على علاج بعض الأورام السرطانية ويؤكد ذلك ما جاء فى برديتى أدوين سميث وايرس الخاصة بالجراحة عن الفراعنة - راجع :

Breasted, Y. H, The edwin Smith surgical papyrus, 2Vols, Chicago 1930 , cases nos 7, 9, 10, 12, 30

وكذلك Ebbell, B; The papyrus Ebers, copenhagen, 1937

وكذلك راجع وفاء احمد السيد بدار : الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة . دراسة تاريخية وحضارية . مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية ١٩٩٣-ص ٨٤ .

(١٩) استخدام الخيط فى تضميد الجروح كان معروفاً منذ أقدم العصور حيث أستعمله المصريون القدماء ولكن على نطاق ضيق حيث كانوا يفضلون فى الغالب أسلوب آخر لتضميد الجروح يعتمد على ضم حافتى الجرح ووضع قطعة من اللحم الطازج عليها لوقف النزيف -

Petrie F; Tools and Weapons, London, 1917, P. 58 .

أما فى العصرين اليونانى والرومانى فقد اختلف الأمر تماماً حيث شاع استخدام الخيط فى تضميد الجروح ، والدليل على ذلك ما عثر عليه من أبر طبية محفوظة الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف كلية الآثار تحتفظ بآثار من تلك الخيوط التى يصعب التعرف على نوعها .

راجع : عنايات محمد أحمد - الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى - مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية - المجلد الثانى والأربعين - ١٩٩٤ ص ٤٢٨ .

ومن جانبى أرجح أن الخيط الذى كان يستخدم فى تضميد الجروح عند قدماء المصريين وكذلك اليونان والرومان كان من مادة الكتان نظراً لشيوع استخدام هذه المادة فى صناعة الحافظات المخصصة لحفظ القتائل الكتانية التى كانت تستخدم للحشو بعد أن تشبع بالعقاقير ، بالإضافة إلى استخدامها فى صناعة القوط الكتانية المعقمة التى كانت توضع على الجلد حول المنطقة التى سيجرى فيها العملية الجراحية ، ويستدل على ذلك وجود بعض أشكال هذه الأدوات على لوحة طبية بالجدار الغربى من معبد كوم أمبو فى أدفو - (لوحة رقم ١ - القسم الثالث) .

(٢٠) محمد مصطفى السمرى - التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - السنة

الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢ - ص ١٠٤ .

(٢١) عبد المجيد نعنعي - الإسلام في طليطلة - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت بدون تاريخ ص ٢٥١-٢٥٢.

(٢٢) ابن جلعج - طبقات الأطباء - ٩٢.

(٢٣) نفس المصدر - ص ٩٤، وكذلك ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء - ص ٤٨٦-٤٨٧.

(٢٤) السيد عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - نشر مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠ - جزآن - الجزء الثاني - ص ٢١٢، عبد المجيد نعنعي - الإسلام في طليطلة - ص ٢٥٢.

(٢٥) كان من أشهر من رحل إلى المشرق لتلقى العلوم الطبية :

أ - أحمد وعمر ابنا يونس بن أحمد الحراني حيث رحلا إلى المشرق في دولة الخليفة عبد الرحمن الناصر وأقاما هناك عشرة أعوام ، ودخلا بغداد وقرأ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابي كتب جالينوس عرضاً ، وخرجا ابن وصيف في علل العين ، وانصرفا إلى الأندلس في دولة المستنصر بالله ، وذلك في عام إحدى وخمسين وثلثمائة وألحقهما في خدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء وأستخلصهما لنفسه دون غيرهما مما كان في ذلك الوقت من الأطباء . راجع

• ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء - ص ٤٨٧.

(ب) أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداى الذى سافر من الأندلس إلى الديار المصرية واشتهر في أيام الأمر بأحكام الله .

• ابن أبي أصيبعة - نفس المصدر - ص ٤٩٩.

(ج) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ، وهو من بلده دانيه من شرق الأندلس ، وكان من أكابر الفضلاء في صناعة الطب ، وقد رحل من الأندلس إلى مصر وأقام بها عدة سنوات ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس وكان رحيله إلى مصر في حدود عام ٥١٠هـ / ١١١٦م.

• ابن أبي أصيبعة - نفس المصدر - ص ٥٠١ - ص ٥٠٢.

(٢٦) ابن جليل - طبقات الأطباء ص ٩٧ - ص ٩٨ حيث الإشارة إلى أنه فى عهد عبد الرحمن الناصر تتابعت الخبرات فى أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان فى صدر دولته من الأطباء المشهورين .

(٢٧) ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق - ص ٤٩٣ - ص ٤٩٤ حيث الإشارة إلى تفاصيل ما نقله عن ابن جليل بشأن وصول الراهب البيزنطى نقولا إلى قرطبة بناء على طلب الخليفة عبد الرحمن الناصر ليساهم فى نقل مخطوطة ديسقوريدس الطبية إلى العربية والتى كان قد أهداها قسطنطين السابع أرمانىوس إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م .

(٢٨) ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء - ص ٤٩٢ . وكذلك عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - ج ٢ - ص ٢١٤ .

(٢٩) نفس المصدر - ص ٤٩٢ .

(٣٠) نفس المصدر - ص ٤٩٦ .

(٣١) نظرة العلماء والمؤرخين غير العرب للطب العربى - مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب - ج ١ - ص ٢٤٩ .

(٣٢) من مشاهير أطباء عصر الموحدين :

(أ) أبو جعفر بن هارون الترجالى : وقد خدم لأبى يعقوب والد المنصور .

راجع ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق - ص ٥٣٠ .

(ب) أبو الوليد بن رشد : وقد ترك كتباً عديدة فى الفلسفة وعلم الكلام والطب جعلته من أشهر مفكرى العصور الوسطى ، ومن مؤلفاته الخاصة بالطب والعقاقير كتاب الكليات ، وتلخيص كتاب الأدوية المفردة لجالينوس وكتاب الحميات .

راجع ابن أبى أصيبعة - نفس المصدر - ص ٥٣٠ - ٥٣٣ .

(ج) أبو الحجاج يوسف بن موراطير ، وقد خدم بصناعة الطب المنصور أبا يوسف يعقوب ، ولما توفى المنصور خدم لولده الناصر ، ومن بعد الناصر خدم لولده أبى يعقوب يوسف المستنصر بن الناصر وكان حظياً عند المنصور .

راجع - ابن أبى أصيبعة - نفس المصدر - ص ٥٢٣-٥٢٤.

(٣٣) راجع ابن جليل - طبقات الأطباء - ص ٩٤، ص ١٠٤، ١١٠، وكذلك ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء ٤٧٩، ص ٤٨١، ص ٤٨٩، ص ٤٩١، ٤٩٥، ص ٤٩٧، ٤٩٩، ص ٥٣٥ - حيث الإشارة إلى نماذج من هؤلاء الأطباء الذين مارسوا إلى جانب الطب أيضاً علوم أخرى .

(٣٤) راجع ابن جليل - المصدر السابق - ص ١٠٠، ص ١٠٤، ص ١١٢، وكذلك ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق - من ص ٤٨٧، إلى ص ٤٨٩، ص ٤٩٢، ص ٤٩٥، ص ٤٩٦، ص ٥٢٤، حيث الإشارة إلى بعض من الأطباء الذين تولوا مناصب فى الدولة .

(٣٥) من بين هذه الأسر الطبية أسرة الحرانى ومن أشهر أبنائها أحمد وعمر ويونس بن أحمد راجع ابن جليل - المصدر السابق ص ١١٢، وابن أبى أصيبعة - المصدر السابق ص ٤٨٦-٤٨٧.

وأيضاً أسرة أسحق الطبيب ، وأسرة الكنانى ، وأسرة حسداى بن أسحق ، وأسرة ابن زهر ومن أشهر أبنائها أبو مروان ، وأبو العلا ، وأبو مروان بن أبو العلاء ، والحفيد أبو بكر ، وأبو محمد بن الحفيد .

راجع ابن أبى أصيبعة . المصدر السابق ص ٤٨٨، ص ٤٩١، ص ٤٩٨، ص ٤٩٩، ص ٥١٧، - ٥٣٠.

(٣٦) تقاليد وآداب المهنة الطبية عند العرب . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب . ج ١ . ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٣٧) ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء ص ٥٠١ حيث الإشارة إلى أنه كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج .

(٣٨) سالم - قرطبة حاضرة الخلافة . ج ٢، ص ٢١٤، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية . ص ٢٤٨.

(٣٩) ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والعبرية ، وطبع باللاتينية بعنوان .

كما نشر بالعربية واللاتينية فى Oxford عام ١٧٧٨م، وله ترجمة فرنسية على يد
Leclerc بعنوان . La chirurgi de, Abulcasis, Paris 1861

عبد المنعم ماجد . المرجع السابق ص ٢٤٨ ، حاشية رقم ٣ .

كما ترجم هذا الكتاب إلى العبرية ونال شهرة واسعة فى البلاد المسيحية حيث كانت
شهرته فى الجراحة عظيمة حتى بين المحدثين ، وهكذا أنتشر هذا الكتاب وجذب إليه
الاهتمام فى الجراحة أكثر مما اجتذبت جراحة الثلاثة العرب المشهورين الرازى .
والجوسى . وابن سينا .

مشاهير العرب فى الصيدلة . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند
العرب ، ج ٢ . ص ٤٠٨ .

(٤٠) غير الزهراوى عن مدى استيائه لما كانت عليه الجراحة حتى زمانه الامر الذى دفعه
لتقديم تلك المقالة الجراحية موضعاً منهجه والجديد الذى سوف تقدمه المقالة حيث
يقول: « العمل باليد مخسة فى بلدنا وفى زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يدرس علمه
وينقطع أثره وإنما بقى منه رسوم يسيره فى كتب الأوائى قد صفحته الأيدى وواقعة الخطأ
والتدنى حتى استغلت معانية وبعدت فائدته فرأيت أن أحيه وأؤلف فيه هذه المقالة على
طريق الشرح والبيان والاختصار وأن أتى بصور جديدة للكى وسائر الآلات للعمل باليد
إذ هو من زيادات البيان ومن وكيد ما نحتاج إليه »

الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف . المقالة الثلاثون . ص ٢ .

(٤١) هنرى عوض . الجراحة فى العصر الإسلامى . ص ٢٧٨ .

(٤٢) المقالة المذكورة عبارة عن نسخة خطية نسخها أحد تلاميذ الزهراوى وقد كانت بحوزة
الأستاذ الدكتور محمد رفيق خليل أستاذ الجراحة العامة بكلية الطب جامعة الإسكندرية
وقد تفضل سيادته بإعارتي لهذه النسخة التى استفدت منها استفادة كبيرة ، وبهذه
المناسبة أتوجه لسيادته بخالص الشكر وعظيم التقدير على أنه سمح لى بالإطلاع على تلك
النسخة فضلاً عما قدمه لى من آراء وتفسيرات لاستخدامات بعض أدوات الجراحة التى
تضمنها البحث .

(٤٣) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف . ص ١٩-٢٠ .

(٤٤) شكل ١ .

(٤٥) نفس المصدر ص ٢٠-٢١ .

(٤٦) شكل ٢، ٣ .

(٤٧) نفس المصدر . ص ٢٢ .

(٤٨) شكل ٤، ٥ .

(٤٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص ٢٩ .

(٥٠) شكل ٦ .

(٥١) الزهراوى - نفس المصدر ص ٣٣ .

(٥٢) نفس المصدر . ص ٣٥-٣٦ .

(٥٣) لخص الزهراوى تلك النصائح بقوله « ... ولا تقدموا على شئ من ذلك إلا بعد علم يقين يصح عندكم بما تصير إليه العاقبة المحمودة . واستعملوا فى علاج مرضاكم تقدمه المعرفة والإنذار إلى ما يؤول إليه السلامة ، فإن لكم فى ذلك عوناً على اكتساب الثناء والمجد والذكر الكريم » .

الزهراوى . نفس المصدر . ص ٣٦-٣٧ .

(٥٤) نفس المصدر . ص ٦٢ .

(٥٥) نفس المصدر . ص ٦٢-٦٣ .

(٥٦) شكل ٧ .

(٥٧) الزهراوى . نفس المصدر . ص ٧٤-٧٥ .

(٥٨) هو رأى صحيح لا يزال الآن . راجع الموحز فى تاريخ الطب ، ص ١١٣ .

(٥٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص ٧٩ .

(٦٠) نفس المصدر . ص ٨٢ .

(٦١) شكل ٨.

(٦٢) الزهراوى . المصدر السابق . ص ٩٠-٩١.

(٦٣) شكل ٩.

الزهراوى - نفس المصدر ص ٩٦ حيث الإشارة إلى أن « الأوائل لم تذكر الاختتان فى شئ من كتبها لأنه لم يكن يستعمل فى شرائعهم وإنما هو ما اكتسبناه بالتجربة » .
وواضح من نص الزهراوى أن عملية الختان لم تكن معروفة عند القدماء غير أن الواقع غير ذلك ، فالدراسات الحديثة أثبتت أن المصريين القدماء قد مارسوا عملية ختان الذكور حيث وجدت تلك العملية مصوره على العديد من الرسوم الجدارية المصرية القديمة (الفرعونية) . راجع

Mahmoud Karim, Circunncision & mutilations Male & Female, London, 1995 .

(٦٤) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٠٠-١٠١ .

(٦٥) الموجز فى تاريخ الطب . ص ١٢٣.

(٦٦) نفس المرجع . ص ١٢٣.

(٦٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١١١ .

(٦٨) الموجز فى تاريخ الطب ص ١٢٨.

(٦٩) نفس المرجع . ص ١٢٩.

(٧٠) الزهراوى . التأليف لمن عجز عن التصريف . ص ١٢١-١٢٤.

(٧١) شكل ١٠.

(٧٢) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٣٨.

(٧٣) الموجز فى تاريخ الطب . ص ١٣٢ .

(٧٤) شكل ١١.

(٧٥) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٣٤.

(٧٦) شكل ١٢.

(٧٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٣٥.

(٧٨) نفس المصدر . ص ١٣٥-١٣٨.

(٧٩) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف . ص ١٤٤-١٥٥.

(٨٠) شكل ١٣.

(٨١) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٥٩.

(٨٢) شكل ١٤.

(٨٣) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٦٠.

وينطبق هذا الوصف تماماً مع ما يقوم به الأطباء فى العصر الحالى حيث تسمى هذه العملية Stripping of the veins وبهذا يكون الزهراوى أول جراح استخدم طريقة سل العروق لعلاج دوالى الساق وذلك منذ حوالى ألف عام تقريباً . ولم تستخدم هذه الطريقة فى وقتنا الحاضر إلا منذ حوالى ثلاثين عاماً فقط بعد إدخال بعض التعديل عليها.

راجع . الموجز فى تاريخ الطب . ص ١٤٢.

(٨٤) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٨٤.

(٨٥) الزهراوى - التصريف . ص ١٨٤-٢٣٨.

(٨٦) ابن حليجل . طبقات الأطباء ص ٩٧ ، ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء . ص ٤٨٦.

(٨٧) ابن حليجل . نفس المصدر . ص ٩٦ ترجمة رقم ٣٨ ، ابن أبى أصيبعة . نفس المصدر .

ص ٤٨٥-٤٨٦.

(٨٨) ابن حليجل . طبقات الأطباء ص ١٠٠ ، وابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء . ص ٣٨٨.

(٨٩) ابن حليجل . نفس المصدر . ص ١١٢ ، ابن أبى أصيبعة . نفس المصدر . ص ٤٤٨.

(٩٠) فى مقابلة مع الأستاذ الدكتور محمد رفيق أستاذ الجراحة بكلية الطب جامعة الإسكندرية أكد لى بأن هذه الآلات كانت تستخدم فى كحت الأورام الخاصة بالنساء . وتتفق

أشكال تلك الأدوات مع مجموعة من الأدوات المحفوظة حالياً فى متحف كلية الآثار بالقاهرة (شكل - ١٥) والمصورة على جدران معبد كوم أمبو (لوحه رقم ١ - القسم الأول رقم ٤ ، القسم الثانى من ٤ - ٦ ، والقسم الرابع من ٦ - ٧ والتي كانت تستخدم فى مجال أمراض النساء فى العصرين اليونانى والرومانى وبخاصة فى إزالة الأجزاء غير الصحية من جدار الرحم ويؤكد ذلك أن هيروفيلوس فى العصر البطلمى قام بتشريح الرحم عند المرأة على سيدات مسنات - راجع

Fraser P. M, Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972, P. 250.

وكذلك عنايات محمد : الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى ، ص ٤١٦ ، ص ٤٢٣ ، ص ٤٢٩ ،

وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن تلك الأدوات الملحقه تمثل استمراراً لما كانت عليه نظائرها فى العصرين اليونانى والرومانى من حيث الشكل والاستخدام .

(٩١) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه

ويصف الزهراوى عملية قطع اللحم الزائد فى اللثة فيقول « كثيراً ما ينبت على اللثة لحم زائد فينبغى أن تعلقه بصناره أو تمسكه بمنقاش وتقطعه عند أصله » .

الزهراوى . التصريف . ص ٦٢ .

وقد ظهرت تلك الصنابير على اللوحة المصورة بمعبد كوم أمبو (لوحه - ١ القسم الثانى) (١-٣) مما يؤكد أن استخدام تلك الآلات كان استمراراً لما كانت عليه فى العصرين اليونانى والرومانى .

(٩٢) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٣) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٤) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٥) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٦) تتم هذه الطريقة على مراحل متعددة تبدأ بعمل الشكل المطلوب من الشمع ثم تحفر عليه جميع التفاصيل المطلوبة ويسمى ذلك « النموذج » ثم يغطى هذا النموذج بطبقات من عجينة الفخار حتى يطبع عليها التفاصيل المنحوتة معكوسة ويسمى ذلك القالب ويراعى دائماً وجود دعائم ل تماسك النموذج مع القالب فضلاً عن وجود فتحتين أحدهما فى الجزء العلوى من القالب لصب المعدن المنصهر والأخرى فى أسفله للتخلص من الشمع الذائب والغازات أثناء عملية الصب .

لطفى خليل : تعدين النحاس . مجلة المتحف . العدد الثانى . ١٩٨٧ ص ٦٢ ، مرجعيت
ترويل : الفن الزخرفى فى أفريقيا . ترجمة مجدى فريد . القاهرة . بدون تاريخ ص ٧٣ .

(٩٧) يبدأ هذا الأسلوب بقطع الرقائق حسب الشكل المطلوب ثم طرقها على آلة مصنوعة من الحديد طرفها من الصلب تعرف بآلة السندان . ويطرق على المعدن بأداة تشبه الجاكوش أو الأجنه التى لاتزال مستعمله حتى اليوم والهدف من عملية الطرق تجميع ذرات المعدن حتى يكتسب مزيداً من الصلابة وإعطاؤه الشكل المراد تنفيذه وبعد تشكيل التحفه فى الصورة المطلوبة تنعم وتصلق بسكين أو بواسطة دواليب حتى تصير ملساء (حنان عبد الفتاح مطاوع . التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية حتى سقوط مملكة بنى الأحمر . رسالة دكتوراه . كلية الآداب جامعة الإسكندرية . ١٩٩٦ ص ٣١٩) .

(٩٨) لوحة ٢-ب ، لوحة ٣ب ، لوحة ٤-أ ، لوحة ٦،٥ .

(٩٩) لوحة ٢-ج ، لوحة ٣أ .

(١٠٠) لوحة ٢أ ، ب ، ح

(١٠١) لوحة ٦ . وحدير بالذكر أن أشكال المعينات المتداخلة رأسياً أو أفقياً قد استخدمت على نطاق واسع فى العديد من المنتجات الفنية الأندلسية لاسيما فى زخارف الحجر والرخام حيث تمثلت على نحو رائع فى زخارف الدعامات الرخامية فى زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبه وفى العضادات الرخامية بالمجلس الغربى بقصر الزهراء وفى شرفات مسجد الزهراء .

George Marcais : Manuel d'art musulman C, I. Paris. 1926. P . 285.

Pavon Maldonado: Memoria de la excavacion de la Mazquita de Medina Alzahra. Madrid. 1966. P . 87 .

(١٠٢) لوحة ٢ ج ، (لوحة ٣ أ) .

(١٠٣) كان الصليب المعقوف من رموز البوذية في الديانة الهندية وهو عبارة عن خط رأسى قائم يمتد منكسراً في أعلاه إلى جهة تعكس انكساره عند القاعدة ويتقاطع هذا الخط القائم مع خط أفقى منكسر بدوره يميناً ويساراً في اتجاه الانكسار السابق . وقد تمثلت الصليبان المعقوفة بكثرة في الفنون القديمة لاسيما الفن الإغريقى واليونانى والساسانى والبيزنطى .

Pavon Maldonado: El arte Hispona musulman en su de coracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid. 1975 . Labla. I.

فريد شافى : العمارة العربية فى عصر الولاة . نشر الهيئة العامة للتأليف والترجمة . ١٩٧٠ . ص ٢١٧ .

مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر العربية :

- ١- ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم الخزر جى) عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء - تحقيق د. نزار رضا - بيروت - ١٩٦٥ .
- ٢- ابن القيم (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الجوزى) زاد المعارف فى هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تاريخ .
- ٣- ابن جلدجل (أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى) - طبقات الأطباء والحكماء - تحقيق فؤاد السيد - نشر المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة - ١٩٥٥ .
- ٤- ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد العسقلانى) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - ٢٨ جزءاً فى ١٤ مجلداً - مكتبة الأزهرية القاهرة - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ٥- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) - المقدمة - الطبعة الرابعة - دار الهلال - بيروت - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ٦- أبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى - مقاله الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز عن التصريف .
- ٧- الزبيدى : (محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسينى الواسطى) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة :

- ١ - السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضره الخلافة - جزآن - نشر مؤسسه شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠م .
- ٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام - معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧م .
- ٣ - عبد العزيز بن إبراهيم العمرى : الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول - مركز التراث الشعبى - الدوحة ١٩٨٥ .
- ٤ - عبد المجيد نعنعى : الإسلام فى طليطله - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - بدون تاريخ .
- ٥ - عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٧٣م .
- ٦ - عنايات محمد أحمد : الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - المجلد الثانى والأربعين ١٩٩٤م .
- ٧ - فريد شافعى : العمارة العربية فى عصر الولاة - نشر الهيئة العامة للتأليف والترجمة - ١٩٧٠م .
- ٨ - لطفى خليل : تعدين النحاس - مجلة المتحف - العدد الثانى - ١٩٨٧م .
- ٩ - محمد مصطفى السمرى : التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - للسنه الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢م .
- ١٠ - مرجريت ترويل : الفن الزخرفى فى أفريقيا - ترجمة مجدى فريد - القاهرة - بدون تاريخ .
- ١١ - هنرى أمين عوض : الجراحة فى العصر الإسلامى - مجلة دراسات أثرية إسلامية - نشر هيئة الآثار المصرية - المجلد الثالث - القاهرة ١٩٨٨ .

- كتاب الموجز فى تاريخ الطب - ج ١ اشتراك فى تأليفه مجموعة من العلماء من مطبوعات الجمهورية العربية الليبية - بدون تاريخ - المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربية - الطبعة الثالثة .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

1. Aluguste Couat : Alexandria poetry under the first threee (324- 222 B. C) London, 1990.
2. Breasted Y. H : The edwin Smith surgical papyrus, 2 Vols, Chicago, 1930.
3. Ebbell, B: The papyrus Ebers, Copenhagen, 1937.
4. Fraser P. M. : Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972.
5. George Marcais : Manuel d' art musulman, Paris, 1926.
6. Ghalioungui : P. Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlas of Royal mummies, London, 1980.
7. Hurry, Y, B : Imhotep the vizier and physicion of king Zoser and of terwards Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926.
8. Mahmoud Karim : Circunncision y mutilations male y female, London, 1995.
9. Pavon Maldonado : El arte hispano musulman en su decoracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid, 1975.
10. Pavon Maldonado : Memoria de la excavacion de la Mezquita de Medina Alzahra, Madrid, 1966.
11. Peck, H. W : Mummies of ancient Egypt, mummies disease and ancient, cultures, New York, 1980.
12. Petrie, F : Tools and weapons, London, 1917.

رابعاً : الرسائل العلمية :

١ - حنان عبد الفتاح مطاوع : التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية وحتى سقوط مملكة بنى الأحمر - رسالة دكتوراه - كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٩٦ م .

٢ - وفاء السيد بدار - الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة - دراسة تاريخية وحضارية - مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية

۱. د. محمد زیود (*)

وقد اعقبت وفاة صلاح الدين فترة قلقه في تاريخ مصر والشام وما حولهما، إذ تنافس أهل بيته على اقتسام دولته ، فظهر في دمشق ابنه الأفضل نور الدين علي (٥٨٩ - ٥٩٢ هـ / ١١٩٣ - ١١٩٦ م) وفي القاهرة العزيز عثمان (٥٨٩ - ٥٩٦ هـ / ١١٩٣ - ١٢٠٠ م) ، وفي حلب الظاهر غازي (٥٨٩ - ٥٩٦ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٦ م) ، واستمرت حلب بيد الظاهر غازي وأبنائه من بعده إلى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، حيث كان الظاهر واليا على حلب قبل وفاة أبيه ، وانفرد بحلب إلى أن توفي في عام ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م حيث نصب ابنه العزيز غياث الدين محمد ملكاً على حلب في سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م واستمر حكمه إلى سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م . وكانت المنية قد اتت على مؤرخنا قبل أربع سنوات من انتهاء حكم العزيز محمد ، وهذا يعني أن « ابن أبي طي » عاصر كلا من صلاح

الدين ، وابنه « الظاهر غياث الدين غازى » وحفيده العزيز محمد . واستمر يوسف بعد العزيز يحكم حلب إلى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، حيث قتل مع أخيه الظاهر غازى . فى جمادى الأول من سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، على يد هولاكو ، عندما اجتاحت حلب وأباحها لجيشه . وبقي ولده الصغير المسمى العزيز فى أيدي المغول .

وفى حين استمر الحكم الأيوبى فى حلب بيد الظاهر غازى وأبنائه إلى ٦٥٨هـ / ١٢٦٠ ، فإن العادل سيف الدين أخا صلاح الدين تمكن فى سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٦م من أخذ دمشق من الأفضل ، وعزل الملك المنصور الذى خلف أباه العزيز بالقاهرة سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م وبذلك استأثر العادل بالسلطنة بعد صلاح الدين .

والواقع أن الشام ومصر كانتا فى تلك الحقبة تخضعان لسلطة واحدة فى أغلب الأحيان ، أو لأفراد من أسرة واحدة ، ولأول مرة تشهد الشام ومصر وشمال العراق ، منذ تفكك الدولة العباسية وحدة سياسية بقيادة نور الدين محمود ابن زنكى الذى عمل بكل طاقته لتوحيد الشام وشمال العراق ومصر وهى الوحدة التى جنى ثمارها صلاح الدين ومكنته من انزال الهزائم بالصليبيين .

وفى ظل هذه الوحدة السياسية ، وخضوع المنطقة لسلطة واحدة عاد العلماء ينتقلون بين هذه الأقطار ، وبخاصة بين الشام ومصر فى سهولة ، مما جعل من الصعب أن نربط عالماً من العلماء بقطر واحد دون سواه ، وكان هذا مما ساعد على قيام وحدة فكرية متقاربة ، وثقافة أدبية وعلمية متناظرة ، وخاصة بين مصر والشام .

ومع ظهور المدارس فى الدولة الإسلامية منذ القرن الخامس للميلاد ، إلا أن المسجد ظل يشكل المركز الدراسى الأساسى للعلم ، ففى مصر قام جامع عمرو ابن العاص (الجامع العتيق) ، والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع الأقمر ،

والعطارين بالإسكندرية بدور كبير ، وأما فى الشام فكان الجامع الأموى (جامع دمشق) وجامع حلب ، والمسجد الأقصى .

وظلت حلقات العلم تعقد بالجامع العتيق فى مصر ، وتتطرق إلى مختلف فروع الثقافة ، وذلك فى العصرين الفاطمى والأيوبرى (١) ، وكان الأزهر الذى شيد فى مطلع الدولة الفاطمية فى مصر ، فعلى الرغم من أن التعليم فيه اصطبغ بالصبغة المذهبية الشيعية الإسماعيلية وألقيت فيه رسائل هذا المذهب وعلى رأسها كتاب « الاقتصار » ، ودعائم الإسلام وكتاب الأخبار فى فضل الأئمة الأبرار ، وغيرها من الكتب والرسائل التى ألفها القاضى النعمان وابنائاه من بعده وغيرهم من أئمة المذهب الشيعى فيه الرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى الإسماعيلى التى وضعها الوزير « ابن كلس » هذا فى حين وجدت العلوم الفلسفية والحكمية ، مجالها فى دار الحكمة التى أسست فى عهد الخليفة الحاكم الفاطمى (٣٧٦ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١م) . وبظهور صلاح الدين على المسرح ، قام بإجراءات كثيرة استهدفت وقف الدعوة الإسماعيلية فأقدم فى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م على إسقاط اسم الخليفة العاضد الفاطمى من الخطبة ، وأعلنها باسم الخليفة العباسى ، وعين على القضاء « صدر الدين عبد الملك بن درباس » ، الشافعى المذهب ، وأبطل الخطبة بالجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمى ، قاصداً إهمال الأزهر باعتباره رمزاً للمذهب الفاطمى ، كذلك قام صلاح الدين بأنشاء عدة مدارس أخذت تنافس مراكز الدعوة الفاطمية وكان أن أقبل المدرسون والطلاب على هذه المدارس أكثر من إقبالهم على بقايا المؤسسات الفاطمية .

على أن الدراسة فى الأزهر لم تتوقف تماماً ، اثر انقطاع الخطبة فيه وإهماله من قبل السلاطين لمدة تزيد عن مائة عام (٢) ، وكان ذلك فى صدر دولة سلاطين المماليك - فى عهد السلطان الظاهر بيبرس - عندما عادت الحياة إلى الأزهر وأذن

القاضي الحنفى بإعادة الخطبة فيه ، فأعيدت يوم الجمعة ١٨ ربيع الثانى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م ودرست فيه القراءات والتفسير ، والمنطق والحساب والهيئة والطب ، واللغة والعروض والقوافى والتاريخ . وهكذا لم تقتصر الدراسة فى الأزهر على علم الفقه أو علم الكلام والنحو والأدب بل كانت تدرس به كذلك فروع المعرفة الأخرى . هذا فضلاً عن جوامع أخرى فى مصر ساهمت فى التدريس والنهضة الثقافية ، أمثال الجامع الطولونى ، وجامع الحاكم ، والأقمر ، والأفخر ، والعطارين ، وغيرها من الجوامع التى بنيت لتكون دور عبادة ومعاهد علم ونباييع ثقافة ومعرفة .

أما المساجد فى بلاد الشام فعلى رأسها جامع دمشق الذى بناه الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م) وتم بناؤه فى سنة (٩٦هـ / ٧١٤م) وهو من أشهر مساجد بلاد الإسلام حسناً واتقاناً وغرابة صنعه . وفيه مقصورات عديدة بعضها للحنفية يجتمعون فيها للتدريس كما أنه به أماكن وزوايا خصصت لطلبة العلم .

وتردد على هذا الجامع فى عصر الحروب الصليبية طائفة من العلماء الذين لا تزال آثارهم لامعة فى تاريخ الحركة الفكرية . وبقيت آثارهم إلى أيامنا ومن علمائه الأفاضل فى ذلك العصر :

- علم الدين السخاوى ، شيخ القراء والنحاة ، والفقهاء (٦٤٣هـ) (٣) .

- الحافظ ابن عساكر ، شيخ دار الحديث بدمشق (٥٧١هـ) .

- أحمد بن فرج الأشيلى (٦٩٩هـ) .

- ضياء الدين الدولعى (٥٩٨هـ) .

- عبد الله بن سعد القطرى .

- عماد الدين بن الحرستاني (٥٩٧هـ) .
- محمود بن عبد الله أبو المثنى المراغى (٦٨١هـ) .
- أبو القاسم الدمشقى المشهور بابن الماسح (ت ٥٩٢هـ / ١١٦٦) من أعيان
الفقه الشافعى والقراءات (٤) .
- عبد الغنى بن عبد الواحد بن سرور المقدسى (ت ٦٠٠هـ / ١٢٠٣) وكان
يقرأ القرآن بالجامع الأموى ليلة الخميس والجمعة (٥) .

وغيرهم كثيرون .

أما جامع حلب فكان فى تلك الحقبة من أهم المراكز العلمية فى بلاد الشام،
حيث كانت حلب ذات دور هام فى العصر الصليبي فى الشام ، وكان جامعها
من أحسن الجوامع وأعمرها ثقافة .

واستمرت حلب من أعظم مراكز العلم فى تلك الحقبة ، باستثناء فترات
قصيرة محدودة ، بسبب التهديد الذى تعرضت له فى عصر الحروب الصليبية .
على أن حلب لم تلبث أن استعادت بعد ذلك مركزها العلمى ، وغدت أم البلاد
الشامية ، وغصت بالعلماء ، وأشار ابن خلكان إلى ذلك عندما زارها فى سنة
٦٢٦هـ (٦) / ١٢٢٨م ، وبذلك عاد جامعها مركز إشعاع للعلم والعلماء .

ولم تتوقف مسيرة هذه الحركة العلمية فى حلب إلا عندما انطفأت شعلتها
على يد التتار سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م . فأحرقوا جوامعها ودمروا معاهدها ، وقضوا
على مدارسها ، وخرّبوا دور السلطنة ، وقصور الأمراء وأفسدوا كل شىء فيها .
وظلت حلب تعاني من تلك الضربة زهاء ثلث قرن ، ثم بدأت العمارة والحياة
تعود إليها فى سنة ٦٩٠هـ (٧) / ١٢٩١م .

يتضح مما تقدم أن حلب فى عهد مؤرخنا - ابن أبى طىّ - الذى عاش فيما بين (٥٧٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٧٩ - ١٢٣٢ م) مرت فى مرحلة انفتاح علمى ، واستعادت مركزها الذى انتكس فى بداية الحروب الصليبية . واستمرت بعد ذلك محافظة على نشاطها العلمى حتى قدوم التتار واستباحتهم لمدن الشام كغيرها من المدن الأخرى التى استباحوها فى البلاد الإسلامية . وفى تلك المرحلة كان ابن أبى طىّ قد مضت على وفاته بضعة عقود ، وربما ضاعت بعض كتاباته فى هذا الغزو التترى ، الذى أحرق الأخضر واليابس . وبعبارة أخرى فإن فترة حياة المؤرخ «ابن أبى طىّ» التى استمرت زهاء خمسة وخمسين عاماً ، تمثل أحد العصور الذهبية لحلب ، فى المجال الأدبى والثقافى ، والسياسى أيضاً . لقد استعادت فى تلك الفترة قواها وشكلت قاعدة هامة للدفاع عن الأمة الإسلامية وتراثها الحضارى والسياسى .

٣ - ابن أبى طىّ فى المصادر العربية :

هو منتجب الدين « أبو زكريا »^(٨) ، وقيل « أبو الفضل » يحيى بن حامد أو حميده^(٨) بن ظافر بن على بن الحسين بن على بن محمد بن الحسن بن صالح بن على بن سعيد بن أبى الخير الطائى^(٩) الفسائى الحلبي النجار^(١٠) المؤرخ والأديب، الحلبي المولد والمنشأ ، ولد حسب ما ذكرته معظم الروايات فى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ومات سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م^(١١) ، وقيل غير ذلك ، حيث لا تعرف سنة وفاته بدقة .

أما والده فتذكر بعض المصادر أنه ولد فى العقد الأول من القرن السادس الهجرى ما بين (٥٠١ هـ - ٥٠٩ هـ) ، وكان من وجهاء حلب ، ورئيس حرفة النجارين فيها . وكانت هذه المهنة ولا تزال من المهن المشهورة فى حلب ، وتعود

أهميتها إلى أن حلب ، من الأماكن الهامة في استنبات الأشجار الضرورية لمهنة النجارة . ومما يدل على كثرة الأشجار وتنوعها ما ذكره كل من ابن العديم مؤرخ حلب المشهور (١٢) ، والشاعر الصنوبري الحلبي وغيرهما ، وقد حظى والد ابن أبي طىّ في حلب على التقدير والاحترام بوصفه أحد زعماء الشيعة فيها . غير أن هذا الأمر عرضه للخلاف الشديد مع حكام حلب في عهد نور الدين (٥٤١هـ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦م - ١١٧٣م) ومن جاء بعده . ونتيجة لما تعرض له والد ابن أبي طىّ من اضطهاد ، فإنه اضطر إلى الفرار من حلب أكثر من مرة نتيجة للتحويل الذى حصل فى تلك الحقبة من التحويل إلى المذهب السنى ، وما رافق ذلك من مضايقات لبعض الناس والأسر التى كانت تعتنق المذاهب الشيعية ، وكانوا أكثرية فى حلب . وأخذت بعض أسر ذات الصلة بالأمور الإدارية تتحول إلى السنة كأسرة ابن أبي جرادة (١٣) ، و« ابن العديم » وغيرها . ومن هذه الإجراءات منع الشيعة من استخدام الزاوية الشرقية فى جامع حلب ، وحظر عليهم الأذان (بحى على خير العمل) ، وغير ذلك من مضايقات ، أدت إلى رضوح الشيعة على مضض أو إلى الهروب . ومن الذين هربوا أو أخرجوا - من حلب أكثر من مرة - والد المؤرخ يحيى بن حميد المرة الأولى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، والمرة الثانية لم تحدد المصادره . ومكث والد مؤرخنا فى حران (١٤) ، بعض الوقت بحدود سنة ٥٢٥هـ / ١١٥٧م . وفيها ألف كتاباً فى التاريخ . وكان أولاده يموتون صغاراً . ولم يسلم له أحد من أبنائه . وبعد مضى وقت من اليأس رزق بعد طول انتظار - وبعد أن تقدم به العمر - بولده يحيى - مؤرخنا هذا - فى حدود سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م كما أشرنا . وقدر لهذا المولود أن يعيش ، ويكبر ويتعلم على أبيه ، ويأخذ عنه مذهبه الفكرى ، وتوجهه الأدبى ، وعمله المهنى . فتعلم على يده مهنة النجارة وورثها عنه ، وكذلك مذهبه الشيعى .

أما والدته حميدة (١٥) أو فضائل ، فإنها ماتت سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م وهي السنة التي ولد فيها مؤرخنا . ولهذا كثيراً ما كان يقال عنه يحيى بن حامد أو حميدة ، نسبة إلى أمه وهي عادة عربية معهودة ومتبعة .

كذلك تعلم مؤرخنا من علماء حلب ، ونهل عنهم أصناف العلوم كالبلاغة واللغة والأدب والتصوف وغيرها من العلوم . وأما أساتذته فهم كثيرون ويأتى على رأسهم والده ، ومجموعة من المحدثين منهم : إدريس بن حسن ابن على الأدريسى (ت ٦١٠هـ) وقد عرف به ياقوت فى معجمه .

كذلك درس مؤرخنا الفقه الشيعى أيضاً وتعمق به على يد ابن جعفر بن على بن شهر آشوب المازرائى . وعرف عن هذا الفقيه البراعة والفقه الإسلامى على المذهب الشيعى الإمامى وعرف عنه بأنه كان عالم الشيعة فى القرن السادس الهجرى ، وخطيبهم وناقل أدبهم المذهبى فى كتابه « مناقب آل أبى طالب » وله مشاركة فعالة فى علم الأصول والقراءات وقدم مؤلفات كثيرة فى هذه العلوم الدينية (١٦) ، وقد قدم ابن شهر آشوب إلى حلب ومكث فيها وتزوج أخت ابن أبى طىّ ، ودرس هذا عليه شيئاً مما كان يعلمه . ومات ابن شهر آشوب فى حلب.

كذلك اعتمد ابن أبى طىّ فى إعداد نفسه فكرياً وعلمياً على مجموعة كبيرة من الأعلام فى الفكر والأدب ومن عرفتهم الشام وحلب خاصة نذكر من هؤلاء:

- ابن أبى زريق : صاحب كتاب أو تاريخ آمد وما فارقين .

- وابن أبى جراحه (جد ابن العديم) :

- وحمدان بن عبد الرحيم الأثارى (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) : مؤرخ حلبى ، وكان

أمامياً له مصنفات عدة أهمها المفوف . والمصباح (١٧) .

- والعظيمى : (ت ٥٥٦هـ / ١١٦١م) وتاريخه عن حلب وهو تاريخ شامل .
 - وابن القلانسى الدمشقى (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) : وقرأ عنه كتابه المشهور ذيل تاريخ دمشق .
 - والعماد الأصبهاني : (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) فى كتابه البرق الشامى ، وتايخ السلاجقة والفتح القسى فى الفتح القدسى .
 - وابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) نشأ بدمشق وبلغ عدد شيوخه الذين أخذ عنهم بالسماع فيها ألفا وثلاثمائة شيخ وتاريخه عن مدينة دمشق خرج فى ثمانين مجلدة .
 - وابن دحية :
 - وأسامة بن مرشد بن منقذ الأمير مؤيد الدولة (ت ٥٨٤هـ / ١١١٨م) وكتابته الاعتبار .
 - وابن شداد ، بهاء الدين بن رافع (٦٣٢ / ١٢٣٣هـ) .
 - ابن الأعز (ت ٦١٠هـ / ١٣١٣م) الأشرف بن الأعز وقيل أبو العز . درس ما عرفه من علم التاريخ لطلابيه (١٨) .
 - والصنهاجى فى تاريخ القيروان .
 - ومؤلفاً مجهولاً فى تاريخ مصر .
- وكل هؤلاء أعلام فى عصرهم قدموا الكثير، وتركوا لنا الدلائل على عظمتهم.
- وكثيراً ما كانت تشغله الوثائق التى اعتمد مؤرخنا عليها وعلى كتب هؤلاء المؤرخين ، كما كان ينجذب إلى رسائل وروايات متعددة ، منها رسائل القاضى الفاضل وأخباره ، فضلاً عن مصادر أخرى كثيرة ومتنوعة بعضها شفهي والآخر مخطوط .

و خلاصة القول فإن ابن أبى طىّ اعتمد فى كتاباته التاريخية أسلوب معاصريه كابن الأثير وغيره . كما اعتمد على المصادر الشفهية ، وهى إحدى المصادر الرئيسية للكتابة التاريخية فى ذلك العصر . ثم اعتمد على مصنفات المتقدمين فى التاريخ ، ومنها استقى مواد كتاباته . أما الأحداث المعاصرة . فقد اعتمد على مشاهداته لها عن كتب ؛ معتمداً على خبراته الشخصية ، كما استند على الوثائق الرسمية التى أعدها كل من العماد الكاتب ، والقاضى الفاضل .

وعلى العموم فمؤرخنا هو من أدباء حلب ، وخريج مدرستها الأدبية والفكرية والمذهبية ، والتى نشطت منذ ما قبل منتصف القرن الرابع الهجرى واستمرت طيلة القرنين الخامس والسادس الهجرين تعطى ثمارها وتخرج علماء فى كل فروع العلوم والمعرفة ، كما أشرنا أثناء الحديث عن عصر المؤرخ .

وكما عاش والد المؤرخ محنة الاضطهاد والإهمال والنفى نتيجة لعقديته المذهبية ، كذلك تعرض الابن للضنك والإهمال ، وربما للنسيان المتعمد من الكثيرين ، فلم يعهد له بأى منصب إدارى أو رسمى ، لا فى التدريس ولا فى القضاء ، أو غير ذلك من الأعمال الحكومية ، على الرغم من أن حلب فى عهده كانت بحاجة لمثل هذه الخدمات وغيرها ، نتيجة لما كانت تمر به فى تلك الأثناء من ظروف حرجة .

وفى هذه الأجواء غير الطبيعية نشأ المؤرخ ابن أبى طىّ . ولا شك فى أن ذلك أثر تأثيراً كبيراً فى مجريات حياته ، إذ أجبرته هذه الظروف المؤقتة أن يعيش فترة طويلة من حياته متكسباً بما تدره عليه مهنته وعمله بالنجارة التى اشتغل بها وورثها عن أبيه كما أشرنا . واستمر كذلك إلى أن انتقل إلى عمل أقل جهداً ، وفضل قيمة ، وهى مهنة تعليم الصغار والصبية ، فمارس هذه المهنة فى المكاتب حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، واختص بتعليم أبناء أحد الوزراء سنة

٦٠٠هـ/١٢٠٣م ، وبعد ذلك انتقل إلى مهنة الوراقه وتصنيف الكتب ، مترفعاً عن التعليم وأنف منه ولزم داره ، وطلب مشايخ الأدب فقراً عليهم ، وتعلم منهم ونظم الشعر ، فمدح الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ، وارتفعت منزلته عنده ، حتى ولاه نقابة الفتيان فى حضرته سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وغدا نقيب الحضرة السلطانية فى الفتوة .

وكان أن تابع ابن أبى طى عمله الجديد فى التأليف والتصنيف ، فصنف كتباً فى التاريخ وتفسير القرآن الكريم والآداب والفقه والأصول ، وهكذا انتقل إلى عمل مفضل ، ظل يمارسه بقية حياته ، واتخذ من ذلك مصدراً لرزقه وعيشه ، إذ فتح له هذا العمل الأبواب الفكرية والمعرفية على مصراعيها عاملاً بمهنة الوراقه ، ونسخ الكتب . ويبدو أن هذا العمل حقق له كسباً كبيراً ، جعل ياقوت الحموى الأديب المعروف المعاصر له يحسده ويغمز عليه فقال عنه أنه : « كان يدعى العلم بالأدب والفقه والأصول على مذهب الإمامية ، وجعل التأليف حانوته ، ومنه قوته ومكسبه ولكنه كان يقطع الطريق على تصانيف الناس ، يأخذ الكتاب الذى اتعب جامعه خاطره فيه فينسخه كما هو ، إلا أنه يقدم فيه ويؤخر ، ويزيد وينقص ويختار له اسماً غريباً ، ويكتبه كتابة فائقيه لمن يشبه عليه ، ورزق من ذلك حظاً » . وربما أراد ياقوت أن يتهم ابن أبى طى ، فذكر أن عدداً من الكتب التى تعزى إليه ليست سوى مستنسخات تصرف بها ابن أبى طى على هواه . ومعلوم أن ابن أبى طى معاصر لياقوت ولا شك فى أن كلا منهما كان يحمل فى نفسه شيئاً للآخر . وقد يكون كلام ياقوت الحموى عن ابن أبى طى نوعاً من الغمز ، والطعن بأديب معاصر له ، يختلف معه فى المذاهب والمشارب والاتجاهات ، وجمعتهم حلب الشهباء التى كثيراً ما عرفت أمثال هذه المنافسات والمشاحنات بين العلماء منذ أيام سيف الدولة الحمدانى .

ومهما يكن الأمر ، فهذه المنافسات بين العلماء كثيرة الحدوث . غير أن موقف ياقوت من ابن أبي طى لا ينكر وسيظل كل من يريد التعرف على ابن أبي طى يعترف بموقف ياقوت منه وما قدمه من معلومات عنه . ومع ذلك فإن ياقوت ترجم له بوصفه من الأدباء المرموقين وذكره بين الأحياء الذين عاصروه فى حلب . وجاءت ترجمته من المصادر المهمة والمفيدة للكثيرين ممن أرخ لابن أبي طى وترجم سيرته بعد ياقوت : وقد تكون هذه المعلومات على الرغم مما جاء بها من طعن وغمز من افضل ما كتب عنه ، وساهمت فى التعريف به ، ولكن مما يؤسف له أشد الأسف أن ترجمة ابن أبي طى التى جاءت فى الجزء السابع من المخطوط ، لم تظهر فى النص المطبوع من معجم الأدباء ، ولعل ذلك فات على المحقق ، فزاد ذلك من سوء حظ هذا المؤرخ الذى عده بعض الباحثين من طبقة (١٩) ، المؤرخين الأول فى الإسلام . وهكذا خانه الحظ فلم يبق من إنتاجه التاريخى والأدبى والعلمى أى أثر ظاهر الآن وليس أمامنا عن هذا المؤرخ سوى مقتبسات مبعثرة فى كتب المؤرخين الذين أتوا بعده أو أخذوا عنه ، مع الإشارة إلى أن بعضهم لم يذكره عندما نقل رواياته ولا ندرى أكان ذلك متعمداً أم غير متعمد . وفى جميع الأحوال فقد زاد ذلك فى إغفاله ، حتى استمر فى طى النسيان .

والواقع إن مؤلفات ابن أبي طى كثيرة ، يعصب حصرها ، وتحديدتها . وما قدمه ياقوت عنها ربما كان بعض مسودات لم تكمل ، وأثبتها فى معجمه قبل أن يستكمل إعدادها كما قدمها له ابن أبي طى فيما أظن . ولهذا جاءت غير متفقة مع الكتب التى عرفها المؤرخون ونقلوا عنها ، والتى أتت على ذكرها المصادر التى أطلعنا عليها والتى تضم حوالى بضعة وثلاثين مؤلفاً ، منها مؤلفات عديدة فى علم القراءات والفقه ، والأدب ، والنحو ، والبلاغة ، والنبات ، والتراجم ، وجاء معظمها فى التاريخ . ويمكن أن نذكر من مؤلفاته وكتبه كما أوردتها بعض

المصادر والمراجع ، وإن جاءت مختلفة فى أسمائها وعددها . وبعد المقارنة تمكنا من إحصاء المؤلفات الآتية :

١ - معان الذهب فى تاريخ حلب ، وجاءت فى بعض المراجع . معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء ، وذوى الرتب ، وكان فى عدة مجلدات .

٢ - كتاب شرح لامية العرب أو المنتخب فى شرح لامية العرب .

٣ - كتاب سلك النظام فى تاريخ الشام .

٤ - كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين ، ومنه مقتطفات عديدة لدى أبى شامة (الروضتين) .

٥ - حوادث الزمان على حروف المعجم ، وأهم ما فيه أنه ألف على أساس أبجدى ، فهو موسوعة لمعارف التاريخ وكان فى خمس مجلدات .

٦ - أطباء الشعراء الشيعة .

٧ - طبقات العلماء ، وربما يكون هو الكتاب الذى ورد عند الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى « طبقات أو تاريخ الإمامية » .

٨ - عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب بين سنتى (٥٨٩ - ٦١٣ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٦ م) . بينما يرد عند الأستاذ شاكر ما بين (٥٨١ - ٦١٣ هـ / ١١٨٥ - ١٢١٦ م) وهو فى تاريخ حلب نقل عنه ابن شداد فى الإغلاق الخطيرة (قسم حلب) صفحات هامة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع (ضرائب) حلب فى مطلع القرن السابع الهجرى ٦٠٩ هـ أخذها عن مستوفى حلب (٢٠) .

٩ - مختار تاريخ العرب ، وهى التى وردت عند بعض الباحثين مختار تاريخ المغرب .

- ١٠ - مناقب الأئمة الأثنى عشر .
- ١١ - تاريخ مصر . ولعله اهتم فيه بالتاريخ الفاطمي واقتبس من ابن ميسر والمسيحي وغيرهم كالمقریزی .
- ١٢ - مختار تاريخ المغرب . وقد يكون له كتابات .
- ١٣ - تاريخ الشيعة ، ورد عند بعض الباحثين أسماء رواة الشيعة ومصنفها ، وجاء عند محسن الأمين كتاب الحاوي ذكر فيه رجال الشيعة وعلماءهم وفقهاءهم وشعراءهم وأئمتهم .
- ١٤ - تهذيب الاستيعاب في معرفة الأصحاب (لابن عبد البر) جاءت عند الطباخ للقرطبي .
- ١٥ - كتاب الأول والعذب والزلال .
- ١٦ - بيان العالم .
- ١٧ - ذيل معادن الذهب في تاريخ حلب أي أنه ذيل كتابه هذا في التاريخ (٢١)، وتمة له .
- ١٨ - سيرة ملوك حلب .
- ١٩ - البستان في محاسن العلمان .
- ٢٠ - اشتقاق أسماء البلدان .
- ٢١ - مجموعة كتب حول الجاهلية والرسول ﷺ وأجداده في ثلاث مجلدات يعطيها صاحب كشف الظنون عنوان السيرة (٢٢) .
- ٢٢ - له ديوان في المدائح (٢٣) .

- ٢٣ - كتاب التنبيه على محاسن التشبيه .
- ٢٤ - وشرح نهج البلاغة فى ست مجلدات يقال أنه درسه على ابن الأغر (٢٤) ،
وعلى ابن شهر آشوب المازندراني عالم الشيعة فى القرن السادس وخطيبهم
وناقل أدبهم المذهبى فى كتابه مناقب آل البيت (٢٥) .
- ٢٥ - ولح القرآن فى تفسير القرآن .
- ٢٦ - البيان فى اسباب نزول القرآن .
- ٢٧ - غريب القرآن مختصر .
- ٢٨ - كتاب المجالس الأربعين فيه فضائل الأئمة الطاهرين .
- ٢٩ - خلاصة الخلاص فى آداب الخواص .
- ٣٠ - شفاء الملعيل فى ذم الصاحب والخليل .
- ٣١ - كتب الحاوى ذكر فيه رجال الشيعة وعلماءهم وفقهاءهم وشعراءهم
أئمتهم المصنفين فى مذهبهم .
- ٣٢ - تراجم رجال الأدب والشعراء وهو مخطوط موجود فى القاهرة تيمورية رقم
١٤١٨ تاريخ وهوفى عداد كتبه المفقوده أيضاً ، ولم نجده تحت هذا الرقم .
- ولا يمكننا أن نؤكد أن هذه المؤلفات جميعاً من نتاجه ، أو أن هذه هى كل
مؤلفاته ، فقد تأتى الأبحاث بأمور جديدة ، وقد تكشف السنوات القادمة بعضاً من
تراث هذا المؤرخ . أو ربما يكشف الباحثون عن أسماء بعض كتبه لم ترد فى
المصادر التى تم الإطلاع عليها . ولا ندعى أن ما أتينا عليه ، وذكرناه ، فاصل
وقطعى . وإنما نعتزف بأننا لم نتمكن من الوقوف على جميع المصادر التى أخذت
عنه ، ولم نتعرف على كل النقولات منه ، وكل ما نرجوه هو أن ندفع بالهمم
ونحثها للبحث لاكتشاف الجديد والمفيد عن هذا المؤرخ .

وأما الذين أخذوا عن ابن أبي طى من المؤرخين فكثيرون ، وغالباً ما أغفل بعضهم التنويه عنه . ولم يوضحوا مقتبساتهم عنه . وإن فعلوا ذلك فقد أغفلوه من قائمة المصادر الأساسية . ومن هؤلاء أبو شامة فى كتابه « الروضتين » فعلى الرغم من كثرة مقتبساته عنه ، لم يذكره فى قائمة مصادره التى اشار إليها فى بداية كتابه ، مع أنه ذكر مصادر أقل من مصادره إفادة ، وبعض المؤرخين لم يشيروا لا من قريب ولا من بعيد إلى الأخذ عنه أو الاعتماد عليه . وكثيراً ما كانت تأتى الإشارات بكتابات لاحقه . وعلى الرغم من ذلك فقد أوردت المصادر مجموعة من المؤرخين اعتمدوا على مؤلفاته وكتبه ، جاء بعضها على لسان أصحابها ، وبعضها فى مصادر أخرى .

ويمكن أن نذكر من المؤرخين الذين افادوا منها كلا منه :

١ - ابن العديم : كمال الدين عمر (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) فى كتبه الكثيرة وخاصة فى تاريخه « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » الذى صنفه لحلب على الحوادث ، وجاء بثلاثة مجلدات ثم « بغية الطلب » . والذى خطه لحلب ورجالاتها وترجم لمن نشأ أو مر أو ذكر فى تاريخها وجاء فى أكثر من عشرة مجلدات ، وكلا الكتابين حققا ونشرا فى دمشق . ولا بد من الإشارة إلى كثرة ما نقل عن ابن أبي طى ، مثل القول : ذكر أو قال أو ورد عند ابن أبي طى ... إلخ .

٢ - وكانت مؤلفاته فى المصادر المهمة التى اعتمد عليها الإمام العلامة ، شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨هـ / ١٢٤٧م) فى تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام أو دول الإسلام وغيرها من مؤلفات استقت معلومات كثيرة من أخبار ابن أبي طى .

٣ - أما المؤرخ الكبير أبو شامة (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » فاقبাসاته كثيرة وواضحة ، وتعطينا فكرة بينة عن تراث هذا المؤرخ الواسع إطلاعه ، كما تقدم لنا الدليل الأكيد على إهمال المؤرخين له ونكران فضله ، ولم يضعوه فى المكان اللائق به ، والمناسب لجهد ومكانته .

٤ - وأخذ عنه ابن شداد (٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) فى مؤلفاته . ومنها كتابه «الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة» ، ولا سيما ما اقتبسه منه عن مؤلفه عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبي ، وأخذ عنه ابن شداد التاريخ المتعلق بحلب فى مطلع القرن السابع الهجرى سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م . وابن أبى طى أخذها بدوره عن مستوفى حلب ، وهى صفحات مهمة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع ضرائب حلب ، وهى قائمة مهمة تفيد كل باحث فى التاريخ الاقتصادى أو الاجتماعى ، هذا إضافة لما اقتبسه ابن شداد عنه فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » .

٥ - كذلك استفاد منه ابن عبد الظاهر فى كتاباته (ت ٦٩٢هـ) .

٦ - وابن ميسر (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) ومؤلفه « أخبار مصر » وهو من المؤلفات المهمة عن مصر الفاطمية بخاصة ، ويعد ما كتبه ابن أبى طى عن الفاطميين من المصادر المهمة كونه قريب الصلة بهم ، وكانت كتب ابن ميسر مصدر أساسياً لكل من النويرى والمقريزى وابن حجر العسقلانى ، وهؤلاء من مؤرخى القرن التاسع الهجرى ، واعتمدوا على ابن أبى طى بشكل مباشر أو غير مباشر .

٧ - أما المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) فيعد أفضل من كتب عن الدولة الفاطمية ، وخاصة فى كتابه « اتعاظ الحنفا » فقد أورد المقريزى فى كتاباته

روايات عديدة أخذها عن ابن أبي طى وكثيراً ما اشار إلى بعضها ، وأهمل الإشارة إليها فى بعض مقتبساته الأخرى فى كتبه الكثيرة كالسلوك ، والمواعظ والمقفى ، والاتعاظ .. إلخ .

٨ - ولابد أن نتذكر فى هذا الصدد مقتبسات ابن قاضى شهبه (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) فى كتابة الأعلام . عن ابن أبي طى ، فقد ذكر أنه أخذ عنه الكثير عندما أرخ لأعلام الشيعة . كما وردت مقتبساته فى كتاباته عن « طبقات الشافعية » والكواكب الدرية فى السيرة النورية .

٩ - ويظهر أن كتب ابن أبي طى استمرت إلى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى أو بعض منها حين استخدمها ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) واستفاد منها ناقلاً معلومات كثيرة عنها .

لكن من المؤسف أنه لم يبق لهذا المؤرخ الآن فيما هو معروف من المخطوطات إلا كتاب فى التراجم الأدبية والشعرية يحتاج نسبه إليه إلى أمور كثيرة ، وتحقيق مضمّن ، وقد أورد الأستاذ المرحوم شاكّر مصطفى أن هذه التراجم مخطوطة فى المكتبة التيمورية بالقاهرة رقم ١٤١٨ تاريخ . وقد حاولت كثيراً الحصول عليها ، فلم أتمكن من ذلك ، ولا شك أن هذا المخطوط مفقود كغيره من كتب مؤرخنا العديدة .

٤ - أسلوب كتاباته :

يعبر معظم ما كتبه ابن أبي طى وذكره عن وجهات نظر أصلية ، وفيها مكان واسع للمجادلات الدينية والأثرية ، ورفض للعجائب ، بأسلوب سلس ومقبول ، ابتعد فيه عن أسلوب العماد الأصفهاني الذى طغت عليه فنون اللغة من سجع وطباق وغير ذلك من فنون الكتابة التى يكثر فيها الوصف وعمل الناظر

فيها ويصاب بالذهول والتعب قبل التأكد من معرفة الأحداث والوقائع التاريخية (٢٦) .

ولابن أبي طىّ موقف خاص من الأيوبيين ، يستند على أن ابن صلاح الدين، الظاهر غازى لم يكن متعصباً للسنّة كثيراً ، ولم يكن هو الذى أخرج والد مؤرخنا ابن أبي طىّ من حلب ؛ فقد أخرج فى عهد نور الدين محمود كما أسلفنا، وكما يتضح من مقارنة الأخبار (٢٧) ، والروايات المتعلقة بهذا الموضوع . ولهذا نراه فى كتاباته عن صلاح الدين وغيره من الأيوبيين يأتى بأخبار مفصلة ودقيقة ، ويتحرى فيها الابتعاد عن المشاعر والعواطف التى كانت تلون الكتابات التاريخية ، وتؤثر فيها وتجعل النزعة المذهبية مسيطرة عند بعض المؤرخين . وضمن توجهه هذا نراه يؤرخ لصلاح الدين ويكتب سيرته ، ويقربه لابن الظاهر غازى فيمدحه بقصائد شعرية ، وغدا نقيب الفتيان فى حلب ، وربما ساهم ابن أبي طىّ وغيره فى تضخيم الخلاف بين صلاح الدين وسيد نور الدين .

ويجب أن ندرك أنه لا يمكننا أن نحكم على هذا المؤلف إلا من خلال ما اقتبس عنه مما أشارت إليه المصادر صراحة ، مع العلم بأن هذه المقتبسات العديدة قد يكون مقتبسوها قد حوروا فيها ، أو غيروا أسلوبها ، أو بدلوا من عباراتها ، وصبغوها بأساليبهم الخاصة . وربما تصرفوا بهذه النقول . ولم يكتبوها حرفياً حتى غدت هذه المقتبسات لا تمثل بقدر ما تمثل الذى صاغها . غير أنه إذا جاز لنا أن نحكم على هذا المؤرخ من خلال ما وصلنا عنه من هذه النقول والمقتبسات ، وما سمحت به الظروف المتعلقة بها ، فإنه يمكننا أن نقول : أن كتابه « معادن الذهب فى تاريخ حلب » قد يكون كتاباً عاماً فى التاريخ ، إلا أنه اهتم فيه بتاريخ حلب أساساً ، وما كتبه عنها يمكن اعتباره مصدراً مهماً ومباشراً ، لا سيما فى حياته . وعندما نقول أن معظم كتاباته قد فقدت أو جهلت فإن علينا أن نذكر أنه

كثيراً ما اعتمد على المصادر الشفهية . فروى عن والده ، كما كان يعتمد على الوثائق ومنها رسائل القاضى الفاضل . ومعظم كتبه لا تخرج عن هذا السياق . ويمكننا الاطمئنان إلى أن كتاباته عن صلاح الدين وابنه الظاهر غازى فى كتابه « عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر » قد كتب أحداثها معاينة ومعاصرة .

أما أسلوب ابن أبى طىّ فلا يخرج كثيراً عن أسلوب معاصريه ، ويقترب من أسلوب المؤرخ الكبير ابن الأثير وهو معاصره ، وتوفى فى سنة واحدة . فكتاباته تتسم بالإيجاز ، والسرد البسيط ، الذى يتعد فيه عن الأسلوب الأدبى لعصره ، فهو يحاول تجنب الزخرفة والصنعة ، والتكلف والألفاظ البديعة والمنمقة ، وغير ذلك من أساليب الصنعة ، ويحاول أن يختار الألفاظ المقبولة السهلة الوقع على السامع والى تحافظ على الخير وتظهره .

كذلك يلاحظ عليه أنه كان أحياناً يسرد دقائق الأمور ، ويغوص فى التفاصيل إيضاحاً أو جواباً . وهذا ما يجعلنا نقول : إنه كان يقدم الأحداث الجزئية للاقترب من الحقائق . وهذا الأمر يدل على سعة إطلاعه وبعد نظره ورؤيته التاريخية الواضحة فى رواياته .

والآن وبعد ما تقدم فإننا نضع بين أيدي القراء بعض الإشكالات المثارة حول هذا الموضوع ، آمل أن تتضافر الجهود للوصول إلى مقترحات محددة ومفيدة حياها . ونضع لمن يعمل على هذا الطريق الحلول والتصورات المناسبة والرؤية الواضحة المفيدة . علنا نساعد كل من يبحث فى هذا التراث المفقود ليجد ضالته المنشودة الصعبة المنال .

الهوامش

- (١) السيوطي : طبقات المفسرين ص ٢١ ، حسن المحاضرة ج١ ص ٢٣٥ ، ياقوت : معجم الأدباء ج١ ص ٢٣٢ ، ابن أبيك الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ص ١٠٦ .
- (٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ١٥٥ ، المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٥٦ .
- (٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٧ ، النهبي : العبر ج٥ ص ١٧٨ ، طبقات الشافعية ج٤ ص ٢٦١ للسبكي ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ص ٣١٦ - ٣٢٢ ، ابن العماد : شذرات ج٥ ص ٢٢٢ .
- (٤) القفطي : أبناء الرواة ج٢ ص ٢٤١ / ٢٤٢ ، النهبي : سير اعلام النبلاء ، ج٢ ص ٤٦٧ ، السبكي : طبقات ج٥ ص ١٥٤ ، المقرئزي : السلوك ص ٨١ ، طبقات الشافعية : ج٧ ص ١٤ ، السيوطي : بغية الوعاء ج٢ ص ١٥٥ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٢٠٣ .
- (٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٢ ص ٥١٩ - ٥٢٢ ، العماد : شذرات ج٤ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .
- (٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص ٣٤١ .
- (٧) أبو المحاسن : النجوم ج٧ ص ٢٩٩ .
- (٨) ورد أبو الفضل : انظر عمر رضا كحاله ، معجم المؤلفين ج١٣/١٤ ، ص ١٩٥ « بيروت دار إحياء التراث العربي » ، شاكر مصطفى : المؤرخون ج٢ ص ٢٥٢ ، البغدادى : هدية العرابين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين : المجلد الثاني ص ٥٢٤ (طهران ط ٣ ١٣٨٧ هـ / ١٩٤٧ م) .
- (٩) قيل ابن حميدة : وهى أمه ، انظر شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ ، قيل أن اسم أمه فضائل بنت صفيد وهى ابنة قاضى صور : كماء جاء عند كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 .
- (١٠) الطائى : نسبة إلى اسمه ابن أبى طى وليس كونه من قبيلة طى .
- (١١) يذكر عمر رضا كحاله : أنه بخارى ص ١٤٥ ، المرجع السابق . لكن ليس بخارى إنما بخارى لأنه ورث مهنة التجاره عن والده .

- (١٢) لا تعرف سنة وفاته ولعلها ما بين ٦٢٥ أو ٦٢٧ - ٦٣٠ هـ ، شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ .
- (١٣) ابن العديم : بغية الطلب ورقة ١٦٣ ، ١٧٣ ، والغزى : نهر الذهب ج١ ص ١٢٥ ، زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ص ١٤٤ ، بيروت ١٩٩٢ .
- (١٤) انظر ذلك فى ترجمة ابن العديم فى معجم الأدباء لياقوت الحموى : حيث يورد أن أحد أجداد ابن أبى جراده كان شيعياً .
- (١٥) شاكر مصطفى : المؤرخون ج٢ ص ٢٥٢ ، محسن الأمين : أعيان الشيعة ج١ ص ٢٨٦ ، « تحقيق حسن الأمين ، بيروت ١٩٨٣ » .
- (١٦) ورد اسمها كما أشرنا فضائل بنت صفيد وهى ابنة قاضى صور انظر كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 . وشاكر مصطفى : المرجع السابق، ج٢ ص ٢٥٢ .
- (١٧) ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ج٦ ص ٢٦٣ / ٢٦٤ ط بيروت ١٩٧١ م .
- (١٨) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٧٩ (مادة أثارب) ومعجم الأدباء ص ١٤٢ . ابن العديم : بغية الطلب ج٤ ص ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٢ ، ج١ ، ص ٢٩٢٦ ، ٢٩٢٧ ، دمشق ١٩٧٩ م .
- (١٩) ابن العديم : بغية الطلب ج٤ ص ١٨٧٥ ، ١٨٨٤ .
- (٢٠) شاكر مصطفى : المرجع السابق والصفحة .
- (٢١) انظر : ابن شداد : الأعلام قسم حلب ص ١٥٠ ، ١٥٣ .
- (٢٢) انظر : كل من شاكر مصطفى ج٢ ص ٢٥٣ - ومحسن الأمين ج١ ص ٢٧٦ .
- (٢٣) شاكر مصطفى : المؤرخون ج٢ ص ٢٥٤ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ج١ ص ٥٨٢ .
- (٢٤) محسن الأمين : أعيان الشيعة ج١٠ ص ٢٨٦ .
- (٢٥) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ج١٣ ، ١٤ ، ص ١٩٥ .
- (٢٦) مصطفى جواد : مجلة الكتاب ص ٤٧٧ ، مصر دار المعارف للطباعة والنشر العدد ٦ لعام ١٩٤٨ .
- (٢٦) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٤ ، ٥ .
- (٢٧) انظر فيما سبق من هذا البحث ، كلود كاهن : المرجع السابق والصفحات .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠١هـ .
- أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ١٩٧٢ .
- البغدادى : هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين ج٢ استانبول سنة ١٩٥٥ و ج٣ طهرن ١٩٤٧م (١٣٨٧هـ) .
- ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ج٦ ، ط٢ بيروت ١٩٧١ .
- حاجى خليفة : كشف الظنون (الاستانة ١٩٤١م) .
- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر والشام وبلاد العرب ، القاهرة ١٩٥٨م .
- خليل بن ابيك الصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان (مصر ١٩١١م) .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ، بيروت ١٩٨٨ .
- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخير .
- الذهبى : تاريخ الإسلام (بيروت ١٩٨٨م) .
- الزركلى : الإعلام ج٨ « بيروت دار العلم للملايين » .
- السبكى : طبقات الشافعية ج٤ (ط ١٣٢٤هـ) .
- السيوطى : طبقات المفسرين (ليدن ١٨٣٨م) - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (ط مصر ١٣٢١هـ) .
- سرور جمال الدين : الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٩٥) .
- ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب (بيروت ١٩٠٩) .
- أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين (طبع مصر ١٢٨٠هـ) .

- شاكِر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخين ج٢ الكويت .
- ابن شداد : الإغلاق الخطيرة - قسم حلب (دمشق ١٩٩١م) .
- عمر رضا كحاله : معجم المؤلفين ج١٣ ، ج١٤ دار أحياء التراث العربى «ونسخة دمشق ١٩٦١م» .
- ابن العديم : زبدته الحلب فى تاريخ حلب (دمشق ١٩٥٤م) بغية الطلب فى أخبار حلب ج٤ و ج٦ ، دمشق ١٩٧٩ .
- محمد راغب الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج٤ « حلب دار القلم العربى » طبعة ١ ، ١٩٢٣ وطبعة ٢ ، ١٩٨٩ .
- محسن الأمين : أعيان الشيعة ج١٠ ، بيروت ١٩٨٣ .
- مصطفى جواد : « مجلة الكتاب » مصر العدد ٦ لسنة ١٩٤٨م .
- الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب « المطبعة المارونية » .
- الشيخ اقابزرك الطهرانى : الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج١ وج٣ ، بيروت ١٩٨٣ .
- المقرئى : الخطوط ج١ ، ١٣٢٥هـ - وكتاب السلوك ج١ وج٣ طبع القاهرة ١٩٣٩م .
- ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية فى السيرة النورية - والإعلام .
- القفطى : تاريخ الحكماء « طبعة ليبسك ١٩٠٣م وطبعة القاهرة ١٣٢٦هـ .
- كرد على : خطط الشام ج٢ ، ج٤ (دمشق ١٩٣٨م) ، طبعة ١٩٢٥م .
- ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ، مصر السعادة .
- ياقوت الحموى : معجم البلدان (١٣٢٣هـ) معجم الأدباء (١٩٣٦م) .

موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل

فى ضوء وثائق الخارجية المصرية

د. عبد الحميد عبد الجليل شلبي (*)

تعددت مصادر تاريخ العرب منذ فجر التاريخ حتى الآن من نقوش وآثار وكتابات وكانت الوثائق بطبيعة الحال مصدر من مصادر تاريخ العرب ومعرفة أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وحينما دونت الوثائق لم يكن يدر بخلد كاتبها أنها ستكون مرجعا تاريخيا ، بل كانت تدون لحفظ الحقوق ولتنظيم العلاقات سواء على مستوى الدول (كمعاهدات واتفاقيات) أو على مستوى الأفراد (كوثائق البيوع والوثائق الشرعية وغيرها) ووثائق وزارة الخارجية المصرية(*) تعد من أهم مصادر تاريخ العرب الحديث والمعاصر نظرا لأنها أقدم زمنا من غيرها فى الدول العربية الأخرى.

ولأهمية هذه الوثائق التاريخية قسمت هذه الدراسة قسمين :

(أ) قسم نظرى . (ب) قسم تطبيقى .

أولاً : القسم النظرى :

(أ) كيفية تصنيف هذه الوثائق فى دار الوثائق القومية :

تعد وثائق الخارجية المصرية من الوثائق البكر التى تم السماح للباحثين بالاطلاع عليها منذ فترة ليست بالبعيدة ، وتحفظ معظم هذه الوثائق بدار الوثائق القومية(*) بالقاهرة وهناك مجموعة أخرى محفوظة بقصر عابدين ، وتتناول وثائق الخارجية المصرية كافة المسائل التى تتعلق بالشئون السياسية (داخلية وخارجية) ، والاقتصادية ، والاجتماعية ولم ترصد هذه الوثائق كل ما يتعلق بمصر فحسب بل أنها ترصد ما يتعلق بالدول العربية والدول الأجنبية - أحيانا .

(*) جامعة الأزهر .

ويوجد فى دار الوثائق - فيما يخص وثائق الخارجية - ما يقرب من خمسة
فهارس هى :

- ١ - الأرشيف السرى القديم « جزءان » .
- ٢ - الأرشيف السرى الجديد « جزءان » .
- ٣ - أرشيف الإدارة الاقتصادية .
- ٤ - أرشيف الإدارة الأوربية .
- ٥ - الأرشيف العادى .

وقد تم الانتهاء من فهرسة الأرشيفين الأول والثانى ، ويجرى العمل فى
الأرشيفات الثلاثة الباقية .

أما الأرشيف السرى القديم فيحتوى على ما يقرب من (٩٢٣) محفظة ،
بكل محفظة عدد من الملفات المختلفة التى قد يصل بعضها إلى ثلاثين (٣٠) ملف
ومحصر ملفات هذا الأرشيف ، نجد أنه يهتم بالأمور القنصلية والاجتماعية
والصحية والاقتصادية ، وجاءت غالبية الوثائق بهذا الأرشيف مكتوبة باللغة
الفرنسية باستثناء بعض الوثائق التى كتبت باللغة العربية .

أما الأرشيف السرى الجديد ، ففيه ما يقرب من ألف وستمائة وسبع عشرة
محفظة (١٦١٧) تصل الملفات فى بعضها إلى (١٧) ملف .

وتتناول معظم الوثائق الخاصة بهذا الأرشيف الأمور السياسية ، بالإضافة
إلى الأمور التجارية . ويتناول هذا الأرشيف الفترة من العشرينات حتى بداية
الستينات من هذا القرن .

وجدير بالذكر ، أن الأرشيف السرى الجديد به مادة غزيرة جداً لفترة
الخمسينات ، حيث الأحداث السياسية الهامة التى أعقبت الثورة المصرية عام
١٩٥٢ م . واللغة السائدة فى كتابة هذا الأرشيف هى اللغة العربية ، اللهم بعض

الوثائق الخاصة بفترة العشرينات والثلاثينات والتي كتب بعضها باللغة الفرنسية ، ويعود السبب فى كتابة بعض هذه الوثائق باللغة الفرنسية إلى أنها فرضت كلغة أساسية للعمل الدبلوماسي .

وبالإضافة إلى الأرشفات الخمسة - المذكورة آنفا - هناك بعض الأرشفات الخاصة بدول معينة ، فهناك على سبيل المثال ثلاث محافظ خاصة بالمراسلات الواردة من السفارة المصرية بجدة والرد عليها ، وهى تغطى الفترة من ١٩٣٨ حتى ١٩٥٩ م وكلها تقارير سياسية ، اللهم بعض الملفات التى تتناول بعض الأمور الاقتصادية وأمور الحج . هذا بإيجاز عرض لكيفية تصنيف هذه الوثائق وكيفية فهرستها ، وهنا يبرز سؤال وهو : هل من الممكن تزييف تلك الوثائق ؟

الإجابة فى رأى لا ، حيث تعد هذه الوثائق من الوثائق الرسمية ولا يعتد بها إلا إذا كانت ممهورة بخاتم الوزارة أو خاتم السفارة ، مع توقيع الراسل عليها ، فضلا عن أن هذه الوثائق ترسل عادة بالحقية الدبلوماسية حسب درجة الأهمية أو السرية .

وهناك أمر آخر وهو أنه حينما كان يتم الرد على الوثائق الصادرة والواردة من وإلى الوزارة كان يرمز إليها برقمها وملخصها فإذا ما دست برقية على السفارة أو على الوزارة كان من اليسير اكتشافها ، خاصة وأن هناك بعض الرموز الاصطلاحية المتفق عليها بين الوزارة والبعثات الدبلوماسية فى الخارج ، وإذا زيفت وثيقة خاصة بالسفارة أو الوزارة كان يمكن اكتشافها من ألفاظها أو من الخاتم الذى تختتم به .

وهناك بعض الأمثلة على ذلك حيث دست بعض المستندات على السفارة المصرية فى بيروت ووصلت المستندات المزيفة إلى السفارة السعودية فى بيروت على أنها صورة طبق الأصل لتقارير صادرة من السفارة المصرية ولكن تم الكشف عن هذه الوثائق من خلال الصياغة التى صيغت بها ، حيث أستعمل المزورون

ألفاظا ، وتعابير سورية ، أو لبنانية ، مما لا يستخدم فى الصياغة المصرية(*) ومن هنا كان الجواب على سؤال عما إذا كان من الممكن تزيف الوثائق المصرية أم لا ؟ ، بالنفى .

(ب) كيفية الاطلاع على هذه الوثائق :

هناك العديد من الإجراءات التى على الباحث أن يتبعها حتى يتسنى له الاطلاع على وثائق الخارجية المصرية ، وتكون هذه الإجراءات على النحو التالى:

١ - خطاب موجه من الجهة المسجل بها موضوع البحث إلى مدير عام دار الوثائق القومية ، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية .

٢ - يملأ الباحث الاستمارات اللازمة لاستخراج التصريح .

٣ - ضرورة الحصول على موافقة الأمن بدار الوثائق وتستغرق هذه الموافقة ما بين ١٥ - ٤٥ يوما .

٤ - خطاب موجه من الجهة المسجل بها موضوع البحث إلى السيد السفير مدير إدارة المعلومات بوزارة الخارجية المصرية، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية.

٥ - تستغرق هذه الموافقة عدة أشهر تتراوح ما بين شهر إلى ستة أشهر حسب أهمية الموضوع .

٦ - بعد موافقة الأمن بدار الوثائق يتم استخراج تصريح بالاطلاع على الوثائق يدون فيه رقم التصريح ورقم الموافقة ، وجميع البيانات الشخصية للباحث ، وموضوع البحث .

٧ - لا يحق للباحث الاطلاع على الوثائق إلا بعد الحصول على موافقة إدارة المعلومات بوزارة الخارجية .

٨ - غير مسموح بتصوير هذه الوثائق لأنها تعد من الوثائق السيادية ولا يتم التصوير منها إلا إذا وافقت الجهات المعنية بوزارة الخارجية .

٩ - هناك مدة اعتبارية للتصريح الذى يحصل عليه الباحث وهى خمسة أعوام وأحيانا يتم التجاوز عنها لحين الانتهاء من البحث .

١٠ - تسرى هذه الإجراءات على المصريين والعرب والأجانب بدون استثناء .

(ج) أهمية وثائق الخارجية المصرية :

قبل استعراض أهمية هذه الوثائق ينبغى أن نحدد أهميتها وخصائصها .
والواقع إن هذه الوثائق عبارة عن تقارير يومية ترسل من الهيئات الدبلوماسية المصرية (سفارات - مفوضيات - قنصليات) فى الخارج إلى الوزارة والعكس ، وهى تتناول الأحداث الجارية - زمن كتابة الوثيقة - ويستعرض فيها السفير أو الوزارة الآراء المختلفة فى موضوع ما ، وأحيانا يرفق بالمراسلات التى يبعث بها السفراء بعض التقارير التى يكتبها المستشارون والملاحق بناء على تكليف من السفير أو القنصل أو الوزير المفوض . وتكون هذه التقارير ، فى معظم الأحيان مستخلصات للقاءات تمت بين المستشار أو الملحق مع بعض المسئولين فى بلد ما ، بالإضافة إلى مستخلصات لأهم ما تناقلته الصحافة ووكالات الأنباء فى ذلك البلد . وهذه الوثائق ليست خاصة بالمراسلات بين الوزارة والهيئات الدبلوماسية فحسب ، بل تضم أيضا محاضر الجامعة العربية والمراسلات التى تبودلت بين الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات العربية والأجنبية ، بالإضافة إلى نصوص بعض المعاهدات والاتفاقيات (تجارية - اقتصادية - زراعية - سياسية ... الخ) وربما يوجد فيها بعض المذكرات لكبار الشخصيات كمذكرات الملك فاروق ملك مصر ، وكانت تنشر فى بعض الصحف الأجنبية .

أما أهمية هذه الوثائق فلا يمكن الحكم عليها إلا بقراءة بعض النماذج ومنها:

١ - وثائق تبرز التضامن العربى :

فمن الوثائق الهامة التى تبرز التضامن العربى والوحدة العربية تلك المراسلات التى تبودلت قبيل عقد اللجنة التحضيرية لتكوين الجامعة العربية ، والتى انعقدت

فيما بين يوليو / تموز - أغسطس / آب ١٩٤٤ م بين مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر والزعماء العرب ، من أجل تكوين الجامعة العربية وبرز خلال تلك المراسلات حرص العرب على ضرورة إيجاد ممثل لفلسطين في هذه الاجتماعات ، ومدى تضافر الجهود العربية للحفاظ على عروبة فلسطين ، وتتجلى هذه المراسلات وهذه الروح من خلال الرسالة التي بعث بها الملك عبد الله بن الحسين إلى رئيس الوزراء النحاس باشا بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٦٣ هـ الموافق ١٤ أغسطس / آب ١٩٤٤ م مبينا له أهمية تمثيل الفلسطينيين في هذه اللجنة، وموضحا خطر الصهيونية ليس على فلسطين وحدها بل على ما وراءها من بلاد عربية أيضا ، وفي مقدمتها الأردن . وفي نهاية الرسالة اقترح الملك عبد الله بعض الأسماء الفلسطينية لتمثل الجانب الفلسطيني في اللجنة التحضيرية(*) وهناك أيضا الرسالة التي تلقاها النحاس باشا من السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان معربا عن موافقته على الاشتراك في اللجنة التحضيرية ، وكذلك عن أمله في أن يكون هناك ممثلون لفلسطين في تلك الاجتماعات . وفي نهاية الرسالة أعرب له عن أن غياب فلسطين عن الاجتماعات لن يزيد ممثلي شقيقاتها إلا عطفًا على قضيتها وتمسكا بحقوقها(**).

٢ - وثائق تبرز سياسة مصر تجاه بعض القضايا العربية :

من الأمور الهامة التي تناولتها الوثائق المصرية على المستوى السياسى المصرى واتجاهات وزارة الخارجية تجاه القضايا العربية ، ذلك الاجتماع الذى عقد تحت اسم « المؤتمر الدبلوماسى العربى » بتاريخ ٤ فبراير / شباط ١٩٥٠ م ، وهو خاص بوزارة الخارجية المصرية ، حيث حضره وزير الخارجية والسفراء المصريون فى الدول العربية وفى نهاية المؤتمر تم إصدار عدة قرارات سرية للغاية ، ومن أهم - وأخطر - تلك القرارات ما كان يتصل بموقف مصر وسياستها تجاه موضوع

(*) انظر الملحق رقم (١) .

(**) انظر الملحق رقم (٢) .

اتحاد سوريا والعراق (مشروع الهلال الخصيب) حيث صدر عن المؤتمر عدة قرارات فى هذا الشأن منها :

١ - يكون الموقف الرسمى للحكومة المصرية هو الحياد المطلق بين جميع التيارات الموجودة داخل سوريا .

٢ - معارضة الاتحاد بين البلدين بطريق مفتعل .

٣ - تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا .. إلخ(*) .

أى أن القرارات طالبت بأن تكون سياسة مصر فى هذا الموضوع ذات شقين ، شق ظاهرى وهو الحياد المطلق بين جميع التيارات السياسية السورية سواء التى تدعو للوحدة مع العراق أو التى تدعو للوحدة مع مصر ، وشق آخر سرى وهو عرقلة هذا المشروع ومعارضته بصور مفتعله مع تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا حتى يتم فشل المشروع .

٣ - وثائق تبرز تعاون مصر مع جامعة الدول العربية :

وهناك وثائق تظهر مدى التعاون بين مصر وجامعة الدول العربية فيما يختص بالشئون الدولية والعربية ومن ذلك ، تلك المذكرة التى بعثت بها الإدارة السياسية بجامعة الدول العربية إلى وزارة الخارجية المصرية تحيطها علما بطلب إمامة عمان الداخلية الانضمام إلى الجامعة ١٩٥٤ م ، وتطلب من وزارة الخارجية المصرية تزويدها بما تستطيع من بيانات أو دراسات أو وثائق خاصة بشئون إمامة عمان ووضعها السياسى(**)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية . محفظة ١٤٠١ ملف ٤ / ١٩٨ / ١ سرى جدًا " المؤتمر

الدبلوماسى العربى ٤ فبراير ١٩٥٠ م "

(**) انظر الملحق (٣) .

٤ - وثائق تبرز التأيد الشعبى للقضايا العربية :

ومن الوثائق التى تبرز التضامن العربى على المستوى الشعبى ما جاء إبان أزمة السويس من برقيات تندد بالاستعمار والمستعمرين ، وتؤيد الموقف المصرى . ومن هذه الوثائق البرقية التى أرسلها أحد خطباء المساجد فى سوريا إلى الرئيس جمال عبد الناصر مؤيداً له ولسياسته، وينقل إليه عاطفته وعاطفة الشباب السورى تجاه مصر ورئيسها وقضيتها.

٥ - وثائق تصحح بعض الأخبار المغلوطة :

وكما توجد وثائق هامة تبرز لنا التعاون العربى والسياسة العربية وبعض المواقف الشعبية ، فهناك وثائق أخرى على درجة كبيرة من الأهمية ومهمتها تصحيح بعض الأخبار المغلوطة ، ومنها - على سبيل المثال - ما ذكرته إحدى الدوريات الأجنبية Middle East Journal فى عددها شتاء عام ١٩٥٧ م العدد (١١) رقم (١) بتاريخ ٢٢ ديسمبر / كانون أول ص ٧٦ ، بأن وزير خارجية ألمانيا الغربية صرح بأنه «يستعجل حكومته لوقف دفع التعويضات لإسرائيل ودفعها لمصر بدلاً منها» فالباحث فى موقف حكومة ألمانيا الغربية من أزمة السويس عام ١٩٥٦ م حينما يعتمد على هذه الدورية سوف يورد هذا الخبر على أنه حقيقة مسلم بها ، ولكن بالرجوع إلى وثائق الخارجية المصرية ، نجد أن الخارجية المصرية قد تعجبت حينئذ من هذا الخبر لأنه يخالف الواقع ويتنافى مع ما كان يذكره وزير خارجية ألمانيا الغربية من أن بلاده سوف تستمر فى دفع التعويضات لإسرائيل بدون النظر إلى النزاع العربى / الإسرائيلى ، فأرسلت الخارجية بدورها إلى المستشار الصحفى بالسفارة المصرية فى واشنطن - حيث تصدر المجلة - تستعلم منه عن صحة هذا الخبر ، فأرسل الأخير بدوره إلى رئيس تحرير المجلة الذى أفاد « بأن خطأ مطبعياً قد وقع فى كتابة الخبر ، وأن التصريح المشار إليه صدر عن وزير خارجية ألمانيا الشرقية وليس الغربية كما ورد خطأ فى المجلة »(*)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية - محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٨ وثيقتان بتاريخ

١٩٥٧/٥/٢١ م ، ١٩٥٧/٦/١١ م من وكيل الخارجية إلى المستشار الصحفى لسفارة

مصر بواشنطن والرد عليها برقم ١١٥ .

وكان الأمر يستلزم نشر تكذيب أو تصحيح للخبر فى العدد التالى أو فى الأعداد التالية فى نفس المكان كما تنص الأعراف ، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث وظل الأمر كما هو بصورته المغلوطة ولكن الوثائق على هذا النحو قد صححت خطأ لم تصححه المجلة التى أوردت الخبر المكذوب .

٦ - وثائق تبرز مساعدات مصر لبعض الدول على المستوى الفردى :

تكتظ وثائق الخارجية المصرية بالعديد من الوثائق التى توضح المساعدات المصرية لبعض الأقطار العربية الشقيقة ، وعلى سبيل المثال تلك البرقية التى وردت إلى الإدارة العربية بوزارة الخارجية من السفارة المصرية بالرباط بشأن الوضع السياسى فى المغرب وكيفية مساعدة مصر والدول العربية لهذا البلد الشقيق . وأهم ما ذكره التقرير فى هذا الشأن هو ضرورة طرد الكادر الفنى الفرنسى الذى تستعين به الحكومة المغربية وإحلال العرب من الفنيين محله وضرورة مناصرة مصر للعناصر المغربية للاتجاه نحو الدول العربية (**).

هذا عرض موجز لأهمية هذه الوثائق سواء فى مجال التعاون العربى أو فى مجال تصحيح بعض المفاهيم والمواقف السياسية .

- أضواء على القسم النظرى :

جدير بنا قبل البدء فى الجزء التطبيقى أن نلقى الضوء على القسم النظرى من خلال الصعوبات التى تواجه الباحث فى هذه الوثائق ، والاقتراحات التى يمكن بها تلافى تلك الصعوبات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين فى هذه الوثائق منع التصوير منعاً باتاً إلا بالحصول على موافقة الخارجية المصرية ، وهذا لا يحدث إلا فى القليل النادر جداً ، وبجهود خاصة ، مما يجعل بعض الباحثين يحصلون على الوثائق بطرق غير مشروعة . وهنا يجب فتح باب التصوير من هذه الوثائق ، كما هو متبع

(**) انظر الملحق رقم (٤).

فى كبرى دور الوثائق ، وهذا من شأنه أن يعود بالنفع على تطوير دار الوثائق، كما يكون مصدر دخل للدولة ، نظرا لأهمية هذه الوثائق ، التى اتجهت إليها أنظار الباحثين من كل مكان .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين أيضا ، كثرة تكرار صور الوثائق فى الملف الواحد . ويجب هنا تنقية هذه الملفات من الوثائق المتكررة ، حتى لا تكون مطمعا لبعض الباحثين من ضعاف النفوس بنزعها من الملفات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود بعض الوثائق الممزقة ، نتيجة لسوء التخزين والاستخدام ، مما يستدعى ضرورة نقل هذه الوثائق على مصغرات فيلمية أى / « ميكروفيلم » لسهولة حفظه والاطلاع عليه والتصوير منه دون أضرار .

- ومن الصعوبات -أيضا- عدم التطابق بين ملفات المحفظة الواحدة فى الموضوع .
- فى أغلب الأحيان - وعلى سبيل المثال المحفظة رقم ١٣٢٨ بها عدد ثلاث ملفات وهى :

١ - ملف رقم ١٣٩/١٤٢/٤١ ج ٢ « عرض مسألة قناة السويس على مجلس الأمن أكتوبر ١٩٥٦ » .

٢ - ملف رقم ١٣٩/١٤٣/١ « المجلس الدولى للأرز - اجتماعات اللجان » .

٣ - ملف رقم ١٣٩/١٤٣/٩ « اللجنة الخاصة ببحث مشاكل تصريف ومداركة السلع الغذائية والزراعية » .

فنلاحظ أن ملفات المحفظة لا يربطها موضوع واحد كما أن الفترة الزمنية متباعدة فالملف الأول فى عام ١٩٥٦ م ، والثانى عام ٥٢ - ١٩٥٣ م ، والثالث ٤٩ - ١٩٥٠ م ، فيجب حصر الملفات الخاصة بموضوع واحد ووضعها فى محفظة أو محفظتين حسب عدد الملفات وتأخذ أرقاما متسلسلة حتى يسهل الاطلاع عليها .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود عناوين لبعض الملفات فى المحافظ ، وبالرجوع إلى محفظة ما ، نجد أن هذا الملف مسحوب وبالسؤال عنه لا نجد إجابة ؟ وعلى سبيل المثال ملف رقم ٣٧ / ٤٠ / ١٣ (أحداث فلسطين السياسية) مسحوب من المحفظة رقم (١٥١٦) .

ومن الأمور التى توضح عدم الدقة فى التصنيف ما لاحظته الباحث فى الملف رقم ١٤ / ١٤ / ١ فى المحفظة رقم ١٢٤٧ حيث أخذ الملف اسم ((الحالة على الحدود النجدية / العراقية)) وبالرجوع إلى الملف وجد أن الورقة الأولى فقط هى التى تتناول هذا الموضوع وباقي الملف لا يمت للموضوع بصلة . وهذا الأمر يستدعى تأليف لجنة متخصصة لقراءة هذه الوثائق وتصنيفها حسب الموضوعات وحسب درجة الأهمية .

وبعد ، فهذه بعض الصعوبات التى قد تواجه الباحثين فى وثائق الخارجية المصرية ، ولكنها لا تمثل شيئاً فى سبيل الحصول على المعلومة المفيدة والجديدة ، وتجعلنا نقف على وجهة النظر المصرية والعربية من خلال وثائق عربية صميمة وليست من خلال الوثائق الأجنبية وحدها .

* * *

ثانياً : القسم التطبيقي :

هذا القسم أفردته للحديث عن « موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ». وهذه القضية تعد من القضايا السياسية ذات الصبغة الاقتصادية ، فالاقتصاد والسياسة عاملان متداخلان ممتزجان من الصعب الفصل بينهما . وترجع فكرة التعويضات إلى عام ١٩٤٣ م وكان صاحبها أحد اليهود الصهاينة فى الولايات المتحدة وهو جورج لاندوير George Landauer ، ثم تولى الصهيونى زجفريد موسى Siegfried Moses أمر عرضها أمام رأى العام العالمى منذ عام ١٩٤٤ (١) .

وقد بدأت المفاوضات المباشرة بين ألمانيا وإسرائيل بشأن هذه التعويضات اعتباراً من مارس (آذار) ١٩٥٢ م ، حيث وافق الكنيست الإسرائيلي على الدخول في مفاوضات مباشرة مع ألمانيا بشأن التعويضات بأغلبية ٦١ - ٥٠ صوتاً . وقد استمرت المفاوضات ما يقرب من سبعة أشهر تم خلالها الاتفاق على حجم التعويضات وكيفية سدادها ، وانتهت بعقد اتفاقية لوكسمبورج Luxembourg في ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٢ م (٢) .

وقد تم التصديق على هذه المعاهدة من قبل البرلمان الألماني بمجلسيه البوندستاغ (*) Bundestag في ١٨ مارس (آذار) ١٩٥٣ م ووافق عليها بأغلبية ٢٣٨ ضد ٣٤ وامتناع ٨٦ صوتاً ، والبندسرات (**) Bundesrat في ٢٠ مارس ١٩٥٣ م الذي وافق عليها بالإجماع ، وعقب ذلك وقع عليها رئيس الجمهورية د. هس Heuss وأصبحت قانوناً نافذاً منذ ٢٠ مارس (آذار) ١٩٥٣ م على أن يبدأ تنفيذها من أول إبريل (نيسان) ١٩٥٣ م (٣) .

وتم استيفاء اتفاق بروكسيل بحلول عام ١٩٦٥ م ولكن كانت هناك بعض التعويضات الفردية تقوم ألمانيا بدفعها للأفراد اليهود الذين تعرضوا أو ذروهم للاضطهاد ، وسوف تستمر هذه التعويضات حتى عام ٢٠٣٠ (٤) .

وكان السبب في عقد ألمانيا لهذه الاتفاقية كما يقول « الهرفون برنتانو Von Brantono وزير خارجية ألمانيا » (أن هذه التعويضات أعطيت لإسرائيل نتيجة لضغوط معينة - حدثت في الماضي - على ألمانيا) (٥) هذا عن اتفاقية التعويضات ، أما عن موقف مصر من هذه الاتفاقية فيدور في محورين :

(*) البوندستاغ : أحد مجلسي الهيئة التشريعية في جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) وأهمها وهو يمثل الشعب ويتم انتخاباً مباشراً . ويتم انتخاب المستشار .

(**) البوندسرات : المجلس التشريعي الثاني في جمهورية ألمانيا الاتحادية وهو أقل أهمية من البوندستاغ لأن السلطة تتركز في البوندستاغ وهو يتكون من أعضاء يمثلون حكومات الولايات الألمانية .

(أ) موقف مصر فى الإطار العربى .

(ب) موقف مصر منفردة .

المحور الأول : موقف مصر من اتفاقية التعويضات فى الإطار العربى :

أخذت جامعة الدول العربية على عاتقها منذ إنشائها - وحتى الآن - الدعوة للقضية الفلسطينية ، والعمل على نصرة عرب فلسطين ، وحث الحكومات العربية على انتهاج هذه السياسة (٦) . وعقب بدأ المفاوضات الألمانية / الإسرائيلية بشأن التعويضات ، جاء أول تحرك عربى فى مارس (آذار) ١٩٥٢ م وكان هذا التحرك من جانب سوريا ، التى اقترحت أن تتحرك الدول العربية لمنع وصول هذه التعويضات إلى إسرائيل ، وفى مقابلة بين الوزير المفوض المصرى بدمشق (حسين عزيز) والأمين العام لوزارة الخارجية السورية ، اقترح الأخير أن تسعى الدول العربية لدى الدول الكبرى الثلاث (أمريكا - فرنسا - بريطانيا) لكى يعملوا على تحويل مبلغ التعويضات المقرر إعطاؤه لإسرائيل من ألمانيا لصالح لاجئ فلسطين الذين شردتهم الحكومة الإسرائيلية وعددهم ما يقرب من مليون عربى(٧) .

وبناء على الاقتراح السورى ، أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية عن طريق القنصل المصرى بفرانكفورت ، وخلال استفسار القنصل المصرى عن مصير هذه المذكرة من المهر (فون اتسدورف) Von Etzdorf مدير الشؤون السياسية بوزارة الخارجية الألمانية ، يقول القنصل المصرى (إننى فهمت من حديث اتسدورف أن حكومة ألمانيا الغربية لا تربطها أية صلة رسمية أو غير رسمية بجامعة الدول العربية ، ولهذا يهم حكومة ألمانيا الغربية أن تعرف هل يمكن اعتبار المذكرة المقدمة من الجامعة هى مذكرة الحكومة المصرية فقلت أن مذكرة الجامعة مقدمة فقط عن طريق الحكومة المصرية (٨) . وفى نهاية التقرير ينصح القنصل المصرى بضرورة تقديم مذكرة احتجاج مصرية إلى الحكومة الألمانية ، وأن تحذو باقى الدول العربية حذو مصر ، على أن يصر العرب فى احتجاجاتهم على ضرورة تعويض اللاجئين العرب خاصة وأن المعاهدة لم توقع بعد(٩) .

وبعد توقيع معاهدة لو كسمبورج ، وحينما لم تأت مذكرة الجامعة العربية
بنتيجة مرجوة ، سعت سوريا بطريقة منفردة لدى الحكومة الألمانية ، حيث
أرسلت د . مأمون الحموى المستشار بوزارة الخارجية السورية لمقابلة المسئولين فى
الحكومة الألمانية لبحث موضوع التعويضات ، وعقب لقائه بهم تقابل الحموى مع
القنصل المصرى فتباحثا فى أمر التعويضات ، ثم استقر رأيهما على عدة أمور
كمقترحات تعرض على مجلس الجامعة العربية للنظر فيها ومنها :

١ - اتخاذ قرار جماعى بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا فى حالة إذا ما
أقر البرلمان الألمانى مشروع الاتفاق .

٢ - إجراء مباحثات بين الدول العربية وبين حكومة ألمانيا على أساس عدم
الموافقة على تعويض إسرائيل بتاتا ، وإلا فيكون تعويضها لأفراد اليهود فقط الذين أضرروا .

٣ - الاحتجاج لدى الحكومة الأمريكية بسبب ضغطها على ألمانيا لدفع
التعويضات لإسرائيل الخ (١٠).

وفى اقتراح آخر من القنصل العام المصرى - مع قرب تبادل التمثيل
الدبلوماسى بين العرب وألمانيا - اقترح أن تطلب الحكومات العربية من ألمانيا
التريث فى إرسال ممثليها إلى البلاد العربية إلى أن يتضح موقفها من مسألة
التعويضات ، وذلك حتى تشعر الحكومة الألمانية بأن البلاد العربية جميعها جادة فى
موقفها مع ألمانيا من اتفاقية التعويضات لإسرائيل (١١).

وعلى الرغم من احتجاجات العرب على توقيع اتفاقية التعويضات أعلن
المستشار الألمانى آديناور Adenauer أنه وقع على الاتفاقية « وبذلك فإنه حافظ
على كلمته » (١٢). أى أن هذه الاحتجاجات لم تؤثر فى قرارات المستشار
الألمانى ، وإن كانت قد أحدثت بعض التأثيرات لدى بعض المسئولين حيث أعلن
وزير الخارجية الألمانية - آنذاك - (فون اكاردت) Von Ekardet أن هذه
الاتفاقية لن تضر بالعرب بأى شكل من الأشكال (١٣). كما أثرت الدعاية العربية

فى بعض الأوساط الألمانية حيث قدم ما يقرب من ثلاثين عضو فى البوندستاج Boundstag يمثلون أربعة أحزاب رسالة إلى الحكومة تحذرهما وتطالب بعدم التصديق على معاهدة لوكسمبورج وضرورة مراعاة رد الفعل العربى (١٤) .

ومع منتصف شهر أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ م سافر إلى بون وفد يمثل أعضاء جامعة الدول العربية لمباحثة الحكومة الألمانية فى اتفاقية التعويضات . وقد أجرى الوفد مقابلات مع المسئولين الألمان ، ولم تؤت هذه الاتصالات ثمارها بل أن الوفد لم يفلح فى إقناع المسئولين فى ألمانيا بوجهة النظر العربية (١٥) .

وبعد فشل الوفد وعودته من ألمانيا ، اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية فى نوفمبر (تشرين ثان) ١٩٥٢ م واتخذت عدة قرارات كان منها:

١ - تقديم مذكرة احتجاج إلى حكومة ألمانيا الغربية تتضمن أنه فى حالة التصديق على معاهدة التعويضات الألمانية مع إسرائيل فستجد دول الجامعة العربية نفسها مضطرة إلى اتخاذ الإجراءات التى ولا شك ستؤثر على العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا الغربية والدول العربية .

٢ - قبول الدخول فى محادثات مع حكومة جمهورية الاتحاد الألمانى بشأن معاهدة التعويضات بينها وبين إسرائيل ، على أن تجرى هذه المحادثات فى القاهرة بين وفد يمثل ألمانيا ووفد يمثل حكومات دول الجامعة العربية ، ويؤلف من عضو أو أكثر من كل هذه الدول (١٦) .

وبالفعل أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية ، أوضحت فيها التهديد الذى تمثله اتفاقية التعويضات للدول العربية ، وأن هذه الدول لا يمكنها أن تغض النظر عن المساعدة الضخمة التى تقدمها ألمانيا لدولة هى فى حالة حرب معها . وبينت المذكرة أنه نظرا لعدم استجابة الحكومة الألمانية للاحتجاجات العربية - فردية وجماعية - وعزمها على التصديق على المعاهدة ، فإنها مضطرة للدفاع عن مصالحها ، وأنها قد تضطر إلى قطع العلاقات الاقتصادية مع

الجمهورية الاتحادية فوراً » ولما كانت الدول العربية تأمل فى ألا تضطر إلى اتخاذ أى إجراء من هذا النوع فهى تنتظر أن تقوم الجمهورية الاتحادية فوراً بعمل يتفق مع ما عرضته من بدء محادثات مع الدول العربية بالطرق الدبلوماسية « (١٧) .

ونتيجة للمذكرة العربية ، حذر السياسى الألمانى « فرانز جوزيف شتراوس Franz Josef Strauss » أحد زعماء الحزب الاشتراكى المسيحى فى بيان له فى ٥ يناير (كانون ثان) ١٩٥٣ م ، أن توقيع الاتفاق مع إسرائيل ربما يكلف ألمانيا خسارة فى السوق العربى تصل إلى مليار ومائه وتسعون مليون دولار خلال السنوات العشر المقبلة (١٨) .

واستمرت جهود مصر بالتعاون مع جامعة الدول العربية فى التضييق على هذه الاتفاقية ، حيث طلبت مصر من الجامعة إدراج قضية التعويضات فى جدول الجامعة ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٣ م وذلك نتيجة لخرق ألمانيا وإسرائيل بنود هذه المعاهدة بالسماح لإسرائيل بشراء منتجات من إنجلترا وخصم قيمتها من حساب التعويضات المستحق لها قبل ألمانيا الغربية ، إذا أن إسرائيل بهذا العمل تستطيع الحصول على كل ما تحتاجه من سلع أساسية حربية كانت أو غيرها من كافة أنحاء العالم على حساب اتفاقية التعويضات (١٩) .

وفى لقاء جمع السفير المصرى والقائم بأعمال المفوضية السورية ووزير العراق المفوض بيون اقترحوا خلال اللقاء ضرورة مراقبة تنفيذ نصوص الاتفاقية بدقة كما جاءت ، والحيلولة دون مساعى إسرائيل لتزيد من حصتها باستزعاء انتباه الحكومة الألمانية إلى أن هذا الموقف يعتبر موقفا عدائيا ضد العرب (٢٠) .

ونتيجة لرصد الدول العربية لتنوعية البضائع التى تحصل عليها إسرائيل من أموال التعويضات ، أصدرت الجامعة العربية فى جلستها الثامنة من دور الانعقاد العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م عدة قرارات كان منها « أن تقوم الحكومات العربية بالاتصال بالحكومة الألمانية وإفهامها أن هناك مواد وخامات وآلات تصدر إلى إسرائيل من شأنها أن تساعد على تنمية اقتصاديات إسرائيل

وزيادة قدرتها على الإنتاج الحربى ولا يسع الدول العربية السكوت على مثل هذه الأمور» (٢١) .

وحينما أعلنت إسرائيل عزمها على عقد قرض من ألمانيا الغربية بناء على اتفاقية التعويضات ، وقرض آخر من البيوتات المالية الألمانية ، تدارست اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية هذا الأمر فى ١٠/٩/١٩٥٤ م وقررت ما يلى «تبذل الحكومات العربية المساعى اللازمة للتثبت من الأخبار التى وردت من البعثات العربية فى ألمانيا والمتعلقة بسعى إسرائيل لعقد قرض بمائة مليون دولار من الحكومات الألمانية وخمسة وثلاثين مليون دولار من البيوتات المالية ، واتخاذ الوسائل اللازمة لإحباط ذلك المسعى» (٢٢).

وبناء على ذلك استدعى وكيل وزارة الخارجية بالإدارة الاقتصادية ، القائم بأعمال السفارة الألمانية بالقاهرة وأبلغه ما سترتب على ذلك النبأ - إن صح - من استياء شديد فى مصر وفى الدول العربية مما يعرض العلاقات بينهم وبين ألمانيا للخطر ، فأنكر القائم بالأعمال معرفته بهذا الخبر حتى يستعلم عنه من حكومته وفى ٩ / أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٤ م تقابل مرة أخرى مع مدير الإدارة الاقتصادية بالوزارة وأخبره نفى حكومته نفيًا باتًا لهذا الخبر ، وأنه لا علم لها بالمفاوضات الدائرة بين بعض البيوتات التجارية الألمانية وإسرائيل (٢٣).

واستمرارا لجهود الجامعة العربية لوقف أى قروض جديدة من ألمانيا لإسرائيل قررت فى اجتماعات اللجنة السياسية بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٥٥ م (مواصلة السعى الدبلوماسى لدى ألمانيا الغربية لإحباط محاولة إسرائيل الحصول على قروض منها) (٢٤) .

وتوالت اجتماعات العرب الرسمية وغير الرسمية ، ومن بينها ذلك الاجتماع الذى عقده رؤساء البعثات الدبلوماسية للدول العربية فى بون بتاريخ ٢٢/٦/١٩٥٦ م ناقشوا خلاله موافقة المجلس النيابى الألمانى البوندستاج Bundestag فى جلسته بتاريخ ٦ / يونية (حزيران) ١٩٥٦ م على مشروع

قانون لزيادة المبالغ المخصصة لتعويض جميع من اضطهدوا في ألمانيا خلال الحكم النازي . وفي نهاية اللقاء أصدر المجتمعون قرارا بضرورة الاتصال بحكوماتهم لشرح الموقف ذاكرين (أن ما يخشى الآن ليس صدور القانون الجديد لزيادة مبالغ التعويضات فحسب ، بل يخشى أيضا ألا تكون هذه الزيادة هي الأخيرة ، وأنه يجب اتخاذ إجراء جماعى سريع للإضرار بمصالح ألمانيا الاقتصادية في البلاد العربية ، حتى تشعر ألمانيا بسخط الدول العربية على موقفها إزاء اليهود عسى أن يتحرك رأى العام الألماني ويندد بسياسة حكومته (٢٥). وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر أرسلت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٥ ديسمبر (كانون أول) ١٩٥٦ م أخبرتها فيها بأن ألمانيا - رغم وقوع العدوان على مصر واشتراك إسرائيل فيه - لا زالت مستمرة فى دفع التعويضات مما يقوى الجانب المعتدى ، واقترحت أن تقوم وزارات خارجية الدول العربية باستدعاء ممثلى الحكومة الفيدرالية وإبلاغهم (قلق الحكومات العربية من سياسة ألمانيا الغربية فى هذا الشأن) (٢٦) . وقد أرسلت الحكومات العربية مذكرات بهذا المعنى إلى الحكومة الألمانية ولكنها لم تجدد نفعا (٢٧) . وفى الاجتماع الذى عقده المبعوثون الدبلوماسيون العرب فى بون فى ٨ مايو (آيار) ١٩٥٧ م تدارسوا أمر إرسال برقية احتجاج موحدة للحكومة الألمانية حول استمرارها فى دفع التعويضات لإسرائيل ، فرأى المجتمعون أن هذه المذكرة قد تخرج موقف البعثات العربية فى ألمانيا إذ أن الحكومة الألمانية قد تمتنع عن قبولها من الناحية الشكلية ، وقد رأى المجتمعون « أنه من المتعذر حمل ألمانيا على الرجوع عن قرارها بدفع التعويضات بعد مضى فترة طويلة وبعد أن تم دفع معظم هذه التعويضات » (٢٨) .

وهكذا اقتنع الدبلوماسيون العرب فى ألمانيا باستحالة تغيير هذه الاتفاقية وأدركوا أنه يجب على العرب أن يتخذوا خطوات أخرى بديلة للعمل الدبلوماسى وهو العمل الموحد من كافة الدول العربية باتخاذ إجراءات اقتصادية ضد ألمانيا ،

مع الإشارة إلى أن أى تهديد كلامى يضعف موقف العرب من مشكلة التعويضات ومن أى مشكلة مستقبلية بين العرب والحكومة الألمانية (٢٩) .

- المقاطعة العربية :

كانت المقاطعة العربية خاصة بإسرائيل ، وكان الهدف منها عمل حصار اقتصادى على إسرائيل حتى تضعف ويسهل بعد ذلك القضاء عليها ، وعقب التوقيع على اتفاقية التعويضات أعلنت دول الجامعة العربية مرارا وتكرارا أنها سوف تقاطع ألمانيا اقتصاديا إذا تم التصويت على المعاهدة . وعقب التصويت عليها اتخذت اللجنة السياسية عدة قرارات بعدم استيراد بضائع ألمانية بصورة غير مباشرة حتى لا يكون ذلك وسيلة لتهريب بضائع لحساب إسرائيل ، وإجبار المستوردين من ألمانيا على الحصول على شهادات من السلطات الحكومية المختصة والغرف التجارية أو اتحاد الصناعات بألمانيا تثبت أن البضائع المصدرة للبلدان العربية هي لحساب المصانع ولا تشكل جزءاً من التعويضات الألمانية لإسرائيل ، على أن تعتمد هذه الشهادة من إحدى القنصليات أو المفوضيات العربية بألمانيا . ولتنفيذ هذه التوصيات ، أوصت اللجنة بتعين موظف أو أكثر يتبع المكتب الرئيسى للمقاطعة ويكون مقره ألمانيا (٣٠) .

وأضاف المجلس الاقتصادى للجامعة بندا ينص على مطالبة مكاتب المقاطعة بتحري وجمع المعلومات والوثائق الخاصة بتصريف بضائع التعويضات الألمانية المسلمة لإسرائيل فى بلد آخر (٣١) ، حتى لا تتسرب تلك البضائع إلى الدول العربية عن طريق بلد ثالث .

وبناء على ذلك أخذت مكاتب المقاطعة العربية تتحرى عن الشركات التى يشتبه فى تعاملها مع إسرائيل وتصدر بضائع إلى الدول العربية (*) .

(*) انظر على سبيل المثال : محفظة رقم ٧٨٩ ملف ١٤٠/١٢٣/ج ١٣ (مكتب مكافحة التهريب لإسرائيل) . تقرير عن الاجتماع الرابع الذى عقدته لجنة الاتصالات العربية فى بون بتاريخ ٨/٧/١٩٦٠ م بتاريخ ٢٢/٨/١٩٦٠ م برقم ب/م/٤ .

وقد يتسائل البعض ، ما مدى تأثير هذه المقاطعة على إسرائيل ؟

مما لا يدع مجالا للشك أن المقاطعة العربية لإسرائيل قد أثرت بصورة كبيرة على مصالح إسرائيل الاقتصادية ، وأنها - كانت - تمثل خطرا حقيقيا على إسرائيل . ومما يؤيد ذلك ، أن إسرائيل سعت في تلك الفترة إلى إنشاء إدارة خاصة في وزارة الخارجية الإسرائيلية تسمى «إدارة التخطيط السياسى الاقتصادى» وتكون مهمتها إعداد الخطط اللازمة لمقاومة المقاطعة الاقتصادية التى يفرضها العرب ضد إسرائيل (٣٢) .

وهنا تبرز أهمية العامل الاقتصادى فى تحقيق الأغراض السياسية إذا ما توحدت الكلمة والجهود وخلصت النيات .

هذا عن موقف مصر من قضية التعويضات فى الإطار الجماعى العربى .

المحور الثانى : موقف مصر من قضية التعويضات منفردة :

كانت العلاقات المصرية الألمانية تسير سيرا طيباً عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فكانت مصر أول دولة عربية تعلن إنهاء الحرب مع ألمانيا ، ثم تبعها باقى الدول العربية (٣٣) . وعلى الجانب الاقتصادى دخلت مصر مع ألمانيا فى عدة اتفاقيات تجارية كان أولها ذلك الاتفاق الذى أبرم فى ٢١ ديسمبر / كانون أول ١٩٤٨ م . (*) ولكن عقب إعلان اتفاقية التعويضات تحركت مصر لأن مركزها فى العالم العربى هو مركز الزعامة الأدبية الذى يتطلب منها عناية كبرى بجميع الحوادث التى تقع فى تلك البلاد مع الإلمام بجميع التيارات السياسية القائمة فيها ودراسة الاتجاهات التى تنتهجها تلك التيارات والمرامى التى تستهدفها . ومن هذا المنطلق جاء موقف مصر المتبع لقضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ، فقبل إبرام الاتفاقية سعت مصر لعمل دعاية مضادة لها إلا أن قنصل مصر العام فى

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذا الاتفاق انظر : وثائق الخارجية المصرية محفظة ١٣٢٩ ملف

١٣٠ / ٧٤ / ٢ (العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا) .

فرانكفورت نصح حكومته بالقيام أولاً « بحس نبض » الولايات المتحدة قبل اتخاذ أية خطوة علنية ، كما نصح « بحس نبض » الجهات الألمانية بصفة سرية لمحاولة وقف أى اتفاق مع اليهود (٣٤) . وبالفعل قام السفير المصرى بواشنطن بمساعده لدى المسئولين فى الولايات المتحدة ، بناء على طلب الحكومة المصرية ، فتقابل مع وكيل الوزارة المساعد لشئون الشرق الأوسط ، فأوضح له الأخير أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين الطرفين فى شأن يخصهما (٣٥) . وعقب عقد الاتفاقية أعدت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة لخصت فيها موقف مصر من الاتفاقية ، وكيف أن ألمانيا بهذه الاتفاقية قد انتهجت سبيلاً مناقضاً لسياسة الصداقة التقليدية نحو المسلمين والعرب ، وأن إسرائيل لم تكن دولة حينما وقع عدوان على اليهود من النازى - إن صح - فليس لها الحق فى أن تحصل على التعويضات نيابة عنهم ، وقد أبلغت إدارة الصحافة بهذه المذكرة لإبلاغها لبعض الصحفيين الألمان لتنشر فى ألمانيا (٣٦) .

وفى أحد التقارير الواردة للوزارة من السفارة المصرية بيون تعرض السفير للأسباب التى دعت ألمانيا لعقد تلك الاتفاقية وحصرها فى عاملين :

- ١ - حاجة ألمانيا الشديدة - فى ذلك الوقت - لمساعدة أمريكا السياسية والاقتصادية وتوسلها لذلك عن طريق إرضاء الصهيونية الأمريكية.
- ٢ - وجود نوع من التعاطف - عند بعض من يتولون الحكم فى ألمانيا - تجاه اليهود .

وتوقع السفير - فى نهاية التقرير - أن لا تصمد الاتفاقية أمام تفاعل الزمن ، وأوضح أنه خلال لقاءاته مع المسئولين الألمان كان يؤكد لهم بأن الحكومة المصرية وسفارتها بصفة خاصة لن تغفل عن مراقبة كل ما تلجأ إليه إسرائيل من الأحابيل فى تنفيذ الاتفاقية (٣٧) .

وبالفعل بدأت الحكومة والمخابرات المصرية فى تتبع سير تطبيق الاتفاقية ، ومن ذلك ما قامت به إدارة المخابرات من تحر عن استلام إسرائيل لأربعة سفن من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات ، وأن هذا يخالف نصوص الاتفاقية لأن السفن تعتبر من المعدات الإستراتيجية ، وهذا لا يتفق مع ما سبق أن أعلنته الدول الكبرى من ضرورة مراعاة الحياد التام بين البلاد العربية وإسرائيل (٣٨) .

ومحاولة منها لمنع تسرب بضائع التعويضات إلى مصر والدول العربية، سعت مصر من خلال سفيرها فى بون لدى الحكومة الألمانية تطلب منها ضرورة وضع علامة مميزة على المصنوعات التى ترسل إلى إسرائيل كجزء من التعويضات ، واقترحت أن يكتب عليها Made In Germany For Israel حتى يمكن تمييزها عن باقى البضائع والمصنوعات الألمانية العادية(٣٩).

وفى تحريات أخرى قامت بها السفارة المصرية فى بون عن طريق السيد عبد اللطيف فهمى العيسى المستشار فى السفارة خلال لقائه بالدكتور « فوجت » Dr. Voigt رئيس قسم الشرق الأوسط وأفريقيا بوزارة الخارجية الألمانية حول الشائعات التى كانت تثار حول حصول إسرائيل على أسلحة من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات نفى الأخير تلك الشائعات وأوضح أن اتفاقية التعويضات بها نص صريح يحرم على ألمانيا تزويد إسرائيل بأى نوع من أنواع السلاح بموجب هذه الاتفاقية(٤٠) .

وفى لقائه بوزير الاقتصاد الألمانى إرهارد Erhard أبلغه القنصل العام المصرى رسميا فى ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ أن مصر - والدول العربية - سوف تقطع علاقاتها الاقتصادية بألمانيا فى حالة التصديق على الاتفاقية ، فإجابة الوزير بأن تصريحه يخالف تصريحات اللواء محمد نجيب خلال لقائه مع السفير الألمانى فى القاهرة ، فأجابه القنصل بأنه تلقى تعليمات جديدة من وكيل الخارجية بالتليفون فى ٢٨ أكتوبر (تشرين أول) تؤيد ما قاله وهى أن اللواء نجيب كان شخصيا ضد

الاتفاقية ، وأن حديثه مع السفير الألماني كان مجرد الترحيب به لمناسبة وصوله إلى القاهرة (٤١) .

وبمناسبة طرح موضوع مقاطعة ألمانيا اقتصاديا اختلفت الآراء في مصر حول هذا الموضوع ، حيث طالبت بعض الأصوات الدبلوماسية بضرورة مقاطعة ألمانيا اقتصاديا ، لما سببته اتفاقية التعويضات من أضرار معنوية وسياسية لمصر وللعرب جميعا وطالبت بعض تلك الأصوات - المؤيدة للمقاطعة - بضرورة دراسة موضوع المقاطعة من جميع نواحيها ونتائجها قبل الخوض فيها (٤٢) . كما علقت وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية) على موضوع المقاطعة بأنه يجب دراسة العلاقات الاقتصادية بين العرب وألمانيا جيدا بمعرفة إحصائيين على ضوء حاجة الاقتصاد العربى (٤٣) .

وعلى الجانب الآخر نجد من يحذر وبشدة اتخاذ أى قرار بمقاطعة ألمانيا اقتصاديا . ومن ذلك تلك البرقيات التى وردت إلى الوزارة من السفارة المصرية بنيويورك توضح أن جميع الدول العربية إذا قاطعت ألمانيا لن تفقد هذه الدول شيئا، إذ أنه يكاد ألا يكون هناك تعامل بينها وبين ألمانيا ، هذا بخلاف مصر التى لها معاملات مع ألمانيا أكثر من أى دولة عربية أخرى ، وفى النهاية نبهت تلك البرقيات إلى « أن ألمانيا الغربية تتمتع الآن برخاء اقتصادي ، فقد يكون من المناسب أن نطلب إليها منحنا بعض الامتيازات الاقتصادية نظير ما تقوم بدفعه من تعويضات لإسرائيل » (٤٤) .

وبناء على هذا رأى لم تأخذ مصر بالرأى القائل بالمقاطعة ، والدليل على ذلك أن العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا لم تتأثر بعد اتفاقية التعويضات (*) .

وحيثما أثارت سوريا مسألة تحويل بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين سعت مصر لدى ألمانيا وبعض الحكومات الغربية عسى أن تحصل على

(*) انظر جدول الصادرات والواردات بين ألمانيا والدول العربية . Feldman : op . cit . p.p .

موافقتها على ذلك ففى لاهائ سعى السفير المصرى لى نظيره الألمانى حتى يثير هذه المسألة لى حكومته . وحينما أرسل السفير الألمانى إلى حكومته فى هذا الأمر أجابت عليه الخارجية الألمانية « بأن الجهات المسئولة فى ألمانيا الغربية ترى أنه ليس من اختصاص السفارة الألمانية بلاهائ البحث مع ممثل الحكومة المصرية فى هذا الموضوع بل هو من اختصاص ممثل مصر لى حكومة ألمانيا الغربية» (٤٥). وقد قامت مصر بمساعى مماثلة لى تركيا وفرنسا إلا أنها باءت بالفشل (*) ، أما على الجانب الأمريكى ، والى رأت الإدارة العربية ضرورة مفاآته فى أمر تعويض اللاجئين العرب بسبب نفوذ الولايات المتحدة على إسرائيل، وما تفيض عليها به من مساعدات مالية متنوعة ، فقام السفير المصرى فى واشنطن بمقابلة وكيل الوزارة المساعد المختص بشئون الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية ، وأوضح له وجهة نظر مصر - والدول العربية - فى هذه المسألة ، فكان رده أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين طرفين فى شأن يخصهما ، فذكره السفير المصرى بأن أمريكا سوف تساعد ألمانيا فى دفع هذه المبالغ وتخصيصها لتعويض اللاجئين العرب ، فرد عليه الوكيل المساعد بأن أمريكا سوف تدفع هذه التعويضات عينا - حاصلات ومصنوعات - على آجال طويلة (٤٦) .

وبذلك فشل المسعى المصرى فى إقناع الحكومة الألمانية وبعض الحكومات الغربية فى تحويل جزء من مبالغ التعويضات لحساب اللاجئين العرب ، - وجاءت تلك المساعى - على الرغم من إدراك الحكومة المصرية جيدا باستحالة تحقيق

(*) انظر ذلك المسعى فى : المصدر نفسه نفس المحفظة والملف ، برقية من وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية) إلى سفير مصر بباريس سرى بتاريخ ١٠ / يونيو ١٩٥٢ م ، رد السفير المصرى بأنقرة على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ٣ / يونيو ١٩٥٢ م برقم ١٤٨ ، ورد السفير المصرى بباريس (محمد وجيه رستم) على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٧ / ٦ / ١٩ برقم ٤١ .

الغرض منها من النواحي القانونية ، إذ أن ذلك قد يعرض ألمانيا للمطالبة مرة ثانية بالتعويضات إلا إذا وافقت إسرائيل على دفع التعويض المستحق لها إلى جهة أخرى (٤٧) .

وحيثما تسربت بعض الأنباء عن تصريف بضائع التعويضات فى بعض البلدان العربية عن طريق بلد ثالث كان على الحكومة المصرية أن تعمل على التحرى عن كيفية تصريف تلك البضائع ، فأرسلت الخارجية المصرية إلى نظيرتها الألمانية تستعلم منها عن محاولة إسرائيل تصدير بضائع ألمانيا إلى تركيا ، فردت الحكومة الألمانية عن طريق السفير المصرى فى بون بضرورة أن تكون هذه الوقائع مستندة إلى أدلة ثابتة على وقوع المخالفة ليتيسر للحكومة الألمانية أن تتخذ الإجراءات المناسبة بتوقيع الغرامة المنصوص عليها فى المادة الخامسة على إسرائيل ، ولحفظ البضائع الألمانية فى الأسواق العالمية فى مستواها المعروف دون خلق منافس لها وهو أمر يهم الاقتصاد الألمانى (٤٨) .

وقد ظل موضوع تصريف البضائع فى الدول العربية عن طريق بلد ثالث يشغل بال الحكومة المصرية ، حيث نجا إلى علمها أن إسرائيل قد صدرت إلى تركيا سيارات من أموال التعويضات ، وسوف تقوم تركيا بدورها بإعادة تصديرها إلى مصر ، فأرسلت الخارجية المصرية بذلك إلى سفيرها فى أنقرة الذى كلف القنصل العام المصرى فى إستنبول بإجراء التحريات اللازمة فى هذا الشأن ، فجاء تقريره ينفى هذا الخبر ، وأن السيارات التى تستوردها تركيا من إسرائيل هى من السيارات التى يتم تجميعها فى إسرائيل وليست من السيارات الألمانية ، وأن تركيا تستوردها للاستخدام المحلى ، وفى نهاية التقرير أكد القنصل العام «أن إعادة تصدير السيارات الألمانية إلى مصر فكرة بعيدة الاحتمال» (٤٩) .

ويمكن القول ، أن الحكومة المصرية قد ارتاحت لتأكيدات المسؤولين فى ألمانيا الغربية بأن تصريف البضائع الألمانية المصدرة إلى إسرائيل إلى بلد ثالث أمر غير وارد نظرا لمخالفته لاتفاقية التعويضات ولأضراره الجسيمة على الاقتصاد الألمانى وهو أمر لا تقبله ألمانيا .

وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ م أعلن وزير خارجية ألمانيا الهـر (فون برنتانو - Von Brentano) - أثناء نظر العدوان الثلاثى على مصر أمام هيئة الأمم المتحدة - أن ألمانيا سوف تستمر فى دفع التعويضات إلى إسرائيل حتى لو أوصت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوقيع العقوبات على إسرائيل(٥٠) . وفى ردها على مذكرة الخارجية المصرية ، أعلنت الخارجية الألمانية أنها لا توافق على وجهة نظر السفارة المصرية التى أوضحتها فى مذكراتها بتاريخ ١٩ / ١١ / ١٩٥٦ م بأن النزاع القائم بين الدول العربية وإسرائيل قد يكون له تأثير فى تنفيذ الاتفاقية المبرمة بين الحكومة الألمانية وإسرائيل(٥١) .

ومع إصرار الحكومة الألمانية على دفع التعويضات إلى إسرائيل أوعزت الخارجية المصرية إلى جامعة الدول العربية بأن تطلب من الدول الأعضاء الإيعاز إلى ممثلها فى ألمانيا بتقديم مذكرة احتجاج إلى الحكومة المذكورة لاستمرارها فى دفع التعويضات إلى إسرائيل رغم عدوانها على مصر(٥٢) . ولكن الخارجية الألمانية ردت على مذكرة الدول العربية بعدم قبولها وجهة النظر العربية(٥٣) .

وعلى الرغم من موقف ألمانيا غير الودى تجاه مصر أبان أزمة السويس ، فإن الخارجية المصرية استبعدت نهائيا قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وعللت ذلك بأن دول أخرى اتخذت نفس الموقف ولم تقطع مصر علاقاتها معها ، وأن ألمانيا كان يحركها عامل آخر وهو أنها إحدى الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلسى وارتباط سياستها بعجلة السياسة الغربية، ووازنت الخارجية المصرية بين الفوائد والأضرار التى ستجنى من وراء قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وأن إسرائيل سوف تكون المستفيد الأول من وراء ذلك(٥٤) .

أما فيما يتعلق بموضوع إقامة علاقات دبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل، فقد أعلنت ألمانيا مرارا وتكرارا خلال الخمسينات أنها لن تقيم أى علاقات دبلوماسية مع إسرائيل خشية إغضاب الرأى العام العربى الذى مازال متأثرا باتفاقية التعويضات (٥٥). وقد أكد الدكتور « فوجت VOIGT » رئيس قسم الشرق فى الخارجية الألمانية لمستشار السفارة المصرية ببون أن القنصلية العامة البريطانية فى حيفا هى التى تتولى نيابة عن ألمانيا الشؤون القنصلية الخاصة بها (٥٦).

وعلى الرغم من تأكيدات المسئولين فى الخارجية الألمانية بعدم تبادل التمثيل الدبلوماسى مع إسرائيل، إلا أن ذلك لم يغير شيئا من حقيقة اعتراف ألمانيا بإسرائيل، حيث أكد كبار الفقهاء الألمان فى القانون الدولى أن اتفاقية التعويضات التى وقعت مع إسرائيل ترتب عليها اعتراف واقعى بإسرائيل De Facto (٥٧). وأكدوا على أن الخطوة التالية لهذا الاعتراف هى إنشاء العلاقات الدبلوماسية بين البلدين (٥٨).

وحيثما عرضت مسألة اعتراف ألمانيا بإسرائيل على بساط البحث فى أروقة السياسة العربية، أثارت معها مرة أخرى مسألة قطع العلاقات مع ألمانيا، فكان رأى بعض السياسيين المصريين أن قطع العلاقات مع ألمانيا فيه ضرر كبير على المصالح المصرية، إذ أنه سيحرم مصر من مصدر كبير لاحتياجاتها، وسوقا مهمة لمنتجاتها، فالمصلحة - كما يقول الوزير المفوض المصرى بالسفارة المصرية بواشنطن - تقتضى « أن تغلب الاعتبارات العملية عند بحث موضوع اعتراف ألمانيا بإسرائيل، لأن أى عمل تتخذه ضد ألمانيا سيكون ضرره علينا أكبر من ضرره على ألمانيا » (٥٩).

أضواء على القسم التطبيقي :

بعد دراسة موقف مصر من قضية التعويضات على المستويين الجماعى العربى والفردى، نجد أن مصر قد تعاونت تعاوننا طيبا مع باقى الدول العربية من أجل إبطال مفعول هذه الاتفاقية، أو الحصول على بعضها للاجئين العرب،

وعلى الرغم من الجهود المشتركة فى تلك القضية إلا أنها لم تؤت ثمارها ، حيث أدرك السياسيون فى ألمانيا أن العرب يقولون ولا يفعلون وهذا ما أكدته بعض المصادر ، فالمستشار الألمانى أديناور Adenauer أدرك أن تهديد العرب بمقاطعة ألمانيا كان عقيما (٦٠) ، ومن ناحية أخرى فإن د . ويستريش Dr : Westrich - الذى كان قد أرسله أديناور إلى القاهرة قبيل التصديق على المعاهدة لمقابلة الزعماء العرب - نصح حكومته عقب عودته من القاهرة بالتصديق على المعاهدة فورا لأنه شعر خلال لقاءاته بالزعماء العرب فى القاهرة أنهم لن يفعلوا شيئا أكثر من تقليل علاقاتهم مع بون (٦١) . وهذا يعنى أن ألمانيا لم تعر معارضة العرب للاتفاقية التفاتا ، وسارت فى تطبيق الاتفاقية بحذافيرها ، بل كانت تعطى لإسرائيل قروضا إضافية طالما أن العرب لن يفعلوا شيئا !

أما موقف مصر منفردة فقد عملت على إتباع سياستين ، إحداهما علنية والأخرى سرية ، فالعلنية جاءت لتعلن رفضها للاتفاق وتهديد من حين لآخر بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا ، بينما جاءت قراراتها غير المعلنة بالعمل على الحصول من ألمانيا على أكبر قدر من الفوائد ، حيث أدركت أن قطع العلاقات - سياسية واقتصادية - مع ألمانيا سوف يضر بمصر ولا ينفعها ويؤثر على التوازن الذى تريد أن تحافظ عليه فى سياستها الخارجية ، أى أن مصر من خلال الموقف الفردى كانت تنظر لمصالحها الاقتصادية والسياسية ، مع القيام فى الوقت نفسه بمجهودات أخرى لمتابعة الممنوعات التى تصدر من ألمانيا لإسرائيل كأسلحة وغيرها ، والقيام بمسعى للحصول على بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين .

وهنا يبرز سؤال وهو ما السبب فى عدم تحقيق الأهداف العربية تجاه قضية التعويضات ؟

من خلال الدراسة وضح مدى تأثير المقاطعة العربية على إسرائيل من الناحية الاقتصادية ، مما جعل الأخيرة تقوم بإنشاء إدارة خاصة لمواجهة هذه المقاطعة ،

ويرجع السبب فى ذلك أن الدول العربية جميعها الأعضاء وغير الأعضاء فى الجامعة العربية تكاتفت من أجل إنجاح المقاطعة لأن المصلحة العربية اقتضت ذلك ولخطورة ذلك العدو على الجميع على حد سواء وإذا كانت المقاطعة العربية قد كان لها تأثير على إسرائيل بسبب اتحاد موقف الدول العربية ، فإن موقف هذه الدول إزاء ألمانيا لم يحقق نفس النجاح لأن كل دولة من الدول العربية لم تتخذ موقفاً موحداً ، بل كانت كل دولة من الدول العربية تنظر إلى الموضوع نظرة فردية ، ماذا ستكسب وماذا ستخسر من الضغط على ألمانيا وقطع العلاقات معها؟

ويقينى أن الاقتصاد هو المحرك الأول للسياسة ، ونحن كعرب نستطيع أن نحقق الكثير من الأهداف عن طريق الضغط الاقتصادى مع دائرة توسيع التعاون الاقتصادى بحيث تشمل كتلة الدول الإسلامية التى يهددها الخطر - إن عاجلاً أو آجلاً - فالعالم العربى والإسلامى من الأهمية الاقتصادية بمكان حيث يستطيع التأثير على مجريات الأحداث السياسية والاقتصادية .



عبد بن الحسين

عمان في ٢٥ شعبان ١٣٦٣

الموافق ١٤ أغسطس ١٩٤٤

حضرة صاحب المقام الرفيع مسداني النحاس باشا رئيس الوزارة الجليلية المصرية

يا صاحب الرفعة ،

لقد عاد عبد المنعم يا الرفاعي بما شرح الصدر وأطلع القواد كما هو المأمول والمعروف عن رفعتكم . وسيتشرف رئيس الوزارة الأردنية لحضور اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة ان شاء الله في الوقت المحدد . وانما للفائدة رأيت أن أكتب رفعتكم أقدرى من حضور فلسطين وتمثيلها في المؤتمر وأنه أمر ضروري غاية في الخطورة لأنني اعتقد جازما أن اغفال فلسطين هو اسقاط حق لها يجب ان لا يغفل ، ولذلك كنتم رفعتكم تصرون على هذا التمثيل وتعملون المعجزات لقلب الأمة العربية . كان منهم في المؤتمر العربي بلندن . أما الآن فلي أن أقول بأنه لما وضع الأعداء الأخير من الصهيونيين على المندوب السامي المودع تبين بجلالة خطاسر اليهود على فلسطين وتوثيقهم الى ما وراء فلسطين ، واننا بنهية جوارنا القريب فإن الدعوى الصهيونية تهددنا هنا قبل ان نطرا آخر وعليه فأمر حفظ كيان فلسطين وسلامتها هو أمر حيوي لشرق الأردن ، واننا أشرنا على حكومتنا بأمر اصد رناه في ان تتخذ ما يجب لتأمين هذا الحرم الشريف وان تذاكر الجهات البريطانية وتعلمها بأن فلسطين هي الخط الأول للدفاع عن شرق الأردن وما وراءها من الأنظار العربية واننا سنتخذ الحيطة اللازمة لسلامة فلسطين بعد أن ألغى من الدماء يوثيق الأمر الى التجاوز على الحكامة ومراكزها وعلى مندوبيها السامي وأنه مع هذا فإن الأمة العربية لا تغلق الباب متى عرضت عليها التسوية الكافلسية لفلسطين العربية سلامتها وسيادتها . فوالحالة هذه ترون رفعتكم أن أمر تمثيل فلسطين في المؤتمر هو بالنسبة إلينا في الدرجة الأولى وأن الاراء في شرقي الأردن وفلسطين واحدة في هذه المسئلة القومية ، لذلك استدعيت سعادة القنصل العام لسر بالقدس لينقل الي رفعتكم كتابي هذا بالواسطة السريعة الأمانة ولتنوير المسألة اقدم لرفعتكم قائمة بأسماء الدوات الذين أرجو ان تتفضلوا بأرسال كتب الدعوى الى حضراتهم ليحضروا المؤتمر موضحا فيها اسم الحزب الذي ينتمي اليه كل من حضراتهم .

ملحق رقم	١
----------	---

حضرة صاحب القام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر

تلقيت دعوتكم الكريمة للاشتراك في اللجنة التحضيرية التي ستمعقد
بمصر في اواخر يوليو - أغسطس سنة ١٩٤٤ تمهيدا لمؤتمر الوحدة العربية الذي
كان لكم فضل الدعوة اليه .

ومعربي ان اجيب رفقكم بان الحكومة اللبنانية قررت تلبية هذه
الدعوة على ان يمثلها في اللجنة رئيس ورائها وزير خارجيتها .
وانني انتهز هذه الفرصة لأعرب لرفعتكم عن وافر تقدير لي للجهود
التي تبذلونها في هذا السبيل وعن تقني الكاملة بالنجاح بنخل حكمتكم واخلصكم
ولقد اسفت اشد الاسف لبقاء الزعميين الفلسطينيين السجين جمال الحسيني
وامين النعيمي في الاعتقال برغم الجهود الكريمة التي بذلتموها لاعادة الحرية
اليهما حتى يتمكن من تمثيل فلسطين المزيعة في هذه الاجتماعات خير تمثيل .
واني لشديد الرجاء ان جهودكم التي لن تنقطع في هذا السبيل ستؤول الى النجاح
قربها باذن الله . على ان غياب فلسطين لن يزيد ممثلي - شقيقاتها الا عطفًا
على قضيتها وتمسكا بحقوقها .

وغضلوا رفقكم بقبول جزيل الاحترام . / .

بيروت في ١٥ تموز سنة ١٩٤٤

رئيس مجلس وزراء لبنان

رياض الصير

ملحق رقم	٢
----------	---

الامانة العامة

الادارة السباحية

٢٤/٤/٥٠

القاهرة في ١٠ ديسمبر ١٩٥٤

٥٥٥٠

مذكورة

تهدي الامانة العامة لجامعة الدول العربية اطيب تحياتها الى وزارة خارجية جمهورية مصر وتتشرف بإبلاغها ان مجلس الجامعة وافق بجلسته ١١ ديسمبر ١٩٥٤ على التوجيه الآتية للجنة السياسية في اجتماعها مسن ٢١ نوفمبر الى ١١ ديسمبر ١٩٥٤ ، وهي :

• طلب عمان الداخلية الانضمام الى الجامعة :

• احيطت اللجنة علنا برسالة امام عمان الداخلية ، وادعت بانتظار نتيجة ما تقوم به الامانة العامة المستمعية بالدول الاعضاء من دراسات لامانة عمان .

وذلك رجاء التفضل بتزويد الامانة العامة بما قد يكون لديها او تقف عليه مسن بيانات او دراسات او وثائق تعرف بشئون امانة عمان ، او تبين وضعها السياسي .

وتنتهز الامانة العامة هذه الفرصة لتعرب للوزارة الجليلة عن فائق احترامها .

الى وزارة خارجية جمهورية مصر

القاهرة

١٢/١٢

أوراضيفت
مدير

١٢/١٢

نظر قسم مكافحة الإرهاب
الذي سيجو للتفطن بالقم
١٢/١٢

قسم جاسم ليدول اليد
١٢/١٢

ملحق رقم ٣



عبد بن الحسين

عماد في

وانني اعتقد أن هذا هو الحل الراجح لنا جميعا وان سعادة القنصل العام سيقدم اليكم
رجاء خاصا بعد عرضتي هذه كي تتخذوا بالقيام بتنفيذ ملتئمنا في ارسال كتب الدعوة .
وتفضلوا مقامكم الرفيع بقبول فائق المودة والاحترام .



عبد الله بن الحسين

اللجنة التمثيلية الفلسطينية العربية المقترحة ايفادها المؤتمر الوطني العربي

عوني بن عبد الإله	عنت	حزب الندوة المقادير
الدكتور حسين بن الخالدي	:	الزعماء
عبد الرحيم بن صدر	:	الندوة الوطنية
رائد بن النشاشيبي	:	الدفاع
موسى بن العالبي	:	مستقل
يوسف بن النضال	:	حزب الشباب
توفيق بن الحسين	:	الحزب العربي (قيادة عبد الله عزالدين)
رضي بن الحسين التميمي	:	قيادة عبد الله عزالدين (الحزب العربي)
انطون بن عطا الله	:	الوحدات
فؤاد اخف سا	:	

مستند
رجاء الإدارة العامة
شكرا
11/10/57
مستند
11/10/57

٥٧

الوزارة - الإدارة العامة	
المستند رقم ١٧٩٤	
١٧	نومبر ١٩٥٧
١٧	نومبر ١٩٥٧
١٧	نومبر ١٩٥٧

الوزارة العامة

١٧/١٢/١٤٠

السيد حامد محمود
مدير مكتب السيد وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية

اتشرف بأن ابعث لسيادتكم رفق هذا صورة من كتاب سفارتنا بالرباط
رقم ٢٩٨ سري بتاريخ ١٩٥٧/١٠/٢١ بشأن مشاكل المغرب ومدى المساعدات
التي يمكن ان تقدمها مصر والدول العربية الاخرى .
والحكومة الحالية في المغرب اغلب اعضائها من حزب الاستقلال ، وهي
تري تصفية مشاكلها المعلقة مع فرنسا واسبانيا وذلك بالمفاوضة المستمرة المعتمدة
عن سياسة العنف .
وقد قامت مفاوضات بين المغرب وفرنسا بشأن قروض يحتاجها المغرب
تبلغ حوالي مائة مليار من الفرنكات لمدة ثلاثة اعوام . وتضغط فرنسا على المغرب
لكي تفوز بامضاء معاهدة الاستيطان التي تكسب ما استولى عليه الفرنسيون من اراض
زراعية - صيغة قانونية .
وقد حصل المغرب في اوائل عام ١٩٥٧ من فرنسا على قرض حوالي
١٥ مليار من الفرنكات وعلى التزامات بأربعة مليارات . هذا بخلاف الممنوعة
الامريكية وهي ٢٠ مليون دولار قرض و ٥٠ الف طن حبة .
والمغرب يسير على سياسة غريبة مع مبادلة الشعوب العربية الود تقديمها
لمساعدتهم اليه في دفاعه عن قضيتهم ، وهذا هو رأي الحكومة الحالية الا ان
الشعب والمعارضة يتفان ملتوفى الاهدى من الناحية الاخرى .
وقد ظهرت حرة بين بعض المنتمين من هذه السياسة وهي (كوسرة
القتل الشعبي) الا انها اخذت بالثدة .
ولما كان الكادري الفني في المغرب جله من الفرنسيين فان مصر والبلاد
العربية بمنتهى ان تعاون في طرد هذا الكادر الفرنسي واحلال العرب من القبيين
محلهم . ولكن يظهر ان المغرب يعتمد على الفرنسيين مؤقتا حتى يتعلم انشاء
بمعاونة العرب . فع باس من اسداء المعاونة لهم بكل وسيلة ممكنة .
اما اذا اريد الاتجاه بالبلاد الى السياسة العربية التي ينشدها الشعب
المعربي فلا بد من القيام بعمل ايجابي وذلك بتناصرة جميع العناصر المؤيدة
لهذا الاتجاه .
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

وكيل الوزارة المساعد
١١/١٠/٥٧

١١/١٠/٥٧

ملحق رقم ٤

الهوامش

(١) د. وجيه عتيق : السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية / الألمانية ٥٢ - ١٩٥٦ م (دار

النهضة العربية - ١٩٩١ م) ص. ٢١ - ٢٢

(2) Feldman, Lily Gardner : The Special Relationship Between West Germany And Israel (George Allen & Unwin 1st ed 1984) P. 89.

(٣) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٩٩ - ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٤ (حجز

التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) من القنصل العام

المصري بفرانكفورت (حسن سليمان) إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ٢١ / ٣ /

١٩٥٣ م برقم ٨٢ بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٣ م عاجل جداً .

(٤) أحمد السيد النجار : بناء دولة - دور المساعدات الخارجية لإسرائيل (٤٨ - ١٩٩٦) (

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القاهرة - ١٩٩٨ م ، ص. ٤٩

- ٥١ .

(٥) انظر لقاء برنتانو وعبد الخالق حسونه أمين عام الجامعة العربية في مايو ١٩٦١ م في :

British Embassy, Cairo to Dept. May 20, 1961. (Burdett, Anita-ed.) The Arab League " British Documentary Sources 1943 - 1963 " Archive ed . 1995, Vol. 10, P . 446 .

(٦) انظر في ذلك : وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٦ ملف ١٤٠ / ١٤٠ / ٧ (الدورة

السادسة لجامعة الدول العربية - مارس ١٩٤٧ م - قرار سرى مرفق برسالة الأمانة

العامة لجامعة الدول العربية إلى وزير خارجية المملكة المصرية ، بتاريخ ١٧ جمادى الأولى

١٣٦٦ هـ ٩ إبريل ١٩٤٧ م .

(٧) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ١ / حجز التعويضات

التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين « رسالة من الوزير المفوض المصري

بدمشق (حسين عزيز) إلى وكيل وزارة الخارجية » ، سرى بتاريخ ٢ / ٣ / ١٩٥٢ م .

(٨) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٢ « حجز التعويضات

التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من القنصل العام

بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية سرى جدا بتاريخ ٥ / ٩ / ١٩٥٢ م برقم ٦

سرى .

(٩) المصدر نفسه .

- (١٠) انظر هذه المقترحات كاملة فى : وثائق الخارجية المصرية ، محفظة ٣٤٥ الملف السابق ، من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تقرير عن محادثات مندوب خاص الحكومة السورية مع الحكومة الألمانية بشأن تعويضات ألمانيا الغربية لإسرائيل واليهود ومقترحات فى هذا الشأن » سرى وعاجل بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٥٢ م.
- (١١) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٣ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية ، سرى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٥٢ م .

(12) Feldman : op. cit., p 79.

(13) Deutschkron, Inge : Bonn and Jerusalem "the strong coalition" (Chilton Book Company, Philadelphia, N.y ., London, 1st ed . 1970) P. 79

(14) Ibid : P . 81 & Feldman : op . cit . P . 79

- (١٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة رقم ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٢ . تقرير من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « وصول وفد الجامعة العربية » سرى بتاريخ ٢٤ / ١٠ / ١٩٥٢ م .

- (١٦) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٣ ، مذكرة من وكيل وزارة الخارجية إلى حضرة القائم بالأعمال المصرى بالسفارة الملكية بطهران سرى جدا بتاريخ نوفمبر ١٩٥٢ م .

- (١٧) المصدر نفسه ، نفس الملف . مذكرة من مدير إدارة الصحافة إلى إدارة المحفوظات بوزارة الخارجية - مرفق بها مذكرة اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية - مرسله إلى حكومة الجمهورية الاتحادية الألمانية . بتاريخ ١٦ / ١١ / ١٩٥٢ م .

(18) Deutschkron : Op. Cit. p.p. 80 - 81 .

- (١٩) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٩٩ ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٤ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من وزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية - عاجل مع مخصص - بتاريخ ٣١ / أغسطس ١٩٥٣ م .

- (٢٠) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٥ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » تقرير من السفير المصرى ببيون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١٨ / ١ / ١٩٥٤ م برقم ٨ سرى .

- (٢١) المصدر نفسه - نفس الملف . مذكرة من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية (إدارة فلسطين) إلى وزارة خارجية جمهورية مصر العربية بشأن نص قرار الجامعة في جلسته الثامنة من دورة انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م .
- (٢٢) المصدر نفسه - نفس الملف . مذكرة من الأمانة العامة لـ ج.د.ع. إلى وزارة خارجية جمهورية مصر سرى وعاجل بتاريخ ١٦ / ٩ / ١٩٥٤ م .
- (٢٣) المصدر نفسه - محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٦ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة من إدارة الشؤون الاقتصادية بوزارة الخارجية - إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٧ / ١٠ / ١٩٥٤ م .
- (٢٤) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٤ سرى قرارات اللجنة السياسية ولجنة الشؤون السياسية بتاريخ ١٤ / أكتوبر ١٩٥٥ م (سرى جدا وغير قابل للنشر) .
- (٢٥) المصدر نفسه - محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٧ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » ، مرفق بمذكرة الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى مكتب الرئيس للشؤون السياسية ومدير إدارة شؤون فلسطين بوزارة الحربية برقم ١٣٣٥ ، ٥٨٥ سرى .
- (٢٦) المصدر نفسه - نفس المحفظة والملف ، مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية - بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٥٦ م .
- (٢٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة بشأن اجتماع المبعوثين الدبلوماسيين العرب فى بون ، مرفقة بكتاب المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل إلى وكيل وزارة الخارجية برقم ٥٧ / ٣٤٧ سرى بتاريخ ٨ / ١٠ / ١٩٥٧ م .
- (٢٨) المصدر السابق نفس المحفظة والملف والتقرير .
- (٢٩) المصدر نفسه : محفظة ٨٢٢ ملف ١٤٠ / ١٤٠ - ٣١ « الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية » قرارات ممثلى الدول العربية فى بون - ملحق الجلسة الثانية بتاريخ ١٤ / مايو ١٩٥٧ م .
- (٣٠) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٥ من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية « إدارة فلسطين » إلى وزارة خارجية مصر العربية ، بشأن نص قرار الجامعة فى جلسته الثامنة من دور انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل .

(٣١) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٥ سرى (هيئات ومنظمات دولية وإقليمية - الجامعة العربية - قرارات المجلس الاقتصادى) مذكرة بقرارات المجلس الاقتصادى التى اتخذها فى دور انعقاده العادى الثانى - ديسمبر ١٩٥٤ م برقم (م/ق/د/٢) سرى .

(٣٢) المصدر نفسه : نفس المحفظة ملف ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ ج ١١ ، مذكرة من وكيل الخارجية (إدارة الشؤون الاقتصادية) إلى المشرف العام على المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل ، بتاريخ ٨ مارس ١٩٦٠ برقم ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ م .

(33) Deutschkron : op. cit . P . 75 .

(٣٤) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٢ (حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة بشأن التعويضات التى تطلب بها إسرائيل ألمانيا الغربية أعدتهما الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٣ / ٩ / ١٩٥٢ م .

(٣٥) نفس المصدر والمحفظة والتقرير .

(٣٦) المصدر نفسه : نفس المحفظة والتقرير .

(٣٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٦ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا) مذكرة من السفير المصرى فى بون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١١ / يناير ١٩٥٤ برقم ٥ سرى .

(٣٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٧ مذكرة من مدير مكتب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة « صاغ أمين شاکر » . إلى وزير الخارجية سرى جدا بتاريخ ١٣ / ٧ / ١٩٥٤ م برقم ٦ / ٧ - ٤٠٢٧

(٣٩) المصدر نفسه ، نفس المحفظة ، ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٥ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا وحجزها لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من وكيل الخارجية (قسم الأبحاث) إلى سفير مصر بـ بون - بتاريخ ١٩٥٤ م .

(٤٠) المصدر نفسه ، محفظة ٦٨٤ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ١٧ ج ٧ « النشاط الصهيونى » مذكرة من السفير المصرى بـ بون (أحمد جلال الدين عبد الرازق) إلى وكيل وزارة الخارجية (إدارة غرب أوروبا - إدارة الشؤون العربية) بتاريخ ٢٢ / يناير ١٩٥٨ م برقم ١٣ سرى جدا .

(٤١) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٣ (حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من القنصل العام للمصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٢/١١/١ م برقم ٢٠ .

(٤٢) انظر فى ذلك : محفظة ٣٧٢ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا» مذكرة من السفير المصرى بيون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١٩٥٤/١/١١ م برقم ٥ سرى ، محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٤ « حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من الملحق الصحفى بفرانكفورت « كمال الدين جلال » إلى وكيل الخارجية - بتاريخ ١٩ / ٣ / ١٩٥٣ م برقم ٨٣ سرى .

(٤٣) المصدر نفسه : محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ مذكرة من وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية - إدارة الاتفاقات التجارية) إلى وكيل وزارة الخارجية للشئون الاقتصادية بتاريخ ١٢ / ٣ / ١٩٥٦ م برقم ١٣٢ / ١١٢ / ١ .

(٤٤) المصدر نفسه محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨ / ٤٨ / ١٤٠ ج ٣ ، برقيتان رمزيتان رقم ٩ ، ١٠ من السفارة المصرية بنيويورك صادرتان فى ٢ / ١١ / ١٩٥٢ م .

(٤٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨ / ٤٨ / ١٤٠ ج ١ برقيات من الوزير المفوض المصرى بلاهاى إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٢ م سرى برقم ٤٦ سرى ، وتاريخ ٢٧ / ٣ / ١٩٥٢ م سرى برقم ٥٠ سرى ، وتاريخ ١٦ / ٥ / ١٩٥٢ م سرى ، برقم ٧٥ سرى ، برقية من وكيل وزارة الخارجية إلى وزير مصر المفوض بلاهاى سرى بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٥٢ م .

(٤٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة أعدتها الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٠ / ٥ / ١٩٥٢ م ومذكرة من السفير المصرى بواشنطن إلى وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية) سرى بتاريخ ٢ / ٧ / ١٩٥٢ م برقم ٦٩ سرى .

(٤٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨ / ٤٨ / ١٤٠ ج ٣ مذكرة من مستشار الدولة « وحيد رافت » إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « التعويضات التي تنوى ألمانيا دفعها لإسرائيل بتاريخ ١٧ / ١١ / ١٩٥٢ م » .

(٤٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨ / ٤٨ / ١٤٠ ج ٥ مذكرة من السفير المصرى بيون إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تصدير بضائع ألمانية مخصصة لإسرائيل إلى بلد ثالث » سرى بتاريخ ١٦ / ١٠ / ١٩٥٤ م برقم ٨٩ سرى .

- (٤٩) نفس المصدر والمحفظة والملف : من وكيل الخارجية إلى سفير مصر بأنقرة سرى وعاجل بتاريخ ٩ / ٣ / ١٩٥٤ م ، ومن السفير المصرى بأنقرة (أحمد حقى) إلى وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٢ / ٤ / ١٩٥٤ م برقم ٤٤ سرى .
- (٥٠) نفس المصدر : محفظة ٣٩٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » من السفير المصرى بيون « أحمد جلال الدين عبد الرزاق » إلى وكيل وزارة الخارجية « بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل » سرى بتاريخ ٣ / ٥ / ١٩٥٧ م برقم ٥٥ سرى .
- (٥١) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من وزارة الخارجية الألمانية إلى السفارة المصرية بيون بتاريخ ٢١ / ديسمبر / ١٩٥٦ م برقم ٢٠٦ / ٢٤٤ / ١٣ .
- (٥٢) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية إلى السيد السفير الوكيل المساعد للشئون السياسية بوزارة الخارجية - بتاريخ ٧ / ٢ / ١٩٥٧ م .
- (٥٣) نفس المصدر والمحفظة والملف والتقرير .
- (٥٤) نفس المصدر والمحفظة : ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج ٩ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة أعدتها إدارة غرب أوروبا بوزارة الخارجية برقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ م ردا على مذكرة الطلبة العرب فى ألمانيا الشرقية بتاريخ ٢٨ / يناير / ١٩٥٨ م .
- (٥٥) نفس المصدر ومحفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج ٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة من وكيل الخارجية للشئون السياسية إلى مدير مكتب الرئيس للشئون السياسية .
- (٥٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من السفارة المصرية بيون إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٧ / يوليو ١٩٥٧ م برقم ١٢٨ سرى جداً .
- (٥٧) نفس المصدر ومحفظة ١٥١٢ ملف ٣٠ / ٤٥ / ١٨ « شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال » مذكرة أعدها مدير إدارة غرب أوروبا « محمد شفيق » بشأن « مقابله لدكتور موتزل السكرتير الأول لسفارة ألمانيا الغربية بالقاهرة » سرى بتاريخ ٢٣ / ٦ / ١٩٥٧ م .
- (٥٨) نفس المصدر : محفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج ٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة أعدتها الإدارة السياسية بوزارة الخارجية بشأن « اعتزام حكومة ألمانيا الفيدرالية إنشاء علاقات دبلوماسية مع إسرائيل » بتاريخ أكتوبر ١٩٥٧ م . وجدير بالذكر أن العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل قد عقدت فى عام ١٩٦٥ م .

(٥٩) نفس المصدر والمحفظة : ملف ١٠/٤٠/٣٧ ج ٥ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مرفق
بتقرير السفير المصرى بواشنطن «أحمد حسين» إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «احتمال
اعتراف ألمانيا الغربية بإسرائيل» سرى بتاريخ ٣٠ / سبتمبر / ١٩٥٧ م برقم ٢١٤ .

(60) Feldman : op. cit . P . 196 .

(61) Deutschkron : op. cit . P . 87 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

وثائق الخارجية المصرية :

- محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٢/ج ٣ «حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين»
- محفظة ٣٧٢ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا»
- محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٨ ، ج ٩ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا»
- محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ٤ ، ج ٥ ، ج ٧ «حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين».
- محفظة ٦٨٤ ملف ١٧/٤٨/١٤٠ ج ٧ «النشاط الصهيوني».
- محفظة ٧٤٦ ملف ٧/١٤٠/١٤٠ .
- محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج ١ «حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين» .
- محفظة ٨٢٢ ملف ٣١/١٤٠/١٤٠ «الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية».
- محفظة ١٢٨٥ ملف ٥/١/٣ سرى .
- محفظة ١٢٨٥ ملف ١٢/١٢٣/١٤٠ ج ١١ .
- محفظة ١٤٧٩ ملف ١٠/٤٠/٣٧ ج ٤ ، ج ٥ «الاعتراف بدولة إسرائيل».
- محفظة ١٥١٢ ملف ١٨/٤٥/٣٠ «شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال» .

وثائق أجنبية منشورة :

- The Arab League « British documentary sources 1943-63 »
Archive ed. 1995 . vol. 10.

ثانيا : المراجع :

مراجع عربية :

- أحمد السيد النجار : بناء دولة - دور المساعدات الخارجية لإسرائيل ٤٨-١٩٩٦م
« مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القاهرة - ١٩٩٨ م »
- د . وجيه عتيق : السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية / الألمانية ٥٢ -
١٩٦٥ م « دار النهضة العربية ١٩٩١ م »
- د . يونان لبيب رزق : الخارجية المصرية ١٨٢٦ - ١٩٣٧ م « الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٨٩ م »

مراجع أجنبية :

- Deutschkron, inge: Bonn and Jerusalem “the strong coalition”
“Chilton book company Philadelphia N . Y, London 1st ed . 1970” .
- Feldman, Lily Gardner : the special relationship between west
Germany and Israel “ George Allen unwin 1st ed . 1948”

ثالثا : دوريات :

عربية :

- جريدة أريف الأرمنية « الملحق الشهرى العربى العدد الخامس مايو ١٩٩٨ م »
مقال عن « ملامح تطور وزارة الخارجية المصرية » إعداد د . صفاء شاكر .
- جريدة القراءة للجميع - تصدرها الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية -
السنة الثالثة العدد الثالث - الأحد ٢١ / ٦ / ١٩٩٨ م

أجنبية :

- Middle East Journal Outonn, 22 dec. 1957 vol. 11 no 1

عرب الخليج فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية

ويوميّات جبرون لشركة الهند الشرقية الإنجليزية

د. محمد مرسك عبد الله (*)

أولاً : ظهور وثائق شركة الهند الهولندية والإنجليزية :

يعتبر تكوين هذه الشركات مرحلة جديدة فى تاريخ أوربا فهى شركات سرعان ما أصبح لها أسطول وجيش إلى جانب المراكز التجارية ونشاطها التجارى. وكانت هذه الشركات مخولة لتمثيل بلدها فى عقد الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية مع الدول الآسيوية . وكان نشاطها هذا نواة تكوين الإمبراطورية الهولندية والبريطانية فى مياه المحيط الهندى .

تأسست شركة الهند الهولندية عام ١٦٠٢ وهى مؤسسة كبيرة وتسمى رسمياً شركة الهند الشرقية المتحدة V. O. C. وهى وليدة اتحاد فدرالى لست شركات تجارية تمثل المقاطعات الهولندية المتحدة وقد قام بها سياسيون هولنديون فى ذلك العام .

وتوجهت سفن هذه الشركة ورجالها نحو أندونيسيا وأسست لها فى عام ١٦١٩ مدينة أوربية فى قرية جاكرتا بجزيرة جاوة وسميت بتافيا وأصبحت بتافيا المقر الرئيسى للشركة ويقوم فيها الحاكم العام .

وسرعان ما نشأ لهذه الشركة مؤسسات فى كثير من المواقع مثل كولومبو ومالابار وكييتون والبنغال . ومنها مؤسسة فى بندر عباس عام ١٦٢٣ . وكان من المتوقع أن يشارك الهولنديون فى حملة الشاه عباس ضد موقع البرتغاليين فى جزيرة هرمز والجسم ولكن سبقهم بذلك الإنجليز وتطور مبنى الوكالة الهولندية فى

أواخر القرن السابع عشر إلى فندق يحيط به ساحة المكاتب وورش العمال و وحدات سكنية ومخازن للبضائع والأسلحة والمؤن وقطع غيار السفن ومعداتھا . ثم بنى مجمع عسكري أواخر القرن خارج المدينة وبه مرسى آمن .

وفى عام ١٧٥٠ انتقل مقر وكالة الشركة الهولندية فى الخليج إلى البصرة وظلت هنالك حتى عام ١٧٥٥ ثم انتقلت بعد ذلك إلى جزيرة خارج بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ . ورحل الهولنديون نهائياً عن الخليج فى عام ١٧٦٦ .

أما شركة الهند الشرقية الإنجليزية فقد تأسست عام ١٦٠٠ . وتوجهوا إلى أندونيسيا أيضاً . ولكن طردهم منها الهولنديون . وحصلت الشركة على فرمان تأسيس وكالة لها فى جاسك عام ١٦١٦ من إمبراطور المغل فى الهند . ونشأت ٧ مراكز أخرى فى داخل إيران فى شيراز وأصفهان فى عام ١٦١٧ وتعاونت بحرية الشركة مع الشاه عباس فى احتلال جزيرة الجسم وطرد الحامية البرتغالية من هرمز . وكافأهم الشاه بإعطائهم وكالة فى جمبرون التى سرعان ما سميت بندر عباس .

وهنا بدأت تظهر لنا وثائق الشركة الإنجليزية المعروفة باسم وثائق جمبرون وامتدت فترتها حتى عام ١٧٦٣ بعد أن قررت شركة الهند الشرقية الإنجليزية التخلي عن موقعها فى بندر عباس بعد أن حطمت مبنى الوكالة البحرية الفرنسية علم ١٧٥٩ وانتقل مقر الوكالة إل البصرة ثم استقر فى بوشهر عام ١٧٦٣ واستمر هنالك المقر الرئيسى للنشاط البريطانى فى الخليج حتى عام ١٩٤٧ .

ثانياً : أحداث القرن السابع والثامن عشر فى الخليج :

هذه الفترة غنية بالأحداث والتطورات فى دول الخليج . فى إيران بدأ القرن السابع عشر بوجود الشاه عباس الذى نقل مقر الحكم من تبريز إلى أصفهان وتعاون مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى القضاء على مقر النفوذ البرتغالى فى

هرمز عام ١٦٢٢ . وبدأ النفوذ البريطاني والهولندي التجارى يحل مكان النشاط البرتغالى حتى اختفى تماماً فى نهاية القرن السابع عشر الوجود البرتغالى فى المنطقة .
كما شاهد هذا القرن استمرار ضعف نفوذ الدولة العثمانية فى العراق والحسا وقد استقلت إمارة عائلة أفرسياب فى البصرة التى استقلت بها منذ عام وسقطت هذه العائلة عام .

وفى عمان ظهرت دولة اليعاربة التى لعبت دوراً كبيراً منذ عام ١٦٢٤ فى تحرير عمان من النفوذ البرتغالى وسقطت قلاع مسقط فى يدهم عام ١٦٥٠ .
وأصبح لهذه الدولة أسطول كبير وهاجمت مواقع البرتغال الباقية فى الخليج وعلى ساحل أفريقيا الشرقى وقضت عليهم .

وفى إقليم الحسا كان ظهور إمارة بنى خالد فى عام . واستمرت هذه الإمارة تسيطر على أحداث الحسا حتى سقوطها على أيدي الوهابيين فى عام ١٧٩٦ .

وشهد القرن الثامن عشر الكثير من التغيرات التاريخية مثل :

- سقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ على يد محمود الأفغانى وقبائل الأفغان وعاشت إيران فى حالة من الفوضى حتى استعاد النظام فيها نادر شاه بين عام ١٧٣٠ وعام ١٧٤٧ . ثم سادت الفوضى ثانية حتى اقام فى بلاد فارس كريم خان زند بين عام ١٧٥٩ وعام ١٧٧٩ لوناً من الاستقرار والأمن وكانت عاصمته شيراز . وفى نهاية القرن قامت قبيلة قاجار بالسيطرة على الحكم فى تبريز ونشرت نفوذها فى كل أنحاء إيران عام ١٧٩٦ .

- ظهور الحركة الوهابية فى قلب نجد وسيطرتها على الدرعية عام ١٧٤٥ وانتهى هذا القرن بفرض هذه الدولة لنفوذها على الحسا عام ١٧٩٦ ودخلت

قواتها قطر . كما بدأت نشاطها في عمان عام ١٨٠٠ . وبدأت تتجه إلى السيطرة على إقليم الحجاز حيث مكة والمدينة منذ عام ١٨٠٥ .

• أما في عمان فقد سقطت دولة اليعاربة . وحدث انقسام بين قبائل عمان بين عام ١٧١٨ وعام ١٧٢٨ . ثم كانت غزوة نادر شاه لعمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ التي أدت إلى ظهور الإمام أحمد بن سعيد الذي حرر مسقط وصحار من الفرس . وأقام دولة ألبوسعيد . ولكن ظهر في نفس الوقت قيادة لقبائل الشمال تحت قيادة الزعيم رحمة بن مطر القاسمي الذي استقل بإقليم الشميلية والظاهرة في عمان وأنشأ إمارة القواسم .

• كما شاهد هذا القرن جذور قيام الإمارات العربية في الخليج . إمارة آل صباح في الكويت وإمارة آل خليفة في شمال قطر والبحرين . ووضعت النواة الأولى لاستقلال قطر تحت حكم آل ثاني في القرن التاسع عشر أما في ساحل عمان الشمالي فقد قام هنالك حلفان كبيران حلف القواسم وعاصمته مدينة رأس الخيمة التي قامت على أنقاض ميناء جلفار . وكان للقواسم زعامة على القبائل العربية على الساحل الإيراني وتكونت لهم إمارة هنالك في ميناء لنجة . كما قام أيضاً في ساحل الإمارات حلف بني ياس الذي اتخذ من مدينة أبو ظبي عاصمة له .

• هذه هي الأحداث الهامة في منطقة الخليج خلال القرنين السابع والثامن عشر وهذه الفترة تعاصر حدثاً كبيراً في الخليج وهو نشأة وجذور الإمارات العربية على الساحل العربي . ماذا تضيف لنا وثائق جمبيرون أي وكالة بندر عباس الإنجليزية وكذلك وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية من جديد عن عرب الخليج الذين جاء القليل عنهم في المخطوطات العمانية ؟

ثالثاً : أضواء جديدة عن عرب الخليج فى الوثائق الهولندية والبريطانية :

كيف تحولت قبائل إقليم الظاهرة وفى منطقة الظفرة وليوا فى عمان من قبائل بدوية إلى أحلاف سياسية وإمارات وكيف استقلت عن جسد دولة أبوسعيد فى منتصف القرن الثامن عشر ؟ لا تسعفنا المخطوطات العمانية فى تاريخ هذه الفترة بمعلومات كثيرة عن هذا الموضوع وكل ما جاء عنه جمل متناثرة هنا وهناك لا تكفى لتكوين صورة عن الظروف التاريخية التى نشأ فيها حلف القواسم وحلف بنى ياس . ومن هم زعماء هذه الأحلاف وما هى سيرتهم ؟ إن هذه الإمارات تشكل اليوم دولة الإمارات العربية المتحدة . كما نتج عن هجرة القبائل العربية المعاصرة لهذه الأحلاف قيام إمارة آل صباح فى الكويت وقيام إمارة آل خليفة فى البحرين .

وكان لابد من البحث عن أضواء ومصادر جديدة للإجابة على هذه الأسئلة لهذا قام مركز الوثائق والدراسات . وعمله الرئيسى البحث عن المصادر الجديدة فى تاريخ الخليج بعمل مشروعات كبيرين منذ عشرين عاماً . الأول التعرف على وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية المحفوظة فى لاهاى . على أمل ترجمة هذه الوثائق إلى اللغة الإنجليزية والعربية وقد قام بجمع هذه الوثائق للمركز الدكتور سلوت نائب مدير الأرشيف هنالك . وبعد مرور هذه السنوات الطويلة على فهرسة هذه الوثائق . وبسبب صعوبة قراءة لغة هذه الوثائق الهولندية وهى مكتوبة فى فترة متقدمة حتى ليصعب على أبناء هولندا إلا المتخصص منهم قراءتها. فكر المركز فى تكليف الدكتور سلوت بعمل دراسة عن عرب الخليج فى الفترة ما بين عام ١٦٠٢ وعام ١٧٨٤ . ونشرت هذه الدراسة باللغة الإنجليزية عام ١٩٩٣ كما ترجمها المجمع الثقافى فى أبو ظبى إلى اللغة العربية . وفى رأى أن

هذا من أكبر الإنجازات التي حققها المركز في عمله خلال هذه السنوات . وقد اضافت لنا هذه الوثائق معلومات طيبة جديدة عن عرب الخليج . وسوف نرى مثلاً لذلك دراستنا عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمي مؤسس حلف القواسم .

وتعتبر وثائق شركة الهند الشرقية الإنجليزية ووثائق حكومة الهند البريطانية التي ورثت عملها من المصادر الجديدة الهامة في تاريخ الخليج الحديث إذ هي تشمل الفترة من عام ١٦٢٢ وحتى عام ١٩٤٧ . وقد عاشت الوكالة فترتها الأولى في جمبرون وهي بندر عباس بين عام ١٦٢٢ وعام ١٧٦٣ . فهي بذلك قريبة من أحداث عمان بصفة خاصة وتلقى هذه الوثائق الضوء على هذه الفترة المبكرة من تاريخ حلف القواسم وحلف بنى ياس . وهذه الوثائق محفوظة في أرشيف الوكالات في مكتبة حكومة الهند في لندن . كما أن الجزء الأكبر منها محفوظ في أرشيف بومباي في الهند في مجموعة G/29 تحت عنوان فارس وخليج فارس وتسمى وثائق الوكالات . لم تحفظ أوراق هذه الوكالة في جمبرون بل أرسلت إلى سورات ولندن بين عام ١٦٢٢ - ١٦٨٠ ثم بعد ذلك أرسلت إلى بومباي مقر الشركة الرئيسي في غرب الهند . ويبدو ان وثائق هذه الوكالة قد فقد أغلبها أثناء تحطيم مدفعية الأسطول الفرنسي لمبنى هذه الوكالة في بندر عباس عام ١٧٥٩ . وكان انتقال مقر الشركة عام ١٧٦٣ إلى بوشهر خيراً للتاريخ . لأن الشركة الإنجليزية هنا وكذلك الشركة الهولندية التي انتقلت بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ إلى جزيرة خارج في شمال الخليج استطاعت أن تتعامل مع البصرة والعرب الوافدين الجدد في الكويت من آل صباح . وسجلت لنا معلومات مفيدة عن هذه الإمارة .

ومن ضمن مجموعة وثائق بندر عباس التي انقذت من قذائف الأسطول الفرنسي عام ١٧٥٩ مجموعة تسمى رسائل مبكرة من فارس ورقمها G/29/1 وتشغل الفترة من ١٦١٩ - ١٦٩٧ . ويوميات جمبرون وتشمل الأجزاء من

الثانى إلى الرابع عشر وتشغل الفترة من ١٧٠٨ حتى عام ١٧٦٣ . وهنالك مجموعة رسائل وملحقات من بندر عباس وتشمل الجزء ١٥ إلى السابع عشر وتشغل الفترة من عام ١٧٠٤ حتى عام ١٧٦٣ (١) .

وقراءة يوميات جميرون وأوراق الشركة الإنجليزية فى تلك الفترة أمر فى غاية الصعوبة بسبب تهالك الأوراق من جراء الرطوبة فى الخليج وفى ميناء بومباى . وهى مكتوبة بخط اليد . ولغتها قريبة من لغة عصر شكسبير . وتحتاج قراءتها مرانا طويلاً . وقد قام مركز الوثائق والدراسات فى أبو ظبى منذ سنوات بإرسال ستة من الباحثين عام ١٩٩٥ لمدة شهرين لحصر المتيسر الموجود فى أرشيف بومباى وتصويره . وجاء ذلك فى ٢٢ ميكرو فيلم كل فيلم حوالى ألفى صفحة . وجرى خلال عامين قراءة هذه الوثائق وفهرستها . وأعيد طباعة هذه الرسائل بالكمبيوتر لتسهيل قراءتها واستخرجت من هذه المجموعة الموضوعات المختلفة ومنها الرسائل واليوميات التى تهم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى .

ماذا تقول الوثائق الهولندية والوثائق البريطانية عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمى ؟

رابعاً : رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم :

القواسم هم العائلة أو القبيلة التى ينتسب إليها فى إيماننا هذه العائلة الحاكمة فى كل من إمارتى الشارقة ورأس الخيمة . وقد تزعمت هذه العائلة من قبائل ساحل عمان وأرض الظاهرة وساحل الشميلية على خليج عمان فى بداية القرن الثامن عشر ، واعتبرت التقارير البريطانية فى وكالة جميرون (بندر عباس) وهى حديثة العهد يومذاك فى التعامل مع عمان كل القبائل المتحالفة مع هذه العائلة أفراداً فى قبيلة واحدة تسكن هذه المنطقة وتسمى القواسم . وذاع اسم القواسم

فى التاريخ الحديث لجنوب شرقى الجزيرة العربية إذ تزعمت هذه العائلة بقيادة الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حلف القبائل الغافرية فى ساحل عمان أول نشأة دولة ألبوسعيد وأنشأت لها إمارة مستقلة عاصمتها رأس الخيمة .

كما ذاع اسم القواسم فى بداية القرن التاسع عشر لظهور نزعة المغامرة لديهم واعتناقهم مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وترصدهم لسفن دولة ألبوسعيد حكام مسقط وعمان وكذلك سفن حلفائهم شركة الهند الشرقية الإنجليزية مما أدى إلى قيام عدة حملات مشتركة بين البريطانيين فى بومباى وحكومة ألبوسعيد فى مسقط ضد القواسم وكان آخرها حملة حكومة بومباى ضد رأس الخيمة عام ١٨١٩ .

تنتشر جماعات القواسم فى أماكن متفرقة داخل عمان فى ملتقى بواى سمائل وفى نفعا بواى منصح وفى صحم بساحل الباطنة . وكذلك يوجدون فى المزرعة العلوى فى وادى الخليج وفى بندر جصة جنوبى مسقط . كما تعيش عائلات منهم مع بنى بو على فى صور وأرض جعلان . كما سكنت جماعات من القواسم على ساحل إيران فى الخليج وكان لهم إمارة فى لنجة فى بداية القرن الثامن عشر .

ويغلب على الظن أن القواسم كانوا نشطين فى التجارة وفى المناصب العسكرية فى مملكة هرمز العربية وسكن بعضهم على الساحل الإيرانى كما سكن مجموعة أخرى فى جلفار . ولما سقطت مملكة هرمز عام ١٦٢٢ على يد الإنجليز والشاه عباس بدأت حركة هجرة واسعة للقبائل والعناصر العربية هرباً من اضطهاد الفرس لعرب هذه الدول . وهنا تفرق القواسم كما رأينا فى توزيعهم فى أنحاء عمان .

تذكر وثيقة برتغالية أنه في عام ١٦٢٣ نجح القائد البرتغالي جاسباروليتيه Gasparo Leite في دخول قلعة كلبا وأخذها من قائدها القاسمي الذي كان يتمتع بشهرة واسعة وقد تم هذا الهجوم تنفيذاً لأوامر القائد العام فريري دي اندراري(٢). ولم يكن تثبيت البرتغال أقدامهم على الساحل العربي للخليج بعد سقوط دولتهم في جزيرة هرمز والجسم عام ١٦٢٢ بالأمر الهين . إذ اندلعت حركة مقاومة شرسة لهم في إقليم الشمالية وفي روس الجبال وفي جلفار وأرض الظاهرة . واجتمع قادة القبائل العمانية وعلماءها وانتخبوا لهم إماماً هو ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٦٢٤ لتحرير بلادهم من الوجود البرتغالي .

وقد جاء في وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية في بندر عباس رصد طيب لحركة التحرير التي قام بها أول حكام دولة اليعاربة ناصر بن مرشد إذ جاء فيها :

« وصل إلى بندر عباس أنباء تفيد بأن العرب حاصروا جلفار ثم هزموا البرتغاليين الذين كانوا هناك ، كما غزا العرب الحصن وقتل أربعون جندياً برتغالياً وفر الباقي هاربين إل مسقط»(٣) .

ويأتى ذكر للقواسم في الوثائق الهولندية عام ١٦٤٨ في نهاية حكم الإمام ناصر اليعربي أثناء ضربه الحصار على البرتغاليين في حصون مسقط ، وقد تم التوصل إلى اتفاقية بين قادة جيشه والبرتغاليين لتسليم الحصون . وكان أحد قادة الحصار سيف بن علي بن صالح القاسمي . وقد جاء في الاتفاقية الموقعة في ٣٠ أكتوبر ١٦٤٨ بين الإمام ناصر بن مرشد وقائد مسقط العام جيلينز دي نورونها Gileames De Noronha ما يلي :

« لقد اجتمع فى شاطيء ريام الشيخ سلطان بن سيف اليعربى القائد العام لقوات الإمام وقادة الجيش وهم راشد بن سالم بن على وعلى بن عبد الله الرستاقى والشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى » (٤) .

وقد وقع الاتفاق هؤلاء القادة وذكر أن الشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى هو الذى كتب الاتفاق العربى بيده كما جاء فى الوثائق البرتغالية .
وقد رسم لنا الوكيل الهولندى فى بندر عباس ويلمسون صورة مفصلة عن الإمام سلطان بن سيف فقال :

« يتحد الجميع فى طريقة لباسهم . وعندما نصف الإمام الكبير فكأننا نصف أيضاً جندياً عادياً أو راكب جمال أو فلاح . وعندما استقبلنا الإمام بحضور الجمهور كان على رأسه عمامة صنعت من القطن الخالص . ويبلغ طول هذا الجزء الخلفى منه ثلاثة أرباع الذراع . ولم تكن هذه العمامة عادية لأنه كان يضع على رأسه تحتها قلنسوة صنعت من خيوط الذهب فيما كانت قبعات الآخرين بسيطة ومصنوعة من القطن . ويضع الإمام سيفه إلى جانبه . ولكنه يحمله عادة فى حزام عريض على كتفه الأيسر ولا تختلف سترة الإمام عن سترات الأشخاص العاديين . فهى مصنوعة من الصوف ومقلمة بالطول بأقلام بيضاء عرض الكف وتتعلق على كتفيه كأنها غطاء أو عباءة أو كأنها معطف قائد السفينة . وهى دون أكمام . وكان يرتدى تحتها ثلاث عباءات أخرى وبعض القمصان المصنوعة من القطن أحدها ذو أكمام واسعة تصل

إلى رسغ قدميه . وكان يتمنطق بحزام يضع فيه خنجره وقد
نسج عرضاً بخيوط الذهب . وكان حذاؤه أصفر اللون على
الطراز الفارسي . والإمام متوسط القامة داكن البشرة «(٥) .

وينطبق هذا الوصف في بساطة الملبس وتوحده والمساواة الواضحة بين
الرئيس ورعيته في المجلس مع وصف الرحالة البريطاني Thesiger الذي عبر الربع
الخالى عام ١٩٤٧ وسمع كثيراً بين البادية عن اسم الشيخ زايد . وزار الشيخ زايد
ابن سلطان آل نهيان في مجلسه بمدينة العين حيث يجلس هو ومن معه على الأرض
في حلقة ، ولباسهم جميعاً واحداً ولا تستطيع أن تعرف الشيخ إلا من هيئته ونظر
الجميع نحوه ومتابعة الشيخ في وقوفه لتحية القادمين وقيام الجميع معه(٦) .

جاء أول ذكر للشيخ رحمة بن مطر القاسمي مؤسس حلف القواسم في
الوثائق الهولندية عام ١٧١٨ كأحد قادة جيش الإمام سلطان بن سيف الثاني في
حصار قلعة هرمز . ففي فبراير من هذا العام كانت سفينة هولندية في طريقها من
بتافيا إلى بندر عباس . وعندما دخلت الخليج نفذت منها المواد الغذائية الطازجة .
وقرر بعض البحارة فيها أن يتوجهوا على مركب صغيرة إلى جزيرة لارك لتلبية
حاجاتهم ، وأوقفتهم سفينة مراقبة عمانية ظناً منهم أن هؤلاء الهولنديين يرتفعون .
ونقل هؤلاء البحارة إلى قيادتهم في جزيرة هرمز . وهذا وصف لمقابلة هؤلاء
البحارة الهولنديين لقادة الجيش العماني :

« حوالى الساعة الثامنة قادنا ذلك الكابتن وبعض الضباط

الآخرين إلى القائد العماني ، ومررنا بصف من الجنود عددهم

ألف جندي مسلح يحبون بيندياتهم . وذهبنا إلى مبنى قديم

شبه متهدم حيث شاهدنا رجلين جالسين على سجادة جميلة

يحملان السيوف والدروع وبدا لنا أنهما من الأعيان . ودعانا

الرجلان للجلوس على السجادة بجانبهما وسألانا عن جنسيتنا فأجبنا أننا من هولندا وأنا نخدم الوكالة الهولندية فى بندر عباس . وسألنا أحدهم عن الجهة التى قدمنا منها وأجبنا أنا قادمون من بتافيا ووجهتنا بندر عباس . ثم سألانا عن طريقة معاملتنا فى جزيرة لارك وأجبته أنها حسنة وأنا مدينون لهم بالشكر . ثم سألنى عن سبب قدومنا إلى لارك وأعطانا رسالة منهما إلى الوكيل الهولندى فى بندر عباس وسمح لنا بالمغادرة . ثم غادرنا ومررنا بصف من الجنود إلى حيث كان الكابتن . وهناك دعينا لتناول الغداء . وبعد الطعام غادرنا إلى مركبنا» (٧) .

ومن قراءة هذه الرسالة التى سلمت لهؤلاء البحارة الهولنديين يتضح أنها من القائد ناصر بن عبد الله الحبسى والشيخ رحمة بن مطر القاسمى وتقول هذه الرسالة:

« بعد التحية نؤكد لكم برسالتنا صداقتنا تجاهكم . أما من حيث احتجاز رجالنا للمركب الشراعى فى لارك وهى تحت حكم الأمام فقد حدث ذلك نتيجة لجهلهم تماماً ما إذا كان البحارة من الهولنديين أو الإنكليز أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الدنماركيين . وفور علمنا بأنهم هولنديون أطلقنا سراحهم وقد أمرنا الإمام أن نحترم الشركة الهولندية الموقرة فى جميع المسائل وعلينا الطاعة » (٨) .

وقد عاصر الشيخ رحمة بن مطر القاسمى الحرب الأهلية فى عمان التى اندلعت بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف العربى . وتزعم الشيخ رحمة قبائل

جلفار والظاهرة وإقليم الشميلية وانضم إلى الحزب الغافري في عام ١٧٢٣ . وقد كتب سرحان بن سعيد في مخطوطته كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة وهو معاصر لهذه الأحداث ما يلي في العام ١٧٢٣ :

« وأقام محمد بن ناصر بالرستاق وأشهر أن الأمام هو سيف ابن سلطان وهو مع ذلك غير بالغ الحلم . ووصل رحمة بن مطر بن رحمة الهولي بقدر خمسة آلاف من بدو وحضر ومنهم من لا يعرف العربية ولا يعرف صديقه من عدوه » .

ويتابع صاحب كشف الغمة حديثه عن نشاط الشيخ رحمة بن مطر القاسمي فيقول :

وكان خلف بن مبارك المعروف بالقصير قد قهر حصني بركا وعسكر فيه ومعه بنو هناة . فأمر محمد بن ناصر الغافري الجيش بالسير إلى بركا فسار رحمة بن مطر الهولي بقومه . وثم ورد كتاب من فرع الدرمكنى من بنى هناة إلى رحمة بن مطر يقول : إنك لا تصل إلينا فنحن واصلون إليك على سبيل التهديد . فلما قرأه رحمة وعرف معناه أمر بالسير إلى بركا . والتقاهم رحمة بمكان يسمى القاسم فوثب عليه قضيب الهولي عل فرس والقوم على أثره فقتل منهم عشرة رجال وانكسر أصحاب فرع وجرح قضيب جرحا هينا .

وسار رحمة بالقوم . ثم إنه بعث عيوننا فوجدوا خلف بن مبارك القصير قد طلع بقومه برا وبحرا بجيش لا يعلم عدده إلا الله . وكان عدد القوم الذين هم أصحاب محمد بن ناصر خمسة عشر ألف من بدو وحضر فالتقوا غربى بركا فوقعت

بينهم معركة عظيمة . وكانت عند أصحاب رحمة مدافع
فضربوا الخشب التى بالبحر وانكسر خلف بن مبارك
وأصحابه . ورجع رحمة إلى بلده «(٩) .

وقد ورد اسم الشيخ رحمة بن مطر أيضاً فى يوميات الشركة الهولندية
خلال شهر أكتوبر عام ١٧٢٨ أثناء قصة التنافس على امتلاك جزيرة هرمز نتيجة
الفوضى التى دبت على الساحل الإيراني لسقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ ، إذ
حدث تنافس لامتلاك جزيرة هرمز بين الشيخ رحمة بن مطر القاسمى والشركة
الهولندية والشركة الإنجليزية . تقول اليوميات الهولندية :

« أرسلنا جورج جوتشى مندوبنا للتفاوض حول حصولنا
على القلعة وجزيرة هرمز حسب إمكانيات الشركة والقضاء
على محاولة الإنجليز وقد حمل مندوبنا معه خاتم الشركة
والكثير من الهدايا . وجاءت طلقات المدافع من قلعة هرمز
ترحب بمقدمنا . وقد وجدنا هنالك إلى جانب مندوب الإنجليز
منافس آخر وهو الرجل الثرى الشيخ رحمة بن مطر الذى
يطمع فى الحصول على الجزيرة والقلعة . ويبدو أن أهل هرمز
لا يفضلون كثيراً مطالب الشيخ رحمة . ولقد علمت أن
الشيخ رحمة حاكم جلفار الغنى يحاول جاهداً لامتلاك
الجزيرة . وهو قادر على العطاء لأن هذا الرجل معروف أنه
من أكبر وأكثر التجار المحليين العرب »(١٠) .

وفى يوليو ١٧٣٦ جاء فى وثائق جمهرون نبأ وفاة الشيخ راشد فى باسيدو
وشاع خبر أن قوة من الفرس أرادوا القبض على زوجته الشيخة بيبي ومصادرة ما
لديها من حلى وأموال . وقد أغضب ذلك الخير القبائل العربية على الساحل

الفارسي والشيخ رحمة بن مطر . وكانت زوجة الشيخ راشد إمراة ذات إرادة وعقل راجح ولجأت إلى الشيخ رحمة بن مطر وغيره من شيوخ العرب . وقد جاءت السفن محملة برجال القبائل العربية وكثير من عرب جلفار لنجدتها وقد نجح تهريبها إلى جلفار (١١) .

وفى أثناء الحملة الفارسية التي أرسلها نادر شاه إلى عمان تلبية لطلب الإمام الشاب سيف بن سلطان الثاني عام ١٧٣٧ على أثر هزيمته أمام منافسه الإمام بلعرب بن حمير يظهر مرة أخرى اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمي زعيماً جمع القبائل في شمال عمان لمقاومة هذا الغزو الفارسي . وقد شغلت هذه الحملة الفترة ما بين عام ١٧٣٧ وحتى عام ١٧٤٧ . فى بداية عام ١٧٣٧ وصلت الحملة الفارسية إلى جلفار ولحق بها الإمام سيف بن سلطان الثاني . وقاوم الشيخ رحمة ابن مطر القاسمي القوات الفارسية ولكنه وقع أسيراً فى يدهم . ونقل إلى بندر عباس . وبعد فشل هذه الحملة أعيد الشيخ رحمة بن مطر إلى جلفار فى نهاية عام ١٧٣٨ (١٢) .

وقد غضبت عمان من تصرفات الإمام سيف بن سلطان الثاني الذى جلب على البلاد مصائب الغزو الفارسي . واختار العلماء وزعماء القبائل إماماً جديداً هو سلطان بن مرشد اليعربى فى عام ١٧٣٨ . وحاول نادر شاه فى عام ١٧٤٠ إرسال حملة فارسية أخرى إلى عمان ولكن ثورة البحارة العرب فى أسطوله فى بندر عباس فى هذا العام حالت دون قيامه بهذه الحملة . وقد تطلب إخماد هذه الثورة العريية فى البحرية الفارسية عاماً كاملاً . وقد أرسل قادة هذه الثورة قباطنة السفن الفارسية العرب رسالة إلى الوكيل الإنجليزى فى بندر عباس وهم رحمة بن شاهين وإبراهيم بن على ومحمد بن عبد الله يحذرون الإنجليز فيها من المشاركة بمراكبهم فى إخماد ثورتهم حسب طلب السلطات الفارسية . وهدد هؤلاء

الشيوخ العرب الإنجليز بما سيصيب سفنهم وتجارتهم من خسران . وبدأ نادر شاه فى عام ١٧٤٢ يعد أسطولاً جديداً لتحقيق أحلامه فى غزو عمان . اشترى بعض قطعة من الشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . وبنى القطعة الأخرى فى ميناء بوشهر بعد أن جلب لها الأخشاب من جبال بحر قزوين على بعد ألف كيلو متر (١٣) .

وفى فبراير عام ١٧٤٢ حاصر الإمام سلطان بن مرشد الشاب سيف بن سلطان الثانى فى قلعة مسقط . وهرب سيف بن سلطان . ومرة أخرى اتجه إلى نادر شاه يستنجد به . وكان قد تم انجاز بناء الأسطول البحرى الفارسى الجديد فى الخليج ، ووصلت قوات الحملة الجديدة إلى جلفار . وبعد مقاومة من قبائل الظاهرة والشيخ رحمة بن مطر القاسمى لهذه الحملة لجأ الشيخ رحمة بن مطر إلى المرتفعات فى منطقة روس الجبال (١٢) . وظهرت شخصية الوالى أحمد بن سعيد فى الدفاع عن مدينة صحار وقد استشهد الإمام سلطان بن مرشد فى عام ١٧٤٣ وهو يحاول فك الحصار عن قلعة صحار . وتمكن الوالى أحمد بن سعيد من تحرير مسقط عام ١٧٤٦ وخرجت بقايا الحملة الفارسية من عمان نهائياً فى أغسطس ١٧٤٧ بعد أن جاءت أنباء اغتيال نادر شاه فى يونيو ١٧٤٧ .

وبرز أثناء كفاح عمان ضد هذه القوات الفارسية زعيمان الأول أحمد بن سعيد والى صحار ، كما برز اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حاكم جلفار وبطل المقاومة فيها . ومنذ عام ١٧٤٩ طمح الوالى أحمد بن سعيد وقد خضعت له القبائل فى ساحل الباطنة ومسقط ، وبعد أن اختفى من مسرح الحياة السياسية فى عمان الإمام سيف بن سلطان الثانى والإمام سلطان بن مرشد ، فى أن يحكم عمان . وبدأ سلسلة من الحملات لتوسيع نفوذه وسلطته وإخضاع القبائل لحكمه . ولكن برزت أمامه عقبتان كبيرتان الأولى رفض الشيخ رحمة بن مطر القاسمى

الخضوع لزعامته ورغبة الشيخ رحمة وقادة حلفه فى الاستقلال . والثانية وجود الإمام بلعرب بن حمير فى نزوى . وكانت معركة البثنة فى الخمسينات فى وادى حام قرب الفجيرة حاسمة فى حصول حلف القواسم على استقلال . وبدأت مرحلة جديدة فى التاريخ العمانى . وقضت هذه المعركة على آمال أحمد بن سعيد فى توحيد عمان كما كان الحال أيام مجد دولة اليعاربة . وقد سجل هذه المعركة المؤرخ العمانى ابن رزىق فى مخطوطته الفتح المبين إذ يقول :

« ولما انتظم سلك عمان للإمام الحميد أحمد بن سعيد غاظ النزارية شأنه ، فمضى أكابر اليعاقب إلى بلعرب بن حمير اليعربى وهو يومئذ ببلدة البزلى من القاهرة وقالوا له لم تركت هذا الأمر لغيركم وقد جالدت عليه سيف بن سلطان اليعربى والإمام سلطان بن مرشد وهما أقرب الناس إليك نسباً . فما برحوا يترددون عليه وهو يماطلهم حتى وقعت بين الإمام أحمد بن سعيد وأهل الصير ملحمة عظيمة بالبثنة . وذلك أن أهل الصير أجمعوا على حرب الإمام أحمد بن سعيد فحشدوا خلقاً كثيراً وأرادوا أن يهجموا على صحار ، فالتقاهم الإمام أحمد بن سعيد بمن معه من الجند فكانت الملحمة بينهم بالبثنة ثم رجع أهل الصير إلى الصير . ورجع عسكر الإمام إلى صحار » (١٤) .

وتركزت همه الوالى أحمد بن سعيد الآن بعد هزيمته أمام القواسم واستقلالهم عنه فى التغلب على وجود الإمام بلعرب بن حمير . وقد حسم الموقف معركة فرق عام ١٧٥٣ فى نزوى . وقتل الإمام بلعرب بن حمير . واجتمع العلماء وشيوخ القبائل وأعلنوا محرر عمان من الفوضى ومن الغزوة الفارسية أحمد بن سعيد إماماً على عمان .

أعقب مقتل نادر شاه حالة من الفوضى في إيران . وتنازعوا على الحكم وفي ظل هذه الفوضى تنازع النفوذ في إقليم فارس منذ عام ١٧٥١ شخصيتان هما كريم خان زند في شیراز وناصر خان في إقليم لار . وكان الوضع في بندر عباس وما حولها قلقاً . وسيطر قائد بحرية نادر شاه ملا علي شاه علي بندر عباس وهو عربي من ميناء كنج . واصبح في حوزته أكبر قوة بحرية في الخليج . كما استقلت القبائل العربية على الساحل الإيراني بشؤونها . ومن هذه القبائل بني معين في جزيرة الجسم وآل علي في شارك وجزيرة قيس . والقواسم في لنجة ودوان وبستانه وشيغوه . وبني حماد في نخليوه ومقام ومرباغ قلعة وجزيرة الشيخ شعيب . أما قبيلة العبيد لي فكان نفوذها في شبكوه وشيغوه وعرمكي وشيروه والشيخ . وكان المرازيق في موغوه وبستانه وجزيرة فارور . وسيطرت قبيلة النصور في طاهري وكنجون . وتغلبت قبيلة الحرم في عسيلوه وناباند . وكان آلبوفلاسة من بني ياس في جزيرة هنجام . وفي ميناء بوشهر سيطرت قبيلة المطاريش العمانية . وفي شمالها تغلب شيخ من الزعاب علي بندر رج . وقد وصف هذه القبائل العربية الوكيل الهولندي كنيهاوزن بعد ما استقر به المقام في جزيرة خارج عام ١٧٥٦ وشرح قتلها فيما بينها وقال أن هذه القبائل العربية لو اتحدت فيما بينها لتمكنت من أن تعيد سيطرة العرب على الساحل الإيراني كاملة كما كان العهد أيام مملكة هرمز العربية .

وفي أثناء هذا الصراع على السلطة في الجزر ومنطقة بندر عباس ألقى الشيخ رحمة بن مطر بثقله في تأييد ملا علي شاه ضد عدوه ناصر خان في لار . وتزوج في عام ١٧٥١ من ابنته . بينما وقفت قبيلة بني معين في جزيرة الجسم بقيادة عبد الشيخ إلى جانب ناصر خان حاكم لار . وكان عبد الشيخ ضابط بحري سابق وأحد قادة التمرد العربي في القوة البحرية الفارسية عام ١٧٤٠ أيام نادر شاه بسبب الحملة الفارسية على عمان .

وفى عام ١٧٥٥ كتب الوكيل الهولندى كنيهاوزن من جزيرة خارج معلومات عن الشيخ رحمة بن مطر وقال :

«منذ عامين قام الشيخ رحمة بمساعدة ملا على شاه أدميرال
جمبرون الذى ينتسب إليه بالزواج من ابنته . وقد تغلبوا
على ميناء لفت فى جزيرة الجسم وكان هذا الميناء فى يد
بنى معين منذ أيام نادر شاه . وقد قاوم بنى معين ستة أشهر
ولم يستسلموا إلا بعد موت شيخهم المفاجئ على
الشيخ» (١٥).

وقد ساعد ملا على شاه بأسطوله الشيخ رحمة بن مطر عام ١٧٥٨ حينما
هاجم الإمام أحمد بن سعيد القواسم فى ميناء دبا .

وكانت آخر أخبار الشيخ رحمة بن مطر فى يناير ١٧٦٠ حينما غضب من
زواج أحد بنات ملا على شاه من ملا حسين . احتل الشيخ رحمة جزيرة هرمز
وقلعتها لمدة ١٤ يوما وأخذ ما يقارب من ١٢ ألف روبية من قلعتها . وكان لهذا
النزاع بين الحليفين أثره المباشر إذ أن أهل هرمز نتيجة تقدم خان لار وانتصاراته
فى بندر عباس سلموا قلعة هرمز لأخية جعفر خان . وقبض جعفر خان فى شهر
فبراير ١٧٦٠ على ملا على شاه .

وحدث صراع فى الجزر بين القواسم وبنى معين . وحاصرت فى شهر
مارس ١٧٦٠ قبيلة معين يساعدها آل على فى شارك قلعة لفت فى جزيرة
الجسم . وكانت هذه القلعة فى يد الشيخ رحمة بن مطر . وأخذ عرب جلفار
المركب رومانيا أقوى قطع أسطول ملا على شاه وهاجموا بها عرب بنى معين فى
جزيرة الجسم . وجرت معركة بين المتصارعين فى مياه لنجة (١٦) .

وهنا وسط هذه الاضطرابات يختفى اسم الشيخ رحمة بن مطر من مسرح الأحداث ويظهر اسم أخيه الشيخ راشد بن مطر فى رئاسة حلف القواسم . ولكن يظهر فى ١٨ سبتمبر ١٧٦١ اسم الشيخ رحمة بن مطر فى يوميات جمبرون الإنجليزية وأنه قد وصل فى هذا اليوم إلى بندر لنجة .

مدينة رأس الخيمة الناشئة :

ذكر أحمد بن ماجد مدينة رأس الخيمة كأحد بنادر الخليج فى أرجوزته المشهورة بنادر خليج فارس فى القرن الخامس عشر . ولكنها لم تكن عامرة ولا مسكونة . وعاشت قرية بسيطة فى ظل جلفار . وبعد أن دارت معارك كثيرة حول جلفار أيام قيام دولة اليعاربة لطرد البرتغال منها وطرد الفرس الذين حاولوا احتلالها أيام نادر شاه فى الفترة ما بين ١٦٢٢ و ١٦٣٣ ، وكذلك المعارك التى دارت حولها أيام غزوة نادر شاه على عمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ تحطمت أسوارها وقلعتها . وهدمت بيوتها . وبدأت هجرة القبائل العربية سواء الوافدة من الساحل الإيرانى أو القادمة من عمان ونجد إلى جلفار تتخذ من مدينة رأس الخيمة الواقعة جنوب جلفار مقراً لها . وسرعان ما زاد العمران فيها حينما اتخذها الشيخ رحمة بن مطر القاسمى عاصمة لحلف القواسم . وقد بنيت المدينة الجديدة من حجارة أنقاض جلفار التاريخية التى بدأت تختفى معالمها . وظهر فى رأس الخيمة ميناء جديد صالح لرسو السفن فى خورها . وقد أطلق الهولنديون على هذه المدينة الناشئة أول الأمر فى عهد الشيخ رحمة بن مطر اسم صير . والواقع أن الصير اسم المنطقة التى تقع فيها مدينة رأس الخيمة . وقد كتب الوكيل الهولندى عام ١٧٥٦ كتيهاوزن يصف مدينة الصير :

« الصير مدينة كبيرة محصنة بطريقة محلية وبها بعض قطع

المدافع . وتسكنها قبيلة من الهولة تدعى القواسم وكانوا فى

الماضى تابعين لإمام مسقط ولكنهم الآن لا يعتنون بنفوذه .
وقد قام الإمام بعدة حملات ضدهم لإخضاعهم ولكن دون
جدوى ولم يستطع التغلب على الشيخ المسمى كايد او رحمة
ابن مطر . ويعتبر هذا الشيخ أقوى شيوخ الهولة ولديه ٤٠٠
رجل مسلح بالبنادق فى الصير التى لديها ميناء تجدد فيه السفن
الكبيرة مرساها . وبالميناء ٦٠ سفينة أغلبها كبيرة ومجهزة
للسفر إلى مخا . ويوجد فى الصير تجارة رائجة وكذلك
التعامل فى اللؤلؤ وأنواع التجارة المطلوبة لدى البدو فى
الصحراء» (١٧) .

وبدأت المدينة الجديدة رأس الخيمة تفرض اسمها فى عهد الشيخ صقر بن
راشد . وجاء أول ذكر لها فى وثائق حكومة بومباى البريطانية فى عام ١٧٩٧ .
وقد كتبت على نحو بدائى لأول مرة Razil Khima (١٨) .

وانتشر اسم المدينة الناشئة وجاء أسمها لأول مرة فى الوثائق البريطانية
فى عام ١٧٩٧ . وذاع اسم رأس الخيمة فى التاريخ العربى الحديث لارتباطها
بالقواسم بعد اعتناقهم مذهب أهل السلف الوهابى وترصدهم للسفن
البريطانية عند مدخل الخليج وتعرض هذه المدينة بعد ذلك لهجمات الحملات
البريطانية وخاصة الحملة الضخمة عام ١٨١٩ التى حطمت قلعتها وأسوارها
ومبانيها وأشعلت فيها النيران .

الهوامش

- (1) Penelope Tuson, The Records of the British Residency and Agencies in the Persian Gulf, London 1979, pp. 173 - 174 .
- (2) B. J. Slot, The Arabs of the Gulf 1602 - 1784, Leidschendam, The Netherlands, second edition 1995, p. 425.
- (3) ARA (Dutch General State Archives) VOC (Archives of the Dutch East India Company, Vol.1113, Fol. 214 - 229.
- (4) Portugeuse Archives, Tore De Tombo, Lisbon, ANTT Moncoes, livro59, Fol. 88, Muscat 30 October 1648.
- (5) ARA, VOC, Vol 1288, Fol. 441-442.
- (6) Thesiger, W., Arabian Sands, London 1960. p. 220.
- (7) ARA, VOC, Vol 1913, Fol.442-443.
- (8) Ibid, vol. 1913, Fol. 437 - 438.

(٩) سرحان بن سعيد ، مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، نسخة المكتبة
الظاهرية - دمشق ، ص .

- (10) ARA, VOC, Vol 2114, Fol.3558.
- (11) Ibid, vol. 2416, Fol. 1389-1392.
- (12) IOR, (India Office Records, London), EGD Vol.4, p. 3- 5. 1737
& Vol. 23, p. 2 1738.
- (13) Lockhart L., Nadir Shah, London 1938, p. 216.

(١٤) حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين فى سيرة السادة آلإوسعيدين ١٢٧٥
(١٨٥٨) تحقيق محمد مرسى وعبد المنعم عامر الطبعة الرابعة ص ٣٢٤ .

- (15) ARA, VOC, Vol 2468, Fol.12.
- (16) IOR, EGD 18-1, 1760.
- (17) ARA, VOC, Vol 1304, Fol.383.
- (18) IOR, EGD, 29-23, 1797.

سياسة ألمانيا تجاه الشريف حسين

في الحرب العالمية الأولى

د. وجيه عبد الصادق عتيق(*)

ربما من المفيد للباحثين في تاريخ العرب الحديث والمعاصر التعرف على الوجه الآخر لعلاقة الشريف حسين بالقوى المتصارعة في الحرب العالمية الأولى . وتكشف لنا الوثائق الألمانية خبايا علاقة الألمان بالشريف حسين خلال سنوات تلك الحرب كما تكشف عن ملامح سياستهم تجاهه . ومن دراسة وتحليل هذه الوثائق، يتبين لنا أن الألمان أخذوا يلتفتون بجدية إلى أهمية زعماء نجد والحجاز بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة أسابيع . أما قبل ذلك ، فلم يضع سياستهم في حساباتهم أن هؤلاء الزعماء في استطاعتهم أن يلعبوا أدواراً مساعدة أو حيوية في حسم أى صراع قد ينشب بين القوى الدولية ، ويعد هذا في الواقع خطأً استراتيجياً ارتكبه الساسة الألمان منذ البداية في حق أنفسهم عند وضع خطط احتمالات نشوب الحرب مع دول الوفاق . وأغلب الظن أن هذا الخطأ جاء نتيجة تصور خاطئ آخر تكون لدى القيادة الألمانية آنذاك وانتشر على نطاق واسع مفاده أن قوة ألمانيا الحربية قادرة على ردع أعدائها ، وفي إمكانها على وجه السرعة حسم الأزمات الطارئة التي قد تنشعب بينها وبين هؤلاء الأعداء من دول الوفاق ، وأن هذه الأزمات لو نشبت فسوف تنحصر داخل القارة الأوروبية ، ولن تتحول إلى حرب كونية واسعة النطاق ، يلجأ كل طرف فيها لاستقطاب القوى المحلية الصغيرة ضد الطرف الآخر .

وحتى عندما التفت الألمان إلى أهمية زعماء نجد والحجاز ، فقد جاء التفاتهم هذا من خلال حرصهم على إقحام الدولة العثمانية للدخول في الحرب بجانبهم ، ومن منطلق المحافظة على أملاك هذه الدولة ونفوذها في الشام ونجد

(*) الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

والحجاز . أى أن هذا الالتفات لم يكن عملاً هجومياً أو مبادرة يقطعون بها الطريق على أعدائهم بقدر ما كان عملاً دفاعياً قصد به الحيلولة دون انهيار الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب إلى جانبهم ، ومتابعة لتحركات زعماء نجد والحجاز سواء أكانت ضد بعضهم البعض أو ضد العثمانيين . كما أن هذا الالتفات من جانب الألمان لم يبلغ حد العمل على الاستعانة بقدرات هؤلاء الزعماء المحليين فى الثورة على أعدائهم وطرد الإنجليز من الكويت والساحل المهادن وعدن فى وقت مبكر من قيام الحرب .

وتذكر ملفات وزارة الخارجية الألمانية أن أول التفات من جانب حكومة ألمانيا لزعماء نجد والحجاز فى الحرب حدث فى أواخر أغسطس ١٩١٤ م . ويعود الفضل فى هذا إلى فنجنهايم Wangenheim سفير ألمانيا فى العاصمة التركية ، الذى نصح حكومته بالتقرب من زعماء المشرق العربى وكبار رجال العشائر فى الشام عن طريق تقديم الهدايا والرشاوى ، حتى يمتنع هؤلاء الزعماء عن عرقلة إعداد الحملة التركية على مصر . كما يعود الفضل إلى فنجنهايم فى لفت أنظار حكومته إلى أهمية أشرف الحجاز بصفة خاصة ، لما يحتلونه من مكانة دينية رفيعة فى نفوس المسلمين . واستأذن فنجنهايم حكومته فى أواخر أغسطس فى أن يستقبل بمقر عمله فى استنبول عدداً من أشرف الحجاز الذين وصلوا من الحجاز فى زيارة للعاصمة التركية . وفى ٣٠ أغسطس ١٩١٤ م استدعى فنجنهايم - بعد موافقة حكومته على ذلك - هؤلاء الأشراف وأهداهم باسم الإمبراطور مبالغ متساوية من المال ، مقابل تعهدهم بتأييد ألمانيا وتركيا فى مناهضة الإنجليز (١) .

وفى الحقيقة ، جاء اهتمام الألمان بهؤلاء الأشراف فى إطار الاهتمام العام بزعماء المشرق العربى . ولم يكن هناك فى البداية اهتماماً خاصاً بمنطقة محددة أو بشخصية بعينها . ولم يبدأ هذا الاهتمام فى التحول من العام إلى الخاص إلا منذ النصف الأول من شهر سبتمبر ١٩١٤ م ، عندما اقترح أحد المستشرقين الألمان العارفين بشئون المشرق العربى على حكومته أن توجه عنايتها إلى استقطاب

الشريف حسين . واقترح هذا المستشرق أن تضغط حكومته على الدولة العثمانية لكي تعين الشريف حسين في منصب شيخ الإسلام لما يمثله هذا الشريف من خلال مكانته الدينية من خطر على الخليفة العثماني إذا نجحت بريطانيا في تجنيده لصفها ضد الدولة العثمانية . وكعادة الخارجية الألمانية كانت تبعث بمثل هذه المقترحات إلى خبراءها المختصين لدراستها وتقديم رأيهم فيها .

وبعثت الخارجية تسأل البارون ماكس فون أوبنهايم Max Von Oppenheim رئيس الوكالة الألمانية لاستخبارات الشرق حول جدوى الأخذ باقتراح تعيين الشريف حسين في منصب شيخ الإسلام . وفي ١٤ سبتمبر رد أوبنهايم في تقرير مطول رافضاً ذلك الاقتراح بحجة أن هذا سوف يغضب الأتراك كثيراً ، وبحجة عدم وجود حاجة لكسب الشريف حسين بهذه الوسيلة في ذلك الوقت المبكر من الحرب . وقدم أوبنهايم بدلاً من ذلك اقتراحاً مضاداً يدعو لتقوية مركز الخليفة في العالم الإسلامي من خلال حملة دعائية موسعة ، معتبراً أن هذا وحده كفيل بتحقيق الاستقرار للدولة العثمانية في المشرق العربي (٢) .

وفي تقديرنا فإن رفض أوبنهايم تأييد فكرة تعيين الشريف حسين في ذلك المنصب يدعونا للشك في إخلاص ذلك الرجل للإمبراطورية الألمانية . إذ أن موقفه هذا أضاع على الأتراك والألمان فرصة ثمينة لكسب الشريف لصفهم في هذه المرحلة من الحرب ، كما أضاع هذا الموقف فرصة ذهبية على الأتراك والألمان لقطع الطريق على محاولات الإنجليز الرامية للتقرب من الشريف حسين . ومما يدعونا للشك في إخلاص أوبنهايم أن وزارة الخارجية الألمانية ، بناء على رفضه لذلك الاقتراح ، أغلقت تماماً باب الحديث فيه ، وبدلاً من ذلك راحت تبحث في مشروع كان أوبنهايم نفسه يروج له بقوة داخل أروقة هذه الوزارة ، ويدعو هذا المشروع إلى قيام ألمانيا بحملة دعائية على نفقتها لتقوية مركز الخليفة العثماني في العالم الإسلامي . وعلى هامش تقرير أوبنهايم خط وكيل وزارة الخارجية الألمانية تسمرمان Zimmermann بقلمه يقول : « أوافق على اقتراح السيد أوبنهايم الخاص

بالحملة الدعائية «(٣)». وبذلك يكون أوبنهايم قد نجح فى توجيه مثل هذا القرار الخاص بسياسة ألمانيا تجاه الدولة العثمانية والمشرق العربى فى تلك الظروف الدقيقة الوجهة التى كان يريد لها لنفسه ، حيث كان يتطلع لأن يتولى بنفسه الإشراف من الشام على هذه الحملة الدعائية ، الأمر الذى تحقق له فيما بعد كما سيتضح لنا .

إلا أن آراء ومقترحات أوبنهايم كانت تجد فى بعض الأحيان من يفندوها من بين المسئولين الألمان العارفين بشئون الدولة العثمانية والمشرق العربى . وكان البارون فنجنهايم سفير ألمانيا فى تركيا والجنرال ليتمان فون ساندرس رئيس البعثة العسكرية الألمانية فى الجيش العثمانى على رأس هؤلاء المسئولين الذين عارضوا كثيراً توجهات أوبنهايم . إذ كان من رأيهم ، عندما علموا باقتراح أوبنهايم ، أنه ليس من الحكمة تجاهل سيد الحجاز ، فى الوقت الذى يجرى فيه إعداد الحملة التركية على مصر على قدم وساق فى الشام . واقترح فون ساندرس على حكومته أن ترسل إلى العقيد كريس رئيس هيئة أركان الحملة التركية فى الشام عددا من القلادات والأوسمة الألمانية التى هى من الذهب الخالص لكى يتم توزيعها باسم إمبراطور ألمانيا على كبار الزعماء العرب وفى مقدمتهم الشريف حسين (٤) .

وكان ياجوف Ygow وزير خارجية ألمانيا يتوقع أن يرفض هؤلاء الزعماء الأوسمة والقلادات الألمانية ، خاصة وأنها جميعاً كانت تحمل شكل الصليب . وراح يستفسر من فون ساندرس صاحب الاقتراح فى برقية عاجلة حول ذلك الأمر . إلا أن ياجوف فوجئ برد يأتیه يؤكد أن هؤلاء الزعماء لن ييالوا بما هو منقوش على هذه الأوسمة والقلادات بقدر ما يحرصون على إمتلاكها ذهباً (٥) .

ومن الواضح أن الحكومة الألمانية كانت حتى أواخر أكتوبر ١٩١٤ م تفتقر لاستراتيجية محددة المعالم لكى تتعامل من خلالها مع الشريف حسين وكبار زعماء المشرق العربى . بدليل أن وزارة الخارجية أخذت باقتراح أوبنهايم الداعى لحصر اهتمام ألمانيا بالمشرق العربى فى حدود اهتمامها بالرأى العام الإسلامى . وفى نفس الوقت أخذت باقتراح ليتمان فون ساندرس الداعى للاهتمام بالزعماء العرب

المحليين . ووافق الإمبراطور الألماني فى ١٤ نوفمبر ١٩١٤ م على منح هؤلاء الزعماء تلك الأوسمة والقلادات التى اقترحها فون ساندرس ، والتى تقرر أن يتسلمها العقيد كريس فى مقره بدمشق لكى يوزعها بنفسه عليهم نيابة عن الإمبراطور فيلهم الثانى (٦) .

ولقد حاولت وزارة الخارجية الألمانية حسم هذا التضارب ، الذى كان يعكس قلة خبرتها بالشئون العربية . وأرسلت فى أوائل نوفمبر ١٩١٤ م تستطلع رأى أحد مبعوثيها فى الشام فى كبار زعماء المشرق العربى . وفى مذكرة مطولة وصلت من دمشق إلى برلين فى أواخر شهر نوفمبر ذكر المبعوث بروفر Pruefer "أن الشريف حسين إنجليزى الميول حتى النخاع ، لكنه تحت السيطرة الآن بفضل سياسة الدولة العثمانية الحازمة معه" (٧) . وفى الحقيقة أحدث تقرير بروفر هذا حول الشريف حسين وميوله الإنجليزية ردوداً واسعة داخل وزارة الخارجية ، التى قررت - لكن بتكاسل مثير للدهشة - وضع خطة تعامل خاصة بالشريف بعيدة عن خطط التعامل مع الزعماء العرب الآخرين ، ومنفصلة كذلك عن مشاريع دعم مركز الخليفة العثمانى بين رأى العام الإسلامى .

ومرة أخرى كلفت الخارجية الألمانية أوبنهايم بوضع خطة عاجلة لاستقطاب الشريف حسين وإبعاده عن السقوط فى أحضان الإنجليز . وبدلاً من أن يمعن البارون أوبنهايم الفكر فى وضع خطة تعتمد على الاتصال المباشر بالشريف حسين وإغرائه بالابتعاد عن الإنجليز ، أو يجتهد فى صياغة عروض مجزية تفتح آفاق المستقبل أمام الشريف ونفوذه السياسى وتجعله يشعر بأن توسيع هذا النفوذ مرتبط بانتصار دول الوسط فى الحرب ، إذ بالبارون يضع خطة تقوم على وضع الشريف تحت المراقبة اللصيقة للسلطات الألمانية ورجال الوكالة الألمانية للاستخبارات التى يرأسها ، وذلك من خلال قنصلية ألمانية يتم إنشائها لهذا الغرض فى جدة . ورشح أوبنهايم من جانبه الأستاذ ليمان Prof. Dr. Littmann المستشرق بجامعة جوتنجن لتولى منصب القنصل ، كما رشح شخص مصرى

يدعى على أحمد عنانى ، كان يعمل مدرساً للغة العربية بجامعة برلين ، لكى يعاون ليتمان فى القيام بمهام واجباته الرسمية . أما بخصوص الجهاز الرقابى ، الذى كان من المفترض أن يتحرك تحت الغطاء الدبلوماسى فى تلك القنصلية ويبلغ الخارجية الألمانية أولاً بأول بكل ما يدور فى الحجاز ، فقد تولى أوبنهايم أيضاً ترشيحهم من بين رجاله (٨) . ولاقت خطة أوبنهايم عناية بعض كبار موظفى الخارجية الألمانية ، الذين عكفوا على دراستها لوضعها موضع التنفيذ عندما تحين الفرصة .

وتعكس الوثائق الألمانية التى تتعلق بتلك الفترة مدى انقسام المسئولين فى برلين عند وضع خطط السياسة الألمانية تجاه العرب . حيث انقسموا على أنفسهم على نحو يبين فى إختيار أفضل السبل المؤدية لإنجاح تلك السياسة . وقد برز هذا الانقسام عندما حذر فنجنهايم ، من خلال خبرته الواسعة بشئون الشرق ، حكومته من الإقدام على تحمل أعباء حملة الدعاية للخليفة العثمانى فى العالم الإسلامى ، راجياً ترك هذه المسألة للأتراك لكونهم مسلمين قادرين على التأثير فى أقرانهم من المسلمين أكثر من أى جهاز دعائى ألمانى آخر قد يثير نشاطه بينهم حفيظتهم ، ويتيح للأعداء فرص إفشال هذه الحملة ، ومن ثم إحداث نتائج عكسية (٩) .

وكاد فنجنهايم أن يكسب لوجهة نظره هذه فريقاً من كبار رجال الخارجية الألمانية المختصين بالشئون العربية . إلا أن فريقاً ثانياً داخل هذه الوزارة انبرى يدافع عن مشروع حملة الدعاية للخليفة ، مطالبين أن يبدأها القناصل الألمان فى القلس وبغداد دون أدنى تأخير ، كما طلب هذا الفريق فنجنهايم بأن يتدخل لدى السلطات التركية لكى ترفع أى قيود على تحركات العميل الألمانى بروفر فى الشام والجزيرة العربية (١٠) .

ولم يكن هذا الانقسام بين هذين الفريقين ، والصراع الخفى بين فنجنهايم وأوبنهايم ، سوى بعض من صور الضعف الذى اكتنف السياسة الألمانية تجاه الشرق العربى خلال تلك الفترة ، والتى أدت إلى ارتباك وتردد الحكومة الألمانية فى اتخاذ قرارات مصيرية فى أوقات كانت تتطلب سرعة الحسم . ولعل ما كان

يزيد من ارتباك الحكومة الألمانية فى المشرق العربى هو حساسية الموقف العثمانى داخل هذه المنطقة . والشعور بأن يد العملاء الألمان هناك مغلوله وتحت المراقبة من قبل السلطات العثمانية .

ثم أدى انشغال الألمان الشديد بترتيبات إعداد الحملة التركية على مصر فى الفترة الانتقالية بين عامى ١٩١٤ - ١٩١٥ م إلى تأجيل اتخاذ القرار المناسب فى مسألة القنصلية الألمانية فى جدة ، وكذلك إلى عدم التوصل لأفضل سبل التعامل مع الشريف حسين فى الوقت المناسب . حيث ساد لدى الكثير من الألمان اعتقاد بأن نجاح هذه الحملة فى طرد الإنجليز سوف ينهى مشاكلهم ومشاكل الدولة العثمانية فى المشرق العربى من جذورها(١١) .

إلا أن فشل هذه الحملة فى اجتياز قناة السويس وعودة قواتها مدحورة إلى الشام أوائل فبراير ١٩١٥ م ، ونجاح الإنجليز من قبل فى احتلال البصرة ، أصاب فجنهايم شخصياً بالكثير من الإحباط ، الذى دفعه بشكل مفاجئ إلى التسليم على مفضى بوجهات نظر أوبنهايم فى معالجة الوضع المتدهور فى المشرق العربى ، كما ترتب على هذا الإحباط علو كعب أوبنهايم ونظرياته فى أعين كبار المسئولين فى وزارة الخارجية الألمانية . وعندئذ وجدها أوبنهايم فرصة لأن يتقدم فى ٢ مارس ١٩١٥ بمشروع مفصل ، يقوم مرة أخرى على فكرة الحملة الدعائية فى العالم الإسلامى بأسره لمعالجة الوضع المتدهور للدولة العثمانية فى المشرق العربى ، والتصدى لمحاولات تقارب الإنجليز من الشريف حسين ، تلك المحاولات التى كان الألمان يشعرون بوجودها ، دون أن يعرفوا شيئاً عن مضمونها(١٢) .

وبالفعل استطاع أوبنهايم أن يدخل فى روع عدد لا بأس به من المسئولين الألمان أن مشروعه الدعائى واسع النطاق جدير بأنه يوقف ذلك التدهور الذى أخذ ينتشر فى أوساط رأى العام العربى فى أعقاب فشل الحملة التركية على مصر . ومن ثم قررت الحكومة الألمانية فى ١٥ مارس ١٩١٥ م الموافقة على ذهاب أوبنهايم على رأس بعثة من عدة أفراد إلى الشام ليمسك بزمام الحملة

الدعائية هناك ، واضعة تحت يده مبالغ طائلة من المال للإتفاق منها على هذه الحملة ، التى كان من المفترض أن تؤدى أيضاً - طبقاً لما وضعه أوبنهايم من تصورات - إلى نشوب ثورة عارمة فى أنحاء العالم الإسلامى فى وجه بريطانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا ، فى حالة إعلان هذه الأخيرة الحرب على ألمانيا . كما كان من المفترض أن تحول هذه الحملة الدعائية دون تقارب الشريف حسين مع الإنجليز . وبناء على هذا التصور الأخير حولت الحكومة الألمانية لأوبنهايم الاتصال المباشر بالشريف حسين ، كما أطلقت يده فى إجراء المباحثات التى يراها مناسبة معه (١٣) .

وبينما كان أوبنهايم يعد نفسه فى برلين للرحيل إلى الشام عاد وطرح مرة أخرى على المسئولين فى الخارجية الألمانية فكرة مراقبة الشريف حسين عن طريق إنشاء قنصلية ألمانية فى جدة . واقترح أوبنهايم هذه المرة أن يتولى منصب القنصل فيها أحد أعوانه من اليهود ويدعى بروبستر Proebster ، الذى كان من المفترض أن يقيم صداقة حميمة مع الشريف حسين ، وأن يبعث بتقارير مفصلة عن تحركات الشريف وصلاته أولاً بأول إلى الخارجية الألمانية عن طريق أوبنهايم فى الشام ثم عن طريق فنجنهايم فى استنبول .

إلا أن السلطات التركية عارضت فكرة إنشاء القنصلية الألمانية فى جدة فى ذلك الوقت ، خوفاً من أن يؤدى هذا العمل إلى إثارة غضب الشريف حسين ، أو أن يؤدى شعوره بالمراقبة من قبل الألمان إلى إثارته وإقدامه على الاتفاق مع الإنجليز . ومما لا شك فيه أيضاً أن فشل الحملة التركية على مصر وإرسال أوبنهايم وبعثته إلى الشام قد أدى إلى توتر العلاقة بين الأتراك والألمان . ففى أعقاب هذه التطورات عبر العديد من المسئولين الأتراك عن ضيق صدورهم من تدخل الألمان - من أمثال ليتمان فون ساندرس - فى شئونهم . كما ساورتهم شكوك بأن ألمانيا تسعى لإقامة علاقة مباشرة من خلف ظهورهم مع الزعماء المحليين فى المشرق العربى ، وأنها ربما تعمل ضد مصلحة الدولة العثمانية فى هذه

المنطقة . أو ربما تخطط لبسط سيطرتها على كل الأراضي العثمانية . وقد تولى أنور باشا مسئولية إبلاغ سفير ألمانيا في استنبول بفحوى تلك المخاوف ، حيث أبلغه في ٢ إبريل ١٩١٥ م باعتراض الحكومة التركية على قيام القناصل الألمان في الشام بالاتصال دون إذن من السلطات العثمانية بالزعماء المحليين للعرب ، كما أبلغه بمعارضة الحكومة العثمانية لافتتاح القنصلية الألمانية في جدة (١٤).

وقد أبدى فنجنهايم لحكومته تفهمه لمخاوف الأتراك ، وطلب منها الحد من نشاط أوبنهايم وبعثته المثيرة للجدل في الشام والحجاز . كما اقترح أن يشارك الأتراك بشكل مكثف في الحملة الدعائية في العالم الإسلامي ، وأن يقتصر دور أوبنهايم على التخطيط والإشراف ، وأن يبذل المسئولون الألمان كل ما في وسعهم لكي يبدو الأمر أمام الجميع وكأن ألمانيا وتركيا تعملان يد في يد (١٥) .

إلا أن أوبنهايم كان قد سار في تنفيذ خطته عدة خطوات إلى الأمام ، غير عابئ بمخاوف الأتراك . ونجح منذ أوائل مايو ١٩١٥ م في إقامة علاقة وطيدة مع الأمير فيصل بنجل الشريف حسين . وقد ساعده في هذا معرفته الشخصية بالشريف حسين نفسه . منذ أن كان الشريف يقيم في استنبول في أواخر عهد السلطان عبد الحميد . كما لعب أحمد شفيق باشا ، رئيس ديوان الخديوى عباس حلمي الثاني ، دوراً بارزاً في الإعداد للقاء الأول الذي جمع أوبنهايم بالأمير فيصل (١٦) .

وكان الشريف حسين قد بعث بابنه الأمير فيصل إلى استنبول في أوائل إبريل ١٩١٥ م لكي يزيل من نفوس المسئولين الأتراك أى شكوك من ناحيته ، وليؤكد على ولائه التام لهم . وتعد هذه مناورة ذكية من جانب الشريف ، أراد بها أن يغطي من ناحية علاقته القوية بالإنجليز وإقدامه على التآمر معهم ضد الأتراك ، كما أراد بها من ناحية أخرى أن يبعد الأتراك عن الاتفاق مع خصمه اللدود الشريف على حيدر ، الذي كان يتطلع لمنصب الشريف في مكة ، ويؤيده في هذا عدد من رجال الحكومة التركية . وفي تقديرنا أن الشريف حسين بعث بابنه إلى استنبول لكي يتحسس أيضاً ما عسى أن يقدمه الأتراك والألمان من

عروض قبل أن يعقد اتفاقه النهائي مع الإنجليز . ويبدو أن الشريف حسين نجح من خلال رحلة ابنه تلك في أن يخذع الجميع في إستنبول ، وأن يحسن من صورته كثيراً لدى الأتراك والألمان . فتقرير أوبنهايم مليء بعبارات الإطراء حول إخلاص الشريف حسين للأتراك والألمان ، ونفى أى علاقة له بالإنجليز ، إلى الحد الذى جعل فنجنهايم نفسه يعتقد أن العناصر التركية سيئة النية هى التى كانت تقف من وراء تلطيخ صورة الشريف حسين واتهامه بالعمالة للإنجليز (١٧) .

وبناء على طلب الأمير فيصل ، الذى كان يميل للتعاون مع الأتراك والألمان ، لعب أوبنهايم دوراً ملموساً فى الدفاع عن موقف الشريف حسين وإخلاصه لدول الوسط لدى رجال الحكومة التركية . كما لعب دوراً مشبوهاً فى تضليل المسئولين الألمان ، سواء فى استنبول أو برلين ، وتمكن من إقناع حكومته بأنه توصل مع الأمير فيصل إلى وضع أسس سليمة لعلاقة وطيدة بين الشريف حسين وكل من تركيا وألمانيا . خاصة وأنه فى لقائه الأول بالأمير فيصل فى ٨ مايو ١٩٢٥ م وفى حضور شفيق باشا كان قد توصل بالفعل إلى اتفاق حول دور الشريف حسين فى الدعاية ضد بريطانيا فى العالم الإسلامى (١٨) .

وبادر أوبنهايم بالتوسط للشريف حسين لدى أنور باشا لكى تقبل الدولة العثمانية تمويل مشروع وصفه بأنه ثورة عربية كبرى بقيادة الشريف ضد الإنجليز فى الخليج العربى . وفى ١٠ مايو ١٩١٥ م وقع الأمير فيصل نيابة عن والده مع أنور باشا على اتفاق آخر مكتوب فى ورقتين حول التعاون بين الشريف والدولة العثمانية فى ترتيب هذه الثورة . وطبقاً لنبود هذا الاتفاق كان على تركيا أن تتحمل التكاليف المالية التى يقررها الشريف للنهوض بالثورة ضد الإنجليز ، وأن تمدّه بالأسلحة والذخيرة اللازمة لذلك . مقابل أن يشارك الشريف فى أعمال الدعاية ضد دول الوفاق ، وأن يشارك فى إعلان الجهاد المقدس ضد أعداء الخليفة ، وأن يجند جيشاً من بدو الحجاز تحت قيادة أحد أبنائه لمهاجمة الإنجليز فى الخليج وقناة السويس (١٩) .

ونلاحظ هنا أن مشروع هذا الاتفاق كان لا يختلف كثيراً عن نفس الترتيبات التي كان الشريف يعدها مع الإنجليز للثورة على الأتراك . وربما أنه استخدم أسلحتهم التي أمدوه بها في أعقاب ذلك الاتفاق في الثورة عليهم وليس معهم . وساد لدى الأتراك والألمان اعتقاد بأن الشريف حسين أصبح رجلهم الأول في الجزيرة العربية ، وتصور أنور باشا نفسه أن عقد مثل ذلك الاتفاق مع الشريف حسين سوف يحول دون نجاح الإنجليز في العودة للتقرب منه مرة أخرى . ووعده أنور باشا الأمير فيصل بأن تكف الحكومة التركية تماماً عن التعاون مع المنافسين لوالده ، كما وعده بالعمل على منع الولاة الأتراك في جدة من التدخل في اختصاصات والده (٢٠) .

وفي لقاء ثان بين الأمير فيصل وأوبنهايم ، برر الأمير اتصال والده بالإنجليز بحاجته الملحة للمؤن والغلال التي تحضرها السفن الإنجليزية إلى موانئ الحجاز ، لتلبية حاجات رعايا الشريف . وعبر فيصل عن استعداد والده التام لقطع كل صلة له بالإنجليز في حالة تدبير احتياجات سكان الحجاز من الغلال والمواد الغذائية ، ووعده أوبنهايم بالنظر أيضاً في تلك المسألة (٢١) .

وإذا عقدنا مقارنة بين اتفاق الشريف حسين مع الأتراك والألمان من جانب ، واتفاقه مع الإنجليز من جانب آخر ، نجد الاتفاق الأول يفتقر لكل ما يشبع تطلعات الشريف . في حين أن الاتفاق الثاني كان مليئاً بكل الإغراءات التي يسعى إليها . وبذلك كان الإنجليز أكثر إدراكاً بما يحول في صدر الشريف حسين ، وقدموا له وعوداً براقية بمملكة واسعة في الأراضي الخاضعة للدولة العثمانية ، مقابل الثورة عليها . كما أن الأتراك والألمان حملوه في اتفاقهم معه الكثير من الأعباء والواجبات ، دون أن يقدموا له الأجر المناسب نظير القيام بهذه الأعباء وتلك الواجبات . وبذلك كان من الأحرى بالشريف حسين أن ينفذ يديه من اتفاق ابنه فيصل مع الأتراك والألمان . ويقطع صلته بهم ، ويتزعم الثورة عليهم بالاتفاق مع الإنجليز وبدعم منهم . في حين وقف أوبنهايم فارغ الفاه ، ومن خلفه كل المسئولين الألمان ، أمام أحداث تلك الثورة التي نشبت في الحجاز والشام ، والتي

كان من المفترض أن تتحرك فى اتجاهات أخرى ولحساب الأتراك والألمان وليس عليهم .

ومن هنا يتبين لنا أن نشوب هذه الثورة إنما يعود بالدرجة الأولى لأخطاء سياسة كل من ألمانيا وتركيا تجاه الشريف حسين والمشرق العربى ، تلك السياسة التى وجد الألمان فيها أنفسهم أسيرى مشروع الحملة الدعائية العقيم منذ البداية . كما لا نستبعد تفوق الأمير عبد الله نصير الإنجليز على شقيقه الأمير فيصل نصير الألمان فى التأثير على القرار النهائى الذى اتخذته الشريف حسين عندما أعلن الثورة على الدولة العثمانية .

الهوامش

(١) Das Auswaertige Amt Weltkrieg R 21123, A 19592, S. 49.

أرشفيف وزارة الخارجية الألمانية ، برقية رقم ٦٥٠ بتاريخ ٣٠ أغسطس من فنجنهايم إلى برلين .

(٢) A.A, R 21124, A 21910, S. 58.

تقرير بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩١٤ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٣) المصدر السابق .

لأسباب غامضة ، تعود لحجب أوراق أوبنهايم الخاصة في الأرشفيف الألماني عن الباحثين حتى عام ٢٠٠٥ ، كانت مقترحات آراء ذلك الرجل تلقى أذاناً صاغية في وزارة الخارجية الألمانية ، وهي الوزارة التي كانت ترسم سياسة ألمانيا تجاه المشرق العربي والدولة العثمانية في هذه الفترة . وينتمي أوبنهايم إلى الأسرة اليهودية الشهيرة بامتلاكها لعدد من بيوت المال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

(٤) A.A . R 21125, A 26829. S. 26.

برقية رقم ٢٩٧ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٥) Ebenda , A 27782, S. 27.

برقية رقم ١٠٨٤ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٦) Ebenda, A 30868, S. 103.

برقية رقم ٣٨٠ بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٧) Ebenda, A 32559, S 154.

تقرير بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩١٤ من بروفر إلى برلين .

(٨) A.A, R 21126, A 33263, S. 32 - 33.

تقرير رقم ٧٤ بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٤ من أوبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية .

(٩) Ebenda, A 33830, S. 60 - 61.

تقرير رقم ٢٩١ بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى المستشار الألماني .

- (١٠) Ebenda, A 34468, S. 106.
- برقية رقم ١٥٩١ بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى برلين . وقد اعترض فنجنهايم في برقيته هذه على السماح لبروفر بالتحرك دون قيود بين القرى والمدن العربية في الشام ، كما اعترض على العلاقة المباشرة بين بروفر وأوبنهايم .
- (١١) A.A. R 21126. A 35110, S. 151.
- تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وزير خارجية ألمانيا .
- (١٢) A.A. R 21129, A 7805, S. 63.
- تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وزير خارجية ألمانيا .
- (١٣) A.A. R 21130, A 9005, S. 2 - 8.
- مذكرة بتاريخ ١١ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية ، وقد سجل تسمرمان بخط يده على هامش هذا التقرير موافقته على مشروع أوبنهايم ، وتخويله سلطة الاتصال بالشريف حسين .
- (١٤) Ebenda . A 12291 , S 191 - 192.
- برقية رقم ٢١٠ بتاريخ ١٢ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .
- (١٥) A.A. R 21133, A 14495, S. 6.
- برقية رقم ٩٨٨ بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .
- (١٦) A.A. R 21133, A 18460, S. 90 - 105.
- تقرير مطول بتاريخ ٢٢ مايو ١٩١٥ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .
- (١٧) المصدر السابق ص ٨٧ ، وهي وثيقة تحمل رأى فنجنهايم الشخصى ومرفقة بتقرير أوبنهايم .
- (١٨) المصدر السابق ص ٩٧ .
- (١٩) المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩ .
- (٢٠) المصدر السابق ص ١٠١ .
- (٢١) المصدر السابق ص ١٠٢ .

رقم الإيداع ١٩٩٩/٦٥٤٩

الزهاء كمبيو سنتر

طباعة - نشر - إعلان

القاهرة - ت : ٢٩٦٠٦٦٧



Bibliotheca Alexandrina



0673074